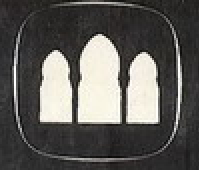


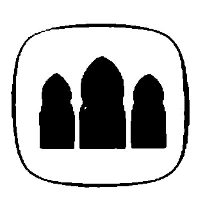
جامعة سيدي محمد بن عبد الله

منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس

أعمال ندوة



1988



جامعة سيدي محمد بن عبد الله
منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس

أعمال ندوة

الحاضرة الاسماعيلية

1988

المديـر : عبد الحميد لطفي
عميد الكلية

العنـــوان : كلية الآداب والعلوم الانسانية
ص. ب. : 4009 مكناس / المغـرب
الهاتف : (5) 245—83/29—249

ت.د.م.د : 0851—2086

رقـم الايـداع القانـوني
1988/524



أعمـــال
ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى

اللجنــة المنظمــة
لندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى

□ □
□

عبد الحميد لطفي

عبد الملك الرياحي

عبد السلام مشكوري

علال الحجام

عبد الرحمن بن زيدان

ادريس أبو ادريس

خالد أعمار

محمد مباشر يازغي

نعيمة قارا

□ □
□

ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى

البرنامـــج

□ □ □

اليوم الأول : الخميس 16 أكتوبر 1986

زوالا :

4 و00 د : الجلسة الافتتاحية

كلمة معالي وزير التربية الوطنية

كلمة السيد عميد الكلية

كلمة اللجنة المنظمة

وضع الحجر الأساسي للشطر الثاني للكلية

زيارة المعارض

حفل الاستقبال

المحور الأول : المحور الطبيعي والاقتصادي

الجلسة الأولى : برئاسة ذ. عبد اللطيف فضل الله

المقرر ذ. عبد السلام مشكوري

أولا : الجانب الطبيعي

5 و30 د : مكناس في بيئتها الطبيعية

ذ. ادريس الفاسي (ك.أ.ع.إ الرباط)

ثانيا : تنظيم المجال والهياكل الفلاحية في المنطقة الجنوبية الوسطى.

6 و10 د : المنطقة الجنوبية الوسطى : التهيئة الزراعية في بوادي الأطلس المتوسط

ذ. إديل عمر وذ. لحسن الجنان (ك.أ.ع.إ فاس).

6 و30 د : ملاحظات حول دور مدينة مكناس في تنظيم الجهة الوسطى الجنوبية.

ذ. محمد جرير (ك.أ.ع.إ ـــ المحمدية)

6 و50 د : السكن القروي في سايس مكناس
ذ. محمد مباشر اليازغي (ك.أ.ع.إ مكناس)
7 و10 د : استراحة
7 و25 د : مناقشة العروض
8 و5 د : اختتام الجلسة

اليوم الثاني : الجمعة 17 أكتوبر 1986

صباحا :

الجلسة الثانية برئاسة : ذ. محمد جرير
المقرر : ذ. محمد مباشر اليازغي

ثالثا : التمدين وتهيئة المجال الحضري

9 و0 د : التطور الحديث لسكان مكناس وظهيرها
ذ. عبد اللطيف فضل الله (ك.أ.ع.إ الرباط)
9 و20 د : بناء حمرية وتكون المجتمع الأوربي
ذ. رقية بلمقدم (م.ت.ج. مكناس)
9 و40 د : تنظيم المجال الصناعي بمكناس
ذ. عبد السلام مشكوري (ك.أ.ع.إ — مكناس)
10و00 د : اشكال العمران الذاتي بمدينة مكناس
ذ. مولاي الحسان والزويت (ك.أ.ع.إ.مكناس)

رابعا : الاقتصاد الحضري

10 20 : العلاقات بين القطاعات المنتجة بمكناس
ذ. محمد بولسفان (ك.أ.ع.إ.فاس)
10و40 د : البنيات التجارية بالمدينة القديمة بمكناس
ذ. خديجة مبروكي (ك.أ.ع.إ — فاس)
11 : نظرة موجزة عن الصناعة بإقليم مكناس
ذ. عبد الكريم نشيد (م.ج.ق — مكناس)
11و20 د : استراحة
11و35 د : الصناعة التقليدية من الحرفية الى التعاونية، مكناس نموذجا (بالفرنسية)
ذ. محمد عبده (ك.ع.ق.أ. فاس)
11و55 د : الحرف الصغيرة بمكناس: من أجل تعاونيات لليد العاملة (بالفرنسية)
ذ.محمد صلاح الدين (ك.ع.ق. أ. فاس)
12و15 د : مناقشة العروض :
اختتام الجلسة

المحور الثاني : الجانب التاريخي

الجلسة الثالثة برئاسة : ذ. محمد بنشريفة
المقرر : ذ. ادريس أبو ادريس

أولا : التاريخ القديم

3 و30 د : قبيلة المكنيتيين من خلال النقائش والنصوص الاغريقية والاتينية.
ذ. محمد مقدون (ك.أ.ع.إ. فاس)

3 و50 د : علاقة وليلي بباديتها في العهد الروماني
ذ. علي واحدي (ك.أ.ع.إ. فاس)

4 و10 د : التطور الحضاري لوليلي (285 م — 808 م)
ذ. عمار اكراز (محافظ وليلي)

4 و30 د : الاتحاف كمصدر من مصادر الدراسة الاركيولوجية وتاريخ الفن بمدينة مكناس
ذ. عبد العزيز توري (وزارة الشؤون الثقافية)

4 و50 د : مناقشة العروض

5 و15 د : استراحة

الجلسة الرابعة برئاسة : ذ. حسن بنحليمة
المقرر : ذ. ابراهيم القادري بوتشيش

ثانيا : التاريخ الوسيط :

5 و30 د : مدائن مكناس القديمة من الفتح الاسلامي الى نهاية عهد الموحدين
ذ. محمد المنوني (ك.أ.ع.إ. الرباط)

5 و50 د : علاقة مكناس بالاندلسيين والأندلسيين حتى نهاية العصر المريني.
ذ. محمد بنشريفة (ك.أ.ع.إ — الرباط)

6 و10 د : في التاريخ المونوغرافي : نموذج الروض المتون في اخبار مكناسة الزيتون
ذ. بنسالم حميش (ك.أ.ع.إ — الرباط)

6 و30 د : الوجود المغربي في المشرق من خلال «تراجم أعلام من مكناس في مصادرمشرقية».
ذ. حسن الصادقي (ك.أ.ع.إ.الرباط)

6 و50 د : مناقشة العروض

7 و30 د : اختتام الجلسة

اليوم الثالث : السبت 18 أكتوبر 1986

صباحا

الجلسة الخامسة برئاسة : ذ. بنسالم حميش
المقرر : ذ. العربي السهلي

ثالثا : التاريخ الحديث

9 : التواصل الثقافي بين الحاضرة الاسماعيلية والزاوية الشرقاوية
ذ. أحمد بوكاري (ك.أ.ع.إ. مراكش) .

9 و20 د : مساهمة علماء مكناس وفقهاؤها في حل مشاكل المجتمع المغربي مع بداية العصور الحديثة.
ذ. محمد مزين (ك.أ.ع.إ. فاس)

9 و40 د : رفع الالتباس عن وضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس (نهاية ق. 17 وبداية القرن 18)
ذ. ادريس أبو ادريس (ك.أ.ع.إ.مكناس)

10 د : مناقشة العروض

10و30 د : استراحة

الجلسة السادسة برئاسة : ذ. عبد العزيز توري
المقرر : ذ. بوشتى بوعسرية

رابعا : التاريخ المعاصر

10و45 د : التدابير العسكرية في مدينة مكناس خلال ق. 19
ذ. محمد اللحية (ك.أ.ع.إ. أكادير)

11و05 د : جوانب من مقاومة مدينة مكناس واحوازها للتدخل الفرنسي.
ذ. محمد البكراوي (ك.أ.ع.إ.فاس)

11و25 د : الانتفاضات الشعبية بمكناس : نموذج أحداث بوفكران 1937.
ذ. بوشتى بوعسرية (م.ت.ج. مكناس)

12و45 د : مناقشة العروض :

1 و15 د : اختتام الجلسة :

المحـور الثالث : الثقافة والفنـون والآداب

الجلسة السابعة برئاسة : ذ. علال الحجام
المقرر : ذ. عبد الرحمان بن زيدان

أولا : الثقافة في مكناس قديما وحديثا

3 و30 د : النشاط الثقافي بمدينة مكناس قديما وحديثا
ذ. محمد العرائشي (محافظ بخزانة الجامع الكبير مكناس) .

3 و50 د : الحركة الثقافية في مكناس خلال القرن. 12 هـ من خلال نماذج وأعلام.
ذ. علال معكول (ك.أ.ع.إ. ــ مكناس)

ثانيا : مكناس في الآداب والفنون :

أ ــ الفن التشكيلي

4 و10 د : فنان تشكيلي من مكناس : قراءة في أعمال محمد القاسمي
ذ. مليم العروسي (ثانوية محمد الخامس ــ البيضاء)

ب ــ صورة مكناس في الادب المغربي والأجنبي

4 و30 د : مكناس في الادب المغربي
ذ. عباس الجراري (ك.أ.ع.إ. الرباط)

4 و50 د : المدينة في المتخيل الشعري
ذ. بنعيسى بوحمالة (م.ع.أ. ــ مكناس)

5 و10 د : على هامش كتاب «في المغرب» لبيرلوتي (بالفرنسية)
ذ. جي دوجا (ك.أ.ع.إ ــ مكناس)

5 و30 د : مناقشة العروض :

6 و15 د : اختتام الجلسة

صباحا

الجلسة الثامنة برئاسة : ذ. عباس الجراري
المقرر : ذ. محمد الوالي

ثالثا : التصوف والفنون الشعبية

أ ــ التصوف :

9 د : الجدبة العيساوية والهيسترية
ذ. عبد الله زيويو (مستشفى الأمراض العقلية ببرشيد)

9 و20 د : بركة الشيخ الكامل
ذ. المليودي شغموم (ك.أ.ع.إ ــ مكناس)

9 و40 د : المأثورات الشعبية في كتب ابن زيدان
ذ. محمد بنعبد الجليل (ك.أ.ع.إ ــ مكناس)

10 د : وصف مكناس في شعر الملحون
ذ. أحمد العلوي الديبي (ثانوية النهضة ــ مكناس)

10و20 د : أعلام الموسيقى بمكناس (البوعصامي نموذجا).
ذ. عبد العزيز بنعبد الجليل (وزارة الشؤون الثقافية)

رابعا : الشعر الأمازيغي

10و40 د : شعر الأطلس المتوسط (بالفرنسية)
ذ. مايكل بيرون (ك.أ.ع.إ. الرباط)

11و00 د : الشعر الأمازيغي في الأطلس المتوسط (بالفرنسية)
ذ. محمد الطايفي (ك.أ.ع.إ. فاس)

11و20 د : مناقشة

12 : اختتام الجلسة

الجلسة التاسعة برئاسة : ذ. محمد الطايفي

المقرر : ذ. محمد الوادي

صباحا : ظواهر لغوية

3 و30 د : دور المتغير «السائد» في قلب اتجاه القواعد في الأمازيغية (بالفرنسية)
ذ. الجلالي السايب (ك.أ.ع.إ. — الرباط)

3 و50 د : التداخل اللهجي في مكناس
ذ. عبد العزيز العماري (ك.أ.ع.إ مكناس)

4 و10 د : مناقشة العروض

4 ، 55 د : اختتام الجلسة

بعد الزوال

الجلسة الاختتامية

التقرير العلمي العام

كلمة المشاركين

كلمة السيد العميد

برنامج الموائد المستديرة

المائدة المستديرة الأولى

الجمعة 17 أكتوبر 1986 في الساعة 10 صباحا

الموضوع : شعر الملحون في مدينة مكناس

برئاسة : ذ. عبد العزيز بنعبد الجليل

المقرر : ذ. حسن البحراوي

المشاركون :

- ذ. عبد العزيز بنعبد الجليل
- ذ. حسن البحراوي
- ذ. أمين العلوي الديبي

المائدة المستديرة الثانية

الجمعة 17 أكتوبر 1986 في الساعة 10 صباحا

الموضوع : ظواهر لغوية

برئاسة : ذ. ميلود الطائفي

المقرر : ذ. موحى الناجي

المشاركون :

- ذ. ميلود الطائفي
- ذ. موحى الناجي
- ذ. فاطمة صدقي
- ذ. جميلة الكيلاني
- ذ. محمد الوادي
- ذ. الطاهر برادة
- ذ. حسين الوزاني
- ذ. عبد السلام مشكوري
- ذ. أحمد السعدي
- ذ. محمد اليازغي مباشر
- ذ. محمد بناني

المائدة المستديرة الرابعة

الأحد 19 أكتوبر في الساعة 10 صباحا

الموضوع : المصادر الأجنبية في كتابة تاريخ المغرب ومدينة مكناس

برئاسة : ذ. محمد صلاح الدين

المقرر : ذ. بوشتى بوعسرية

المشاركون :

- ذ. محمد بوكاري
- ذ. أحمد السعدي
- ذ. محمد صلاح الدين
- ذ. العربي السهلي
- ذ. بوشتى بوعسرية
- ذ. محمد اللحية
- ذ. محمد مقدون
- ذ. علي واحدي
- ذ. ادريس أبو ادريس
- ذ. ابراهيم القادري بوتشيش

---

(1) انظر ثبت المؤسسات ومختزلاتها في نهاية البرنامج

(2) تعقد جلسات الموائد المستديرة بجناح الزياني القاعة 3 واليوسي القاعة 4.

(3) من الممكن أن تكون مائدة ظواهر لغوية على شكل معمل لغوي.

ثبت المؤسسات ومختزلاتها

ك.أ.ع.إ : كلية الاداب والعلوم الانسانية
م.ع.إ : المدرسة العليا للاساتذة
م.ت.ج. : المركز التربوي الجهوي
م.ج.ت : المندوبية الجهوية للتخطيط
ك.ع.ق.ق.أ : كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

من حسنات "ندوة الحاضرة الإسماعيلية الكبرى"، أنها خلفت رصيدا من الدراسات التي تغطي جوانب من تاريخ مكناسة حاضرا وغابرا، وذلك ما يقدمه هذا الكتاب وهو يستوعب مساهمات الندوة، فتتنوع موضوعاتها، وتتناول واقع الاقتصاد والبيئة بالمنطقة، إلى أبحاث عن تاريخ المدينة وأصول السكان، إلى الحياة المعرفية ومجتمع مكناسة وآدابها وفنونها.

ومن حسن حظ هذه التظاهرة أن شارك في عروضها نخبة من الأساتذة الملاحين، بينهم جامعيون من كليات الآداب بالرباط وفاس ومراكش وأكادير ومكناس، ومن كلية العلوم بفاس.

وبذلك سجلت الندوة إضافة جديدة لتاريخ الحاضرة الإسماعيلية، فتعزز أعمال كل من ابن غازي وابن زيدان، ثم تكمل معطيات الدراسات الجامعية الحديثة للمنطقة، مما حقق لهذه المبادرة نجاحا هاما في تجربتها الأولى.

ومن هذه النتيجة فإن "كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بمكناس، تسير على حداثة سنها، نحو اكتمال

.../...

التقاليد الجامعية: بندوتها الكبرى، وبمجلتها
وهي تدخل سنتها الثانية، فضلا عن الأنشطة
الأخرى للكلية: في محاضرات وندوات وعروض
ومعارض، إضافة الى التلقين والتوجيه،
وكلها أعمال تعبر عن مدى طموح الكلية عمادة
وشعبا وأساتذة، ثم تطلعها لاكتمال جامعيتها،
حتى تستوعب شعب التخصص، وتستوفي
مستويات التعليم العالي، والله - سبحانه - ولي
التوفيق.

الرباط. الأحد 18 رمضان 1407 هـ
17 ماي 1987

محمد المنوني

كلمة السيد عميد الكلية

الأستاذ عبد الحميد لطفي

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين

معالي وزير التربية الوطنية،
سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس،
السيد باشا مدينة مكناس،
السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة مكناس،
السادة النواب المحترمون،
السادة العلماء،
زملائي الأساتذة الأعزاء،
معشر الطلبة والطالبات،
سيداتي وسادتي

يسعدني بادىء ذي بدء أن أتوجه بجزيل شكري الى السيد وزير التربية الوطنية على تفضله برئاسة حفل افتتاح أشغال ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى التي تنظمها كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس من 16 الى 19 أكتوبر 1986 في هذه السنة السعيدة التي تصادف الذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة والمهابة الحسن الثاني نصره الله وأيده على عرش أسلافه الميامين. وما هذه الالتفاتة الكريمة إلا تفسيرا فعليا عما يوليه صاحب الجلالة دام له النصر والتأييد من عناية سامية بالبحث العلمي ورجالاته.

كما يسعدني أن أرحب بكل الضيوف الكرام الذين شرفونا بحضورهم المكثف الذي لاشك أنه سيساهم في إذكاء الحماس وتقوية العزائم، لمزيد من البذل والعطاء بهذه الكلية.

كما أنني أعبر عن تشكراتي الحارة للسادة الأساتذة المشاركين في هذه الندوة الذين صدقوا ما وعدوا به فتحملوا عناء تهييء مداخلاتهم العلمية ولم يكلوا، وتحملوا أتعاب السفر فلم يملوا.

معالي الوزير

إن كليتنا الفتية لتعمل جاهدة على توسيع أنشطتها العلمية والتربوية، وهاهي ذي مجهوداتها تتبلور وتثمر سنة بعد أخرى، فقد تم تخرج الفوج الأول من الأساتذة المساعدين، والفوج الأول من المجازين في نهاية الموسم الجامعي المنصرم، وينتظر أن تناقش في مدرجات هذه الكلية عدة أطروحات لنيل دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة. كما يتبلور هذا الاهتمام في منشورات الكلية التي بدأت بإصدار العدد الأول من مجلتها في السنة الماضية، وينتظر أن تصدر عددها الثاني عما قريب، إضافة الى كتاب ببليوغرافي — حول مكناس، مما يدل على حيوية حركة البحث العلمي بكليتنا هذه.

إن هذه المنجزات المختلفة ما كان لتتحقق لولا دعم وزارة التربية الوطنية ومساهمة السلطات المحلية والمنتخبين وذلك في إطار العناية المولوية السامية لقطاع التعليم ولولا مجهودات السادة أساتذة الكلية الذين ما فتئوا يبذلون الجهد لنشر العلم والعرفان، والمساهمة في تنشيط الجو الثقافي داخل الكلية على صعيد المدينة والاقليم.

ولا يفوتني، قبل أن أنهي كلمتي أن أتقدم بالشكر الحار الى سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس الأستاذ حمودة القايد على العناية الفائقة التي ما فتىء يوليها لكليتنا كما أنتهز الفرصة للتنويه بالدعم المستمر الذي لازال يقدمه المجلس البلدي لمدينة مكناس وعلى رأسه الأستاذ المختار المصمودي، كما أود أن أنوه بالتشجيعات والتفاتات رجالات العاصمة الاسماعيلية وكذا أعضاء الجمعية الاسماعيلية للوسط الجنوبي وعلى رأسهم سعادة والي الرباط وسلا على الدعم الكبير الذي قدموه جميعا لمؤسستنا في توفير كل الشروط لانجاح هذه التظاهرة العلمية.

وأخيرا أقدم أصدق التشكرات لكل الذين ساهموا من قريب أو بعيد في إنجاح التهييء العلمي والمادي لهذه الندوة من أساتذة وإداريين وأعوان.

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة اللجنة المنظِّمة

للأستاذ عبد الملك الرياحي

بسم الله الرحمن الرحيم
معالي وزير التربية،
سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس،
السيد باشا مدينة مكناس،
السيد رئيس المجلس البلدي،
أيها الاخوة الأساتذة،
سيداتي، سادتي.

في البدء، قر العزم منذ سبعة أشهر خلت على تنظيم ندوة علمية شاملة حول موضوع الحضارة الاسماعيلية الكبرى، إيمانا من كلية الاداب والعلوم الانسانية بمكناس بالدور المنوط بها في خدمة البحث العلمي، وتوسيع الاشعاع الثقافي، تطويرا تجربة ثقافية رائدة استمرت حية وفاعلة منذ افتتاح هذه المؤسسة الجامعية إلى الآن عرفت تنظيم ندوات ومناظرات ومحاضرات ولقاءات ساهم فيها عدد من الباحثين والمفكرين على اختلاف اهتماماتهم وحقولهم المعرفية، وذلك وعيا منها بالعلاقة الجدلية بين البحث العلمي والتنمية الشمولية جهويا ووطنيا.

وحينما دعيت هذه اللجنة إلى إعداد مشروع مفصل لهذه الندوة، طرحت عدة قضايا محيرة كان من اللازم الاجابة عن تساؤلاتها المحرجة جزئيا، ولعل أهمها يكمن في أمرين اثنين :

أولهما : أن موضوع الندوة وهو «الحضارة الاسماعيلية الكبرى» موضوع يوهم بالتجزئية.

ثانيهما : أن حضور عدة حقول معرفية متجاورة جميعا في ندوة واحدة قد طرح في البداية تخوفا لا يمكن إخفاؤه (الآن).

وظلت هذه الحيرة الخلاقة تشغلنا فاتحة سبل ضبط المحاور وتدقيق صياغتها الى أن اتضحت الرؤية كاملة في مرحلة آخرة من مراحل الاستعداد، فأخذ اليقين يمحو آثار شكنا، والاقدم يلغي تخوفنا الخادع.

هكذا اقتنعنا بعد اجتماعات طويلة بأن مدينة مكناس تكتسي أهمية كبرى منذ أقدم العصور، إلا أنه يستعصي على الباحث، مع ذلك، العثور على المادة العلمية القمينة بتطعيم دراسته لها، إذ تظل في الغالب مادة مكتبية سجينة الرفوف في المكتبات المغربية الخاصة لاتراها عين قاري بأحث إلا نادرا، أو مادة علمية

أجنبية لايهتدي إليها إلا من جشم نفسه مشاق الرحلة، أو رسائل جامعية لم تر النور مما تسمها بمحدودية الاشعاع، وهذه لعمري معضلة تحتم علينا أن نختار الحاضرة الاسماعيلية الكبرى، موضوعا لندوتنا، مع العلم أن ما يصدق على مكناس ليصدق على أهم الحواضر المغربية، مما يستدعي إعادة النظر في تصور البحث العلمي وأسبقياته في هذا الباب. غير أنه إذا كان من الصعب مرحليا القيام بهذه المهمة الشاقة كليا، لأسباب مادية وعلمية، فإن من الواجب السعي وراء تحقيقها جزئيا بدءا من معالجة الموضوع على مستوى هذه الحواضر واحدة واحدة.

وتأسيسا عليه، فإن اختيار الحاضرة الاسماعيلية الكبرى إشكالية رئيسية تدور حولها هذه الندوة، لا يجب أن ينظر اليه من زاوية الاقليمية الضيقة، مادام اختيارا أملته شروط موضوعية اقتضت البدء من مكونات البنية الثقافية والفكرية الصغرى، حتى إذا سبرت أغوارها، وسوءلت المساءلة المخبرية الدقيقة، أمكن إذاك النظر الى الكلي الأوسع نظرة أكثر شمولا تسمح بالوصف العلمي المتأنى للظواهر المراد تحليلها، ومن ثم وجب التنبيه إلى أن للتجزيء ضرورة إجرائية في أفق الاحاطة ليس غير.

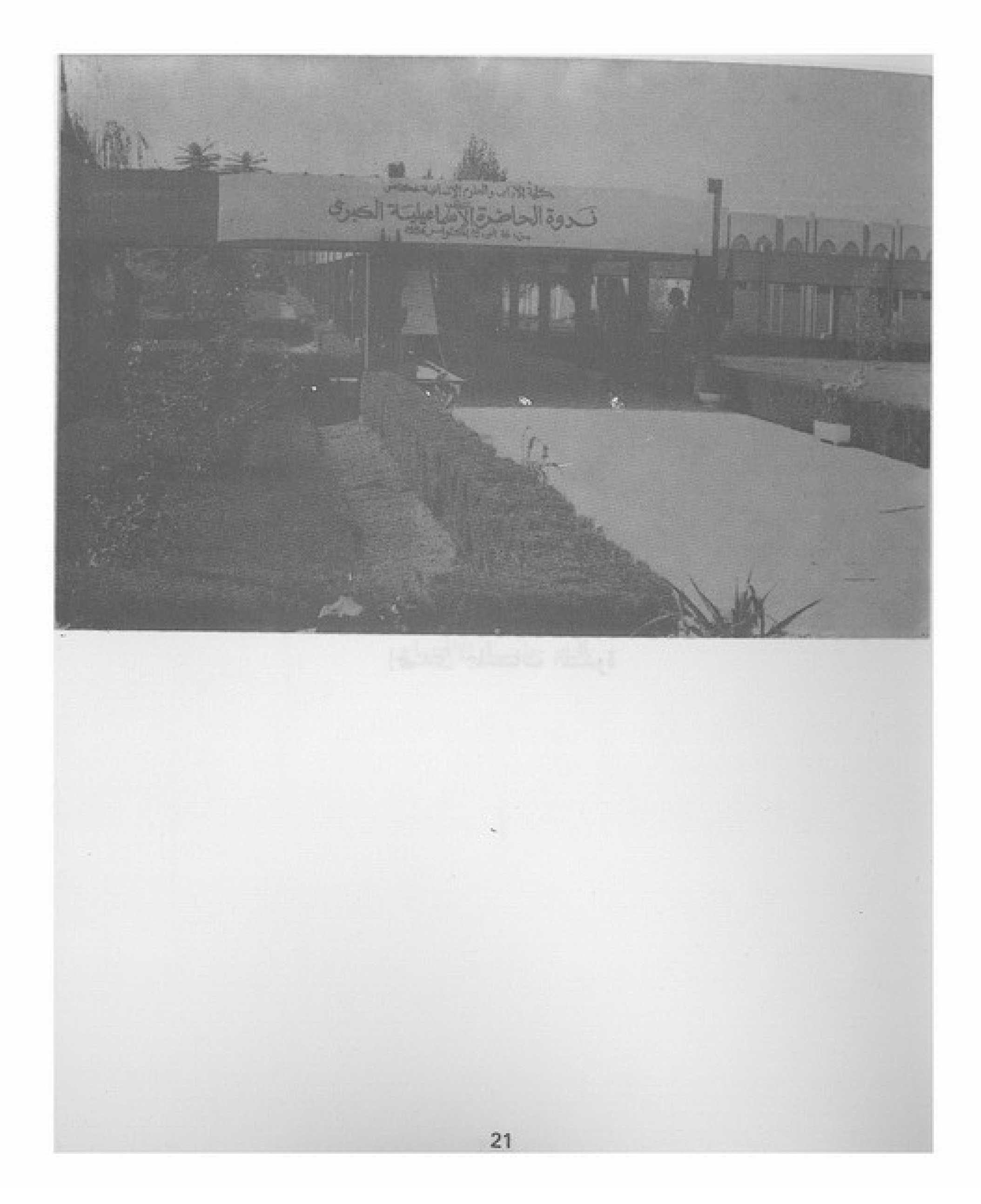
وانشغالا بهذا الهم أيضا اتضح المبرر الموضوعي لتجاور حقول معرفية مختلفة وتعايشها علميا في عالم ندوة واحدة كندوتنا، لأن طموح الاحاطة بفضاء الحضارة الاسماعيلية الكبرى لايمكن أن يتم من خلال محو واحد دون غيره، وإن كان هذا التبرير لايعفينا من الاعتراف بأن ندوة كهذه، ومهما تكون شموليتها لاتستطيع تلبية سائر حاجاتنا المعرفية، غير أن ما شجعنا على المضي بعزم ثابت في إعداد مشروعنا، ونحن نعي مأزقه، هو كون هذه الندوة قادرة بتأكيد على اقتحام دائرة المساءلة : لتكون لنا جميعا شرف بدء حلقة من حلقات الأيام الاسماعيلية كمشروع علمي وثقافي نتمنى صادقين أن يظل مفتوحا، حتى تغنيه الطاقات العلمية، والجمعيات الثقافية التي يجمعنا وإياها هدف واحد أساسه خدمة الثقافة والمعرفة في وطننا الشامخ.

واسمحوا لي أيها السادة أن أشكر باسم جميع العاملين بهذه الكلية كل من ساهم في تيسير سبل نجاح هذه الندوة من قريب أو بعيد، لأن ذلك منحنا المزيد من الثقة بالعمل الجماعي الهادف، ووطن النفس للاستعداد الدائم لتنظيم تظاهرات ثقافية أخرى إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله.



السيد وزير التربية الوطنية يلقي خطاب افتتاح الندوة


ندوة الحاضرة الإسماعيلية الكبرى



إحـدى جلسـات النـدوة



حضور جمع من المثقفين والمهتمين
أثناء جلسة الافتتاح

المحور الطبيعي والاقتصادي

مكنــاس في بيئتهــا الطبيعيــة

الأستاذ ادريس الفاسي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الربــاط

مقدمــة

توجد مكناس في منطقة طبيعية شديدة التجانس. وقد وصل هذا التجانس حدا صار معه من اللازم توحيد تسمية الاقليم. فتحولت تسمية سايس التي كانت تخص بعض الجهات المحدودة شمال شرق مكناس وغرب فاس الى كناية عامة تعني مجموع السهول والهضاب الممتدة بين مقدمة الريف شمالا والأطلس المتوسط جنوبا وواديي بهت وسبو في الغرب والشرق على التوالي.

ومدينة مكناس متربعة بالذات فوق الهامش الشمالي الغربي لهذا المجال الواسع. الشيء الذي أكسبها جملة من المميزات الطبيعية التي تدل على حصافة في الاختيار.

فهو أولا، موضع تحمل المياه بنوعيها السطحي والجوفي

إذ تلتقي فيه شبكة من الأنهار الدائمة الجريان في جلها، وإن كانت ضعيفة التصريف حاليا، وهي أبو فكران، ويسلان، الشجرة وسيدي علي الحاج، المجذوبة الى هناك بفعل المنخفض الصلصالي الموجود شمال المدينة في قدم كتلة زرهون.

كما أن انتشار المدينة فوق الهضبة الكلسية وإشرافها على حافتها الشمالية يجعلها تستفيذ من انبجاس أهم العيون. تكمن أهمية هذه العيون في كونها تجتر مياه الفرشة الجوفية المائلة مع ميل الطبقات الصخرية من الجنوب نحو الشمال والمتجددة بفعل الامطار التي تهم كل الحوض السفحي بالاضافة الى استقبالها لجزء من المياه الغزيرة لفرشة الأطلس المتوسط الغربي.

يضاف الى كل هذا، النظرة الشمالية للحافة المنحدرة تحت المدينة، والتي تجعل منها حافة ظليلة، تقلل من وطأة التبخر وتجعل الميزانية الرابطة بين التهاطل وتبدد المياه ميزانية ايجابية تعطي للجهة رطوبة أعلى من الرطوبة المرتقبة في مثل هذا الوضع العرضي. وهو ما يفسر مغارس الزيتون الممتدة شمال مكناس الباقية دون شك عن تغطية كانت في الماضي أوسع وأكثف يرجع لها الفضل في تسمية مدائن مكناس «مكناسة الزيتون».

وهو ثانيا، موقع تتواجد فيه مختلف الصخور الأساسية، ذات المميزات التكاملية :

تشغل هضبة مكناس النصف الغربي من إقليم سايس، والأوسع كذلك حيث تبلغ مساحته 1500 كلمتر مربع. وهي تعرض على هذا الامتداد بنية يمكن تبسيطها في أنها عبارة عن تراكب ثلاث طبقات صخرية متفاوتة السمك تتمثل في غلاف عام من الاكلاس المتنوعة فوق فرشة من الرمال الصافية الجيدة، يأتي تحتها جوف سحيق من الصلصال. وهي صخور متعددة الفوائد تستعمل في البناء وفي جملة من النشاطات الصناعية.

ثالثا : تحيط بالمدينة أراض زراعية من النوع الممتاز، رغم توسط الأمطار الفعلية

تلك إذن هي المزايا المعروفة عن المدينة والاقليم من الناحية الطبيعية، مياه ومواد نافعة للصناعة وتربة خصبة، وقد شكل هذا الثلاثي الأسس التي تحكمت في مراحل التعمير الحضري والزراعي على السواء، بحدة متفاوتة، على مدى الفترات التاريخية.

لكنه من المثير للانتباه أن العقود الأخيرة قد أبانت عن بعض مرافق الضعف أو التناقص على الأقل، ذلك أن سمعة الاقليم من .حيث غزارة المياه لم تصمد أمام فترة الجفاف التي عرفها المغرب منذ أوائل السبعينات ولمدة خمسة عشر عاما تقريبا. ولا أدل على ذلك من نضوب أكثر من نصف العيون المنتشرة في مجموع الاقليم في تلك الأثناء. يضاف إلى ذلك بعض المشاكل المتعلقة بالمواد الأولية الصناعية كمسألة استهلاك المواد الكاربوناطية مثلا.

فما هي أسرار هذا الغني الطبيع ؟
وماهي مواطن الضعف فيه؟

ليس الغرض من هذا العرض الاسهاب في إفشاء الفوائد ـــ فهي مثل كل الموارد الطبيعية محدودة، خاصة في الآونة الأخيرة حيث اشتد الطلب عليها، بل الهدف بالذات أن نشير الى شبح الخصاص حتى لاتزول النعمة وذلك من حسن التدبير والسياسة.

سنبدأ بلمحة سريعة مبسطة عن التطور الجيولوجي، الغرض منها معرفة دواليب التوازنات الطبيعية الضامنة للرخاء حتى يتيسر لنا سبيل التعامل معها، نسوق بعدها بعض نماذج الاستثمار السائدة في الاقليم والتي تستدعي الحذر إو إعادة النظر.

I التطور البالي ـــ جغرافي وانعكاساته على المحيط المكناسي :

1 ـــ موجز عن التطور الجغرافي القديم :

خلال الميوسين، والى حدود 5 مليون سنة قبل الحاضر (ق.ح) تقريبا كانت المنطقة عبارة عن مضيق بحري كبير تتكسر أمراجه على سفوح زرهون والحاجب. تركت لنا هذه الحقبة طبقة من الصلصال يتراوح سمكنها الهائل تحت مكناس ما بين 600 و900 متر.

خلال جزء من البليوسين، عرف الاقليم نشرا رمليا، تحقق القدر الأوفر منه في ظروف قارية، الى حدود

3 مليون سنة ق.ح.
أتى بعده نظام بحيري خلف طبقة سطحية من الكلس الصافي. ومن الجدير بالذكر أن هذه البحيرة الواسعة قد تم افراغها على مراحل وذلك بواسطة ميل للهضبة كلها في اتجاه الشمال جعل مياه البحيرة تتجمع في هامشها الشمالي، قبل أن تجف نهائيا، حوالي 1،8 مليون سنة ق.ح، ذلك كما يفسر سمك الرواسب الكلسية على الخط الواصل بين فاس ومكناس حيث يتعدى 40 مترا.... وهو كذلك ما سمح بتوطين صناعة الاسمنت.

2 ـــ موجز عن بعض الانعكاسات الاستثمارية

أ ـــ تحتاج صناعة الاسمنت الى مقادير هائلة من الكلس، ومن مستلزمات هذه الصناعة أن تكون الصخور الجيرية خالية من الرمل السليسي وكذا من المغنزيوم الشيء الذي يحرم عليها مثلا اكلاس الأطلس المتوسط رغم ضخامة احتياطيها.

ثم بما أنه يؤخذ على الاكلاس القريبة من فاس، والسميكة محليا طبيعتها الرصراصية، بالسنبة للموجودة منها في الجنوب الغربي، حيث أنها ضعيفة التجانس من ناحي تركيبها الكيماوي ومساميتها، وطبيعتها الالتوائية في جهة الشمال الغربي، فإن مكامن الضاحية الشرقية لمكناس تبدو كأحسن المواقع لاستقرار هذه الصناعة في الاقليم على الاطلاق. وقد أفادت صناعة الاسمنت بكونها من أول المرافق المشغلة بالمدينة.

ب ـــ أما الرمال، فهي رمال صافية يرجع السر في صفائها الى أسباب تطورية. فبما أن جلها نشر قاري لمواد يبدو أنها نزحت من الهضبة الوسطى وأن عملية النشر هاته قد تمت بعد فترة تفسخ طويل وعنيف وتسلط على هذا الموطن الأصلي حيث اندثرت كل المواد الفسوخة تاركة رملا صافيا حباته من الكوارتز الصالح للبناء أكثر من غيره، والذي يمكن استعماله في بعض الصناعات الأخرى كصناعة الزجاج مثلا.

ج ـــ أما تواجد الثلاثي الصخري المتكون من الكلس والرمل والطين، حسب هذا الترتيب والنسق بالذات، فإن له تأثيرا حاسما على الذخيرة المائية الجوفية وطريقة توزيعها في الاقليم وذلك حسب النمط التالي :

علمنا أن الموارد التي تغذي الفرشة نوعان، تشكل المياه المطرية منها امدادا يقاس على أساس تهاطل معدله 500 الى 600 مم. أما مياه الأطلس المتوسط فهي أهم وإن كان الصبيب الذي يصل الى هضبة مكناس منها (2 م مكعب في الثانية) أقل من نصيب سايس فاس (7 إلى 8 م ^{3}/ث) لكن رغم هذا الضعف النسبي، فإن هضبة مكناس، بفضل بنيتها الصخرية، تستطيع أن تستفيد من المخزون المائي بصفة أوفى وأمثل ذلك أن البنية التي تمر عبرها المياه تتصرف كما لو كانت معملا طبيعيا ضخما لتصفية الماء وبالتالي فهي تسمح بإعادة استعماله أكثر من مرة بدون عناء ولا كلفة. إذ بعد كل استعمال، زراعي منزلي أو صناعي يمر الماء المتسرب في طريقه إلى الفرشة.

أولا : عبر الكلس، الذي يطهره من الشوائب القذرة والجرثومية لكنه يشبعه بالكلس.

ثانيا : عبر الرمال، التى تزيل عنه آليا جزءا كبيرا من مضمونه الجيري.

أخيرا : تبعث القاعدة الطينية الماء الى السنطح من جديد على شكل عيون وأنهار، فيكون الماء جاهزا للاستعمال التام. ويبدو أن هذه العملية قد تتكرر محليا ست مرات !

د ــ تحول الصخور الى فسخات وأتربة هو من أبدع الأدوار التي تلعبها القاعدة الصخرية في تعاملها الطويل مع الاطار البيومناخي، تبدو الفسخات المتنوعة كحاصل تطور متفاوت ينتمي الى مختلف فترات الزمن الرابع. لا داعي هنا لجرد الرصيد الترابي. فأكيد أنه نظرا للوحدة النسبية للوضع المناخي في مجموع الاقليم فإن عنصر التغاير الأساسي بين أصناف الأتربة يعود الى أنواع الصخر الأم.

ومن المثير للانتباه إن المناطق المجاورة التي تتلقى نفس مقادير الأمطار أو تزيد عليها قليلا، كمقدمة الريف مثلا، كانت تبدو جرداء في فترات الجفاف الكثيرة التي توالت على البلاد في الحقبة الأخيرة بالمقارنة مع سهول وهضاب السايس التي تستطيع أكثر من غيرها أن تتجاوز الأزمة وأن تظهر بوجه مخضر يانع في جل الظروف، السر إذن ترابي أكثر مما هو موناخي، وهو في الواقع مرتبط بالتكامل الحاصل بين التركيبة الترابية الاجمالية أكثر من ارتباطه بالخاصيات النوعية لكل تربة على حدة. فلنحاول أن نرى ذلك عن كثب.

تفسخ الكلس، يعطي أتربة طينية سمراء أو طينية رملية حمراء، تغلب إذن الدقة على نسيجها. أما الرمال فتعطي أتربة خشنة محمرة غنية بالحديد. كما تزود الأنهار والمجاري الموسمية المتفرقة بالطمي أي بالنسيج المتوسط. انبساط الهضبة وميلها الخفيف في اتجاه الشمال يقضي بتحريك لكل هذه المواد وامتزاج بعضها بالبعض الاخر الشيء الذي يخفف من الفوارق الترابية حسب الصخور معطيا لجل المجال المكناسي، فوق الهضبة، نوعا من التربة السمراء المحمرة المختلطة النسيج.تسمى المادة الناتجة عن هذا التطور بالتربة الكاملة أو المتزنة.

تجلى مزايا التربة الكاملة في شدودها عن العيوب التي تعرفها الاتربة الأخرى لأنها في الواقع وسط بينها.

فهي في فصل الشتاء، ليست كالأتربة الخشنة والرملية منها على الخصوص، التي تسمح بالتسرب التام متعرضة الى تجفيف مبكر. ولا هي كالطينة الصرفة، والدقيقة منها على العموم، التي سرعان ما تحتقن رافضة جزءا كبيرا من المياه ليتبخر ويضيع. بل هي في موقع معتدل يسمح لها بامتصاص كل المياه مع الاحتفاظ بها مكونة ما يسمى بالذخيرة النافعة.

أما في فصل الصيف، فخلافا للرمال التي تصير شتيتة وقابلة للتدرية والأطيان التي تعرف تشققا عميقا يتبعه تجفيف تام للتربة التي تتحول الى كتل شديدة الصلابة تسحق الجذور وتقتل المادة العضوية، فإن التربة الكاملة التي تتوفر على مسامية متوسطة تتمكن مع حلول الفترات الجافة من تصعيد مخزونها المائي الخاص حسب قاعدة التصاعد الشعري، وبصفة جد متزنة مرتبطة بالطلب الذي تحدثه الحرارة السطحية ونداء الجذور.

تلك هي عملية التعويض أو الارتداد التي توجد في كل الاتربة بصفة متفاوتة والتي تبلغ معاملها الأعلى في الأتربة الكاملة. ومن المؤكد أن هذه الميزة تأتي على رأس قائمة الخاصيات المرجوة من الاتربة في البلاد الشبه جافة الموسومة بالتضارب العنيف بين فصول السنة وبعاهة الفصل الجاف الذي لايمكن التنبؤ بطوله ولا بحدته. إذ بهذه الطريقة يقع تخزين مياه الفصول السمان لتستفيذ منه الفصول العجاف.

II من المشاكل البيئة الطبيعية:

مظاهر الوفرة التي تتحلى بها البيئة الطبيعية في محيط مكناس هي في الواقع غني ظاهري مبني على

حكمة طبيعية. وهي ما نجده في أحسن الظروف في بلاد النطاقات الشبه جافة، الضعيفة الاعتدال، والتي لايمكن أن نتعامل معها كما لو كانت السهول الشمالية الوسطى للولايات المتحدة مثلا. ذلك أن الخصاص الطبيعي من الوجهة المناخية والنباتية المفروض بالضرورة على هذه النطاقات يوجد في إقليم مكناس مقنعا ومخففا بجملة من المزايا منها ما سبق ذكره والمرتبط جلها بالحيز البنيوي العام كوجود الأطلس المتوسط في الجنوب والبنيات الصخرية الاقليمية وطبيعة تفسخ الصخور وتطورها الزمني.... تلك هي الهالة والستر المسدول على التوازنات الطبيعية الدقيقة. فبمجرد ما نسيء التصرف معها، يفلت الأمر من أيدينا وتختل التوازنات. والقاعدة الأساسية في التعامل هي معرفة الطاقات الطبيعية للاقليم والاستفاذة منها في حدود ما يمكن أن توفر وحسب ايقاع قدرتها على التجديد حتى لايتلف رأس المال. وأكيد أن الطلب على الرصيد الطبيعي، الصعب التجدد ، قد اشتد في العقود الأخيرة بفعل عاملين أساسين : ضغط المراكز الحضرية وضغط الزراعة الحديثة ذات الصبغة التسويقية.

1 ـــ قلب المعادلة بين الزراعة والتمدين:

لن نتعرض هنا لمسألة الهجرة من الأرياف الى المدن ولا للتساؤل عن المردودية الانتاجية وقدرتها على توفير الكفاف للمجموعات البشرية في الأرياف،وبعد نزوح القوم الى المدينة. هذه إشكاليات يمكن طرحها على صعيد أوسع يهم كل البلاد المتخلفة.

أما من المسائل النوعية التي تهم الاقليم عامة وموارده الطبيعية على وجه الخصوص نجد مثلا ضرورة توفير مواد البناء المأخوذة أساسا من الكلس. المسؤولية المطروحة على هذا النوع من الانتاج جسيمة، ذلك أن عليه أن يواكب الطلب الجهوي وكذلك طلب الأقاليم المجاورة التي لاتتوفر على مواد أولية تكتمل فيها المواصفات اللازمة. ضغط الطلب على وحدات الانتاج هو في الواقع ضغط على كلس مكناس، وما هذا الكلس الأقشرة دقيقة تسلح هضابا بادية الصلابة لكنها في الواقع تغلق شيئا من الرمل وكثيرا من الطين. فهي إذن حزام سلامة موضوع فوق بطن مائع يشرف، مع مدينة مكناس، على الحافات العالية المقابلة لكتلة زرهون والذي يزيد من اختلالها أنها متشكلة في أطيان نفوخة من صنف السمكتيت الشديد الادانة والمطاوعة. يبدو إذن أن هذا التطور من شأنه أن يخلق بعض المضاعفات على صيانة المدينة من جهة والحقول المجاورة من جهة أخرى. والمسؤولية في نظرنا ليست موضوعة على عاتق معامل إنتاج مواد البناء، فهي ليست بهذا المستوى من البساطة، بل تتعداها بكثير، إذ هي بالذات المسألة الحضارية المطروحة في بداية هذه الفترة والتي كان من المفروض أن تخضع لاختيارات سابقة.

خلاصة القول أن مظاهر التمدين والتحديث فرضت على الاقليم أن يجري وراء الحاجيات تحت تأثير طلب مستمر. وهو في هذه الحركة لايبدل من ثوبه الصخري الثمين فحسب، ولكنه بصفة أشمل وأخطر كذلك يحاول إرضاء الطلبات المائية المتزايدة في كل الميادين.

2 ـــ التوازن المائي في مواجهة الحاجيات الملحة :

سبق أن ذكرنا صيغة التوازن المائي هنا، ومدى علاقته الوثيقة بالبنية الصخرية وكيف أن السايس يجعل من الماء طاقة متجددة، لأنه يسمح بإعادة استعمالها عدة مرات في طريقه عبر الهضبة منذ تسربه الأول مباشرة بعد خروجه من عيون قدم الأطلس المتوسط واستعمالاته الأولى من طرف المزارعين الى أن يصل الى الهوامش الشمالية، مغذيا الروافد اليسرى لنهر سبو.

لكن ارتفاع الطلب في الحواضر الكبرى يفرض الآن ضمان موارد مائية قارة ومتزايدة ومن ذلك خلق منشآت تتلقف المياه من أمهات العيون النابعة في قدم الجبل وفي عالية السايس كعيون بطيط ـــ أكمگام، وتحولها في أنابيب كتيمة لفائدة المستهلك الحضري. فبغض النظر عن مظاهر التنافس بين الاستعمالات الزراعية والحضرية، هناك من ناحية الميزانية المائية الاجمالية إبطال لعمليات إعادة الاستصلاح الطبيعة التي كانت تجري في السايس. فتصير الحاجيات المنزلية والصناعية للمدن الكبيرة كفاس ومكناس تسدد مباشرة بمياه الأطلس المتوسط الجوفية والسطحية. وهي بذلك من جهة تتخطى هضاب السايس وتحرمها من مياه عاشت عليها منذ أن صارت مجالا قاريا، ومن جهة أخرى ترهن المستقبل العمراني والاقتصادي للأطلس المتوسط الشمالي الغربي. فأكيد أنه يصبح لزاما على الجبل في هذه الظروف أن يواصل انزواءه في دوره الدائم، والضروري دون شك، كخزان ماء للسافلة وأن تحجم عن أي اقتطاع للماء فوق الجبل نفسه، من شأنه أن يضر بمصالح السايس، لكن يجب التذكير بأن الأطلس المتوسط والغربي منه على الخصوص، هو قبل كل شيء خزان ماء وطني. وإن المشاريع الزراعية والتشجيرية المرتقبة في بعض أجزائه يجب أن تؤخذ بالاعتبار داخل المنظومة المائية بمختلف مقاييسها : المقياس المحلي في الجبل ذاته، والمقياس الجهوي الرابط بين الجبل والسهول التي يشرف عليها المقياس الأكمل الذي يمتد الى سهول الغرب والمغرب الأوسط.

الغرض من هذا التحليل أن نذكر أنه ما دمنا نتعامل مع البيئة الطبيعية، فلا يمكن أن نخضع المشاريع الى التراتبية الادارية التي تميز بين ما هو محلي وما هو فوق ذلك، الآليات الطبيعية مترابطة، وخاصة في بلداننا المتميزة بالشح من هذه الناحية، فأي تدخل في أي إقليم كان يجب أن يراعى المصالح العليا للجميع.

نلاحظ من جهة أخرى أن التنافس على الماء لا يطرح بين الأرياف والمدن فحسب ولكن حتى بين مختلف أنماط الاستغلال الزراعي نفسها.

3 ـــ هل هناك مواجهة بين الزراعة العصرية والتقليدية :

سايس مكناس من المناطق التي عرفت أكبر توسع للاستعمار الزراعي ذي الاستثمارات العالية وقد ضرب المزارع الأجنبي صفحا على الهياكل العقارية ونماذج الاستثمار وتهيئة المجال التي كانت سائدة آنذاك في دفعة واحدة، واحتكر كل الأراضي الهضبية المنبسطة التضاريس لأنها قابلة للتقطيع العقاري الكبير والميكنة، ولأنها تتوفر على أتربة جيدة تسمح بالزراعة الأحادية المتخصصة والتسويقية، ثم دفع بالأهالي الى الأجراف الوعرة والسفوح القوية، المرافقة للأودية كبعض أجزاء وادي كل وبوفكران وويسلان والشجرة وعالية مكس، على أساس أن الزراعة التقليدية الفقيرة قادرة على أن تتعامل مع تلك الأراضي العنيفة الانحدار، وإن الفائدة المائية المرتبطة نظريا بالأنهار ليست كثيرة هنا. فالأنهار السايسية المتعمقة هي في الواقع روافد صغيرة قليلة الصبيب. أما المستوطن فوق الهضاب فبإمكانه أن يصل الى الذخيرة المائية الأهم بواسطة المضخات الآلية المنبثة في الاستغلاليات الحديثة.

هذا هو الوضع الذي ورثناه عن التجربة التي دامت زهاء نصف قرن، والتي يتحكم في المنظر الزراعي للسايس الغربي : فوق الهضاب، مجالات واسعة، جميلة، عصرية، مسقية ومثمرة... وتكاد تكون خالية من السكان في حين نجد كثافات مهمة من سكان الأرياف، تتجمع على السفوح والأجراف التي تأكلها التعرية والمشرفة على أودية تكاد تكون خالية من الماء. بديهي أن هاته هي الأقوام التي تطعم أفواج النازحين الى المدينة.

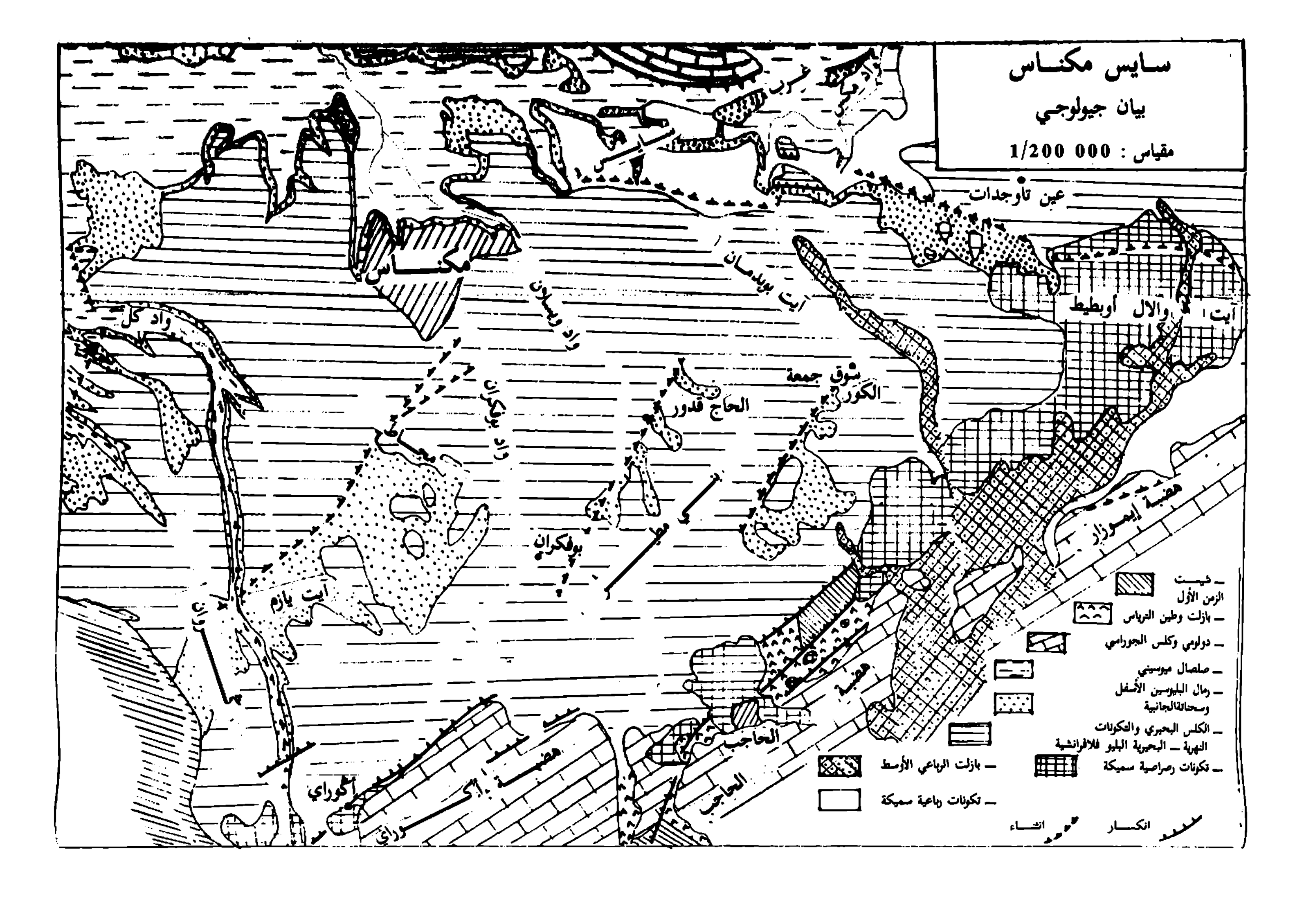
خاتمة

يبدو جليا أن اختيار الموقع لاقامة مدينة كمكناس، كما هو الشأن بالنسبة لفاس والمراكز المجاورة الأخرى، قد خضع في العصر الوسط لمعايير مضبوطة منها الاستراتيجي دون شك، ولكن منها كذلك، وربما بقدر أكبر، ما هو بيئي، تم تمحيصه واختبار إمكاناته.

يمكن الاعتقاد أن نماذج التحضير والزراعة كما يمكن أن نستشفها من تحليل العلاقات الموجودة بينها وبين البيئة الطبيعة قد وضعت على أساس معرفي موافق لعصره وللممكنات الطبيعية في آن واحد.

بعد ذلك، وخلال النصف الأول من القرن العشرين على الخصوص قلبت النماذج، وليس في ذلك ضير، لأن الحاجة كانت ماسة للسعي الى الابتكار والخروج من الجمود. لكن الأنماط الجديدة المفروضة لم تكن بطبيعتها تراعي إلا مصالح الأقلية التي كانت قابضة على زمام الأمور، حيث كانت، في شتى ميادين النشاط البشري من تمدين وتصنيع وزراعة، تتميز بما يمكن أن نصطلح عليه بالطابع «الافراغي». لذلك كان السلوك الحتمي المؤدي الى هذا الغرض هو ليس فقط الاستخفاف المطلق بمصالح الأهالي، بل وكذلك عدم الاكترات للممكنات الطبيعية نفسها. نتج عن ذلك استغلال «منجمي» للمجال،يشفي المصالح الآنية ولا يقيم أي وزن لمستقبل البلاد.

أما في الوقت الراهن، وقد بدأت مضاعفات هذا المسلسل تنبري في الأفق حيث أننا نواجه إمكانية نضوب جزء من المياه واختلال ميزانيتها في الاقليم كما نلاحظ الضغوط الكبيرة على القاعدة الصخرية والرصيد الترابي، فقد آن الأوان لأن نمعن التفكير مليا في النماذج القائمة على أساس إصلاح ما يمكن إصلاحه على ضوء معرفة عميقة وعلمية بالتوازنات الطبيعية وحرص دائم على ضمان العدالة الاجتماعية والشخصية الحضارية.



سايس مكناس
بيان جيولوجي
مقياس : 1/200 000
عين تاوجدات
مكناس
واد كل
واد ويسلان
أيت بويدمان
أيت والال أوبطيط
شوق جمعة
الكور
الحاج قدور
واد بوفكران
بوفكران
أيت يازم
هضبة إيموزار
هضبة
الحاجب
أكوراي
هضبة أكوراي
ـ شيست
الزمن الأول
ـ بازلت وطين الترياس
ـ دولومي وكلس الجوراسي
ـ صلصال ميوسيني
ـ رمال البليوسين الأسفل
وسحنالةالجانبية
ـ الكلس البحيري والتكونات
النهرية ـ البحيرية البليو فلافرانشية
ـ تكونات رصراصية سميكة
ـ بازلت الرباعي الأوسط
ـ تكونات رباعية سميكة
انكسار
انثناء

الجهة الوسطى الجنوبية

إشكال التهيئة الزراعية في بوادي الأطلس المتوسط

الأستاذان لحسن جنان وعمر إديل
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فـــاس

تندرج هذه المداخلة في إطار محاولة فهم المجال القروي المغربي بصفة عامة والنطاق الجبلي بصفة خاصة، وذلك من خلال التركيز على العوامل التي تتحكم في هيكلة هذا المجال ومدى تفاعلاتها، وتحديد ميكانزماتها التي تؤدي الى تحولات وتغييرات على مستوى البنيات الاجتماعية والمجالية. هذه التحولات التي أصبحت الميزة الأساسية للعالم القروي خلال السنوات الأخيرة.

ونحن مقتنعون بأن النماذج التي سوف ندرسها لا تغطي كل مجال الأطلس المتوسط الذي يتميز بالشساعة والتنوع، حيث هناك مناطق لا تعرف تهيئة زراعية محدودة إما بفعل ضآلة الموارد أو نظرا لضعف الكثافات السكانية.

بصفة عامة يمكن القول بأن الأطلس المتوسط يشكل مجالا تتدخل في تهيئته الزراعية ثلاثة عناصر أساسية، السكان المحليون الرأسمال الخاص (الأجنبي عن المنطقة في الغالب) والدولة.

إن هذه العناصر تختلف على مستوى الامكانيات والتقنيات المستعملة والأهداف المتوخاة من التهيئة الزراعية، كما أن لها انعكاسات متعددة على الميدان السوسيو مجالي.

وتجدر الاشارة الى أن تدخل الدولة أو الرأسمال الخاص ترافقه دائما تأثيرات على البنيات الزراعية التقليدية.

1 ـــ المجموعات البشرية التقليدية المستقرة

نقصد بها سكان نطاق الدير أساسا. وهي تتميز بمجموعة من الخصائص على رأسها الاستقرار والتجمع على مستوى السكن. هذا مرتبط بمعطيات الديرالبيوجغرافية (توفر المياه، صلاحية التربة والموقع الوسط الذي يحتله هذا النطاق بين الجبل والازغار). كما أن هذه المجموعات قد ورثت تقاليد زراعية واكتسبت تجارب خاصة في مجال استغلال الأرض والتهيئة الزراعية، وذلك من خلال تطبيق أساليب الري وتطوير الغراسة.

إذا، هناك ارتباط وثيق بالأرض لدى السكان تترجمه علاقات إنتاجية خاصة في إطار نظام زراعي تقليدي يجمع بين الزراعة والرعي.

ومن جهة أخرى نلاحظ بأن هياكل الانتاج لازالت تحتفظ بخصائص التنظيم التقليدي للمجتمع القروي مما نتج عنه صمود البنيات السوسيو مجالية الموروثة.

إن النتيجة الرئيسية المترتبة عن غنى التركيبات المجتمعة على مستوى هذه المجالات هي كونها مناطق تحمل كثافات سكانية مرتفعة (غالبا ما تتراوح بين 100 و150 ن كلم 2) لاتعرفها في جهات الأطلس المتوسط حيث لا يتعدى معدل الكثافة السكانية 27 ن/كلم 2.

غير أن عنصر الكثافة السكانية لا يأخذ بعده الحقيقي إلا بارتباط مع المعطيات السكانية الأخرى التي تجعل هذه المجالات تعرف دينامية ديموغرافية حقيقية غالبا ما لا تعرفها باقي المناطق الجبلية، وتتجلى في نمو طبيعي مرتفع، ينتج عنه تزايد سكاني سريع، يرافقه ضعف تيار الهجرة القروية. ومن خلال الأمثلة التالية يمكن ملاحظة مدى أهمية التزايد السريع الذي تعرفه هذه المجالات.

المنطقة	% بين 1980 ــ 1971	بين 1971 ــ 1982
دير صفرو	1،5	2،3
دير الحاجب ايت والال	4،5	3،5
سهل كيكو الأوسط	2،1	3،2

إن تحليل الأساليب المفسرة لكون هذه المجالات تستطيع تحمل هذا الضغط الديموغرافي يكشف على أن سكانها قد عملوا على :

أ ــ تكثيف الأساليب الزراعية (الاعتناء بالتربة من خلال بناء المدرجات ومد السواقي والتسميد) وتنويع المزوعات (حبوب ــ قطاني ــ غراسة) وإدخال مزروعات جديدة ذات قيمة غذائية ومردودية اقتصادية مهمة (بطاطس ــ لوبيا ــ بعض أنواع الاشجار المثمرة).

ب ــ تحسين أساليب تربية الماشية من خلال استعمال العلف والتركيز على عمليات التسمين بهدف التسويق.

ج ــ اللجوء الى أنشطة غير فلاحية محليا ودون أن يرافق ذلك هجرة قروية مهمة وتجدر الاشارة هنا الى أن طبيعة هذه الأنشطة هي كونها عبارة عن حرف قارة، غالبا ما تشكل النشاط الرئيسي لمن يمتهنونها (مثل التجارة والنقل والبناء، والعمل في المحاجر أو صناعة الجير والفحم الخشبي...) بينما نلاحظ بأن تطور الأنشطة غير الفلاحية في المجالات الأخرى هي نتيجة لاختلال التوازنات كما سنعرض لذلك لاحقا.

إننا نلمس من خلال هذا النموذج قدرة كبيرة على التكيف لدى هذه المجموعات البشرية التقليدية،

مع احتفاظ نسبي على التوازنات المحلية الموروثة، غير أنه يجب التأكيد على أن عنصر ملكية الأرض لم يعد يشكل المقياس الرئيسي في التراتبية الاجتماعية، إذ غالبا ما نلمس ضعف التفاوت على مستوى فئات الملاكين، في حين يبدو التفاوت الاجتماعي كبيرا بالقياس الى القاعدة الاقتصادية العامة.

نستخلص من كل ما سبق، أن الوضع الاجتماعي في هذه المجالات يعتبر أقل خطورة بالمقارنة مع المناطق التي تعرف تدخل الرأسمال الأجنبي الخاص.

2 ـــ مناطق تدخل الرأسمال الأجنبي الخاص

نقصد بالرأسمال الأجنبي الخاص العناصر البشرية أو الشركات التي لاتنتمي عرقيا أو جغرافيا للأطلس المتوسط وغالبا ما يطلق السكان المحليون على هؤلاء العناصر مصطلحا خاصا هو «البراني» أو الأجنبي عن المنطقة تاريخيا يمكن القول بأن الاستعمار الفلاحي تميز في الأطلس المتوسط بمحدودية المساحات التي سيطر عليها نظرا لعدة عوامل، إلا أنه رغم ذلك قد خلق نموذجا للاستغلال الزراعي سوف تنهجه البورجوازية المغربية غداة الاستقلال. إن هذه البورجوازية ـــ الحضرية في غالب الأحيان ـــ والمكونة من فئات اجتماعية متنوعة (موظفون سامون ـــ تجار كبار ـــ أرباب المهن الحرة...) لم تكتفي فقط بتعويض المعمرين على جزء من الأراضي التي كانت بأيديهم بل زيادة على هذا أصبحت تكتسح مجالات أخرى صالحة للزراعة أو بهدف استصلاحها.

أما المجال الجغرافي لهذا النوع من التدخل الرأسمالي فيتركز بالخصوص في محورين :

- على طول الطريق الرئيسية التي تمتد من فاس ومكناس في اتجاه الأطلس المتوسط (فاس/ايموزار/فاس/صفرو/بولمان ثم مكناس/الحاجب/أزرو).
- في الدير والمنخفضات الكارستية للكوص ذات النزعة الفلاحية (مياه وتربة غنية).

إن هذا النوع من الاستغلال الزراعي يتحكم فيه منطق رأسمال محض يفرض مجموعة من الشروط منها :

- استغلاليات ذات حجم كبير يتم تشكيلها تدريجيا على حساب ملكيات السكان المحليين.
- استصلاح الأراضي المكتسبة باستعمال وسائل تقنية ضخمة في عمليات الاجتثات والعدن وتسوية السطح، وتجهيزها للسقي من خلال حفر الآبار ومد القنوات.
- استعمال أساليب زراعية عصرية.
- التعاطي لانتاج مزروعات ذات قيمة اقتصادية مرتفعة (غراسة الورديات على الخصوص) إن هذه الشروط جعلت هذا النوع من الاستغلال موجها كليا من الخارج سواء على مستوى القرار أو التمويل أو التسويق.

وهو بالتالي غير مندمج نهائيا مع الاقتصاد المحلي، باستثناء جزء بسيط من الأجور التي توزع على اليد العاملة المحلية خاصة خلال موسم جني المحصولات وعلى صعيد آخر، نلاحظ بأن الوضعية الجديدة التي يخلقها هذا النوع من الاستغلال الزراعي قد أدت الى الاخلال بعدة توازنات كانت قائمة من قبل في الأوساط التي عرفت هذا النوع من التدخل، وذلك من خلال كونه يزيد من تقليص المراعي ويقف كحاجز إضافي أمام تنقلات القطعان، وكما أنه يفرض إعادة تكيف السكان ومحاولتهم إيجاد محاور وأساليب جديدة للتنقل أو اللجوء الى الاستقرار نهائيا.

غير أن عواقب التدخل الرأسمالي في مناطق الأطلس المتوسط لاتقف عند هذا الحد، إذ هناك مجموعة من النتائج الوخيمة سواء على مستوى السكان أو المجال يمكن إيجازها في :

- فقدان السكان المحليين لأراضيهم وانخفاض معدل الملكية لدى هؤلاء وارتفاع نسبة غير المالكين منهم.
- تحول جزء من النشيطين الى مأجورين فوق الاستغلاليات الكبيرة.
- ارتفاع الضغط على باقي المجال واستغلاله بطرق غير سليمة من طرف السكان، في محاولة منهم التعويض عن الأراضي المفقودة، وذلك من خلال اجتثاث المنحدرات وحذف نظام الجامة دون تخصيب التربة والاستكلاء (Surpâturage).

وبهذا نلاحظ أن توسع الاستغلاليات الرأسمالية بتفقيرها للسكان المحليين تخلق شروط ازدهارها، وذلك بإفرازها قوة العمل الضرورية لها. وبالتالي فإن هذا النوع من المجالات غالبا ما يعرف تهميش السكان المحليين، ويجعل منهم مرشحين للهجرة في كل وقت وحين أمام انعدام استقرار وظروف العمل وفقدان القاعدة العقارية الكافية لاستمرار العيش في البادية.

ولتأكيد هذه النتائج نورد مثالين يفسران هذه الوضعية.

1 — سهل تيكركرا بجماعة أركلاون، دائرة أزرو : وهو مجال عرف الاستغلال العصري منذ الاستعمار، مع توسع كبير للغراسة بعد الاستقلال.

إن مقارنة تطور عدد السكان القرويين مع تطور عدد سكان مركز آزرو يظهر أهمية الهجرة القروية في هذه المنطقة ومدى ارتباطها بتطور وتوسع الاستغلال الرأسمالي :

تطور السكان القرويين بجماعة إركلاون

السنوات	عدد السكان	عدد الأسر	تطور عدد سكان
1960	12230	2534	14143
1971	13446	2553	20756
1982	13870	2335	31471

2 — كوص صفرو، وهو عبارة عن منطقة تغزوها حاليا الملكية الحضرية وفيه نلاحظ كذلك تناقص نسبة التزايد السكان من جراء الهجرة القروية.

تطور نسبة التزايد السكاني بكوص صفرو :

1960 — 1971 : %2،1
1971 — 1982 : %1،6

إن وزن الظروف الاجتماعية في هذه المجالات يكاد يعادل ضغط الظروف الطبيعية وقساوتها في مناطق أخرى من الأطلس المتوسط على مستوى طرد السكان كما هو الأمر بالنسبة للأطلس المتوسط الشرقي مثلا حيث قل عدد سكان أن العديد من الجماعات سنة 1982 بالمقارنة مع عدد سكانها في 1971 : أميس مرموشة ـــ أدرج ـــ آيت بازة ـــ المرس.

والخلاصة هي أنه إذا كان النوع من الاستغلال والتهيئة ايجابيا من الناحية الاقتصادية فإنه يتميز بالسلبية على المستوى الاجتماعي.

3 ـــ مناطق تدخل الدولة

تتدخل الدولة في الأطلس المتوسط بأشكال مختلفة وعلى مستويات عديدة.

أ ـــ أشكال التدخل :

حاولت الدولة أن تطبق في الأطلس المتوسط عدة أشكال من التهيئة منها القطاعية ومنها المندمجة. فقد قامت بتهيئة زراعية فقط من خلال عمليات ضم الأراضي واستصلاحها (نموذج دير الحاجب)، كما تدخلت في مناطق أخرى من خلال تجهيزات هيدروزراعية (منخفض سكورة ومناطق آيت والال) وأخيرا بدأت تدخلات الدولة تتخذ شكل مشاريع مندمجة تهدف الى تهيئة زراعية ـــ غابوية ورعوية (مشروع الأطلس المتوسط الأوسط ومشروع كوص لحاجب أو مشاريع التهيئة التي تقوم بها الدولة على هوامش الأطلس المتوسط : العرض في ملوية العليا، ومولاي بوعزة في الهضبة الوسطى).

ب ـــ مستويات التدخل :يمكن التمييز بين مستويين من التدخل : شامل وجزئي ففي حالة التدخل الشامل، فإن عملية الدولة يكون مباشرا وكليا ويشمل عدة عناصر وهو يهدف الى تغيير الهياكل الزراعية التقليدية في مناطق التدخل، وذلك من خلال عمليات ضم الأراضي وإحداث تجهيزات أساسية مع إدخال تقنيات وأساليب زراعية جديدة مثل ما هو الحال في كل من منخفض سكورة ودير الحاجب ومنطقة تمحضيت.

ـ أما في حالة التدخل الجزئي فإن الدولة تقوم بالتجهيز دون المس بالهياكل الزراعية القائمة ويعتبر نطاق آيت والال نموذجا لهذا النوع من التدخل، إذ عملت الدولة على تطوير زراعة التبغ التي أدخلها الاستعمال الى المنطقة، وذلك من خلال تشجيعها وتوفير التجهيزات الضرورية لها، مما أدى الى تغيير النظم الزراعية، كما أن الدولة عملت على بناء شبكة ري عصرية في 1982، غير أننا نلاحظ بأن زراعة التبغ تعرف تراجعا في المساحات المزروعة حاليا لفائدة أخرى.

ج ـــ نتائج تدخل الدولة

لتقييم تدخل الدولة في مجال الأطلس المتوسط يجب التمييز بين وضعيتين :

ـ ففي حالة التدخل الشامل والكلي، نلاحظ بأنه غالبا ما ترافقه عراقيل على مستوى التنفيذ وكذلك نفور أو معارضة «صامتة» من طرف المجموعات البشرية المحلية أو فئات منها، وهذا راجع لتعارض مصالح الأفراد أو الجماعات. ففي مثال مشروع الأطلس المتوسط ـــ منطقة تمحضيت ـــ نجد بأن الدولة قد قامت بمجموعة من العمليات منها تسييج المراعي، تحديد ضغط القطعان على المراعي (تحديد عدد الرؤوس) تخصيب المراعي مع تطوير الزراعة العلفية، بهدف تنظيم دورة رعوية، وأخيرا إحداث التجهيزات الضرورية لهذا

المشروع من طرق، نقط الماء مسالك ومخابىءورغم كل هذا يبدو أن المشروع يعرف تعثرا كبيرا نظرا للعراقيل التي يخلقها الملاكون الكبار، المعارضون للمشروع، والذين لايطبقون بنوده خاصة فيها يتعلق بتحديد الضغط على المراعي.

ـ أما في نموذج التدخل الجزئي فإن الدولة تترك هامشا لتصرف السكان المحليين أنفسهم، على أساس تقاليدهم الزراعية والاجتماعية، وهنا يكون تدخل الدولة عبارة عن دعم للديناميات المحلية وتوجيها لها. ومثال آيت والال يدخل في هذا الاطار أن هذا الطرح لا يعني أن التدخل الشامل والمباشر سلبي، عكس التدخل الجزئي، بل إن الأمر يتعلق أساسا بكون هذه المشاريع لا تأخذ بعين الاعتبار، الى جانب المؤهلات الطبيعية، المعطيات المحلية المتعلقة بالخصائص التاريخية والبشرية والاتنوغرافية بل وحتى التقاليد والاعراف، أي بصفة عامة كل البنيات الزراعية القائمة محليا.

4 ــ خلاصــات :

يتأكد من خلال أصناف التهيئة الزراعية السابقة الذكر ما يلي :

1 ــ أن هناك توازنات اجتماعية واقتصادية نسبية على مستوى المجموعات البشرية التقليدية، ينتج عنها استقرار أو ضعف حركية السكان مع دينامية ديموغرافية هامة.

2 ــ ويلاحظ اختلال التوازن على مستوى المجالات التي تغزوها الملكية العقارية الخاصة ــ الأجنبية عن هذه المجالات ــ ويتجلى هذا الاختلال في تفاقم الفوارق الاجتماعية محليا من جهة، ومن جهة أخرى حدة الهجرة القروية نحو المدن الصغرى التي تشكل مواصل هجرية (relais migratoires) أو نحو العواصم الاقليمية، مع العلم أن هذه المراكز غير مؤهلة لاستقبال الوافدين عليها لعدم توفرها على قاعدة اقتصادية متينة، مما يترتب عنه مشاكل على مستوى السكن والتشغيل والأمن.

إذا، يتضح أن الحل الحقيقي للمشاكل التي تعاني منها المدن، ينبغي البحث في البوادي وخاصة في مواطن اختلال التوازنات (أي النموذج الثاني على الخصوص).

3 ــ وأخيرا نلاحظ بأن تدخل الدولة حتى الآن، اتسم بالاقتصار على مجالات محدودة وجوانب خاصة، ذلك نظرا لغياب برنامج شمولي واضح لتهيئة المجال الواسع.

ملاحظات حول دور مدينة مكناس
في تنظيم الجهة الوسطى الجنوبية

الأستاذ محمد جرير
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة الحسن الثاني
المحمدية

إن أقاليم مكناس، ايفران، خنيفرة والرشيدية التي تكون المنطقة الاقتصادية الوسطى الجنوبية تمثل إحدى المجموعات الجهوية المغربية النادرة التي حافظت على استقرار واستمرارية حدودها التاريخية والادارية.

فبعد الاهمال الطويل الذي عرفته هذه الجهة أصبحت اليوم تحظى أكثر فأكثر باهتمام الدولة وذلك في إطار سياسة إدماج المناطق الفقيرة وإلحاقها بركب الجهات الأخرى من الوطن الأكثر تطورا، لكن بالرغم من هذا الاهتمام يبقى الواقع الدائم الذي يطبع هذه الجهة هو واقع مجال جغرافي هامشي يعاني من التخلف الاقتصادي والاجتماعي والذي يرجع السبب الرئيسي فيه كما هو معروف إلى مخلفات السياسة الاستعمارية التي ارتكزت على تنفيذ مخططات مختلفة للسيطرة على المدن التقليدية وخلق مدن جديدة تستجيب لمتطلبات المستعمر الاقتصادية والاستراتيجية، ومن بين النتائج السلبية لهذه السياسة تنشيط الهجرة القروية نحو المدن الكبرى الساحلية التي نمت وتضخمت على حساب مدن المناطق الداخلية.

ولعل الجهة الوسطى الجنوبية هي إحدى المناطق المغربية التي تعطي صورة مصغرة للمجال الوطني في واقعه الموروث عن المرحلة الاستعمارية.

إن تعزيز الوظيفة الجهوية التي ترغب فيها الدولة المغربية ــ وهو شرط أساسي لكل محاولة إدماج وطني متوازن ــ يمر حتما عبر مراكز القرار السياسي والاقتصادي التي تخلق تلك الوظيفة وتحددها في المجال ومن المعلوم أن العاصمة الجهوية والشبكة الحضرية التابعة لها هي عادة العوامل الاقتصادية والجغرافية التي تتحمل مسؤولية التنظيم والمراقبة الجهوية لكن إشعاع العاصمة نفسها مرتبط بعدة معطيات منها : حجم المدينة، وظائفها الأساسية، ظروف محيطها الاقليمي والبنيات السوسيو اقتصادية الوطنية.

فبالنسبة للجهة التي تهمنا نتساءل : ماهو دور مدينة مكناس في تنظيم المجال الذي أنيطت بها مسؤولية الاشراف عليه ؟

يحاول هذا العرض المتواضع أن يجيب على السؤال من خلال ملاحظات متفرقة لايمكنها بأي حال من الأحوال أن ترقى الى مستوى الالمام بجميع أطراف هذا الموضوع الواسع والمتشعب.

1 ـــ أهمية الاشعاع التجاري لمدينة مكناس داخل الجهة الوسطى الجنوبية

يعد النشاط التجاري من أهم عناصر القطاع الثلاثي وهو كفيل بمساعدتنا على إظهار أهمية التأثير الاقتصادي لمدينة مكناس على مجالها الجهوي ولو جزئيا.

1. قياس الدور التجاري لمدينة مكناس من خلال تجارة الأسواق الأسبوعية :

تعد تجارة الأسواق الأسبوعية عاملا هاما في تزويد المجال القروي بالمواد الاستهلاكية الضرورية فهي تؤدي الى تنشيط حركات سكانية وتجارية هامة.

إن دور «السوق القطب» الذي كانت تقوم به مكناس في الماضي مايزال قائما، ويكفي أن نلقي نظرة على خريطة لتوزيع شبكات الأسواق في القسم الشمالي من البلاد لكي نتأكد من ذلك (1).

تتميز هذه الشبكة المكناسية بأهمية عدد أسواقها واكتمال دورتها الأسبوعية التي تشمل جميع أيام الأسبوع وهي بذلك لا تقل أهمية عن باقي الشبكات الأسواقية المغربية الأخرى. تتكون هذه الشبكة من أسواق منطقة زرهون وسايس مكناس وبلاد كروان.

أهمية إشعاع التجار المتنقلين المكناسيين :

إن ترتيب الأسواق الأسبوعية في الجهة حسب عدد التجار المتنقلين الذين يتحركون أسبوعيا خارج أسواقهم المحلية يبين أهمية مدينة مكناس بالنسبة للمراكز الحضرية الأخرى فهي تحتل المرتبة الأولى ب 3230 حركة أسبوعية تليها خنيفرة ب 1050 ثم أزرو ب 920 والريصاني ب 200 الى 300 حركة أسبوعية، أما المراكز الأخرى كالرشيدية وميدلت وكلميمة فهي تسجل ما بين 50 و150 حركة أسبوعية تبعا لفصول السنة.

نستنتج من هذه الأرقام ما يلي :

- 50% من مجموع التجار المتنقلين المنتمين الى الجهة الوسطى الجنوبية يسكنون مدينة مكناس.
- 70% من هؤلاء التجار المكناسيين يتجولون بين أسواق الجهة خلال الدورة الأسبوعية (2).

اعتمادا على الخريطة رقم 19 لـ J.F.Troin (3) وعلى البحث الذي قمنا به في وادي زيز (4) يتبين أن معظم أسواق الجهة الوسطى الجنوبية تجذب التجار المتنقلين المكناسيين وإن كان عددهم يختلف أهمية حسب الأسواق.

وعموما نلاحظ ما يلي :

- سيطرة التجار المكناسيين سيطرة مطلقة على عدد كبير من أسواق سايس كروان، وزرهون (شبكة الأسواق التابعة لمكناس)
- حضور مكثف للمكناسيين في أسواق الحاجب، أزرو وعين تاوجدات (مالا يقل عن 200 الى 300 حركة خلال الأسبوع بالنسبة لكل سوق من الأسواق المذكورة).
- حضور ضعيف في باقي أسواق الجهة إذ تتراوح حركات التجار المتنقلين المكناسيين بين 60 و100 حركة أسبوعية بالنسبة لأسواق أزغار (مريرت ـــ خنيفرة) و10 الى 50 حركة بالنسبة

لأسواق ملوية العليا (بومية ميدلت ــ اتزار) وأسواق تافيلالت (الريش ــ والرشيدية على الخصوص).

يتضح من هذا أن نفوذ مكناس في هذا الميدان يقل فعالية وأهمية كلما ابتعدنا عن محيطها القريب وهذا ناتج طبعا عن عامل البعد الجغرافي واستقلالية الأقاليم الأخرى المتمثل في ارتباطها بأسواقها المحلية أو الجهوية القريبة، ومع ذلك يجب أن نسجل أن مكناس تفرض نفوذها النسبي على أسواق جهتها أولا من خلال حضور تجارها في معظم هذه الأسواق وإن كان عددهم قليلا في الأسواق النائية (يمثل المكناسيون 2% من مجموع البائعين في سوق الريش و5% في سوق الرشيدية). وثانيا من خلال التجار المتنقلين المحليين أنفسهم باعتبار أنهم يروجون سلعا تم استيراد معظمها من مدينة مكناس.

وتجدر الاشارة إلى أنه بالرغم من هذا الاشعاع التجاري الذي يمتد على مسافات بعيدة تعرف مكناس مزاحمة كبيرة في بعض الأسواق الواقعة داخل حدودها الاقليمية بل وتخضع بعض هذه الأسواق لنفوذ غير نفوذ مكناس كما هو الحال بالنسبة لسوق اثنين زكوطة الذي يمثل فيه تجار سيدي قاسم 44،4% من مجموع التجار الحاضرين وكذلك ثلثاء ميكاس الذي يسيطر فيه التجار الفاسيون بنسبة 25،1% من مجموع التجار (5).

دور التجار المكناسيين في تجميع المواد القروية الجهوية

بعد أن رأينا حركة التجار من خلال الدرة الأسبوعية للأسواق نقترب الآن من حركة المواد القروية وعملية تجميعها عن طريق الأسواق.

وسوف نقتصر هنا على المواد القروية المهمة من حيث الكم أي القابلة للرواج التجاري على مستوى واسع.

تجارة المواشي

من المعلوم أن الجهة الوسطى الجنوبية تعتبر من أهم المناطق المغربية في ميدان تربية المواشي إذ يصل عدد رؤوس الماشية فيها ما يناهز 2،2 مليون، وفيما يلي الأعداد التي يتم ترويجها سنويا عبر الأسواق المهمة في الجهة (6).

سوق خنيفرة : 134.000 رأس سنويا
سوق ازرو : 120.000 رأس سنويا
سوق بومية : 100.000 رأس سنويا
سوق الريش : 80.000 رأس سنويا
سوق الريصاني : 30.000 رأس سنويا

تقوم مكناس بتجميع عدد هام من هذه المواشي بطريقة مباشرة من خلال تجارها المترددين على أسوق الجهة وبأخرى غير مباشرة بواسطة تجار المراكز الأخرى الوافدين على سوق مكناس، لكننا مع ذلك نلاحظ على خريطة تجميع المواشي J.F.Troin (7) أن نسبة هامة من المواشي توجه عبر أسواق خنفيرة ــ مريرت الريش وبومية الى أسواق استهلاكية خارج الجهة الوسطى الجنوبية نذكر من بينها على الخصوص الرباط ــ سلا ــ الدار البيضاء ــ وجدة ومراكش.

مثال سوق بومية : (8) سوق ماشية هام يقع بحوض ملوية العليا الذي يتوفر على مؤهلات رعوية وزراعية هامة. يتم ترويج حوالي 100.000 رأس من الماشية سنويا في هذا السوق، تتوزع كما يلي :

- 56% نحو تادلة
- 10% نحو أزرو
- 10% نحو ميدلت
- 4 % نحو صفرو
- 4 % نحو تافيلات
- 1 % نحور خنيفرة
- 1 % نحور مكناس
- 9 % في بومية
- 5 % نحو مناطق أخرى.

يتضح من هذا النسب أن دور مكناس في تجميع الماشية من هذا السوق ضعيف بالمقارنة مع ما تستورده أسواق أخرى كتادلة، أزرو وميدلت.

تجارة الزياتين والتمور

بالنسبة للزيتون نجد أن نفوذ مكناس يمتد بوضوح على السفوح الجنوبية لجبال زرهون فهي تراقب 56،5% من نقط تجميع الزياتين بجماعة كرمة بن سالم و80% بجماعة المغاسيين في حين تترك الزعامة لفاس بالنسبة لجماعة نزالة بني عمار التي يسيطر التجار الفاسيون فيها على 73% من نقط التجميع(9).

بالنسبة لاقليم الرشيدية يبدو نفوذ فاس أقوى بكثير من نفوذ مكناس في تجميع الزياتين والتمور وذلك راجع أساسا الى أهمية العلاقات التقليدية التي تربط التجار الفيلاليين بمدينة فاس والى دينامية التجار الفاسيين أنفسهم الذين يتنقلون بشاحناتهم الى مناطق الانتاج لشراء المنتوج من الفلاحين مباشرة.

وفيما يلي مثال لتصدير مادة التمور من تافيلات سنة 1966 (10).

- 3980 طن نحو فاس
- 1360 طن نحو مكناس
- 950 طن نحو الدار البيضاء
- 260 طن نحو وجدة.

— مكناس : مركز جذاب فيما يخص تجارة المواد الحضرية

التجارة بالجملة :

لقد تبين لنا من البحث المباشر الذي قمنا به لدى التجار بالجملة بمدن تافيلات أن مدينة مكناس تقوم بدور الموزع الرئيسي لعدد كبير من المواد الغذائية والتجهيزية بهذه المنطقة.

فبالنسبة لتجارة السكر مثلا نجد أن : كل الذين يتاجرون في هذه المادة يتعاملون مع مدينة مكناس

بالدرجة الأولى وذلك في إطار التقسيم الاداري للمناطق الاقتصادية، نفس الملاحظة بالنسبة لتجارة الشاي والزيت والدقيق والمواد الغذائية الأخرى ومع ذلك لايفوتنا أن نسجل أهمية منافسة مدينتي الدار البيضاء وفاس لمدينة مكناس في هذا الميدان.

أضف الى ذلك ظهور منافسة من داخل الجهة نفسها ويتعلق الأمر هنا بمدن أزرو ـــ ميدلت والرشيدية التي أصبحت تتوفر على مطاحن ولم تعد تستورد الدقيق من مكناس إلا نادرا.

أما بالنسبة لمواد البناء فنقدم مثال مدينة الرشيدية : 3 تجار بالجملة في مواد البناء يسيطرون على هذا القطاع ويتعاملون كلهم مع مدينة مكناس، وكذلك الشأن بالنسبة لبائعي مواد التجهيز الفلاحي (آلات الضخ ـــ الاسمدة وغيرها)

اقتناء المواد الحضرية من طرف السكان

تنحصر جاذبية مكناس في هذا الميدان داخل حدودها الادارية الضيقة.

أمثلة : بالنسبة لاقتناء مواد التجهيز الشخصي والمنزلي.

منطقة زرهون : (11).

جماعة كرمة بن سالم : 70% من السكان يتوجهون الى مكناس
30% من السكان يتوجهون الى مولاي ادريس

جماعة المغاسين : 70% من السكان يتوجهون الى مكناس
15% من السكان يتوجهون الى فاس
15% من السكان يتوجهون الى مولاي ادريس

جماعة النزالة بني عمار : 46% من السكان يتوجهون الى مكناس
12% من السكان يتوجهون الى مولاي ادريس
2 % من السكان يتوجهون الى سيدي قاسم

مثال : بالنسبة لاقتناء مواد التجهيز الفلاحي :

منطقة ميدلت (12).

جماعة زايدة : 58% من السكان يتوجهون الى مكناس
42% من السكان يتوجهون الى ميدلت

على العموم هذا يدخل في إطار توفيت الوظائف العادية من العاصمة الجهوية الى شبكتها الحضرية التي تقوم بدور إعادة التوزيع على السكان المحليين.

2 ـــ القطاع الثلاثي العمومي : عامل إشعاع هام بالنسبة لمكناس

1. الاشعاع الاداري لمكناس

يعود تاريخه الى ما قبل الاستعمار عندما كانت مكناس عاصمة الدولة العلوية وقد استمر هذا الدور

خلال مرحلة الاستعمار حين تم اختيارها من طرف المستعمر كعاصمة ادارية وعسكرية لمراقبة الأطلس المتوسط ـــ ملوية وتافيلالت.

غداة الاستقلال استمرت مكناس في تحمل مسؤولية القيادة الادارية على المناطق المذكورة أعلاه وذلك بسبب غياب الامكانيات المادية والبشرية لوضع بنية إدارية مستقلة في هذه المناطق، بعد ذلك أصبح اهتمام الدولة بالأقاليم النائية أكثر فعالية نتيجة تفاقم الأوضاع الاقتصادية وتزايد عدد السكان وارتفاع نسبة الهجرة القروية الشيء الذي أدى الى خلق الجهة الاقتصادية الجنوبية الوسطى، وذلك بموجب قانون 16 يناير 1971 ضمن التصميم الخماسي 1968 ـــ 1972 فأصبحت مكناس عاصمة لهذه الجهة وقد تعزز بذلك دورها في ميدان الاشراف الاداري. إلا أنه تم في السنوات الأخيرة توسيع الشبكة الادارية في إطار سياسة اللامركزية مما قلص من أهمية الدور الاداري لمدينة مكناس مع العلم أنها تحتفظ بالرغم من ذلك على سلطة المراقبة الجهوية بالنسبة لعدد من المصالح، كالأمن والضرائب الفلاحية والبريد والقرض الفلاحي والسياحة والجمارك والعدالة.

2. إشعاع مدينة مكناس في ميادين الصحة والتعليم

تتوفر المدينة على تجهيزات تحتية في هذا الميدان تساعدها على القيام بدورها كعاصمة جهوية.

فبالنسبة لميدان الصحة نجد أن مكناس تتوفر على مستشفيين كبيرين (مستشفى محمد الخامس ومستشفى مولاي اسماعيل)، كانا في الماضي القريب يتمتعان بجاذبية قوية تمتد على مجموع أقاليم الجهة الاقتصادية إلا أنه في السنوات الأخيرة تقلصت فعاليتهما بسبب ضعف الوسائل والتجهيزات الضرورية كما أن ظهور مستشفيات رئيسية بالأقاليم الأخرى جعلها تستقل نسبيا عن سلطة مدينة مكناس ما عدى في ميدان الأمراض العقلية.

أما بالنسبة للتعليم فإن مكناس تشع على الخصوص بواسطة مؤسساتها في ميادين تكوين الأطر والتعليم العالي فهي تتوفر على مراكز تكوين الأطر التعليمية (المراكز الجهوية ـــ المدرسة العليا للأساتذة) وتكوين المهندسين الفلاحين وضباط الجيش الخ... فضلا عن كليتي الآداب والعلوم الانسانية والعلوم التي تستقطب الطلبة من جميع أقاليم الجهة.

خاتمـــة

توجد في المغرب رغبة في خلق أقطاب وعواصم للتنمية الجهوية من المدن الكبرى خصوصا وأن المجال الوطني ككل يعاني من عدم التوازن الاقتصادي الذي يتجلى في التفاوت الملحوظ بين المناطق الشمالية الغربية والمناطق الداخلية.

وعلى العموم فإن أقطاب التنمية الجهوية لايمكنها بأي حال من الأحوال أن تتحمل وحدها مسؤولية التنمية الجهوية في غياب بنيات تحتية أساسية ومدن محلية ترتبط ببواديها وكذلك في غياب تدخل الدولة بإمكانياتها الضخمة وبثقلها السياسي والاداري.

ملاحظات حول السكن القروي

نموذج سايس مكناس

الأستاذ محمد مباشر يازغي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

الهدف من هذه المداخلة هو إبراز السمات الأساسية التي تطبع هذا السكن القروي في منطقتنا، فبادية سايس مكناس تتميز بعدة خصوصيات؛ فرغم سهولة طبيعتها ورتابة تضاريسها، فهي تتميز بتنوع زراعتها وتعقد بنياتها الزراعية وتفكك عناصر مجتمعها. الشيء الذي له أثر بالغ على أشكال السكن في المنطقة. ولا يكفي الوقت لابراز كل هذه العناصر ومدى تأثرها على السكن القروي.

I العوامل المتحكمة في تحديد أشكال السكن

1 ـــ العامل التاريخي، وعامل الاستعمار: لعل أهم عامل في تفسير مواقع السكن وبعض أشكاله هو العامل التاريخي : فالمنطقة تميزت بتدخل استعماري قوي وبتركز الاستعمار الفلاحي بصفة خاصة، فمن حيث كثافة استغلاليات المعمرين فإن سايس مكناس يعد أول منطقة قبل الغرب والشاوية، فالاستيلاء على الأراضي تم على حساب السكان المحليين الذين نزعت منهم أراضيهم. وتحولوا الى بروليتاريا فلاحية في خدمة المعمرين واقتصرت أراضيهم على هوامش الهضبة وقيعان الأودية التي تخترقها،وفي موازاة هذا الوضع تمركز السكان والسكن في المواقع الهامشية من الهضبة وفي قيعان الأودية. بينما أصبح سطح الهضبة يتميز بكثافات وبتمركز للسكان في نقط محددة سنتعرض لها فيما بعد.

وأدى ظهور الفلاحة العصرية الاستعمارية الى استقطاب عدد من الوافدين من مناطق بعيدة. مثل زرهون والريف الأوسط والشرقي والأطلس المتوسط وغيرها من المناطق هؤلاء السكان سيستقرون في مواقع مغايرة للتي اختارها «الأهالي».

إن هذا الوضع ستتأثر به مرحلة ما بعد الاستقلال وستبقى آثاره قائمة حتى الآن،

2 ـــ حركة السكان. حيث أن المنطقة تتميز بهجرة في اتجاهين :

ـ هجرة في اتجاه سايس مكناس، وهذا النوع من الهجرة قد أشرنا اليه سابقا في المرحلة الاستعمارية ولا زال مستمرا حتى الآن ويكتسي طابعين ـــ هجرة موسمية في المواسيم الزراعية خاصة جني الكروم، وهجرة

شبه دائمة أو مرحلية حيث يستقر السكان الوافدون في القرى العمالية والمراكز المتواجدة في المنطقة.

ـ هجرة من سايس مكناس إما في اتجاه المدن المجاورة وخاصة مدينة مكناس وهذه الهجرة تشمل فئات مختلفة من السكان (طلبة، موظفون، عمال)، والفئة التي تهمنا هي جزء من العمال والموظفين الذين سيخصصون جزءا من مداخليهم لتطوير سكنهم الأصلي في البادية.

ـ الهجرة في اتجاه الخارج. وهذا النوع هو أهَمُّ، بسبب أهمية المداخيل التي يوفرها والتي ستمكن من تغيير طابع السكن لا من حيث الشكل والهندسة ولا من حيث مواد البناء أيضا.

3 ـــ تدخل الدولة : هذا التدخل سيتميز بعدم الانسجام بين مختلف المصالح التي تكون مصدر القرارات.

وتجدر الاشارة هنا الى أهمية التصميم الهيكلي للبادية، إذ أن مصالح إدارة السكنى وإعداد التراب الوطني قامتا بإنجاز تصاميم توجيهية للبوادي على غرار ماهو الشأن في المدن من أجل تحديد الاسبقيات والمراكز المؤهلة لكي تلعب دور أقطاب تنمية في البوادي والتي يمكن أن تكون ركائز لتهيئة المجال القروي إلا أن توجيهات ومعطيات هذه التصاميم المديرية قلما تأخذ بعين الاعتبار عند اتخاذ القرارات، كما أن وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني تقوم بوضع تصاميم تنموية للمراكز القروية وفعلا بالنسبة لسايس مكناس هناك عدة تصاميم قيد الانجاز مثل بوفكران، الحاج قدور وسوق السبت بالاضافة الى تصاميم بعض المراكز مثل سبع عيون وعين تاوجدات وأكواري.

4 ـــ **توزيع الأراضي** : إن عملية توزيع الاراضي (أراضي الاستعمار) يمكن أن نعتبرها بداية لاعادة التوازنات على المستوى المجالي والهيكلي للمنطقة إذ مكنت عدة عائلات قروية (3000) من تحقيق الاكتفاء الذاتي العائلي ومكن هذا التوزيع من ظهور عدة نوايا «Noyaux» للسكن القروي على ظهر الهضبة هي مراكز التعاونيات الفلاحية التي تتميز بمرفولوجية خاصة مرتبطة بكيفية تجزئة الأراضي وشكل القطع الموزعة.

5 ـــ تجميع الاراضي، يمكن اعتبار عملية تجميع الاراضي التي عرفها قطاع الحاجب بدايه لعملية تهيئة كلية شاملة إذا ما احترمت أهداف وقواعد هذه العملية. إذ بالاضافة الى الضم فإن العملية تقتضي أيضا تخصيص جزء من الأراضي للتجهيزات والممرات والسكن وهكذا فإن مالا يقل عن 80 هكتار قد خصص للسكن في إطار عملية ضم الأراضي بمشروع الحاجب وستقوم وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني بإعداد التصاميم لهذه المراكز السكنية.

6 ـــ تدخل الصندوق الوطني للقرض الفلاحي عن طريق تخصيص قروض لتنمية السكن، فالصندوق الوطني للقرض الفلاحي أصبح يقوم بالدور الذي يقوم به القرض العقاري والفندقي في المدن مع الملاحظة أن هذه القروض لا تعني إلا فئة ذات دخل معين.

نستنتج مما سبق أن هناك عدة عوامل تحكمت في تحديد أنماط وأشكال السكن بالمنطقة.

II أنواع السكن القروي

إن التصنيف الذي نقترحه يعتمد على ثلاثة معايير أساسية :

ـ شكل السكن ونقصد به نوعية المساكن المكونة للوحدات السكنية بالبادية.
ـ تخطيط السكن أيْ انتظام المساكن داخل الوحدات السكنية.
ـ الوظيفة الاقتصادية ـــ الاجتماعية. التي تعكس فئة القاطنين.

1 ــ تصنيف السكن

1. السكن الأصلي : وهو السكن الذي أقامه وطوره السكان «الأصليون» بني مطير، كروان، عرب سايس ، مجاط... الخ. والذي يتخذ مواضع خاصة في سفوح الأودية أو على هامش الهضبة بالقرب من قدم الأطلس المتوسط أو مقدمة جبال الريف في الشمال ويتميز هذا السكن :

- بالتشتت النسبي إذ أن المساكن لاتشكل وحدات أو تجمعات سكنية متراصة وإنما هي منازل متاثرة وسط الاستغلاليات.
- تنوع أشكال المساكن مما يعكس تفاوت المستويات المادية للسكان وقدراتهم على تطوير مساكنهم.

2. السكن العمّالي : وهو سكن شبيه بمدن الصفيح بالمراكز الحضرية. من حيث الشكل والتكدس ومواد البناء وهو سكن ارتبط أصلا بالضيعات الاستعمارية يقطنه العمال الفلاحيون ويتخذ أيضا مواقع مختلفة على طول الطرقات أو على هامش الضيعات أو بالقرب من مراكز هذه الضيعات (أي يحيط ببيت «المعمر» والمرافق التابعة للضيعات محلات التخزين ومستودعات الأدوات الفلاحية).

وهذا السكن هو في وضعية عقارية تمكننا من أن نقول عنه أنه سكن «سري أو غير قانوني» إذ أن الأرض التي أقيم عليها السكن هي جزء من الضيعة فالمعمر كان يسمح لعماله بإقامة بيوتات بسيطة في بقع معينة، ولما استرجعت أو فوتت الأراضي استرجعت معها مواضع السكن التي تكون جزءا من الرسم العقاري وبالتالي فإن هذه الأراضي الان هي في ملك شركة التنمية الفلاحية أو شركة تسيير الأراضي الفلاحية أو الخواص الذين يطالبون سكان هذه المراكز بالافراغ للتمكن من كل المساحة الموجودة في الرسم العقاري. وهذه الوضعية العقارية حالت دون تطوير هذا النوع من المسكن أو استقرار السكان بصفة نهائية. فهذه المراكز هي مرحلة لهجرة في اتجاه الخارج أو في اتجاه مكناس أو المدن المجاورة مثل تاوجدات ــ سبع عيون ــ بوفكران.

3. مراكز التعاونيات الفلاحية : وهي مراكز حديثة مرتبطة بتوزيع الأراضي المسترجعة ــ وتوجد بالمنطقة مالا يقل عن 60 تعاونية وتتميز هذه المراكز (بضعف التجهيز) لكونها مراكز غير مكتملة إذ أن جل المتعاوين لازالوا لم يكملوا إنجاز منازلهم كما أن بعض التعاونيات لازالت لم تنته من إنجاز التجهيزات الضرورية.

4. سكن الضيعات : وهو في غالبية الأحيان سكن موروث عن المرحلة الاستعمارية وهو سكن أصبح متدهور بسبب انعدام الصيانة.

5. المراكز الحضرية : وهذه المراكز في نظري تشكل أقطاب نمو في المنطقة ودراستها تدخل في إطار دراسة للشبكة الحضرية إذ أن هذه المراكز أصبحت ترقى الى مرتبة المدن الصغيرة بسبب التجهيزات والمرافق التي أصبحت تتوفر عليها.

2 ــ مميزات هذا السكن : وسأكتفي بإعطاء المميزات الأساسية مقتصرين على ميزتين

- الاتجاه نحو التفكك وهذا الاتجاه أصبح سائدا في البوادي المغربية بصفة عامة إذ حتى في المناطق التي يسود بها السكن المتجمع مثل «قصور» تافيلات فإن الاتجاه نحو التفكك وظهور منازل خارج الأسوار أصبح ظاهرة متميزة وهذا يعكس مدى تفكك وتحلل الروابط الاجتماعية.
- الاتجاه نحو تقليد الأنماط السكنية الحضرية سواء من حيث تصميم المنازل أو مواد البناء أو التجهيزات المنزلية وهذا يمر عبر نماذج إما في الوسط الحضري المحلي أو من الخارج، إذ أن المنظور السائد

«مثالية السكن الحضري» وأن تنمية السكن القروي لايمكن إلا عن طريق تقليد نماذج السكن الحضري ومن ثم فإننا نلاحظ غزو الاشكال السكنية الحضرية للبادية بكل سماتها ومشاكلها.

خاتمـــة

إن تنوع السكن القروي واتجاهات تطوره الحالية تعكس :

1 ـــ انعدام خطة شمولية ومنظور موحد لتطوير السكن القروي ذلك أن الجهات المعنية بمشاكل السكن والسلطات العمومية كانت دائما تعطي الأولوية للسكن الحضري مهملة في ذات الوقت السكن القروي.

2 ـــ الاعتقاد السائد لدى الجميع من أن تنمية السكن القروي يمر عبر النماذج الحضرية، وقد أبرزت التجربة في بعض القرى النموذجية (قرية وادي بهت) بأن هذا السكن غير وظيفي وما هو إلا تحويل للأنماط الحضرية، بما تتضمنه من سلبيات، في اتجاه البادية.

3 ـــ حتمية إعداد المجال القروي بصفة عامة. إذ أن السكن لايكون إلا عنصرا من عناصر هذا المجال.

التطـــور الحديـــث
لسكـان مكنـاس وظهيـرها

الأستاذ عبد اللطيف فضل الله الجامعي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الربــاط

يغطي إقليم مكناس، وفي حدوده الادارية الحالية، نحو 4000 كم2 أي 0،56% من مجموع مساحة البلاد، لكنه يضم زهاء 000 684 نسمة وهو ما يمثل 3% من سكان المغرب. وباستثناء ولايتي الدار البيضاء ـــ المحمدية والرباط ـــ سلا وكذا إقليم طنجة، التي تتميز كلها بتجمع حضري كبير على رقعة مجالية محدودة، فإن إقليم مكناس يأتي على رأس أقاليم البلاد من حيث الكثافة السكانية العامة التي تجاوزت به الآن 170 نسمة بالكلم 2 من جهة، ومن حيث نسبة السكان الحضريين (بغض النظر طبعا عن الأقاليم الصحراوية التي يعيش جل سكانها بالمدن) التي تدنو من 63% فلا تفوقها سوى نسبة إقليم فاس المجاور 68%)، من جهة ثانية. وعلى غرار ما نجده في غالبية مناطق نفوذ المدن الكبرى المغربية، لم يترعرع في ظل مكناس أي مركز حضري ذي أهمية، وإن كانت قد برزت حولها، خلال العقدين الأخيرين على الخصوص، تجمعات سريعة النمو يظهر أنها قد بدأت تقوم بدورها المتواضع في هيكلة المجال بالسايس الغربي.

ومن أجل قياس صحيح لتطور السكان ارتأينا ألا نعتبر هنا سوى السكان المغاربة، تاركين جانبا الجماعات اليهودية والأجنبية وذلك نظرا لتلاشيها السريع منذ الاستقلال، فلم تعد تمثل شيئا في حركية السكان وتعميرهم للمجال، مما يدفع الى اعتبارها مجرد «سكان عابرين» يحدث دمجهم مع «السكان القارين» تشويشا كبيرا في عمليات القياس الديمغرافي (1).

واكتفينا في عجالتنا هذه بالنظر الى التطور الحاصل منذ 1960، علما بأن المعطيات الاحصائية السابقة لهذا التاريخ لا تتعلق بنفس الوحدات المجالية بالأرياف، مما لايبيح مقارنتها بالمعطيات الحديثة. هذا،وسعيا وراء مقارنة دقيقة للحالات بالنسبة لسكان الأرياف والمدن، اعتبرنا حضريا في 1960 و1971 كل المراكز التي كانت كذلك في 1982فطرحنا سكانها من مجموع سكان الجماعة الريفية التي توجد بها.

1 ـــ توازن النمو السكاني بين الريف والحضر :

خلال الربع قرن المنصرم، يكون عدد سكان اقليم مكناس قد تضاعف، مارا من 342000 في

1960 الى 684000 حاليا، وذلك بنسبة زيادة سنوية متوسطة تناهز 2،7%، وهي تقريبا نفس النسبة التي ميزت تزايد مجموع المغاربة خلال هذه الفترة. والملاحظ أن وتيرة التزايد كانت في عقد الستينات أقوى بكثير (بنحو 41%) مما جاءت عليه أثناء العقد التالي؛ وهذا تباطؤ يفوق ما سجلته الزيادة السكانية على الصعيد الوطني بين العقدين، إذ أن نسبة الفترة الأولى لم تتجاوز إلا بنحو 10% نسبة الفترة الثانية.

الجدول 1 — وتيرة التزايد السكاني بإقليم مكناس وبالمغرب بين 1960 و1982

المستوى	عدد السكان بالالاف			% لزيادة الاجمالية			% الزيادة السنوية		
	1960	1971	1982	71 — 60	82 — 71	82 — 60	71 — 60	82 — 71	82 — 60
اقليم مكناس	342	486	624	42،1	28،4	82،5	3،25	2،30	2،77
المغرب	11068	15236	20345	37،6	33،5	83،8	2،95	2،66	2،80

فهل هذا التباطؤ الواضح في نسبة التزايد يعني حدوث نوع من الفتور الديمغرافي عند سكان الاقليم أم هو تعبير عن هبوط في حدة التوافد اليه أو احتدام النزوح منه، أم هو نتيجة لمفعول هذه العوامل كلها ؟ هذا إذا سلمنا بصحة نتائج عمليات الاحصاء!.

كيف ما كان الحال نجد أن هذا النمو السكاني اختلفت حدته كثيرا بين الوسطين الريفي والحضري، إذ أن هذا الأخير سجل نسبة تزايد سنوية متوسطة هي تقريبا ضعف ما حدث بالأرياف. لكن هذا الفرق يبقى دون ما سجل على الصعيد الوطني حيث جاء أكثر من ثلاث مرات أقوى. وإذا كان الاقيم قد عرف نسبة زيادة أهم على مستوى الأرياف بالمقارنة مع المجال الريفي المغربي ككل (بتفوق 09.% بين 1960 و1982) فإن النسبة الوطنية تجاوزت نسبة الاقليم بنحو 45% (خلال نفس الفترة) بالنظر الى تزايد الحضريين. ربما يكون مرجع ذلك الى أن أرياف الاقليم، نظرا لامكانياتها الفلاحية الجيدة، استطاعت أن تشد اليها أبناءها وربما أن تجتذب إليها آخرين، أكثر مما فعلته الأرياف المغربية على العموم، في حين أن المراكز الحضرية بالاقليم، وبالخصوص مكناس، لم تستقبل الوافدين بنفس الحدة التي عرفتها المدن المغربية ككل.

الجدول 2 — نسبة التزايد السنوية لسكان الأرياف والمدن بإقليم مكناس والمغرب :

المستوى	الأريـــاف			المراكـز الحضريـة		
	71 — 60	82 — 71	82 — 60	71 — 60	82 — 71	82— 60
مكناس	1،94	1،64	1،79	4،31	2،73	3،51
المغرب	1،83	1،45	1،64	5،55	4،61	5،08

وإذا كان سكان الاقليم قد زادوا بمعدل 13000 نسمة تقريبا كل سنة بين 1960 و1982 (وهو ما يمثل نحو 3،1% من مجموع الزيادة الحاصلة بالمغرب) فإن تفاوت ايقاع النمو بين الأرياف والمراكز الحضرية جعل نحو 72% من تلك الزيادة تقع بهذه المراكز، مقابل 28% فقط بالوسط الريفي. وهكذا ارتفعت نسبة الحضريين باستمرار، منتقلة من حوالي الثلث في منتصف الأربعينات الى قرابة النصف عند الاستقلال لتدنو من 53% في 1960 وتقفز الى 59% تقريبا في 1971 ثم الى زهاء 63% حاليا.

ونظرا لتفاوت إمكانيات الشغل وأسباب الحياة، فإن وتيرة نمو السكان عرفت اختلافات هامة من مركز حضري لآخر ومن جهة لأخرى داخل المجال الريفي، مع فوارق محسوسة حسب الفترات الزمنية.

الجدول 3 ــ زيادة السكان بأرياف ومدن إقليم مكناس (بالآلاف) :

الفترة	مجموع الأقاليم		الوسط الحضري		الوسط الريفي	
	الاجمالي	السنوي	الاجمالي	السنوي	الاجمالي	السنوي
60 ــ 1971	144000	13090	106000	9640	38000	3470
71 ــ 1982	138000	12550	98000	8910	40000	3600
60 ــ 1982	282000	12820	204000	9290	78000	3530

2 ــ اختلافات الضغط الديمغرافي بالمجال الريفي :

يظهر قياس معدل نسب الزيادة السنوية حسب الجماعات الريفية مدى الاختلاف الموجود بين المجموعات البشرية الواقعة شرق وجنوب شرق مكناس، حيث فاقت نسب النمو المعدل العام المسجل بالاقليم (وهو 1،79% بين 1960 و1982)، والمجموعات الأخرى التي عرفت نسب نمو أدنى من ذلك المعدل. ويشهد هذا التفاوت في سرعة النمو على مدى تباين الامكانيات الفلاحية بين هذين المجالين، إذ أن الجماعات الأولى تنتشر أساسا على أراضي سايس الخصبة بينما تمتد الثانية في معظمها على مرتفعات مقدمة الريف أو هضاب الأطلس المتوسط الكلسي ذات الطاقات الانتاجية المحدودة.

وعرف ايقاع النمو تفاوتا كبيرا جدا من فترة لأخرى ومن جماعة لأخرى مع أن المسافة تكون أحيانا قريبة بينهما. فبينما جاء الفرق بين أعلى نسبة تزايد (بوفكران) وأخفض نسبة (عين الجمعة) هو 5 مرات خلال عقد الستينات، صار نحو 22 مرة في العقد التالي.

الجدول 4 ـــ تطور سكان الجماعات الريفية بإقليم مكناس :

الجماعات	عدد السكان			% الزيادة السنوية		
	1960	1971	1982	71 — 60	82 — 71	82 — 60
بوفكران	8853	14196	22185	4،39	4،17	4،23
عين توجدات	14394	21750	30098	3،82	3،00	3،41
سبع عيون	*14000	18693	23148	2،66	1،96	2،31
اثنين المهاية	15263	19334	24220	2،17	2،07	2،12
الدخيسة	6772	8627	10453	2،23	1،76	1،99
الدير	13187	16047	19533	1،80	1،82	1،81
افوراي	11056	12953	15684	1،45	1،75	1،60
سبت جحجوح	11681	13512	15288	1،33	1،13	1،23
نزالة بني عمار	10814	12795	13573	1،54	0،54	1،04
المغاسيين	13510	14904	16648	0،90	1،01	0،95
عين العرمة	11489	12810	13611	0،99	0،55	0،77
كرمة بنسالم	10558	11973	12236	1،15	0،20	0،67
عين الجمعة	20721	22860	23343	0،90	0،19	0،54
المجموع	162299	200454	240020	1،94	1،65	1،79

(*) بعد إزالة سكان مركز سبع عيون الذين قدر عددهم بنحو 800 الى 900 نسمة.

كذلك تجدر الاشارة الى أن هذا الاختلاف في نسب النمو أسفر عن ضغط سكاني جد متباين. فهناك أربع جماعات هي بوفكران وعين توجدات وسبع عيون واثنين المهاية تغطي أدنى من 4/1 المساحة الاجمالية للمنطقة لكن استقبلت أكثر من 5/2 الكتلة السكانية التي زادت بالاقليم بين 1960 و1982

هذا علما بأنها لم تكن تحتوي إلا على أقل من 3/1 سكانه الريفيين في بداية هذه الفترة. وقد زاد نصيب هذه الجماعات الأربع في مجموع الزيادة خلال عقد السبعينات (65%) عن عقد الستينات (56%). بل إن الجماعتين الأوليين اللتين لاتزيد حصتهما من مساحة الاقليم عن 13% ومن سكانه الريفيين عن 14% في 1960، وقع بهما 38% من الزيادة الاجمالية الحاصلة بين 1960 و1982.

ودون أن ندخل في تفاصيل التعمير الريفي بالمنطقة، الشيء الذي يتطلب دراسة خاصة مدققة، يمكن تصنيف هذه الجماعات الى ثلاث كتل كبرى تطابق تقريبا ثلاثة مجالات جغرافية متميزة، وإن كانت بعض الجماعات تمتد على أكثر من مجال.

فهناك مجال السايس الذي عرف نسبة زيادة متوسطة تدنو من 3% سنويا بين 1960 و1982، وهي الفترة التي تكاثر سكانه فيها بحوالي 51.000 نسمة (أي 65% من مجموع الزيادة الحاصلة بأرياف الاقليم)، ليقطنه حاليا 122.000 نسمة على الأقل، يتزايدون سنويا بها بين 3000 و3500 شخص وله كثافة متوسطة تربو على 110 في الكم 2.

ثم يليه أهمية، على مستوى سرعة النمو، مجال الجماعات الجنوبية والجنوبية الشرقية، المنتشرة على الأطراف الجنوبية للسايس والهوامش الشمالية لهضاب الأطلس الكلسي. فنسبة التزايد ظلت تحوم حول 1،5% بين 1960 و1982، مما أكسبه حوالي 15000 نسمة (19% من الزيادة الاقليمية) وهو يقطنه حاليا نحو 54000 نسمة ينمون بنحو 800 الى 900 شخص سنويا، وبكثافة 32 في المتوسط.

أما الجماعات الممتدة على مقدمة الريف، أساسا، التي يصل سكانها حاليا الى 80.000 نسمة تقريبا، بكثافة متوسطة تناهز 64، فهي التي سجلت أدنى نسبة للتزايد بالمنطقة بمعدل سنوي لم يتجاوز 0،8% بين 1960 و1982، مما جعل الزيادة الفعلية لا تتعدى 12000 ساكن. بل نزل هذا المعدل الى أقل من 0،5% في عقد السبعينات وقطع إلى أدنى من ذلك فيما بعد، الشيء الذي يجعل عدد السكان حاليا في شبه ركود إن لم يكن قد دخل في طور التقلص المطلق.

الجدول 5 ــ تطور كثافة سكان الأرياف بإقليم مكناس :

الجماعة	1960	1971	1982
اثنين المهاية	85	108	135
بوفكران	47	76	118
الدخيسة	69	88	107
كرمة بنسالم	82	93	95
المغاسيين	76	83	93

عين توجدات	43	65	90
سبع عيون	49	66	82
نزالة بني عمار	50	59	63
عين العرمة	48	54	57
عين الجمعة	43	47	49
اقوراي	26	31	37
الدير	23	28	34
سبت جحجوح	17	20	23
المجموع	40	50	60

3 ــ تباين التطور السكاني حسب المراكز الحضرية :

لقد صاحب هذه التفاوتات الكبيرة في الحيوية الديمغرافية التي ميزت الأرياف تفاوتات مماثلة في سرعة وكيفية نمو المراكز الحضرية بالمنطقة. والملاحظ، بصفة عامة، أن المجالات الريفية ذات الضغط السكاني القوي هي التي شهدت كذلك أهم «انفجار حضري» عن طريق توسع المراكز الموجودة بها، أو ظهور مراكز جديدة أو بفعلهما معا.

يلزم التذكير أنه على نقيض نسب الزيادة السكانية بالأرياف التي كانت بهذا الاقيم أعلى بعض الشيء من المتوسط الوطني، فإن نسب تكاثر سكان المراكز الحضرية جاء أدنى بكثير من معدل التكاثر الذي سجلته المدن المغربية ككل (2).

كذلك أتت الفوارق في سرعة التزايد بين المراكز أقل تباينا مما حدث في الأرياف، إذ أن أقصى بون بين أعلى واخفض نسب سجلت كان هو 4،6 مرات بين 1960 و1982 مقابل 8 مرات على مستوى الجماعات، وإن كان ذلك الفارق قد تقلص نسبيا بين عقدي الستينات (6،5 مرات) والسبعينات (5،5 مرات مقابل 22 مرة بالجماعات الريفية).

وتجدر الاشارة الى أن متوسط التزايد السنوي كان أضعف شيئا ما بمدينة مكناس، بالمقارنة مع مجموع المراكز التي تدور في فلكها، باعتبار فترة 1960 ــ 1982، لكن العاصمة الاقليمية سجلت سرعة تكاثر أهم (بنحو 27%) خلال العقد الأول، مقابل تفوق أقوى بكثير (بنحو 63%) للمراكز المحيطة أثناء العقد الثاني. أما إذا الحقنا مركزي تولال ودوار السوسي بمكناس، بحكم أنهما في الواقع مجرد تمدين تم على الأطراف الغربية والشرقية للمدينة، أصبحت نسبة زيادة مكناس (3،53%) تتجاوز بعض الشيء زيادة المراكز

الأخرى الباقية (3،43%) بين 1960 و1982، مع ملاحظة أن هذه المراكز حافظت على نفس وتيرة النمو طيلة العقدين معا، بينما نزلت النسبة بمكناس الكبرى بشكل واضح (4،43% في العقد الأول وفقط 2،63% في الثاني).

الجدول 6 ــ تطور سكان المراكز الحضرية بإقليم مكناس :

المراكز	عدد السكان			% الزيادة السنوية		
	1960	1971	1982	60 ـ 71	71 ـ 82	60 ـ 82
الحاج قدور	927	1148	1508	1،96	2،51	2،24
بوفكران	1088	1440	1925	2،58	2،67	2،63
عين الجمعة	977	1715	2182	5،25	2،21	3،72
سبع عيون	883*	1112	3646	2،12	11،40	6،66
أفوراي	1898	3045	4930	4،39	4،48	4،43
عين توجدات	2113	4137	7734	6،30	5،90	6،10
تولال	3653	5631	8134	4،01	3،40	3،51
دور السوسي	1864	2743	8148	3،57	10،40	6،93
مولاي ادريس زرهون	8114	9189	11126	1،14	1،75	1،45
الحاجب	7722	12581	16720	4،54	2،62	3،57
مكناس (2)	150470	243000	318000	4،45	2،48	3،46
مكناس (7)	155987	251374	334282	4،43	2،63	3،53
المجموع	179709	285741	384093	4،31	2،73	3،51

* تقدير

(1) : بدون دوار السوسي وتولال.
(2) : مع إضافة دوار السوسي وتولال.

بالنظر الى المراكز الحضرية العشرة المحيطة بمكناس نجد أنها، تبعا لكونها تميزت بنسبة تزايد سكاني أقوى من العاصمة الاقليمية، قد احتضنت 12،7% من مجموع الزيادة البشرية الحاصلة خلال الستينات، وتقريبا ضعف ذلك (23،7%) خلال السبعينات. وقد استأثرت أربعة من هذه التجمعات (الحاجب ودوار السوسي، عين توجدات وتولال) بنحو 70% من مجموع تلك الزيادة التي حدثت بين 1960 و1982. ونلاحظ أيضا أن ستة منها عرفت احتداما متواصلا لسرعة التزايد منذ 1960، وأحيانا بشكل مهول، كما هو حال سبع عيون ودوار السوسي، في حين سجلت الأربعة الباقية تباطؤا محسوسا في نموها خلال السبعينات، خاصة أقواري وعين الجمعة.

الجدول 7 ــ توزيع الزيادة السكانية حسب المراكز الحضرية :

المراكز	الحصة	في مجموع	الزيادة (%)
	71 ــ 60	82 ــ 71	82 ــ 60
الحاجب	36،0	17،7	24،4
دوار السوسي	6،5	23،2	17،1
عين توجدات	15،0	15،6	15،4
تولال	14،7	10،7	12،2
مولاي ادريس	7،9	8،3	8،2
أقوراي	8،5	8،1	8،0
سبع عيون	1،7	10،8	7،5
عين الجمعة	5،5	2،0	3،3
بوفكران	2،6	2،1	2،3
الحاج قدور	1،6	1،5	1،6
المجموع	100	100	100
مجموع الزيادة المطلقة	13502	23352	36854

وعلى أساس ايقاع تطورها الديمغرافي الذي حدث بين 1960 و1982، يمكن التمييز بين ثلاثة أصناف من المراكز : صنف شهد تزايدا هاما ومتواصلا، فاق بكثير المعدل العام الذي سجلته مجموع المراكز (3،78%) يشمل دوار السوسي وسبع عيون وعين توجدات ونسبيا أيضا أڤوراي صنف مناقض لم يعرف سوى نمو بطيء نزل عن ذلك المعدل العام، وأحيانا بكثير، يجمع الحاج قدور وبوفكران ومولاي ادريس، وأخيرا صنف وسط تميز بزيادة ما ثلت المعدل العام، يضم الحاجب وتولال وعين الجمعة.

ومما يمكن الاشارة اليه أن «موازين القوى» بين هذه المراكز قد تغيرت كثيرا خلال العقود الثلاثة الأخيرة. فالنصف الأول الذي لم يكن يضم سوى 23% من سكان مجموع مراكز الاقليم (دون مكناس بطبيعة الحال) في 1960، قد أصبح يشتمل على 37% منهم بعدما حصل به 48% من الزيادة السكانية الاجمالية التي عرفتها كل المراكز. هذا في حين أن الصنف الثاني الذي كان يقطنه نحو 35% من سكان 1960 لم يعد يجمع سوى 22% منهم، بينما حافظ الصنف الثالث على نفس الوزن تقريبا خلال هذه الفترة بحصة 12% في الزيادة الاجمالية.

الجدول ٤ ــ تطور الوزن السكاني بين المراكز الحضرية حول مكناس (%) :

المراكز	1960	1971	1982
الحاجب	26،4	29،4	25،3
مولاي ادريس	27،8	21،5	16،8
دوار السوسي	6،4	6،4	12،3
تولال	12،5	13،2	12،3
عين توجدات	7،2	9،7	11،8
أڤوراي	6،5	7،1	7،5
سبع عيون	3،0	2،6	5،5
عين الجمعة	3،3	4،0	3،3
بوفكران	3،7	3،4	2،9
الحاج قدور	3،2	2،7	2،3
المجموع	100	100	100

ورغم قلة المراكز الحضرية بمكناس فإنها تتنوع كثيرا من حيث قدم نشأتها وكيفية تطورها. وقد أدى التطور السريع والمتذبذب للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالاقليم، وكذا بمجموع البلاد منذ دخول الاستعمار، الى خلق حركات سكنية جد نشيطة تعمل في اتجاهات متعددة ومختلفة أسفرت عن تعزيز المكانة الديمغرافية لبعض المراكز وإضعاف مكانة مراكز أخرى، وكذا عن بروز تجمعات حضرية جديدة وركود تجمعات قديمة.

هكذا نرى أن مولاي ادريس، واحدة من أقدم المدن المغربية هي التي سجلت أضعف نسبة لتزايد السكان بالاقليم، شأنها في ذلك شأن العديد من المدن العتيقة الصغرى التي خانها موقعها الجغرافي المنعزل عن تيارات النشاط الجديدة (دمنات — دبدو أمزميز، عين اللوح...). بينما يكون أحدث تجمع، أي دوار السوسي، هو الذي عرف أقوى وتيرة للنمو. وتركز حول قصبات عسكرية قديمة تجمعات متفاوتة الأهمية والنشاط : فتولال وأقواري والحاجب، في ظروف جد متباينة شهدت إيقاع تكاثر سكاني متقارب. بينما اختلفت كثيرا مصائر مراكز التعمير الفلاحي، الرسمية وغير الرسمية، التي أقامها، المعمرون الفرنسيون بالسايس الغربي، حيث أن «نجاح» عين توجدات وسبع عيون يقابله ركود عين الجمعة و«فشل» بوفكران والحاج قدور.

ولاشك أن الفلاحة والادارة والمواصلات والقرب أو البعد عن عاصمة الاقليم... تمثل عوامل رئيسية تؤثر بقوة في السلوك والتطور السكاني لهذه المراكز. فتوسع تولال ودوار السوسي لايمكن أن يعزى بالأساس إلا الى الأوضاع العقارية العسيرة وأزمة السكنى التي ميزت مكناس، كسائر المدن المغربية الأخرى مع نهاية الستينات أو بداية السبعينات، محدثة انسكاب التمدين على الهوامش المباشرة للمدينة، فبرزت أحياء ضخمة في ظروف جد وجيزة، شيدت في جو من العشوائية والفوضى التامة والمضاربة الفاحشة، فاستقطبت أعداداً كبيرة من البشر ليس فقط من الجماعة الريفية التي تقع بها ولكن أيضا من داخل المدينة وآفاق أخرى (3).

أما نمو الحاجب وأقوراي، فلا شك أنه، الى جانب موقع الوصل بين السايس والأطلس المتوسط، قد لعب فيه العامل الاداري دورا رئيسيا (بحكم أن الأول مركز دائرة والثاني مركز جماعة)، لما يتولد عن ذلك من تحسن نسبي في التجهيزات الاجتماعية ومن تكاثر وتنوع التجارة والخدمات، مما يساعد على تثبيت السكان المحليين واجتذاب بعض الآخرين، خاصة من الناحية نفسها.

ولا يمكن أيضا فهم ترعرع مركز سبع عيون وخاصة عين تواجدات إلا على ضوء التطورات التي حدثت في الانتاج الفلاحي المحلي وما نتج عنه من نمو سكاني هائل بالمنطقة. إلا أن البعد النسبي عن مكناس وثانويا موقع الوصل بين السايس والأطلس المتسوط من جهة، وتعزيز الاداة الادارية وما يخلقه ذلك من حركية اجتماعية واقتصادية من جهة أخرى، كلُّها عوامل ساهمت بقليل أو كثير في الانفجار السكاني الذي عرفه هذان المركزان. لكن ذلك لم يكن مصير الحاج قدور وبوفكران، رغم الكثافة السكانية العالية التي تميز مجالهما. وربما يرجع هذا لتقاربهما الكبير مما يحدث تنافسا بنيهما، ولكن أساسا لوقوع جماعة بوفكران على أبواب مكناس، مما يدفع السكان الريفيين الذين «ينزعون الى التحضر» الى قصد العاصمة مباشرة أو الاستقرار عل أطرافها، خاصة في إحدى تلك الأحياء الهامشية التي نمت في كل اتجاه.

أخيرا، إذا نحن اعتبرنا أن كل مركز قد حافظ على نفس نسبة التزايد السنوية التي عرفها بين 1971

و1982 (وإن كان من المحتمل جدا أن تكون قد ارتفعت في المراكز المندفعة وتقلصت في المراكز الراكدة)، وجدنا أن المراكز المحيطة بمكناس تضم حاليا نحو 80 000 نسمة، أي 18 الى 19% من مجموع حضريي الاقليم. وتكون خمسة من هذه التجمعات تشمل ما يعادل أو يتجاوز 10.000 ساكن، بينما يصل اثنان الى حوالي 6000 وتبقى الأخرى دون 2500، مع احتمال ظهور تجمعات جديدة. وهكذا تكون مراكز حديثة العهد، ظهرت منذ عقدين على الأكثر، قد أصبحت في مصاف مدن قديمة عبرت قرونا من التاريخ.

الجدول 9 ــ تقدير عدد سكان المراكز الحضرية في 1986

الحاجب	19 000 :	ــ أقوراي	6.000 :
دوار السوسي	:	ــ سبع عيون	5500 :
مولاي ادريس	12 000 :	ــ عين الجمعة	2400 :
عين توجدات	10 000 :	ــ بوفكران	2100 :
تولال	10 000 :	ــ الحاج قدور	1600 :

ويمكن تقدير سكان مكناس حاليا بنحو 350.000 نسمة، وبذلك تأتي في الرتبة الخامسة بين المدن الكبرى المغربية. وإذا كانت المدينة قد حافظت على هذه الرتبة منذ أزيد من نصف قرن، وعرفت نمو سكانيا وتوسعا اقتصاديا هامين في الثلاثينات والأربعينات، بفعل اجتذاب أعداد غفيرة من المغاربة، ولكن أيضا من جراء تركز قوي للجالية الأوروبية والجماعة اليهودية، فإن حركيتها الديمغرافية راحت تتمهل نسبيا خلال العقود الثلاثة الأخيرة بالمقارنة مع المدن الكبرى الأخرى.

فإذا أخذنا المدن التي تجاوز سكانها 100 000 حسب إحصاء 1982، ونظرنا الى ايقاع تزايدها السكاني منذ 1960، وجدنا أن مكناس هي التي سجلت أدنى نسبة للتكاثر، لاتقل عنها سوى مراكش. فنسب زيادة سكان خريبكة والمحمدية والرباط وسلا قد تجاوزت نسبة مكناس بنحو 50 الى 60%، كما أن نسب زيادة القنيطرة وأسفي وتطوان ووجدة وطنجة تعدتها بنحو 20 الى 36%، وحتى فاس زادت عليها بزهاء 10%.

كما هو الشأن بالنسبة لجميع المدن الكبرى المغربية سجلت وتيرة النمو هبوطا هاما بين عقدي الستينات والسعبينات، بلغت حدته 40% لكن يلاحظ أن مكناس ظلت دائما في الرتبة 11 من حيث نسبة التزايد في كلا العقدين.

وهنا قد اعتبرنا مكناس الكبرى، أي بإضافة تولال ودوار السوسي. أما إذا أزلنا سكان هذين التجمعين الهامشيين، فإن نسبة الزيادة السنوية ستنزل الى 2،48% خلال السبعينات ومن ثم الى 3،46 بين 1960 و1982.

ومما لاشك فيه أن هذا التطور السكاني هو بالدرجة الأولى نتيجة للسلوك الديمغرافي وما يحصل عنه من زيادة طبيعية. لكن مفعول الحركات الهجرية، من توافد ونزوح، أثر بشكل محسوس في ذلك. وحسب

منشور لمركز الأبحاث والدراسات الديمغرافية، صدر أخيرا (4)، تكون مكناس قد استقبلت بين 1975 و1982 حوالي 38.000 نسمة أتوها من جميع اصقاع الوطن، بينما تكون هي قد أرسلت خلال نفس الفترة زهاء 14000 نسمة لمختلف المدن الكبرى فقط (الدار البيضاء، الرباط — سلا، فاس، مراكش، طنجة، تطوان، اسفي، القنيطرة، وجدة، خريبكة، وأكادير) أما الوافدون عليها فنحو 5/2 أتوا من الأرياف و5/3 من المدن، من بينهم 5/2 من المدن الكبرى. أي أن ميزانها الهجري كان سلبيا مع هذه المدن، إذ بعثت إليها 14000 نسمة ولم تأخذ منها سوى 000 10. وتأتي على رأس هذه المدن الباعِثة للسكان الدار البيضاء، المحمدية والرباط، سلا (42% من المجموع)، فاس (21%)، القنيطرة (10%)، والباقي وفد أساسا من مراكز الاقليم، والغرب وبلاد زمور وزيان والمغرب الشرقي.

أما الوافدون من الأرياف، فقد أتوا بالدرجة الأولى من الاقليم نفسه (33% من المجموع) ومن أقاليم فاس وتازة وتاونات (26%) الغرب (11%) وزمور (7%).

وبالنسبة للنازحين فإن عدد من هجر مكناس خلال فترة 1975 — 1982، يمثل 77% من مجموع من غادروا الاقليم، مقابل 31% بارحوا المراكز الأخرى ونحو 10% خرجوا من الأرياف. وقد توجه المكناسيون الذين قصدوا المدن الكبرى بالأساس نحو الرباط — سلا (34،4%) والدار البيضاء — المحمدية (23،8%) وفاس (15،2%) وبصفة ثانوية نحو القنيطرة (6،1%) وطنجة (4،4%) ومراكش (3،6%) واسفي (3،5%) ووجدة (3،2%).

الجدول 10 — نسبة التزايد السكاني في المدن المغربية الكبرى :

	عدد السكان المغاربة بالالاف			الزيادة السنوية %		
المدن	1960	1971	1982	60 — 71	71 — 82	60 — 82
خريبكة	38	73	127	6،20	5،16	5،68
المحمدية	32	69	104	7،32	3،74	5،52
الرباط سلا	256	514	830	6،53	4،45	5،48
طنجة	101	177	288	5،18	4،54	4،86
وجدة	91	169	255	5،84	3،81	4،82
الدار البيضاء	778	1441	2107	5،77	3،41	4،63
اسفي	77	126	196	4،61	4،04	4،33

تطوان	78	135	198	5،03	3،57	4،30
القنيطرة	75	135	187	5،51	2،98	4،24
فاس	198	321	465	4،50	3،41	3،96
مكناس	150	243	326	4،45	2،71	3،58
مراكش	222	329	437	3،62	2،62	3،12

الخاتمة :

لم تكن الغاية من هذه النظرة العاجلة الى تطور السكان بمدينة مكناس وظهيرها لا دراسة الظاهرة ولا تحليلها، بسبب غياب جل العناصر لذلك، بل فقط رصد الخطوط العريضة والاتجاهات الكبرى التي تميز هذا التطور.

فقد ظهر لنا أولا أن المنطقة تعرف نوعا من التوازن في تطور سكانها، بين الريف والحضر، بحيث أن المجال الأول يشهد حيوية ديمغرافية تماثل، بل تتجاوز، تلك التي تميز المجال الثاني. فالوزن السكاني للأرياف قد تعزز نسبيا بين عقدي الستينات والسبعينات، من 26،5 الى 28،7% في مجموع سكان الاقليم. وهذه ظاهرة قليلا ما نجدها في المناطق المغربية الأخرى. فهل حقا هذا مؤشر توازن إقليمي أم مبعثه فقط «تأزم» الأوضاع بمكناس وبعض المراكز المحيطة بها ؟

كذلك رأينا أن نسبة الزيادة السكانية، في الأرياف والمدن على حد سواء، عرفت تمهلا خلال عقد السبعينات بالمقارنة مع العقد السابق. فهل يرجع ذلك الى عوامل داخلية أم أن حدة النزوح صارت أقوى تجاه مناطق أخرى من البلاد ؟

وسجلنا أيضا ذلك السلوك السكاني المتذبذب والمتفاوت بين المراكز الحضرية. فهل ذلك مؤثر على التقلبات والتحولات التي تحدث في الاقتصاد المحلي أم على زيادة تأثير عوامل خارجية ؟

ثم ماهي درجة حساسية المنطقة للتمدين ؟ فهناك بالاقليم تجمعات بشرية ريفية تفوق 2000 وأحيانا 3000 نسمة. بعضها قديم، بدأت تتجهز على الأقل من الناحية التجارية. فكيف يتم تطورها واندماجها في الاقليم أولا، وفي مجموعة المراكز ثانيا ؟ هل مراكز المنطقة تؤلف شبكة حضرية أم لا ؟

هذه مجرد بعض التساؤلات التي ترسم معالم دراسات وأبحاث هي وحدها كفيلة بالاجابة عنها.

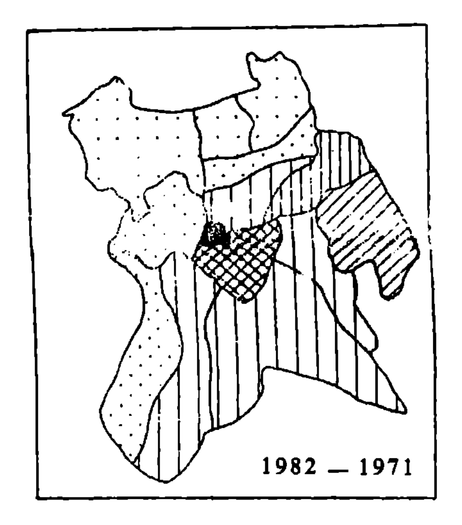
الهوامش

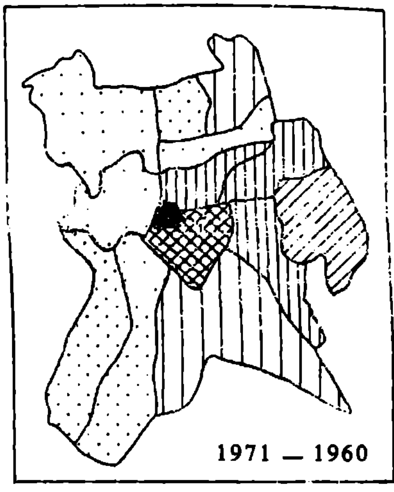
(1) لقد تراجع عدد الاجانب واليهود بالاقليم من حوالي 40.000 في بداية الخمسينيات إلى 26.000 في 1960 ثم إلى نحو 6000 في 1971 لينزل دون 2000 في 1982، وبذلك مرت نسبتهم في مجموع السكان من 7،1% في 1960 إلى 1،2% في 1971 إلى 0،3% فقط في 1982.

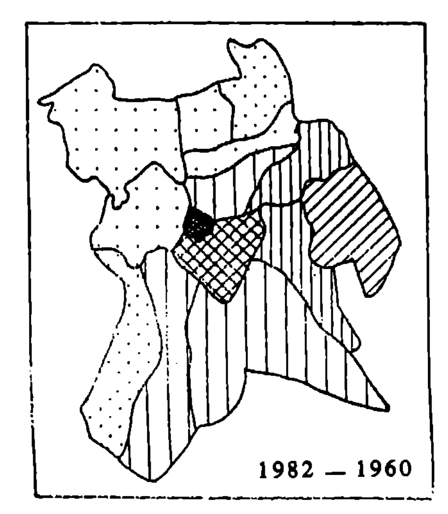
(2) كان هذا التجاوز بنسبة 09% بين 1960 و 1971 ثم ارتفع إلى 14% في العقد التالي. اما في المجال الحضري فإن نسبة تزايد سكان مراكز الاقليم التي كانت تمثل 78% من المعدل الوطني خلال الستينات لم تعد تمثل سوى 59% خلال السبعينات (ارجع إلى الجدول : 2).

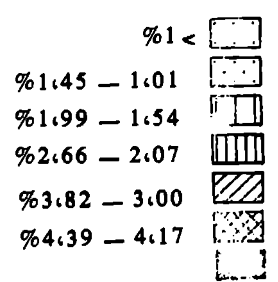
(3) تكاد لم تنج أية مدينة كبيرة أو متوسطة من بلاء وعدوى التمدين الذاتي الهامشي الذي انتج تجمعات «حضرية» اخطوطية واسعة جدا ومن اشهر هذه التجمعات، نذكر على سبيل المثال : حي بن ديبان بطنجة، والقرية والأحياء الشمالية الشرقية بسلا القيش والعرب بالرباط وتمارة، الجنانات وسيدي إبراهيم ومون فلوري وعوينات الحجاج وبنسودة بفاس، الدشيرة وبنسربا ووتراست وتكوين والجرف بأكادير، زكزل ببركان الخ...

(4) Analyses et tendances démographiques au Maroc. C.E.R.E.D. 1986.

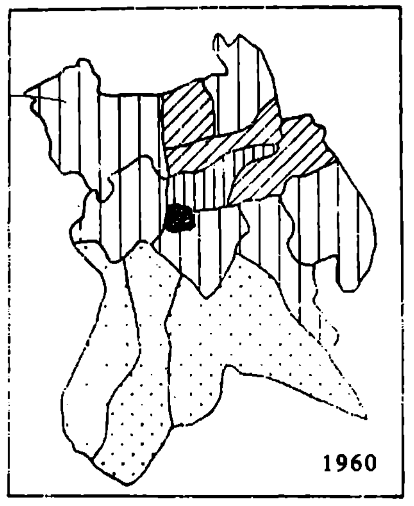


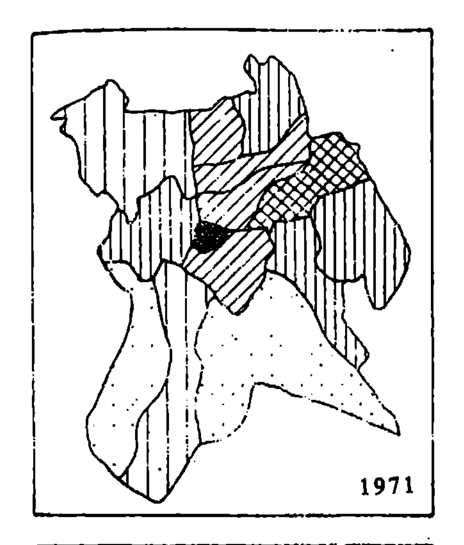


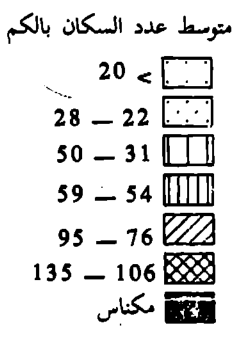


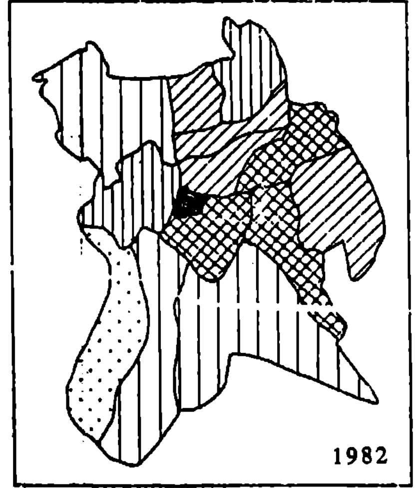


الخريطة 1 ــ نسبة التزايد السنوي لسكان الأرياف بإقليم مكناس

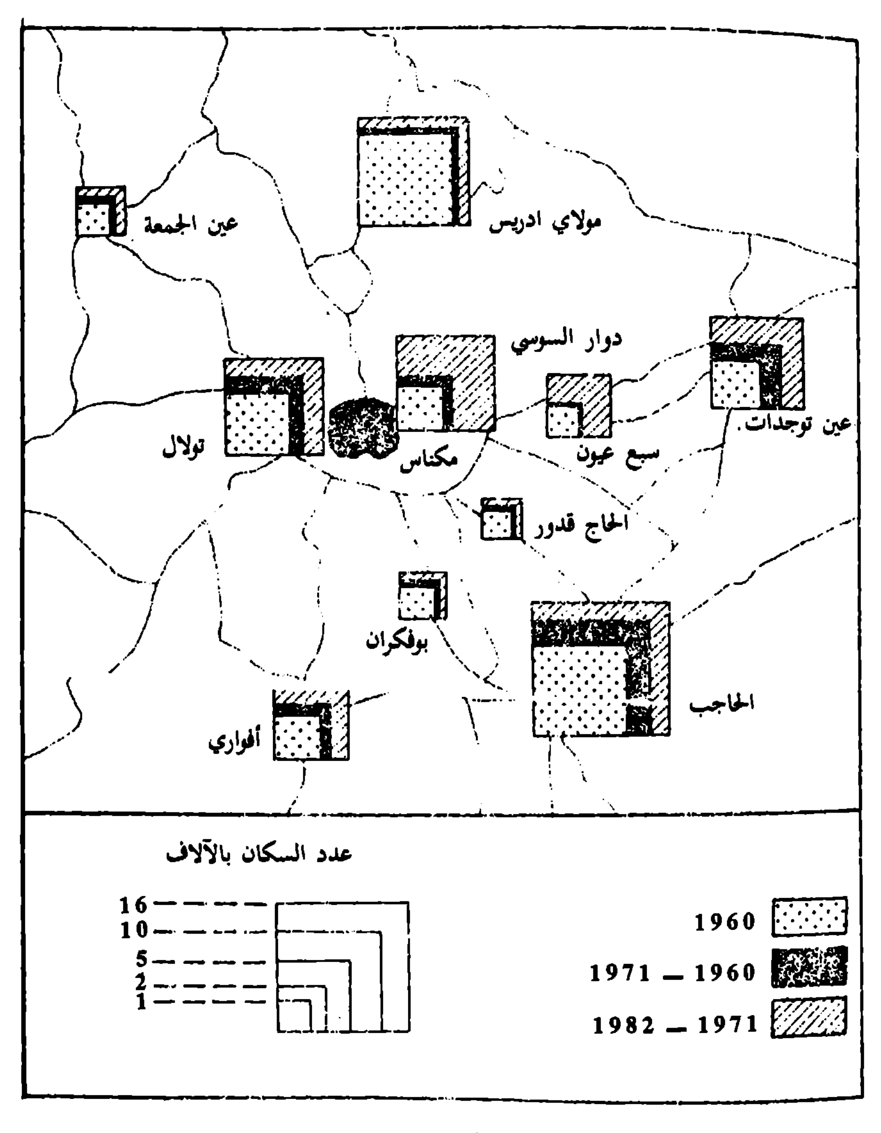




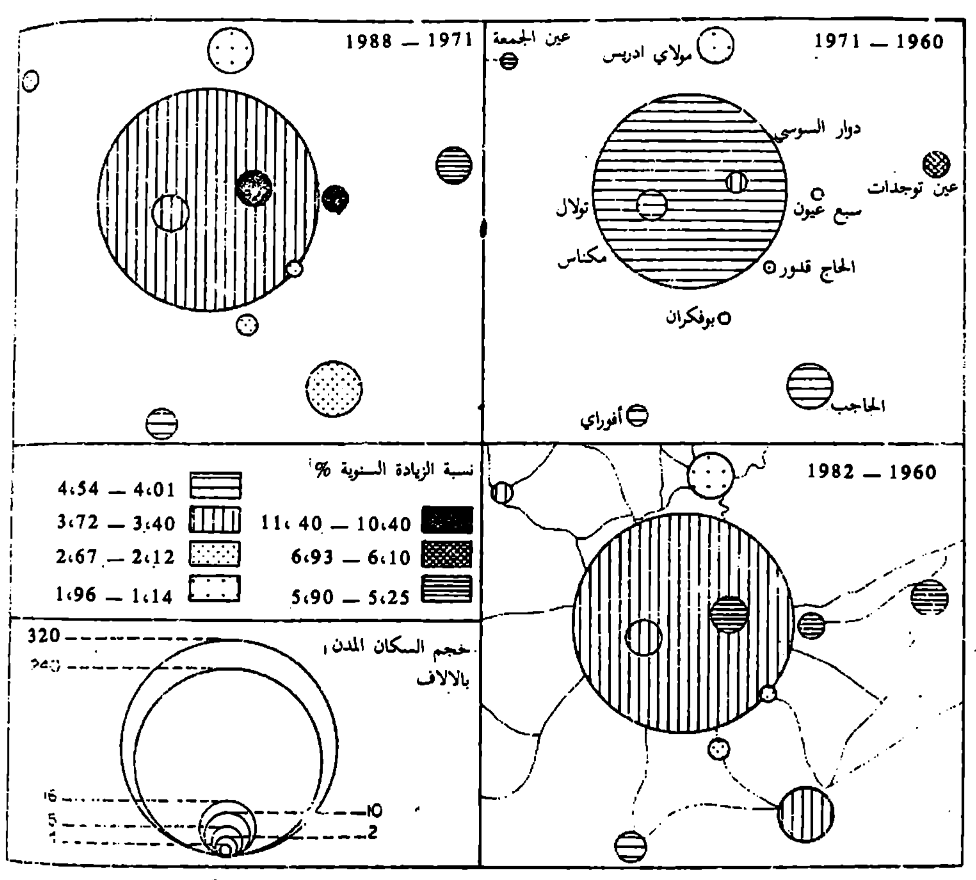




الخريطة 2 ـ تطور كثافة السكان بأرياف إقليم مكناس



الخريطة 3 ـ تطور عدد سكان المراكز الحضرية حول مكناس



الخريطة 4 — وتيرة الزيادة السكانية بمدن إقليم مكناس

ظـروف بنـاء حمريـة
وتكوين المجتمع الأوربي

الأستاذة رقية بلمقدم
المركز التربوي الجهوي
مكناس

مقدمـــة :

شرعت السلطات الفرنسية بالمغرب بعد توقيع عقد الحماية بينها وبين مولاي حفيظ 30 مارس 1912، في تطبيق مخططها الرامي الى تحويله لمستوطنة تخدم الاقتصاد الرأسمالي الفرنسي، وعهدت بتحقيق ذلك لمقيميها العامين في المغرب وفي مقدمتهم «Louis Hubert Lyautey» ليوطي (أبريل 1912 أكتوبر 1925)، الذي بذل جهودا كبيرة في جميع الميادين لتثبيت دعائم الوجود الفرنسي بالمغرب عسكريا واقتصاديا واجتماعيا... ومن أجل ذلك قررت الادارة الاستعمارية بالرباط، تطبيق مشروع تمدين شمل أهم المدن المغربية وخاصة العواصم منها، وبناء أحياء جديدة عصرية مستقلة عن المدينة الأصيلة ـــ تكون مقراً للجاليات الأوربية النازحة عرفت بالمدن الجديدة Les villes nouvelles.

كانت مكناس من بين المدن التي شملها مشروع الاقامة العامة بالرباط لاعتبارات متعددة، طبيعية واقتصادية وبشرية.... فأقيمت مدينة جديدة على هضبة حمرية نتجت عنها تبدلات عميقة مست شروط العيش والعلاقات الاجتماعية والسياسية والنشاطات الاقتصادية لساكنة مكناس.

1) السياسة المعمارية الفرنسية بالمغرب :

يدخل بناء حمرية في إطار سياسة ليوطي المعمارية الهادفة إلى تأمين سكن ذي مستوى رفيع للأوربيين (1)، والقائمة على مبدأ الفصل والتمييز بين الأوربيين والمغاربة، وتلك أيديولوجيته التي كيفها وحاول تبريرها ـــ تغطية للنوايا الحقيقية للاستعمار ـــ بحجة الحفاظ على التراث القومي والشخصية المغربية، ولتحقيق هذا المخطط أحاط ليوطي نفسه بمجموعة من التقنوقراطيين والمهندسين المعماريين الذين كانوا يشاركونه أهدافه وقيمه (2)، والذين قدموا المغرب تحدوهم آمال تحقيق أحلام وطموحات عجزوا عن تحقيقها في فرنسا، وفي مقدمة هؤلاء هنرى بروست (3) Henry Prost الذي وصل الى المغرب في شهر دجنبر 1913، واستقبله ليوطي وخاطبه بما معناه : «عليك أن تطبق القواعد الأكثر عصرية في التمدن» وهذا تأكيد منه على الفصل التام بين الأحياء الأصلية ومثيلاتها الأجنبية، ورغم تباين الآراء (4) حول مراحل التخطيط الحضري الفرنسي بالمغرب، فهناك اتفاق على أن المرحلة الأولى تشمل مجموعة : «ليوطي ـــ بروسط»، فقد قام بروسط فيما بين 1914 ـــ 1922 بوضع تصاميم هندسية للعواصم المغربية، مراكش، مكناس، فاس والرباط تساير

أيديولوجية ليوطي التي تبناها، وتعكس الذوق الجمالي الذي امتاز به كل منهما (بروسط. ليوطي). (5)
تطلب تشييد المدن الجديدة عناصر متعددة أهمها إيجاد الأرض التي بنيت فوقها، وكان هذا أول مشكل واجه السلطات الفرنسية، التي سرعان ماوجدت له الحل المناسب، وفي هذا الاطار يطرح تساؤل : ماهي الأساليب التي استعملها الفرنسيون ومكنتهم من الحصول على الأراضي الشاسعة التي أقاموا عليهامدنهم ؟ إن الاجابة عن هذا التساؤل تفرض البحث في الوضعية العقارية لهذه الأرض قبل الاستيلاء عليها من جهة (6)، ومن جهة ثانية في القوانين والظهائر التي تم سنها وإصدارها في المراحل الأولى من تاريخ الحماية بالمغرب (7). لقد كان هم النظام الجديد هو البحث عن وسائل وسبل لتملك الأرض، ومساعدة الوافدين الأوربيين على ذلك بشكل نهائي وقانوني ولم يتحرج من العبث بالقوانين وإعطائها تفسيرات مختلفة لاضفاء الطابع القانوني على الأرض التي تم الاستيلاء عليها في المدن والبوادي على السواء، ومن ذلك مثلا ظهير نزع ملكية الأرض من أجل المصلحة العامة، الصادر بتاريخ 31 — 8 — 1914.

كذلك تجرأ الفرنسيون على أراضي الأحباس، رغم التزامهم باحترامها في البند الأول من عقد الحماية : «فهذا النظام سيحافظ على الحالة الدينية وعلى احترام السلطان ونفوذه التقليدي وممارسة الديانة الاسلامية والمؤسسات الدينية وبالأخص منها الأحباس...» (8) فأهمية الأحباس المادية دفعت الاقامة العامة بالرباط الى الهيمنة عليها خارقة بذلك ما سبق أن تعهدت باحترامه، فأسست وزارة الأوقاف بمقتضى ظهير 16 جمادى الثانية 1332 موافق 12 ماي 1914 ووضعت الوزارة تحت مراقبة الادارة الشريفة التي طغت على وزارة الأحباس التي أصبحت مقيدة بإرادة هاته الادارة حتى في اتصالاتها العادية مع فروعها ونظاراتها المحلية (9) وامتدت هاته المراقبة الى جلسات المجلس الحبسي الأعلى (10) التي كان يحضرها مراقب الأحباس، وبعض كبار الموظفين الفرنسيين وعلى رأسهم ليوطي الذي كان يلقي خطبته في الجلسة الافتتاحية، مركزا على أهمية الأحباس وما حدث فيها من تطور «إن أحباس الايالة الشريفة قد صارت في القطر المغربي لها أهمية وشأن عظيم ومرتبة حقيقة بالاعتبار (11) وحدد مهمتها في الأعمال الدينية فقط : «كما أني أراكم فرحين مسرورين بما شاهدتموه وأطلعتم عليه في هذا المجلس من تحسين حالة الحبس، هذا التحسين العظيم الذي سيتسنى معه لجانبه أن يقوم استقبالا بجميع الوظائف الدينية والمشروعات الاسلامية (12). وقد تجرأ ليوطي في خطاب له يوم 20 غشت 1917 أمام المجلس الأعلى للأحباس، فهنأ الموظفين المغاربة في الأحباس على نجاحهم الكبير في جميع الأموال، ولاحظ أن «القوانين الحديثة والمضبوطة قد أدت الى ترويج أملاك الأحباس التي لم تعد موقوفة حيث أصبح يستفيد منها المستوطنون الذين استقروا في البلد...» (13).

ولما كانت أراضي الأحباس الشاسعة، لا تشترى ولا تباع ولا تعوض بمقتضى ظهائر سلطانية منها ظهير سلطاني أصدره المولى عبد الرحمن : «يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره... أننا منعنا المعاوضات كلها في أصول الأحباس كلا وبعضا داخل مكناسة الزيتون وخارجها وكذا الجزاء في الأصول والماء وقطعنا ذلك على كل أحد كائنا من كان فلا يعوض أحد شيئا منها ولا يجزيه، ومن فعل شيئا من ذلك يفسخ ونعاقبه أشد العقوبة فإن لفظ المحبس كلفظ الشارع لايبدل ولا يغير.... ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسائله وولي الانتقام منه.... صدر به أمرنا المعتز بالله في 10 جمادى الأولى 1248 هـ» (14) لذلك عملت الاقامة العامة على إصدار ظهائر سلطانية تفسخ ما جاء في الظهير السابق، كظهير 21 يونيوه 1913 الذي يسمح بعقد المعاوضات في أراضي الأحباس وظهير 21 ماي الذي يقنن هاته المعاوضات، كان نصيب مكناس من هاته الظهائر وفيرا، فهي من بين المدن التي شملها تخطيط «بروسط، ليوطي»، لكونها عاصمة

اقليم احتل مركز الصدارة في السياسة الاستيطانية الفرنسية، لمؤهلاته الطبيعية والاستراتيجية، التي أجتذبت الكثير من المهاجرين الأوربيين... «أما وضعية مكناس... فهي لقربها الشديد من الريف والأطلس المتوسط وممر تازة ـ من أجل تسهيل المراقبة الادارية والعسكرية ـ أصبحت مركزا عسكريا هاما... زيادة على وجودها وسط مزدرع خصب (15). كماأن الأرض التي وقع عليها الاختيار لتبنى فوقها المدينة الجديدة كانت أراضي محبسة.

2) ـ بناء المدينة الجديدة ـ حمرية :

1 ـ وضعية حمرية :

عرفت حمرية ببلاد حفص أو بأبي حفص قبل أن يتملكها المولى اسماعيل (1672 ـ 1727) بالمعاوضة مع مالكها محمد بن ادريس الحسني المنوني أواخر ذي القعدة 1096 (نص المعاوضة يوجد في الملحق1)، ثم غرس بها حوالي 100 ألف شجرة/من الزيتون تم حبسها على الحرمين الشريفين (16) ثم جدد المولى محمد بن عبد الله 1757 ـ 1790 تحبيسها بعد أن أصلح ماحل بها من خراب نتيجة الفتن التي سادت المدينة إثر وفاة المولى اسماعيل : «اقتضى نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد أن خرج عن بعض مايحبسه من ماله رجاء ثواب الله ونواله، وهو جميع الغابة من الزيتون المسماة بعسرية... وخرج عنها لوجه الله تعالى (كذا) فجعلها حبسا في سبيله ...» (17) ويرجع تاريخ هذا الظهير الى 28 ذي القعدة 1184 هـ الموافق لـ 1770 م. وقد كانت مستفادات زيتون حمرية المحبسة تصرف في مجالات متعددة حسب ظهير التحبيس (انظر نصه في الملحق2) الذي جعل نصفه حبسا على الحرمين الشريفين تختص المدينة المنورة بالثلثين ومكة المكرمة بالثلث، بينما حبس النصف الاخر على المسجد الأعظم يخرج منه كل سنة نحو : «... مائة مثقال واحدة وستة وثلاثون دراهم يبعث الجميع لسجلماسة، أما المائة فتصرف في مهماة (كذا) روضة سيدنا مولاي علي الشريف ولطلبة يقرأون الحزب ودلايل الخيرات وهنالك كل يوم في كل عام وللمؤذنين وقيم الروضة وطعام المولد النبوي... وأما الستة والثلاثون مثقالا فتصرف لطلبة يقرأون الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والدة مولانا الامام وعلى قبور أعمامه الذين معها في روضة سيدي أبي زكري...» (18) كما يخرج من النصف المذكور المخصص للمسجد الأعظم : «رطلا من الزيت في كل يوم لضريح ولي الله تعالى (كذا) لسيدي أبي يعزى ورطلا منه كل يوم لمولانا ادريس الأصغر...» (19) ومما جاء في هذا الظهير أن تحبيس زيتون حمرية حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا لايتعقبه فسخ ولا يتناول أي محكمه فسخ (20) وجاء في ظهير آخر صادر في 2 جمادى الأولى 1193 هـ موافق 1779 تأكيد للتحبيس الوارد في الظهير السابق.

وبقيت وضعية حمرية على ما أمر به السلطان سيدي محمد بن عبد الله حبسا تصرف مداخيله حسب ماجاء في الظهائر التي وردنا، الى أن دخل الجنرال موانيي مكناس في 8 يونيوه 1911 مصحوبا ببعض أعضاء مخزن مولاي حفيظ، وفي مقدمتهم بنعيسى بن عبد الكريم البخاري، الذي نصب باشا على مدينة مكناس، وتقرر بناء مدينة جديدة لضروريات دفاعية وإدارية ونفعية... فوقع الاختيار على هضبة حمرية المحبسة ـ لموقعها ـ لتبنى فوقها هاته المدينة.

3) ـــ تطور أعمال البناء بحمرية :

ارتبطت أعمال البناء وتطوره بوجود الجالية الأوربية، كما ارتبط تطور هاته الجالية كما وكيفا بتقدم هذا البناء وتوفر السكن.

لم يكن بمكناس يوم أن احتلتها القوات الفرنسية إلا خمسة أوربيين، ارتفع عددهم في شهر يناير 1914 الى 150 أو 550 نسمة حسب المصادر 21)، سكن هؤلاء بأحياء شعبية، وبعد تزايد عددهم كما سنوضح أصبح لزاما بناء أحياء جديدة لهم...

وضع بروست Prost تصميم المدينة الجديدة، «وكان الشروع في تسطير طرقها في شهر غشت سنة ست عشر وتسعمائة وألف ومسيحية» (22) وأسندت مهمة إنجاز للكولونيل بويميرو Poeymirau القائد العسكري العام بمكناس ـــ مما يؤكد أهمية المدينة العسكرية ـــ الذي كان يشارك ليوطي في سياسته ببناء مدن جديدة بعيدا عن الأهالي، فعمل على تنفيذ المشروع باتفاق مع بلدية المدينة، «وشرع في البناء بها بالفعل في محرم فاتح سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف» (23) رغما عن وضعيتها القانونية، بعد أن نجحوا في استصدار ظهائر (يوسفية) تجعل أرض حمرية قابلة للمعاوضة والبيع» وصدر الأمر العالي بتعويض أرضها معاوضة نقدية لمن يريد البناء بها من الأجانب والأهالي عام خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف موافقه شهر جوليت سنة سبع عشر وتسعمائة وألف» 24) كما تجعل منها مناطق معدة للبناء وتكثير العمران بعد السماح بتجزئتها : «يعلم من كتابنا أسماه الله وأعز أمره أنه بناء على ما يلزم لتسهيل نمو العمران وانتشاره بمدينة مكناس، أصدرنا أمرنا الشريف بما يأتي : الفصل الأول قد أذنّا في تجزئة مساحة الأرض المعروفة بحمرية هناك، المحكوم بملكية جميعها بجانبي الأحباس الكبرى المكناسية وأحباس الحرمين الشريفين، الفصل الثاني صادق جانبنا الشريف على ما وقع من تعيين بعض الأجزاء لمن توفرت فيهم الشروط المبينة في كناش تجزئة قسمتين منها تعرف إحداهما بحومة محج ـــ أ ـــ وهي المعدة للسكنى والتجارة بالتفصيل والأخرى بحمرية وهي المعدة للصناعات والتجارة بالجملة.الفصل الثالث كلفنا خديمنا وزير الأوقاف بتنفيذ مقتضيات ظهيرنا الشريف هذا... وحرر برباط الفتح في سادس رجب الفدد الحرام عام 1336، وقد سجل هذا الظهير الشريف في الوزارة الكبرى بتاريخ 8 رجب الموافق لـ 20 أبريل سنة 1918 (25)».

إن السماح والموافقة على تجزئة أرض حمرية ـــ كما يبدو من الظهير السابق لتشييد البناءات عليها وفق شروط محددة لاتتوفر إلا للأجانب ولذوي اليسار والحظوة من المغاربة ـــ رغم كونها محبسة تحبيسا أبديا، لايفرسه إلا ضغط السلطات الفرنسية على السلطان الذي أصبح عاجزا أمام الاقامة العامة عن ابداء أي رأي أو معارضة، خاصة وأن الأمر يخص الجالية الفرنسية وليس الأهالي.

ووالي السلطان المولى يوسف بن الحسن (1912 ـــ 1927) إصدار الظهائر المتعلقة بالمعاوضات النقدية في أرض حمرية التي جزأها الفرنسيون.

وقد تهافتت الادارة الفرنسية المدنية منها والعسكرية، وكذا الشركات والجمعيات والخواص على اقتناء الأراض مقابل تعويضات نقدية بسيطة تتراوح بين 1،50 سنتيم سنة 1918 و10 سنتيمات سنة 1928 للمتر المربع، وهذا التعويض النقدي هو أقل بكثير مما يبعت به الأراضي التي أقيمت عليها المدن الجديدة في باقي المدن الأخرى، لأن أرض ححمرية بمكناس كانت محبسة،فلم تعرف تلك المضاربات العقارية، وذلك الربح الذي حصل عليه الخواص ببيعهم لما كانوا يملكونه من أراضي للأجانب في المدن المغربية الأخرى، ولكن

الأحوال تغيرت فيمابعد : «وكان ثمن المتر المربع إذ ذاك فرنكا واحدا وخمسا وسبعين سنتيما، ولما كثرت الرغبة وتهافت الأجانب والأهالي على الشراء، ولاحت لوائح الاستعمار بلغ ثمن المتر المربع سبعين فرنكا» (26).

نماذج من المعاوضات

يبدو من نصوص المعارضات الواردة في الحوالة الحبسية رقم 8 بنظارة أوقات مكناس أن الجزء الأكبر من هاته المعاوضات تم في الفترة ما بين 1920 و1930 وهي المرحلة التي عرف فيها المعمار بالمدينة الجديدة أقصى توسع له، وقد فازت إدارة البلدية بالنصيب الأوفر من هاته المعاوضات تليها شركة سكة حديد طنجة فاس (انظر الملحق 3).

نماذج من المستفيدين من المعاوضات التي تمت في أرض حمرية

اسم المستفيد	مهنته	مساحة الأرض التي عوضت	رقمها	تاريخ المعاوضة
إدارة العلوم والمعارف	–	7983 م 2	559	ذي القعدة 1336 هـ — 1918 م
إدارة البريد المخزني والتلغراف	–	1688 م 2	30 و31	7 محرم 1337 هـ
شركة الدخان	–	2415،38 م 2	61	8 ربيع الثاني 1337 هـ
شركة سكة حديد طنجة فاس	–	147	6،5	26 شعبان 1337
شركة البناءات	–	883،16	326	1 رجب 1341 — 18 يبراير 1923
الشركة العقارية والمالية الشريفة	CIFC–	5250 م 2 –	لارقم لها	15 جمادى الثاني 1348 — 7 نونبر 1929
الجمعية النصرانية	–	8696 م 2	لا رقم لها	13 رجب 1338 — 17 أبريل 1920
جمعية أشغال الأطلس	–	10016 م 2	لا رقم لها	9 ذي القعدة 1338
جمعية البنك الجزائري التونسي	–	2689،31 م 2	لا رقم لها	29 صفر 1340
السيد مير Maire	تاجر	1400 م 2	58،57	21 جمادى الأولى 1337
السيد فورنو Fournau	تاجر	815،10 م 2	–	5 شعبان 1338
موشي وحاييم	تاجران	921 م 2	97	5 ربيع الثاني 1339
السيد بانيون Pagnon	فلاح (معمر)	–	47 و48	18 صفر 1339
السيد ماص	–	704 م 2	221	فاتح محرم 1339
كرنيط	طبيب	488،20 م 2	317	شوال 1339 — 2 يوليوز 1921
مانظرا	مهندس	497 م 2	266	11 ربيع الأول 1340
دوفور	طبيب	918 م 2	102	3 جمادى الثانية 1340
السيد فارين	مهندس	4595 م 2	344	23 ذي الحجة 1339
لقبطان بركواتري	ضابط	895،42 م 2	–	23 شوال 1337
الكومندان نيقل	ضابط	830،16 م 2	322	فاتح رجب 1341
حان ماريز البرتغالي	بناء	–	–	25 ربيع الأول 1341 —
السيد كرونيلي	ميكانكي	2114 م 2	128	8 وشوال الابرك 1344
ادريس بن الجيلالي محمدي	؟ –	792 م 2 –	37 –	22 شوال الابرك 1337 –
محمد بن محمد بناني	–	670 م 2	18	15 محرم الحرام 1338
محمد المختار الفيلالي	–	600 م 2	17	21 ذي الحجة 1337

* مصدر هذه النماذج الحالة الحبسية رقم 8 من ص. 400 الى 790.

كما يبدو من هذه الأمثلة أن المعاوضات شملت إدارات وشركات وجمعيات وخواص من مهندسين وأطباء وضباط ومحامين ومعمرين وتجار وغيرهم، وكان نصيب المغاربة منهم ضئيل جدا.

انطلق البناء اعتمادا على تصميم Henri Prost الذي قسم حمرية الى مناطق وقطاعات متخصصة، وهذا ماتؤكده ظهائر التجزئة والمعارضات الخاصة بها : «تجزئة قسمتين منها تعرف إحداهما بمحجـ ـ أ ـ وهي المعدة للسكنى والتجارة بالتفصيل والأخرى بحمرية وهي المعدة للصناعات والتجارة بالجملة...» (27).

وقد مر بناء حمرية ـــ المدينة الجديدة بمراحل تمتد أولها من 1918 الى 1921، وقع التركيز فيها على تلبية الحاجيات الملحة كالأمن، والنقل، والتطبيب، والتعليم، واختارت المصالح البلدية المنطقة التي أطلق عليها Camp Poublan وحاولت أن تجعل منه حيا جميلا وأنيقا صالحا لأن يتوسط المدينة، خصصت مساكنه الأولى للضباط وعائلاتهم ولم يلبث أن توسع شرقا مكونا الحي العسكري.

دشنت نهاية أعمال هاته المرحلة من قبل المقيم العام المرشان ليوطي في 15 ماي 1921 (28) في حفل رسمي أقيم بقصر بناني ـــ الموجود بالمدينة القديمة حضره الموظفون السامون بإدارة الاقامة بالرباط وبالادارة الاقليمية بمكناس، كالجنرال Poeymirau وكذلك أكبر المعمرين بإقليم مكناس E.Pagnon، وترددت في الكلمات التي ألقاها المسؤولون الفرنسيون كالقائد العسكري للاقليم ورئيس البلدية والمقيم العام، عبارات الاعتزاز بهذا الانجاز الرائع الذي حقق حلم الأوربيين في مكناس، وركز هؤلاء المسؤولون على أهمية مكناس واعتبروها الروح العسكرية للمغرب L'Ame militaire du Maroc، كما اعتبروها امتدادا طبيعيا للوطن الفرنسي لما يزخر به إقليمها من موارد طبيعية جد هامة.

إن أهمية مدينة مكناس لدى المسؤولين الفرنسيين لم تقف عند حد تدشينها رسميا باعتبارها أول مدينة جديدة بالمغرب، تحظى بهذا الاهتمام ولكن الأمر أخذ باهتمام أكبر الشخصيات الفرنسية، وفي مقدمتهم الرئيس الفرنسي ألكسندر ملليرآن A.Mellirand الذي زار مدينة مكناس في شهر أبريل 1922 وأعجب بما أنجز فيها من منشآت عمرانية (29).

كانت المرحلة الأولى قصيرة ولهذا لم تظهر معالم معظم المنشآت التي وضعت لبناتها إلا في المرحلة التالية 1921 ـــ 1930 مرحلة التوسع الحقيقي لحمرية، تميزت بظهور عدد من المؤسسات العمومية تجمع في هندستها بين الطابعين المعماريين المغربي والأوربي Neo-arabe من بينها وحتى حدود 1927.

- مقر بلدية الاقليم L'Hotel de la région
- بنك الدولة La Banque d'Etat du Maroc
- محطتي القطار التابعتين لشركة خطوط السكة الحديدية (طنجة فاس)
- مجمع التبغ La monopole des tabacs
- مكتب بريد المدينة الجديدة L'actuel bureau de poste de la ville nouvelle
- ثانوية بوا يميرو Lycée Poeymirau

وبموازاة هذه المنشآت العمومية تم بناء مجموعة سكنية خاصة ومشتركة أقدمها حافظ على الطابع المغربي من أشهرها عمارة ماص (30)، كما منحت سنة 1922 أراضي في حمرية لجرحى الحرب (31). وقدمت قروض عقارية طويلة الأمد لقدماء المحاربين وبعض العائلات المتعددة الأفراد حتى يتمكنوا من بناء سكنهم العائلي، وهذا أدى الى ظهور مساكن عشوائية لاتتوفر حتى أدنى ذوق جمالي زرعت بين أحياء المدينة بدون أي انسجام، مما دفع مصلحة الفنون الجميلة والهندسة المعمارية ـــ المكونة من مهندسين شباب

طموحين — الى التدخل ووضع قانون للبناء، كما ظهرت مجموعة من الفيلات الأنيقة. (عبد المومن — وطريق زرهون).

الشيء الذي نتج عنه تنوع في منظر المدينة الجديدة. ساهمت في هذا البناء الشركة المغربية العمومية ثم حلت محلها شركة البناءات المغربية حوالي 1922، وبدخول سنة 1929 ظهرت شركة خاصة C.I.F.C. (32) تبنت تصاميم هندسية معمارية أكثر عصرية من المباني السابقة ظهرت في المرحلة التالية.

وحوالي 1930 برزت مباني جديدة هامة منها :

- المكاتب المركزية لشركة خطوط السكة الحديدية طنجة فاس.
- المؤسسة الخيرية قطرة الحليب La goûte de lait.
- المحكمة La justice de paix
- عمارة الغرف التجارية والفلاحية.
- المعهد الموسيقي البلدي.

عرفت هذه المرحلة الهامة من تعمير المدينة الجديدة نشأة وتطور الصناعات العصرية خاصة منها المرتبطة بالبناء وبقطاع السكة الحديدية... فنشأ بذلك الحي الصناعي... رمز نجاح التغلغل الأوربي — الى المنطقة الشرقية من وسط المدينة.

أما المرحلة الثالثة 1931 — 1940 فقد غلب على بناياتها الطابع العصري تجلى في قصر البلدية، ومركز البريد، وقصر العدالة التي تصدرت المدينة بشكل جميل وأنيق، كما شيدت بشمال وشرق المدينة ثلاث مجموعات معمارية :

- جناح مستشفى من 450 سرير
- ثانوية للذكور مع داخلي للتعليم التقني تسع 1200 تلميذ.
- مجزرة تحتوي على مخزن ومستودع للتبريد.

وفي هاته الفترة تم تشييد مجموعات فندقية فندق Majistic-Exelscior, Volubilis, Touring ModerneContinental.، غير أن أحسنها وأكثرها جمالا فندق Trans-atlantique الذي أصبح قبلة الوافدين لموقعه المقابل للمدينة القديمة، والمشرف على مناظر طبيعية في غاية الجمال.

كذلك بنيت مجموعة من الدور العسكرية — على يمين الطريق المتجه نحو الحاجب بعد أن تمكنت ادارة الهندسة العسكرية من الحصول على أرض مساحتها «24 هكتاراً (33) و88 آراً و 33 سنتيآراً» بالمعاوضة النقدية مع نظار الأوقاف بمكناس بتاريخ 12 مارس 1932. وانطلاقا من بداية المرحلة الرابعة 1941 — 1952 أسس المكتب الشريفي للسكنى الذي ركز مشاريعه العمرانية في بناء العمارات الكبيرة للأوربيين ومنح تشجيعات مادية كبيرة خاصة المشاريع السكنية بمكناس التي رصد لها اعتمادات هامة (34).

وبنهاية هاته المرحلة — 1952 — كانت معظم معالم مدينة جديدة ذات طابع أوربي قد شيدت على هضبة حمرية.

الخلاصة أن الفرنسيين تمكنوا من أن يقيموا فوق هضبة حمرية المحبسة، ذات الزياتين، مدينة عصرية

بكل مقوماتها وخصوصياتها الغربية، تجلى ذلك في أنواع النشاطات التي مارستها... في نوعية ساكنيها في تصاميم بناياتها وشوارعها الفسيحة وفي الأسماء التي أطلقت عليها والتي تخلد شخصيات ومدنا أوربية وفرنسية تاريخية وسياسة وعسكرية... فنجد شارع جان دارك Jules Ferry, Jeanne d'Arc جول فيري جان جوريس ودوكول De Gaule Jean jourés وليوطي Lyautey وكورو Gouroud وبويميرو Poeymirau وموانيي Moinier وباريس Paris ومرسيليا Marseille ولم يلبث هذا الكيان أن رصدوا له إمكانات مادية ضخمة إذ استقطب كل النشاطات الاقتصادية والادارية والسياسية، وكان ذلك على حساب المدينة الأصيلة، التي أصبحت تعرف منذئذ بالمدينة القديمة — التي همشت ومنع أهلها من الدخول الى حمرية منعا كليا إلا في الحالات النادرة، وبذلك نجح الفرنسيون في أن يخلقوا مجتمعا أوربيا ترك بصماته واضحة في تاريخ المغرب المعاصر.

III — تكوين المجتمع الأوربي :

تمتعت مكناس وإقليمها بمؤهلات جغرافية (طبيعة، بشرية واقتصادية) واستراتيجية هامة، جعلته مقر أكبر القواعد العسكرين الفرنسيين (Caillaut-Poeymirau) وعاضمة للمعمرين، كما جعلت منها منطقة جذب للوافدين الأجانب (35) وفي مقدمتهم الفرنسيون الذين كان عددهم يتزايد باطراد خاصة بعد بناء «حمرية»، وقد ارتبط استقرارهم بمكناس ونموهم بتوفير الهدوء السياسي بالاقليم وبتطور المعمار في المدينة الجديدة بشكل يوفر لهم العمل والسكن المريح.

ففي سنة 1911 — وهي سنة احتلال مدينة مكناس من طرف موانيي Moinier لم يكن بها سوى 5 أوربيين، وتطور هذا العدد ليصل في شهر يناير 1914 إلى حوالي 550 حسب المصادر من بينهم 350 فرنسيا. (36) استقر هؤلاء السكان — قبل بناء المدينة الجديدة داخل الأحياء المغربية «بباب تيزيمي» و«جامع الزيتونة» و«قاع وردة» و«في روى مزيل» أول حي أوربي بمكناس، ومنه انتقلوا الى الضفة الأخرى للوادي (بوعماير أوبو فكران) بعد انطلاق أعمال البناء بحمرية التي أصبحت فيما بعد قبلة الوافدين من الأوربيين ومعظمهم ينتمي إما الى الطبقة العاملة أو الى البرجوازية الصغيرة تحدوهم الرغبة في تحسين أوضاعهم الاجتماعية والمادية، فتطورت ساكنتها وتشكل بذلك المجتمع الأوربي، بكل خصوصياته العصرية التي تميزه عن المجتمع المكناسي التقليدي المعاصر داخل الأسوار، ويتضح هذا التطور من خلال الجدول الآتي : (37).

السكان	1921	1926	1931	1936	1956
عدد السكان بمكناس	37 592	29 930	54 156	74 702	178 000
السكان المغاربة	28 207	18 682	36 466	52 871	130 000
السكان اليهود	6 763	6 325	7 745	9 521	15 000
الأوربيون	2 622	4 923	99 945	12 310	15 000

بتحليل الاحصائيات السابقة نلاحظ تقدما متواصلا في الساكنة الأوربية بنسب مختلفة، وذلك لارتباط هذا التقدم بعوامل داخلية وأخرى خارجية. وقد عرف تطور الجالية الأوربية أكبر نسبة له فاقت الضعف في الفترة ما بين 1921 — 1926 وهي المرحلة التي سلك فيها المقيم العام تيودور ستيغ (أكتوبر 1925 — يناير 1929) Theodore Steeg سياسة الادارة المباشرة، وتشجيع هجرة الفرنسيين الى المغرب بتقديم شتى المغريات المتمثلة في العديد من الامتيازات، وقد جعل هذا التقدم من مكناس مدينة لها مكانتها بين المدن المغربية من حيث تعدد تعداد الجالية الأوربية الساكنة بها. ويمكن أن تلمس واقع الساكنة الأوربية بمكناس بمقارنتها مع مثيلاتها في المدن الأخرى وباقي عناصر السكان : (38).

النسبة المائوية لعناصر السكان في بعض المدن

(1931 — 1942)

المدينة	نسبة السكان المغاربة	نسبة اليهود	نسبة الأوربيين
الدار البيضاء	%52	%12،3	%36،5
الرباط	%50،6	%7،6	%41،8
فـاس	%80	%7،3	%12،7
مكناس	%63،9	%13،7	%22،4
وجـدة	%43،8	%6،2	%50،0
القنيطرة	%60،9	%2،4	%36،7
الصويرة	%55،4	%37،4	% 7،2
الجديدة	—73،9	%15،9	%10،2
المحمدية	%75،4	%1،7	%22،7

يتضح مما سبق الأهمية العددية للجالية الأوربية المستقرة بحمرية غير أن هاته الأهمية لا تقتصر على النسبة العددية فقط بل أيضا في الدور الذي لعبته هاته الجالية في حياة المدينة على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فكونوا بذلك مجتمعا نشيطا خاصا بهم بجانب المجتمع المكناسي الذي ظل متمسكا بسبل عيشه التقليدية، ضم هذا المجتمع جالية هامة من المتوسطيين خاصة من الاسبانيين والايطاليين والبرتغاليين وكان الاسبان أكثر عددا خاصة فيما بين 1936 — 1939 بعد قدوم الفارين من النظام الفرنكاوي ومنهم من تمكن من الحصول على الجنسية الفرنسية، وأغلبهم من الحرفيين المهرة : (خياطون ميكانيكيون، حلاقون صانعو الأثاث وبناءون وحدادون... إلخ) ومارس الايطاليون والبرتغاليون نفس النشاط غير أن الايطاليين تخصصوا في شؤون البناء. إلا أن العناصر الغالبة في هذا المجتمع كانت من الفرنسيين القادمين من فرنسا أو من الجزائر وتونس ويمثل الضباط والمعمرون ورجال المال والتجار والأطباء والمهندسون والتقنيون والعمال المهرة والموظفون والقضاة والبوليس فيهم العنصر السائد (39) وبذلك كون الأوربيون مجتمعا تراتبيا يكون فيه الفرنسيون الفئة المحظوظة التي تقود وتسيطر على النشاطات العصرية الكبرى من فلاحة وتجارة وصناعة وبنوك... وقد اجتذب مجتمع حمرية الجديد عناصر من اليهود التي استقرت في أحياء خاصة كعادتها.

إذ يبدو من كل ما تقدم، أن الأوربيين بمكناس، كونوا مجتمعا عصريا قائما بذاته تربطه علاقات استغلالية بالمجتمع المكناسي التقليدي، الذي يزودها بالأيدي العاملة الرخيصة بصفة دائمة أو مؤقتة، التي تكاثرت بقدوم النازحين من البادية، خاصة أولئك الذين نزعت منهم الأرض وتعطل عدد من الحرفيين.

خاتمـــة :

إن سياسة التعمير — التي حققت الكثير من أحلام الفرنسيين مسؤولين ومهندسين — خلقت مدينتين وبالتالي مجتمعين : مجتمع جديد عصري مرتبط بالنظام الرأسمالي، ومجتمع مرتبط بهياكل تقليدية سلبته المدينة الجديدة كل مقوماته السياسية والاقتصادية والانسانية.

مجتمع أقلية متميزة وممتازة وقائدة، وموجهة لكل النشاطات، ومجتمع أغلبية مسلوبة، يعيش أغلب فئاتها في ظروف أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها سيئة.

هذا التناقض ما بين المجتمعين الأوربي العصري والمكناسي التقليدي كان وراء الصراع الخفي بينهما والذي برز على مسرح التطورات السياسية التي عرفها المغرب طيلة فترة الحماية والتي ميزت تاريخه خلال القرن 20.

الهوامـــش

(1) للمزيد من الاطلاع أنظر :
Paul Louzinet, L'urbanisme et l'aménagement des villes au Maroc.
مقال منشور في «المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع» عدد 7 يوليوز 1945 ص. 26 — 28.
Jean Dethier, Soixante ans d'urbanisme au Maroc.
مقال منشور في «المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع» العدد 118 — 119 مزدوج «يوليوز دجنبر 1970 ص 5 — 56.

(2) مقال حول بناء الهيكل الحضري الاستعماري، وهو فصل من كتاب «إيجانط أبولغود» Janet L.Abu .Lughod
«الرباط أو الميز العنصري في مجال العمران بالمغرب.»
Rabat, Urban aparthed in Marocco.Princeton.
1980 ص 150 — 173، ترجم المقال د. امحمد بن عبود وجواد المهدي ونشر بمجلة البحث العلمي العدد 34 1404 هـ 1984 م ص 80.

(3) للمزيد من التفاصيل عن هذا المهندس يجب الرجوع الى المجلة الفرنسية التي أصدرت عدداً خاصا عن هنري بروسط.
Henri Prost, l'urbanisation-Urbanisme-Revue Française n :88.

(4) البحث العلمي، مرجع سابق..Jean Dethier, Paul Louzinet مصدر سابق

(5) المرجع السابق

(6) للتوضيح راجع :
— الاستيطان والحماية بالمغرب 1863 — 1894 مصطفى بوشعرا ج 1 المطبعة الملكية بالرباط 1984 ص. 330.
— أحداث بوفكران بمكناس فاتح وثاني شتنبر 1937 الاستاذ بوشتى بوعسرية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت بكلية الآداب بالرباط في 20 — 6 — 1986 ج 1 ص.82.

(7) الجريدة الرسمية الاعداد من سنة 1913 — 1920.

(8) معاهدة الحماية البند الأول، المغرب الأقصى — حزب الاستقلال — مكتب المستندات والأنباء القاهرة، أكتوبر 1951 ص.62.

(9) محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد «3 الرباط 1984 ص. 150 — 151.

(10) مجلس أسس من طرف السلطان مولاي يوسف، يضم شخصيات متعددة للقيام بالمحاسبات المرتبطة بالأوقاف ولتقديم الآراء والمقترحات التي تهمها، «يجمع مرتين في السنة، لكن السلطات الفرنسية وقفت جلساته من 1917.

(11) وزارة عموم الأوقاف، تقرير مجلس الأحباس عن نتائج أعمال الوزارة الوقفية، المنعقد بالرباط من 22 الى 25 شوال 1335 هـ موافق 11 الى 14 غشت 1917. من خطاب ليوطي — ص. 8

(12) نفس المصدر ص.9

(13) خطاب ليوطي يوم 20 غشت 1917 أمام المجلس الأعلى للأحباس مجلة البحث العلمي، مرجع سابق ص. 102.

(14) الحوالة الحبسية رقم 8 الجزء الأول من حوالة كبرى مكناس ص.303 رقم.227.

(15) ألبير عياش : المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، ونور الدين سعودي، مراجعة ادريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، الدار البيضاء أبريل 1985 ص.316.

(16) عبد الرحمن بنزيدان : «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» الطبعة الأولى 1347 هـ الرباط الجزء الأول ص.172 ـ 174.

(17) الحوالة الحبسية رقم 7. الجزء الثاني من حوالة الأحباس الكبرى بمكناس والأحمدية، ص.255 ـ 256 ـ 257 «ظهير تحبيس حمرية».

(18) المصدر السابق

(19) المصدر السابق

(20) المصدر السابق.

(21) الأستاذ بوشتى بوعسرية، مرجع سابق من ص.37 ـ48.

(22) عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق ص.221.

(23) نفس المصدر

(24) نفس المصدر

(25) نسخ لنصوص ظهائر شريفة يوسفية بتاريخ 8 ربيع الأول 1336 موافق 20 أبريل 1918، نتوفر عليها.

(26) عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق ص. 221.ـ 222.

(27) راجع الحوالة الحبسية رقم 8 مصدر سابق.

(28) للمزيد من التفاصيل عن حفل تدشين حمرية. انظر 195.

Meknès, Fès — Hebdomdaire 7ème année n°195 du dimanche 22 mai 1921.
«La fête inaugurale de la ville nouvelle».

(29) انظر تفاصيل هذه الزيارة، المصدر السابق.

8ème année n°242 du 16 Avril 1922.
«Le Président de la république de Meknès».

(30) انظر المعاوضة بالحوالة الحبسية رقم 8 مصدر سابق ص.551.

(31) الحوالة الحبسية ـ مصدر سابق.

(32) Compagnie immobilière financière chérifienne C.I.F.C.

لعبت الشركة دورا هاما في مجال التعمير بمكناس ـ الحوالة الحبسية مصدر سابق ص.738.

(33) الحوالة الحبسية، مصدر سابق. ص.755

(34) Notre Maroc;Revue gaston gaufil.
«L'architecture à Meknès» Avril 1951. p.43-47.

(35) للمزيد من المعلومات أنظر : بوشتى بوعسرية، مرجع سابق ص.103

(36) المرجع السابق ص.38

(37) المرجع السابق ص. 39 ـ48

(38) المرجع السابق ص. 43

(39) ألبير عياش ـ مرجع سابق ص.290.

محتويـــات الملحـــق

1 ـ ظهير معاوضة حمرية من طرف المولى اسماعيل وما تم من شأنها، وهو مأخود من كتاب «**إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس**» لعبد الرحمن بن زيدان الجزء الأول ص.172 ـ 175.

2 ـ ظهير تحبيس حمرية من طرف سيدي محمد بن عبد الله، مصدره الحوالة الحبسية رقم 7 الجزء الثاني من حوالة الأحباس الكبرى بمكناس والأحمدية، ص.55 ـ 257.

3 ـ نسخة من ظهير يشمل الأمر بمعاوضة قطع من أرض حمرية لصالح إدارة البلدية وهو يشير في أبدية إلى الاذن بتجزئة حمرية، وتعيين بعض أجزائها لمن توفرت فيهم الشروط..

«في جهة الشمال من المدينة على مسافة ثمانية كيلو ميتر وبمقربة منها قصبة المنزه يسكنها مثل سابقتها فريق من العلويين.

ومنها أنه لما تملك أرض حمرية التي كانت تسمى قبل بابي حفص بالمعاوضة الشرعية من مالكها حسبما وقفت عليه في نسخة مسجلة ثابتة نص ظهير تقديم النائب في عقدها بعد الافتتاح من عبد الله تعالى أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، المجاهد في سبيله ناصر الدين مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف الحسني، ونص الطابع : اليمن والاقبال اليمن والاقبال اليمن والاقبال إسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله، أيد الله تعالى بعزيز نصره أوامره، وظفر عساكره وخلد في الصالحات مآثره، وأسعد بمنه موارده ومصادره، آمين آمين آمين قدمنا بحول الله وقوته خديم جانبنا العالي، والنجد الذي أحرز من اشتراط النباهة والنجابة المقدم والتالي، القائد الأوجه، الأثير الأنبه، الأحفل الأرضي، الحازم الأحظى، القائد علي بن يعقوب اليوسفي المكناسي دارا وصل الله إنجاده وأحرس على المسالك الحميدة والمساعي الجميلة إصداره وإيراده، لحيازة الأراضي التي لنا بحوز حضرتنا العالية بالله مكناسة وبيان حدودها وتعيينها وإخراجها من يد من كانت وعلى عقد المعاوضة ما يظهر لها منها بغيرها التي له على ملك أناس المتصلة بأراضينا المجاورة لحضرتنا المذكورة وعلى الصلاح في ذلك والسداد تقديما أمضاه بعلائه وكساه رائق هلاله لعلمنا بأنه أهل لما إليه قدمناه. وأحق بما أسديناه اليه وأوليناه. والله يصل توفيقه. ويجعل السداد والنجح رفيقه و يمنه والسلام وفي يوم الأحد رابع وعشرين المحرم الحرام فاتح سنة ثلاثين وتسعين وألف عرفنا الله خيره وبركاته ونص المعاوضة : الحمد لله انعقدت المعاوضة ببركة الله تعالى بين الشريف الأوجه الخير الأنزه الأحظى الأتقى الأنقى السيد محمد دعي بسيدي حم بن ادريس بن وجود الحسني المنوني وبين القائد الحاج علي بن يعقوب المذكور أعلاه النائب عمن ذكر أعلاه بحكم ما ذكر أعلاه في جميع الأرض المعروفة بأبي حفص المشتملة على سقي وبعل التي على ملك الشريف المذكور الكائنة خارج باب القورجة أحد أبواب مدينة مكناس يحدها سهب الطبال والطريق المرور عليها لفاس وتتصل بساقية خنفر وبطريق عين الشلوقي وفي جميع الأرض التي للجانب العالي البعل الكائنة ببراكة خارج باب البرادعين من المدينة المذكورة يحدها الأرض المعروفة ليوسف النحال قبلة ومقطع الريح غربا ويحدها أرض سيدي علي بن قاسم الشريف المنوني من الجهتين والطريق الآتية من قبور الطوال وتتصل بأرض عزوز التي على ملك الشريف المذكور أولا وذلك بأن أخرج الشريف المذكور نفس ملكيته عن أرض أبي حفص التي كانت له عوضا عن أرض براكة التي صارت له بسبب المعاوضة المذكورة كما أخرج القائد المذكور نفس ملكية المنوب عنه عن أرض براكة التي صارت للشريف عوضا عن الأرض التي صارت للجانب العالي المعروفة بأبي حفص المشتملة على سقي وبعل معاوضة صحيحة تامة تلة بتلة على سنة المسلمين في معاوضتهم ومرجع دركهم وتملك كل واحد ما صار له عوضا عما صار عنه تملكا تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد النظر والتقليب والرضى صحيحا كما يجب من ناب عن نفسه فمن نفسه ومن ناب عن غيره فعنه عرفا قدره شهد به عليها بحال كمال الاشهاد وعرفهما أواخر القعدة من عام ستة وتسعين وألف الحوفية والطريق الآتية من قبور الطوال صح به شهد عليهما بما ذكر أواخر صفر اثنين ومائة

وألف أحمد بن محمد لطف الله به وعبد السلام بن محمد.

غرسها (1) كلها بأشجار الزيتون حتى تمت فيها مائة ألف شجرة من الزيتون ثم حبسها على الحرمين الشريفين ثم لما توالى على مكناس ما توالى بعده رحمه الله من الهرج والمرج وشبت نيران الفتن بين أولاده وتمكن عيث العبيد على البلاد والعباد ومد الفساد والخراب في الأرض أطنابه. كان ممن امتدت اليه اليد بالحرق والقطع هذه الغابة. حتى تلفت من شجرها كمية ذات بال ولما تمهدت البلاد. وانقادت العباد. لسيدي محمد بن عبد الله واستتب الأمن وخضعت له الرقاب وانكسرت راية أهل الزيغ والفساد قام على ساق في رتق ما أنتجته تلك الفتن من الفتق فكان من جملة ما تلافاه بهمته الفعالة إحياء ما اندثر من تلك الأشجار بإعادة غرس ما قلع وحرق منها حتى رجعت لشبابها ثم بعد ذلك فصل في التحبيس فجعل النصف حبسا على الحرمين الشريفين تختص المدينة المنورة على منورها أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالثلثين ومكة المشرفة بالثلث والنصف الآخر للمسجد الأعظم بمكناس يخرج منه كل سنة نحو الخمسمائة فرنك يوجه منها خمسة وثلاثين فرنكا ونصف الفرنك تقريبا لجد العائلة المالكة مولانا علي الشريف دفين سجلماسة تصرف في مهمات الروضة والطلبة الذين يقرأون الحزب ودلائل الخيرات والمؤذنين وقيم الروضة وطعام ليلة المولد النبوي ومنها ثلاثة عشرة فرنكا تقريبا توزع على الطلبة الموظفين لقراءة الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والدة المحبس الثاني وأعمامه بروضة أبي زكرياء الصبان نفع الله وبه وقد كان لهذا القدر التافه الآن إذ ذاك شأن وبال كما يخرج من النصف المذكور كل يوم رطل زيت لضريح سيدي أبي يعزى ورطل لضريح مولانا ادريس الأزهر بأبي فاس رضي الله عنهم جميعا وعنا بهم آمين.

ومنها أي الآثار الاسماعيلية جر الماء من بوفكران لزيتون حمرية في ساقية وسط جدار ضخم لازالت بقاياه جهة باب القرمود وسيدي الشريف الوادي لهذا العهد.

ومنها بناؤه الجدار المحيط بغابة حمرية ولازال بعضه قائما الى الآن.»

الجزء الثاني من حوالة الأحباس الكبرى بمكناس والأحمدية

تحبيس حمرية ص.255، 256، 257 والبصف للحرمين الشريفين

«الحمد لله لما كان مولانا الامام حسنة الليالي والأيام أيد الله أوامره وخلد في الصالحات ذكره ومآثره حبس جميع زيتون حمرية المعروفة للجناب العلي بالله حوز مكناسة الزيتون حرسها الله على الحرمين الشريفين وغيرهما وعين مصارف مستفادها في كل عام من طلبة ومساجد وغيرها حسبما هو مبين بسرته بل بالورقة يسرته وكانت الغلة تختلف بالنماء والنقص وربما لم يبق مستفادها للحرمين الشريفين شرفهما الله إلا القدر اليسير أو لم يبق شيء اقتضى نضره ــ كذا ــ أيده الله أن تقسم بنصفين ويمتاز لكل من الحرمين الشريفين والحبس المنسوب للجامع الأعظم شطرها وتعود منافع كل حبس على ما قدره عليه وأشهد بما ذكر أيده الله الفقهاء الأربع الكاتب البارع السيد الحاج محمد سكيرج والسيد أحمد بن قاسم بن ابراهيم به عرف والسيد الحاج علي بن يوسف والسيد أحمد السوسي أمام جامع مدرسة الصهريج من القصبة السعيدة حسبما أدوا بذلك شهادتهم لدى الفقيه الأجل العالم الأفضل الخطيب البليغ الأكمل قاضي الجماعة بمدينة مكناس وهو أعزه الله تعالى وحرسها فتوجه القاضي المذكور والناظر الأرشد الحاج الطيب بن الناظر السيد بلقاسم المسطاسي وخديم سيدنا الأنصح القائد محمد وعزيز المطيري وجماعة من أهل مكناسة فهم من الأمناء السيد الحاج العياشي بن السيد محمد حميش والحاج سعيد بن الصغير والحاج العباس بن حليمة والفلاحين وشيخي البصر وهما السيد محمد الغماري والحاج محمد بن العربي أجانا نحو الزيتون المذكور وقسموه بنصفين نصف شرقي جنوبي وهو الاعلا ــ كذا ــ بحده الطريق الظاهرة من أبي العماير إلى أن خرج عن السور الى الجنان الجديد وذهب مع حده على الاستقامة الى السور المحيط بجميع حمرية والآخر تحده الطريق المذكورة يسارا ذهبت الى ناحية الشمال قسمة تعديل واستقامة ثم اتفق الجميع منهم على أن عينوا للحرمين الشريفين القسمة العليا وحازها القايد محمد المذكور ليصرف مستفادها فيما عينه مولانا المنصور بالله وذلك الثلثان الاثنان لأهل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام والثلث الواحد لأهل مكة المعظمة وعينوا لجانب الجامع الأعظم القسمة السفلى وحازها الناظر الحاج الطيب المذكور بجانب الحبس المذكور ليعرف مستفادها في مصالحه ويخرج منه أيضا رطلا من الزيت في كل يوم لضريح ولي الله تعالى سيدي أبي يعزى ورطلا في كل يوم لمولانا ادريس الأصغر بحضرة فاس القرويين ومائة مثقال وستة وثلاثين مثقالا لطلبة سيدنا ومولانا علي الشريف ومولاي أبي زكري حسبما ذلك مفصل بالورقة بسرته وكما أمر مولانا المنصور بالله لزيتون حبس الجامع الأعظم الخارج عن سور حمرية أن يخرج له الماء لسقيه من ساقية حمرية يأخذ ما يكفيه منه ولا يقطع عنه وألحقه بالحبس في تكمة تقبل الله من سيدنا نصره الله وأجزل دخره وضاعف من مآثره الحميدة أجره، فمن أشهده الفقيه المسجل عليه بالمذكور فيه عنه وهو أكرمه الله بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر الخديم والناظر والأمناء وأرباب البصر المذكورون بالمذكور فيه عنهم عارفين قدره وهم بأكمله وعرفهم قيد به شهادته مسئولة منه وفي ثاني جمادى الأولى عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف ألحق نحوه لا صح به فلان وفلان وفلان.

الحمد لله أدينا فثبت واعلم به عبد الله سبحانه وتعالى.»

«الحمد لله رسمين اثنين من قطعة كاغد أخذت بالأمر المولوي المطاع أيده الله وأمره وظفر جنوده
«الحمد لله رسمين اثنين من قطعة كاغد أخذت بالأمر المولوي المطاع أيده الله وأمره وظفر جنوده
المباركة عساكره آمين والاعلام بالقبول عقب الثاني بخط من يحب نص الأول الحمد لله ولي التوفيق المنعم على عباده بالهداية لأقوم طريق الذي جعل الخلافة سراجا لايطغى مصباحه وضياءا تبلج عن الفجر الصادق صباحه وقطبا عليه مداره هذا العالم وصلاحه ونورا لايفتر ذكاه وقده وشهابا زنده واختار لتقليد إمامتها العظمى من أهله لورثة مقامها الأسمى والصلاة على سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم المعجزات الباهرة...

أما بعد فإن الله تعالى... واختار لصلاح هذا المغارب من سعد به الحاضر والبادي والشاهد والغائب مولانا الامام الهاشمي الهمام المنتخب من عشرة النبي عليه السلام... أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين... الأسعد أبو عبد الله سيدي محمد بن مولانا عبد الله بن اسماعيل الحسني... وبارك لنا في عمر هذا النجل.. لما ولاه الله أمر عباده وبسط يده في أرضه وبلاده واستقر ملكه الشامخ... وجند جنودا جهادية لايجمعها ديوان حافظ ولا يعدها لسان لافظ حتى عاد ولله الحمد يجر أعنة الخيل وراءه كالسيول والمدمات تملأ وملأت قلوب أعداء الله الكفرة من ذلك رعبا وصاروا يطلبون المسالمة بعدا وقربا، واجتمعت له تبارك إليه الجيوش... جعل أيده الله هم نفسه الشريفة الكريمة في اكتشاف المناقب والمفاخر العظيمة وصرف نظره الأمامي المقرون بالبركة في جميع ما يحتاج اليه الثغور وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور في تجديد ما اندثر من المعامر وتشييد ما تركه الأوايل للاسلام من المآثر فجاهد في الله حق جهاده واستخلص من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحضور بلاده...

شهر أيده الله لادامة ذكره المعاهد وشرف المدارس والمساجد الى غير ذلك من المآثر الحسان الدالة على علو مهمته و معاليه في كل زمان وحين أشرقت هذه المعاهد وشمل أمره المطاع فيه أمور المملكة والديانة والمساجد اقتضى نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد أن خرج عن بعض ما يحبه من ماله رجاء ثواب الله ونواله وهو جميع الغابة من الزيتون المسماة بحمرية نظر حضرته العلية مدينة مكناسة الزيتون أمنها الله بوجوده من جميع الفتون وخرج عنها لوجه الله تعالى وجعلها حبسا في سبيله يصرف مستفاد غلتها في مصالح ماهو من المساجد داخل قصبته الشريفة بالحضرة المذكورة وبالأروى وبقصبة هدراش وبريمة ومصالح ماهو من المساجد داخل المدينة محتاج وغير ذلك مما عينه أيده الله من وجوده البر في غير هذا وما يفضل عن ذلك يبعث لمكة والمدينة زادهما الله شرفا، ويقسم أثلاثا ثلثه الواحد لمكة وثلثاه الاثنان للمدينة المشرفة وذلك عند تمام كل عام من رجب الآتي مواليا لتاريخه حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يتعقبه فسخ ولا يتناول الى محكمة نسخ ومن بدل أو غير ماهو عليه فالله سائله يوم يقف بين يديه وشهد على اشهاد مولانا أيده الله بما فيه عنه بفصل التقسيم بواسطة وهو بمقعد ملكه وكرسي سلطانه وبأشرف الأحوال في الثامن والعشرين في ذي القعدة الحرام عام أربعة وثمانين ومائة وألف... عبد القادر بن محمد الحسني السجلماسي... محمد بن الحسن بناني ونصف الثاني أسفله.

«الحمد لله من جملة مصارف غلة الزيتون المحبس أعلاه معالم يذكر هناك مائة مثقال واحدة وستة وثلاثين مثقالا دراهم يبعث الجميع لسجلماسة حرسها الله تعالى أما المائة فتصرف في مهمات روضة سيدنا مولاي علي الشريف ولطلبة يقرأون الحزب ودلايل الخيرات هنالك كل يوم في كل عام وللمؤذنين وقيم الروضة وطعام المولد النبوي على جري العادة بقسط ذلك تقسيطا حسنا وأما الستة والثلاثون مثقالا فتصرف لطلبة يقرأون الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والدة مولانا الامام أطال الله بقاءه وعلى قبور أعمامه الذين معها في روضة سيدي أبي زكري ثلاثون أوقية عن كل شهر وعند تمام كل سنة يصرف مثل العدتين للموضعين المذكورين على ممر الأعوام والله تعالى يتقبل من مولانا نصره الله عمله وقيده أمنهما ما بذكره.

ذي الحجة عام التاريخ أعلاه (28 ذي القعدة 1184 هـ) عبد القادر بن محمد الحسني السجلماسي ..محمد بن العربي بن علي القسمطيني الحسني.

الحمد لله وحده نسخة رسم وظهير وخطاب من جناب مولانا الله تعالى عقبه بما يذكر نصه الحمد لله نسخة رسم اثنين مسجلين وخطاب من جناب
مولانا الله تعالى عقبه بما يذكر نصه الأول الحمد لله نسخة رسم وظهير مسجل نصه الحمد لله وحده نسخة نصوص ثلاثة شملتها ثلاث قطع والاستدلال
عقب الأول منها وخطاب من جناب مولانا أيده الله فقط عقب الثاني والثالث كما يذكر النص الأول مشتمل على ثلاثة فصول ونصه الحمد لله نسخة
ظهير شريف في تعاون الأوقاف بتجزئة أرض حمرية: يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره أنه بناء على ما يلزم لتسهيل نمو العمران
وانتشاره بمدينة مكناس أصدرنا أمرنا الشريف بما يأتي الفصل الأول نوافق على تجزئة مساحة الأرض المعروفة بحمرية هنالك
المحكوم بملكية جميعها لجانبي الأحباس الكبرى المكناسية وأحباس الحرمين الشريفين الفصل الثاني نأذن لجانبنا الشريف على
ما وقع من تعيين بعض أجزاء مساحة الأرض المذكورة كما توجد في التصميم الملحق بهذه المكاتب تجزئة قسمين منها
تعرف أعراضها بخوصة حرف A وهي المعدة للسكنى والتجارة بالتفصيل والأخرى حمرية وهي المعدة للصناعات والتجارة
بالجملة أما المعاوضات التي تقع في الأجزاء المذكورة بين جانبي الحبسين المذكورين وبين من عينت لهم بتفويض على جانبنا الشريف
للأذن فيها الفصل الثالث [illegible] الأوقاف بتنفيذ مقتضيات ظهيرنا الشريف هذا وبإعطاء الإذن في شراء أملاك جانب الحبسين
المشار إليهما بثمن المعاوضات التي تقع في الأجزاء المذكورة والسلام وحرر بمحروسة فاس في سادس رجب الفرد الحرام عام 1336 موافق
هذا الظهير في الوزارة الكبرى بتاريخ 25 رجب الموافق 18 ابريل سنة 1918 [illegible] الإمضاء محمد المقري وفقه الله. استقل الخ استقل
استقل النص الثاني ظهير شريف سلطاني على منيف أعلاه الله تعالى وزين بالطابع عمره الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم يوسف بن الحسن الله وليه ومولاه خديمنا الأرضى ناظر الأحباس الكبرى والحرمين الشريفين بمكناس الطالب المدني بن عبد الكريم
بناني وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد اتصل علمنا الشريف خديمنا وزير الأوقاف الطالب أحمد الجاي بالطبع الإدارة البلدية
هنالك بواسطة إدارة الشؤون المخزنية من عقد المعاوضة معها في سبع وستين قطعة من أرض حمرية الحبسية وذلك على حسب
التفصيل الآتي كما هو آت عقبه: عشر قطع من عدد 283 إلى عدد 292 جملة مربع مساحتها مائتان 7695 عشرون قطعة من عدد 348
إلى 367 وجملة مربع مساحتها [illegible] خمس قطع من عدد 395 إلى عدد 399 وجملة مربع مساحتها 4800 قطعتان عدد 400 و401 ثمنا
جملة مربع مساحتها 8538 ثلاثون قطعة من عدد 450 إلى عدد [illegible] وجملة مربع مساحتها 55405 جملة المائة المذكورة 302423
ثلاثمائة ألف وأربع وعشرون مائة وثلاثة وعشرون وبمقتضى ما تضمنه الفصل الرابع من الظهير المؤرخ بـ 28 رجب سنة 1911 المعقود
بين جانب هذه الأحباس وبين العامل ثم جنب النيابة عن البلدية فيما تقع معاوضة فيه من أرض حمرية فرخصنا
لجانب الحبس المذكور القطع المشار لها أربع قطع أعراضها المنمرة بعدد 886 ومربع مساحتها مائتان 11500
والأخرى المنمرة بعدد 505 ومربع مساحتها 7200 والثالثة المنمرة بعدد 505 ومربع مساحتها 7200 والرابعة المنمرة
بعدد 348 ومربع مساحتها 2970 جملة مياتها الأربعة ستة وعشرون ألفا وستمائة وتسعون 26690 يسقط منها 26690 جزءا من جملة ما
اشتملت عليه مياة القطع المذكورة تبقى ثلاث وستون 63 قطعة مشتملة على مائتي ألف متر ثمانية وخمسة وسبعين ألف متر وسبعمائة
وثلاثة وثلاثين مترا مربعا يجب لها من حساب فرنك 1.75 للمتر أربعمائة ألف فرنك واثنان وثمانون ألف فرنك وخمسمائة واثنان وثلاثون
فرنكا وخمسة وسبعون سانتيما 482532.75 جزءا وعليه بناء على ذلك والراغب الحبسي بعقد المعاوضة مع الإدارة البلدية والعامل
هنالك فيما اشتملت عليه مياة الثلاث والستين قطعة المشار لها بالقدر المذكور على الوجه المسطور وأبقينا لجانب الحبس الواقع
في قسمة من حمرية: القطع الأربع المشار لها الآن نأذن لما يتعين في أمر معاوضتها بالقدر الموصوف برسم هذه المعاوضة لجانب
حبسهم والسلام في 12 شوال عام 1338 بعد هذا الكتاب الشريف بتنفيذه وزارة عموم الأوقاف بتاريخ 21 شوال عامه أحمد
15163 [illegible]

تنظيـم المجـال الصناعـي بمكنـاس

الأستـاذ عبـد السـلام مشكـوري
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكنـاس

إن واقع التمدين في المجتمعات الصناعية أو تلك التي هي في طور التصنيع يفرض تخطيط وإعداد مسألة توطين الصناعة في المجال الحضري وذلك لتحقيق الأهداف التالية :

- الاندماج الوظيفي الأمثل لهذا النشاط في النسيج الحضري.
- تفادي أخطار التلوث الصناعي (الأجواء ــ والمياه السطحية والجوفية).
- تشجيع الاستثمارات الصناعية على اعتبار أن تهيئة مجال صناعي يوفر على الخواص كلفة تجهيز المجال الصناعي، الشيء الذي يسمح لهم نظريا بتركيز استثماراتهم في القطاع الانتاجي.

في ظل هذه الحيثيات العامة، ماهو وضع وخصائص المجال الصناعي في مكناس ؟ وماهي آفاق تنظيم هذا المجال ؟

إن مدينة مكناس وبالرغم من تواضع مستوى تصنيعها، تعاني من إشكالية المجال الصناعي، حيث يتميز هذا الأخير بالعشوائية والتناثر. فالمقاولات تظهر على جوانب كل المحاور الطرقية المؤدية الى المدينة فهي متواجدة على جوانب طريق فاس، طريق الرباط، طريق سيدي قاسم،طريق أكوراي،وطريق الحاجب. هذا بالاضافة الى وجود العديد من المقاولات منصهرة في أحياء متعددة بالمدينة بشطريها القديمة والجديدة.

وترتبط حالة التناثر والعشوائية المميزة للمجال الصناعي بمكناس بالظروف التاريخية التي أفرزت نشأة وتطور الصناعة، حيث يرجع هذا التناثر وأسبابه الى فترة الحماية بالمغرب.

فبالرغم من كون التمدين خلال هذه الفترة، وخصوصا ما يتعلق منه بالمدن الجديدة أو الأوربية كان خاضعا لتخطيطات معقلنة تعيد إنتاج نموذج المدينة الأوربية وبالتالي تعتمد على تقنية التنطيق Zoning. فإن المدن المغربية بصفة عامة، والحالة التي تعنينا اليوم أي مكناس لم تحظ بتخصيص مجال مهيأ وكافي لاحتضان الصناعات.

وقد كان هذا التوجه متلائما تماما مع المكانة الهامشية التي كانت مخصصة للصناعة في السياسة الاقتصادية للنظام الاستعماري، حيث كان من المفروض أن يبقى المغرب بلدا مصدرا للمواد الخام والفلاحية

ومستوردا للمنتوجات الصناعية لذلك فإن التخطيط الحضري لمدينة مكناس، أعد حيا صناعيا صغير المساحة تصل الى 168 هكتاراً وهو ما يمثل 4،3% فقط من المجال الحضري لسنة 1973. وبالاضافة الى صغر رقعة هذا الحي، فإن مجاله خصص لاستعمالات غير صناعية كالنقل الذي يستهلك مساحة 88 هكتارا وهو ما يمثل 52% من مساحة الحي الكلية، والمستودعات التي تستهلك 17 هكتارا أي 10،1% والسكن بـ 15 هكتارا أي 8،9%.

إن هذا التصميم الأصلي للتنطيق وتوزيع الأنشطة، والذي لا يمنح للصناعة سوى مكانة هزيلة سيصاب بخلخلة وعجز كبيرين، بعد أن عرف مسلسل التصنيع طفرة نوعية وغير متوقعة، أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية. فكما هو معلوم خلقت ظروف الحرب العالمية محفزات ظرفية قوية حولت بعضا من توجهات السياسة الاقتصادية للنظام الاستعماري بالمغرب وعرف بسببها النشاط الصناعي نموا سريعا وبالتالي طلبا متزايدا على المجال لم يكن باستطاعة المنطقة الصناعية المنشأة في العشرينات والثلاثينات أن تغطيها *.

في ظل هذه الظروف، ونتيجة لعجز الحي الصناعي المهيأ عن تلبية حاجيات المقاولات الناشئة، بدأت هذه الأخيرة تستوطن على محاور الطرق البرية في هوامش المدينة، وقد تحكم في اختيارها بالأساس توفر المجال الشاسع والكلفة المنخفضة للأرض أو سهولة الارتباط بشبكة الطرق البرية وأخيرا قرب أحياء عمالية ذات كثافات مرتفعة، بحيث أنها همشت تماما اعتبار الاندماج السليم والأمثل في النسيج الحضري.

إذن فخلاصة القول أن الوضع الحالي والذي هو في مجمله إرث من الفترة الاستعمارية يتميز :

1 — بتواجد حي صناعي مهيأ ولكنه صغير المساحة، ومستعمل في أغلبه لأغراض غير صناعية.

2 — تواجد عدة نطاقات عشوائية على محاور الطرق البرية.

3 — تناثر عدد آخر من المقاولات الصغيرة والمتوسطة في عدة أحياء بالمدينة.

وحتى ندقق عملية التحليل يجب أن نتفحص مميزات كل نطاق من حيث :

- موقعه بالنسبة للمدينة ؟
- توزيع الأنشطة بداخله ؟ وكذا المجال الشاغر المتوفر به ؟
- مدى إمكاناته وقابليته لاستقبال الصناعات ؟ ونوعية الصناعات التي تلائم كل نطاق ؟

إن الاجابة عن هذه التساؤلات تستوجب استخدام معايير متمحورة حول النقط التالية :

- التجهيزات القاعدية (كهرباء — ماء شبكة تصريف المياه... الخ)
- النقل وإمكانات الارتباط بالشبكة الطرقية وبالأحياء السكنية.
- التلوث الجوي والمائي.
- مشاكل التمدين العامة.

وهذه المعايير تارة تكون ذات مفعول تراكمي أو متكامل وتارة أخرى تكون متنافية أو متناقضة،

* يكفينا في هذا الاطار أن نشير إلى أن استهلاك المجال من طرف إحدى المقاولات الناشئة في الخمسينات يضاعف مساحة الحي الصناعي بأكمله 360 هـ — 168 هـ.

لذلك فاعتبارها يجب أن يكون شموليا وتركيبيا. نقترح إذن دراسة أوضاع كل نطاق على حدة.

1) النطاقات الصناعية

أ ــ الحي الصناعي :

يقع الحي الصناعي في الجنوب الشرقي للمدينة ويمتد بموازاة الطريق الرئيسية رقم 1 والسكة الحديدية المتجهة نحو فاس. وتبلغ المساحة الكلية للحي 168 هكتارا أي 4،3% من المحيط الحضري لسنة 1973. ويحتضن الحي 38 مقاولة صناعية وهو ما يمثل 40% من مجموع المقاولات المتواجدة بمكناس. وهو بذلك أهم وأقدم مجال لتراكم الصناعات المحلية. وبالرغم من هذا التركز المجالي للصناعة في هذا الحي، فإنها لاتشغل سوى 10،7% من مساحته الكلية، وترجع هذه الوضعية الى أهمية الاستعمالات الغير الصناعية كما يظهر من خلال الجدول التالي :

	المساحة المستعملة في 1977	%	مجال محتفظ به لنفس الاستعمال
استعمـــالات		%	
صناعـة	18 هكتار	10،7	20 هكتارا
السكة الحديدية ــ والنقل البري ــ	75 هكتارا 13 هكتارا	52	
المستودعـات	17 هكتارا	10،1	
الخدمـات	14 هكتارا	8،3	1 هكتار
السكـن	15 هكتارا	8،9	5 هكتار
المجمـوع	152 هكتارا	90،4	26 هكتارا أي 15% من المجموع.

يتضح إذن من خلال توزيع المساحات على مختلف الاستعمالات أن المساحة الشاغرة ضئيلة جدا (26 هكتارا) مما يجعل إمكانية مساهمة الحي في تلبية الحاجيات المجالية للصناعة هزيلة وثانوية،وبالاضافة الى ذلك فإن إمكانية التوسع الأفقي غير واردة نظرا لأن الحي محاط بأحياء سكنية وعسكرية من كل الجهات. في ظل هذه الظروف تبقى الامكانية الوحيدة لايجاد مساحات جديدة توظف لاحتضان الصناعة متمثلة في تحويل بعض أنشطة الخدمات وبالخصوص المستودعات في الحي الصناعي الى مناطق أخرى. فالصناعة وبالخصوص المقاولات الصغيرة والمتوسطة التي تعاني من نقص المجال المهيأ ستكون المستفيدة من هذا

الاجراء في حين أن المستودعات في حالة انتقالها الى طريق الحاجب لن تتضرر إلا إذا كانت تستخدم بكثافة السكة الحديدية.

وعلى المقاولات التي تطمح في الاستقرار بالحي الصناعي أن تتوفر على شروط محددة حتى تكون مؤهلة للاندماج السليم والأمثل في النسيج الحضري المحيط بها. فعليها أن لا تكون ملوثة حتى لا تؤدي السكن المجاور والمتداخل مع الأنشطة. وعليها أيضا أن تكون مشغلة ليد عاملة وفيرة وذلك حتى يتم استغلال الموقع المركزي للحي بالنسبة لمناطق السكن ذات الكثافة المرتفعة.

وفي هذا الاطار تعتبر فروع الصناعات الميكانيكية والكهربائية والألبسة الجاهزة والأحذية من الأنشطة المرغوب في استيطانها بالحي.

ب ـــ منطقة طريق أگوراي :

في غرب المدينة على طول طريق أگوراي نشأت في الأربعينات منطقة صناعية عفوية، وتجمع حاليا ستة مقاولات، إثنان منها تنتميات الى عائلة المقاولات الكبرى، وتمتد هذه المقاولات على مساحة 14 هكتارا، كما أن إمكانيات توسع الحي نحو الغرب لاتقف في وجهها أية عراقيل ظاهرة إن هذا الحي المرتبط بشكل جيد مع شبكة الطرق البرية قريب من جهة ثانية من أحياء تمركز اليد العاملة ولكن موقعه بالنسبة للرياح التي تهب على المدينة يعتبر حجر عثرة في وجه تطوره واتساعه.

ج ـــ منطقة سيدي اسعيد :

وتضم هذه المنطقة مجمعا صناعيا هاما على مستوى التشغيل والانتاج حيث يضم معاصر للزيوت ومعامل للتصبير ومطحنة صناعية. وتتميز هذه المنطقة أيضا بموقعها السيء بالنسبة للرياح التي تهب على المدينة وهي بذلك غير ملائمة لاحتضان الصناعات المستقبلية خصوصا إذا كانت ملوثة وقد أصبح هذا المشكل أكثر حدة بعد أن نشأت وتطورت أحياء سكنية هامة تحيط حاليا بالوحدات الصناعية القائمة.

د ـــ طريق الحاجب :

في جنوب المدينة وعلى طول طريق الحاجب في الكلم 6 نشأت منطقة جديدة وهامة حدد التخطيط المديري مساحتها ب 180 هكتارا، وقد استقبلت هذه المنطقة جل الانجازات الصناعية التي انطلقت في السبعينات والثمانينات وتحتل هذه الصناعات حاليا مساحة تصل الى 25 هكتارا وتبقى مساحة تقدر ب 160 هكتارا قابلة لاستقبال المقاولات الجديدة.

إن موقع هذه المنطقة بالنسبة للرياح الهابة على المدينة وبعدها النسبي عن المناطق السكنية يلغي خطر التلوث الصناعي. وبذلك فهي مؤهلة لاستقبال الصناعات الملوثة الغير المرغوب فيها في باقي المناطق الصناعية الأخرى بالمدينة.

إلا أن هذا الحي يشتكي من انعدام التجهيزات القاعدية الضرورية لقيام الصناعة والمتمثلة في غياب شبكة طرق داخلية وشبكة مد المياه وشبكة تصريف المياه المستعملة. وعلى مستوى آخر يطرح بعد المنطقة عن الأحياء السكنية مشكلة نقل المشتغلين بالمقاولات الصناعية.

كما أن موقع الحي يمنح إمكانية ربطه بالسكة الحديدية في حالة احتضانه لصناعات ثقيلة.

وقد وقع اختيار دراسة التخطيط المديري على هذا المجال لكي يصبح المنطقة الصناعية الجديدة بمكناس.

د ــ منطقة دوار السوسي : لاكاديم

بعد اجتياز وادي ويسلام على هامش طريق فاس، تمتد منطقة معمل الاسمنت لاكاديم، وهي أهم مجال مخصص للصناعة، بالنظر للمساحة التي يشغلها هذا النشاط وبالنظر أيضا للمساحة القابلة لهذا الاستعمال حسب التخطيط المديري والمقدرة ب 340 هكتارا. وتعتبر مقاولة لاكاديم المستعمل الوحيد لحد الان لهذا المجال، فهي تمتد على مساحة 360 هكتارا تمثل مساحة المعمل والمجال التابع له والمتمثل في سكن العمال والأطر والمقالع. وبالرغم من كون المنطقة مجهزة بخط للسكة الحديدية، فهي تتطلب استثمارات مهمة في ميدان التجهيزات القاعدية، تتعلق أساسا بتوفير شبكة للطرق البرية وأعمال توصيل المياه وتصريف المياه المستعملة.

وكما هو الشأن بالنسبة لمنطقة طريق الحاجب، فإن هذه المنطقة ذات موقع جيد بالنسبة (للرياح الهابة على المدينة) للمقاييس البيئية حيث أن أخطار التلوث الجوي ضئيلة رغم أن حي دوار السوسي المجاور والذي يتطور بسرعة كبيرة (في سنة 1971 كان يضم 3000 ساكنا) يعاني من مشاكل التلوث (دخان ومفتتات لاكاديم)، الشيء الذي يعني بأن نشأة معامل ملوثة جديدة ستكون معرقلة لتطور هذا الحي.

ه ــ باقي مواطن الصناعة بمكناس :

إن منطقة طريق مولاي ادريس لا تمثل منطقة حقيقية للتراكم الصناعي لأنها تقتصر على ثلاث مقاولات عشوائية ومتناثرة في مجال ريفي شاسع، ويرجع السبب الرئيسي لاستيطانها في قرب المقالع التي تزودها بالمادة الأولية وهي عبارة من معامل لصنع الاجور، الأول في الكلم 2 والثاني في الكلم 4 والثالث على ضفاف وادي بوفكران. إن طريق مولاي ادريس ذات الطابع السياحي الواضح، حسب الدراسات التقنية، غير لائقة لاستقبال صناعات جديدة خصوصا وأنها تتطلب استثمارات هامة في ميدان التجهيزات القاعدية. ومن الملاحظ أيضا أن هناك مجموعة هامة من المقاولات متناثرة في أحياء متعددة من المدينة، وهذه المقاولات في أغلبها من النوع الصغير والمتوسط، فنجد أهمها في حي المنزه على جانب طريق فاس حيث تمنح التجزيئات الكبيرة (هكتار أو أكثر) المخصصة للفيلات مجالا يجذب بعض المقاولات الصناعية (شيريون P.W.F) كما أن مقاولات مواد البناء تستوطن في أحياء مختلفة وبالخصوص على جوانب طريق فاس وعلى جانب وادي بوفكران.

كما أن المقاولات الصغيرة والمتوسطة لصناعة الألبسة ونسيج الزرابي تستوطن في أحياء مختلفة مندمجة مع السكن والخدمات، فهي من جهة لا تستهلك مجالا كبيرا، ومن جهة ثانية تحتاج الى يد عاملة وفيرة، لذلك فهي تندمج مع الأحياء العادية للسكن والتجارة.

كما أن المقاولات السرية، تعمق التوطين المتناثر، لأنها هي بدورها تبحث بشكل ممنهج عن توطين خارج المناطق الصناعية المهيأة.

كما أن التوطين المتناثر للمخابز ومعامل النجارة التي تبحث عن توطين قريب من زبنائها تساهم في تناثر (المقاولات الصغيرة والمتوسطة) في المجال الصناعي.

أشكال العمران الذاتي بمدينة مكناس

الأستاذ والزويت مولاي الحسان
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

مما لاشك فيه أنه إذا كانت أحياء الصفيح التي يعود تاريخ ظهورها الى الحقبة الاستعمارية قد أثارت اهتمام كثير من الباحثين الذين قدموا منوغرافيات مهمة حول هذا الموضوع، بل وحاولوا وضع إطار نظري لمعالجته (1)، وإذا كان أيضا هذا الشكل من العمران قد تم الاعتراف به من لدن الدولة كعنصر مجالي ينبغي تنظيمه وإعادة هيكلته، وأخيرا إذا كان هذا النوع من العمران في الوقت الراهن لا يشكل المحرك الرئيسي للتوسع العشوائي للمدن، فإن ماتجدر الاشارة اليه هو أن الحاضرة الاسماعيلية في توسعها قد أفرزت هالة جديدة من العمران المقاوم على أرض خالية من كل تجهيز ضروري، والذي اصطلحنا عليه هنا بمفهوم العمران الذاتي.

وهكذا فإذا كان هذا الشكل من العمران الذي يلغي مفعول كل تخطيط حضري (2) يثير كثيرا من التساؤلات سواء من حيث موقعه بالنسبة للمدينة الذي يجعله محط جدلية يمكن تلخيصها في مفهومي الادراج أو عدم الادراج (3) Inclusion/Exclusion أو من حيث طابعه التطوري أفقيا وعموديا (Aspect évolutif) ذلك أن هذه الدواوير ؟ الاحياء ؟ المراكز ؟ التي لم تكن لتثير أي تخوف عند ظهورها (4) لم تلبث أن تحولت الى تجمعات سكنية هائلة ترتفع الكثافات السكانية في بعضها الى حد يتحول فيه الحديث من الانفجار الحضري الى ما يصطلح عليه بالاعتماد الحضري (5) Implosion urbaine/Explosion urbaine أو من حيث وظائفه كمأوى (refuge) لبعض الأنشطة الحضرية وكموصل (relais) هجري أو من حيث علاقته مع الوسط الريفي، درجة اندماجه في البيئة الحضرية، هزالة الامكانيات التي يوفرها للسكان، فإن أهم ما تجدر الاشارة اليه قبل التعريف بهذا الشكل من العمران الناتج عن تضخم المدينة والذي كثيرا مانعت كأخطر أشكال التوسع العشوائي للمدن (6)، هو التساؤل : 1 — عن كيفية التنظيم المجالي لهذه الأرباض وذلك للنظر فيما إذا كان هذا الشكل الذي وصف بأنه طوعي Spontané يوحي بالنماذج المتبعة في أحياء الصفيح أم أن المتربيين Squatters استوحوه من واقعهم المعاش، إما في الأرياف أو الحواضر، ومن ثم المشاكل المترتبة عن هذا التنظيم.

2 — إذا كانت هذه الأشكال (العمران الذاتي) إنما تعبر قبل كل شيء عن أزمة السكن داخل المدينة بسبب ارتفاع أثمنة العقار وقلة الأراضي المفتعلة، وإذا كانت هذه المجالات البيحضرية قد وفرت وفي

ظروف معينة المساحات اللازمة للايواء عدة آلاف من الأسر، فما هي الامكانيات الحالية التي تقدمها هذه المجالات لاحتضان الاعداد البشرية الهائلة التي تنصب تبعا داخل المدينة ؟

I ـــ التعريف بالعمران الذاتي :

كثيرة هي المصطلحات المستعملة للدلالة على هذا الشكل من العمران منها : السكن المتستر Clandestin، السكن الثوري Révolutionnaire (7)، سكن طوعي Spontané ، ومفردات أخرى كـ Autoconstruit-autoproduit... فإذا كانت هذه المفاهيم في مجملها تشير ضمنيا الى الظروف التي تم فيها هذا العمران (غياب السلطة، التستر عن القانون)، إلا أنها لا تعترف بها صراحة كعناصر تشكل جزءا من الواقع الحضري.ولذلك وبالنظر إلى الحيز المجالي المهم الذي أصبح هذا الشكل العمراني يشغله (رغم ضعف هذه الظاهرة نسبيا بمكناس بالمقارنة مع أوضاع مدن مغربية أخرى كالرباط مثلا، فإنه يأوي سنة 1982 أكثر من 20 ألف نسمة)، وبالنظر كذلك الى العلاقات العضوية بين هذه الاجزاء والمدينة والتي تتضح من خلال التراقص اليومي للسكان (أما للتعليم أو الشغل وغيرها من المآرب الأخرى)، وبالنظر كذلك الى النمو المضطرد للمدينة التي تضاعف عدد سكانها أكثر من عشر مرات في زهاء نصف قرن تقريبا (1930 ـــ 30 ألف نسمة، في 1982 أصبح عدد السكان بمدينة مكناس : 319783 نسمة) والتي من المنتظر أن يتجاوز عدد سكانها سنة 1990 أكثر من نصف مليون نسمة) (8)، ومن ثم تطاولها على ماحولها فإن كثيرا من هذه الدواوير كما تسميها العامة (رغم مايكتنف هذا المفهوم من غموض لارتباطه بالعالم الريفي الأمر الذي يجعل من اللجوء الى تواجد بعض التجهيزات الضرورية أو التنظيم المجالي كمؤشرات لقياس مدى اندماج هذه الأجزاء في المجتمع الحضري أمرا مشكوكا فيه (9))، قد تم ذوبانها داخل إطار المدينة (برج مشقوق، سيدي بوزكري) بينما لا تبعد الارباض الأخرى من الأحياء الحضرية المعترف بها إلا ببعض العشرات من الامتار (حمايزة، تولال، دوار السوسي) بعيد من مركز المدينة الجديدة، قريب جدا من الأحياء الأخرى (Plaisance).

تجنبا إذن للالتباسات التي تشوب المصطلحات السالفة، ونظرا للعوامل التي تم ذكرها فإنه قد تم اللجوء، للتعبير عن هذه الأجسام، إلى استعمال مفهوم أكثر مرونة ألا وهو العمران الذاتي auto-urbanisation تمييزا له عن البناء الذاتي auto-construction لضيق معناه، وتمييزا له كذلك عن الأشكال الغير المشروعة الأخرى والتي تختلف عنه في نوع بنائها، قانونها العقاري وفي الظروف التاريخية المصاحبة لظهورها.

وهكذا فإن مفهوم العمران الذاتي يدل على كل سكن صلب، تم تشييده بكيفية غير شرعية، على أراض تم اقتناؤها بكيفية قانونية، وبواسطة الادخار الفردي Epargne Personnelle.

والجدير بالذكر أنه إذا كان هذا التعريف صالحا لضبط هذا الشكل العمراني داخل الحدود الرسمية للدائرة الحضرية إلا أنه يفقد صلاحيته العملية خاصة فيما يتعلق بكيفية التشييد بالنسبة لتلك الأجسام الموجودة في المناطق الانتقالية التي جعلتها هذه الحدود الرسمية التي لا تستند إلى معايير دقيقة للتعريف بالمدينة تحوم داخل المجالات الريفية (الحدود الادارية تتبع نهر ويسلام كما أنها تمر بمحاذاة مركز تولال).

ومهما يكن فإن أشكال العمران الذاتي توحي بتلك التجمعات السكنية التي لا تختلف كثيرا عن البنايات الحضرية المشروعة، وهي بالتالي إذ تشير الى إمكانية توفر دخل مرتفع عما هو عليه الحال في أحياء

الصفيح (مع تحفظ نسبي كما أبدى ذلك الأستاذ الناصري الذي يرى أن السكن وإن هو مؤشر مهم لتكوين فكرة عن الجانب الاقتصادي إلا أن دأب بعض السكان العيش في هذه الأحياء (الصفيح) يجعلهم يفضلون البقاء هناك رغم تحسن أوضاعهم المادية لأنهم ألفوا العيش هكذا (10)، إلا أنها تظهر مع ذلك أنها لم تخضع لأي تصميم شمولي مسبق.

II ـ الضغط الديمغرافي وأثره على السكن : (داخل المجالات البيحضرية)

من الواضح أنه إذا كانت الأزمة العقارية داخل إطار المدينة أحد العوامل التي أدت الى بلورة هذا الشكل من العمران إلا أن الضغط الديمغرافي على هذه المجالات أدى الى نقل أجيج المضاربة العقارية إليها الأمر الذي انعكست آثاره على أثمنة الأرض وبالتالى على مستوى السكن.

هكذا إذن، فعلى الرغم من اختلاف درجة تطور ساكنة هذه الأرباض إلا أنها خلال العقدين الأخيرين، تضاعفت عدة مرات عما كانت عليه، فدوار السوسي الذي سنورده كمثال هنا انتقل من 1500 نسمة سنة 1971 الى أكثر من 8150 نسمة سنة 1982 أي بمتوسط تزايد سنوي يفوق 40%.

والجدير بالذكر أن هذا التزايد السكاني السريع أدى الى تزايد التهافت على الأرض التي ارتفعت أثمنتها على الشكل التالي :

السنـــــة	ثمن المتر المربع من الأرض الغير المجهزة (الدرهم)
1959	2.00 ـــ 0،75
1970	8.00
1978	200.00
1983	500.00
1986	600.00

وبموازاة هذا التزايد المضطرد لأثمنة العقار، عرفت المساحات المتداولة تناقصا كبيرا حيث أنها كانت تتراوح قبل السبعينات بين 250 م^2 و 1500 م^2، وأصبحت حاليا تنحصر بين 40 م^{2}و 300 م^2.

وبالاضافة إلى ذلك ينبغي الاشارة كذلك إلى التحول الذي طرأ على طرق تداول الأرض التي كانت تجمع سابقا بين المشتري والمالك مباشرة في حين أصبح التعاقد اليوم لا يتم إلا بواسطة الوسطاء (ظهور الوكالات العقارية).

وهكذا يتضح إذن أن هذه المجالات التي حلت جانبا من أزمة السكن لذوي الموارد المحدودة أضحت هي الأخرى وبانتقال عدوى المضاربة العقارية اليها مناطق طرد للوافدين الجدد الذين لا يتوفرون على إمكانيات مالية هامة.

III ـ تنظيم مجالات هذه الأرباض :

بالرغم من صعوبة التعيمم على أحوال هذه الأرباض بسبب تباين مراحل إنتاجها وبسبب اختلاف اهتمامات ساكنتها إلا أن قراءة ولو سريعة لمرفلوجيتها تظهر تواجد صنفين من التنظيم.

أ ـــ دواوير حيث المباني تشكل كتلا متواصلة لايفرق بينها سوى أزقة صغيرة وهي الدواوير الأكثر تأثرا بنفوذ المدينة بسبب القرب منها. وعادة ما تتوسطها ساحة تذكرنا بأهمية التنظيم الجماعي للمجال (تولال).

ب ـــ دواوير حيث استغلال المجال يذكرنا ببعض مدن الصفيح. فالمباني هنا تتناثر في شكل فوضوي تاركة أحيانا بينها مساحات شاغرة مما يدل على عدم وجود تماسك اجتماعي قوي. فهذه الدواوير هي التي خلقت حديثا وتعرف تطورا سريعا. وهي تتميز بانعدام وجود ساحة وسطى ذلك أن الجماعة ليست هي التي خلقت المجال بل العكس (بوزكري ـــ دوار السوسي).

ومن الملاحظ أنه إذا كان تنظيم النقل الحديث إحدى المعضلات الأساسية التي تعرقل تطور المدن العتيقة، فإن ما تجدر الاشارة اليه هو أن هذه الدواوير تنعدم فيها شبكة الطرق اللهم ما قامت به الدولة مؤخرا من تنظيم بعض المسالك التي تركزت حولها المحلات التجارية والمهنية ولعل أهم ما يفسر هذه الظاهرة، شعور السكان وهم أساسا ذوو مواد محدودة، بعدم احتياجهم لتخصيص مجالات للنقل الحديث. وهكذا إذن فمفهوم الحاجيات Besoins سابق لادراك شمولي لمجالات هذه الأشكال العمرانية التي تأوي ساكنة بيحضرية اليوم لكنها حضرية مستقبلا.

إن أشكال العمران الذاتي لم تعد سكنا متسترا كما تنعتها بذلك الدوائر الرسمية، بل إنها أصبحت واقعا حيا داخل المجالات الحضرية. وهي إذ ترمز الى إحدى سمات تخلف السياسة العمرانية في كثير من بلدان العالم الثالث إلا أنها في نفس الوقت تعبر عن مجهود السكان ومحاولتهم لتخطي أزمة السكن الذي لم يعد في مجتمعنا الراهن وسيلة عمل بقدر ما أصبح غاية، لذلك فعلى الدولة أن تقوم بهيكلة هذا الشكل من العمران وتيسير اندماجه داخل الوسط الحضري وضبط نموه خاصة وأنه يوفر ظروفا سكنية أفضل من تلك التي تتيحها أحياء التنك.

الهوامش

(1) Naciri Med : Note de présentation méthodologique. Colloque de géo maghrébin M.U.H.E. Rabat 73.
(2) Benhima Dr : Les problèmes d'urbanisation posés par le développement de aggloméations — in B.E.S.M n° 94 — 95. Rt 1962. p. 163 — 192.
(3) F. Navez Bouchanine — Modèles de fait et modèles de référence dans l'habitat d'un quartier clandestin cas de Douar Soussi Meknès in B.E.S.M. n°158Rt1986.
(4) Le ministère de l'Intérieur le sous-habitat au Maroc. C.ERF. Rt 1970.
(5) Ynes Laconte l'implosion urbaine ? Maspéro volume XXXI 1983 Paris
(6) Benhima Dr. Opt. ci.
(7) B. Hourcade F. Khosrokhavar. L'habitat révolutionnaire à Téhéran, 1977 — 81 Maspéro XXXI 1983 Paris.
(8) Royaume du Maroc. Schéma directeur de Meknès. Démographie — économie et image socio — économique— juin 1979.
(9) M. Sebti l'habitat des douars de Marakech un héritage compromis annales de géo. N° 521 Armandcolins Paris 1985.
(10) Les formes d'habitat sous-intégrés. Essai Méthodologique. Juillet 1970. in Bulletin SM. U.HParis.

العلاقـــات بين القطاعات المنتجة بمكناس

الأستاذ محمد بولسفان
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فـــاس

الهدف الأساسي لهذا العرض هو فتح نقاش حول إشكالية التنمية بمكناس وإقليمها خاصة وأن المخطط يريد أن يجعل من هذا المجال قطباً للتنمية الاقتصادية (1).

سنختصر تحليلنا على موضوع الادماج ما بين الأنشطة المنتجة وذلك لأن الادماج يعتبر من أهم التأثيرات الناتجة عن سياسة تنمية الأقطاب.

ويرتبط مفهوم الادماج بمعنى علاقات التكامل التي تربط بين الأنشطة الاقتصادية. يمكن أن تتخذ هذه العلاقات طابعا تقنيا (ابتداء من مادة أولية أو مادة وسيطة) أو طابعا اقتصاديا (جلب نشاط من طرف نشاط منتج آخر لايستعمل نفس المادة الأولية) وهذا ما يعبر عنه بـ «الصناعة تجلب الصناعة» (2).

سنحاول خلال هذا العرض إبراز نوع العلاقات التي تربط ما بين الأنشطة المتمركزة بالمدينة والأنشطة المتمركزة بالاقليم من جهة التي تربط ما بين الصناعات المتواجدة داخل المجال الحضري من جهة أخرى.

نظرا لبنية الأنشطة الصناعية المتمركزة بمكناس (أنظر الجدول أسفله) سوف نركز اهتمامنا على قطاعي الغذاء والنسيج اللذان يشغلان ما يقرب من ثلثي اليد العاملة الصناعية بالمدينة.

الأنشطة الصناعية بمكناس (1980)

القطاعات	نسبة اليد العاملة القارة %
صناعات فلاحية وغذائية	34
نسيج، ألبسة وجلد	30
خشب وورق	11
مواد البناء	14
ميكانيك	10
كيمياء	1
المجموع	100

المصدر : وزارة التجارة والصناعة

1) العلاقات بين الفلاحة والصناعة

أ ـــ تزويد الصناعة بالمواد الأولية الفلاحية

يتم تزويد الصناعات الفلاحية والغذائية المتمركزة بمكناس بالمواد الأولية أساسا عن طريق وكلاء الشراء والوسطاء بالنسبة للمواد الجهوية والوطنية وعن طريق المؤسسات العمومية بالنسبة للمواد المستوردة من الخارج (القمح الطري، الزيوت النباتية).

فأشكال الادماج بين النشاط الفلاحي والصناعي غير متطورة بالمنطقة رغم أهمية الادماج من حيث تنظيم الانتاج واستقرار الأثمنة خاصة وإن إنتاج المادة الأولية يعرف تقلبات من سنة لأخرى مما يجعل مصانع التحويل غير قادرة على تخطيط عملها.

يتم الادماج حسب ثلاث تنظيمات :

- الادماج التام بين الفلاحة والصناعة
- الادماج بواسطة عقود الانتاج
- الادماج التعاوني

ـ يهم الادماج التام بين الأنشطة الفلاحية والأنشطة الصناعية قطاع الخمور سواء على مستوى شركات الدولة «سوجيتا» و«صوديا» أو على مستوى الخواص. فالشركة تملك في نفس الوقت الأراضي الزراعية لانتاج المادة الأولية ومعامل التحول بل تتوفر حتى على مؤسسات لتسويق منتوجاتها. وبذلك يهم الادماج كافة النسق من المزرعة الى المستهلك.

وقد كان هذا الشكل من الادماج تقوم به شركة «نورا» قبل استرجاع أراضيها من طرف شركة «سوجيتا».

ـ يطبق الادماج بواسطة عقود الانتاج بصفة متقطعة من طرف بعض الشركات التي تفضل عملية الكراء.

ـ أما الادماج التعاوني فيخص قطاع الحليب (كومالي) وبصفة شكلية قطاع الخمور التابع«لسوجيتا» و«صوديا» بحيث أنهما ورثتا النظام التعاوني الخاص بمعامل التخمير عن المعمرين.

ب ـــ تزويد الفلاحة بالمواد الصناعية الضرورية للانتاج الفلاحي رغم الأهمية الفلاحية لاقليم مكناس فلم تظهر به حتى الآن صناعة الالات والأدوات الفلاحية أو صناعة الأسمدة، الأدوية ومبيدات الحشرات.

تتوفر المدينة فقط على وحدات لتعليب الأسمدة (فرتيما) ومعامل صغيرة لاصلاح الالات الفلاحية.

2) العلاقات ما بين الصناعات

أ ـــ علاقات التكامل داخل نفس القطاع

ـ الصناعات الفلاحية والغذائية

توفر الصناعات الغذائية مواد للاستهلاك المباشر أو للاستعمال من طرف صناعات أخرى.
فالمطاحن توفر الدقيق لمعامل العجائن الغذائية وللمخابز. وهذه الأخيرة عبارة عن خدمة أكثر منها صناعة.

كما نلاحظ بأن بعض المواد تصدر على شكل مواد وسيطة حيث يتم تعليبها بالخارج (المصبرات، الخمور).

ــ النسيج والملابس.

رغم وجود معمل للنسيج فإن معامل خياطة الملابس (3) تعتمد على استيراد الثوب ثم تصنيعه وإعادة تصديره. ويتم استيراد الثوب تحت نظام «الاستيراد المؤقت» حيث يعفى هذا النوع من الاستيراد من حقوق الجمرك على أساس إعادة تصدير الكمية المستوردة بصفة كلية.

فتمركز هذا النوع من النشاط الصناعي مرتبط بضعف كلفة اليد العاملة المحلية وبسياسة إعادة توزيع المجال الانتاجي للنسيج المتبعة من طرف الشركات الأوربية.

ب ــ توفير مواد تجهيزية للصناعات

تفتقر مكناس لصناعات تجهيزية ولانتاج المواد الوسيطة. تتوفر للمدينة فقط على بعض المعامل الصغيرة لاصلاح الآلات وتوفير بعض قطع الغيار.

كما أن معمل «سمورا» يعمل على تزويد الصناعات المحلية ببعض الغازات الصناعية.

الخاتـــمة :

نلاحظ أن علاقات التكامل ما بين الأنشطة المنتجة بمكناس والاقليم مازالت لم تصل بعد الى مستوى عال من التعقيد حتى يمكن أن نتحدث عن وجود قطب للتنمية.

فبالنسبة لكل نسق انتاجي لانجد في الغالب إلا عنصرا واحدا دون العناصر الأخرى.

يمكن تجاوز هذه الوضعية عن طريق تنمية الانسقة الانتاجية التي تتجاوب مع مؤهلات المنطقة ومع العناصر الانتاجية المتمركزة بها. ومن بين هذه الأنسقة نسق الفلاحة والغذاء ونسق النسيج والألبسة.

إن عملية تطوير هذه الأنسقة بواسطة إنشاء العناصر الانتاجية المفقودة وتشجيع التقدم العلمي والتقني لكافية بالمساعدة على تحقيق التنمية الجهوية وتكوين قطب حقيقي. لكن يجب الأخذ بعين الاعتبار الادماج على الصعيد الوطني (الصناعات التجهيزية) بل وحتى على الصعيدين المغاربي والعربي (البترول والغاز الطبيعي بالنسبة لنسق النسيج الاصطناعي).

الهوامـــــش

(1) Ministère du plan, plan de développement économique et social 1978/1980 vol. 1, p. 218.

(2) P. Georges, Précis de géographie éconhmique, PUF, PARIS, 1964, P. 89.

(3) أهمها معمل «سيكوم» الذي كان في سنة 1980 يشغل 10% من اليد العاملة.

إحصاء الحرف والحرفيين بإقليم مكناس

عبد الكريم نشيد

مندوب جهوي لوزارة التخطيط
مكناس

تبعا للتوجيهات السامية التي أصدرها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده بمناسبة عيد الشباب المجيد بتاريخ 8 يوليوز 1985 لاختيار اقليم مكناس كمنطلق لعملية نموذجية لتنظيم الحرف والحرفيين، بغية الرفع من مستواهم والنهوض بالقطاعات الاقتصادية لبلادنا وجعلها تساير متطلبات النمو، فقد أجرى إحصاء شامل لجل القطاعات الحرفية المتواجدة بالاقليم خلال شهري غشت وشتنبر 1985 بهدف الحصول على أقصى مايمكن من المعطيات التي كانت مجهولة الى حين إجراء عملية الاحصاء.

وقد تم فعلا تهييء هذه العملية وفق منهجية مضبوطة تهدف الى :

1) المعرفة الدقيقة لمجموع الحرفيين وتوزيعهم حسب الحرف.

2) الالمام بأهم مميزاتهم الديموغرافية والاقتصادية والثقافية.

3) كشف حاجياتهم من اليد العاملة حسب مستويات تخصص هاته اليد العاملة وذلك للاطلاع على الامكانيات المتواجدة فيما يخص طاقة استيعاب الحرف للمتخرجين من مراكز التكوين المهني.

4) أخذ نظرة ولو موجزة حول بعض المميزات المرتبطة بالمؤسسات الحرفية من حيث تجهيزاتها الآلية ووصف محلات العمل ومواقعها بالاضافة الى بعض الخاصيات الأخرى كوضعيتها الجبائية وتوفرها للسجل التجاري والمسطرة التي أتبعتها عند إنشائها.

5) حصر بعض المشاكل التي تعرقل السير العادي لهذه المؤسسات حسب وجهة نظر أربابها.

هذا وعلى ضوء النتائج الأولية للاحصاء يمكن تلخيص الوضعية فيما يلي :

– يبلغ العدد الاجمالي للحرفيين ما مجموعه 584 13 فردا بما فيهم أرباب المهن واليد العاملة معهم، موزعين على 105 حرفة.

أما مجموع المؤسسات فيساوي 8771 منها 863 غير مصنفة ويبلغ عدد المعلمين والمتكونون من المشغلين والمستقلين والشركاء، 7414.

هذا وإذا ما قورنت نتائج بحث الحرفيين بنتائج الاحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982 يتجلى أن مجموع الحرفيين الذين تم بحثهم يمثل حوالي 8،7% من مجموع السكان النشيطين المشتغلين بالاقليم.

I المشتغلون

1) توزيع الحرفيين حسب الجنس :

أبرز إحصاء الحرفيين أن أغلبيتهم مكونة من الذكور بحيث كان توزيعهم حسب الجنس كالتالي :

– 624 10 من الذكور أي ما يمثل 78،21% من المجموع الاجمالي.

— 2960 من الاناث أي ما يمثل 21،79% من المجموع الاجمالي.

وإذا ما أخذنا نتائج الاحصاء العام لسنة 1982 في هذا الميدان نجد على أن 81.00% من السكان النشيطين المشتغلين على صعيد الاقليم من الذكور، في حين أن نسبة الذكور العاملين بالحرف تبلغ 78،21% ويستخلص من هاتين النسبتين أن الحرف تميل الى تشغيل العنصر النسوي أكثر مما هو مسجل على مستوى مجموعة النشيطين. فالحرف تشغل 21،79% من الاناث في حين لم يسجل إلا 18،92% عند السكان النشيطين.

ونلاحظ أن العنصر النسوي يتعاطى بكثرة الى حرف الطرز ونسج الزرابي والحلاقة والخياطة التقليدية والخياطة العصرية وصناعة السفيفة وغزل الصوف والطبخ والحياكة (تريكو) وصناعة المضام.

الحرف التي تشتغل بها الاناث	العدد	النسبة
الطرز	1512	51،08
نسج الزرابي	505	17،06
حرف أخرى	943	31،86
المجموع	2960	100

وبالمقارنة مع الذكور في الحرف فإن الطرز ونسخ الزرابي وصناعة السفيفة وغزل الصوف والطبخ والحياكة وصناعة المضام تعد من الحرف التي يكاد ينفرد بها العنصر النسوي دون الرجال. تشغل هذه الأنشطة 2363 من الاناث بينما لايصل عدد الذكور بها إلا الى 93 فردا أي أن الاناث يمثلن 96،21% من عدد العاملين بهذه الحرف.

2) توزيع الحرفيين حسب السن

تصل نسبة الحرفيين الذين تقل أعمارهم عن 15 سنة الى 5،31% ويعملون بالأنشطة الآتية :

— نسج الزرابي حيث أن عدد الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 15 سنة يبلغ 211 أي ما يفوق 29،22% من الفئة التي يقل عمرها عن 15 سنة بمجموع الحرف. وإذا ما قورن هذ العدد بمجموع العاملين بقطاع نسج الزرابي فإنه يمثل نسبة 41،53%.

— الخياطة التقليدية : يبلغ عدد العاملين بهذا النشاط الذي تقل أعمارهم عن 15 سنة 159 طفلا أي ما يناهز 22،02% من فئة أقل من 15 سنة. أما من حيث مكانتهم داخل هذا النشاط فإنهم يمثلون 8،40% من العاملين بالخياطة التقليدية.

— الطرز : سجل بهذه الحرفة 71 من الأفراد الذين لا يتجاوز سنهم 15 سنة، أي 9،83% ويمثلون 4،65% من مجموع العاملين بقطاع الطرز.

تبلغ نسبة الحرفيين الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و50 سنة 80،62%، أما الحرفيون الذين

يتواجدون من فئة 20 — 40 سنة فإنهم يمثلون نسبة 53،86%. وبخصوص الحرفيين الذين تجاوزوا سن 60 فإن عددهم يصل الى 719 شخصا أي 5،29% من مجموع الحرفيين الذين تم إحصاؤهم. ومن بين الحرف التي يرتفع فيها عدد العاملين الذين تجاوزت أعمارهم 60 سنة نذكر :

- صناعة الخزف بحيث أن 100% من العاملين بها تجاوزوا سن 60.
- حرفة العوادين وتضم 40،68% من الحرفيين تجاوزوا سن 60.
- حرفة السمارين التي يشتغل بها 33،33% من الحرفيين داخل هذه الفئة، ونفس النسبة بخصوص صناعة السروج.
- صناعة المكنسات وتضم 25% من العاملين الذين تجاوزوا 60 سنة.

فئة الأعمار	العدد	النسبة
أقل من 10 سنوات	159	1،17
من 10 إلى 15 سنة	563	4،14
من 15 إلى 20 سنة	1870	13،77
من 20 إلى 25 سنة	2368	17،43
من 25 إلى 30 سنة	2291	16،87
من 30 إلى 40 سنة	2658	19،57
من 40 إلى 50 سنة	1765	12،99
من 50 إلى 60 سنة	1191	8،77
60 سنة وأكثر	719	5،29
المجموع	13584	100،00

وإذا ما قارنا نتائج إحصاء الحرفيين بنتائج الاحصاء العام لسنة 1982 نستخلص ما يلي :

إن الحرف التي تشغل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 10 سنوات تبلغ نسبتهم 1،17% داخل الحرف، بينما لاتتعدى 0،5% حسب إحصاء 1982. وهذا الفارق قد يرجع الى تواجد المتعلمين داخل الحرف التي وصلها البحث.

إن تراكم النسب الى غاية 40 سنة يظهر بأن الحرفيين يمثلون 72،95% في حين لاتصل نسبة هذه الفئة «ما أقل من 40 سنة» إلا إلى 65،9% داخل مجموع السكان النشيطين، الشيء الذي يبرز أن الحرفيين أقل سنا بالمقارنة معهم نسبيا.

تبلغ نسبة العاملين الذين تجاوزوا سن 50 17،7% من مجموع السكان النشيطين المشتغلين و15،06% عند الحرفيين.

3) توزيع الحرفيين حسب وسط الاقامة

يبلغ عدد الحرفيين المزدادين بالوسط الحضري 9570 أي ما يمثل 70،45% من المجموع الاجمالي.
أما الحرفيون المزدادون بالوسط القروي فيصل عددهم الى 3896 أي ما يناهز 28،68%. يبقى 118 حرفي غير مصرح بمكان ازدياده وتمثل هذه الفئة 0،87% من مجموع الحرفيين.

4) توزيع الحرفيين حسب المستوى الدراسي :

المستوى	لاشيء	يعرف القراءة والكتابة	حاصل على شهادة	خريج مؤسسة التكوين المهني	غير مصرح	المجموع
العدد	5426	4881	2902	319	56	13584
النسبة	39،95	35،93	21،36	2،35	0،41	100.00

يتجلى من معطيات إحصاء سنة 1982 أن نسبة الأمية داخل الاقليم تبلغ 54،1% من مجموع السكان الذين تفوق أعمارهم 10 سنوات، أما عند الحرفيين فإنها لاتتعدى 40% الشيء الذي توضحه معطيات الجدول أعلاه.

ويمكن أن نستخلص من هذا الجدول كذلك هزالة عدد الحرفيين الحاصلين على شهادة التكوين المهني وهذا راجع الى عاملين :

1) ضآلة المسجلين بمركز التكوين المهني بالمقارنة مع تلاميذ التعليم الثانوي العام وذلك خلال فترة 1960 — 1980.

2) كون خريجي مؤسسات التكوين المهني يعملون مع المقاولات والمؤسسات العمومية والشبه العمومية خلال السنوات الماضية.

ومن بين الحرف التي تميل الى تشغيل أعلى نسبة من خريجي مراكز التكوين المهني ندرج الجدول الاتي :

الحرف	% للعاملين المتخرجين من مركز التكوين المهني
الترصيص	10،37
الحلاقة	7،84
النقش على الخشب	7،23
اصلاح الراديو والتلفزة	6،77
الخياطة العصرية	5،20

الكهرباء العامة	5،07
الخرازة	4،64
ميكانيك السيارات	3،00
المطالة	3،01
الطرز	2،09
البناء	1،90

5) توزيع الحرفيين حسب الحالة في الحرفة :

يتضح من خلال النتائج المتوصل اليها في هذا المجال أن أعلى نسبة من الحرفيين يشكلها المستأجرون ب 20،12% من العاملين في مجموع الحرف، أما المشغلون فيكونون نسبة 16،30%، وبواسطة هذه الأرقام يمكن أن نستخلص أن كل مشغل لايوفر العمل إلا لـ 1،23 مستأجر في المعدل.

أما ترتيب الحرف حسب أهمية المستأجرين داخلها فإنه يحظى بما يلي :

- حرفة الطبع %71،50
- الخبازة %50،39
- الفرارنية %43،55
- الخياطة التقليدية %35،76
- الكهرباء العامة %32،60
- الزلايجية %29،65
- كهرباء السيارات %26،47
- ميكانيك السيارات %20،11
- النجارة %18،86

ونشير الى أن «المستقل ذو محل» الذي يشكل نسبة 18،6% كمعدل عام بالنسبة لمجموع الحرفيين يطغى على الحرف الاتية :

الحرف	نسبة مستقل ذو محل داخل الحرفة %
الخرازة	60،82
إصلاح الراديو والتلفزة	53،64
الحلاقة	46،58
اللباطة	42،42
إصلاح الدراجات العادية	38،63
التصوير	35،91
الخياطة العصرية	28،31

النجارة	22،90
إصلاح الدراجات النارية	22،29
إصلاح العجلات	20،90
الكهرباء العامة	20،28
الخياطة التقليدية	13،10
النسبة المتوسطة لجميع الحرف	18،68

وفيما يتعلق بفئة «مستقل يعمل بمنزله» والتي تمثل 16،06% فإنها تتكاثر وسط بعض الحرف التي تتميز بكونها تشغل أعلى نسب من الاناث من جهة وبكونها ذات طابع تقليدي من جهة أخرى. ويمكن تلخيص هذه الحرف في الجدول الآتي :

الحرف	نسبة مستقل يعمل بمنزله داخل الحرفة %
صناعة المضام	88،88
غزل الصوف	88،88
صناعة الغرابيل	86،95
الطرز	82،19
الحياكة (اتريكو)	81،03
صناعة السفيفة	79،36
صناعة المكنسات	62،50

يمثل عدد المتعلمين الذين تم إحصاءهم 8،52% من المجموع الاجمالي، وتلعب هذه المجموعة دورا مهما بالنسبة لبعض الحرف وخصوصا التقليدية منها بحيث تعد من الروافد المهمة التي تمد كل قطاع بما يحتاجه من اليد العاملة المؤهلة. وفيمايتعلق بالحرف التي يتواجد بها عدد كبير من المتعلمين نذكر : نسج الزرابي بـ 42،91% وكهرباء السيارات ب 23،53% ونقش الخشب ب 15،66% وميكانيك السيارات ب 13،43% والخياطة التقليدية ب 13،21% وحتى يتم تكوين فكرة واضحة حول توزيع الحرفيين حسب الحالة في الحرفة ندلي بالجدول التالي :

الحالة في الحرفة	العدد	النسبة المائوية
مشغل	2214	16،30
مستقل ذو محل	2538	18،68
مستقل يعمل بمنزله	2182	16،06
مستأجر	2733	20،12

شريك	480	3،53
مساعد عائلي	718	5،29
متعلم	1 158	8،52
آخر	1 522	11،21
غير مصرح	39	0،29
المجموع	13 584	100.00

6) ترتيب الحرف :

حتى نتمكن من ترتيب الحرف على ضوء المعلومات التي نتوفر عليها يمكننا أن نستعين بالمؤشرات الاتية :

- مجموع المشتغلين
- عدد المشغلين
- عدد المستأجرين
- عدد المشغلين والمستقلين ذوي محلات
- عدد المتعلمين
- أهمية كل حرفة حسب حجم مناصب الشغل المتوفرة أو حسب حاجياتها من اليد العاملة.

واستنادا الى هذه المؤشرات توصلنا الى الترتيب الآتي :

1 — الخياطة التقليدية ب 1823 فردا أي 13،94%
2 — الطرز ب 1528 فردا أي 11،25%
3 — النجارة ب 917 فردا أي 6،75%
4 — الخياطة العصرية ب 904 فردا أي 6،65%
5 — البناء ب 791 فردا أي 5،82%
6 — الحلاقة ب 68 فردا أي 5،07%

هذا وإذا ما أضفنا بالتتابع ميكانيك السيارات نسج الزرابي — الجزارة — اسكافي — خباز — التلحيم — الفرن — إصلاح الراديو والتلفزة — الصباغة — إصلاح الدراجات النارية — الزلايجي — المصور — الكهرباء العامة — كهرباء السيارات — الترصيص نحل الى 21 حرفة يعمل بها 79،35% من مجموع الحرفيين، في حين أن 84 حرفة المتبقية لاتشغل إلا 20،65%.

7) توزيع الحرفيين حسب الأقدمية في الحرفة

من خلال معرفتنا لمدة ممارسة حرفة ما، يمكننا أن نبرز المهن الجديدة أو الحديثة العهد وبالنسبة للحرف التقليدية فإن مدة الممارسة ترمز الى تمكن نسبة معينة من كسب تأهيل يضمن لها استقرارا نسبيا داخل الحرفة بغض النظر عن العوامل الأخرى.

الأقدمية في الحرفة	أقل من سنة	1 — 3 سنوات	3 — 6 سنوات	6 — 9 سنوات	9 — 12 سنة	12 — 15 سنة	15 سنة فأكثر	المجموع
العدد	42	1870	2399	1875	1515	1078	4805	13584
النسبة	0،31	13،77	17،66	13،80	11،15	7،94	35،37	100.00

مما يثير الانتباه أن نسبة المشتغلين الجدد الذين لم يزاولوا الحرفة إلا لمدة قصيرة لم تتجاوز سنة كاملة لا تتعدى 0،3% أو 3% في الألف.

وإذا ما أضفنا اليها المشتغلين لمدة تقل عن 3 سنوات فإن النسبة تصبح 14% من الحرفيين الذين هم أقدمية تقل عن 3 سنوات. وتوجد هاته المجموعة المتكونة من الوافدين الجدد بالحرف الاتية :

- خرط الحديد بـ 30،76%
- خطاط بـ 14،29%
- إصلاح النظارات بـ 33،33%
- كهرباء السيارات بـ 27،21%
- إصلاح المطاحن التقليدية بـ 18،60%
- إصلاح العجلات بـ 14،54%
- المطبعة بـ 28،94%
- إصلاح الآلات الكهربائية بـ 12،50%

وتصل نسبة المشتغلين لمدة تزيد عن 15 سنة الى 35،37% ونجدهم يعملون بالخصوص داخل المهن التقليدية كصناعة الأعمدة الخشبية للمكنسات وغزل الصوف والدباغة والدرازة.

II المؤسسات

1) توزيع المؤسسات حسب الأفراد العاملين بها

عدد الأفراد	1	2	3	4	5	6	7 وأكثر	المجموع
العدد	6242	1396	601	268	138	46	80	8771
النسبة	71،17	15،92	6،85	3،06	1،57	0،52	0،91	100.00

يوضح لنا الجدول أعلاه توزيع المؤسسات حسب عدد الأشخاص العاملين بها وهكذا نجد أن 71،17% من المؤسسات لايشتغل بها إلا فرد واحد، وإذا ما أضفنا اليها نسبة المؤسسات التي لاتتوفر إلا على شخصين، فإن هذه النسبة تصبح 87،09%، وهذا ما يظهر صغر حجم معظم المؤسسات.

في حين تبقى نسبة المؤسسات التي تشغل 7 أفراد وأكثر ضئيلة جدا ذلك أنها لاتتجاوز 9%.

وبخصوص الحرف التي لاتشغل إلا فردا أو فردين فانها تهم بعض الحرف التقليدية وكذا تلك التي تمارس من طرف الاناث ونذكر على سبيل المثال : الطرز ــ البناء ــ الصباغة ــ إصلاح الراديو ــ الخرازة.

أما المهن التي يوجد بها 7 أفراد فأكثر أي التي تميل الى تشغيل عدد كبير من الحرفيين نسبيا، فهي الخبازة ــ نسج الزرابي ــ الخياطة التقليدية ــ ميكانيك السيارات ــ التلحيم ــ النجارة ــ الخياطة العصرية.

2) توزيع المؤسسات حسب نوع البناء

نوع البناء	الصلب	الطين	خيمة	براكة	نوع آخر	غير مصرح	المجموع
العدد	5819	986	20	583	500	863	8771
النسبة	66،34	11،24	0،23	6،65	5،70	9،84	100.00

تمكننا المعطيات المدرجة في الجدول أعلاه من تكوين فكرة ولو تقريبية حول إحدى العوامل التي تخص ظروف عمل الحرفيين بالمؤسسات المهنية، وهكذا يتضح أن 66،34% من المؤسسات مبنية بالصلب وهذه نسبة لابأس بها. وبالنسبة للحرف التي تمارس في محلات غير ملائمة نذكر :

ــ 8،69% من محلات الجزارة مبنية بالطين و3،09% في براكة أو خيمة أي أن 11،78% من المؤسسات التي تمارس هذه المهنة تعمل في محلات غير ملائمة صحيا.

ــ 8،69% من مؤسسات الحلوى مبنية بالطين كذلك.

ــ 16،32% من محلات الخبازة مبنية بالطين أو عاملة في براكة و 20،26% بقطاع الفرارنية.

أما الحرف التي يحتمل ألا تتلاءم محلاتها مع شروط السلامة نذكر :

ــ الحدادة العامة حيث تصل نسبة المحلات المبنية بالطين أو البراريك إلى 31،34%.

ــ إصلاح الدراجات العادية 23،33% من محلاتها تدخل في هذا الصنف.

ــ النجارة ب 18،47% فالتلحيم بنسبة 18،36%.

3) توزيع المؤسسات حسب التزويد بالماء والكهرباء

يبلغ عدد المؤسسات المزودة بالكهرباء والماء معا 2479 مؤسسة أي ما يمثل 28،26%. أما

المؤسسات المزودة بالكهرباء فقط فإنها تصل الى 3066 في حين أن المحلات المتوفرة على الماء لاتتعدى 124 محلا.

هذا وعلى صعيد جميع الحرف نجد أن 37،22% من المحلات المبنية بالطين غير مزودة لا بالماء ولا بالكهرباء أما البراريك الغير مزودة فتبلغ نسبتها 97،60% من مجموع البراريك وتمثل نسبة المحلات الغير مزودة 51،32% من المحلات في قطاع الطبخ و22،07% في قطاع الجزارة و18،5% في قطاع الخبازة.

4) توزيع المؤسسات حسب استعمالها للالات

يكتسي استعمال الآلة أهمية بالغة للتعرف على المستوى التقني للمؤسسات، هذا ولقد بلغ عدد المؤسسات المستعملة للآلة 2538 أي ما يمثل 28،94% من مجموع المؤسسات.

وهناك علاقة قوية بين استعمال الآلة وبين عدد الأشخاص العاملين بالمؤسسات ذلك أن نسبة استعمال الآلة داخل المؤسسات التي لايتعدى العاملون بها فردا واحدا لاتتجاوز 24،38% في حين أن هذه النسبة تصل الى 51،25% داخل المؤسسات المستعملة لسبعة أفراد وأكثر.

5) توزيع المؤسسات حسب موقع المحل

موقع المحل	شقة	غرفة في مسكن	محل في الطابق السفلي	مرأب	حالة أخرى	المجموع
العدد	566	2365	567	1419	3854	8771
النسبة	6،46	26،96	6،46	16،18	43،94	100.00

يمكن أن نستخلص من الجدول أن 33،42% من المؤسسات تعمل في شقة أو في غرفة منزلية. وأن المقارنة بين هذه النسب ونسب المؤسسات التي تنتمي لبعض القطاعات التي تكثر فيها فئة «مستقل ذو محل» والتي هي من اختصاصات النساء كالخياطة ونسج الزرابي وغزل الصوف تمكننا من أخذ نظرة حول المؤسسات التي تزاول عملها داخل محلات سكنية.

كما نجد حرفا تزاول بالمحلات السكنية وبنسب مهمة كالنجارة وإصلاح الدراجات النارية والتلحيم.

6) توزيع المؤسسات حسب صفة الحيازة.

يمكن ترتيب المؤسسات حسب صفة الحيازة على النحو الآتي :

- مكتري : 4931 أي 56،22% من مجموع المؤسسات.
- ملاك : 1850 أي 21،09% من مجموع المؤسسات.
- حالة أخرى 1127 أي 12،85% من مجموع المؤسسات.

ـ غير مصرح 863 أي 9،84% من مجموع المؤسسات.

هذا وعلى مستوى مجموع الحرف، تمثل نسبة مكترى 68،20% من المحلات المبنية بالصلب. أما الوحدات الحرفية العاملة في محلات من ملكها فتمثل 22،73% من مجموع الوحدات العاملة في محلات «صلب».

7) توزيع المؤسسات حسب التصريح :

من بين الاجراءات التي يجب على المؤسسات اتخاذها التصريح عند إنشائها، ولقد تبين من خلال نتائج الاحصاء وجود ارتباط بين القيام بإجراءات التصريح وحجم المؤسسة، وذلك أن نسبة المؤسسات التي لم تصرح لاتمثل إلا 32،50% لدى المؤسسات المشغلة لسبعة أفراد فأكثر بينما تناهز 69،38% لدى المؤسسات التي لايوجد بها إلا فرد واحد.

وبصفة عامة يصل عدد المؤسسات التي صرحت وقت فتحها الى 2179 أي ما يمثل 24،84% من مجموع المؤسسات مقابل 5729 مؤسسة لم تصرح وذلك بنسبة تبلغ 65،32%. وبخصوص نسبة المؤسسات التي لم تصرح داخل بعض الحرف فإننا نجدها جد مرتفعة بالحرف التقليدية وكذا بالمهن التي يتكاثر بها «مستقل يعمل بمنزله» والتي هي من اختصاص النساء ونذكر على سبيل المثال :

ـ الطرز التي سجل بها 1318 وحدة بدون تصريح.
ـ الخياطة التقليدية حيث سجلت 701 وحدة لم تصرح.
ـ صناعة السفيفة حيث وصل عدد المؤسسات التي لم تصرح 112.

هذا ومن بين الحرف التقليدية التي سجلت نسبا مرتفعة فيما يخص عدم تصريح مؤسساتها عند انشائها نذكر :

ـ الدرازة : 95،34% من المحلات لم تصرح.
ـ الحدادة التقليدية : 81،81 لم تقم بأي إجراء في هذا القبيل.
ـ الخرازة : 70،24% من المؤسسات لم تصرح.

8) توزيع المؤسسات حسب أداء الضرائب :

33،76% من المؤسسات فقط هي التي تؤدي الضرائب، أما الباقي والمتمثل في 66،24% فهي لاتؤدي الضرائب. ونلاحظ أن ارتفاع نسبة عدم أداء الضرائب يتواجد بالمؤسسات المهنية التي تشرف عليها الاناث. وهكذا فمن بين 2302 مؤسسة هناك 2025 محلا غير خاضع للضرائب أي ما يعادل 87،97%.

وقد تبين كذلك وجود علاقة بين أداء الضرائب والحالة في الحرفة بحيث أن 66،46% من المشغلين يؤدون الضرائب و41،07% من مستقل ذو محل، أما المستقل العامل بمنزله فإن نسبة الذين يؤدون الضرائب لاتتعدى 2،2% وهكذا نجد على أن الطرز على سبيل المثال لاتبلغ بها نسبة المؤسسات التي تؤدى الضرائب إلا 1،40% من مجموع مؤسسات الطرز.

ومن بين المؤشرات التي توضح الجانب التنظيمي لدى المؤسسات توفرهم على السجل التجاري، وقد

لحظ أن 11،25% نقط من المؤسسات التي تم إحصاؤها تتوفر على سجل تجاري.

9) توزيع المؤسسات حسب الاحتياج الى اليد العاملة :

من بين أهداف الاحصاء التوصل الى معرفة المؤسسات التي ترغب في تشغيل خريجي مراكز التكوين المهني، ولقد أبرزت النتائج ضآلة نسبة المؤسسات التي صرحت أنها في حاجة الى اليد العاملة ذلك أنها لاتمثل سوى 9،10% من المجموع.

توزيع المؤسسات حسب عدد العمال الذين تحتاج اليهم

عدد الأفراد	1	2	3	4	5	6 وأكثر	المجموع
العدد	338	207	62	62	25	105	799
النسبة	42،30	25،1	7،76	7،76	3،13	13،14	100.00

10) توزيع المؤسسات حسب نوعية المشاكل التي تعترضها :

إن ترتيب المشاكل حسب أهميتها ونوعيتها وحسب ما جاء في تصريحات أرباب المهن يعطينا ما يلي :

يأتي مشكل قلة الطلب على رأس القائمة ذلك أن 71،35% من المؤسسات اشتكت منه.

– يليه الامكانيات المحدودة بـ 51،07%

– ثم الاحتياج الى القروض بـ 34،30% فعدم ملاءمة المحل بـ 24،45% وضيق المحل بـ 22،52%.

أما بالنسبة للحرف فإن نسبة المؤسسات التي تعاني من مشكل قلة الطلب في الخياطة التقليدية تصل الى 76،75% و76،13% فيما يتعلق بالطرز و74،27% في قطاع التجارة. وبخصوص نفس المشكل هناك 73،24% من المؤسسات المشغلة لشخص واحد والمشتكية من قلة الطلب.

أما أقل نسبة فلقد سجلت داخل المؤسسات المشغلة لسبعة أفراد وأكثر حيث لم تتعدى 53،75%.

وأخيرا يمكننا أن نستخلص من نتائج الاحصاء المعرفة الدقيقة لجل الحرف التي تمارس داخل إقليم مكناس وحصر عدد الحرفيين بها وذلك قصد تنظيمها والقضاء على الفوضى التي يعرفها سير بعض الحرف وبالرغم من النتائج الاولية المحصل عليها، لابد من دراسة كل حرفة على حدة دراسة تشمل جميع الجوانب وذلك بمواجهتها لعوامل أخرى حتى يتم الادلاء بمقترحات وجيهة وسليمة.

L'Artisanat de la corporation à la coopérative : le cas de Meknès

Mohamed ABDOUH
Faculté de Droit — Fès

I. Problèmes de définition de l'artisanat et orientations méthodologiques:

1: L'artisanat, doit-on remarquer est une notion floue et polysémique.

Floue d'abord, car son usage est insensible aux différences dues au temps et à l'espace: les mutations dans la réalité que cette notion doit normalement représenter n'ont pas l'air de déranger. Polysémique, la notion d'artisanat est basée sur des critères hétéroclites. Ainsi, la terminologie utilisée actuellement entretient la confusion et révèle un véritable désarroi: il est question d'artisanat «traditionnel», «d'artisanat moderne», «d'artisanat industriel» et le dernier-né de ces doublés est du genre «secteur informel» ou «secteur non structuré». On a beau tenter d'affiner les critères et les concepts, l'artisanat comme réalité économique et sociale semble insaisissable, et le phénomène de définitions tautologiques semble universel. En Allemagne Fédérale par exemple, on définit l'artisanat par «les modes et la manière artisanaux».

2. Dans ce labyrinthe, la référence au couple forces productives — rapports de production relève certainement d'une orientation méthodologique essentielle. Elle n'élimine pas pour autant tous les écueils. La complexité actuelle des formes de production et d'emploi dans les villes du «Tiers-Monde» est telle qu'elle exige d'interroger constamment les catégories économiques, par une approche concrète, sur leur capacité à rendre compte de cette réalité mouvante.

Qu'on n'attende pas de nous d'ajouter, à une liste déjà longue mais combien inefficace, une autre définition qui viserait à classer l'artisanat de façon définitive (1). Néanmoins ce travail s'est inspiré de quelques prémisses et propositions méthodologiques que nous explicitons comme suit:

— En premier lieu, une étude de l'artisanat doit mettre l'accent sur la logique de fonctionnement des unités et notamment sur le mobile de l'activité dans un environnement daté. Ces éléments éclairent à leur tour la nature de l'organisation du procès de travail, les types de stratégies impliquées etc..

— En second lieu, l'identification des statuts de l'artisanat et des artisans est à déterminer à partir d'une double approche: si l'analyse concrète doit s'attacher à montrer le contenu réel des catégories économiques de maître-artisan, compagnon, apprenti, aide-familial, l'approche historique doit par contre aider à comprendre le mouvement qui pourrait produire de nouveaux statuts ou introduire des changements dans les anciens.

Ces deux approches doivent par conséquent être croisées pour repérer les caractéristiques essentielles de la situation actuelle de l'artisanat et leur donner une signification.

II. L'ère de la corporation: «l'âge d'or» de l'artisanat marocain

Des nombreux indicateurs du dynamisme de l'artisanat urbain, on pourrait retenir l'importance des effectifs et de la production artisanaux d'une part et d'autre part les rôles et place de l'organisation corporative.

1. Importance de l'artisanat marocain au XIX[e] siècle

L'artisanat urbain de production était encore important au début du XIX[e] s. même s'il a connu une relative décadence depuis le XIV[e] s. Une appréciation portant sur ses effectifs serait prétentieuse tant les témoignages datant de l'époque sont contradictoires et non synchronisés. On doit en effet rappeler que le premier recensement général et quelque peu systématique portant sur les effectifs et la production artisanaux ne date que du début du XX[e] s. (2). Encore que les résultats de cette enquête sont discutables aussi bien du point de vue de la définition de l'artisanat sur laquelle se base l'auteur que dela méthode administrative et musclée, privilégiée pour recueillir les données. Malgré ces réserves, ce recensement garde une certaine valeur indicative.

D'un autre côté, on doit préciser que les références de ce travail concernent généralement le XIX[e] s. C'est à dire une période où même si les vestiges de l'artisanat précapitaliste sont présents, se profile déjà le processus de désagrégation dont l'image se précise à la fin du siècle.

Quoiqu'il en soit, on peut affirmer avec J.L. Miège (3), référence obligée pour ceux qui s'intéressent à l'histoire économique et sociale du Maroc au XIX[e] s. que «le rôle de l'artisanat dans la vie économique du Maroc demeurait au XIX[e] s. fort important». Nous allons être amenés par conséquent à présenter quelques indices statistiques de ce rôle de l'artisanat urbain, lesquels indices montrent qu'aussi bien en production qu'en effectifs, l'artisanat reste de loin la principale activité urbaine. C'est ce qui ressort des indications ponctuelles suivantes.

A Fès, R. LETOURNEAU estime l'effectif total pour les différentes branches de l'artisanat à 10.000 personnes. Mais si on retient comme hypothèse que chaque artisan fait vivre quatre personnes, c'est là moitié de la population de Fès qui est ainsi concernée (4). Cependant, ces chiffres concernent déjà une période de relatif déclin de l'artisanat. Du temps des Almohades, Fès comptait 372 meules à grain intramuros, 467 foundouks, 9082 boutiques, 2 kissariats, 3064 métiers à tisser, 47 fabriques de savon, 86 tanneries, 116 teintureries, 12 fonderies, 135 fours à pain, 11 verreries, 188 ateliers de poterie. (5) Si Fès constitue l'exemple le plus édifiant de l'importance de l'artisanat, elle restait comparable à des villes comme Marrakech, Rabat, Salé et Tétouan. Même dans des centres de moindre importance tel que Meknès, Mogador, Taza etc..., la «population artisanale» ne représentait pas moins du tiers de la population urbaine (6).

Sur l'importance des différentes branches de l'artisanat, nous disposons d'indications assez précises. Ainsi dans l'éventail de ces activités, c'est l'artisanat du textile et du cuir, c'est-à-dire l'artisanat vestimentaire et ses annexes qui occupent une place de choix. Pour ce qui est du textile, L. L'AFRICAIN aurait recensé à Fès 520 ateliers et 20.000 ouvriers (7).

Jusqu'au début du XIXème s. l'artisanat textile avait pour base la laine et la soie, mais au delà de cette période le coton, sans être absent auparavant, prendra une importance relative croissante. Ramon Fernandez de la Reguera aurait

recensé à Rabat en 1863, 156 ateliers et boutiques de cotonnades, 18 ateliers de Haiks et de tissus de coton. (8) Une partie même de la production de cotonnades et de fibres de coton provenant de Fès et de Tétouan est exportée en particulier sur TLEMCEN (9). Il faut mentionner aussi l'importance de la fabrication des tapis et du tissage de la soie particulièrement à Rabat et à Fès (10).

Quant à l'artisanat du cuir, à savoir principalement la tannerie et la babou-cherie, il était dans de nombreuses villes de par son importance économique et sociale à la tête de l'ensemble des activités artisanales. Ces métiers avaient connu une grande prospérité à Fès, à Marrakech et à Rabat notablement. LE TOURNEAU estimait au XIXème s. à 1500 le nombre de personnes travaillant dans la cordonnerie et 800 tanneurs, ceci toujours à Fès. Il s'agit sûrement d'une sous-estimation par comparaison avec d'autres témoignages concernant des villes marocaines de moindre importance. D'après BEAUNIER, il existait en 1865 à Rabat-Salé 250 babouchiers, qui produisaient 147.500 pièces et qui employaient 2025 personnes. D'après les mêmes documents, les tanneries sont au nombre de 40 produisant 80.000 pièces et employant 400 personnes (11).

Sans aller plus loin dans l'énumération de ces indices ponctuels — fort nombreux par ailleurs — il faut conclure à l'existence dans le Maroc précapitaliste d'un artisanat urbain très diversifié. Ceci à tel point que ces variétés de l'artisanat urbain ont posé un véritable problème de classification en catégories homogènes (12).

De cette diversification des activités artisanales, on pourrait inférer que l'artisanat urbain intervenait de façon décisive dans la couverture des besoins aussi bien essentiels que ceux qu'on pourrait qualifier de luxueux, qu'il s'agisse de la ville ou de la campagne. Cette diversification constituait aussi l'expression d'une division sociale du travail déjà avancée. A mentionner cependant que cette division n'était pas approfondie par une division technique. En effet, les instru-ments de travail utilisés n'ont pas connu de changement notable et encore moins de révolution depuis des siècles. Mais s'agit-il d'un trait distinctif de l'artisanat marocain? Il semble bien que non, si on se refère au cas de l'artisanat en Europe avant l'âge de la fabrique. Dans cet ordre d'idées, R. Mantoux a beaucoup insisté sur la simplicité de l'outillage utilisé dans l'artisanat textile anglais (13). Citons aussi à titre d'exemple le cas de la France, et spécialement la cordonnerie dont le procès de travail n'a pas connu de changement depuis des siècles. C'est du moins ce qui ressort du passage suivant: «Des précurseurs de la chaussure aux ouvriers du XVIIème siècle, l'outillage et les procédés d'exécution varient peu: alène, tranchet, formes et marteau pour l'essentiel de l'outillage; couture au fil enduit de poix, teinture noire à la noix de galle ou cirage pour l'exécution».

On retrouve pratiquement les mêmes instruments dans l'artisanat du cuir au Maroc, avec une adaptation aux données locales. Ces données concernent non seulement les matières premières tels les produits tannants mais aussi les goûts et de façon générale les types de clientèle, ce qui explique la différenciation parfois très poussée du produit de l'artisanat marocain. En prenant une nouvelle fois l'exemple de la babouchерie, on peut se reférer utilement à R. LECLERC (14) qui recense pas moins de 10 catégories de babouches dont la qualité, les couleurs et les formes s'adaptent parfaitement à la clientèle considérée du point de vue des sexes et de l'origine géographique et sociale. Cette différenciation des pro-duits de l'artisanat marocain, son adaptation aux exigences et goûts permet de penser que la babouchеrie avait atteint un degré de perfection appréciable. C'est

cette habileté de l'artisan marocain, son ingéniosité, élément qui contrebalançait quelque peu la simplicité de l'outillage, qui fait écrire à R. LETOURNEAU que «les techniques fassies étaient parvenues à leur point de perfection» (15).

Concernant toujours l'artisanat du cuir, il y'avait non seulement division de travail entre tanneurs et babouchiers mais aussi une spécialisation interne à la tannerie. En 1855, par exemple, parmi les 40 tanneries de Rabat-Salé, 20 traitant exclusivement les peaux de bœufs alors que les 20 restantes se sont spécialisées dans le tannage des peaux de moutons et de chèvres. Même phénomène à Fès où d'ailleurs la spécialisation par type de peaux se confondait avec une spécialisation spatiale: A. GERNIZ, on se consacrait au tannage des cuirs forts (bœuf) tandis que le tannage des peaux de moutons et de chèvres se faisait à SEUW-WARA et à Aïn Azliten. Aussi peut-on conclure que stagnation technique ne signifie nullement statu_quo économique.Il est vrai que nous nous sommes limités ici aux deux branches du textile et du cuir mais celà se justifie par leur poids relatifs prépondérant (16).

La répartition des effectifs par rapport aux ateliers peut fournir l'occasion d'une dernière remarque sur le dynamisme de l'artisanat. Si la taille des ateliers semble être modeste en règle générale, il n'en reste pas moins qu'il existait dans la baboucherie des ateliers employant jusqu'à 15 personnes et rarement moins de 5. (17) De même, dans l'artisanat du textile il était fréquent qu'un tisserand possédât jusqu'à 10 métiers, ce qui représentait un effectif de 20 à 25 personnes dans ces ateliers (18).

L'étude des éléments qui précèdent nous a permis de constater le caractère dynamique de l'artisanat urbain et partant, sa capacité de constituer un ressort sensible de l'intensification des échanges ville-campagne. Ces éléments relevant des forces productives dans l'artisanat seront mieux saisis à partir de l'étude de la forme d'organisation sociale.

2) Organisation sociale et institutionnelle de l'artisanat urbain

L'analyse des formes d'organisation de l'artisanat qui concernent non seulement la hiérarchie intérieure à la corporation mais les rapports de cette dernière avec le Makhzen est nécessaire à plus d'un titre.

Cet ensemble de rapports peut d'abord nous éclairer sur le dynamisme des formes de production et d'échange avec la campagne, et en conséquence de comprendre un aspect important des rôles et place de la ville dans la formation économique et sociale marocaine.

Par ailleurs, l'analyse de l'organisation corporative avec ses multiples réseaux de solidarité, les différents statuts des principaux agents et leur fonction économique et sociale, sera indispensable pour avoir des repères historiques par rapport au processus de désagrégation qui va suivre.

Pour ce faire, partons des perceptions courantes de l'organisation de l'artisanat marocain. Les artisans marocains étaient-ils organisés en corporations? Cette interrogation peut étonner mais elle a été formulée par certains auteurs (19) qui mettent en doute l'existence même de l'organisation corporative dans les pays musulmans. Pour ces auteurs, l'artisanat dans les pays européens est présenté comme un modèle de référence auquel est confronté, trait par trait, l'artisanat marocain. Le résultat est parait-il «qu'une corporation professionnelle

musulmane même si on en admet l'existence, (souligné par nous, A.M.) ne peut correspondre pleinement à ce qu'ont été les corporations de l'Europe chrétienne à leur belle époque (20)».

La même thèse est présentée mais apparemment de façon plus nuancée par L. MASSIGNON (21). Ce dernier tout en reconnaissant l'existence de la forme corporative, insiste sur les traits qui la singularisent par rapport au modèle européen.

Ainsi les corporations marocaines étaient muselées par le Makhzen et de ce fait, n'ont pu se fédérer en communes et acquérir des franchises municipales, comme ce fut le cas en Europe. La manifestation de la dépendance des corporations vis-à-vis du Makhzen se concrétise par les pouvoirs exorbitants attribués au mohtassib. Ce dernier concentre des pouvoirs politiques, économiques et religieux, et de ce fait intervient même dans la définition des conditions d'adhésion aux corporations et dans l'élaboration des modalités techniques d'exercice du métier.

Cette mainmise du Makhzen sur les corporations explique alors, selon ce point de vue le poids des charges publiques: touiza et corvées au profit du sultan et de sa cour, des travaux à perte pour les habous et enfin les charges coutumières.

Le deuxième trait particulier des corporations marocaines serait leur caractère démocratique et populaire. Il s'agit ici d'éléments qui concernent la hiérarchie interne à la corporation et en particulier des rapports entre maîtres-artisans et campagnons. On se refère toujours ici à la corporation européenne et à la scission entre jurandes (maitrise et compagnonnage) Et R. LETOURNEAU de renchérir: (22) «En somme, on n'est pas ici en présence de deux classes sociales distinctes, mais d'une seule, celle des artisans, qu'ils soient ouvriers ou patrons».

Les éléments précédents fondent les points de vue qui minimisent le rôle de l'artisanat urbain au Maroc. Or il nous semble que ces points de vue sont loin de refléter la réalité des groupements des artisans au double niveau de leurs rapports avec le Makhzen et des rapports de production qui leurs sont internes.

Avant d'aller plus loin, il peut être nécessaire de mentionner brièvement l'intérêt et l'enjeu d'un tel débat par rapport à notre préoccupation. La corporation a été en effet souvent présentée comme une forme d'entrave au développement des forces productives dans la période de transition au capitalisme. Mais celà ne doit pas cacher qu'à leur belle époque, les corporations avaient permis un progrès sensible des forces productives dans l'artisanat. La corporation était donc dans ce contexte la pièce maîtresse du système artisanal tant au niveau technique, socio-économique, qu'au niveau idéologique.

Après ce rappel, il nous paraît logique de nous interroger sur le prétendu caractère spécifique des groupements des artisans marocains.

— **La docilité présumée des corporations vis-à-vis du Makhzen:** Les études concluant à la passivité des corporations ne paraissent pas fondées car elles présentent les rapports corporation — makhzen comme étant linéaires et n'impliquant qu'une influence du Makhzen sur les corporations. Or, même dans le cas d'apparente passivité, la question est de savoir s'il s'agit d'une domination absolue du makhzen sur les corporations ou, au contraire, d'un appui de ces dernières sur le pouvoir central qui agit dans le sens de leurs intérêts.

En tout état de cause, et à contrario, on peut présenter des cas historiques où les corporations se sont révoltées contre le makhzen lorsque sa politique n'était pas en connivence avec leurs intérêts profonds. C'est dans ce sens que J. BOURILLY écrit (23): «à maintes reprises, au cours de l'histoire, les artisans de Fès, se sont appuyés sur leurs clients berbères dans leurs conflits avec les sultans, notamment My Ismaïl et My Slimane». Il est important à cet égard de s'interroger sur la base économique d'une telle alliance entre artisans et tribus.

Plus précisément, on pourrait citer le cas suivant à travers lequel on peut montrer l'esprit d'autonomie, voire la turbulence des corporations: lorsqu'en 1842, le Sultan interdit le commerce avec l'orient par l'Algérie, la réaction des corporations et en particulier celle de l'artisanat du cuir à Fès fut immédiate et violente. De même, la révolte des cordonniers de Marrakech peut fournir un exemple prenant en flagrant délit la thèse de la docilité parfaite des corporations.

Enfin, la mainmise du pouvoir central sur les corporations était souvent illustrée par l'importance des attributions du Mohtassib. Or ce dernier délègue une grande partie de son pouvoir sur les corporations aux Oumana. Eclairer le statut de l'Amin serait donc à propos pour comprendre les rapports Makhzen — corporations. L'Amin est-il un auxiliaire du mohtassib et du pacha, chargé de percevoir les amendes et de répartir au sein de la corporation les charges publiques, ou au contraire un représentant des artisants auprès de l'État ? Rappelons d'abord que l'Amin est élu par la corporation sur la double base de sa compétence technique et de sa situation sociale. R. LECLERC le décrit comme «un vieillard aisé, connaissant bien son métier, scrupuleux, et reconnu par tous comme remplissant les conditions d'impartialité indispensables». Certes, la nomination définitive de l'Amin et soumise à l'approbation préalable du mohtassib et par suite, du pacha, mais la corporation a le droit de réclamer son changement lorsqu'elle juge qu'il ne remplit pas fidèlement son mandat. Aussi peut-on conclure que l'Amin est bien moins un agent du Makhzen que le représentant de la corporation. Ce qui de ce fait contredit la thèse répandue de la soumission totale des corporations au pouvoir central.

Qu'en-est-il maintenant du prétendu caractère démocratique et populaire des corporations au Maroc ?

— **Les rapports de production au sein de la corporation.** Ces rapports sont-ils spécifiques aux corporations marocaines? La triologie maître-artisan, compagnon, apprenti repose-t-elle sur d'autres types de rapports que ceux ayant existé au sein de la corporation européenne ? Certes cette hiérarchie tripartite est insérée pour le cas Marocain dans des relations paternalistes. Cependant elle n'en définit pas moins des rapports d'exploitation au détriment du compagnon et de l'apprenti. En effet, les relations entre les maitres-artisans et les compagnons bien que personnelles et directes, peuvent être identifiées comme «des rapports d'exploitation avec une tonalité familiale». La base de ces rapports étant l'extorsion d'un surtravail au profit du maître-artisan. Le compagnon, quant à lui, perçoit un revenu correspondant au travail nécessaire à sa subsistance.

Toute autre est la question de l'expression politique et sociale de tels rapports d'exploitation et notamment le niveau de conscience de cette exploitation de la part des agents sociaux concernés. Or s'il parait vrai que les conflits entre maître-artisans et compagnons étaient moins déclarés dans le cas du Maroc, il ne faut pas pour autant en déduire une harmonie absolue au sein de la corporation.

De leur côté, les apprentis font l'objet d'une double dépendance, tant technique que sociale: Durant la période d'apprentissage, période de formation-production, l'apprenti, du maître-artisan et du compagnon. La dépendance vis-à-vis de ce derneir est une dépendance technique. Qu'il s'agisse de la corporation marocaine ou des corporations en Europe, on peut affirmer que l'apprenti dépend directement et personnellement du maître-artisan. Il lui doit fidélité, obéissance aveugle aussi bien dans l'exercice des tâches en rapport avec le métier que pour l'exécution de certains travaux domestiques. Dans ces conditions, l'apprentissage est à la base du renouvellement du métier. Les apprentis bien qu'appelés à bénéficier d'une mobilité sociale en tant que futurs maitre-artisans, sont en situation confictuelle avec les maître-artisans du fait de l'allongement de la période d'apprentissage décidé par ces derniers. Or le statut de l'apprenti pendant cette période peut faire l'objet d'une double appréciation. Pour le maître-artisan, c'est une période de production. L'apprenti se considère comme étant dépossédé en partie ou en totalité du produit de son travail. Aussi doit-on comprendre que le recrutement des apprentis au sein de la famille du maître-artisan a pour effet d'atténuer les conflits qui pourraient naître du fait du statut des apprentis.

Avec ces derniers développements, on a pu se rendre compte que la spécificité de la corporation marocaine était exagerée. Alors qu'on serait tenté de partager la conclusion à laquelle aboutit LECLERC qui écrit : «En somme, cette organisation (la corporation marociane) est analogue à ce qui existait en France avant la révolution». Et de fait ces corporations marocaines, étaient nombreuses dans les principales villes du Maroc précolonial : elles seraient au XIXème siècle au nombre de 4800 à Marrakech, 4000 à Fès, 1000 à Meknès et autant à Salé etc... Comme celles du Moyen-Age latin les corporations avaient avant tout le souci de défendre et d'organiser le métier. Elles se préoccupaient d'établir le juste prix, le juste «salaire», Le respect de la qualité du produit, une surveillance «malthusienne» de l'effre et de la demande, telle que le chômage a pu être écarté. La structure corporative permettait aussi l'exercice d'une solidarité effective entre maître-artisans, ce qui se faisait par l'existence d'une caisse de secours mutuelle, par l'engagement de la responsabilité collective en ce qui concerne les malfaçons et les fraudes etc...

Bénéficiant de monopoles de fait ou de droit, ces corporations tendaient à s'entourer de garanties juridiques pour préserver leurs privilèges. En Europe, le développement des «métiers libres» à partir du XVIIIème siècle va constituer une première menace au système corporatif et à l'économie artisanale stagnante qu'elle est devenue. Au Maroc, c'est la pénétration commerciale européenne du XIXème s. qui va déclencher l'affaiblissement du système corporatif.

III. Déclin des corporations et échec de l'entreprise coopérative artisanale.

Avec la colonisation vont se préciser les forces centrifuges dont l'action entraina l'éclatement de la corporation artisanale. La crise de l'institution corporative qui en résulte peut être approchée à partir de la nette regression des effectifs des maître-artisans dans l'ensemble des villes marocaines «traditionnelles». Le cas de Meknès, donc typique, est éloquent.

Tableau n° 1 : Effectifs des maîtres-artisans à Meknès en 1923 et 1954

CORPORATIONS/ANNEES	1923	1954
Tisserands	118	75
Menuisiers	71	69
Tanneurs	29	14
Potiers	27	31
Forgerons	29	21
Cordonniers	70	44
Nattiers	08	19
Joailliers	31	11
Mozaistes	17	06
Teinturiers	07	10
Fabriquants de Tamis	07	03
TOTAL	414	303

Sources : L. Massignon: «Enquête sur les corporations...» op.cité.
L. Golvin: «Aspects de l'Artisanat en Afrique du Nord» PUF. 1957 Paris.

Les données qui précèdent, bien que parlant d'elles-mêmes, appellent les remarques suivantes:

— La baisse des effectifs des maîtres-artisans est une caractéristique quasi-générale aux corporations. Sur 11 corporations 8 ont vu leurs effectifs diminuer. De même, l'effectif total a régressé de près 21,5 % entre 1923 et 1954. Or, il faut rappeler que cette baisse intervient alors que le volume des besoins en marchandises de même valeur d'usage que ceux de l'artisanat, n'a cessé d'augmenter durant cette période. L'augmentation des besoins de consommation de ces produits avait notamment pour ressort la croissance démographique, la monétarisation de l'économie, l'urbanisation etc... Facteurs qui jouèrent donc en faveur de la demande de consommation des marchandises de l'industrie en l'absence de modernisation de l'artisanat.

— Les corporations artisanales n'étaient évidemment pas concernées au même degré par la réduction de leurs effectifs. Et il peut être intéressant de déceler la physionomie de l'artisanat à la veille de l'indépendance. En effet les professions qui œuvraient à satisfaire les besoins fondamentaux et qui jouaient dans la période précoloniale un rôle de premier plan, sont les mieux placées dans le processus de régression. C'est notamment le cas des tisserands, tanneurs,

forgerons et cordonniers dont les effectifs ont regressé respectivement de 37 %, 52 %, 28 %, et 37 %.

III. Origines du mouvement coopératif dans l'artisanat.

Le Maroc précolonial, villes et campagnes, connaissait parfaitement l'existence des diverses formes d'entraide. Certaines d'entre elles étaient certes provisoires et ponctuelles: Touiza, Ouziâa, Agadir, Muzaraka, Muzaka... Mais d'autres fonctionnaient durablement sur la base de véritables règles coopératives. Citons, à titre d'exemple, les cas probants de la gestion, par la Jamaâ, des terres collectives de même que l'exploitation de ruchers dans le cadre d'une coopérative créée dès le début du XIXième s. dans la région de Taroudant.

Dans l'artisanat, cependant, c'est dans le contexte colonial que l'entreprise coopérative allait prendre forme. Le Dahir du 8 juin 1938 règlemente et étend la formule coopérative à l'artisanat alors qu'elle était déjà proposée, dès 1918, pour organiser les paysans. Dans les deux cas, les promoteurs de la modernisation de l'«économie indigène» visaient à déclencher un «choc psycho-technique» par le moyen d'actions incitatives ou par le recours à la contrainte pure et simple. La coopérative devrait être la pièce maîtresse de ce dispositif, l'artisan-coopérateur pourrait, du moins théoriquement, bénificier de l'aide technique (ateliers-pilotes) et financière de l'état.

A l'issue de la période coloniale, la coopérative artisanale peut-être considérée comme une sorte d'avorton au regard du nombre des coopérateurs et de la place qu'elle occupe dans le mouvement coopératif au Maroc.

Tableau n° 2: Activité des coopératives artisanales (1951-1955)

Exercice	Nombre de coopératives	Nombre de coopérateurs	Chiffre d'affaire (en millions de F)
1951	18	1335	36,1
1952	20	2131	108,2
1953	21	2691	128
1954-55	23	2800	130

Source du tableau n° 2: Abdelaziz Belal: «L'Investissement au Maroc de 1912 à 1964». Editions Maghrébines Casablanca 1980 p.105

Force est donc de constater le faible impact de la coopérative artisanale dont l'attrait n'a pas séduit plus de 1,4 % de l'ensemble des artisans alors que le nombre des coopératives artisanales n'a représenté que 23 % de l'ensemble des coopératives marocaines en 1951-1952.

Comment expliquer l'échec de cette tentative de transplantation de la coopérative au lieu et place d'une corporation moribonde?

Considérons brièvement, d'abord, l'explication de type «sociologique» qui désigne la rationalité de «l'économie indigène» et «l'égoïsme» irréductible de l'artisan comme co-responsable de l'inhibition du mouvement coopératif. Cette pseudo-explication ignore non seulement l'existence, déjà soulignée, dans le tissu social marocain d'avant la colonisation de riches expériences coopératives, mais dénie aussi à la pratique du travail collectif les fonctions d'éducation et de formation des coopérateurs dont profiterait le mouvement coopératif pour prendre plus de vigueur. C'est donc dans d'autre directions qu'il faut chercher les raisons de l'échec de la coopération.

Les premiers éléments d'explication sont à rattacher aux contradictions de l'action de modernisation de l'artisanat. En effet, la création de coopératives, était présentée comme le moyen le plus percutant permettant d'endiguer le processus de prolétarisation des paysans et des artisans et donc de circonscrire voire éteindre les foyers d'agitation sociale. En somme, les maîtres à penser de l'expérience de modernisation voulaient arriver à concilier, dans un même mouvement harmonieux, l'essor de «l'indigène» et l'expansion de la France.

Par conséquent, on peut conclure que le projet social de la modernisation ne pouvait être réalisé dans le cadre de la colonisation. Sa réalisation heurtait de front les intérêts immédiats des milieux coloniaux qui le jugèrent finalement inoportun et potentiellement dangereux et dont la pression expliquait la modestie du soutien tant financier que technique dont les artisans ont effectivement bénéficié. Dans ce contexte, les ateliers-pilotes n'ont pas fait tâche d'huile et les crédits, très selectifs n'ont touchés que 0,5 % des effectifs artisanaux et avaient même tendance à décroitre en volume au début des années cinquante:

Tableau n° 3: Montant des crédits à l'artisanat

ANNEES	MONTANT (en million de F)
1950–51	82
51–52	34
52–53	68
53–54	50

Source: A. EL KHYARI. «Artisanat et Capitalisme» op.cité p: 440

Correlativement, la coopérative était perçue par les artisans comme une structure de contrôle politique et policier. L'omniprésence de l'état colonial à tous les niveaux de fonctionnement des coopératives n'était pas de nature à démentir une telle vision. Un tel héritage constitue d'ailleurs, un handicap majeur au développement du mouvement coopératif actuel. Rappelons à cet égard que si dans les pays du tiers-monde, la création des coopératives est avant tout une entreprise administrative, en Europe, la coopérative de production, de consommation et d'approvisionnement est née de l'initiative des paysans, des artisans et des ouvriers dans le contexte du début du siècle dernier.

III.2: Les caractéristiques du mouvement coopératif dans l'artisanat à Meknès.

Dans la période post-coloniale, la reconversion de l'artisanat par la promotion de la coopération semble de même trébucher.

Tableau n° 4 : Evolution des coopératives artisanales au Maroc de 1955 à 1983

ANNEES	NOMBRE DE COOPERATIVES	NOMBRE DE D'ADHERANTS
1955	23	2800
1962	60	3000
1972	113	–
1974	121	6000
1977	165	7000
1979	205	11227
1983*	225	12706

Sources : • A. EL KHYARI «Artisanat et capitalisme» op.cité p.495
* S.D.A.R. •Région centre-nord 1985 p.145

En effet, la coopération a réalisé peu de progrès eu égard à l'ambition des plans de développement. Celui de 1960-1964, en particulier, insistait sur la nécessité d'étendre le secteur coopératif en cherchant la participation volontaire des artisans. L'état, selon le planificateur, devrait encourager le mouvement par des moyens d'incitation tels l'octroi de crédits, la création d'usines pilotes, l'encadrement humain et la prise en charge de la formation professionnelle. C'est de même le cas des autres plans qui depuis le début des années soixante-dix faisaient de la promotion de la coopération un objectif prioritaire.

Etriqué, le secteur coopératif manque de dynamisme et ne se maintient que par la volonté de l'administration comme tendent à le montrer les indicateurs suivants : en 1979 le bénéfice total des coopératives artisanales était de 8.534.633 DH ce qui, compte tenu du nombre d'adhérants, implique un bénéfice annuel individuel de 750 DH.

Dans ces conditions, beaucoup de coopératives ont une existence purement fictive. Pour d'autres les subventions et l'aide de l'état, dont le montant parfois est supérieur à celui du capital social, constituent la principale raison d'être. Ainsi le total des subventions au secteur coopératif de l'artisanat est passé de 1.060.000 DH durant la période 1973-77 à 4000.000 DHen 1978 soit donc une augmentation de 277 % alors que le nombre de coopératives bénéficiaires a diminué passant de 105 à 67ce qui dénote une plus grande rigueur dans

la sélection des coopératives à soutenir.

L'étude du secteur coopératif dans l'artisanat à Meknès permet de mieux préciser nos idées dans la mesure où sa physionomie confirme les traits du mouvement coopératif national.

Effectivement, la coopérative a peu d'impact sur les artisans à Meknès. Entre 1977 et 1982, le nombre de coopérateurs, très réduit, est passé de 215 à 229, ce qui est dérisoire compte tenu des effectifs des artisans. Durant la même période une seule coopérative a vu le jour ce qui porte le nombre à 8. Le poids relatif de la coopération selon les branches d'activités artisanales durant la même période se présente de la façon suivante:

Tableau n° 5: Effectif des Coopérateurs par Profession

Professions	Effectifs des coopérateurs	
	1977	1982
Menuiserie	56	33
Tannerie	44	51
Maroquinerie	09	04
Cordonnerie	14	26
Tissage	42	33
Tissage de tapis	22	48
Tailleurs	28	34
TOTAL	215	228

Sources du tableau n° 5 : Schéma directeur de la ville de Meknès p: 46
– Etudes de la Banque Populaire

Aussi, si le secteur coopératif couvre en moyenne 9 % de l'ensemble des artisans, cette couverture et inégalement répartie selon les branches et les professions. Dans le secteur artisanal du cuir, cette proportion des coopérateurs ne dépasse pas actuellement 3,5 % des maîtres-artisans; dans la confection, autre branche de premier plan dans l'artisanat à Meknès, 2,5 % seulement des maîtres-artisans sont coopérateurs.

Enfin dans le tissage du tapis, par contre, le «développement du mouvement coopératif» cache de fait l'existence de véritables sociétés de capitaux. Dès lors, comment expliquer l'anémie qui entrave la vie normale du secteur coopératif dans l'artisanat ?

Une première raison a trait à l'insuffisance des moyens permettant de sti-

muler les mouvements de constitution et de consolidation des coopératives. C'est notamment le cas des crédits accordés à l'artisanat de Meknès dont le montant, fort modeste, a tendance à baisser en valeur absolue depuis 1976.

D'autres éléments explicatifs de la «mauvaise santé » des coopératives de l'artisanat, concernent la déficience du système de formation professionnelle, de même que la lourdeur et l'inefficacité de l'encadrement administratif des artisans.

S'il ne s'agit nullement de dénier aux facteurs précédents une certaine valeur explicative de la situation actuelle des coopératives, on doit remarquer néanmoins, leur incapacité à éclairer suffisamment le paradoxe de la crise de ces coopératives dans une situation de véritable profilération de petites activités urbaines ne bénéficiant, quant à elles, d'aucune forme d'encouragement.

IV. De la léthargie des coopératives à la polifération des petits métiers.

Les villes du Tiers-Monde connaissent en effet, un indéniable foisonnement de ces petites activités dont il s'agit de présenter ici quelques caractéristiques impliquant de nouvelles formes et modalités de mobilisation de travail.

Au Maroc la classification des professions et le regroupement des activités en branches, largement inspirés de modèles externes, présentent plusieurs équivoques et ne mettent nullement en valeur cette nouvelle réalité de l'emploi urbain. On pourrait cependant, approximativement il est vrai, en suivant quelques groupes de professions, dégager quelques tendances. Il s'agit en l'occurence des grands groupes professionnels 6 et 7 (24) dont la part dans la population active totale a évolué comme suit:

1960	23,2 %
1971	27,5 %
1982	36 %

La réalité socio-économique de ces groupes dont les effectifs sont en nette augmentation pendant cette période se caractérise par une dégradation des conditions de l'emploi en rapport surtout avec la nature d'une industrie peu employante (25) ce qui explique, en partie, la faible progression du salariat par rapport à la population active totale. Cette part de 35 % en 1960, de 37 % en 1971 n'a pas dépassé 40,5 % d'après le dernier recensement.

L'approche concrète des aspects de l'emploi urbain évoqués, et particulièrement celui des conditions de mobilisation du travail dans les petites activités, et dans l'espace économique de Meknès, peut être l'occasion d'éclairer les tendances actuelles en matière d'emploi urbain.

IV.1. Meknès : Théâtre d'un remarquable accroissement numérique des petites activités

Le recensement des petits métiers à Meknès, effectué en 1985 par les services du Ministère du Plan, rend possible l'établissement d'un premier bilan. Certes, la comparaison avec les données statistiques antérieures n'est pas aisée

pour de multiples raisons; ce qui donne donc aux résultats de tout rapprochement, une valeur indicative. Toutefois, même avec l'intégration d'une marge d'incertitude «raisonnable», on serait loin d'expliquer l'accroissement net des effectifs des petits métiers, et encore moins la création assez récente de nouvelles unités dans la plupart des secteurs d'activité.

Ainsi dans les branches du cuir et du textile à Meknès, les effectifs d'emploi (toutes catégories) ont augmenté de 133 % entre 1977 et 1985.

Tableau n° 6 : Effectifs des petits métiers à Meknès dans les branches cuir et textile en 1977 et 1985

Années / Branches	1977	1985	Accroissement (en % de 1977)
Textile (confection)	2200	5359	143 %
Cuir	315	517	64 %
Total	2515	5876	133 %

Sources du tableau n° 6 — Schéma Directeur de l'aménagement urbain de Meknès. Délégation du Ministère de l'Habitat.
Recensement des artisans de Meknès. Délégation du Ministère du Plan 1985.

Cette augmentation dans les effectifs d'emploi ne comprend pas celle des associés et aides-familiaux qu'on a dû défalquer des données de 1985 pour homogénéiser les bases de cette comparaison. Un autre indicateur de cet accroissement des petits métiers peut être fourni par l'évolution du nombre des chefs d'unité pendant la même période et pour les mêmes branches, indice révélateur du mouvement de création de nouvelles unités et parfois de nouveaux ateliers.

Tableau n° 7 : Effectifs des chefs d'unité en 1977 et en 1985 dans les branches cuir et textile à Meknès

Années / Branches	1977	1985	Accroissement (en % de 1977)
Textile	800	3219	302 %
Cuir	232	357	53,8 %
TOTAL	1032	3534	242 %

Le mouvement de création de nouvelles unités qui ressort nettement du tableau précédent, peut être confirmé en outre par des enquêtes ponctuelles et précises. Ainsi les services du Ministère de l'Habitat à Meknès ont localisé, en

1985, dans trois quartiers ou bidonvilles ouverts sur l'exode rural, 106 petites unités de production et de commerce. Il est utile de noter que 17 % de l'ensemble de ces unités (50 % à Ain Chbik) sont intégrées au logement, ce qui peut avoir un grand intérêt dans un environnement de crise de l'emploi.

La prolifération, assez récente, de petits métiers à Meknès, ne fait donc aucun doute. Comment l'expliquer? Plus précisément, peut on mettre ce phénomène en correlation avec l'apparition de nouvelles causes déterminantes? Car l'explication par les lacunes du processus d'industrialisation, par l'ampleur et les caractéristiques de l'exode rural, est essentielle certes mais néglige, à notre sens, des facteurs de génération de nouvelles unités, facteurs qui jouent à «l'intérieur» même des petits métiers.

IV.2. L'apprentissage sur le tas: nouvelles fonctions, nouvelles conditions

La réalité socio-économique de l'apprentissage sur le tas, dans les petits métiers, connaît d'importants changements. Changements qui intéressent, aussi bien le contenu de l'apprentissage que les conditions des apprentis, et interviennent à la suite d'un recours massif par les chefs d'unités au travail des enfants.

— Dynamique de l'absorption des apprentis par les petites unités de production à Meknès

Avec la crise des corporations, la dévalorisation des métiers artisanaux qui en a résulté, on assistait à une véritable chute de la demande de formation en apprentissage sur le tas à tel point que le recensement de 1947 révèlait un taux d'apprentis par patron de 0,13 dans le textile; 0,36 dans le cuir et 0,19 dans l'ensemble des branches recensées c'est-à-dire à peine 19 apprentis pour 100 «patrons».

Etant donné que l'apprentissage était à la base même de la reproduction des unités de l'artisanat, la réduction des effectifs des apprentis, devenait un facteur d'aggravation de la crise des corporations d'autant plus qu'il avait pour corollaire une détérioration de la qualité de la force de travail.

Or, c'est manifestement à un tournant décisif qu'on va assister déjà à partir des années soixante mais surtout à partir de la décennie soixante-dix.

Dans cette nouvelle situation, caractérisée par l'augmentation du nombre des apprentis, on peut même établir une corrélation positive entre extension de la petite production marchande urbaine et élasticité de la demande d'accès à la « formation» en apprentissage sur le tas. Les données suivantes sur la structure de l'emploi dans les petits métiers à Meknès sont significatives à cet égard:

Tableau n° 8 : Taux d'apprentis par rapport aux ouvriers-artisans par année et par branche d'activité (en %)

Année Branches	1942	1979	1985
Textile	18,7 %	100 %	88,6 %
Cuir	58 %	70,8 %	127 %

Sources du tableau n° 8 — L. Golvin: L'artisanat en Afrique du Nord. op.cité. p.45
— «Création emploi et amélioration des revenus»
Enquête artisanat — Impôts 1979 p.12
— Recensement des métiers à Meknès 1985. op.cité.

La convergence, sur le plan statistique entre le phénomène de création de nouvelles unités et l'importance relative des apprentis dans la structure de la main d'œuvre, doit être en outre éclairée par l'analyse des changements intervenus dans le contenu de l'apprentissage et dans les conditions dans lesquelles il se déroule.

L'apprentissage sur le tas est-il actuellement un processus de formation-qualification des apprentis ?

Certes la pratique de l'apprentissage sur le tas est par essence conflictuelle. En effet, autant par son objet, par ses méthodes que par sa durée, cette pratique se caractérise par une grande hétérogénéité des formes et par une confusion au niveau de l'objet d'apprentissage. Cependant, ces problèmes sont aggravés par l'apparition de nouvelles conditions. Dans le système corporatif, le maître-artisan qui était en même temps formateur et éducateur, avait la responsabilité d'inculquer à l'apprenti les « secrets du métier». L'objet de la formation porte donc non seulement sur l'aspect technique mais intégre normalement les autres fonctions (de type commercial et autres). S'il n'y a pas de méthode pédagogique à proprement parler l'apprenti doit pour acquérir progressivement les qualifications recquises, observer et exécuter. Enfin, le recours à de nouveaux apprentis, de la famille du maître-artisan en général, était limité par les besoins urgents des maîtres en main-d'œuvre qualifiée, de sorte que l'emploi des formés est déjà assuré. Dans ce système, qu'il ne faut pas non plus magnifier, il existait néanmoins des conflits dûs notamment aux appréciations divergentes sur la durée «normale» d'apprentissage. Ces conflits étaient toutefois contenus par les relations familiales de l'apprenti avec le chef de l'unité artisanale.

Toute autre est la situation actuelle des apprentis dont le statut se détermine en rapport étroit avec l'importante déperdition scolaire, la croissance démographique et l'exode rural. Dans ces nouvelles conditions, largement défavorables à l'apprenti, il existe une déviation dans les fonctions d'apprentissage dont les implications sont négatives au double niveau de la qualité de la formation et du devenir même des apprentis.

Commençons par considérer la durée de la période d'apprentissage. Du fait, comme nous l'avons remarqué, que l'apprentissage sur le tas ne s'inscrit nullement dans le cadre d'un programme préétabli, sa durée varie à l'intérieur d'une fourchette pouvant facilement dépasser 10 ans. On peut toutefois distinguer actuellement quelques «étapes» significatives.

Il faut remarquer d'abord, de façon liminaire, que la recherche d'un formateur n'est pas une tâche facile en raison même de la concçurence entre les candidats à la mise en apprentissage. C'est évidemment l'affaire de la famille dont les membres influents sont sollicités pour valoriser leur relations. Lorsque la mise en apprentissage intervient après un échec scolaire, elle est en quelque sorte punitive.

Une fois le «mâalem» formateur trouvé, commence alors immédiatement une étape préparatoire à la formation technique à proprement parler: Il s'agit en

gros des premiers mois dans l'atelier. Cette étape est celle de l'initiation à la discipline du travail. C'est pourquoi l'appréciation du «Mâalem» porte non sur les capacités techniques de l'apprenti mais plutôt sur son «sérieux», sur sa docilité et sur son assiduité. L'apprenti «aide» en remplissant des tâches de course, de nettoyage de l'atelier voire même des tâches purement domestiques.

Après cette période d'essai, l'apprenti accède aux «petites bricoles» dont le contenu dépend évidemment de chaque métier. L'apprenti se familiarise avec quelques tâches secondaires et pourrait même exécuter des techniques simples mais dans des limites et restrictions qu'impose rigoureusement le «mâalem» qui ne voudrait prendre aucun risque de déterioration du matériel. Dans les ateliers où la machine a déjà pris place et où les apprentis sont nombreux, se dessine nettement une tendance à la spécialisation des apprentis, véritable antithèse du mode artisanal d'apprentissage. Ce n'est qu'au delà de cette étape que l'apprentissage peut signifier maitrise du métier.

Encore qu'il faut remarquer l'absence de toute planification ou volontariat dans la transmission des techniques et des tours de main. Dans la plupart des cas l'apprenti doit s'ingénier à «voler le métier» plutôt qu'attendre indéfiniment que le «mâalem» veuille bien lui transmettre ses connaissances techniques. C'est enfin durant cette période qu'existe réellement les possibilités de conflits ouverts sur les problèmes de rémunération, de responsabilité technique etc.. L'issue de ces conflits dépend des possibilités d'emploi dans les autres ateliers et... des possibilités de création d'une nouvelle unité, là aussi, c'est l'affaire de la famille. Il faut enfin remarquer que la qualité de la formation dans le cadre de l'apprentissage sur le tas ressent non seulement le poids de la présence pléthorique des apprentis et donc de l'impossibilité, dans les conditions du petit atelier, de transmission totale des techniques, mais aussi, fait nouveau, de la dégradation de la relation formation scolaire — maîtrise des techniques nouvelles par les «Mâalem». En 1985, les «mâalem» de la branche cuir à Meknès par exemple, restent analphabètes dans leur majorité absolue (56,6 %).

— Modalités et conditions de travail dans les petits métiers

La mobilisation du travail au sein des petites activités urbaines se déroule dans des conditions pénibles et désavantageuses pour l'ensemble des catégories de force de travail et en particulier pour les «apprentis». Tout un chacun peut se rendre compte en effet de l'exiguité des ateliers, du manque d'hygiène et de lumière...

D'autres aspects, moins visibles en quelques sorte, concernent la nature des relations de travail, et en particulier celles qui portent sur les conditions d'achat et d'usage de la force de travail au sein de ces ateliers. Pour ce qui est des apprentis, il peut paraître impropre de parler de rémunérations et encore moins de salaires puisqu'ils sont théoriquement en période de formation. Dans la plupart des cas pourtant et du fait des changements dans le contenu de l'apprentissage, cette formation n'est que la couverture légale à un salariat déguisé et même à un travail gratuit. La législation marocaine portant sur le travail des enfants, au demeurant assez timide, est fort peu respectée (26).

Les apprentis doivent, en général, se contenter du pourboire du client et du petit pécule donné en signe de gratification par le «mâalem» pour marquer son contentement. Ce n'est que lorsque la qualification de l'apprenti est avérée, que le chef d'unité accorde une rémunération.

Le niveau des salaires des apprentis, dans ce contexte subit constamment la pression de la hausse de la demande d'entrée en apprentissage particulièrement dans les professions mécanisées et jugées de surcroît lucratives. Mesurée par son rapport avec le salaire de l'ouvrier-artisan, dans quelques professions, la rémunération de l'apprenti et de l'aide familial se présente comme suit:

Tableau n° 9 : «salaire» des apprentis et des aides familiaux en pourcentage des salaires des ouvriers-artisans:

Professions	«Salaire» de l'apprenti en % du sal. de l'ouvrier	«Sal.» des aides familiaux en % du sal. de l'ouvrier
Maroquinerie	43 %	—
Tapis et tissage	44 %	—
Vannerie	45 %	—
Dinanderie	50 %	28,75 %
Bijouterie	44 %	16,6 %
Poterie	42 %	7,8 %

Sources du tableau n° 9 — A partir d'une série d'études menées par la Banque Populaire sur l'artisanat en 1977-79

Il faut remarquer que le salaire de l'ouvrier-artisan pris comme référence se situe, à son tour, à un niveau très modeste. A la fin des années soixante-dix le salaire de l'ouvrier-artisan dépassait à peine celui du smigard et restrait inférieur à celui de l'ouvrier qualifié de la Promotion Nationale.

En valeur absolue, la rémunération des apprentis peut donc varier de 2 à 3 Dirhams par jour (cas par exemple des petites filles dans la profession du tissage et tapis) à une dizaine de dirhams dans les professions où l'apprenti est déjà en mesure de valoriser une formation professionnelle acquise au compte-goutte.

Le niveau des rémunérations n'a toutefois de signification que par rapport à la durée d'usage de la force de travail. Or, la plupart des ateliers vivent au rythme des saisons; de telle sorte que si pendant une partie de l'année des capacités de travail dont dispose le «patron» sont mises en veilleuse ou tout simplement exclues, durant les saisons où la demande devient préssante ces mêmes ateliers revivent à des cadences effrenées. Dans ces conditions la journée de travail s'allonge, très loin du maximum légal (8 h).

A la lumière des éléments précédents on doit nuancer l'idée selon laquelle le «secteur informel» participe activement aux mouvements d'accumulation et de formation. En fait, il y a lieu de conclure à la formation et au développement d'un véritable phénomène de pôlarisation d'unités, pôlarisation dont l'étude commence en premier lieu, par remettre en cause «le secteur informel» en tant que catégorie économique pertinente.

NOTES

(1) Nous ne comptons pas nous étendre sur ces problèmes de définitions et aux difficultés qui y sont liées. Au lecteur intéressé de voir sur ces aspects notamment:
— M. DURANT: «Quelques aspects internationaux de l'artisanat» in Economie et humanisme n° 246 Mars-Avril 1979. p.39 et suivantes.
— J. DUCLAIN : «le monde des métiers en pleine mutation» in Economie et humanisme n° 191. Janv-Fév. 1970.
— J. ROBERT : L'artisanat et le secteur des métiers dans la France contemporaine. Librairie A. Colin 1966
— M. ANVOLAT: «L'artisanat dans le système économique» in Economie et Humanisme n° 246. Mars-Avril 1979
— Pour le cas du Maroc, voir:
— A. EL KHYARI : «Capitalisme et artisanat au Maroc: 1850-1980 ».
Thèse de Doctorat d'Etat en Sciences Economiques. Casablanca. 1983. p.4. et suivantes.

(2) L. MASSIGNON: «Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc». Revue du monde musulman. tome 58, 1924.

(3) J.L. MIEGE: «Notes sur l'artisanat marocain en 1870». BESM. n° 59 3ème trimestre 1953. p.91

(4) R. LETOURNEAU : La vie quotidienne à Fès en 1900. Lib. Hachette 1965p.99

(5) D'après A. EL KHYARI Artisanat et capitalisme, op.cité, p.36

(6) A. AYACHE. Le Maroc: Bilan d'une colonisation. Editions sociales. 1956. Paris. p.43

(7) R. LETOURNEAU. Fès avant le protectorat. Publication de l'institut des hautes études marocains SMLE. 1949.

(8) J.L. MIEGE: «Documents inédits sur l'artisanat de Rabat et Salé au milieu du 19ème s». BESM, vol. 23, 1959. n° 82. 2ème trim. p.179. 180

(9) Du même auteur: «Coton et cotonnades au Maroc au milieu du 19ème s.» Hespéris (3-4) 1959. p.222

(10) En fait, bien que la production da tapis était fort importante, une partie seulement prenait la forme marchande. Ceci probablement par la concurrence de l'artisanat rural qui produisait plusieurs variétés de tapis.

(11) J.L. MIEGE: «Documents inédits sur l'artisanat de Rabat-Salé au milieu du XIXème s.» op.cité p.179

(12) A titre d'exemple, des tentatives de classification sur la base de critères différents sont édifiantes à considérer. Celles faites par LETOURNEAU in Fès avant le protectorat op.cité.
— P. RICARD: «Les métiers manuels à Fès». Hesperis tome IV 1924.
A. JOLY: «Les industries à Tétouan» ce dernier envisage tour à tour une classification selon la nature, selon les affinités et selon l'importance des secteurs artisaneux.

(13) R. MANTOUX: La révolution industrielle au XVIIIème s. Ed. Genin Paris 1973.

(14) R. LECLERC: Le Commerce et l'industrie à Fès. Publication du comité du Maroc. Paris 1905 p.189 et suivantes.

(15) LETOURNEAU: La vie quotidienne à Fés en 1900. op.cité. p.88

(16) LETOURNEAU estime que parmi les 10.000 personnes travaillant dans l'artisanat à Fès, 60 % c'est à dire 6000 personnes se consacrent aux deux branches étudiées.

(17) J.L. MIEGE: «Notes sur l'artisanat marocain». op.cité. p.91

(18) LETOURNEAU: Fès en 1900. op.cité. p.83-84.

(19) Voir par exemple C. CAHEN: «Les peuples musulmans dans le monde médiéval» éd. d'Amérique et d'orient. A. Maisonnœuve. Damas. 1977.

(20) C.CAHEN: «Les peuples musulmans dans le monde médiéval». op.cité. p.319

(21) MASSIGNON: «Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants» op.cité p.99 et suivantes.

(22) R. LETOURNEAU, Fès avant le protectorat op.cité.

(24) Ces groupes représentent «les ouvriers et les manœuvres non-agricoles» (6) et «personnes ne pouvant être classées selon la profession» (7). Le contenu professionnel de ces rubriques est évidemment flou en raison de l'hétérogénéité des professions, allant des ouvriers qualifiés et spécialisés de l'industrie aux manœuvres du secteur artisanal, voire même aux chômeurs acceptant n'importe quel emploi.

(25) Pour une étude plus détaillée de cet aspect, se reporter à :
— Robert Escalier: Citadins et espace urbain au Maroc. C.N.R.S. 1981
— Jamal Eddine TEBAA : «le processus contradictoire de la prolétarisation au Maroc: évolution et formes» in Revue juridique, politique et économique : du Maroc n° 13/14 1983. Rabat.

(26) Sur ces aspects se reporter à l'étude de Mr. Amal-Jalal
«بعض الجوانب القانونية لرعاية الطفل بالمغرب» المجلة المغربية للقانون والسياسة والاقتصاد — النصف الأول من سنة 1979 بالرباط.

et auss ; «le travail des enfants au Maroc» in les temps modernes n° 390. Janvier 1979.

Les petits métiers à Meknès : pour les coopératives de production et de main d'œuvre

Mohamed Salahdine
Faculté de Droit — Fès

Les petits métiers suscitent un intérêt croissant dans la plupart des pays du Tiers Monde au sommet de la pyramide administrative comme chez les chercheurs. Et une énorme littérature existe maintenant sur ce sujet.

Outre les travaux devenus classiques du Bureau International du Travail on peut dénombrer un chiffre bien honorable concernant la problématique des petites activités urbaines. Et pour cause, les petits métiers connaissent une véritable prolifération et un foisonnement certain dans les villes. On semble même découvrir que ces petites activités sont une composante durable et structurelle de l'économie urbaine et qu'elles offrent une échappatoire d'importance aux effets de l'exode rural en absorbant une bonne partie de la main d'œuvre à la recherche d'un emploi.

Pourvoyeuses de bras, ces micro-unités seraient génératrices de revenus et fourniraient à une fraction croissante de la population des vivres. Elles constitueraient même une réserve de qualification pour le secteur moderne en dispensant une formation sur le tas dans des relations sociales paternalistes et complexes.

Pourtant, pas plus tard que hier (1970), ces petites activités étaient négligées, méconnues et sacrifiées au profit de l'étude exclusive des grandes entreprises industrielles modernes.

L'infirmation de la logique dualiste (secteur moderne/secteur traditionnel) et d'une certaine conception du développement (*) qui inspiraient la réflexion économique ne sont certainement pas étrangères à cette nouvelle optique.

La modernisation de l'économie n'a pas répondu aux espoirs de ses promoteurs. Elle n'a pas abouti à la polarisation capital/travail, mais elle a donné naissance à des phénomènes économiques et sociaux complexes. Le secteur dit moderne n'a pas connu une évolution telle qu'il soit capable de resorber une main d'œuvre provenant de la campagne. L'augmentation de la population et le rythme de croissance de l'exode rural sont en effet sans commune mesure avec le développement industriel et le chômage visible ne suit pas l'évolution des flux migratoires campagnes/villes.

(*) Selon cette conception la croissance économique devrait être atteinte à travers le transfert des technologies et des modèles d'organisation et de gestion de la production plutôt hiérarchiques que participatifs. Le développement ici est également conçu comme un processus d'industrialisation et d'urbanisation poussant les hommes à migrer, à se déplacer, à abandonner leur terrain pour venir s'agglutiner dans les villes et se clochardiser.

Une question s'imposait par elle-même: Comment de nouveaux arrivants de la campagne peuvent-ils subsister et survivre dans les villes sans exercer un travail salarié, stable et déclaré.

D'où la découverte d'un secteur mal connu, informel et non structuré dont il s'agit de comprendre la genèse et les mécanismes fondamentaux de production et de reproduction.

Ce secteur était d'ailleurs devenu trop visible pour être ignoré plus longtemps.

Même si nous ne disposons pas de données statistiques précise à l'échelle nationale, la prédominance des établissements de petites tailles et l'explosion de petits métiers sont des faits majeurs dans l'économie marocaine.

A Casablanca, Fès, Marrakech et Meknès on ne peut ne pas être frappé par le nombre élevé de petits métiers qui se multiplient. Artisans , tâcherons, horlogers, réparateurs de voitures, marchands de brochettes, guides, cireurs, gardiens de parking... grouillent et s'agitent dans les rues étroites des villes. Payés à la tâche, à la pièce ou en nature et ne bénéficiant d'aucune couverture sociale, ils marchandent tout haut avec les pauvres et les riches; échangent des paroles, des objets et des biens et s'approprient la rue. Le trottoir est leur univers.

Le choix de la ville de Meknès comme terrain d'expérimentation pour cerner les problèmes de l'artisant et les petits métiers est un choix judicieux.

C'est une ville principalement urbaine où l'exode rural est fort élevé. La population de la Province de Meknès a connu un rythme de croissance très important. Elle est passé de 419.934 habitants en 1970 à 555.642 habitants en 1971 et à 626.868 habitants en 1982, se répartissant comme suit:

386.085 habitants en milieu urbain et 240.783 habitants en milieu rural, soit 65 % en milieu urbain et 35 % seulement en milieu rural. En somme, un degré d'urbanisation exceptionnel puisque Meknès est l'une des rares provinces où la population urbaine dépasse la population rurale avec une densité de population de 170 habitants par Km2, alors que la moyenne nationale ne dépasse pas 27,8 habitants par km2.

Meknès est également une zone suffisamment large et diversifiée pour que s'y rencontrent plusieurs cas de figures de petits métiers et des potentialités importantes d'emploi.

Nous disposons donc maintenant de données essentielles sur les petits métiers à Meknès que le recensement a bien délimités.

On le sait, on compte dans cette ville 105 métiers employant 13.584 personnes (patrons et main d'œuvre compris), dont 78,21 % sont de sexe masculin. Les tailleurs traditionnels viennent nettement en tête avec 1.893 emplois, soit 13,94 % du total, suivis de la broderie occupant 1.528 personnes, (11,25 %); enfin il faut compter 700 à 900 travaillant soit comme menuisiers, tailleurs modernes, coiffeurs ou dans la construction.

Les femmes sont principalement des brodeuses ou tisseuses de tapis, respectivement 51 et 17 % du total de l'effectif.

Cela dit, l'ancienneté dans le métier est une donnée confirmée, puisque

68,26 % des artisans exercent leur activité depuis au moins 6 ans; plus précisément: 35,37 % depuis 15 ans, 7,94 % depuis 12 ans, 11,15 % depuis 9 ans et 13,8 % depuis moins de 5 ans.

Enfin le recensement des petits métiers révèle que 70,45 % sont nés en ville et 28,68 % sont issus du monde rural (*).

En somme, une information précieuse sur les caractéristiques socio-économiques des petits métiers à Meknès, même si, à mon sens, la notion de petits métiers doit inclure les activités informelles, non localisées et les activités de service.

La saisie du phénomène «petits métiers» ne peut se contenter, par commodité, du dénombrement exclusif des petites unités visibles ayant pignon sur rue, disposant d'un local, payant l'impôt ou ayant une qualification reconnue. L'analyse en profondeur et avec autant de précisions sur les activités les plus informelles et les plus refractaires au cadre classique de l'économie politique est tout aussi urgente.

Sans doute la tâche n'est pas aisée quand on cherche à recueillir des informations précises sur des activités de production ou de service non localisées comme les gardiens de parking, les cireurs, les guides clandestins, les marchands ambulants, les colporteurs, les maçons, les vitriers, les employées de maison, etc.

Mais négliger l'informel de l'informel au nom de la difficulté méthodologique ou au nom du coût matériel élevé que cela nécessiterait, c'est une manière d'aborder la problématique des petits métiers de façon partielle et insatifaisante parce que ce sont ces « marginaux»-là qui posent le plus de problèmes sur le plan social et politique et ce sont ces activités-là qui sont créatrices d'emploi.

Cela dit et au delà de cette observation essentielle dont les implications quant aux résultats du recensement sont notoires, il faut entreprendre maintenant un travail en profondeur pour repérer les grands problèmes des différents métiers et proposer des recommandations réalistes et intelligentes pour améliorer le statut social des agents économiques exerçant ces activités.

Manifestement les petits métiers répondent à un besoin social certain. Ils s'avèrent capables de satisfaire les besoins du consommateur local en vêtements, en habits comme en logements ou en nourriture à des prix généralement fort modestes.

Se situant à proximité des clients et matières premières, ils permettent d'économiser sur les frais généraux et les frais de transport et sont de plus en mesure de fournir un emploi aux travailleurs saisonniers ou temporaires.

Loin de disparaître les petits métiers urbains se développent, se multiplient et s'épanouissent. Et plusieurs facteurs concourent à leur expansion.

L'exode rural s'effectue à une fréquence sans commune mesure avec la création d'emplois industriels (une industrie fondée sur des investissements capitalistiques n'est pas en mesure d'absorber une main d'œuvre aussi importante).

(*) Voir Recensement des petits métiers à Meknès, Délégation du plan, Meknès

Certes, le chômage, les déperditions scolaires et de faibles barrières à l'entrée accusent ce rythme de croissance mais sans doute la poussée démographique, la diminution du niveau de né en milieu rural et la désagrégation des formes de production et d'échange traditionnels sont les causes principales de cette offre débordante de bras en milieu urbain.

La crise des finances publiques, qu'il s'agisse du budget de l'Etat ou du budget des entreprises publiques, et la régression de l'emploi dans les administrations expliquent également leur éclosion. Résultat les petites activités constituent désormais une composante structurelle de l'économie urbaine et répondent à des besoins réels de la population.

Toutefois, les petits métiers connaissent de nombreux problèmes, notamment des problèmes de marketing, de gestion, de comptabilité, d'approvisionnement en matières premières et de financement pour répondre aux dépenses courantes et renouveler leurs équipements. Ils n'ont pas non plus les moyens de fournir des salaires décents et des conditions de travail équivalents à ce que peut offrir une grande entreprise. Ce qui se traduit à terme par la perte des travailleurs compétents et qualifiés.

Alors, comment pallier à ces différents problèmes? Comment améliorer le statut de ces artisans et quelle est la formule capable de susciter un intérêt durable auprès de ces agents économiques? **La coopérative**, le système coopératif peut être à mon sens un outil judicieux permettant à ces petits producteurs de résoudre des problèmes techniques et financiers, de surmonter les désavantages de la petite dimension et contribuer à réduire le chômage urbain et le sous-emploi. Il peut permettre un meilleur accés au financement, à certaines prestations industrielles et des possibilités non négligeables de formation professionnelle.

Il faut donc dépasser le débat traditionnel en matière de développement économique qui se réduisait à deux thèmes fondamentaux: La privatisation ou l'attachement au secteur public. Le privé ou le public?

La coopérative, forme d'association fondée sur la coordination des fonctions et non sur la subordination et où l'individualité économique des participants est respectée, peut offrir des réponses adéquates aux enjeux économiques actuels et notamment à la crise de l'emploi. L'effort collectif et l'utilisation en commun des moyens de travail valoriserait certainement la production et offrirait aux coopérateurs la possibilité d'augmenter leurs revenus. D'autant plus que le Maroc a une tradition communautaire encore vivace dont il faut tirer avantage et profit.

La coopérative, forme d'association fondée sur la coordination des fonctions et non sur la subordination et où l'individualité économique des participants est respectée, peut offrir des réponses adéquates aux enjeux économiques actuels et notamment à la crise de l'emploi. L'effort collectif et l'utilisation en commun des moyens de travail valoriserait certainement la production et offrirait aux coopérateurs la possibilité d'augmenter leurs revenus. D'autant plus que le Maroc a une tradition communautaire encore vivace dont il faut tirer avantage et profit.

Cela dit, il faut faire observer que la coopérative n'est pas une société commerciale, elle n'a pas pour but de réaliser des bénéfices. «Les excédents des recettes ne sont pas répartis comme dans une société de capitaux mais ris-

tournés proportionnellement aux opérations effectuées par chacun des sociétaires avec l'organisme social».

Le capital ici est un serviteur et non le maître.

Dans les coopératives, les associés s'engagent personnellement et solidairement, ils ne peuvent céder leur part sans le consentement de tous, alors que dans les sociétés de capitaux la personnalité des associés est indifférente.

En revanche, les sociétés commerciales fonctionnent librement, alors que les coopératives sont soumises à une tutelle administrative (présence de l'administration aux réunions, homologation des décisions les plus importantes etc.)

Mais dans la coopérative la notion de service remplace celle de profit et tous les membres obtiennent les mêmes pouvoirs. Et lors de la dissolution d'une coopérative l'excédent d'actif est dévolu à une ou plusieurs coopératives ou à des œuvres d'intérêt général. Enfin le montant remboursé aux sociétaires ne peut en aucun cas dépasser la valeur nominale.

Toutefois, il faut souligner que le système coopératif n'est pas une troisième voie ou une voie intermédiaire entre le capitalisme et le socialisme. .

Les économies contemporaines sont intégrées dans un espace international qui impose sa logique de production et de reproduction à l'essentiel des activités économiques, même si le système coopératif peut jouer un rôle d'amortisseur de la crise comme il peut être porteur d'innovations économiques et sociales. N'empêche que l'expérience historique révèle que plusieurs groupes sociaux menacés par des transformations techniques brutales n'ont pu sauvegarder et vitaliser leurs formes de production que grâce à l'associationnisme et au mouvement coopératif.

En effet, les règles qui régissent les coopératives sont porteuses de progrès économique et social:

— La règle d'égalité: un homme, une voix
— La règle des réserves impartageables
— La règle de répartition de l'excédent proportionnellement aux activités des adhérents

et enfin le principe de la liberté d'entrée et de sortie.

En effet, les règles qui régissent les coopératives sont porteuses de progrès économique et social:

— La règle d'égalité: un homme, une voix
— La règle des réserves impartageables
— La règle de répartition de l'excédent proportionnellement aux activités des adhérents et enfin le principe de la liberté d'entrée et de sortie

Au Maroc, le phénomène coopératif est récent et fort modeste, mais a tendance à progresser et à s'affirmer d'autorité.

En 1960 on ne comptait qu'une centaine, en 1975 1.225, en 1983 quelques 3.000 organismes coopératifs et en 1984 3.266 coopératives. Ces chiffres ne tiennent pas compte des sociétés coopératives régies en dehors de l'Office du Développement de la Coopération (O.D.CO.)

Les premières créations se limitaient au secteur agricole et artisanal et aujourd'hui le mouvement coopératif touche en sus à d'autres secteurs: l'habitat,

la pêche, le commerce de détail, les mines, la forêt et la consommation. Mais les premiers secteurs sont largement prédominants. Plus précisément sur 3.266 coopératives en 1984:

- 2.699 sont des coopératives agricoles,
- 347 des coopératives artisanales,
- 148 des coopératives d'habitat,
- 25 des coopératives de pêche,
- 22 des coopératives de consommation,
- 14 des coopératives de mines et
- 10 des coopératives de commerce de détail.

Les coopératives artisanales qui nous préoccupent ici, sont apparues en 1938 sous l'impulsion des autorités coloniales, mais elles ont connu un net essor depuis 1973 suite à de multiples encouragements prodigués par l'Etat:

- octroi de subventions
- facilités de crédits et
- mise à la disposition des coopératives d'un local dans les ensembles artisanaux et d'un directeur payé par l'Etat pour assurer gestion et organisation.

En 1974, on comptait 107 coopératives artisanales,
En 1975 131,
En 1976 145,
En 1977 170,
En 1979 204,
En 1980 225, et
En 1984 347.

En somme une progression lente mais soutenue.

Mais les activités de ces coopératives artisanales ont connu un rythme de croissance fort intéressant puisqu'elles ont atteint 3 Mds de centimes en 1975, 4 Mds en 1976 et 20 Mds en 1980, soit une augmentation de 116 %./1979. Quant aux excédents générés par l'activité coopérative, ils ont dépassé 8 MLs DH en 1979 et 12 MLs en 1980, soit une augmentation de 42 %/1979.

Le nombre des adhérents a également connu une hausse :

- 7.000 en 1977
- 11.027 en 1979 et
- 12.706 en 1980.

Le concours de l'Etat sous forme de subvention doit être souligné.

L'Etat a accordé aux coopératives artisanales entre 70 et 100 MLs de centimes par an entre 1973 et 1980.

Le Plan Quinquennal 1980-1985 prévoit quelques 500 MLs centimes de subventions:

- 50 MLs en 1980,
- 110 MLs en 1982,
- 110 MLs en 1983,
- 110 MLs en 1984 et
- 120 MLs en 1985

Au niveau fiscal les coopératives artisanales bénéficient de certaines exonérations.

Quand on examine les avantages accordés aux coopératives par la loi no 24-83, on décèle aisément que les entreprises non organisées en coopératives paient en plus :

— Une taxe participative de 0,5 % de la valeur du capital lors de la création de l'entité ou de l'augmentation de son capital
— La patente après les cinq premières années d'exercice
— La taxe urbaine et
— L'impôt sur les bénéfices professionnels.

Enfin, les Banques Populaires accordent des avantages particuliers aux artisans coopérateurs et notamment des crédits à 4 % d'intérêt.

Par ailleurs, le Ministère de l'Artisanat et des Affaires Sociales met à la disposition des coopératives des centres de formation professionnelle, du matériel et des locaux ainsi que des ensembles artisanaux pour exercer leurs activités ou faire des expositions de leurs produits.

Les coopératives bénéficient en sus de cycles de formation en comptabilité, en organisation administrative comme en gestion dispensés par l'O.D.CO. (Office du Développement de la Coopération).

Cependant, il y a lieu de remarquer que les coopératives artisanales sont principalement des coopératives de production (55 %), d'approvisionnement (40 %) et subsidiairement de commercialisation (5 %).

D'autre part, sur un effectif global de 221 coopératives en 1983:

— 32 sont des coopératives de cuir avec 2.786 adhérents,
— 42 des coopératives de textile avec 2.826 adhérents,
— 37 des coopératives de tapis avec 1.310 adhérents,
— 12 des coopératives de céramique et de marbre avec 181 adhérents, et
— 98 autres avec 4.189 adhérents,

soit au total 11.292 adhérents employant plus de 4.612 personnes:

— 1.597 dans le secteur cuir,
— 1.277 dans le secteur textile avec 987 femmes,
— 1.138 dans le secteur tapis, principalement des femmes,
— 67 dans le secteur céramique et marbre et
— 533 dans d'autres coopératives.

La place de la région économique Centre Sud est modeste. En 1983, sur 221 coopératives artisanales actives, 19 seulement se trouvent dans cette région et 11 à Meknès, alors qu'au Nord Ouest il existe 66 coopératives artisanales et 41 au Sud. Pour la seule région de Tensift on en compte 34.

Cette structure se retrouve également quand on examine le nombre des adhérents. Sur 11.292, la région économique Centre Sud intervient à peine pour 542, soit 5 % de l'effectif total, comme le révèle le tableau suivant:

Centre	Centre Sud	Centre Nord	Tensift	Nord Ouest	Sud	Oriental	TOTAL
917	542	1.975	2.645	2.585	1.904	724	11.292

En 1984-85 le nombre de coopératives artisanales s'élève à 357 et 17.576 adhérents. A Meknès on compte à peine 13 coopératives, soit 3,5 % du total et 353 adhérents, soit 2 % de l'effectif global. Sur ces 13 coopératives à Meknès 3 sont inactives (Cf. tableau).

Il faut donc assainir la situation des coopératives artisanales à Meknès, impulser ce secteur et lancer des projets coopératifs expérimentaux et pilotes, d'autant plus qu'on dispose d'une connaissance minutieuse, à la suite du recensement, du secteur artisanal.

Au total le mouvement coopératif s'affirme progressivement, mais plusieurs problèmes demeurent:

1. La plupart des coopératives artisanales sont de simples appendices de la Direction de l'Artisanat et de l'administration. En effet, l'Etat doit favoriser le mouvement coopératif par un statut fiscal favorable, par la création d'organismes conseils et un système de formation professionnelle, mais sans se substituer aux coopérateurs, sans transformer les coopératives en assistés.

2. Le développement de l'esprit coopératif est également un préalable à toute action coopérative. Le mouvement coopératif est né suite à des impératifs économiques et non d'une volonté réelle des concernés. Il n'y pas eu un travail préalable de formation et d'éducation et on a pas suivi le précepte connu : « former des coopérateurs avant des coopératives.»

L'action formation /éducation coopérative est encore minime.

3. Les textes qui régissent les coopératives artisanales datent du Dahir de juin 1938. Un dahir dépassé et qui ne correspond plus à la situation actuelle du secteur artisanal. L'Etat a été amené d'ailleurs à promulguer un cadre juridique unique régissant l'ensemble du mouvement coopératif, la loi n° 24-83 promulguée le 20 février 1985.

Ce texte constitue manifestement un pas qualificatif important et favorisera certainement l'éclosion du mouvement coopératif.

Il autorise en effet les coopératives à exercer leurs actions dans toutes les branches de l'activité humaine (art.3), définit avec précision l'entreprise coopérative, en rappelle les principes fondamentaux, l'organisation et la structure, souligne les avantages accordés aux coopératives et prévoit des sanctions à l'encontre de ceux qui portent atteinte au label coopératif.

Cependant, cette loi n'est pas encore entrée en vigueur et ce, dans l'attente de la promulgation des décrets d'application et des décrets approuvant les statuts-types proposés par les différents secteurs coopératifs.

4. Les coopératives artisanales sont unifonctionnelles, elles sont soit de production, soit d'approvisionnement ou de commercialisation. Il est souhaitable qu'elles soient multifonctionnelles contrôlant l'ensemble de la filière production jusqu'à la distribution et la commercialisation.

5. Le problème de l'approvisionnement en matières premières reste posé. Même si la CONAPEAU et la CONATEX ont tenté d'en réduire l'ampleur. L'instabilité des prix des matières premières importées (peinture pour potiers, mimoza pour les tanneurs, etc.) constitue toujours un handicap sérieux pour le développement de ce secteur.

6. Il serait souhaitable que l'Etat accorde des licences d'importation de matières premières aux coopératives pour qu'elles soient plus compétitives sur le marché interne et international. Contingenter l'importation en provenance du Sud-Est asiatique de produits similaires à ceux produits par les artisans locaux et vendus à des prix défiants toute concurrence est une mesure urgente à entreprendre dans les plus brefs délais car il y va du maintien de tout le secteur artisanal.

7. Enfin, malgré les subventions de l'Etat, les statistiques révèlent que les coopératives artisanales disposent de fonds propres faibles avec une moyenne par adhérent de 1.760 DH. Et encore ce chiffre n'est qu'une moyenne puisque les fonds de la coopérative de fabrication de cuir est de 150 DH, ceux de la coopérative Badr (broderie) sont de 248 DH.

Enfin, pour résoudre les problèmes de financement des coopératives artisanales il serait important de mettre en place un système de collecte d'épargne sous forme coopérative qui soit greffé aux Banques Populaires.

Cette épargne serait constituée par les dépôts effectués par les coopératives au titre de la réserve légale et servirait de garantie aux emprunts que celles-ci contracteraient auprès de ces banques pour assurer les investissements nécessaires à leur développement.

Créer un fonds national inter-sectorial d'aide et de garantie aux coopératives dont la rentabilité à terme est prouvée est également une idée à retenir.Le financement de ce fond pourrait être assuré par:

— Une dotation de l'Etat au titre de son budget d'investissement et
— par un pourcentage fixé par la loi des excédents nets des coopératives.

En effet, les montants distribués par les Banques Populaires sont faibles et ne correspondent pas aux besoins réels des coopératives artisanales. En 1982, par exemple, les BP n'ont accordé que 124.767 DH aux coopératives artisanales de Meknès. Quand on rapporte cette somme au nombre des artisans producteurs nous obtenons un chiffre ne dépassant pas 500 DH par artisan. En somme, un montant très faible, voire ridicule. Une révision de l'accomplissement des formalités d'action et de remboursement de crédit est donc nécessaire.

Par ailleurs, les métiers dits marginaux posent d'autres types de problèmes qu'il faut également analyser avec autant d'attention, sinon plus. Réprimer les agents économiques qui exercent ces activités n'est pas une solution judicieuse. Rafler les vendeurs ambulants, confisquer des marchandises ou outils des entrepreneurs de construction d'habitat clandestin par exemple ne peut stopper un mouvement rampant de désordre et d'incohérence urbains...

Adopter une stratégie du laisser-faire, intervenir le moins possible, c'est favoriser l'extension incontrôlée du tissu urbain. De toute façon dans la pratique, les pouvoirs publics interviennent et laissent faire. Cette attitude contraditoire révèle l'embarras de l'Etat, mais elle n'est pas irrationnelle.Politiquement, c'est contrôler des poches de résistance virtuelles, économiquement, c'est faire des économies considérables d'investissement en infrastructure ou en services.

N'empêche que ce comportement traduit l'absence d'une politique adéquate en matière d'emploi. L'Etat doit œuvrer en faveur de l'émancipation de l'ensemble des activités génératrices de bas revenus. Les coopératives de main

d'œuvre peuvent à mon sens constituer une solution viable et peu coûteuse pour réduire le chômage parmi les couches sociales les plus défavorisées. C'est une formule capable de susciter un intérêt durable auprès de deux qui sont sans qualification ou sous-employés.

Les coopératives de main-d'œuvre ne diffèrent pas outre mesure des autres formes coopératives en matière de formation, assistance technique, comptabilité ou gestion mais elles ne nécessitent pas de qualification professionnelle particulière. Un minimum d'apprentissage et un effort physique suffisent. De plus les sociétaires ici n'apportent au départ que leur travail et leur compétence. Le capital, du moins au début, ne joue qu'un rôle mineur.

On pourrait nous rétorquer que la promotion nationale est une formule toute aussi intéressante. Sans doute, mais le mode d'organisation de la PN ne favorise pas chez les travailleurs employés le sens de la responsabilité. Leur participation au travail est fictive ce qui se répercute sur la qualité et la productivité du travail.

Sans parler du fait que la PN risque de développer chez les travailleurs une mentalité d'assistés.

Le groupement volontaire par affinité de travailleurs dans des coopératives de main-d'œuvre réduirait certainement ces lacunes, mais à condition que des gérants qualifiés et dynamiques soient mis à la disposition de ces coopératives pour les impulser et les encadrer. A condition aussi que les coopératives de main d'œuvre soient associées à la réalisation d'une partie des travaux lancés par les pouvoirs publics.

Les coopératives de main d'œuvre peuvent ainsi devenir de véritables lieux de promotion individuelle et collective de petits groupements de personnes sans qualification et à la recherche d'un emploi stable et rémunérateur...

Au total la formule coopérative apparaît comme bien adaptée aux petites et moyennes entreprises artisanales comme au secteur dit informel. Elle peut atténuer les contraintes sociales et économiques qui pèsent sur le développement économique du Maroc.

Les caractéristiques essentielles des coopératives artisanales au Maroc

Année	Nbre coop.	Nombre d'adhérents	Capital	Chiffres d'affaires	Excédent	Subventions		Crédits	
						bénéficiaires	montant	bénéficiaires	montant
1981	250	13.159	20.000	175.135	12.581	–	–	3.287	18.109.304
1982	285	14.679	23.813	142.004	17.745	25	70 ML cent.	3.803	19.073.000
1983	320	16.000	24.662	261.283	16.725	66	99 ML cent.	4.626	27.792.000
1984	357	17.576	27.552	229.616	19.650	27	24 ML cent.	6.332	47.574.000

Situation des coopératives artisanales à Meknès en 1982

Nombre de coopératives 9
Nombre d'adhérents 289

Achats à des tiers .... 5.242.094 DH
Ventes à des non adhérents .... 5.892.311 DH
Excédents réalisés .... 163.917 DH (dans 8 coopératives)
Perte réalisée .... 126.185 DH (dans 1 coopérative)
Capital social .... 653.230 DH
Réserves légales .... 151.050 DH
Crédits accordés .... 124.767 DH (à 4 coopératives)

Coopératives artisanales de la Province de Meknès — 1984/1985

Nom de la coopérative	Date de création	Nombre d'adhér.	Capital	Observations
La Menuiserie	1957	63	20.537.00	
Al Ismaïlia	1982	8	11.000.00	
La Tannerie	1951	44	186.812.00	Non active
Chaussures Modernes	1954	17	29.200.00	
Poterie	1977	25	189.800.00	
La Couture moderne	1974	34	12.350.00	Non active
Tisserand	1957	32	11.500.00	
Badr	1982	34	8.460.00	
Al Andaloussi Mosaïque	1980	9	9.000.00	
Tapis	1966	28	93.652.00	
Fabrication Cuir	1975	8	1.200.00	Non active
Carpatim		36	25.650.00	
L'Africaine	1986	15	31.100.00	
TOTAL	—	353	630.251.00	


المحورُ التاريخيُ

قبيلة المكنيتيين من خلال النقائش والنصوص الاغريقية واللاتينية

الأستاذ محمد مقدون
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس

لم تتحدث المصادر الاغريقية واللاتينية عن قبيلة المكنيتيين إلا ابتداء من القرن الميلادي الأول وبشكل عرضي ومقتضب (1)، بالرغم من أنها أثرت على مجرى الأحداث السياسة والدبلوماسية والعسكرية التي شهدتها موريطانيا الطنجية خلال النصف الأخير من القرن الميلادي الثاني وبالضبط في عهدي «ماركوس أوريليوس» (161 — 180 م) وكومودوس (180 — 192 م). وحتى الدراسات الحديثة التي تناولت تاريخ القبائل المغربية القديمة لم تولها ما تستحق من الاهتمام وتتخذها كموضوع رئيسي لها (2). إن تاريخ قبيلة المكنيتيين لم ير النور بعد ولم يكتب له لحد الآن أن يدون وينشر. وما بحثنا هذا إلا مساهمة في تسليط بعض الأضواء الباهتة على أهم جوانبه ومحاولة منا لحصر وجمع كل ما يتعلق بها من نقائش ونصوص اغريقية ولاتينية.

فماهي هذه المصادر ؟ وماهو أصل المكنيتيين ؟ وماهي نوعية العلاقات التي كانت تربطهم بجيرانهم البكواتيين والسلطات الرومانية بوليلي ؟

1 — مصادر التاريخ المكنيتي

نتوفر في الوقت الراهن على مجموعة قليلة منها تتألف من نقائش ومصادر أدبية أو نصوص مكتوبة.

1.1 — المصادر الأدبية

تنحصر المصادر الأدبية بالأساس فيما دونه «بطوليمايوس» و«ديون كاسيوس» وما نعثر عليه من إشارات في دليل «انطونينوس» والنصوص اللاتينية القديمة التي حققها ونشرها كل من «فريك» و«ريس».

1.1.1 — نص «بطوليمايوس» (3)

«يستوطن الميتاكونيتيون مناطق في الولاية قريبة جدا من البوغاز، والسوكوسيون تلك التي تحاذي البحر الايبيري وتمتد شمال الأراضي التي يسيطر عليها الورويون. وانطلاقا من بلاد الميتاكونيتيين نجد على التوالي في اتجاه الجنوب : الماسيكيين والوربيكيين والسالنسيين والكونيين والبكواتيين ثم المكنيتيين. (4).

استقينا هذا النص من المؤلف «وصف الأرض» الذي كتبه بالاغريقية العالم الجغرافي «بطوليمايوس» حوالي سنة 140 م، معتمدا فيه على المعلومات الواردة عند مجموعة من الكتاب عاشوا خلال القرن الميلادي الأول.

تتناول هذه الوثيقة الحديث عن الكيفية التي تتوزع بها القبائل في الولاية (أي موريطانيا الطنجية) من الشمال الى الجنوب، لكن دون أن نعرف بالدقة أماكن استقرارها والمراكز الحضرية التي تجاورها.

2.1.1 — نص «ديون كاسيوس» (5).

«تقع هذه السلسلة الجبلية (أي الأطلس) في الجانب الغربي من **بلاد المكنيتيين** بالقرب من المحيط وهي تفوق علوا كل الجبال الأخرى فتغطيها الثلوج بصفة دائمة وتتحول جزئيا خلال فصل الصيف الى مياه غزيرة تتسبب في الفيضانات التي يشهدها نهر النيل... وليس هناك أي داع للاستغراب إذا كنت قد اكتشفت ما كان يجهله قدماء الاغريق ألا وهو **استقرار المكنيتيين بالقرب من موريطانيا الجنوبية** وإمكانية وصول العديد من أفراد القوات المرابطة في هذه الولاية الى سلسلة الأطلس...»(6).

ورد هذا النص في الكتاب الخامس والسبعين من المؤلف «تاريخ رومة» الذي حرره بالاغريقية «ديون كاسيوس» مابين سنة 193 م التي تميزت بشروعه في التفرغ للتأليف وسنة 216 م التي رافق خلالها الامبراطور «كراكلا» في سفره الى الشرق. ومن المعلوم أن مهامه السياسية والادارية والعسكرية لم تسمح له قبل وبعد هذه الحقبة الزمنية من التعاطي للكتابة، إلا أنها ساعدته على اقتناء معلومات عديدة من الوثائق الرسمية؛ ونشير في هذا الصدد الى أن الأباطرة السيفيريين وضعوا رهن إشارته مصادر متنوعة استعان بها في صياغة مصنفه الضخم عن تاريخ رومة من سنة تأسيسها الى سنة 229 م، ومن المحتمل جدا أنه اطلع خلال مقامه بإفريقيا على وثائق محلية كثيرة واستقى مباشرة من الأهالي أخبارا مهمة تتعلق بأهم القبائل التي كانت تستقر بالموريطانيتين وعلاقاتها بالسلطات الرومانية. (7) ومن المرجح كذلك أن الامبراطور «سبتيموس سيفيروس» الذي يفخر بأصله الافريقي قد شجعه على جمع أقصى ما يمكن من المعلومات عن بلدان الشمال الافريقي لتستأثر شؤونها باهتمام الكتاب اللاتينيين وتأخذ نصيبها الأوفر من التدوين التاريخي ويخبرنا بأن عملية بحثه عن المصادر الضرورية تطلبت عدة سنوات، إلا أننا نجهل لحد الان المصادر التي استعملها. ومن الأكيد أنه عمل على تنويعها واستغلالها بكيفية دقيقة وجدية.

أما النص الذي يعنينا فيستفاد منه من جهة أن نهر النيل ينبع من سلسلة الأطلس ومن جهة أخرى أن مواطن المكنيتيين يوجد بالقرب من موريطانيا الجنوبية.

3.1.1 — نص «دليل انطونينوس» (8).

«ابتداء من تنكَى تمتد موريطانيا أي البلاد التي تستوطنها شعوب متبربرة هي البكواتيون و**المكنيتيون**»(9).

نجهل لحد الآن الشخص أو مجموعة الأشخاص الذين تكلفوا بمهمة تحريره في عهد الامبراطور «كراكلا» (221 — 217 م)، إلا أن المعلومات التي يتضمنها تمتاز بالدقة وتتعلق أساسا بشبكة الطرق التي تشمل أهم الولايات الرومانية.

4.1.1 — نص «Liber Generationis»

جمع العالم «أ.ريس» العديد من النصوص القديمة المتعلقة بشعوب المعمور (Liber Generationis)

ضمن كتابه الذي نشره تحت عنوان «Geographi latini minores».

ونقدم فيما يلي النص اللاتيني الأصلي الذي يشير الى الشعب المكنيتي :

«Gentes autem quae linguas suas
habent hae sunt... Mauri Bacuates et **Massenas,** Gaetuli. Afri qui et Barbares, Mazices, Garamantes» (10).

يستفاد من هذا النص أن شعوبا عديدة كانت تستوطن بلدان الشمال الافريقي من بينها البكواتيون والماسينيون (Massenas) وبالطبع فإن هذه الكلمة اللاتينية الأخيرة تذكرنا بعبارة الماكينيتيس (Macenites).

5.1.1 — نص «بوليوس هونوريوس»

عاش هذا الكاتب خلال القرن الميلادي الخامس، وقد وضع مؤلفا بعنوان «وصف الكون» لم تصلنا منه سوى شذرات تولى نشرها العالم «أ.ريس» في مصنفه.
«Geographi latini minores»

وما يهمنا منها هو النص التالي الذي يلمح إلى قبيلة المكنيتيين :

«Fluvius Malva nascitur sub
insulas Fortunatas circuiens extremam
partem Mauretaniae, intercludens inter
Barbares et Bacuates, vergit in mare
quod appellatur Columnae Herculis...
Quinquegentiani gens, Bures gens,
Mazices gens, Musueni gens, Artennites
gens, Barbares gens, **Salamaggenites gens,**
Bacuates gens, Massyli gens, Abenna gens...» (11).

من جملة القبائل التي استوطنت موريطانيا الغربية يذكر «يوليوس هونوريوس» قبيلة السلامكينيتيين. ومن الواضح أن الجزء الثاني من هذه العبارة يشبه الى حد بعيد لفظة المكنيتيين.

نستنتج من كل ماسبق عرضه أن المصادر الأدبية للتاريخ المكنيتي قليلة جدا وقد دونها ما بين القرن الميلادي الثاني والقرن الميلادي الخامس كتاب لايشك كثيرا في نزاهتهم الفكرية وسلامة منهجهم العلمي.

فيما يخص الموضوع الذي يعنينا لم تتوفر لدينا لحد الان سوى النصوص الخمسة المقتضبة التي تمت الاشارة اليها، الشيء الذي يدعونا الى الاستعانة بمصادر ذات طابع أثري

2.1 — المصادر الأثرية

نعني بها النقائش اللاتينية وخاصة النقيشتين اللتين تم اكتشافهما في وليلي خلال النصف الأول من القرن العشرين وتتعلقان بالبكواتيين والمكنيتيين معا.

1.2.1 ـ النقيشة الأولى

عثر عليها في سنة 1952 بالحي الغربي لوليلي وهي الان معروضة ضمن النقائش التي تصطف وتنتصب على جانب الطريق المؤدية الى الآثار. وقد قرأ نصها وترجمه العديد من النقوشيين ونشر في أهم المجلات والمؤلفات التاريخية والأثرية (12) ونقدم فيما يلي محتوى هذا النص باللاتينية وترجمته العربية :

«Pro salute Impe/ratoris Caesaris/
M (arci) Aureli Antonini/Aug (usti) Armeniaci,/
Medici, Parthici,/Germanici max (imi),/
Epidius quadratus,/proc (urator) eius,
Conlocut (us) Cum **Ucmetio,** prin/cipe
gentium **Ma/cennitum et Baqua/tium»**.

«تحية للامبراطور قيصر ماركوس أوريليوس انطونينوس المقدس والمنتصر الأكبر في الحروب الأرمينية والميدية والجرمانية. ايبيديوس كوادراتوس والي الامبراطور (على موريطانيا الطنجية) اجتمع **باوكميتيو** امير قبيلتي **المكنيتيين والبكواتيين** وتحادث معه».

هناك ثلاثة معطيات تساعدنا على تأريخ هذه النقيشة :
ـ الاشارة الى الامبراطور «ماركوس اوريليوس»
ـ ايراد لقبه «الجرماني» وعدم ذكر لقبه «السرماتي»
ـ الحديث عن حاكم موريطانيا الطنجية «ايبيديوس كوادراتوس».

نعلم أن الامبراطور «ماركوس اوريليوس» حكم بمفرده ما بين سنة 169 م وسنة 176 م وأنه حمل لأول مرة لقب «الجرماني» في خريف سنة 173 م ليتخلص منه في نهاية نفس السنة؛ إلا أنه سرعان ما عاد اليه في ربيع سنة 175 م. وفي صيف هذه السنة حمل لقبا ثانيا هو «السرماتي» وربما تم ذلك في شهر غشت (13).

ونعلم كذلك أن «ايبيديوس كوادراتوس» حكم موريطانيا الطنجبية في سنة 173 م أو سنة 175 م(14). بحكم كل هذه الاعتبارات وخلو النقيشة من لقب «السرماتي» يمكن أن تؤرخ بخريف سنة 173 م أو ربيع سنة 175 م.

2.2.1. النقيشة الثانية

لقد تم العثور عليها بغرب الفوروم في أواخر القرن الماضي ويعود الفضل في هذا الاكتشاف الى «هنري دو لامرتينيير» الذي تولى التعريف بمحتوى نصها وأفادنا بأنها لم توجد قطعة واحدة، بل على شكل جزءين منفصلين(15) :

ونعرض فيما يلي نصها الأصلي باللاتينية وترجمته بالعربية :

«Genio Imp (eratoris)/M (arci) Aureli Antonini.
Aug (usti),/P (ublius) Aelius Crispinus proc (urator),
Conlocutus cum/... 0 princ(ipe) gentium...».

«الى الامبراطور العبقرية والمقدس أوريليوس انطونينوس، بوبلييوس كريسبينوس والي الامبراطور (على موريطانيا الطنجية) اجتمع ب.... أمير القبائل... وتحادث معه».

بالمقارنة مع مضمون النقيشة الأولى، فإن معظم النقوشيين يقرؤون جزءها الأخير كالتالي :

Conlocutus cum (Ucmeti)o, princ(ipe) gentium
(Macennitum et Baquatium)

«اجتمع ب أوكميتيو أمير قبيلتي المكنيتيين والبكواتيين».

لتأريخ هذه النقيشة، يجب اعتبار المعطيات التالية :

ـ حكم «ماركوس أوريليوس بمفرده ما بين سنة 169 م وسنة 176 م وبالاشتراك مع «لوكيوس فيروس» ما بين سنة 161 م وسنة 169 م ومع «كومودوس» ما بين سنة 177 م وسنة 180 م.

ــ الثابت أن «بوبلييوس ايليوس كريسبينوس» حكم موريطانيا الطنجية ما بين سنة 169 م، وسنة 176 م في حين أن «ايبيديوس كوادراتوس» حكم نفس الولاية في سنة 173 م أو في سنة 175 م(16).

ـ لم يرد في هذه النقيشة ذكر «للقبي» «الجرماني» و«السرماتي».

نستنتج من كل هذه المعلومات أن النقيشة يمكن تأريخها إما بالفترة المتراوحة ما بين سنة 169 م وبداية خريف سنة 173 م وإما بالفترة المتراوحة ما بين نهاية سنة 173 م ونهاية شتاء سنة 175 م (17).

نستخلص من هذه التوضيحات المتعلقة بالمصادر الأثرية أن النقيشين الأولى والثانية تؤرخان بالفترة المتراوحة ما بين خريف سنة 173 م ونهاية ربيع سنة 175 م. أي خلال المدة التي تميزت بغارات الموريين على ولاية بيتيكا بشبه الجزيرة الايبيرية (ما بين سنة 172 م وسنة 173 م أو ما بين نهاية سنة 173 م وبداية سنة 176 م) (18).

2 ــ أصل المكنيتيين وجوانب من تاريخهم

تمدنا المصادر الآنفة الذكر بمعلومات مهمة حول التسمية التي عرف بها المكنيتيون والمناطق التي استقروا بها في موريطانيا الطنجية والعلاقات التي كانت تربطهم بجيرانهم البكواتيين والسلطات الرومانية المقيمة بوليلي.

1.2 ــ إشكالية التسمية

ما بين القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الخامس، اطلق الكتاب القدماء أربعة أسماء على المكنيتيين : الماكانيتيون، الماكينيتيون والماسينيون، والسلاماكينيتيون.

1.1.2 ــ الماكانيتيون

لم يرد هذا النوع من التسمية إلا في نص «بطوليمايوس» :

« Ειτα Βακουαται, υφ ους Μακανιται ...»

وتكتب هذه اللفظة الأغريقية بشكل آخر : Μαχανιται

الملاحظ أن النصف الأول لهذه التسمية Μακα هو الذي يميزها ويجعلها تختلف عن التسميات

الأخرى وأنها تتكون من الحروف الصوامت الرئيسية : م.ك.ن.ت.

2.1.2 — الماكينيتيون

ذكر هذا الاسم عند ديون كاسيوس Μακεννιτιδι = بلاد الماكينيتيين Μακεννιται = الماكينيتيون) وفي نص دليل انطونينوس(Bacavates et Macenites Barbari morantur...).

وفي النقيشتين الأولى والثانية ((Macennitum)

ويوضح تحليل هذه العبارة أنها هي كذلك تتركب بالأساس من الحروف الصوامت م، ك، ن، ت، إلا أنها تنفرد بكون جزئها الأول يضم مقطعين هـ Μαι و κε عوض المقطعين Μα و κα المشار إليها سالفا، مما يعني أنها لا تختلف عن التسمية الأولى إلا بالحركة ε أو α المصاحبة للحرف الصامت x.

3.1.2 — الماسينيون

جاءت هذه التسمية في نص «Liber Gènerationis» بالضيعة اللفظية اللاتينية التالية :
...Mauri **Bacuates et Massenas**

حدث تغيير كبير في نسخ تسمية المكنيتيين الى حد أننا نتساءل هل فعلا عرف المكنيتيون باسم «Massenas» أم لا ؟ المقطع الأول لهذه الكلمة هو Ma (=Μα) المعروف، إلا أن مقطعها الثاني هو sse عوض κα أو κε (= ce) ومقطعها الثالث هو na عوض νι أو ννι (= nni,na). ومع ذلك، فإن اشتمالها على الحروف الصوامت الثلاثة، م،س (s = c = x = k)، ن، وورودها ملتقصة بلفظة «البكواتيين» وفي سياق الحديث عن القبائل والشعوب الافريقية المعاصرة لها كالجيتوليين والماسيكيين والكرمنتيين، كل هذا يدل على أن الماسينيين ماهم في الحقيقة إلا المكنيتيون.

4.1.2 — السلاماكينيتيون

نجد هذه التسمية في نص «يوليوس هونوريوس».
«Salamaggenites gens, **Bacuates gens ...**»

إذا استثنينا عبارة «Sala» التي أضيفت بلا شك خطأ كعنصر من عناصر هذه التسمية، (19)، فإن التركيب اللغوي للفظة «Maggenites» وذكرها الى جانب قبيلة البكواتيين معطيان كافيان للدلالة على أن السلاماكينيتيين هم في الواقع المكنيتيون.

يتبين من كل هذا التحليل للأسماء التي حملها المكنيتيون في عهد الرومان أنها تعني شعبا واحدا وتشتق من صيغة لغوية أصلية واحدة تقوم بنيتها على أربع دعائم تنحصر أساسا في الحروف الصامتة م،ك،ن،ت.

2.2 — موطن قبيلة المكنيتيين

حول هذا الموضوع، نتوفر على المعطيات التالية :

— كل الوثائق المتوفرة لدينا (نقائش ونصوص اغريقية ولاتينية) تثبت أن المكنيتيين يستقرون بموريطانيا الطنجية وبالضبط بالقرب من البكواتيين. (20).

— في سياق حديثه عن القبائل التي تضمها موريطانيا الطنجية من الشمال الى الجنوب يورد

«بطوليمايوس» المكنيتيين مباشرة بعد البكواتيين :

«يستوطن الميتاكونيتيون مناطق في الولاية قريبة جدا من البوغاز... وانطلاقا من بلاد الميتاكونيتيين نجد على التوالي في اتجاه الجنوب : الماسيكيين... والبكواتيين ثم المكنيتيين» (21).

ـ يستفاد من نص «ديون كاسيوس» المشار اليه في القسم الأول من هذا البحث أن موطن المكنيتيين يقع من جهة غرب الأطلس وغير بعيد عن المحيط ومن جهة أخرى في موريطانيا الطنجية.

ـ ورد عند «يوليوس هونوريوس» أن المكنيتيين يعرفون بالسلاماكينيتيين أي المكنيتيين الذين يتحكمون في الأراضي الداخلية القريبة من المجرى الأعلى لنهر سلا أو سلات (نهر أبي رقراق حاليا).

ـ يرى معظم الباحثين أن البكواتيين يستقرون في الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من الأطلس المتوسط الكائنة جنوب وليلي وشمال بلاد المكنيتيين وشرق موطن البافاريين (22).

معنى كل هذا أن الأراضي المكنيتية تشمل الجزء الشرقي للهضبة الوسطى وكل المناطق في الأطلس المتوسط الأوسط والجنوبي الواقعة شرق المحور «أزرو ــ خنيفرة» والمشرفة على وادي ملوية.

3.2 ــ علاقات المكنيتيين بالبكواتيين والسلطات الرومانية بوليلي

نستمد أهم المعلومات المتعلقة بها من النقيشتين الأولى والثانية المشار اليهما في القسم الأول من هذا البحث.

1.3.2 ــ علاقات المكنيتيين بالبكواتيين

في مجموعة من المصادر المتوفرة لدينا لحد الان، يرد اسم المكنيتيين دائما بجانب اسم البكواتيين، إما قبله أو بعده، (23) لكن لايكفي هذا للتعرف على نوعية العلاقات القائمة بين الشعبين. الواقع أن حكم الجوار يقضي أن تكون هذه الروابط من حين لاخر متوترة أو سلمية.

لقد أشار «بلينيوس الشيخ» (23 ــ 79 م) في مؤلفه «التاريخ الطبيعي» الى الأوطولوليين... في حين أن بطوليمايوس» ذكر في سنة 140 م بدلا منهم البكواتيين والمكنيتيين،

مما يعني أن هذين الشعبين كانا قبل هذه السنة خارج موريطانيا الطنجية أو على الأقل لم يتمكنا بعد من القضاء على قوة الأوطولوليين والتأثير على مجرى الأحداث في هذه البلاد. ويقوى الاحتمال الأول إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المعطى التاريخي التالي :

ما بين سنة 117 م وسنة 122 م، أغار البكواتيون على مدينة كرتيناي (Cartennae) بموريطانيا القيصرية، إلا أنهم فشلوا في مسعاهم هذا فأمر الامبراطور «هادريانوس» بترحيلهم وإرغامهم على الاقامة بالقرب من المكنيتيين والاوطولوليين بهدف الحد من شوكة هؤلاء وتهديدهم المستمر لوليلي وسلا.

وبالفعل استقر البكواتيون بالقرب من الأطلس المتوسط ومن المحتمل أنهم دخلوا في صراع مع جيرانهم الموريين والرومان، خصوصا وأن الأحوال السياسية في موريطانيا الطنجية خلال القرن الميلادي الثاني كانت جد متأزمة. فقد اجتاحتها الاضطرابات ما بين سنة 144 م وسنة 152 م وأغار الموريون على ولاية بيتيكا مرتين : ما بين سنة 172 م وسنة 173 م وما بين نهاية سنة 173 م وبداية سنة 176م. والراجح أن بناء الأسوار حول مدينة سلا في سنة 144 م ووليلي في سنة 169/168 م له علاقة وثيقة بكل هذه الأزمات ومن المؤكد أن البكواتيين خاضوا ضد جيرانهم المكنيتيين عدة حروب ما بين سنة 122 م وأواخر القرن

الميلادي الثاني. إذا كانوا قد انتصروا في العديد منها تحت زعامة أميرهم «ايليوس توكودا»، فإن ورود اسم المكنيتيين قبل اسمهم في النقيشتين المشار اليهما آنفا يثبت خضوعهم لهؤلاء خلال السبعينات من القرن الميلادي الثاني ويدل أيضا على أن الأمير «أوكميتيو» مكنيتي الأصل.

2.3.2 ـــ علاقات المكنيتيين بالسلطات الرومانية في وليلي

لانعلم عن طبيعتها لحد الان إلا ما جاء في النقيشتين اللتين تحملان رقمي 3 و13 عند «فريزول» ورقمي 348 و384 عند كاسكو (24). ومفاده أن حاكمي موريطانيا الطنجية «بوبليوس ايليوس كريسبينوس» و«ايبيديوس كوادراتوس» اجتمعا ب «اوكميتيو» أمير قبيلتي المكنيتيين والبكواتيين وتحادثا معه، الأول ما بين سنة 169 م وسنة 176 م والثاني في سنة 173 م أو سنة 175 م.

تعني هذه المعطيات أن مصالح الرومان في موريطانيا الطنجية كانت مهددة من قبل التحالف المكنيتي ـــ البكواتي (25). لذا عملوا لامحالة على حله أو على الأقل أبطال معفوله عن طريق التفاوض وعقد معاهدات السلم مع أقوى وأخطر المجموعات القبلية المورية المجاورة لوليلي وسلا ومراكز حضرية أخرى.

خاتمــة عامــة

بهذا القدر وهذا الشكل تصور لنا النقائش والنصوص الاغريقية واللاتينية المتوفرة لدينا لحد الان بعض الجوانب من تاريخ قبيلة المكنيتيين التي عاشت ما بين القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الخامس بجوار قبلية البكواتيين وبالقرب من الأطلس المتوسط ووليلي. هل يحق لنا أن نجزم بأن وجودها في هذه المناطق من موريطانيا الغربية قد استمر الى ما بعد الفتح الاسلامي وأنها نفس القبيلة «مكناسة» التي تحدث عنها في القرن الميلادي الرابع عشر المؤرخ الكبير ابن خلدون. ستبقى هذه القضية معلقة الى حين ظهور المزيد من الوثائق.

الهوامش

(1) ورد الكلام عنها في كتاب «وصف الأرض» الذي ألفه «بطوليمايوس» حوالي سنة 140 ومن المعلوم أن استقى أهم معلوماته من «ماران الصورى» (Marin de Tyr) الذي عاش حتى نهاية القرن الميلادي الأول. انظر في هذا الشأن.
Roget, Maroc, p. 12;

(2) تذكر من بين هذه الدراسات الحديثة :
Carcopino, Maroc antique, pp. 258-275; Frézouls, Baquates, pp. 65-116; Desanges, Catalogue. pp.33-34; Rebuffat, Baniures, pp. 451-463; Romanelli, Iscrizioni dei Baquati, pp. 1347-1366.

(3) Ptol, IV, 1. 5

(4) اعتمدنا في هذه الترجمة العربية على الترجمة الفرنسية لـ «روبيفا» : Rebuffat, op. cit pp. 460-461

(5) DC, LXXV, 13

(6) اعتمدنا في هذه الترجمة العربية على الترجمة الفرنسية التي وردت عند كركوبينو : Carcopino, op,cit, p. 262

(7) نشير في هذا الصدد الى أنه تقلد منصب البروقنصل في هذه البلاد.

(8) Itin. Ant, I,1 p.2

(9) اعتمدنا في هذه الترجمة العربية على النص اللاتينية الأصلي وترجمته الفرنسية التي وردت عند كركوبينو :
Carcopino, op. cit.p.260:
(A Tingi Mauretania) id est ubi Bacavates et Macenites Barbari morantur ». «A partir de Tingi, la Maurétanie, c'est à dire le pays où habitent des barbares, les Banquates et les Macenites ».

(10) Riese, GLM, pp. 166-167.

(11) Ibid, pp. 53-54.

(12) لمزيد من المعلومات عن هذه النقيشة، انظر : IAM-Lat, n°384, pp. 244-245

(13) Frézouls, op.cit, p. 67, n°3

(14) IAM-Lat. n° 384, p. 245, Frézouls, op.cit, p. 78.

(15) انظر بشأن هذه النقيشة الثانية : IAM-LAT, n° 348, pp. 231-214

(16) حول حكم «بوبليوس ايليوس كريسبينوس»، انظر :
. Pflaum, carrières pp.494-495, n°182, Thomasson, Die Statthalter, t.II, pp.259,310

(17) يؤرخ «فريزول» هذه النقيشة بالفترة المتراوحة ما بين سنة 169 وسنة 176 أو سنة 175 اعتمادا على خلوها من لقب «الجرماني» واسم «كومودوس» الذي حكم بالاشتراك مع أبيه ما بين سنة 177 وسنة 180.
أما «كاسكوا» فيؤرخها بالفترة المتراوحة ما بين سنة 169 وسنة 180.

(18) لمزيد من التفاصيل حول هذا الحدث، انظر : Thouvenot, Incursions,

(19) Desanges, op.cit, p. 28, n°11

(20) انظر في هذا الشأن : القسم الأول من هذا البحث.

(21) Desanges, op.cit, p.28, n°11

(22) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر :
Carcopino, op.cit, pp. 258-262, Frézouls, op.cit pp : 95-98, Desanges, op.cit p.30; Rebuffat, op.cit, pp.459-463.

(23) نجد هذين الأسمين مجتمعين في الوثائق التالية :
Ptol, IV, 1,5; Itin : Ant, I,1 p.2; Riese, op.cit pp.166-167; Ibid. pp. 53-54.

(24) IMA-LAT n° 348: p. 213, n° 384: pp. 244-245. Frézouls, op.cit, n°3: p.67 n°13: p.73.

(25) هذا التحالف لم يعمل الرومان على انشائه ولم يكن انشاؤه في صالحهم انظر في هذا الشأن : Frézouls, op.cit p.105.

علاقة وليلي باديتها في العهد الروماني

الأستاذ علي واحدي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فـاس

مقدمـة :

إن الحديث عن بادية وليلي يدخل في إطار العلاقة بين المدن والبوادي وهو موضوع شغل بال الباحثين منذ مطلع هذا القرن، وألف عنه الكثير في السنوات الأخيرة سواء عن الفترات التاريخية القديمة أو الفترات اللاحقة، وعقدت في هذا الشأن ندوات على الصعيد الوطني (1) أو العالمي (2) واهتم بهذا الموضوع كثير من الباحثين الأوربيين (3). يرى بعضهم أن المدن عبارة عن مراكز استهلاكية وطفيلية وأنها تعيش على منتجات البوادي (4)، بينما يعتبرها البعض الآخر مراكز إشعاع حضاري ومناطق انتاج وتبادل تجاري (5).

وموضوعنا يتناول الحديث عن بادية وليلي وتحديد مجال نفوذها انطلاقا من الأبحاث الأثرية الجديدة في نقطة أولى بينما نخصص النقطة الثانية للحديث عن علاقاتها مع باديتها هذه.

1 ـ تحديد بادية وليلي انطلاقا من المراكز الأثرية المكتشفة :

دلت الأبحاث الأثرية التي أجريت منذ مطلع هذا القرن بمنطقة وليلي، ان هذه المدينة تتحكم في العهد الروماني في مجال فسيح، قدر فز يزول مساحته بحولي 150 كلم^2 وحدده بمثلث يبدأ من فج زكوطة فبلاد الكعدة ثم توكولوسيدا (6).

غير أننا إذا ألقينا نظرة على الخريطة التي أثبت فيها لوكى (خريطة رقم 1) أهم المواقع الأثرية والضيعات الفلاحية بمنطقة وليلي (7) تبين لنا مدى اتساع هذا المجال، إذ لا ينحصر فقط في المثلث المذكور بل يتعداه بكثير. ويمكن أن ندعم هذا الرأي بوسائل حماية وليلي المتمثلة في لجوء الرومانيين الى إنشاء سلسلة من المعسكرات حول هذه المدينة لمراقبة أهم الممرات والطرق المؤدية من وليلي واليها. اكتشفت لحد الآن ثلاثة معسكرات هامة هي : معسكر توكولوسيدا على بعد 5 كيلو مترات جنوب المدينة، ومعسكر سيدي موسى بوفري في الغرب على بعد حوالي 30 كيلو مترا، ويقع فوق تل من التلال القريبة من عين الجمعة(كُروان) (8)، وأخيرا معسكر عين الشكور بالشمال. يساعد موقع هذه المعسكرات على الاتصال فيما بينهما وبالتالي

مع وليلي بواسطة العديد من مراكز المراقبة «Tours de guet» (14 تقريبا). وعلى هذا الأساس يكون مجال وليلي أكثر اتساعا مما تصوره فريزول ويمتد من باب تيسرة (قرب سيدي قاسم) الى توكولوسيدا ومن وادي الردم الى السفوح الشرقية للجبال المطلة على المدينة حتى وادي بني مرعاز.

فهذا الجهاز العسكري يتمثل على شكل مثلث زواياه الثلاث أي زكوطة وسيدي موسى بوفرى وتوكولوسيدا تقوم به معسكرات أو مراكز للحراسة، وتحيط به داخل المثلث وخارجه ضيعات فلاحية ومغارس الأشجار يكاد عددها — كما سنرى بعد — يصل للمائتين.

يمكن تقسيم هذا المجال الفلاحي الى مجالين متباينين :

1.1 — **السفوح الجبلية** : يمثلها جبل زرهون وجبل عبد الكريم وجبل المركب وجبل سهب الحدادة وجبل بوقنفود وكلها كتل قليلة الارتفاع وتساعد على انتشار أشجار الزيتون بكثرة وكذا الغابة حيث تنتشر تربية المواشي.

كل هذه المنتجات الجبلية من غلال الأشجار والمواشي تنقل الى وليلي قبل استهلاكها كالزيتون مثلا.

ولا ننسى ماكانت تقدمه جبال المنطقة من أحجار الكلس للبناء حيث اكتشفت عدة محاجر.
إن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى ارتباط وليلي بهذا الجزء من باديتها التي تزودها بكل ما من شأنه أن يجعلها مدينة هامة في تلك الفترة.

2.1 — **السهول** :

أسفرت إلتحريات التي أجراها لوكي في ضواحي وليلي على اكتشاف أزيد من 64 مركزا أثريا منها 20 ضيعة فلاحية، قدر لوكي مساحتها بحوالي 3900 هكتار (9). وكشفت عملية المسح الأثري التي تجري بالمنطقة منذ سنة 1982 عن أزيد من مائتي مركز منها حوالي 176 ضيعة فلاحية (10). إلا أن المشكلة المطروحة الآن هي تقدير مساحة هذه الضيعات لمعرفة المجال الذي كانت تتحكم فيه وليلي في الفترة التي تهمنا، وهي مسألة تتطلب كثيرا من الجهد والبحث. واكتشفت ببادية وليلي ضمن المراكز المذكورة حوالي 13 معصرة للزيتون تضاف الى الثلاث المكتشفة منذ عهد لوكي ليصل العدد الى 16 معصرة، وهي ظاهرة جديدة تثبت أن صناعة الزيت لم تكن وقفا على مدينة وليلي وحدها، بل كان سكان البوادي يقومون بتحويل جزء من منتجاتهم وبالتالي فلم يعد الحضريون يحتكرون صناعة وتسويق هذا المنتج الحيوي.

ومن المشاكل التي تجدر معالجتها هي ملكية الأراضي الفلاحية. بعد أن تطرقنا للمجال الذي تتحكم فيه وليلي، علينا أن نحاول معرفة من كان يملك أراضيه ؟ سكان وليلي أم سكان البوادي المجاورة لها ؟

إن سكوت المصادر المكتوبة عن كثير من هذه التساؤلات يجعل الخوض في هذا الموضوع أمرا عسيرا، ومع ذلك فسنحاول البحث في بعضها بقدر ما تسعفنا به المصادر الأثرية التي اعتمدناها في البحث.

نقتصر هنا على نوعين من المصادر الأثرية فيما يخص ملكية الأراضي الفلاحية :

— البقايا الأثرية التي تظهر تحويل منتجات البوادي داخل وليلي ونكتفي بذكر معاصر الزيتون وعددها 57 معصرة المكتشفة لحد الآن (11) نضيف إليها العديد من مطاحن الحبوب (12)، فوجودها يدل بما لايدع

مجالا للشك على مدى ارتباط وليلي ببادينها ارتباطا وثيقا.

ـ النقائش : ونتناول هنا نقيشتين تناولتا الملكية في موريطانيا الطنجية ويتعلق الأمر بنقيشة ماركوس فاليريوس سيفيروس M.Valerius Severus الموجودة بوليلي والنقيشة الثانية فتهم سكان سلا الذين أقاموا تمثالا لماركوس سولبيكيوس فيليكس، حاكم مدينتهم : (Marcus sulpicius Felix) ونتناول ما يهم موضوعنا من النقيشتين :

+ نقيشة ماركوس فاليريوس سيفيروس :

...immunitatem/annorum x, incolas, bona civium bel/lo interfectorum quorum here/des non extabant suis impetra/...

فبعد الاشارة الى اسم صاحب النقيشة وذكر أهم المناصب السياسية التي تقلدها والمهمة التي من أجلها يقيم مجلس الوليليين تمثالا له، نمر الى العبارات التي تهمنا بالدرجة الأولى وهي :

(الاعفاء من أداء الضرائب لمدة عشر سنوات والتحكم في الأجانب «Incolae» وحق التصرف في ممتلكات المواطنين الذين قتلوا في الحرب ولم يخلفوا ورثة...) (13).

إن كلمة «ممتلكات» كلمة عامة يمكنها أن تشمل أملاك هؤلاء المواطنين داخل المدينة (وليلي) كالمنازل والمتاجر وما إلى ذلك، أو ممتلكاتهم خارج المدينة أي بالبادية كالضيعات الفلاحية ومغارس الزيتون، فلا شك أن بعضا من هؤلاء يمتلكون أراضي فلاحية في منطقة وليلي، وبقتلهم في حركة ايدمون Aedemon تصبح هذه الأراضي ملكا للوليليين الذين انحازوا إلى جانب الرومان حفظا على مصالحهم، وإن صح هذا التأويل تكون بعض الضيعات في ملكية الحضريين. وهذا ما نستفيده من نقيشة سلا.

+ نقيشة ماركوس سولبيكيوس فيليكس :

اكتشفت هذه النقيشة خلال الحفريات التي أشرف عليها جول بوريليي Jules Borély بأطلال شالة في الفترة المتراوحة ما بين شهري نوفمبر 1929 وماي 1930 (14). والاكتشاف في الحقيقة عبارة عن نصب تذكاري به ثلاث نقائش تتعلق كلها بالحاكم المذكور، على أثر انتهاء مأموريته بسلا.

وسنركز كلامنا على النقيشة الموجودة في الجانب الأيمن من النصب التذكاري، وهي مكونة من 32 سطرا (15). وسنأخذ منها مايهم الموضوع الذي نحن بصدد مناقشته، فبعد الاشادة بخصال حاكم سلا نقتطف هذه الفقرة :

mo/deratum, verecundum, mitem, pudicum, ordinis reverentem, populi amentem, sui diligentem, ita liberam copaim silvarum/18 et agrorum praebuisse ut pro tutela operantium frequens excubarit, ita in carteraomni elegantia vitae (a) equabilem egisse/19.

(ملحوظة 18 و19 هي أرقام سطور النقيشة).

ونحاول ترجمة السطرين 18 و19 من النقيشة :

«... صديق الشعب، مشغول بأداء واجبه، لذا مهد لنا الطريق للوصول الى غاباتنا وحقولنا بتشديد

الحراسة، مما أمن حياة العمال...».

هذاا لنص يبين بدوره، وبصريح العبارة أن سكان سلا كانت لهم ممتلكات في البوادي المجاورة لهم، وقد عمل حاكم المدينة على تأمين الطريق المؤدية الى الحقول والغابات، ويدل هذا أيضا على عدم وجود الاستقرار وأن خطرا ما يهدد الحضريين مما استدعى اللجوء الى الحرس لحماية العمال أثناء ممارسة أشغالهم الفلاحية والغابوية،ونستنتج منها أيضا الصراع بين الحضريين وسكان البوادي. والنقيشة مؤرخة بتاريخ 28 أكتوبر 144 م على عهد قنصلية كل من Statilius Maximus، Lollivs Avitus في ظل حكم الامبراطور انطونينوس (138 — 161 م).

نستنتج من النقيشتين المشار إليهما مدى ارتباط المدينة بالبادية وندعم هذا الرأي بكون أغلب المنازل الوليلية مزودة بمعاصر الزيتون ومطاحن الحبوب والحمامات وبمرافق أخرى كالاسطبلات ومآوي العربات.

فكيف نفسر هذه الظاهرة إن لم يكن أرباب تلك المنازل — رومانيين كانوا أو مترومنين — يملكون ضيعات فلاحية ومغارس الزيتون في البوادي المجاورة ؟

وإذا كان القدماء لم يعيروا اهتماما لمناطق انتشار زراعة الحبوب والزيتون وخاصة في موريطانيا الطنجية، فقد اكتفى بعضهم بذكر ما كان لموريطانيا من دور في تلبية حاجيات رومة في مادة القمح، وهذا ما نستفيده مما أورده فلافيوس بوسيفوس «Flavius joseph» على لسان أكريبا Agrippa قائلا بأن موريطانيا : «بإمكانها تموين الشعبين في العاصمة (أي رومة) لمدة ثمانية أشهر «مضيفا أن» افريقيا كانت خزانا لرومة في مادة الحبوب» (16). ونظرا لما تزخر به وليلي من كثرة مطاحن الحبوب يؤكد أهمية منطقتها في هذا المادة.

بعد أن حددنا مناطق نفوذ وليلي المتمثل في خريطة سيدي قاسم الطبوغرافية، يمكن القول بأن لها نفوذا أوسع وصل الى مناطق بعيدة خلف «الليمس» أي هضبة سايس وإن كان المسح الأثري لم يتم بعد في هذه المنطقة لاثبات أو نفي هذا، وكل ما نعرفه أن وليلي كانت تحصل على الصخور البازلتية من الأطلس المتوسط، فكل الارحية المخصصة لطحن الحبوب مصنوعة من هذه المادة. ونعلم أن هذا النوع من الصخور منعدم بجبال زرهور (الكلس، المارن، الحجر الرملي) ونتنقل للحديث عن نوعية هذه العلاقات.

2 — نوعية العلاقات بين وليلي وباديتها :

كثر الحديث في السنين الأخيرة عن المدن والبوادي وما تطرحه علاقاتها من تضارب آراء الباحثين، فمن قائل أن المدن مراكز طفيلية تبتلع خيرات البوادي (17). ومن مردد أنها مراكز إنتاج وإشعاع حضاري (18)، وتبين من أعمال الندوة المنعقدة أيام 11 و 12 وماي 1985 بايكس بفرنسا حول مصدر الثروات التي تصرف في المدينة القديمة (19)، أن مصادر الثروات التي تنفق في المدن القديمة متنوعة، فهي فلاحية (20) وصناعية (21) ومعدنية (22) وحرفية (23) وتجارية على الخصوص (24).

اعتمد الباحثون في إثبات أصل هذه الثروات على التأويلات الاقتصادية والاجتماعية في العهد الروماني (40 — 285 م).

يساعد موقع وليلي في سفوح جبال زرهون وفي ملتقى الطرق التجارية المؤدية من الشمال الى الجنوب

ومن الشرق الى الغرب على ازدهارها في الميدان الاقتصادي. وقد ثبت ارتباطها ببادیتها وبباقي جهات موريطانيا الطنجية بل وبباقي العالم الروماني من خلال البقايا الأثرية. وتتجلى هذه العلاقات مع البادية في العلاقات السياسية مع القبائل (البكواتيين والمكنيتيين) والعلاقات الاقتصادية. وقد تعمدنا عدم التطرق للمسالك والطرق التي تربط وليلي بباقي جهات موريطانيا (25).

1.2 ــ العلاقات السياسية بين وليلي وباديتها :

كانت وليلي في الفترة التي تهمنا مركزا حضريا هاما، جلب اليه أنظار الأهالي والأجانب على السواء. وقد ساعدت الحفريات على اكتشاف عدد لايستهان به من النقائش تبين علاقات وليلي بالقبائل المجاورة لها وعلى الخصوص قبائل البكواتيين والمكنيتيين. ولن نستعرض كل النقائش المعروفة لحد الآن عن هذا الموضوع (15 نقيشة تقريبا). كما أننا لن نتناول النقائش التي أوردها زميلنا محمد مقدون في عرضه، بل نكتفي بالتعرض لثلاث نقائش تتراوح في تأريخها ما بين سنة 140 م وسنة 280 م.

1.1.2 ــ علاقات وليلي بالقبائل المجاورة لها :

بدأ الصراع بين البكواتيين والرومان منذ عهدها ريانوس Hadrianus وهذا ما تثبته نقيشة عثر عليها في Tenae بموريطانيا القيصرية، ويتبين منها أن البكواتيين عقدوا معاهدة هدنة مع الرومان، ويرجع فريزول تاريخها الى حوالي 117 ــ 122 م (26).

والغريب أن هذه القبيلة وقعت معاهدة مع حكام وليلي سنة 140 م وهذا ما نستفيده من إحدى النقائش التي عثر عليها بهذا المركز حوالي سنة 1931 (27). والنقيشة عبارة عن نصب تذكاري أقيم على شرف الامبراطور هاريانوس الذي «قهر البكواتيين على حد تعبير كركوبينو» (28).

وما يهمنا هنا أن هذه القبيلة تواجدت في نواحي وليلي، وعقد المعاهدة مع حكام وليلي دليل على عدم وجود الاستقرار بالمنطقة، ووقع المعاهدة من الجانب البكواتي أميرهم أيلوس توكودا Aelius Tuccuda.

والنقيشة الثانية : (29) اكتشفت بوليلي سنة 1919 وتشير الى عقد معاهدة صلح بين رومان وليلي وأمير البكواتيين يوليونفوسي ابن يوليوماتيف Julio-Nuffus وتؤرخ النقيشة بيوم 24 أكتوبر 277 م أي في عهد الامبراطور بروبيس Probus (276 ــ 282 م).

والنقيشة الثالثة : (30) وقعت بين الوليليين والبكواتيين ووقعها عن الجانب البكواتي يوليوس ميرزيل Mirzil أخ نفوسي المشار اليه في النقيشة السابقة، ويرجع النقوشيون تأريخ هذه المعاهدة ليوم 13 أبريل 280 م.

استعرضنا هذه النقائش لنبين أن الرومانيين في وليلي لاقوا معارضة شديدة من طرف القبائل البربرية المجاورة وعلى الخصوص البكواتيين والمكنيتيين بالنسبة لوليلي، والاطلوليين Autololes بالنسبة لسلا في العهد الروماني. هذا يعارض الفكرة السائدة عن السلام الروماني Pax Romana الذي يتحدث عنه كثيرا. فالعلاقة بين وليلي الرومانية كانت جد متوترة مع القبائل المجاورة وهذا ما تدل عليه النقائش 15 المكتشفة داخل هذا المركز. فالبكواتيين خلقوا كثيرا من المتاعب لرومان وليلي خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين وعلى الخصوص منذ عهد دريانوس 117 م حتى نهاية القرن الثالث 280 م. ولعل انسحاب الرومان من وليلي نهائيا سنة 285 م بأمر من الامبراطور ديوقليتيا نوس «Dioclétien» كان تحت ضغط القبائل التي

كانت تتحكم في هضبة سايس وجبال الأطلس المتوسط، وإن كانت المصادر لاتذكر شيئا منها. مع ذلك يلاحظ من خلال النقائش أن أثر الرومنة توغلت داخل قبيلة البكواتيين.

2.1.2 — رومنة القبائل المجاورة لوليلي :

نلاحظ من خلال استعراض بعض النقائش التي تحدثت عن أمراء البكواتيين أن هؤلاء حملوا أسماء رومانية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنهم أصبحوا مواطنين رومانيين. ونكتفي بالاشارة الى أسماء الأميرين المشار اليهما في النقيشتين المسالفتين وهما Aelius Tuccada ويوليوس Nuffusi وأخيه يوليوس ميرزيل ليتبين لنا أن أيليوس ويوليوس هي أسماء رومانية إذ كما نعلم أن الاسم الروماني يتكون من ثلاثة أسماء هي الاسم الشخصي Praenomen والاسم العائلي Nomen واللقب Cognomen. وغالبا ما يحمل الشخص اسم سيده.

وهكذا نلاحظ أن الأثر الروماني يظهر على الأقل في التسمية. ونستطيع بذلك تفسير العلاقات الاقتصادية مع هذه القبائل التي كانت صلة وصل بين وليلي ومنتجات الأطلس المتوسط كالأخشاب والمعادن وأحجار البازالت.

2.2 — العلاقات الاقتصادية :

رأينا أن وليلي ترتبط بباديتها ارتباطا وثيقا بحيث تنقل منتجات البادية لتحول داخل المدينة وبذلك أصبحت وليلي وفي الفترة التي تعنينا أهم مركز «صناعي» وتجاري في موريطانيا الطنجية.

1.2.2 — علاقة وليلي بباديتها

– وليلي كمركز صناعي :

اكتشفت بوليلي لحد الان حوالي 57 معصرة للزيتون مما يبين أن انسان المنطقة اعتنى بغراسة الزيتون خصوصا إذا علمنا أن للزيت في تلك الفترة استعمالات عديدة.فبالاضافة الى استعمالها للتغذية فإنها تستعمل كمادة للغسل والتنظيف في الحمامات زيادة على التجميل والتطبيب وكونها مصدرا للنور. ولا يتسنى هنا أن نعطي الكثير من التفاصيل عن هذا الميدان (31). بل نحاول تسليط الضوء على أهمية غراسة الزيتون في المنطقة، وما كثرة المعاصر إلا تأييد لذلك، فإذا حاولنا أن نقارن بين عدد معاصر الزيتون الموجودة حاليا في مختلف المراكز الأثرية لموريطانيا الطنجية لاحظنا أن وليلي تأتي في المرتبة الأولى (57 معصرة داخل المدينة و16 خارجها = 73) مقابل 50 معصرة موزعة على الشكل الآتي : 4 في ضواحي سلا، 7 في بناسا وناحيتها، و16 في نواحي ليكسوس، 15 في منطقة طنجة (32). نستنتج إذن أن وليلي ومنطقتها كانت من أهم المناطق الزيتية في موريطانيا الطنجية مما يجعل إمكانية بيع الزيت وتصديره الى مختلف جهات الولاية الرومانية.

وجدت بوليلي مواد أخرى تدل على ارتباطها بالبادية أهمها المطاحن والمعاجن وأفران الخزف وحرفة البناء (الأحجار). ولا داعي للدخول في التفاصيل. هذه الحرف تتطلب كلها مواد من البادية، فالحبوب تنقل الى المطاحن وما كثرتها وتوزيعها جنبا الى جنب مع المعاجن إلا دليل على ذلك. والأحجار التي بنيت بها وليلي كلها هي أحجار الكلس والحجر الرملي المنقولة من المحاجر الكثيرة المنتشرة بضاحية المدينة والتي يفوق عددها 40.

ـ وليلي كمركز تجاري :

إذا كانت وليلي تقدم خدمات إدارية وسياسية فإنها من الناحية الاقتصادية تعتبر من المدن الداخلية، الهامة، فموقعها في منطقة فلاحية جعلها سوقا كبرى تتجمع فيها منتجات البادية لتسوق، أو تحول الى مواد قابلة للاستهلاك، ففيها إذن يلتقي فلاحو المنطقة بالتجار والصناع. ولا شك أن لها علاقات ولو كانت محدودة مع باقي جهات موريطانيا الطنجية.

تدل الأبحاث الأثرية على كون وليلي أكبر مدينة داخلية على الاطلاق في موريطانيا الطنجية، فإذا اعتبرنا منطقة نفوذها فإنها تحكمت في مجال فسيح تعاملت معه في علاقات تجارية متبادلة، بل تعدته الى جهات أخرى كالأطلس مثلا.

فكثرة الدكاكين والمحلات التجارية والحرفية والصناعية تدل دون شك على ما كانت تتمتع به وليلي من دور تجاري في المنطقة. ومما يثير الانتباه أن الدكاكين داخل الأحياء مفتوحة على الشوارع الرئيسية للمدينة. إن ظاهرة كثرة الدكاكين على طول الديكومنوس ماكيمسوس Decumamus Maximus فسرها البعض بأزمة اقتصادية مَسَّتْ بعض الأسر الغنية مما اضطرها إلى اللجوء إلى كراء الدكاكين الموجودة على الشوارع (33). في حين يرى فيها البعض الآخر ارتفاع الطلب وكثرة الاستهلاك الداعيين إلى التكثير من إنشاء الدكاكين (34). فهل يسوغ أن نطبق هذه المسألة على وليلي خصوصا خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين فترة ازدهارها ؟

والسؤال الذي يفرض علينا بالحاح هو ماذا كان يباع في هذه الدكاكين ؟ لاتخفى طرق الحفريات التي اتبعت منذ مطلع هذا القرن إذ كان المنقبون في بداية الأمر يهتمون بالكشف عن المآثر التاريخية (إظهار الأسوار والبنايات)، ولم يكونوا يعيرون أي اهتمام للخزف والبقايا ــ الخشنة في نظرهم ــ التي تساعد على معرفة أنواع الأدوات الموجودة بالمحلات التجارية. فكانوا يأخذون النقود والتحف الفنية، مما صعب علينا الآن معرفة ما كان يعرض في مختلف هذه الدكاكين. أيا ما كان الحال فوليلي باعتبارها مركزا تجاريا هاما فيصح التحدث عن أنواع متعددة من السلع التي كانت تتقاطر عليها من مختلف جهات الامبراطورية وهذا ما تدل عليه اللقى الأثرية، وأسماء المهاجرين من جميع جهات البحر المتوسط.

سبق أن تحدثنا عن قبائل البكواتيين وما كانت تخلقه من مصاعب لرومان وليلي، ورأينا أن الرومنة تسربت اليهم فيما يخص التسمية، مما يجعل إمكانية قيام نشاط تجاري معهم. فكيف نستطيع الحديث عن علاقات تجارية مع قبائل لم تكن خاضعة لنفوذ الرومان، قبائل كانت تعيش خلف الليمس، بسايس وجبال الأطلس المتوسط ؟

2.2.2 ــ علاقات وليلي بباقي جهات موريطانيا الطنجية :

إن موقع وليلي جعلها تستقطب الأنظار، والمؤكد أنها ربطت علاقات مع الجنوب ــ الأطلس ــ والغرب والشمال.

ـ مع الأطلس :

تقع جبال الأطلس كما هو معلوم خارج نفوذ السلطة الرومانية، ويجمع جل الباحثين أن توكولوسيدا هي أقصى نقطة رومانية في الجنوب. ومع ذلك فيسوغ لنا أن نتحدث عن علاقات تجارية ربطت وليلي

بمناطق خارجة عن نفوذها تجوبها قبائل البكواتيين والمكنيتيين. والواقع أن خضوع القبيلتين لامير واحد «Vemetio» يجعل الجوار بينهما ثابتا، إذ لايعقل أن يكون أوكميتيو أميرا على قبيلتين متباعدتين، يرى كركوبينو أن الماكنيت يقطنون جنوب البكواتيين فجعل موطنهم بالأطلس المتوسط (35). وإذا كان كذلك أفلا يحق لنا أن نتحدث عن ثبوت علاقات بين وليلي وهذه القبائل ؟ خصوصا أن القرائن تدل على وجود أحجار البازالت التي تصنع منها أرحية طعن الحبوب داخل وليلي. فهل كان الوليليون يتجهون الى الأطلس المتوسط لجلب الأحجار المشار اليها في أوقات السلم مع البكواتيين والمكنيتيين ؟ أم كان هؤلاء صلة وصل بين وليلي ومواد الأطلس ؟ المهم أن أحجار البازالت شاهدة على أنها نقلت من الأطلس المتوسط وهذا مايدل على ثبوت العلاقات الاقتصادية مع القبائل التي أخذت تقلد الرومانيين في أسمائهم.

ـ علاقات وليلي التجارية بباقي الجهات

وجدت وليلي متنفسا في اتجاه الغرب والشمال خصوصا وأننا نعلم أنها تتصل بهذه المناطق بشبكة للمواصلات تحدث عنها القدماء وعلى الخصوص دليل أنطونان Itinéraire d'Antonin (35). وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار المدن الساحلية موانىء لتصدير منتجات وليلي ـــ الفلاحة والمعدنية ـــ واستيراد المواد المصنوعة من الولايات الرومانية الأخرى أو من العاصمة رومة. فوليلي إذن كانت مكان تجميع وتوزيع المواد الفلاحية الموجودة في البادية مباشرة أو بعد تحويلها. وقد أشرنا الى كونها تأتي في المرتبة الأولى بالنسبة لانتاج الزيوت بناء على عدد المعاصر الموجودة بها، ولعل فائض الانتاج كان يوزع على باقي مدن موريطانيا الطنجية.

وإذا كنا نجد في وليلي لقى أثرية بيتيكية «Bétique» أي من اسبانيا وغالية «Gaule» وايطالية ومن موريطانيا القيصرية وافريقيا البروقنطية (تونس الحالية) فهذا يدل على أنها استقطبت العديد من التجار من مختلف جهات الامبراطورية. ولا شك أنها تقوم مرة أخرى بعملية توزيع في الاتجاه المعاكس أي توزيع منتجات مستجلبة في مختلف مناطق نفوذها وحتى في أوساط القبائل التي كانت تتعامل معها.

ختاما، نلاحظ أن وليلي كانت أكبر مدينة داخلية، تعاملت تجاريا وسياسيا مع منطقتها، وأنها لم تكن مجرد مركز استهلاكي يعيش على حساب منتجات البادية وإنما كانت مدينة منتجة وموزعة لسلع تجلبها من مختلف جهات الامبراطورية. وهكذا يتضح أنها لم تكن معزولة عن العالم رغم كونها مدينة داخلية. وقد ربطت علاقات تجارية مع مختلف الولايات الرومانية القريبة والبعيدة وان اختلفت كمية المبادلات ونوعيتها تبعا لذلك.

الهوامــــش

(1) ندوة «العلاقة بين البوادي والمدن» المنعقدة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، أيام 13 — 14 — 15 دجنبر 1984 شارك في هذه الندوة عدد من الباحثين في مختلف التخصصات من المغرب والجزائر وتونس.

(2) « Villes et campagnes, dans l'Empire romain », actes du Colloque organisé à Aix-en provence par l'U.E.R. d'Histoire, les 16 et 17 mai, 1980, textes réunis par P.A. février et philippe Leveau.

(3) Leveau (PH), Caesarea de Maurétanie et son territoire, contribution à l'étude derapports ville — campagne dans l'empire romain, thèse, de doctorat d'Etat soutenue à l'Université de provence (Aix Marseille I), en 1979, éd. de l'Ecole Française de Rome, 1983.

(4) Goudineau (ch), réponse à Leveau dan son article, la ville antique, « ville de consommation » ?
parasitisme social et économie antique, dans Etudes Rurales 1983, pp. 275-289.
— Max weber, if article de Bruchns cité ci haut.
— Finly, l'économie antique, trad. française de Max Peter Higgs, éd. de minuit, Paris 1975.

(5) — Février, leveau, villes et campagnes dans l'Empire romain, actes du colloque organisé à Aix-en-Provence, Mai, 1980 (Introduction).
— Février (P.A.), Préface du colloque organisé à Aix-en-Provence les 11 et 12 mai 1984 sur l'origine des richesse dépensées dans la ville antique Aix-en-Provence, 1985, pp. 9 — 17.
— Leveau, la ville antique, « ville de consommation » ? Parasitisme social et économie antique, dans Etudes Rurales, 1983, pp. 275-289.
— Leveau, la ville antique etl'organisation de l'espace rural : villa, ville, village, in ESC, 1983, pp. 920 — 942.

(6) Frézouls (E), Rome et la Mauritanie Tingitame : un constat d'échec ? in Ant. Africaines, t. 16, 1980, p. 91.

(7) Luquet (A), contribution à l'Aclas archéologique du Maroc : Région de Volubilis, BAM, V, 1964, fig 1 pp. 291 — 300.

(8) أجرى الكولونيل براديز Baradez حضريات بالمعسكر سنتي 1951 و1952، وأجريت حضريات أخرى برئاسة موريس لونوار في ربيع 1983 بمشاركة محمد مقدون وعلي واحدي. والمعسكر عبارة عن مربع تقارب مساحته الهكتار.

(9) Luquet (A), Blé et meunerie à Volubilis, BAM VI, 1966, pp. 301 — 31

(10) هي نتائج أولية عبر عنها الاستاذان روني روبيفا رئيس البعثة (الجانب الفرنسي) والأستاذ عمر أكراز (الجانب المغربي) في مناقشة شفوية أجريتها معهما بوليلي يوم فاتح نوفمبر 1985، بعد انتهاء عملية المسح الأثري بضواحي هذه المدينة بحضور زميلي محمد مقدون فللجميع أعبر عن شكري الجزيل.

(11) Akerraz, Lenoir, les Huileries de volubilis, in BAM, XIV 1981 — 1982, pp. 63-101 + XIX Planches.

(12) Luquet, opert, pp. 301 — 316

(13) اعتمدنا ترجمة محمد مقدون، ثورة ايدمون، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، نوقشت بتاريخ 1985/6/27 بكلية الآداب والعلوم الانسانية — فاس، نسخة على الآلة الكاتبة ص. 241 — 242.

(14) Carcopino (J), le Maroc antique, Callimard, 10 ed. 1947, pp. 200 — 201.

(15) انظر النص الكامل للنقيشة
Ibid, p. 211 — 212.

(16) Flavius, Bell. Jud. on Antitud, II, 16,4.
(17) Goudineau, Actes sur l'origine des richesses dépensées dans la ville antique, pp. 283-284.
— Finluy, économie antique, trad. française de Max Peter Higgs, éd. de Minuit, Paris 1975, pp. 255-275.
(18) Leveau, «Ville antique», ville de consommation, pp. 275-289.
(19) Actes du colloque organisé à Aix en provence par l'U.E.R. d'histoire, les 11 et 12 mai 1984 sur «L'origine des richesses dépensées dans la ville antique », présentés et réunis par Philippe Leveau, Université de Provence, 1985.
(20) Le Dinachet, Fortunes hellenistiques et grand commerce d'après les documents épigraphiques, Actescité, pp. 39-45.
(21) Morel (J.P) la manufacture, moyen d'enrichissement dans l'Italie romaine, op cit, pp. 87-111.
Mangin, Artisanat et commerce, op cit. pp. 113-131.
(22) Domergue (L), l'exploitation des mines d'argent de carthago Nova, son impact sur la structure sociale de la cité et sur les dépenses locales à la fin de la République et au début du haut empire, op cit pp. 197-217.
(23) Garnsey (Peter), les travailleurs du batiment de sardes et l'économie urbaine du Bas-empire, Actes...pp. 147-160.
(24) Le Dinachet, op cit.

انظر النص الكامل للنقيشة في :
(25) للمزيد من التفاصيل أنظر بحثنا حول : مكانة وليلي الاقتصادية في عهد الرومان. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم نسخة على الآلة الكاتبة ص. 169 — 179). نوقشت بكلية الآداب بفاس بتاريخ 1986/7/3.
(26) Frezouls (E), les baquates et la province romaine de Tingitane BAM II, 1957, p. 66 cf CIL, VIII, 9663

النقيشة محفوظة في متحف الجزائر.
(27) Ibid, p. 67.
(28) Carcopino, le Maroc antique, p. 266-267, cf Frézouls, op. cit, p. 67, IAM n° 376.
(29) Frézouls, op. cit n° 11, pp 71-72, cf aussi ILA n° 610, et IAM n° 361 (Gascon), carcopino op cit, p a 268-269.
(30) Frézouls, op. cit, p. 70-71 (n° 10), Carcopino, op cit. p 269, IAM, n° 360.
(31) Akkerraz, Lenoir, op. cit106 — 88 انظر أيضا علي واحدي ص
(32) Akerraz, Lenoir, op cit, p. 95 note 75.
(33) Etienne (R) le quartier nord-est de volubilis, CNRS, Paris 1960, p. 94.
— Claval (M) et livêque (p), villes et structures urbaines dans l'occident romain. A. Colin, V, Paris 1979, 166.
(34) Andreau (J) histoire des séismes et histoire économique, le trempblement de terre de pompéi (62 ap.J.C.), dans Annales ESC, Mars-Avril, 1973, XXVIII, p. 388.
(35) It. Ant, 9, 1-2, cf Eugennat, « Les voies romaines du Maroc dans l'itinéraire d'Antonin ». coll.Latonus vol. LVIII, 1962, pp. 595-610.

الاتحاف كمصدر من مصادر الدراسة الأركيولوجية وتاريخ الفن بمدينة مكناس

الأستاذ عبد العزيز توري
المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث
الربــــاط

مقدمـــة :

تعتبر مكناس إحدى العواصم الثلاث للامبراطورية المغربية الاسلامية، ومع ذلك فإن هذه المدينة، على عكس شبيهتيها مراكش وفاس، لم تنل بعد حقها من اهتمام الباحثين في أمور تاريخ المدن المغربية الاسلامية سواء منها الجانب المدني المحض وتطور جوانبه المتعددة والمختلفة، التي قد تأتينا بتمييزات خاصة بهذه الحاضرة، أو الجانب المعماري والفني.

وفي هذا الباب على وجه الخصوص، تبقى الدراسات قليلة جدا، بل شبه منعدمة مع أن المادة وافرة، ومثيرة للانتباه.

ففي كل ناحية من المدينة بناءات وأسوار شامخة، ومساجد عتيقة وعديدة، ومنازل وقصور خاصة ومخزنية صامدة، ناهيك عن مستلزمات التنظيم والعيش المدني من قنوات للمياه، وسقايات وحوانيت وأسواق ودراريز ومطاحن مائية وغير ذلك مما يدخل في التشييد المعماري المتخصص.

كل ذلك يسترعي الانتباه، ويجلب الأبصار، ويغذي الفضول، والنقاش، لكن إذا نحن حاولنا الوقوف عما كتب ونشر من دراسات أثرية أو دراسات تناولت جوانب من الفنون، كبيرها وصغيرها، تماشيا مع الحقب والأزمنة، فإن بحثنا لن يطول كثيرا، بحيث أن عدد هذه المحاولات لا يفوق اليوم العشرة مقالة أو دراسة[1].

مجموع هذه الدراسات كما يتبين، مكتوب باللغة الفرنسية، فالنص العربي لاوجود له هنا على الاطلاق، اللهم فيما يخص استعماله واعتماده كمصدر أو كمرجع تاريخي تستقي منه الدراسة الأثرية مادتها التاريخية، لتوجه بحثها في دروب المحاولة التي تقوم بها للوقوف عن العهد أو الفترة التي رأت بناء المعلم أو صياغة هياكله.

معنى ما سبق أن المجال لازال واسعا ومفتوحا أمام الجهود الهادفة الى الكشف عن كنوز التراث المكناسي الغني والمتعدد الأوجه.

وأهمية الآثار والفنون المكناسية تجد ثقلها، في كون مكناس أول حاضرة، همها التشييد العمراني العلوي، بل هي أول منشأة مدنية علوية، وذاك يعني أن أصول الفنون والانجازات المعمارية، ذات الروح والطابع العلويين، توجد أساسا في المنجزات المكناسية، وفي فنونها كبيرها وصغيرها.

على أن أهمية مكناس، لاتقف عند هذا الحد، بل تتعداه الى كل ما يهم ظهور مكناس المدينة، وتطورها مع تعاقب الحقب والعهود. فالنصوص التاريخية، وإن تشابكت في عدد من معلوماتها، تشير الى ماقامت به الدول المتعاقبة من عمليات إنشاء وتعمير، لكن المعلومات الخطية هذه لاتفيدها في تفصيل هياكل هذه المنجزات، ويبقى على البحث والتحري الأركيولوجي أن يستخرج هذه الهياكل للتحقق منها قصد الاقرار بها أو نفيها، تقوية للمعرفة التاريخية والحضارية.

لقد كان بودنا والحالة هذه، أن نتقدم أمام حضوركم الكريم بدراسة اركيولوجية حقه، تتناول جوانب مما سبق ذكره، فنكون في نفس الوقت قد ساهمنا في إعادة الاهتمام الاركيولوجي لهذه المدينة وفي التعريف بجانب من التراث المادي للحضارة الاسماعيلية إلا أن انشغالات كثيرة وحوافز لم تكن في الحسبان، حالت دون قيامنا بهذا المجهود، وهو الذي يتطلب، كما يعلم الجميع، وقتا ليس بالقصير، وحضورا مستمرا بعين المكان.

والموضوع الذي نتقدم به اليوم، وإن لم يكن اركيولوجيا بالمعنى الصحيح، فهوله ارتباط وثيق بالبحث الاركيولوجي.

فالوثيقة التاريخية، فيما يخص الاركيولوجيا التاريخية ــ عكس اركيولوجية عهود ما قبل التاريخ ــ وثيقة الصلة بالمجهود الميداني، يستعين هذا المجهود بها، ولا يمكنه النزوح عنها أبدا وإن كان توازن التصحيح يميل في أكثر حينه جانب التحري الاركيولوجي.

ورغم ما سبق، فإن النص التاريخي الموروث عن السلف، لم يستغل في مسألة البحث في الآثار والفنون الاسلامية بكيفية علمية وتفسيرية إلا نادرا، ذلك أن معظم الآثاريين لم يروا في كتب الأخبار سوى السند لوقوفهم على تواريخ الانشاء أو الترميم أو إعادته أو ما شابه ذلك من العمليات التي يعتبرها الآثاري هامة في بحثه، الشيء الذي زاغ بهم في أكثر الحالات عن الطريق المؤدي الى أن يولوا اهتماما لما يتضمنه النص من وصف مركز للمنشآت ومرافقها.

وإذا نظرنا إلى كتب الأخبار من وجهة نظر أركيولوجية وجدناها في الحقيقة تنقسم الى قسمين :

أولا ــ مجموعة يستقي منها الآثاري ما يضيىء طريق بحثه خاصة إذا اهتم مؤلفوها بسرد الأخبار مفصلة عن الانشاء والتعمير، حتى تصل ف بعض الأحيان الى مستوى الدليل المعماري أو المدني (2).

ثانيا ــ مجموعة لم يقف مؤلفوها عند سرد الخبر وتقديمه معززا بتواريخ وأحداث، وإنما نظروا إلى الانجاز فوصفوه بقدر الامكان، وقدموا ما تضمنه من زخرفة أو نقش أو كتابة. وهذا النوع هو الذي لم يستغل بما فيه الكفاية.

ومؤلف ابن زيدان **«إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس»** وهو موضوع هذه

المداخلة، يجمع ما بين الأمرين : فهو بالدرجة الأولى كتاب أخبار، جمع فيه صاحبه من المعلومات التاريخية والأحداث الشيء الكثير، لكنه في نفس الوقت دليل ثمين لباحث الآثار المكناسية، (3) حتى أن ابن زيدان في بعض مما استطرده، يقوم بشيء مما يقوم به الأركيولوجي أو دارس الفنون نفسه.

وانطلاقا مما سبق، تمكننا القراءة المتمعنة لما يحويه هذا الكتاب من معلومات، من تصنيف هذه الأخيرة حسب محاور ثلاثة :

ـ **المحور الأول** : سرد مجموعة أخبار لا يزيغ بها صاحب **الاتحاف** عن منحى من سبقه من المؤلفين التقليديين، فهو يروي كل ما استطاع اجتهاده أن يجمعه من معلومات، استقاها طبعا من مصادر شتى يذكرها كل مرة ويستقصي منها ما يعزز قوله.

ومن أمثلة ما نشير اليه قوله في **تاكرارت** :

«وقوله (أي الادريسي في نزهة المشتاق) ولم يكن في أيام ملثم الخ الذي ينصرف اليه هذا الوصف عند الاطلاق هو يوسف بن تاشفين فرد تلك الدولة الكامل أعظم أمراء المرابطين... وأيامه كانت في النصف الأخير من القرن الخامس وحينئذ يكون هذا مقتضيا لكون تاكرارت كانت موجودة زمن يوسف بن تاشفين وذلك موافق لما قدمناه عن ياقوت الحموي من أن يوسف هو المختط لمكناس الحادثة أي تاكرارت ولكن قدمنا تصريح ابن غازي من أيمة مكناسة بأن تاكرارت إنما اختطت بعد ظهور الموحدين وذلك إنما كان بعد موت يوسف بسنتين وعليه فيحمل الملثم في عبارته على من اختطت تاكرارت في أيامه من أمراء بنيه» (ج 1، ص. 61).

هذا المحور يفيد دارس الآثار من وجهتين :

• وجهة ضيقة وهي التي توقف فضوله عند حد الاطار الزمني ـــ الحدثي، وهذا أمر لا يوليه الأركيولوجي أكثر من درجته الاخبارية.

• وجهة أكثر تعمقا بحيث تثير فضوله إثارة النص لمسألة تأسيس المدينة المتكلم عنها : **أوقع ذلك فعلا** في زمن يوسف ؟ فتكون تاكرارت من منشآت ابن تاشفين المدنية، وهي ما لم نقف عليه إلى يومنا هذا ـــ والقضية هنا أكثر من أن تستدعي تأكيدا على وافر أهميتها في عين من له اهتمام بقضايا الآثار المدنية المغربية بالمعنى العام (القسم الغربي للعالم الاسلامي) ـــ أم أن تاكرارت هي من إنجاز من تولى الأمر بعده ؟ أم أنها موحدية التأسيس ؟

كل هذه التساؤلات بإمكانها أن تتحول الى فرضيات في منهج وتصميم الباحث الأركيولوجي يهدف من وراء طرحها إلى إعطاء عمليات حفره وتحريه وتحليل مادته هدفا واضحا ألا وهو التحقق منها جزما أو نفيا.

يتعزز هذا الجانب بمثال ثان ينساق بنا في بعض أمور الأركيولوجيا المغربية الاسلامية الراهنة التي يثيرها **الاتحاف**. يروي «**الاتحاف**» ما نصه :

«قال في الروض : قيل : ولم تكن مكناسة في القديم ممدنة، وكانت حوائر كثيرة مفرقة وهي تاورا، وبنوعطوش، وبنوبرنوس، وبنوشاوش، وبنوموسى، وهذه كلها على الضفة الغربية من وادي فلفل المذكور، إلا

تاورا فإنها بضفتيه الغربية والشرقية... قلت... ويعني بكونها أي مكناسة ليست بممدنة، أنها لم تكن مجتمعة الديار ولا عامة المنافع ولا منضمة الشمل بسور حافظ»(ج.1 ص. 50)

فالمثير للانتباه هنا هو وصف أصل المدينة المكناسية من كونها لم تكن مجتمعة الأطراف، بل كانت متعددة الحوائر أي الاجزاء أو الأحياء، وكانت إحدى نواتها وهي تاورا مشيدة على ضفتي وادي فلفل، أو وادي أبي العمائر كما هو معروف؛ وهذه الاشارة، تفرغ مادة جديدة في ملف دراسة أصل المدن المغربية العتيقة، معززة جانب تلك التي كانت أصلا مكونة من ربدين أو عدوتين، والتي لنا في فاس بعدوتيها أشهر مثال.

وفي هذا الباب نشير الى أن التحري والمسح الأركيولوجي بمنطقة **غمارة** من شمال المملكة، توصل الى الوقوف على موقع مدينة **تكُيساس**، إحدى مدن القرن العاشر الميلادي التي كانت مقر حاكم من حكام أمويي الأندلس على المغرب، وهي مدينة شاطئية كانت مكونة كذلك من قسمين أو عدوتين يفصل بينهما متسع هو اليوم طريق يمر منها الذاهب الى **السطيحة**، ويحيط بالمجموع سور لم يزل منه سوى بعض الأنقاض من الناحية الشمالية، ويعزز هذا التحصين خندق عميق من الجهة الغربية يصل عمقه الى 12 مترا تقريبا (4)، فيكون وصف **تاورا** التي يجعلها ابن زيدان «شرقا، عن يمين الذاهب لزرهون، الخارج من باب البرادعيين» (ص.57)، ثالث مدينة مكونة من قسمين يفصل بينهما عامل طبيعي هو في الحالة التي تهمنا، كما في حالة فاس، مجرى مائي.

لكن **تاورا** تنفصل عن مثيلتيها السالفتي الذكر بكونها لم تكن محاطة بسور. (5).

من ناحية أخيرة في هذا المحور الاخباري، يثير نص **الاتحاف** مسألة هامة أخرى، لم يجزم فيها البحث الأركيولوجي بعد، بحيث يبقى كل ما قيل بشأنها من قبيل الفرضيات، يتعلق الأمر بقضية تشييد المساجد المعلقة، وهي التي لعبت دورا أساسيا في الحياة الربدية بالمدن العتيقة المغربية، وذلك لا فيما يعود للجانب الديني فحسب ولكن كذلك فيما يخص تنظيم حياة الأحياء وحمايتها.

إن ما أوصل اليه البحث بهذا الصدد هو أن ظهور هذا النوع من التشييد المعماري الديني، كان في عهد المرابطين وأن ازدهاره كان خاصة في عهد ورثتهم الموحدين (6) وجزمت مجموع الدراسات التي اهتمت بالموضوع، أن العهود اللاحقة لم تعرف مثل هذه المساجد، لكن نص **الاتحاف** يأتي بعكس ذلك، حيث يقول :

«وأمَّا برج ليلة... فهدم... سنة خمس وتسعين أو أربع وتسعين وزيد موضعه في المدينة حين هدم جميع سورها وزيد ما وراءه غربا في المدينة وبقي موضع هذا البرج الى سنة إحدى وعشرين، وبنى في موضعه الوزير أبو زكرياء يحيى المعروف بالمريني سقاية نفيسة ومسجدا فوق صاباط على ممر بين الباب الجديد وباب البرادعيين» .... (ج.1، ص. 92).

وما يشير اليه هذا المقتطف بالحرف هو أن تشييد مثل هذه المساجد بقي قائما بمكناس على الأقل الى بداية القرن الثامن عشر الميلادي (7).

ومع كل ما سبق فإن معلومات «**الاتحاف**» بخصوص هذا المحور الأول، لا تعدو أن تكون معلومات

من درجة ثانية، حيث أنها إنما استقت مادتها من مصادر سابقة، استقصت منها واستنسخت حرفا أو تعليقا ما يعزز مرماها، وإن كان ذلك مشفوعا بمناقشات واستطرادات تظهر مدى تطلع ابن زيدان الى التحقق هو نفسه مما وقف عليه.

لكن نص **الاتحاف** يأتينا كذلك بما عاينه مؤلفه من أعمال أو ما وقف عليه بعدما تم تشييده قبيل اهتمامه بإلقاء فضوله عليه، فهو يروي ما مر في عهود من عاصرهم من ملوك الدولة العلوية من أحداث الانشاء والتعمير (8)، وفي هذه الحالة يصبح نص **الاتحاف** مصدرا أوليا إذعاين صاحبه تأسيس المعلم مباشرة أو شهد عقود حياته الأولى.

المحور الثاني : وفيه نجد صاحب الاتحاف، في سرد حديثه وتعليقاته عما يأتي به من أخبار، يشير الى مواقع المنشآت والبنايات المعمارية وسط المدينة. لكن هذه الاشارة إما أنها تكون بصريح العبارة، بحيث يوضح بعبارات مركزة موضع ما يتناوله حديثه، وإما أنها تكون بالتأكيد عن اسمها العالق بها في أيامه فيكون الاسم هو الدال على موقع المسمى.

ومن أمثلة التوضيح الأول ما نصه :

«أما المسجد (الذي بناه الوزير السابق الذكر)، فلا زال أثره قائم الاطلال ممتلئا بالأزبال والقذرات، موقعه على يمين الخارج من باب البرادعيين بمقربة من قبور الشهداء وكان به أثر سقاية وقنوات....»(ج. 1، ص. 94).

أما ما يتعلق بالصنف الثاني فمثاله قوله :

«.... وأما الحمام البالي فإنه لازال قائم العين الى الحين الحالي إلا أنه لا يعرف اليوم بهذا الوصف، وهو المعروف بحمام مولاي عبد الله بن احمد... وإما الحمام الجديد فإنه مازال قائم العين معروف الاسم الى الآن وأما الحمام الصغير فإني لم أقف على تعيين مسماه الآن، إلا أن الغالب على الظن أنه حمام التوتة إذ هو أصغر حمام يوجد في البلد مع ظهور قدمه» (ج. 1، ص. 112).

واستنادا لهذه الاشارات، الصريح منها والمومىء به، يتمكن البحث الأركيولوجي من التفتيش بشيء من السهولة، بل ويصل الى تحديد مكان البناية التي يريد الوقوف عليها.

على أن هذه الفقرة من الاتحاف، المتعلقة بالحمامات الثلاث، تثير فضولا عميقا لدى الدارس الأثاري المهتم بهذا النوع من البنايات العمومية. ذلك أن هذه الحمامات، على ما أورده ابن غازي في روضه واستنسخه منه ابن زيدان (9)، كانت قائمة الذات أيام الموحدين، ومعلون أن الحمامات المغربية العتيقة لم تدرس بعد، ولم يتجه صوبها فضول ولا اهتمام الدراسين، فلا نعرف مما درس منها سوى العدد القليل جدا (10).

المحور الثالث : وفيه يظهر ابن زيدان على غير عهد من سبقه من المؤرخين، بحيث يبتعد عن طرقهم المتعارفة عندهم، والجاري بها العمل عند أكثرهم. ففي عدة أماكن من اتحافه، وخاصة عند تناوله معالم بنائية عظيمخة، يرى فيها شأنا وأنفة، يقوم ابن زيدان بوصف دقيق لمرافق المعلم ومحتوياته، وصفا ملما لشتى جوانبه، متحريا الدقة والوضوح على خط سواء. مثال ذلك وصفه للمسجد الأعظم ومنه نقتطف ما يلي :

«... وطول مسجدنا المكناسي من جدار المحراب الى العنزة 39،20 م، وعرضه من الجدار الشرقي

إلى الجدار الغربي 40،95 م، وطول صحنه 21،14، وعرضه 17،41 م، وعرض آلجناح الأيمن 15،22 م، وعرض الجناح الأيسر 11،14 م، وعرض كل ربع من أرباع مناره 5،50 م، وسعة كل جدار منها 1،70 م، وعدد درجها 113 درجة، علو كل درجة 20 سنتم...وطول محراب مسجد هذه الصومعة متران اثنان و80 سنتيما وعرضه متر واحد و70 سنتيما» (ج.1،ص.103 — 105. ج.)

إن ابن زيدان بعمله هذا، يقوم بنفس ما يقوم به الباحث الأركيولوجي المعاصر، الذي يدرس معلمة من المعالم، سواء كانت كاملة الجوانب أو ناقصتها، فالقيام بأخذ مقاييسها مرحلة ضرورية في مثل هذه الدراسات، وهي تتوخى التدقيق فيما تقف عليه من أرقام، لأن فواصل أو أجزاء الأمتار — على ما قد تثيره من تساؤلات قد تصل عند من لا يرى فيها فائدة إلى حد الانتقاد — توقفه عند حقيقة وطبيعة المنشآت، وهي التي تعيد كل منشأة الى فترتها، أو كل جزء من المعلمة الى العقد الذي شهد تأسيسه، الشيء الذي يحدد بكل أمانة تطور البناء وتحولاته وهو أمر يدخل دون نقاش في انشغالات الباحث الأثري (11).

ومما يزكي انسياق ابن زيدان في درب العمل الأركيولوجي، محاولته للاتيان بمقارنات، وبمعلومات لم يكن ليأتي بها لولا أنه اهتم بالأبحاث الأثرية الحارية في عهده، والتي استهوته وأثرت فيه لا محالة.

ومما يؤكد ذلك ما نصه :

«... وفيه (المسجد الأعظم) 143 قوسا و من الأساطين 100 أسطوانة و34 اسطوانة وهذا العدد غير شامل للأساطين المعلقة بالجدارات.

(فائدة) أول من أحدث الأساطين للظلال وهي مجانب مسقفة تظل الناس وتكنهم من الشمس والمطر عبد الملك بن مروان وذلك عام 80 م.

وفي المسجد من الصفوف المصطفة المتباعدة الأكناف البالغة في محاسن الأوصاف، تسعة، الصف الأول منها عديم النظير في اتساع العرض، إذ عرضه ستة أمتار وأربعة وثمانون سنتيما، وهذا القدر لم أر ما يحاكيه في عرض صفوف غيره من المساجد. نعم، عرض الأول من جامع المنصور بمراكش يزيد عليه بواحد وأربعين سنتيما، إذ عرضه سبعة أمتار وخمسة وعشرون سنتيما وطوله خمسة وسبعون مترا، أما عرض صفوف جامع بني أمية بدمشق الشام فيفوق الجميع إذ عرض كل بلاط من البلاطات الثلاث نحو التسعة أمتار» (ج.1، ص. 102 — 103).

والطريف في عمل ابن زيدان، أنه يهتم كذلك بالمواد التي تحويها المباني فيصفها وصفا يجعله يقوم ببعض من أعمال دارس ومؤرخ الفن — من ذلك مثلا ما نصه :

«... وفي هذا المسجد العظيم المقدار ثريات ثلاثة من الصفر مكتوب بالدائرة الأولى من كبراها أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم، ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا إلخ السورة وفي دائرتها الثانية بعد الاستعادة والبسملة والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا إلخ السورة، وفي دائرتها السفلى صنعت الثرية بمدينة فاس حرسها الله لجامع مكناسة شرفه الله بذكره وكان الفراغ من عملها في العشرين من شهر ذي القعدة عام 604 ه» (ج.1، ص. 102).

ثم إن ابن زيدان، أغنى مؤلفه كذلك بمجموعة من النصوص المنقوشة على الخشب أو الحدران

الجصية، أو الرخامات التذكارية. فهو بهذا العمل يوفر لنا سجلا أمينا جرد فيه كل ما مكنه اجتهاده من الوقوف عليه وضبطه.

على أنه لايكتفي في كثير من الحالات بتخصيص هذه النصوص الهامة بالنسبة لتاريخ المدينة العام، بالذكر، وإنما يصف خطها المكتوبة به نسخيا كان أو كوفيا، والاطار الحافظ لها، وبذلك يكون قد أطل على جانب، وإن كان صغيرا، من جوانب علم النقائش. Epigraphie-Paléographie

خاتمـــة :

لقد حاولنا في هذه المساهمة المتواضعة جلب الاهتمام الى أهمية نص الاتحاف بخصوص المهتم بقضايا الآثار والفنون المكناسية، الشاهدة على عرق هذه الحاضرة ودورها من بين أمهات الحواضر المغربية. وإن كنا قد عرجنا على ما استرعى انتباهنا من كون عمل ابن زيدان يلج في غير ما مرة ميادين الدراسة الأثرية والفن وتاريخه، فإن ذلك حقا مثير. لكننا لا نستغرب لسلوك صاحب الاتحاف، وهو العارف لما كان يقوم به باحثو الحماية في حينه. من دراسة للآثار والفنون. فهو يشير بصريح العبارة الى أبحاث **شاتلان** بوليلي (ص 37)، وأبحاث **تيسو** عن موريطانيا الطنجية، وكلها إشارات تبين مدى اطلاع ابن زيدان واهتمامه بما استجد في وقته من أمور البحث والتحصيل.

وأخيرا فإن ابن زيدان يعترف بأن للآثار دور فعال في علم التاريخ، لذلك اعتمد الكلام عن المخلفات بالتفصيل الذي دللنا عليه ببعض المقتطفات المختصرة. واعترافه هذا هو في ما نصه «ومن طرق استمداده أيضا (أي التاريخ) الآثار القديمة والبناءات الضخمة العظيمة... والاطلال... مع ما اكتشفه علماء الفن من الآثار العجيبة الهائلة ذات البال»... (ج.1، ص. 15 — 17).

الهوامـــش

(1) أهم هذه الدراسات هي :

- SALADIN H. (1915); «les portes des Meknès» **Bulletin Archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques**, pp. 242-268

- TERRASSE H. (1937), **Villes impériales du Maroc**, Arthaud. Grenoble, (s,d), «la mosquée de lalla Aouda à Méknés», ext. du **IV éme congrés de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord**, ed **Société Historique Algérienne**, pp. 1-17.

- BARRUDAND M. (1976), **L'architercture de la Qasba de Moulay Ismail à Mèknés**, E.T.A.M. VI, 2 vol.

à partir d'exemples de Meknés, **BAMXI**, pp. 115-154-(1978)- Structures et dècors des charpentes alaouites (1980) «La spécificité de La ville impériale de Moulay Ismail à Meknés, **BAM.XIII**, sous-presse.

هذا وقد قامت السيدة أنيس الحيمر (A.Himeur)، وكانت محافظة متحف الجامعي بمكناس، بدراسة لمنازل المدينة العتيقة وذلك في إطار دراسة جامعية ناقشتها مؤخرا، لكننا لانتوفر إلى حد الآن لا على نسخة من هذا العمل ولا حتى على عنوانه.

(2) من ذلك مثلا «كتاب جني زهرة الآس»، الذي استعمله طيراس لجامع القرويين بفاس، انظر :

H.Terrasse, la mosquée al-Qauoiyin à Fès, Paris, 1968

(3) حقا إن هذا المؤلف ليس وثيقة عايشت الأحداث — أحداث المنجزات والتعديلات المتعددة — التي شهدتها مكناس فيما قبل نهاية القرن 19 وبداية 20، بحيث يمكن اعتباره أصليا بالنسبة لهذه العهود، لكنه مع ذلك، وإن اعتمد النصوص السابقة له في كل ما جاء به عن تاريخ المدينة الأولى وعن تطورها الى عهد تأليف صاحبه له، فإنه يناقش هذه الآراء، ويزيد فيما يخص الجانب المادي المعماري منها، وصفا وتنميقا.

(4) انظر :

A.Bazzana, P.Cressier, R,El-Hraiki, L.Er-Rbati, Y,Montmessin, A. Touri «Première prospection d'archéologie médièvale et islamique dans le nord du Maroc» BAM XV , pp. 367-450.

(5) يصف الادريسي تاورا بقوله :

«وكانت مدينة تاورا متحضرة جامعة عامرة وأسواقها كثيرة والصناعات بها نافقة، والنعم والفواكه لاتقضى بها حاجة أي لكثرتها ورخصها والماء يأتيها من جنوبها من نهر فينقسم في أعلاها ويمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها وشوارها وأكثر دورها» (انظر الاتحاف، ج 1، ص. 59).

وهذا الوصف يكاد ينطبق على مدينة فاس.

(6) راجع : A.Touri, les oratoires de quartier de Fés : essai d'une typologie, thèse dacty, Paris, 1980 pp. 249-256.

(7) وهو ما يؤكد عليه ابن زيدان بقوله :

«... هذا البرج المذكور كان في دولة سيدنا الجد المولى اسماعيل لأنه هو الذي هدم سور المدينة وزاد ما وراءه غربا في المدينة فيكون المراد بسنة خمس في عبارة التقييد المذكور سنة خمس وتسعين بعد الألف»... (نفس الصفحة). وهذه السنة توافق سنة 1683 — 1684 م. أما عبارة «سنة إحدى وعشرين» فتعني 1121 هـ الموافقة لـ 1709 — 1710 م.

(8) وهو ما نجده بتفصيل ما بين الصفحة 212 والصفحة 231 من الجزء الأول.

(9) «قال في الروض : وكان بهذه المدينة في أيام الموحدين ثلاث حمامات : البالي والجديد والصغير...» إتحاف، ج 1، ص. 111.

(10) من هذه الدراسات تلك التي قام بها هنري طيراس لثلاث حمامات مرينية، انظر :
H.Terrasse, «Trois bains mérinides du Maroc»: Mélanges William Marçais Paris, Maison'neuve, 1950, pp. 311-320.

(11) نثير هذا الجانب لجلب الانتباه الى أن طرق البناء والزخرفة والتنميق، اختلفت باختلاف العصور، وتطورت تحت تأثير عوامل التحولات الداخلية والاحتكاك بالبلاد الأجنبية، فكل فترة اختصت بخصوصيات، واضحة في بعض من جوانبها، ضعيفة الوضوح في البعض الاخر، بحيث يستدعي الوقوف عليها ملاحظة وتمعنا أكبر وأدق. وهذا ما يؤدي اليه، في كل عمل اركيولوجي، الحرص على ضبط الجزائيات وعدم اعتبارها غير مفيدة.
ولا يقف التدقيق هنا عند حد الحجم أو المقاييس، وإنما يتعداه كلما تيسر فعل ذلك الى التحليل المخبري الدقيق لمادة البناء أو الصياغة، وهذا أمر أساسي. كذلك فيما يخص الأعمال المهتمة بالترميم، وعدم احترام مبادئه يؤدي في أغلب الحالات إلى تشويه المادة المرممة وإتلاف طابعها، وهي أشياء نعيشها للأسف الشديد، في أغلب حالات الترميم ببلادنا.



توضيح

المصادر والمراجع الواردة بالهوامش تذكر وضعيتها عند الاحالة الأولى : المطبعة أو الناشر وبلد ذلك وتاريخه إن كان، ولا يتكرر ذلك في الاحالات التالية.

مدائـن مكناسـة القديمـة
من العصر الادريسي إلى أواخر عصر الموحدين

الأستاذ محمد المنوني
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الربـــاط

مدخـــل

, يصعد الزياني (1) بالبدايات الأولى لتأسيس مكناسة الى تاريخ ما قبل الاسم، ثم يحدد مؤلف فرنسي (2) هذه الفترة بالقرن 4 ق.م.

وفي العصر الاسلامي بدأ اسمها ـ كمدينة ـ يبرز مع مطالع القرن 9/3، فيأتي ذكرها بين المناطق التي اضطلع بولايتها الأمير الادريسي أحمد بن الامام الادريسي الثاني، وقد وردت في المصدر المعني (3) باسم «مدينة مكناسة». ثم جاء ذكرها باسم «مكناسة الزيتون» عند ابن حزم (4) المتوف عام 1064/456، فأفاد بهذا أن إضافة المدينة للزيتون كانت معروفة منذ النصف الأول من القرن 11/5، وقد تكون هذه الاضافة تنظر إلى أن إحدى الجهات القريبة من مكناسة كانت تحمل اسم «وادي الزيتون» (5)، فسميت المدينة بمكناسة الزيتون حتى تتميز عن مكناسة تازا، ومكناسة الأندلس (6).

وقبل تأسيس «تاكْررت» كان اسم مكناسة يطلق على مجموعة ـ غير مسورة ـ من المدن الصغيرة والقرى تتفاوت في حجمها، وتقع عند الشمال الغربي لمكناسة الحالية، فتسمى بمكناسة أو مكناسة الزيتون، ومرات بمدائن مكناسة (7) أو حوائر (8) أو قرى مكناسة (9)، ومع مر الزمن بلغ عدد هذه المدائن والقرى 14 مركزا، وقبل القرن 12/6 كان المعروف منها لا يتعدى اثنتين : «ورزيغة» و«عوسجة».

مكناسة القديمة أيام الادارسة وزناتة :

1) وأول ذكر لـ «ورزيغة» كان خلال العصر الادريسي الأول، عن طريق نقش اسمها على خمسة نقود ادريسية، في تواريخ 224، 226، 234، 240، 247 هـ، بموافقه سنوات 838، 840، 848، 854، 861 (10).

وهو واقع يشير الى أن ورزيغة كان بها معمل للنقود في هذا العصر، وقد يتبع ذلك أن تكون هي المركز الاداري لمنطقة مكناسة الادريسية. وفي عصر مغراوة ـ خلال القرن 11/5 ـ يذكرها البكري (11)

باسم «مدينة ورزيغة»، ويصفها بأنها آهلة، كثيرة المياه والثمار والخير... ويعقب بالاشارة الى غارة عليها ــ من عام 35/324 ــ 936 ــ قام بها القائد الفاطمي ميسور الفتى، فقتل أهلها وسبى نساءها.

وهي إشارة تؤكد المركزية الادارية لهذه المدينة، على أنه قد يكون من مخلفات المعركة تراجع أهمية ورزيغة كقاعدة ادارية، ومع هذا استمر عمرانها بعد ذلك، وكانت ــ حسب ابن غازي (12) ــ آخر ما خرب من حوائر مكناسة.

2) ويبدو أن الذي خلف مركزية ورزيغة، هي مدينة «عوسجة»، وكان موقعها بجوار سابقتها مما يلي وادي ويسلن (13)، وهي المدينة الثانية التي كانت مذكورة قبل القرن 12/6.

وقد صارت ــ بدورها ــ قاعدة للأمير الادريسي حمزة بن علي بن عمر بن المولى ادريس الثاني، فيذكره البكري (14) : «ومدينته التي كانت تدعى ببني عوسجة»، ويشير الى بابها.

ثم صارت المدينة ذاتها مركزا لأمير مكناس الزناتي : المهدي بن يوسف سنة 1063/455، وفي تعبير ابن أبي زرع (15)«... فتجهز المهدي وخرج في جيشه من مدينة عوسجة...».

وبعد هذا يختفي ذكر «عوسجة» كمدينة، ويستمر اسمها تتميز به بعض مواضع من ورزيغة (16)، وقد اندمجت فيها سابقتها، كما سيندلج في ورزيغة كل من مدينتي بني مروان وبني غفجوم (17)، فهي أربعة مدن تستوعبها ورزيغة، وقد تكون هي التي يشير لها الزياني (18) : «مدينة ورزيغة بمكناس كانوا أربعة مدن خرجوا».

مكناسة القديمة أيام المرابطين والموحدين :

وإلى هنا نتبين أن ورزيغة وعوسجة هما المدينتان المذكورتان قبل القرن 12/6، وخلال النصف الأول من نفس القرن يرقى الادريسي (19) بمدائن مكناسة وقراها إلى سبعة أسماء :

- مدينة بني زياد
- مدينة بني تاورة
- مدينة القصر
- مدينة بني عطوش
- بني برنوس
- قصر أبي موسى
- السوق القديمة

وبعد الادريسي يستعرض كتاب «الاستبصار» (20) أكثر هذه المدائن ومعها سواها، وقد كان جميعها قائما في عصره عام 1191/587، وهكذا يقول عن مدينة مكناس :

- «وفيها ــ اليوم ــ تسع خطب : في الحصن خطبة.
- وفي المدينة المسماة السوق القديم : خطبة.
- وفي تاورا : خطبة
- وفي أولاد عطوش : خطبة

ـ وفي أولاد برنوس : خطبة
ـ وفي بني موسى : خطبة
ـ وفي بني زياد
ـ وفي بني ورزيغة
ـ وفي بني مروان».

ويضيف ابن غازي (21) لهذه اللائحة وسابقتها أربعة أسماء :
ـ بني شلوش
ـ وبني غفجوم
ـ وقرية الأندلس
ـ وبني عبدوس.

وهنا تنتهي إضافة ابن غازي لفقرتي الادريسي وكتاب الاستبصار، وقد تداخلت الفقرتان بالنسبة لأسماء عدد من المدن، على أن «الاستبصار» ذكر حارة بني موسى باسمها، بدل تسميتها ـ غلطا ـ عند الادريسي بقصر أبي موسى...

ويتبين من المصادر الثلاثة أن عدد المدائن والقرى التي كانت معروفة بمكناسة القديمة يبلغ 13، فإذا أضيف لها «عوسجة» يصير المجموع 14 مركزا، دون أن يدخل في العد الحصن الذي صدر «الاستبصار» بذكره، اعتبارا بأن هذا هو نفس مكناسة تكررت (22)، وليست من موضوع بحثنا.

وقد استمرت هذه المدائن والقرى مزدهرة، الى أن أخذ عمرانها يتراجع من صدر المائة 13/7، قال ابن غازي (23) بعد ما ذكر مدائن مكناسة وقراها :

«ونمت هذه البلاد وعمرت، ولم تزل في نمو وقوة حتى انتهت مجابيها الى مئين من الآلاف، ثم اختلت بجور العمال، وأخذت في النقص من سنة كائنه العقاب، وكانت كائنة العقاب في صفر من سنة تسع وستمائة، ثم تفاقم الأمر عند قيام بني مرين على الموحدين، وأتت الفتنة على الحوائر المذكورة كلها ودثرت، ولم يبق منها إلا الصوامع والجدران العتيقة، وآخر ماخرب منها ودثر ورزيغة، بعدما كانت هذه الحوائر شاركت المدينة المذكورة ـ بعد بنائها ـ في كثرة العمارة».

وفي فقرة أخرى لنفس المصدر (24) : «... ثم بعد ذلك استخلص بنو مرين بلاد المغرب كلها واستقلوا بالأمر، وصلحت أحوال مدينة مكناسة، ولم تعد العمارة بعد ذلك ـ والله أعلم ـ لحوائرها، بل صارت كلها جنات وغرس الناس على ردومها، وقد بقي من ذلك لهذا العهد صومعة بني موسى (25)، وصومعة بني زياد، ومسجد السور القديم وصومعته، وحمام بني مروان : في عرصة يقال لها ـ اليوم ـ عرصة الحمام، وسقطت صومعة تاورا لنحو ستين سنة».

وهكذا صار وضع مدائن مكناسة القديمة في عصر ابن غازي (26)، وبعده لم يبق من تلك الحارات إلا مواقعها، في ساحة تمتد ـ نحو 5 كلم ـ عند الشمال الغربي لمكناسة الحالية، كما لم يبق ـ الآن ـ مذكورا من الأسماء القديمة سوى تاورا وبني موسى وورزيغة.

وإن استمرار هذه الأسماء من شأنه أن يقيد ـ ولو الى حد ـ في تعيين مواقع الحارات الثلاث،

وبواسطتها يمكن أن نعرف ــ على وجه التقريب ــ مواقع بقية الحارات التي تتركب منها مكناسة القديمة. وذلك ما يحاوله العرض التالي مع إضافات للتعريف ببعض المواقع :

فعن بني زياد : يأتي في وثيقة : «... فدان العقبة ببني زياد من بني موسى (27)».

وفي وثيقة أخرى : «... كافة الجنان السقي الكائن ببني زياد بسيدي أبي علي منصور (28)»، وهذا مدفنه ببني موسى.

وعن **قرية الأندلس** يقول ابن غازي (29) : «وهنالك قرية كان يقال لها قرية الأندلس كانت من عمل بني زياد... وهذه القرية ــ والله تعالى أعلم ــ هي المسماة في هذه الأعصر «تلاجدوت»، وبها جرى المثل السائر : **دار الكرامة يا تلاجدوت**».

و«تلاجدوت» اندثرت، ولم يستمر اسمها إلا في بعض الوثائق، فتحدد مكانها بأنه أسفل المشهد المنسوب لسيدي عبد العزيز مجاورا له (30)، وهذا ضريحه معروف ببني موسى قريبا من «جنان العريفة»، حيث لايزال قائم الاسم والعين.

أما «دار الكرامة» في فقرة ابن غازي : فيمكن أنها كانت مؤسسة موحدية تكريمية، شبيه دار الضيافة المعروفة ب «دار الكرامة» في مدينة تامراكشت أيام الموحدين (31).

القصر : يذكر عنه الادريسي (32) : «وبين تاورة وبني زياد مدينتان صغيرتان : إحداهما القصر وهي مدينة صغيرة في الطريق من تاكررت الى السوق القديمة على رميتي سهم، وهذه المدينة بناها أمير من أمراء الملثمين، وجعل لها سورا حصينا، وبنى بها قصرا حسنا، ولم تكن بها أسواق كثيرة ولا طائل تجارات، وإنما كان ذلك الأمير يسكنها مع جلة بني عمه».

ويقول ابن غازي (33) عن هذا القصر : «وكان واليها (مدائن مكناسة) يسكن قصرا أدركه القدماء خربا يعرف بقصر ترزكين، ولعل جيمه معقودة، وهو على ربوة من الأرض : شرقا من بني زياد، وغربا من وادي فلفل وجوفا (شمالا) من المدينة الان».

وعن **مدينة بني عطوش** : يعقب الادريسي (34) على فقرة «القصر» : «والمدينة الأخرى في شرقي المدينة : تعرف ببني عطوش».

وأسفل من هذه ــ حسب نفس المصدر (35) ــ كان موقع بني برنوس، وهو اسم بقي معروفا الى صدر القرن 17/11، فيأتي ذكر الجنان السقي الكائن ببني برنوس، في وثيقة (36) تحمل تاريخ أول ذي القعدة 1619/1029.

ويحدد ابن غازي (37) موقع **السوق القديم** بأنه ــ على أرض مرتفعة ــ بإزاء قصر ترزكين سابق الذكر، ويسميه بسوق الغبار (38)، ثم يضيف أن مسجده وصومعته لا يزالان قائمين إلى فترة تأليف الروض الهتون.

وفي تعليق لابن زيدان (39) على فقرة ابن غازي : «وأما سوق الغبار الذي وصفه فلا يعرف له ــ اليوم ــ اسم ولا رسم، نعم ما وصفه ابن غازي به يكاد ينطبق على المحل المعروف بذراع اللوز الكائن

خارج باب البرادعيين...» ومن الجدير بالذكر أن هذا السوق امتد ذكره الى بعض الوثائق القديمة في هذه الفقرة : «... وزيتونتان بفدان المنزه قرب السوق القديم» (40).

وسيكون السوق القديم سادس المدن أو القرى التي وقع التعريف بمواقعها، كما تبينا عند صدر هذا العرض أماكن كل من تاورة وبني موسى وورزيغة، وقد اندمج في هذه الأخيرة ــ حسب عرض سابق ــ حارات عوسجة وبني مروان (41) وبني غفجوم، فهي 12 مدينة قديمة صارت مراكزها معروفة على وجه التقريب.

ويبقى ــ بعد هذا ــ حارتا بني شلوش وبني عبدوس، ولا أتبين الآن مواقعهما.

وعن أحجام هذه المدن والقرى : يتبين أنها متفاوتة في أوضاعها بين مستوى المدينة الصغيرة أو القرية.

فالبكري يسمى كلا من ورزيغة وعوسجة بالمدينة (42)، والادريسي (43) يصف بالمدينة كلا من بني زياد وبني تاورة، ويعقب بمدينتين صغيرتين : مدينة القصر، ومدينة بني عطوش، ويقول عن بني زياد : «ولم يكن في أيام الملثم ــ بعد تاكررت ــ أعمر قطرا من بني زياد».

وكتاب الاستبصار (44) يخطط السوق القديم بوسم المدينة بينما ياقوت (45) يذكر ــ مع تاكررت ــ مدينة ثانية ويجعل صاحب الروض المعطار (46) مكناسة الزيتون أربع مدن، يقصد تاكررت وثلاثة معها.

وإن وصف ابن غازي (47) لتاورة يضعها في صف المدن العامرة.

وأخيرا : فإن الزياني (48) يذكر أن ورزيغة كانت تستوعب أربع مدن.

على أن هناك مداشر ــ مذكورة ــ ضمن بعض الحارات، فتعرف منها ــ الآن أربعة :

- مدشر ابن عبد الملك بالرداية (49).
- ومدشر أبي علي بن منصور في بني موسى (50).
- ومدشر ابن الصباغ بورزيغة (51).
- ومدشر أولاد ابن أبي العافية بعوسجة (52).

السكـــان :

ننتقل ــ الآن ــ إلى التركيب السكني للمنطقة على ندرة المصادر المساعدة، مع الاستفادة ــ أحيانا ــ مع الاستنتاجات الطبوغرافية. ومن الواضح أن سكان مكناسة القديمة يرجعون ــ أصالة ــ الى قبيل مكناسة : السكان الأولين بالمنطقة، وبينهم القبائل الذين استمرت أسماؤهم عالقة بالمدن أو القرى : بنو ورزيغة، بنو عوسجة، بنو تاورة، إلى آخر اللائحة. ومع مر الزمن تنضاف لهم عناصر وافدة، ومنهم زناتة، مغراوة حكام مكناسة القديمة لعهد دولتهم.

ومن بين قبائل صنهاجة الصحراء بنو زياد وبنو موسى (53)، فيبدو أنهم وفدوا مع المرابطين، وعمروا مدينتي بني زياد وبني موسى.

هذا فضلا عن فريق صنهاجة المرابطين، وقد تبينا ــ سلفا ـ أن والي مكناسة كان يسكن معه في

قصر الولاية جلة بني عمه، يعني ومن عدا هؤلاء الجلة يستقرون خارجا عن قصر الولاية.

وفي تاورة كانت فرقة من السودان المسمين ــ هنالك ــ عبيد الحرمة، وينتحلون ــ رجالا ونساء ــ حرفة الغناء (54) الذي قد يكون من نمط أهازيج الصحراء : منبتهم الذي جاءوا منه أيام المرابطين...

ومن حارات المنطقة واحدة لبني شلوش (55)، وهؤلا نسبهم في مضغرة من البربر (56) وقد استمرت فرقة منهم معدودة من أهل مكناسة، (57) فيرد ذكرها في اللائحة الاسماعيلية لسكان مكناسة، وانتقلت فرقة منهم الى فاس. فكانت مناسبة لتنويه ابن الأحمر بها في بيوتات فاس الكبرى (58).

ومن سكان مكناسة القديمة من غير الأمازيغيين : بعض الأشراف الأدارسة الحسنيين، وبينهم واليها الأمير أحمد بن ادريس الثاني ثم الأمير الادريسي حمزة بن علي بن عمر بن ادريس الثاني، وقد تبينا ــ سلفا ــ أنه ومعه أسرته ــ سكنوا في مدينة عوسجة.

وعن سكان ورزيغة يقول ابن غازي (59) : «يذكر أن أصل أهلها روم» يقصد من بقايا الروم البيزنطيين حكام المغرب قبل الفتح الاسلامي.

وإلى هذه الأصناف كان للأندلسيين سكنى في بعض جهات مكناسة القديمة، فيقول ابن غازي (60) وهو يذكر بني زياد : «وهنالك قرية كان يقال لها «قرية الأندلس» كانت من عمل بني زياد، سكنها ــ على قديم الزمان ــ قوم أندلسيين وتناسلوا بها، وأقاموا دهرا لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم، إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغير لسانه».

وقال البكري (61) عن مدينة أخرى : «ومن ورزيغة إلى مدينة أغيغي، ومعنى أغيغي حجارة يابسة، لأنها مبنية بالحجر بغير طين، وهي اليوم خالية، وكان القول الذين بنوها وسكنوها من ربضية الأندلس أيضا، أجلاهم البربر عنها إلى وليلي، فهم بها بقية يسيرة».

ومن الجدير بالملاحظة أنه استمر في ورزيغة وتاورة أسماء لها دلالة أندلسية، انطلاقا من الممر ــ بورزيغة ــ المعروف ب «زنيقة بني مروان». فهل يكون هذا اللقب يشير الى حديقة كانت تحمل هذا الاسم، نظير واقع «رياض بني مروان» في قرطبة، وهو اسم ورد عند كل من الحميدي (62) والضبي (63).

وعن ورزيغة ــ مرة أخرى ــ يرد في وثيقة (64) : «... وجميع الربع الواحد شائعا بموضع الفار بغدير الشريشي يجاور الوادي».

وفي وثيقة ثانية (65) : «... جميع غابة الزيتون السقي بغدير الشريشي». وكانت كلمة الغدير في الأندلس تستعمل ــ حينا ــ للدلالة على الحومة، فيأتي عند ابن الابار»... بحومة غدير أبي الفيض» (66).

وفي تعبير آخر : «أبو إسحاق المؤدب الامام بغدير ابن الشماس من أهل قرطبة (67)».

وعند ابن بشكوال : «... وكان سكناه بقرطبة بغدير ثعلبة بدور بني ادريس» (68) وفي فقرة أخرى : «... وقدم قرطبة وسكن بغدير ثعلبة» (69). ومرة ثالثة : «... وكان سكناه بغدير ثعلبة (70).

وقد ورد بالوثيقة التي تعلق عليها اسم «موضع الفار»، وكأنه ينظر الى اسم فارَه، أو فارُو، أو فارّه : «ثلاثة أسماء لثلاثة مواضع أندلسية : جبل فارَه : عند الحصن الذي يشرف على مدينة مالقة (71).

وبالأندلس مرسى فارُو قريبا من شنتمرية الغرب (72).

والى الشمال من تطيلة مدينة فارّة، فيقول عنها ياقوت (73) : «فارّة بالراء المشددة والهاء بلفظ قولهم امرة فارّة، أي هاربة : مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة».

ومن أواسط القرن 15/9 الى ما بعده، يذكر في بعض الوثائق (74) موضع في ورزيغة يحمل اسم «الشلوكي» أو عين الشلوكي، بالشين المعجمة والكاف المعقودة، ولا يبعد أن تكون التسمية تنظر — مع شيء من التحريف — الى حصن شلوقة بقرب سرقسطة، ذكره ياقوت (75)، ثم جاء في «الذخيرة السنية».

«... وفيها ملك العدو قرمونة، والقلعة، والقليعة، وشلوقة...» والكلمة بالشين المعجمة في الوثائق، وذلك يبعد نسبتها الى كلب الصيد الذي سينه مهملة.

وبعد ورزيغة يوجد في «تاورة» موضع يعرف «بالمترب» و«بباب المترب» أو «عودة باب المترب»، ولا يزال ذكره حيا في الاستعمال الدارج، وهو اسم كان معروفا بالأندلس، فيترجم ابن بشكوال (77) لقاض أندلسي توفي عام 1059/451 : «وولي قضاء طلبيرة فحمدت سيرته، وشكرت طريقته، وكان يختلف الى غلة له بحومة المترب يعمرها بالعمل ليتعيش منها».

فهذه خمسة أسماء اندلسية صارت أعلاما على مواضع من مدائن مكناسة، لتشير إلى سكان أندلسيين استوطنوا المواقع المعنية، وكان من عادة الأندلسيين النازحين أن يحملوا معهم أسماء أماكنهم ليستعملوا في مهجرهم الجديد، وفي مدينة فاس نماذج عديدة من هذه الظاهرة.

لغـة السكـان

فليضف هؤلاء الأندلسيون إلى أندلسيي أغيغي وبني زيـاد، ولنتذكر تسجيل ابن غازي عن هؤلاء الأخيرين أنهم لم تتغير ألسنتهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد، ولنتذكر — مرة أخرى — سكنى بعض الأشراف الأدارسة بورزيغة وعوسجة.

ومن هذا كله يستنتج أنه كان بالمنطقة لغة عربية الى جانب لهجة أو لهجات السكان الآخرين.

ويتجاوب مع هذا التعريب الجزئي استخدام تسميات معربة لعدد من مدائن مكناسة، وأيضا : الأسماء العربية لأقسام من «تاورة»، هذا فضلا عن عربية النقوش بالنقود الادريسية، مما قد يلمح إلى تعريب الادارة.

إحصـاء السكـان :

أما إحصاء السكان فلا نملك عنه إلا عددا تقريبيا عن سكان ورزيغة وعوسجة وليس لدينا عن ذلك سوى مصدر متأخر هو ابن أبي زرع (78)، فيشير الى غارة القائد الفاطمي ميسور الفتى على المدينتين، ويحدد عدد القتلى من خصوص الرجال بما يزيد على سبعة آلاف، وسوى هذا ترد عموميات لا تحديد فيها فيذكر الادريسي (79) عن مدينتي بني زياد وتاورة أنهما عامرتان ويشير ابن غازي (80) الى وفرة عدد سكان تاورة.

دول المنطقـة :

نتبين من إشارات سابقة أن مكناسة القديمة مر بها — قبل المرابطين دول الادارسة والفاطميين

والمروانيين، وزناتة مغراوة، ونضيف ــ الآن يفرن (81) ، وزناتة بني توالى حكام قلعة مهدي في منطقة زيان (82)، قال ابن أبي زرع (83)«وفي سنة اثنين وخمسين (وأربعمائة) دخل المهدي بن كلاتو وبن توالى مدائن مكناسة».

وفي تعبير ابن الخطيب (84) عند دولة أبي بكر بن عمر اللمتوني :

«... وتحرك الى بلاد المغرب ففتح بلاد فازاز ولواتة ومدائن مكناسة وجاناته، وملك هذه البلاد ــ يومئذ ــ المهدي بن يوسف بن توالى».

الحكــام ومقرهــم :

يعرف من ولاة المنطقة أسماء أحمد بن ادريس الثاني. ثم حمزة بن علي بن عمر بن ادريس الثاني.

وفي دولة مغراوة : يوسف الجزنائي، ت 20/412 ــ 1022 (85). وابنه المهدي بن يوسف. ثم الخير بن خزر الزناتي (86).

وفي عام 467 ولي يوسف بن تاشفين سيري بن أبي بكر مدائن مكناسة وبلاد مكلاتة وبلاد فازاز، ومن هنا نعرف ــ من فقرة ابن أبي زرع ــ (87) مدى امتداد ولاية مكناسة المرابطية.

وأخيرا : نشير إلى الحسن بن عشرة (88) والي المنطقة خلال أيام المرابطين.أما مقر الولاة فكان أيام الادارسة في ورزيغة، وأيام مغراوة في عوسجة، وأسس والي المرابطين مدينة «القصر» سالفة الذكر، حيث يسكنها هو ومن إليه.

ومن قضاة المنطقة أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي القرطبي. ت 1093/486، وهو مؤلف «الاعلام بنوازل الحكام»، ويقول عنه عياض (89) : وولي قضاء طنجة ومكناسة، ثم رجع الى الأندلس فولي قضاء غرناطة الى أن دخلها المرابطون».

ابن الملجوم : يوسف بن عيسى بن علي الأزدي الزهراني الفاسي، ت 1099/492، قال ابن القاضي (90): «وولي قضاء مدينة القرويين من فاس المحروسة في أيام زناتة، ثم صرفه عنها يوسف بن تاشفين في ولايته المغرب، وولاه قضاء مكناسة الزيتون».

محمد بن عيسى بن القاسم الصدفي التطيلي، ت. 34/529 ــ 1135، قال ابن الأبار (91) : «استكتبه ابن الملجوم في قضاء مكناسة واستخلفه ابن الملجوم عيسى بن يوسف بن عيسى الازدي الزهراني الفاسي، ت 1148/543.

قال ابن عبد الملك (92) : «استقضي بمكناسة الزيتون ثم بفاس، ثم صرف وأريد على معاودة القضاء فامتنع...».

الاقتصــاد والحضــارة :

وننتقل الآن إلى اقتصاد المنطقة وتحضرها، فنشير ــ أولا ــ إلى الرخاء الذي عرفته ورزيغة خلال القرن 11/5، فكانت كثيرة الثمار والخير، يباع فيها ألف حبة إجاص بربع درهم (93).

ثم ينوه الادريسي (94) ببني زياد : أسواق عامرة، وحمامات وديار حسنة، والمياه تخترق أزقتها، وعن بني زياد وسواها يقول ابن غازي (95) : «وكان ببني زياد حمام وببني مروان حمام يعمران، وكان ببني موسى حمام تعطل قبلهما.» ثم يذكر الادريسي (96) : «وكانت مدينة تاورة متحضرة جامعة عامة وأسواقها كثيرة، والصناعات بها نافقة، والنعم والفواكه لا تقضى بها حاجة، والماء يأتيها من جنوبها من نهر كبير فينقسم في أعلاها، ويمر ما انقسم هناك — من المياه — فيخترق جميع أزقتها وشوارعها وأكثر دورها» وبعد الادريسي فإن ابن غازي (97) يتوسع أكثر — في التعريف باقتصاد وحضارة تاورة في هذه الفقرة : «يشقها وادي فلفل : (وادي أبي العمائر)، ديارها على ضفتيه شرقا وغربا، والغراسات بها — وبسائر الحوائر — متصلة بالديار.

وبتاورة أرجاء كثيرة، كان أكثرها يحتوي على أربعة أحجار، وكان من جملتها بيت واحد للزغابشة يحتوي على خمسة أحجار.

وكان فيها حمامان اثنان : أحدهما منسوب للزغابشة، والثاني للمختص ؟ يعرف بحمام أبي الخيار، بإزائه عين كبيرة تنسب — كذلك — لأبي الخيار (98) ماؤها عذب معين صاف، تسقى به طائفة كبيرة من أملاك تاورا ومن أملاك من تحتها.

وعلى خلاف الحارات : فإن «الروض الهتون» يبرز أحياء هذه واحدا واحدا : «وكانت حارة تاورا تنقسم أقساما : «قسم يقال له بنو عيسى، ديارهم بالضفة الغربية من الوادي...

وقسم بالضفة المذكورة قبلة من بني عيسى، يقال له بنو يونس، ويسمى — أيضا — هذا القسم تاورا الفوقية، وبهذا القسم كان المسجد الجامع.

وبين هذين القسمين موضع عال جدا يعرف بالجهنمية.

وقسم بالضفة المذكورة يقال له فاس الصغيرة، كأنها سميت بذلك لاختراق الماء خلالها، كمدينة فاس.

وبالضفة الشرقية من الوادي قسم يقال له الجنان الصغير.

وقسم يسمى بني أبي نواس.

وقسم يسمى حارة بني زغبوش، وحارة الزغابشة».

وبحارة الزغابشة — فيما يظهر — كانت «دار النارنج» التي شادها الجد الأكبر لبني زغبوش : حماد بن محمد القبي، يذكر أنه بناها في أسرع زمان، وكان بها مجلس عال محكم البناء، واستمرت الدار قائمة يسكنها عقبه إلى أوائل القرن 13/7 (99).

والآن ينتهي بنا المطاف إلى «بني عطوش»، وهي — حسب الادريسي (100) — ديار متصلة، وعمارات في بساتين لهم هناك، ولهم أشجار وغلات وزيتون كثير، وشجر تين وأعناب وفواكه جمة، وكل ذلك بها ممكن رخيص.

ويقول المصدر ذاته (101) عن بني برنوس : «وهي منازل وديار لهم، وبها مزارع وكروم وعمارات وشجر زيتون كثيرة، وفواكههم موجودة تباع بالثمن اليسير.

وكانت مدينة السوق القديم بها سوق يعمر يوم كل خميس، ويجتمع اليه جميع قبائل بني مكناس، وهي سوق نافقة لما جلب اليها، ويقصد اليها من بعيد وقريب (102).

ومن ملامح ثروة المنطقة عموما فقرة من «الحلل الموشية (103)» تقول :

«وفي سنة ستة وستين وأربعمائة فتح الأمير يوسف بن تاشفين مدينة مكناس، واستنزل منها الخير الكثير من خزائن الزناتي».

فهذا الخير الكثير في خزائن الزناتي ماهو إلا من ثروة السكان، اغتصب منها حاكم مكناسة بالضرائب المنوعة وأثرى بها خزائنه.

ومن المؤشرات الاقتصادية الباقية : اسم «باب جمال»، ولا يزال استعماله حيا في حارة تاورة، وتشير كلمة «جمال» — في اللسان الدارج — إلى العامل الذي يقوم بحمل الأثقال — سلعا وما إليها — من بلد إلى بلد.

وخاتمة الارتسامات الاقتصادية، ارتسامة لابن غازي 104 عن مكناسة القديمة أيام ازدهارها.
«انتهت مجابيها إلى مئين من الألوف»

وارتسامة أخرى تلاحظ أن ازدهار المنطقة كان عصره الذهبي في أيام المرابطين، وهكذا يسجل المؤرخ الأول لمكناسة (105) : «وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار، وكان أهلها آمنين مطمئنين، في عيش رغد ونعمة تامة، منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين».

وتأتي هذه الملاحظة آخر الملامح البارزة لاقتصاد مكناسة القديمة وتحضرها، ونعقب بالاشارة الى أن ابن غازي توسع في تبرير تلك الملامح عند ذكر تاورة أكثر من غيرها، ومرد ذلك — فيما يظهر — إلى أن المصدر الذي أفاد منه «الروض الهتون» كان مؤلفه من أبناء تاورة، فكانت معلوماته من موطنه متوفرة بصفة أفضل.

ومن هنا لا يبعد أن تكون بعض مدائن مكناسة القديمة عرفت حضارة تضاهي أو تقارب تمدن تاورة، غير أن المصدر المشار له خلا من ذكر ذلك.

الحيـــاة الثقافيـــة

خلال أيام المرابطين والموحدين لمعت في «تاورة» أسرة علمية تنتسب الى بيت بني حماد من قبيل بني زغبوش العيساويين، فيحتفظ ابن غازي بالتعريف بستة أسماء منهم :

1 — **محمد بن حماد ابن زغبوش**، كان فقيها قرأ بقرطبة وبغيرها، وصحب جلة من أهل زمانه (106).

2 — ابنه الأول : **عبد الله بن محمد بن حماد**، قرأ في صغره بمدينة فاس، ومنها التحق بالموحدين، وقرأ بعد ذلك على رجال الحضرة : (مراكش) ومعهم، حسب تعبير ابن غازي الذي يضيف : «وكانت له عناية بتأليف الامام المهدي، وبما أملاه خليفتهم أبو محمد عبد المومن، وله في إثبات هذه الهداية موضوع استخرجه — بالاستقراء — من الكتاب العزيز...

وكان قد استقضاه أمير المؤمنين أبو يعقوب بن عبد المومن ابن علي مدينة شاطبة وجزيرة شقر، ومن ذلك الوقت استقر بشرق الأندلس بعض ذريته، ولما أسن رغب في إيطان بلده، فأسعفت رغبته واستوطن داره بتاورا، إلى أن مات — في سن الثمانين — عام 594 هـ (107) 97 — 1198 م.

3 ــ **أحمد** : الابن الثاني لمحمد بن حماد ابن زغبوش، كان ــ حسب ابن غازي ــ **فقيها حافظا** لكتاب الله تعالى، كثير التلاوة له، متدينا، ماهرا ــ مع ذلك ــ في معرفة الهيأة والتعديل (108).

4 ــ ابن الأخير : **علي بن أحمد بن محمد بن حماد** قاضي مكناسة (109).

5 ــ **القاسم بن عبد الله بن محمد بن حماد**، ولي القضاء بجهات المغرب وبجهات غرناطة، ثم انقبض عن ذلك واقتصر على الفلاحة ببلده تاورا، انتقل اليها سنة 1200/597 ــ 01، وأقام بتاورا حتى مات رحمه الله (110).

6 ــ ابنة أبو الخطاب : **سهل بن القاسم**، وهو مؤلف «التقييد في أخبار مكناسة» حيث أفاد منه ابن غازي، فيذكر أنه ولد بوادي عاش (بالأندلس)، وارتحل به أبوه الى تاورا، ثم ارتحل هو ــ بعد موت أبيه هناك ــ إلى الأندلس اخر سنة 1220/616 ، فولي بالأندلس قضاء أماكن كثيرة : مرة في رندة، ومرة في أستجة، ومرة في غيرهما، وولي ــ مرة ــ قضاء طنجة، ثم قدم ــ اخرا ــ مسددا بمرسية. (111).

وإلى هذه الأسماء الستة للزغابشة الذين احتفظ بهم ابن غازي، نشير الى ثلاثة أعلام من نفس الأسرة جاء التنويه بهم في المصدرين التاليين :

7 ــ بدءا **من عبد الله بن حماد**، قال ابن الابار (112) : «من أهل مكناسة، يعرف بابن زغبوج، ويكنى أبا محمد، دخل الأندلس وسكن شاطبة، وخلف علي بنت القاضي أبي عبد الله بن سعادة بعد وفاة أبي محمد بن عاشر الفقيه سنة 567، وولد له منها ابنه محمد، وكان من أهل المعرفة والنباهة، ولا أعلم له رواية».

وقد يكون هذا هو نفس عبد الله بن محمد بن حماد سابق الذكر عند رقم 2.

8 أبو عبد الرحمن : **عبد الله بن القاسم ابن زغبوش**، أشار له ابن عبد الملك (113) بين الأخذين على أبي الحسن بن خيرة البلنسي، ثم أثبت له قطعة شعرية حماسية، في التذييل على بيتي أبي الفرج ابن الجوزي في اكتحاله يوم عاشوراء (114).

9 ــ **أبو مروان ابن زغبوش**، حسب إشارة عرضية عند نفس المصدر (115).

فهذه تسعة أسماء من تاورة احتفظ بمعظمها أبو الخطاب ابن زغبوش في «تقييده في أخبار مكناسة» غير أنه لاتوجد معلومات عن النشاط الثقافي في بقية مدائن مكناسة وحاراتها.

10 ــ ولا يستثني من ذلك سوى اسم واحد من بني زياد، وهو أبو العباس بن علي الزيادي المكناسي، ذكره ابن عبد الملك (116) بين أشياخ محمد بن عبد الله بن مالك.

والى هذه الأسماء العشرة تأتي لائحة الذين اتصلوا بالمهدي ابن تومرت عند مروره بمكناسة عام 1120/514، وذلك ما يقدمه البيدق (117) في هذه الفقرة :

«ثم سار (ابن تومرت) الى السوق القديم، ونزلنا به بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة، وكان طلبة مكناس ياتونه الذين منهم :

11 ــ أبو بكر بن حرزوز

12 ــ وأخوه أحمد
13 ــ وأحمد الزرهوني
14 ــ وأخوه علي
15 ــ وبكار بن اسماعيل
16 ــ وعبد الرحمن بن مجاهد
17 ــ وعبد الرحمن بن عريوش
18 ــ ومروان
19 ــ والحاج منصور
20 ــ والحاج حمو
21 ــ ويحيى بن كنداف
22 ــ ومحمد بن زغبوش

فكانوا يأخذون عنه العلم ويذاكرونه فيما عندهم من العلم والفهم، فكان المعصوم يبين لهم ما جهلوه، ويذكر لهم ما لم يذكروه» (118)

23 ــ وهذه ستة أسماء من الوافدين، انطلاقا من أبي إسحاق ابراهيم بن أبي الفضل بن صواب الحجري الشاطبي العالم الطبيب، قال عنه ابن ألابار (119) : «... واستقرءاخر عمره بمدينة فاس في نحو ست وخمسمائة (12 ــ 1113) ، وتوفي بمكناسة الزيتون وهو ابن إحدى وثمانين سنة».

24 ــ أبو القاسم ابن الابرش : خلف بن يوسف فرتون الشنتريني، ت 1138/532، جاء ذكره عند ترجمة أبي إسحاق ابن قرقول، فيذكر ابن الابار (120) بين أشياخه : «.... وبمكناسة من المغرب : أبا القاسم ابن الأبرش».

يضاف للأسمين ثلاث قضاة ونائب القاضي، وأربعتهم سبق ذكرهم ضمن لائحة حكام مكناسة القديمة :

25 ــ أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي
26 ــ يوسف بن عيسى ابن الملجوم
27 ــ محمد بن عيسى الصدفي
28 ــ عيسى بن يوسف ابن الملجوم.

والى هذه اللوائح يتساءل عن موقع التصوف بمكناسة القديمة، وقد كانت منطقتها تحتضن موضع سكنى الشيخ أبي يعزي في جبل أبروجان بزيان، حيث لايزال بقيد الحياة أيام مدائن مكناسة، فقد كان مولده نحو 50/442 ــ 1051، وعمر نحو 130، الى أن توفي ــ بعدها ــ عام 1177/572.

ويضف الشعراني (122) إشعاع صوفيته : «انتهت اليه تربية الصادقين بالمغرب، وتخرج بصحبته جماعة من أكابر مشايخها، وأعلام زهادها».

ثم يبرز ابن غازي مدى ارتباط موقعه بمكناسة : «ولو لم يكن من مفاخر مدينة مكناسة إلا اشتمال عملها على مدفن ولي الله تعالى المجمع عليه، شيخ المشايخ سيدي أبي يعزى : لكان كافيا».

ومن المتوقع أن يكون من مكناسة مجموعة من أصحابه الأخذين عنه في حياته، غير أن المعروف منهم ــ الان ــ لايتجاوز ثلاثة :

29 ــ أبو عصفور : يعلى بن وين يوفن، يقول عنه ابن الزيات (124) : تلميذ أبي يعزى، أصله من مكناسة، نزل حارة الجذماء خارج حضرة مراكش، وبها مات عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة (87 ــ 1188)، وكان عبدا صالحا»

وبه تربى الشيخ سيدي يوسف بن علي (125) دفين الحي الذي يحمل اسمه قبلة مدينة مراكش، وهو

الذي يبتدي به عد الرجال السبعة بالمدينة ذاتها.

30 ــ أبو تميم عبد الواحد الأسود حسب ابن الزيات (126)، أو أبو تميم عبد الرحمن الهزميري حسب ابن قنفد (127)، الذي يضيف : «وكان حافظا للمسائل».

وفي تعبير ابن الزيات : «تلميذ أبي يعزى، انفرد بموضع على أميال من مكناسة، وبنى فيه مسجدا، فلما مات دفن في رحبة ذلك المسجد، وكان عبدا صالحا».

والى هذا المسجد كان بمدائن مكناسة مسجد أبي تميم، وبهذا الاسم جاء ذكره عند البيدق، حيث يحدد موقعه بمدينة السوق القديم، وقد تبينا ــ سلفا ــ أن ابن تومرت وأصحابه كان نزولهم عند مرورهم بمكناسة عام 514 هـ/1120.

ومن هنا يتبين أن أبا تميم كان له استقرار بمكناسة قبل أن ينتقل عنها إلى خارجها، ويؤكد هذا خبر يسنده ابن الزيات (128) الى علي بن عبد الكريم، فيقول هذا خلاله : «... فرجعت الى مكناسة وأخبرت بأبي تميم، فذهبت اليه أزوره...».

31 ــ أبو علي يعزى بن الشيخ أبي يعزى، له إقامة بمكناسة حسب إشارة عند ابن الزيات (129).

32 ــ وهذه أربعة أسماء لم تذكر مشيختها، ابتداء من شيخ صوفي كثير السياحة في طلب الصالحين، أورده ابن الزيات (130) غفلا من اسمه وشيخه ووفاته، ونسبه الى مكناسة.

33 ــ عبد الرحمن المكناسي، حلاه ابن عبد الكريم (131) بالشيخ الصوفي الحاج.

34 ــ ابراهيم ابن الصباغ المكناسي، روى عنه ابن عبد الكريم (132) ــ ثلاث مرات ــ أخبار بعض الصلحاء الذين ترجمهم.

35 ــ منية بنت ميمون الدكالي، أصلها ــ حسب ابن الزيات (133) ــ من مكناسة، ونزلت بالجانب الشرقي من مراكش وبه توفيت عام 595/98 ــ 1199.

فهؤلاء 35 اسما ــ مثقفين ثقافة منوعة ــ ممن مروا بمدائن مكناسة، وقد يكون بينهم من سكن تكرارت بعد تأسيسها.

نذيل ــ أخيرا ــ بهذه الفقرة : في الطريق الى «بني موسى» ــ إزاء باب البرادعيين ــ يقع الحي الذي يعرف باسم «سيدي بابا»، فيتساءل هل كان مكانه من بقايا مدائن مكناسة القديمة، ولبيان الواقع نوضح أن هذا الاسم كان علما لصالح عاش بمكناسة الجديدة الى منتصف القرن 19/13، فيلقاه ــ بالمدينة ذاتها ــ الوزير محمد بن ادريس العمروي الفاسي، ويسجل اسمه في آخر «كناشته»(134) مسميا له بسيدي بابا التواتي.

كما لقيه محمد التاودي السقاط الفاسي، وأشار الى أن سكناه كانت بأعلى فندق داخل المدينة (135).

والغالب أن الصالح المنوه به لما توفي دفن في مقبرة هذه الجهة، فصارت المنطقة تعرف باسم «سيدي بابا».

ملحق 1

عن قلعة مهدي بن توالي

تقع قلعة مهدي جنوب مكناسة على بعد نحو 150 ك.م، وكما تبينا سلفا (136) صارت مدائن مكناسة بأخرة تابعة لهذه القلعة، وذلك ما يبرر الحاق التعريف بها بهذه الدراسة.

وقد لمع اسمها كمركز لامارة بني توالي عند النصف الأول من القرن 11/5، ومن هذا التاريخ اشتهر ذكرها بين الجغرافيين والمؤرخين، فعرف بها الادريسي (137)، والزهري (138)، والاستبصار (139)، وابن الخطيب (140)، وأشار لها مؤلف مفاخر البربر، (141) والحميري (142)، وابن خلدون (143)، وقفز اسمها الى إحدى مؤلفات مادة الميقات، فذكرها أبو علي المراكشي في «جامع المبادي والغايات (144)» ضمن جدول أطوال البلاد، وقد كان ابن الخطيب توسع — أكثر — في التعريف بقلعة مهدي وإمارتها، فلذلك نتخير قطعة «إعمال الاعلام» (145) لنقدمها فيما يلي :

«... وأما بنوالي — وهم بنو يخفش الزناتيون (146) — فأول من ملك منهم بالمغرب توالى بن شوصح بن نعم الخلف، وكان محل ملكه بلاد فازاز التي تنسب اليها الخيل الفازازية (147)، ومعدن عوام (148)، والقلعة (149)، ومدائن مكناسة.

وكان اسم توالي يوسف، وكان قيامه سنة أربعمائة، ووفاته سنة اثنتي عشر وأربعمائة (150)، وولي بعده ولده مهدي بن توالي، فبنى القلعة وحصنها واتخذ لها سورا عظيما، وسميت به قلعة مهدي الى الان (151)، ولم يزل ملكا عظيما على بلاد فازاز ومدائن مكناس (152) الى أن قدم المرابطون المغرب، ونازله منهم أبو بكر بن عمر، واستامن اليه سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، ثم نكث عليه وقتل جماعة من رجال لمتونة، فبعث اليه الأمير أبو بكر المذكور جيشا حاصر القلعة سبعة أعوام الى سنة ثمان وخمسين، ثم خرج عنها صلحا وتوجه الى فاس فظفر به صاحبها معنصر بن المعتز (153) فقلته».

ملحق 2

وهــو تكملـة للملحـق 1

يعرف ــ الان ــ أربعة أعلام ينتسبون لبني يجفش من زناتة فازاز :

ـ الفقيه العالم أبو زكرياء اليجفشي من قلعة مهدي بن توالي نزيل الاسكندرية، حسب تعبير «مفاخر البربر (154).

ـ القاسم بن جعفر اليجفشي : أبو محمد، روى عن أبي عمر ميمون بن ياسين اللمتوني (155).

ـ منصور بن مخلوف بن عيسى المجاجي ؟ من بني يجفش : أبو علي، روى عن أبي داود الهشامي (156).

ـ يعلى بن ناصر اليجفشي : أبو الحسن، روى عن أبي عمر ميمون بن ياسين اللمتوني (157).

استمر بمكناسة (تكررت) ذكر أسرة ابن توالى من القرن 8 الى صدر ق 12/ «14 ــ 18»، فيترجم الحضرمي (158)، ثم ابن القاضي (159) للعالم الصالح أبي عثمان سعيد بن توالي، كان حيا عام 763/ «61 ــ 1362»، ثم يستمر ذكر أبي عثمان بن توالى مع جامع يضاف الى اسمه، وكان موقعه في حي باب عيسى شرق المدينة، فيذكر باسم «جامع سيدي سعيد بن توالى»، حسب حوالة المساجد الصغار (160) بمكناسة، حيث ترد بها هذه الفقرة مؤرخة بعام 1125 / 1713».

«... ناظر المسجدين : جامع سيدي سعيد بن تواله، وجامع سيدي بوزيتونة، الكائنين بباب عيسى، وهو أبو عبد الله محمد بن العربي بن مومو...».

ملحق 3

معلومات أخرى عن قلعة مهدي

عرف أحمد بن قاسم المنصوري (161) بجبل أروكُو قبلة من «خنيفرة» على بعد نحو 20 كم، ثم عقب قائلا : «عن يمين المستقبل منه جبل آخر يدعى عميرة، وهو أقل ماء من الأول، به ربوة تدعى الكّارة، هي القلعة البربرية القديمة التي تسمى قلعة فازازت، وكان المتولى بها مهدي بن تولى اليجفوشي الزناتي، وهذه القلعة هي التي حاصرها يوسف بن تاشفين مدة تسع سنين، ولم تخضع لسلطته، ولا رضخت لسلطته، وما خضعت إلا صلحا بعد اللتي واللتيا سنة 465.

وعهدي باطلال هذه القلعة قائمة الى حدود سنة 1328 قبل مفارقتنا لزيان، وجبل عميرة هذا مثل على.... يسمى أدخسال، وبه القصبة الاسماعيلية العظيمة..».

ومن الجدير بالملاحظة أن القلعة بعد انضمامها للمرابطين استمرت السكنى بها، فكانت منفى أحد أبناء المعتمد بن عباد : «عبد الله الرشيد»، قال بان الأبار (162) : «ولما نقل بنو عباد الى المغرب أسكن الرشيد منهم بقلعة مهدي، وكان هنالك الى أن توفي في حدود الثلاثين وخمسمائة».

يضاف لهذه الفقرة إشارة سابقة ـــ ص. 24 ـــ عن ذكر «جامع المبادي والغايات» لقلعة مهدي «ضمن جدول أطوال البلاد، مع العلم بأن مؤلفه أبا علي المراكشي عاش الى عام 686 (163) 1288/87.

الهوامش

(1) الترجمانة الكبرى، مطبعة فضالة ـــ المحمدية 1387 ـــ 1967 : ص 79.

(2) ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»، المطبعة الوطنية بالرباط 1347 ـــ 1929 : 1 ـــ 21.

(3) ابن أبي زرع في «روض القرطاس»، دار المنصور للطباعة والوراقة ـــ الرباط 1973 : ص. 51.
ابن القاضي في «جذوة الاقتباس»، نفس المطبعة والتاريخ : ص. 203.

(4) «جمهرة أنساب العرب»، دار المعارف بمصر 1962 : ص. 52، وقد غابت هذه الاشارة عن الذين عرفوا بمكناس.

(5) ابن الابار : «الحلة السيراء»،مطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 63 ـــ 1964 : 1 ـــ 55.

(6) يذكر الأمير شكيب أرسلان أن الاسم الأصلي لهذه المدينة هو مكينسة **Mequnenza** ، «الحلل السندسية»، المطبعة الرحمانية بمصر 1355 ـــ 1936 : 2 ـــ 256، ومن هنا قد تكون أسرة «المكينسي» بالرباط أندلسية الأصل.

(7) «روض القرطاس»، ص. 82 ـــ 99، 106، 119، 142.
ابن الخطيب في «إعمال الاعلام» : القسم الثالث،دار الكتاب بالداز البيضاء 1964: ص 169 ـــ 232

(8) ابن غازي في «الروض الهتون»، المطبعة الملكية بالرباط 1384 ـــ 1964 : ص. 8 وغيرها، وانظر في مادة الجوائز «إتحاف إعلام الناس» 56/1 ـــ 57.

(9) «الروض الهتون»، ص. 32.

(10) «نقد 224 : عند هنري لافوافي» فهرس النقود الاسلامية في متحف الأنواط بمكتبة باريس الوطنية : بالفرنسية في ثلاثة أجزاء، ط. باريس 1887 ـــ 1891، والقصد الى الجزء الثاني الخاص بالأندلس وشمال افريقيا ص. 388.
والنقود الخمسة كلها : عند دنييل أوسطاس في «كتاب الجامع في الدراهم الادريسية والدراهم المعاصرة لها» : بالفرسية، مطبعة المنشورات التقنية لشمال افريقية بالرباط 1970 ـــ 1971 : ص. 237 ـــ 238.

(11) «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب»، الجزائر 1857 : ص. 155.

(12) «الروض الهتون»، ص. 29.

(13) موقع مدينة عوسجة جاء ذكره خلال كتابة بداخل اللوحة الأولى لسفر «جذوة الاقتباس» لابن القاضي ط.ف : رقم 3511 زمن مطبوعات الخزانة الحسنية بالرباط.

(14) «المغرب»، ص.131 ـــ 132.

(15) «روض القرطاس»، ص. 140.

(16) في وثيقة قديمة : «فدان العوسجة جوار أرض الغماري»، حوالة المساجد الصغار بمكناس» : رقم 4، ص. 148.

(17) في «الروض الهتون» ص. 9 : «ولورزيغة حارتان قريبتان منها : بنو مروان وبنو غفجوم».

(18) «الترجمانة الكبرى» ص. 477.

(19) «نزهة المشتاق»، مطبعة بريل في ليدن بإشراف المعهد الجامعي الشرقي لنابولي : ص. 244 ـــ 245.

(20) دار النشر المغربية الدار البيضاء 1985 : ص. 188، وقد قابل هذا المصدر أغلب المدائن بذكر الخطبة إزاءها، والقصد الى خطبة الجمعة للاشارة الى وجود المسجد الجامع بالمدينة المعنية، فضلا عن بعض المساجد الصغار، مما يلوح الى العمارة بالسكان.

(21) «الروض الهتون»، ص. 8،9،10،32.

(22) في تعبير قطعة مخطوطة من «الاستبصار»، يذكرَ مكناسة الجديدة هكذا : «والحصن الممدن منها يسمى «تاكَررت»»، وقد جاءت هذه الفقرة في المنشور ـــ ص. 187 ـــ مصحفة هكذا : «والحصون، المدن منها تاكَرارت».

(23) «الروض الهتون»، ص. 28 ـــ 29.

(24) ص. 33.

(25) صارت تعرف «بصومعة شانة» دون أن يعرف وجه هذه التسمية، وفي وثيقة مؤرخة في أواخر ربيع الثاني 1041 ـــ

1631 جاء ذكرها : «... كافة غابة الزيتون السقي الكائنة على مقربة من سيدي أبي علي منصور — نفعنا الله به — بصومعة شانة» : «حوالة أحباس كبرى مكناس» رقم 5، ص. 1.80
وفي وثيقة أخرى : «... المعروفة بغابة قشمير الكائنة ببني زياد القريبة من صومعة شانة» : المصدر ص. 179.
وفي وثيقة ثالثة : «.... بحارة سيدي علي بن منصور — نفعنا الله به — المعروف بجنان ابن العافية قديما، المجاور للصومعة ثمة» : المصدر ص. 186 وتحمل هذه الوثيقة تاريخ أواسط رجب 1136 — 1724، مما يشير الى أن صومعة بني موسى استمرت قائمة حتى هذا التاريخ.

(26) توفي ابن غازي عام 919 — 1513.
(27) «حوالة أحباس كبرى مكناس» رقم 5 ص. 167.
(28) «المصدر» ص. 177
(29) «الروض الهتون» ص. 10.
(30) «الحوالة الأحمدية» بمكناس رقم 3، ص. 246، وص. 48، وما في «إتحاف أعلام الناس» 55/1 عن تلاجدوت سبق قلم، منشأة، تحريف في نسخة المؤلف من كتاب «الاستبصار» فسميت فيه تكّررت بتلاجدوت.
(31) القلقشندي في «صبح الأعشى» المطبعة الأميرية بالقاهرة 1333 — 1915 : 5 — 162، وفي تعبير ابن عذاري وهو يذكر مقتل أشياخ الخلط بتامراكشت : «فادخلوا لدار الكرامة برسم الاكرام والانعام»، «البيان الموحدي»، دار كريمادس للطباعة — تطوان 1960 ص. 409، ونشير هنا الى أثر بناء قديم — بالجهة ذاتها — يعرف «بالفنيدق»، وقد أشار له في «إتحاف أعلام الناس« 1 — 93.
(32) «نزهة المشتاق» ص. 245،والغالب أن هذ القصر هو الذي يسميه ياقوت «بالحصن»،حسب «معجم البلدان» مطبعة السعادة بمصر 1323 — 1906 : 8 — 133.
(33) «الروض الهتون» ص. 13.
(34) «نزهة المشتاق» ص. 245.
(35) ص. 245
(36) «حوالة أحباس كبرى مكناس» رقم 5 ص. 284.
(37) «الروض الهتون» ص. 14، 15، 33.
(38) «سوق الغبار يشار به الى أسواق الأرياق بالبوادي، ويرسم ابن الخطيب صورة له في مقدمة المجلس الثاني من «معيار الاختيار« مطبعة أكْدال — مغرب 1397 — 1977 : ص. 69 — 70.
(39) «إتحاف أعلام الناس» 1 — 93.
(40) «حوالة المساجد الصغار» بمكناس رقم 4 ص. 155.
(41) لاتزال بعض ملامح بني مروان معروفة بورزيعة عند الموضع المعروف بحجر الذيب، حيث تحمل اسم «زنيقة بني مروان».
(42) «المغرب» ص. 155، 132.
(43) «نزهة المشتاق» ص. 244 — 245.
(44) ص. 188.
(45) «معجم البلدان» 8 — 133.
(46) دار القلم للطباعة — لبنان 1975 : ص. 544.
(47) «الروض الهتون» ص. 11 — 12 — 29.
(48) «الترجمانة الكبرى» ص. 477.
(49) «حوالة أحباس كبرى مكناس رقم 5 ص. 169 : في وثيقة ترجع الى عام 1115 هـ.
(50) «المصدر» ص. 185.
(51) «المصدر» ص. 284 : في وثيقة بتاريخ أول ذي القعدة 1029 هـ.
(52) مصدر التعليق رقم 13.

(53) يعدد ابن أبي زرع فروع صنهاجة الصحراء، ويذكر بينها بني زياد وبني موسى، حسب «روض القرطاس» ص. 120.
(54) «الروض الهتون» ص. 31.
(55) «المصدر» ص. 8.
(56) ابن الأحمر في «بيوتات فاس الكبرى»، دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط 1972 : ص. 36 : البيت 25.
(57) «المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل ابن الشريف «من تأليف المؤرخ ابن زيدان مخطوط خ.س 12155.
(58) ص. 36 : البيت 25، وتصحف هذا الاسم العائلي الى بني شليش في «بيوتات فاس الصغرى«، لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، المطبعة الحجرية الفاسية، دون تاريخ ص. 4 م. 2.
بقي أن نتساءل هنا عن نسب قبيلة بني عطوش، وفي هذا الصدد نشير، الى قائد موحدي يحمل اسم «أبي محمد بن عطوش الكوفي»، حسب «البيان الموحدي» ص. 149، فهل لهذا الاسم ارتباط ببني عطوش من مكناسة مدائن مكناس، فيرجع نسبهم الى قبيل كومية ؟.
(59) «الروض الهتون» ص. 8 — 9.
(60) «المصدر» ص. 10.
(61) «المغرب» ص. 155.
(62) «جذوة المقتبس»، مطبعة السعادة بمصر دون تاريخ : ص. 347.
(63) «بغية الملتمس»، ط. مدريد 1884 : ص. 478.
(64) «حوالة المساجد الصغار» رقم 4، ص. 63 — 64.
(65) «المصدر» ص. 160.
(66) «التكملة» ط. الجزائر : ص. 212.
(67) «المصدر» : ص. 233.
(68) «الصلة»، نشر العطار 1374 — 1955 : ص. 457.
(69) «المصدر» ص. 86.
(70) «المصدر» ص. 295.
(71) ابن الخطيب في «الاحاطة»، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر بالقاهرة 1393 — 1973 — 1398 — 1978 : 1 — 506، 242/3.
(72) «الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان : 100/2.
(73) «معجم البلدان» 328/6.
(74) الوثائق الراجعة لأواسط ق 9 هـ : وارد عند محمد المنوني : في «وثائق ونصوص...»، المطبعة الملكية الرباط 1976/1396 : ص. 66، 69، 101، 106، أما الوثائق بعد أواسط ق. 9 فمتعددة ومتداولة.
(75) «معجم البلدان« 288/5.
(76) دار المنصور للطباعة والوراقة — الرباط 1972 : ص. 79، يضاف لهذا المصدر وسابقه فقرة البيان «الموحدي ص. 118 : «وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وقعت بالأندلس أحداث قبيحة، فمن ذلك أن خيل النصارى من جهة شنترين والأشبونة وصلوا الى قرية شلوقة».
(77) «الصلة« ص. 60 — 61، ويبدو أن اسم «المترب» انتقل الى ناحية فاس، فيذكر القادري : «... بموضع قرب فاس يقال له المترب «نشر المثاني» دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1978/1398 : 160/1، ثم جاء ذكر «المترب» عند نفس المؤلف في «التقاط الدرر» دار الأفاق الجديدة — بيروت 1983/1403 : ص. 55.
(78) «روض القرطاس» ص. 99.
(79) «نزهة المشتاق» ص. 244.
(80) «الروض الهتون» ص. 31.

(81) في «روض القرطاس» ص. 101 عند سنة 366 هـ : «وفيها دخل يعلى بن يدو اليفرني مدينة مكناسة الزيتون بالسيف».

(82) يحدد احمد بن قاسم المنصوري موقعها... «في زيان جبل عميرة به ربوة تدعى «الكارة»، وهي القلعة البربرية التي تسمى قلعة فازازت، وكان المتولى بها مهدي بن توالى... وكانت قائمة الى حدود 1328»، «كفاء العنبر» : مصورة منه على الشريط خ.ع 946 : لوحة 16، وانظر الملحق 3.

(83) «روض القرطاس»، ص. 119.

(84) «أعمال الاعلام» ص. 231 — 232.

(85) ابن عذارى في «البيان المغرب»، دار الثقافة — بيروت. دون تاريخ 255/1.

(86) «المصدر 27/4، 28.

«الحلل الموشية»، مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء 1979/1399 : ص. 28.

«بيوتات فاس الكبرى» ص. 30 : باسم الخيران الزناتي.

(87) «روض القرطاس» ص. 42.

(88) هذا يؤخذ من «أخبار المهدي ابن تومرت»، دار المنصور — الرباط 1971 : ص. 25.

ملاحظة : خلت عدة نقط من هذا العرض عن ذكر المصدر، اعتمادا على ذكر مصدرها، خلال عروض سابقة.

(89) «المدارك»، مطابع الشويخ — تطوان 1983/1403 : 183/8، ونقله ابن فرحون في «الديباج» مطبعة المعاهد بمصر 1351 هـ : ص. 182.

(90) «جذوة الاقتباس» رقم 636. وأصله في «الذيل والتكملة» س 8 عند رقم 224.

(91) «التكملة»، ط. مدريد 1886 : الترجمة رقم 576.

«المعجم في أصحاب القاضي الامام ابن علي الصدفي»، ط. مدريد 1885 : الترجمة رقم 104.

(92) «الذيل والتكملة» س. 8، مطبعة المعارف الجديدة — الرباط 1984 : الترجمة رقم 50.

مع إشارة في «بيوتات فاس الكبرى» ص. 15.

ثم عند ترجمته من «جذورة الاقتباس» رقم 570.

(93) البكري في «المغرب» ص. 155.

(94) «نزهة المشتاق» ص. 244.

(95) «الروض الهتون» ص. 12.

(96) «نزهة المشتاق» ص. 244 — 245.

(97) «الروض الهتون» ص. 11 — 12.

(98) لاتزال هذه العين قائمة بتاورة...

(99) «الروض الهتون» ص. 29.

(100) «نزهة المشتاق» ص. 245.

(101) ص. 245.

(102) «المصدر» ص. 245.

(103) «الحلل الموشية» ص.

(104) «الروض الهتون» ص. 28.

(105) «المصدر» ص. 12.

(106) «المصدر» ص. 29.

(107) «المصدر» ص. 29 — 31.

(108) «المصدر» ص. 52.

(109) «المصدر» ص. 52

(110) «المصدر» ص. 31

(111) «المصدر» ص. 31 — 32 .
(112) «التكملة ط. مدريد» رقم 1486، ويرسم ابن الابار حرفه الأخير بالجيم.
(113) «الذيل والتكملة» س. 5، مطابع سميا — بيروت 1965 : ص. 161
(114) «المصدر» س. 8 ص. 468.
(115) «المصدر» س. 1، مطابع دار الكتب — بيروت دون تاريخ ص. 378.
(116) «المصدر» س 8 ص. 311.
(117) «أخبار المهدي ابن تومرت» ص. 25.
(118) يختم البيدق هذه الفقرة قائلا : «أقام بها (مكناسة) المعصوم، ثم ارتحل منها في ساعة سعد وسلامة»، ومن هنا مع سياق هذا المصدر في خبر إقامة ابن تومرت بمكناسة، يتساءل عن مستند ابن خلدون في قولته عن المنوه به : «... واستمر على طريقه الى فاس ثم الى مكناسة ونهى عن بعض المناكر، فأوقع به الشرار من الغوغاء، وأوجعوه ضربا» : «العبر» دار الكتاب اللبناني 1959 : 467/6 — 68.
(119) «التكملة، ط. الجزائر رقم 363، وتصحف فيها الحجري بالمجرى، والتصويب من «جذوة الاقتباس» رقم 11، وفيها ابن صواف بالفاء بدل ابن صواب في طبعة التكلمة.
(120) نفس «المصدر» والطبعة عند ص. 186، وترجمة أبي القاسم ابن الأبرش واسمه كاملا : عند ابن بشكوال في «الصلة» رقم 403، والضبي في «البغية» رقم 722.
(121) ترجمته عند ابن الزيات في «التشوف» مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء 1984/1404 : رقم 77، مع تصدير الترجمة بتعليق واف عن مصادر ومراجع حياة أبي يعزى.
(122) «لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار» المطبعة الأزهرية بمصر 1925/1343 : 117/1.
(123) «الروض الهتون» ص. 68.
(124) «التشوف» رقم 115.
(125) «المصدر» ص. 312.
(126) «المصدر» رقم 117.
(127) «انس الفقير»، مطبعة أكدال، الرباط 1965 : ص. 31.
(128) «التشوف» رقم 117.
(129) «المصدر» رقم 85.
(130) «المصدر» رقم 67.
(131) «المستفاد في مناقب العباد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد»،قطعة منه مصورة من مخطوطة خاصة في فكَّيكٌ.
(132) «المصدر».
(133) «التشوف» رقم 160.
(134) كانت هذه الكناشة في المكتبة الأحمدية بفاس.
(135) كتاب «خرق العوائد...»مخطوط خ.ع.ك 52 ص. 126 — 127
(136) عند فقرة دول المنطقة.
(137) «نزهة المشتاق».
(138) «كتاب الجغرافية» Damas 1968 : ص. 192.
(139) ص. 187.
(140) «إعمال الإعلام» ص. 168 — 170
(141) المطبعة الجديدة بالرباط 1934/1352 : ص. 47
(142) «الروض المعطار» ص. 600 — 605.
(143) «العبر» 678/6.
(144) مصور مكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم 3343، معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، فرانكفوت، جمهورية ألمانيا

الاتحادية، 1984/1405 : ص. 156.

(145) ص. 168 — 170.

(146) ورد اسم بني يخفش بالخاء عند ابن الخطيب وجاء بالجيم المسفولة في «الذيل والتكملة» : السفر 8 ص 260، 378، 425، ثم في «مفاخر البربر» ص. 47، ويبدو أن رسم الكلمة بالجيم قريب من الصواب، وتكون الجيم معقودة.

(147) في «الاستبصار» ص. 187 عند ذكر جبل فازاز: «وخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها، وهي مدورة القدود، حسن الخلق والأخلاق».

(148) يمكن أن معدن عوام هو الذي قال عنه عبد الواحد المراكشي : «وبالقرب من مكناسة الزيتون — على ثلاث مراحل منها — حصن يدعى وركناس، فيه معدن فضة»، «المعجب»، مطبعة الثقافة — سلا 1938/1357 : ص. 224، ويبدو أن حصن معدن عوام صار — في عصر الموحدين — هو المركز الاداري لمنطقة فازاز، وذلك ما يفسر تعيين قاض له على حدة، سماه ونوه بذكره مؤلفو «التكملة» ط مدريد 868، و«الذيل والتكملة» س 6 : 364، و«صلة الصلة» : القسم المخطوط، ومن جهة أخرى فإن عبد الملك يذكر رئيس أهل المعدن، ويسجل له مكرمة أريحية سخية نحو أحد علماء القرويين : «الذيل والتكلمة» س 1 ص. 240...

ولاكتمال المعلومات عن معدن عوام نحيل على الحسن الوزان الفاسي في «وصف افريقيا» : الترجمة العربية دار الغرب الاسلامي — بيروت 1983 : 203/1 — 204. ثم على أحمد بن قاسم المنصوري في «كفاء العنبر» لوحة 23 — 24.

(149) هي قلعة مهدي التي نعلق عليها.

(150) نفس التاريخ مذكور عند ابن عذاري في «البيان» 255/1.

(151) سبق التعريف بموقعها عند التعليق 82، وانظر الملحق 3.

(152) يفصل ابن الخطيب امتداد حكمه : «ففتح (أبو بكر بن عمر) بلاد فازاز ولواته ومدائن مكناسة وجاناته، وملك هذه البلاد — يومئذ — بيد المهدي بن يوسف بن توالي» «إعمال الإعلام» ص 231 — 232.

(153) اسم والد معنصر هو المعز لا المعتز.

(154) البقية المخطوطة خ. ع. د 1020 : ورقة 34/أ.

(155) «الذيل والتكملة» س 8 ص. 260.

(156) «المصدر» س 8 ص 378.

(157) «المصدر» س 8 ص 425.

(158) «السلسل العذب والمنهل الأحلى...» مخطوط خ.س 4354.

(159) «درة الحجال...» المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة دون تاريخ : رقم 1378.

(160) رقم 4 ص 167.

(161) «كفاء العنبر» لوحة 16

(162) «الحلة السيراء» 68/2.

(163) اشار لهذا التاريخ في «جامع المبادي والغايات» ص 73.

علاقة مكناس بالأندلس
والأندلسيين حتى نهاية العصر المريني

الأستاذ محمد بنشريفة
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الربـــــاط

حديثي عن علاقة مكناس بالأندلس والأندلسيين يأتي بعد هذا الحديث العامر بالمعلومات من الأستاذ الجليل مؤرخ المغرب ومؤرخ مكناس محمد المنوني، ولذلك فإنه لم يترك مقالا لقائل في هذا المجال، ومع ذلك فسوف أدلي بدلوي مضيفا بعض الاشارات والافادات في الموضوع.

وأول ما أبدأ به هو هذا النص الذي قرأه مرتين ـــ منذ قليل ـــ وهو النص المتعلق بقرية تلكدوت أو تلجدوت، ولا أعرف النطق الصحيح في مثل هذه الكلمات البربرية ولا ماهو اشتقاقها في الحقيقة. هذا النص الذي يشير الى هذه المجموعة التي قد تكون أول مجموعة أندلسية استقرت بمكناسة الزيتون، وكونت عنصرا بشريا مهما من عناصر سكانها الأقدمين، هذه المجموعة لانعرف كيف ولا متى انتقلت من الأندلس الى القرية المذكورة التي تحدث عنها ابن غازي، ولكن المفترض أنهم من الربضيين الذين انتشروا في مختلف البلدان ومختلف السواحل البربرية كما يشير إلى ذلك نص من النصوص البلدانية، ومن المعروف أنهم وصلوا الى غاية الاسكندرية، وأنهم كونوا إمارة في جزيرة اقبيطش (كريت) فالمفترض أن هذه المجموعة التي سكنت بقرية بني زياد من هؤلاء الربضيين، وأنها مثل المجموعة الأخرى التي أشار اليها أيضا الأستاذ المنوني،والتي نص على أنهم ليسوا من ربض الأندلس، مايمكن أن نستنتجه من النص على صغره وقصره أن هؤلاء الأندلسيين الأوائل كان لهم دور تحضير المنطقة وتطوير الفلاحة بها، وهذا ما ينطق به النص الذي يشير الى نقطة أو الى فقرة لم يقرأها الأستاذ المنوني وهي التي تقول على أنه كانت لهم بالقرية المذكورة كرمات بعل في أرض رملية حمراء، ومن المعروف أن الأندلسيين اشتهروا بحِذقهم لأساليب هذه الفلاحة، فلاحة الكروم. ويذكر ابن غازي أن هذا العنب البعلي كان في غاية من الطيب، ويقول في وصفه : «هو عنب أبيض شديد الحلاوة ولا سيما الأنثى منه، ويذكر أنه من قوته لا يستحيل خمرا إلا عند اعتدال الزمان ومن غلوهم فيه أنهم يقولون فيه إنه يستصبح بخمره» بمعنى يستضاء به، ولعل هذا مايفسر لنا كذلك وجود عدد من أنواع الفواكه ذات الأسماء الأندلسية التي ظلت معروفة حتى زمن ابن غازي مثل الرمان السفري وهذا ما يزال معروفا بهذا الاسم إلى اليوم وقد جلبه من الشام إلى الأندلس سفر صاحب عبد الرحمان الداخل ورسوله إلى الشام، ومن هذه

الفواكه الأندلسية الاسم التين الشعري وهو، قال ابن غازي ـسعر اشبيلية ومنها اشبيلي واسمه دال على أنه من اشبيلية بصيغة عامية، وكذلك التين المعروف بذو النقاد والذي ورد في روض ابن غازي بذو النقا بدون دال، ولعل ذلك من التطور الذي طرأ على الكلمة، وهذه كلها فواكه نعرفها في أسمائها بالمصادر الأندلسية.

يشير النص الى مثل كان سائرا في القرن التاسع، وقد وجدتني أختلف مع الأستاذ المنوني في فهمه وفهم دلالته، فالذي فهمته أنه يضرب في البخل والاقتصاد الذي اشتهر به الأندلسيون المتحضرون وهذا من المميزات التي عددها ابن سعيد العماري العنسي الأندلسي المشهور بتحليله لطبائع الأندلسيين وعوائدهم ونظمهم، المثل المذكور لم يعد مسموعا اليوم، فقد شاع بعده فيما أتصور المثل الآتي :

«دار الخير أكا تعشي وآجي تبات».

ومن الطريف كذلك في النص الذي ذكره ابن غازي حول هذه القرية الأندلسية هذا التطور اللغوي لهذه المجموعة،فمن محافظة على اللسان الى تغيير في المخالطة الى رطانة تامة في البربرية في الأخير مهما يكن الأمر فإن أندلسيي تلكدوت هم ــ فيما نعرف ــ أول اندلسيين عرفتهم مكناسة القديمة.

وفي عهد المرابطين الذين اشتهرت مكناسة بتعلقها بدولتهم ووفائها لهم حتى إنها صمدت في وجه الموحدين سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام فيما تقول الرسالة الشفوية التي يذكرها،ابن غازي،في هذا العهد نجد مكناسة رغم بعدها النسبي عن العاصمة مراكش تغدو حصنا حصينا يطمئن اليه المرابطون ويتحرزون فيه على بعض المنفيين والمعتقلين السياسيين فقد حمل اليها كما هو معروف المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، ثم عبد الله بن بورقين ملك غرناطة بعده، وقد مكث كل منهما بمكناسة أشهرا تحت الاقامة الاجبارية، وكان الثاني عبد الله بورقين يحسب أنها ستكون إقامة دائمة له، قال في مذكراته : «ثم نقلنا الى مكناسة الزيتون وتلقانا الأمير سير وأنسنا وأخبرنا أن مقامنا عنده الى أن يرد السلطان من الأندلس،وأرسل إلينا مائة دينار، وعند حلولنا بها أيقنا بالمقام فيها»، وقد نفهم من ذلك أن الأمر سير كان يومئذ واليا على مكناس وعلى كل حال فإن ما تيقنه الأمير عبد الله لم يحصل، ذلك أنه يقول بعد ما سبق ما يلي : «ثم إنه وافانا من عند السلطان ويقصد يوسف بن تاشفين ــ ثلاثمائة دينار وأنا بمكناسة وخاطبني بكتاب يعدني بكل جميل،ويقول لي لا أنساك ما بقيت،فسرني ذلك أحسن الله جزاءه،فلقد كان أرفق بي بعد الله من كل أحد،وأعلمني أنه إذا ورد مراكش ــ وهذه صيغة الكتابة التي كتبها عبد الله كما هي مسموعة في بعض جهات مراكش ــ أكون معه حيثما كان، فعلمت أني منتقل عن مكناسة».

وقد كانت مكناسة في عهد الموحدين منفى لبعض المخالفين من الأندلسيين وموطن المنعم عليهم بالاقطاعات جزاء لهم على خدماتهم فقد نفي اليها الكاتب الاندلسي أبو القاسم خير بن ادريس الرندي في عهد عبد المؤمن وذلك بسبب قوله : «إن الخلافة لاينبغي أن يتولاها إلا قرشي». وظل بها مدة غير قصيرة الى أن عفى عنه عبد المؤمن، وأرسل اليها كذلك الثائر المتأمر بالأندلس ابراهيم بن هامشك، فعندما قدم على الخليفة عبد المؤمن معلنا طاعته وجاهه وأهله وأولاده وحاشيته الى مكناس، وأقطعه إقطاعا مهما واستمر مقامه بها إلى أن هلك، ويذكر المؤرخون أنه ابتلى بفالج غريب، فكان يدخل الحمام الحار فيشكو حره بأعلى صراخه فيخرج فيشكو البرد كذلك ولابد أن أولاد ابن هامشك وأولاد حاشيته ظلوا بالمدينة وتناسلوا بها ولكننا لانجد لهم ذكرا في المصادر الباقية. ويبدو أن الشاعر الرصافي الأندلسي الذي كان على صلة بابن هامشك ووزيره أبي جعفر الوقاشي زار إبن هامشك في مكناس،نقرأ في ديوانه قصيدة يبدو أنها في مدحه

يعدد فيها ذكريات ابن هامشك في الأندلس ويشير الى اتخاذه مكناسة وطنا إذ يقول :

غادوا بجلبتهم مكنـاسة فغـدت بعـز تلك الحلى معسولـة نلب
ولا كمكناسة الزيتـون كوطـن أحسن بمنظرها المرئي على العجب

وفي العشر الثانية من القرن السابع الهجري وفد على الموحدين أحد النبلاء القشتاليين لاجئا ومظهرا الاسلام، وهو أبو زكريا يحيى بن كونسل‌لبي المعروف بابن أخت الفونش (ألفونضو) حدثنا عن ابن غازي فقال : وقد استوطن مكناسة مظهرا لدين الاسلام، وكان يسكن بها في دار كبيرة بشرقي الجامع الأعظم مقابلة لأحد أبوابه تنسب لعلي بن أبي بكر أحد حفاظ الموحدين، كان قد ولي العمل بها، وكان أبو زكرياء هذا قائد فرسان يتصرف في ردع شرار البربر الرحالين، وكان في زي الموحدين فاعلا للخير محبا في أهله، وقد أسهم هذا القائد في عمران مكناس ونشر الأمن بها على عهد الموحدين، وأنشأ بها حماما كبيرا حفيلا، وهذا كلام ابن غازي جاء في غاية الاتقان، قال ابن غازي : «وله في أحداث هذا الحمام مناقب اشتهرت عنه من إرضائه أصحاب الديار التي اشتراها لذلك في أثمانها وغير ذلك» وفي هذا الحمام يقول ابن جابر مؤرخ مكناسة في أرجوزته المشهورة : «وإنما الحمام كان الفونصو ذاك الذي إذ دام كان العيش له» ولقد عرف تاريخ المغرب حالات متعددة من أمثال ابن أخت الفونصو، هذا في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين، ومن أشهرها حالة الريبرتير الأب الذي كان قائدا في جيش المرابطين، والريبرتير الابن الذي انضم الى الموحدين، وأصبح من كبار رجال دولتها، كما أن اللجوء السياسي كان ظاهرة معروفة في عهد الموحدين، وفي تاريخ ابن صاحب الصلا أخبار عن هؤلاء اللاجئين الى المغرب من الممالك المسيحية وعلى رأسهم فرناندودي لارا الذي سرد ابن صاحب الصلا خبر لجوئه الى مدينة مراكش التي ظل بها الى أن توفي، أما يحيى بن كونسا لبي هذا فلم نقف له على ذكر في المراجع وما إليه من مصادر عربية، ولعله مذكور في المدونات الاسبانية، ومن أعلام الأندلس الذين آوتهم مدينة مكناس أحمد بن عمر الأنصاري الخزرجي القرطبي عرف بالمكناسي لنزوله بها، يقول ابن عبد الملك . « واستقراره بالسكنى فيها بعد فصوله عن الأندلس، خرج من بلدة قرطبة فارا من الفتنة ثم استوطن مكناسة،ومع أنه كان محدثا راوية يرغب الناس في الأخذ عنه لصحة روايته وعلو سنده، ويستجيرونه من مختلف البلاد فإنه كان يأكل من كديدة. يقول ابن صاحب الصلا : «كانت له بضاعة يديرها في صناعة البز، فيتعيش بما يفيء الله عليه فيها من ربح توفي عام 616 هـ» ومن هؤلاء الاعلام الأندلسيين الذين طرحت بهم الغربة الى مكناسة الزيتون أيضا الرواية المسند أبو محمد عبد الله غلام الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي صاحب جزيرة مينورقة من الجزائر الشرقية المعروفة اليوم بجزر البليار، فعندما مات أبو عثمان سعيد بن حكم، خلفه ولده، وسقطت مينورقة في يد الكطلانيين، هاجر هذا السيد الذي كان يخدم الرئيس أبا عثمان واستقر به المقام في الأخير في مدينة مكناسة، ونجد الرحالة العبدري يتحدث عنه ويرغب في الأخذ عنه، ومن هؤلاء أيضا الذي أشار اليه الأستاذ الجليل سيدي محمد المنوني أبو القاسم بن الأبرش، خلف ابن يوسف وكان نحويا كبيرا، فقد درس في مكناسة زمنا وأخذ عنه ناس بها.

ولا أقصد في هذه العجالة طبعا الى الاحاطة بأعلام الأندلسيين الذين حلوا بمكناس وبعضهم توفي بها، ومعنى ذلك أنهم كان لهم نسل كبير بها وبقية حتى نهاية العصر المريني، ولكني أشير الى بعض ما ذكره ابن غازي في الروض الهتون مثل أبي العباس أحمد البطرني وأصله من بطرنة بشرق الأندلس، وأبي زيد عبد الرحمان القرموني من قرمونة بالقرب من اشبيلية والقاضي أبي عبد الله الغرناطي وأبي عبد الله القوري نسبة الى قورة، وهي بلدة قريبة من اشبيلية وباسحاق ابراهيم الحجري نسبة الى حجر عين وهو من شاطبة وكان

طبيبا وهو الذي يمدحه الشاعر الأندلسي المعروف ابن خفاجة بقصيدة موجودة في ديوانه ومنه أيضا القاضي أبو العباس أحمد الشريشي، وكذلك الولي الصالح سيدي أحمد بن عاشر. قال ابن غازي : «ومسجده مكناسة معروف ومنها انتقل الى سلا على أن أخطر أندلسي عرفته مكناس هو أبو المطرف أحمد بن عمير المخزومي الشقري الذي تولى القضاء بها في فترة دقيقة وعصيبة؛ وأبو المطرف هذا شخصية علمية وأدبية وسياسية كبيرة يمكن القول بأنه كان أكبر كاتب في عصره في المشرق وفي المغرب على السواء وكانت له أدوار سياسية في الأندلس وفي المغرب، فقد تولى الكتابة للسادة الموحدين بالأندلس في بلنسية ومرسية ولمن خلفوهم عليها كزيان بن مردميش وعزيز بن خطار، ثم وفد على الموحدين في مراكش، فأسندوا اليه القضاء في هيلانة ثم في العدوتين الرباط وسلا، وأخيرا في مكناسة الزيتون، قبل أن ينتقل الى سبتة ومنها الى الحفصيين حيث قضى أيامه الأخيرة، وكان مقربا من المستنصر الحفصي، ويهمنا الآن أن نشير الى الفترة التي قضاها في مكناس على إثر وشايات من خصومه الى السعيد الموحدي، وكان هذا النقل عامل تحول في اتجاهه السياسي، إذ أنه فقد الأمل في دولة الموحدين بالمغرب، وأصبح يتطلع الى آفاق الحفصيين في افريقيا منتظرا سنوح الفرصة لهذا الكاتب المشهور، ومن جملة ما يقصه علينا هنا بأسلوبه الطريق أنه أصيب يرمد في عينيه وعالجه طبيب في مدينة مكناسة، وهو يقص علينا هنا بأسلوبه الطريف، وأنا في هذا الحديث لا أتحدث حديث المؤرخ وإنما أتحدث كذلك حديث الاديب فلا بأس أن أقرأ عليكم بعض الفقرات من كلام ابن عمير المخزومي يقول مجيبا صديقه أبا الحسن بن فتران قاضي فاس يومئذ : والحال على ما يسره لولا بقية من الرمد آلت جربا ولم تبق في الكتابة أربا وقيل لاحيلة في طرده إلا بجوده، وحسبت أن الأمر قريب وأن المجتهد مصيب وإذ عنت لعالم لايدري إلا بقاء وقائم لايحسن إلا لقاء فإذا الدم يسيل والجسد يستحيل وهمزة الحديد لايدخلها تسهيل ونغمته في الجفن منها الخفيف والثقيل ومرت بي ساعة كلها فظاظة وفضاعة وأنا الآن في ورطة احتماء وثأطة مدت بماء والله يرزقنا... الخ.

و.ر .صف مكناس ويتحدث عنها في بعض شعره كما يقول : «ثم طوحت بي (متحدثا عن بعض الأندلسيين الذين جاءوا الى هذه المدينة) وبه الطوائح وأيئس من خير القليب الماتح والمائح، ورمت بي الأقدار هذا المغرب وعينه حمئة ... الى آخر الفترة الموحدية والواحد تعتريه فيه من الخطوب مائة، بعد أن شارف هناك نظرة العود وجاوز حضرة الجود بدا له أن يتبطن بعد الجنيم ويتنقل في هذا الاقليم، وصل في هذا البلد، فلولا درية بعضها من بعض وبقية من حسب خالص وكرم محض جادته سماؤها والأرض هامدة والآلف جامدة لكان أضيع من مغن وسط وأضيق مجالا من حية في سفط، ونعم ما قيل في ناس مكناسة بيض الظبا والظبا محمرة عادية وساحة الأنس أصبحت عافية لولا بنو العافية» (وبنو العافية الذين يشير اليهم هو البيت الكبير المعروف بمكناسة الذين ينتسبون الى الأمير موصل بن أبي العافية كما هو معروف)، يهمنا أن نشير الى أن هذا القاضي الذي أقام بمكناسة في تلك الحقبة التي أصبح المرينيون يبسطون فيها نفوذهم على الاقليم بدأت ممتازة حتى إنه قامت ثورة في مدينة مكناسة تزعمها عامل البلد فيما تقوله بعض المصادر وهو أبو الحسن علي بن العافية وقتل عامل الموحدين وأمر ابن عميرة أو ندب نفسه لكتابة البيعة الى الحفصيين من تونس، ويشير الى هذه البيعة كما تعرفون موجودة في البيان المغرب لابن عذاري في قسم الموحدين بنصها الثابت ومما جاء في هذه البيعة : ومكناسة هي التي ولجت في هذا الباب (يعني باب الولاء للحفصيين) وأسرجت وليل الخطوب مرخي الجلباب، ورأت فرجة الفرصة فنصت أي أسرعت، وقيد إليها في يد القهر وانزهها من عوادي الدهر فاقتصت (يشير الى ما فعله الموحدون في أثناء حصارهم لمكناسة قبل أن تستسلم لهم في ذلك الحصار الطويل المشهور، وعلم أنه لايصلح بعد التقصير عذره ولا تقبل بعد الفتح هجرة (يقصد أنها كانت سباقة)

وهنا أشير الى أن ابن أبي عميرة لم يكن يفرق في الحقيقة بين الحفصيين والموحدين، فالحفصيون هم فرع من الموحدين فليس معنى هذا وإنما كان يغلب فرعا من الأسرة على فرع آخر، وبطبيعة الحال فقد كان الحفصيون في هذه الحقبة في الأوج وفي الصعود، بينما كان الفرع الموحدي في الانحدار، وبعد هذه المحنة أو الأزمة التي مرت به بأن السعيد الموحدي خدم أو جاء الى مكناسة جالبا اليها بخيله وبرجله فتراجع أهل مكناسة أخرجوا الى السعيد من خارج الأسوار الأطفال ومعهم المتصوف المعروف ابن حزوزة مستشفعين به ضارعين في أن يسمح لهم، وكتبت بيعة جديدة بقلم الكاتب المكناسي المعروف ابن عبدون الذي كان معاصرا لابن عميرة.

نختم هذه السلسلة من أسماء الأندلسيين الذين سكنوا مكناسة ولماذا سردت هذه الأسماء ؟ لأن في الحقيقة لهذه الكمية ــ ونحن لم نحصها كلها ــ دلالة في أن يكون هنالك عالم مشهور أو كاتب كبير في مادة كالنحو مثل ابن الأبرش ليحرك الحركة العلمية والثقافية في مدينة صغيرة كمكناس يومئذ، نختم هذه السلسلة من أسماء الأندلسيين الذين سكنوا مكناسة أو زاروها الى نهاية العصر المرابطي ابن الخطيب فقد زار كما هو معروف مكناس وكتب عنها كتابة ممتعة وقال فيها شعرا جميلا، ووصف أحوالها العمرانية والاجتماعية في عصره وتحدث عن علمائها، وتبادل وإياهم الرسائل والاشعار كرسالة القاضي ابن أبي رمانة، وشعره الى الأديب جنان، ونقرأ كل هذا في كتابة نفاضة الجراب وفي مقامته البلدانية التي أطرى فيها مدينة مكناس.

هذه لمحات قصيرة عن الهجرات الأندلسية الى مكناس، وتم في مقابل ذلك هجرات مكناسية إلى الأندلس، فقد هاجرت مجموعات من أولاد مكناس التي تنسب الى هذه المدينة الى الأندلس، واستقرت فيما يعرف بالثغر الأعلى وكان لهم الفضل في المحافظة على الاسلام في شمال الأندلس الذي يعرف في اصطلاحهم بالجوف أي الشمال، وأسسوا هنالك الموقع المعروف في كتب التراجم مكناسة الجوف تمييزا لهم عن مكناسة الزيتون وعن مكناسة تارة، وينسب الى مكناسة الجوف هذه بعض الأعلام وكان من هؤلاء المكناسيين قادة وزعماء مذكورون في العهد الأموي ومنهم الحضرة أسرة بني الأفطس أصحاب مملكة بطليوس في عهد الطوائف الذين رثاهم ابن عبدون في قصيدته المعروفة :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الاشباح والصور

وما يزال موقع مكناسة موجودا على الخريطة الاسبانية الى اليوم عندنا بعض الاعلام المكناسيين الأندلسيين لانستطيع أن نقطع بأنهم ينتسبون الى مكناسة الجوف أو الى مكناسة الزيتون مثل المقرىء محمد بن فرج المكناسي الشاطبي شيخ القراء بهذه المدينة وحفيده محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن فرج المكناسي الذي له برنامج أسماء التعريف وأضمنه أسماء شيوخه، ومثل الكاتب البارع أبي محمد عبد الرحمان بن محمد السلمي المكناسي الذي قرأ بمرسية وكانت عارفا بضروب الآداب واللغات ذاكرا لأيام العرب ورجالها وفرسانها كاتبا بارع الكتابة جيد النظم حلو الأغراض في الجد والهزل، ينشىء الرسائل اللزومية دون نقل، وبلغ في التزام اللزوم مبلغ عجز فيه غيره وله رسائل جليلة منها القهقرية تقرأ بالرجوع الى القهقرى، والمفاخرة بين السيف والقلم وبين العدوة وبلاد الأندلس، ولكن هناك أعلاما آخرين نعلم بالقطع أنهم من مكناسة الزيتون، عاشوا في الأندلس مثل علي بن حمود المكناسي الذي جمع بين الجهاد في الأندلس والحج الى الديار المقدسة حيث أصبح إمام الحرم الشريف الى أن توفي سنة 573، ومثل أبي بكر بن عتيق بن علي المكناسي المعروف بالفصيح، تفقه بالخلافية في العراق ولاه الموحدون القضاء في الجزيرة الخضراء ومثل أبي عبد الله محمد

بن عبد الله الركلاوي المكناسي الذي رحل الى الأندلس ودرس بأشبيلية على القاضي أبي بكر بن العربي، وثمة أسرتان كانت لهما الحظوة عند الموحدين أولهما : الأسرة التي أشار اليها الأستاذ المنوني وهي أسرة بني زنغبوش أو الزغابشة الذين بادروا بالانضمام الى الموحدين، فكانت لهم الحظوة على أيامهم، وانتقل كثير منهم الى الاقامة بالأندلس واستقروا بها وكان لهم ذكر فيها، وقد ذكر عبد الملك في التفضيل والتكملة جماعة من هؤلا سواء منهم الذين استقروا بالأندلس أو الذين كانوا يتولون مناصب ووظائف في عهد الموحدين بالمغرب.

والأسرة الثانية ـــ قبل أن أختم ـــ هي أسرة بني عطوش، هؤلاء أيضا يبدو أن بعضهم انتقل الى شرق الأندلس وأقاموا فيها، إذ نجد في التكملة لابن الأبار ذكرا لربض ببلنسية يعرف بربض بني عطوش هذا ما أمكنني الان أن أذكره من خلال هذا العرض الذي ربما سيكون أكثر حجما وأعمق تحليلا عندما يقدم للطبع.

في التاريخ المنوغرافي
نموذج الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون

الأستـاذ. بنسالم حميـش
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الربـــاط

من نافلة القول التذكير بأهمية الدراسات المونوغرافية أو القطاعية في بناء التركيبات الجامعة وفي تقدم العلوم على اختلاف أصنافها ومراتبها. ذلك أن تقصي أحوال الأجزاء وأخبارها هو الشرط الأكيد أو الممر الضروري لمعرفة الكليات والاحاطة بها علما.

على ضوء هذه المقدمة يمكننا النظر الى النموذج الذي سنعرض له وتحليله كنموذج يقدم المدينة — وهي بالمناسبة مدينة مكناس — كخليه أو ميكروكزم من شأنه أن يعكس التاريخ الكلي ويتفاعل معه.

صاحب الرقيقة هو بن غازي العثماني، المكناسي المولود سنة 814 هـ/1437 م والفاسي الاقبار سنة 919 هـ/1513 م. وهو ينتمي الى أسرة منحدرة من قبيلة كتامة الهبطية. وقد عاصر بن غازي هذا نهاية المرينيين وقيام الوطاسيين كولاة تم كسلاطين مع محمد الشيخ ومحمد البرتغالي. (وتولى هذا الأخير السلطة في السنة التي توفي فيها بن غازي).

هناك شكوك حول نسبة هذه الرقيقة **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** الى بن غازي، أولا لأن هذا المؤلف لم يعود الناس على الكتابة البسيطة المستسهلة، ثانيا لأن هناك في الصفحة 12 من النص إشارة الى ابن زغبوش كواضع لتقييد ضائع يقول بن غازي أنه نقل عنه، ثالثا لأن بن غازي أصلا فقيه وليس مؤرخا... المهم في تصورنا ليس هو صحة انتساب هذه الرقيقة الى مؤلف بعينه، بل إنه مضمونها وإفاداتها التاريخية. لذا لن نتوقف عند ترجمة ابن غازي اللهم إلا مذكرين بعلم الرجل الفقهي وبروزه في المالكية والخليلية وفي المعارف الاسلامية عامة، بحيث أنه بعد رحيله عن مكناس مدينة مولده الى فاس على إثره مشادة بينه وبين والي مكناس الوطاسي سنة 891 هـ كانت له، بالاضافة الى مهمة التدريس بالقروين، رئاسة الهيئة العلمية التي أضفت عليه لقب شيخ الجماعة... كما أن مترجميه : ابن عسكر (**في دوحة الناشر**) وأحمد بابا (**في نيل الابتهاج**) والكتاني (**في سلوة الأنفاس**)، يذكرون أنه شارك في عدة عمليات عسكرية ضد النصاري على الساحل الأطلسي، آخرها في ثغر أصيلا...

بعد هذا الاستطراد، نأتي الى الرقيقه (بغض النظر عن هوية صاحبها) فنلاحظ أن أهم الاحالات فيها هي الى **نفاضة الجراب** لابن الخطيب **وكتاب العبير** ... لابن خلدون **والتقييد الضائع** لابن زغبوش وأرجوزة **نزهة الناظر** لابن جابر. أما الافادات في متنها فيمكن تقسيمها على النحو التالي :

أولا : جغرافيا وسكانيا :

قبل الفتح الاسلامي كانت مكناسة دار مجوس ونصارى، ويقصد بهم المؤلف الرومان، وحاضرتنا إذ داك وليلي بأرض خيبر من ناحية جبل زرهون. وأما المدينة في حد ذاتها فلم تكن في القديم إلا مجموعة من الحوائر المتفرقة وهي تاورا وبنو عطوش وبنوبرنوس وبنو شلوش وبنو موسى. وأهم هذه الحوائر **تاورا** لأنها أولا تقع مع الحوائر الأخرى على الضفة الغربية من واد فلفل أو **بوعمائر** وكذلك على ضفته الشرقية، كما أنها، ثانيا، أقرب الحوائر الى المدينة القديمة (القائمة الآن) من جهة باب البرادغيين... ومن الحوائر المهمة أيضا **بنوزياد وورزيغة.**

أما سكان هذه الحوائر فغالبيتهم أصلا من قبيل مكناسة الزناتيين (وفخد منهم بتازة) إلا سكان ورزيغة فأصلهم من الروح (1) وسكان قرية الأندلس قرب حارة بني زياد وهم أندلسيون وافدون.

وأما في موضوع الغراسات فإن بن غازي يأتي ببعض التفاصيل المهمة حول نوعية وقيمة الفواكه الصيفية والخريفية والورد والمزارع ومسارح الزيتون، وهي كلها تنتعش بفضل مياه بوعمائر وعيونه وما كان منه محولا في شكل جداول وسواقي (كما في حارة بني زياد البعيدة عن الوادي). ومن جملة الافادات الجيدة في هذا الباب ما يذكره المؤلف عن خمور مكناسة التي كان يستخرج أجوادها من عنب المترويءي بحارة بني زياد المذكورة. ومما يقول بن غازي عن هذا العنب : «وهو عنب أبيض شديد الحلاوة ولا سيما الأنثى منه ويذكر أنه من وقته لايستحيل خمرا إلا عند **اعتدال الزمان**. ومن غلوهم فيه أنهم يقولون أنه **يستصبح بخمره** (ص 4). ولا تقول الرقيقة شيئا عن مصير هذا الخمر من حيث التسويق والاستهلاك....

غير أن هذه الغراسات جميعها تتعرض للتلف بحكم القلاقل والتقلبات السياسية. وبهذا المعنى يكتب ابن غازي : «وقاد باد زيتون مكناسة لهذا العهد (النصف الثاني للقرن التاسع) **إلا قليلا بما توالي عليها من الفتن** والبقاء لله وحده. (ص.3).

ثانيا ــ على الصعيد السياسي والاجتماعي

سياسيا : تأتي الرقيقة بإفادات حول مواقف مكناسة من الدول التي أتت الى المدينة راغبة فيها :

1 ــ **مع الادارسة** : لم تكن هناك إلا وليلة التي تسكنها قبيلة أوربة، ونعلم الدور الذي لعبته هذه القبيلة في نصرة ادريس الأول وقيام الادارسة ابتداء من 172 هـ.

2 ــ **مع المرابطين** : بدأت المدينة تنشأ، بحيث أن الادريسي في **نزهة المشتاق** يقول بأنه لم ير أعمر منها. ويسجل بن غازي من جهته : «وكانت هذه الحوائر كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار. وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغيد ونعمة تامة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين بلاد المغرب **وأخمد الله تعالى بسيوفهم نار الفتنة** البربرية فانقطعت مطامع رؤوس النفاق من بربر المغرب (ص 5). وهذه الجملة الأخيرة تفيد أن فتح المرابطين تلك الحوائر لم يتم إلا بالحرب وحد السيف ... والجدير بالاشارة أن

إجراء تحصين تلك الحوائز لم يبدأ إلا مع المرابطين إبان ظهور الخطر الموحدي، إذ بنى المرابطون على غرب وادي بوعمائر حصن تاجدارت (أي المحلة أو المجتمع بلسان البربر) وبرج ليلة الذي لاندري أين كان موقعه بالذات...

3 — **مع الموحدين** : وهنا لابد من وقفة، أبدت مكناسة بزعامة وليها المرابطي يدر بن ولجوط مقاومة شديدة جريئة لحصار الموحدين الذي دام أربع سنوات على أقل تقدير. ولم ينته إلا بسبب تدهور أحوال المحاصرين واضطرار الناس الى أكل خسيس الحيوان وكذلك بسبب لجوء الموحدين الى الخديعة واستعانتهم بقبائل زرهون الطامعة في التحلل من المغارم.

لنسرد باختصار لوحتين مأساويتين في قصة غزو الموحدين لمدينة مكناس، وذلك للتأكيد على ثابتين في تاريخ المغرب الوسيط، **وهما من جهة أن مؤدى التعارض المذهبي كان في الغالب الأعم التفكير المتبادل، ومن جهة أخرى أن الوجه الآخر لممارسة السياسة كان هو الموت.**

اللوحة الأولى : «وكان أهل الحصن وأهل الحوائز يجتمعون الى تلك السوق (سوق الغبار) يوم كل أحد، فبينما هم يوم أحد قد اجتمعوا وكملوا بالسوق المذكورة وهي بأرض مرتفعة إذ أشرفوا على خيل مقبلة اليهم في زي **المرابطين** : اللثم والغفائر القرمزية والمهاميز التاشفينية والسيوف المحلاة والعمائم ذوات الذؤابات. فلما رأى القول هذا الزي قالوا : تقوية السلطان جاءتنا وسارعوا للقائهم فرحين بهم وهبطوا عن آخرهم. فلما خرجوا عن منع الحصن والسوق حسر الفرسان اللثم ونادوا : **أبابايا المهدي** وكان ذلك شعارهم وأحالوا السيوف عليهم ولم ينج واحد منهم فيما ذكر وكانوا آلافا رحمهم الله. ومازال الناس لهذا العهد يتحدثون أن المقابر التي عند باب مسجد السوق القديم هي مقابر شهداء، فلعلهم هم والله تعالى أعلم. **وكان الموحدون حينئذ يسمون الناس المجسمين ويقاتلونهم قتال كفر وكان الناس يسمونهم خوارج.** ولم تزل الغارات تشن عليهم فيقتل الرجال ويسبى النساء والذرية وتستباح الأموال، والتضييق يتوالى والمكائد تدبر والحيل تدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم» (ص 6).

اللوحة الثانية : «ومن الأخبار التي كانت مشتهرة عند أهل الوطن أنه كان بأحواز تاورا شجرة كبيرة من النشم الأسود المسمى بالتغصاص باشمام الصادين زايين وربما يكتبه المتفاصحون التقصاص بقاف وصادين. فبينمنا الناس قد انبسطوا لتدبير أشغالهم ومعايشهم إذ فاجأتهم الخيل وأحاطت بهم فلجأوا الى تلك النشمة وظنوا النجاة فيها، فتعلق بها منهم خلق كثير وضم الموحدون الحطب لتلك الشجرة وأضرموا النيران حولها فسقط كل من كان فيها واحترقوا عن آخرهم واحترقت النشمة، وبقيت منها مدة من الزمان وكانت عند أهل الأوطان من جملة مواعظ تلك الفتنة» (ص 6 — 7).

والجدير بالاشارة أن صاحب **الروض الهتون** يذكر تاريخ دخول الموحدين الى مكناسة بعد حصارها الطويل — وذكر التواريخ من خصال المؤلف الحميدة — وهذا التاريخ هو 545 هـ.

4 — **مع المرينيين** : كان فتح مكناسة أسهل لأسباب أهمها في استخلاصنا.

أ) إن ذلك الفتح تم بدءا، كما ينقل بن غازي عن ابن خلدون، بواسطة أمر بمبايعة السلطان الحفصي بتونس وجهه أمير المرينيين إلى أهل مكناسة، مصطنعا بهذا **استمرار المشروعية** المجسمة في الحفصيين ورثاء الموحدين الشرعيين.

ب) إن مكناسة، كما يسجل ابن غازي «اختلت **بجور العمال** وأخذت في النقص من سنة كائنة العقاب وكانت في صفر من سنة تسع وستمائة» (ص 12)

ج) إن بني مرين، وهذا مالم يذكره ابن غازي، بالاضافة الى **القرابة الزناتية** التي تربطهم بقبيل مكناسة، **لم يأتوا ببدعة عقدية،** كما فعل الموحدون الأوائل.

د) إن **ثورة علي ابن العافية** على عامل الموحدين بمكناسة، وإن فشلت نسبيا، ساهمت في تمديد المدينة لتمكين بني مرين منها.

أخيرا لابد من ملاحظة تؤكد ماقد نسميه بالطابع اللاتراكمي أو «التسالبي» في تاريخ التعمير المغربي، وهي أن مع قيام المرينيين : «أتت، كما يسجل صاحب الرقيقة بالحرف، الفتنة على الحوائر المذكورة كلها، ولم يبق منها إلا الصوامع والجدارات العتيقة، واخر ماخرب منها ودثر ورزيغة بعدما كانت هذه الحوائر شاركت المدينة المذكورة بعد بنائها في كثرة العمارة، والبقاء لله وحده» (ص 12).

- (**اجتماعيا**، هناك طي **الروض الهتون** إشارات واضحة الى **واقع التمايز المجمتعي** الذي يظهر في عمقه وحدته المأساوية أيام الفجائع والحصارات ونمثل على ذلك بإشارتين دالتين فقط :

أولهما هي أن العامل المرابطي يدر بن ولجوط السالف الذكر لما أقام حصْن تاجدارت (وهي المدينة القديمة اليوم أو جزء منها) فإنه لم ينقل اليه حسب تسجيل ابن غازي إلا «وجوه الناس وأغنياءهم، ولم يترك من الأقوات شيئا إلا نقله اليها وترك جمهور الناس في مواضعهم» (ص 6)، أي عرضة لغارات المحاصرين، كما أتى في اللوحتين السابقتين.

ثانيهما إشارة مهمة جدا حول ما يمكن تسميته في تاريخ الغصب **بداء القشاشين ودواء الترك**. ذلك أن الموحدين لما دخلوا مكناسة وأعملوا في سكانها العزل السيف لمدة يوم كامل : «بقيت المدينة خالية إلا من فل الموت قتلا وجوعا، وتفرق ذلك الفل وانتثر عقد نظام الناس وجلا بعضهم واشتغل بعضهم بطلب المعايش وتعلقوا بالحرف والصنائع. وتملك الموحدون البلاد والأموال **وصار الناس عمارا في أملاكهم** يؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية والخريفية وثلثا غلة الزيتون. وكانت العادة إذا بدا صلاح الغلات يباع حظ المخزن منها حارة فحارة. وكان المشترون لها قوما لاخلاق لهم، يقال لهم **القشاشون**. فتستطيل أيديهم على حظوظ الرعية ويضيقون عليهم حتى يبيعوا منهم حظوظهم بثمن بخس أو يشتروا منهم حظ المخزن غاليا. فكان الناس من ذلك في جهد عظيم ومحنة شديدة لايتجرأ أحدهم أن يقطف من ملكه حبة واحدة. ثم قوطعوا بعد ذلك على الفواكه وخفف عليهم في شركة الزيتون. **وكان السبب في المقاطعة والتخفيف فرار الناس عنها بسبب الجور وتركها حتى تبورت**، فصلحت بسبب المقاطعة أحوال الناس ونمت أموالهم وامتدوا في الأحياء والغراسات....» (ص 10).

بالاضافة الى هذه الاشارات المفيدة، هناك في **الروض الهتون** أخبار عن أهم الخدمات والأعمال ذات النفع العمومي والتي تمت بصفة خاصة مع الموحدين والمرينيين، وهي على الاجمال جوامع وسقايات وحمامات ومدارس تعليمية وقضائية وقناطر وأبواب.... فمنها ما تهدم وقامت فوقة الغراسات والعرصات، ومنها مازال ماثلا ويعرفه المكناسيون اليوم اسما وموقعا، فلا حاجة الى ذكره وتعداده....

ينتهي الروض الهتون بالاشارة الى محنة مكناسة وعذابات سكانها إبان انهيار المرينيين مع السعيد بن

عبد العزيز (أي أبي السعيد الثالث) وتسلط الثائر الشيخ اللحياني الورتاجني وقائده أيوب بن يعقوب على المدينة لمدة عشرين عاما، أي طيلة العقدين الثالث والرابع للقرن التاسع، وذلك الى حين خلاص مكناسة على يد الأمير أبي زكرياء الوطاسي. وهنا تنتهي الافادات السياسية عن مدينة مكناس في **الروض الهتون** ويبدأ الأخبار عن الأسر المكناسية ومنها أسرة الزغابشة وعن رجالات المدينة في ميدان الفقه والعلم والقضاء.

رجاؤنا في آخر هذا العرض السريع **للروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** أن تنضاف هذه الرقيقة الى مجمل الكتابات الشاردة الأخرى في مصنف حول تاريخ مكناس العام، وذلك حتى تتعمق معرفتنا التاريخية بالحاضرة الاسماعيلية الكبرى وتتيسر أسباب العمل فيها ولصالحها حاضرا.

الوجود المغربي في المشرق
من خلال تراجم أعلام مكناس في مصادر مشرقية

الأستاذ حسن الصادقي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الربـــاط

بسم الله الرحمن الرحيم
السيد الرئيس، أيها الحضور الكريم
باديء ذي بدء أتقدم بالشكر الى الذين سهروا على إعداد وتنظيم هذا اللقاء في رحاب هاته الكلية.

وماذا يمكن للمرء أن يقول في مثل هذا اللقاء، إلا أن يعترف لهاته الحاضرة ولرجالاتها بالتقدير والاعجاب.

وإذا كانت مكناسة حاضرة معنا وممثلة في حضور أبنائها بيننا وممثلة كذلك في شخص شيخنا الفقيه العالم الرحالة الأستاذ محمد المنوني أبقاه الله وأبقى جميع شيوخ العلم ذخرا للباحثين والمثقفين، فإنها ممثلة كذلك في أعلامها الذين نبغوا في مختلف العصور ومن مختلف الميادين كابن غازي وابن القاضي والمولى اسماعيل وابن زيدان وغيرهم من الاعلام الذين تواجدوا في المغرب والمشرق.

إذ خلال تناولي بالبحث في موضوع التراجم المغربية الدفينة في العصرين الوسيط والحديث* استرعى انتباهي وجود لأعلام من مكناسة رحلوا الى المشرق وغيره من أقطار العالم الاسلامي واستقروا بصفة نهائية هناك.

ويعتبر الكشف عن هؤلاء الاعلام من بين غايات هاته الدراسة نظرا لما تسمح لنا به نصوص تراجمهم من عرض الجديد في حياة هؤلاء الاعلام بقي مغمورا في بطون الكتب.

كذلك هناك غايات أخرى تتجلى فيما يمكن استخراجه من هاته النصوص من معطيات متنوعة ثقافية واجتماعية واقتصادية ودينية...

(*) رسالة لنيل د.د.ع في التاريخ ـ كلية الآداب بالرباط تحت إشراف الأستاذين محمد زنيبر ومحمد المنوني نصوصها مرقونة.

هاته النصوص التي استخرجناها إذن هي نماذج لما أسعفنا البحث وعثرنا عليه، وإلا فإن التراجم لأعلام مكناس أكثر من هذا العدد الذي استخرجناه.

تواجد المغاربة بشكل أو بآخر في عدد من أقطار العالم الاسلامي ومثل ذلك أحد وجوه العلاقات بين المغرب الأقصى وباقي الأقطار الاسلامية الأخرى بصفة عامة والمشرقية منها بصفة خاصة، وكان لهذا التواجد أسباب ونتائج.

وطبيعي أن يتجه الباحث أولا نحو المصادر التي ترشده الى هذا التواجد وتوضح بعض صوره ودوافعه وما ترتب عنه، وتعطيه بعض الاجابات عن تساؤلاته.

وكما هو معلوم فالمصادر متنوعة ومتعددة خاصة كتب الحوليات والرحلات، لكن خروجا عن التقليد المتبع في استخدام مثل هاته المصادر، ارتأيت أن أعتمد بالأساس على نوع آخر من المصادر ويتمثل في كتب التراجم المؤلفة خارج المغرب، المشرقية منها بالخصوص وهذا ليس من مبدأ خالف تعرف، ولكن محاولة مني لفت انتباه الباحثين والمثقفين الى ضرورة الاهتمام بكتب التراجم وقراءتها من جديد، فعلى أي أساس تم اختياري لهذا النوع من المصادر ؟

التراجم والتاريخ

قبل محاورة هذا السؤال، لابد من الاشارة أولا الى مدى الارتباط الموجود بين التراجم والتاريخ، وهذا ماجعل من التراجم نوعا آخر من التاريخ أطلق عليه اسم «كتب تواريخ الرجال». وساهمت بصفة خاصة في كتابة التاريخ الاسلامي منذ بدايته (وبذلك أصبح التاريخ في أذهان كثير من المسلمين مرادفا تقريبا للتراجم وسير الرجال) (1) ولا يجب إغفال ما لكتب التراجم من أهمية في مجال البحث التاريخي. إذ أنها تشكل وثائق حية لعصر ما لما تتضمنه من معلومات متنوعة. ودراستها تعطينا قابلية معرفة التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي والديني لمنطقة من المناطق أو بلد من البلدان (لأن كتب التراجم لا تخلو من استطرادات تتعلق بجوانب من حياة البلاد الداخلية) (2) وهذا ماجعل البعض يقول : «إن الترجمة قد تلخص فترة كاملة» (3) وليس بمقدور المثقف عامة والمؤرخ خاصة، الاستغناء عن كتب التراجم بأية حال من الأحوال، إذ أن الوثائق والنصوص لايخلو منها ذكر علم من الأعلام، ومفتاح حل بعض الغموض الذي تتضمنه النصوص يتمثل في كتب التراجم «لأن الكشف عن الأعلام التي يكثر ورودها في النصوص والوثائق يزيد هذه النصوص والوثائق وضوحا ويقربها من الأفهام» (4).

وبعد فعلى أي أساس جاء هذا التبني لكتب التراجم وما هو الدافع الذي جعلني أعتمد عليها بالذات ؟

للاجابة على ذلك يجب التذكير بالمكانة والأهمية التي تكتسيها كتب التراجم المشرقية في الدراسات التاريخية.

مكانة كتب التراجم المشرقية :

بعد الاطلاع على كتب التراجم المشرقية وقراءتها وجدنا أن أهميتها تتجلى في النقط التالية :

1) إنها تعتبر من المصادر الدفينة لتاريخ المغرب لأنها ألفت خارجه.

2) أنها تمكن الباحث المغربي من استخراج تراجم مغربية دفينة وشبه مجهولة خاصة تراجم الذين وجدوا بالمشرق واستقروا به وعاصروا مؤلفي كتب التراجم.

3) أنها تضم إفادات وتمدنا بمعلومات عن الجانب الثقافي والاجتماعي والديني والاقتصادي والعمراني... الخ. فهي تحتفظ لنا بأسماء الكتب التي ألفها المغاربة في المشرق والعلوم والآداب التي درسوها أو درّسوها وأسماء الشيوخ والتلاميذ والمدارس والزوايا والمدن التي استقروا بها وزاروها والطرق التي سلكوها...

4) إنها تعطينا بعض الاجابات عن العلاقات بين المغرب والمشرق بل والعالم الاسلامي ككل، نوعيتها، ودوافعها، نتائجها. وهذا على سبيل المثال لا الحصر إذ أن كل باحث يجد ما ينشده في نصوص هاته التراجم.

وانطلاقا من هاته الأهمية وجهت اهتمامي إلى هذا النوع من المصادر وتمكنت من الخروج بنصوص تراجم تهم المغرب الأقصى، وكان من بينها أعلام من مكناس وجدوا في المشرق في العصر الوسيط والعصر الحديث.

نصوص تراجم أعلام مكناس في المشرق : (5)

يتمكن الباحث في كتب التراجم المشرقية من استخراج نصوص تراجم لاعلام من مكناس خاصة والمغرب عامة.

والجدير بالملاحظة أن بعض النصوص لاتعطينا المعلومات الجغرافية الكافية. خاصة مكان ولادة المترجم له. بينما تحدد مكان الوفاة بل وحتى مكان الدفن لأنها تكون بالمشرق.

وفيما يخص أعلام مكناس نجد :

- إما إشارات الى مكان الولادة بمكناسة الزيتون.
- أو إشارات الى نسبة المترجم له إلى مكناس.

والنصوص التي استخرجناها هي للآتية أسماؤهم :

- علي بن عبد الله المكناسي ت 571 هـ.
- محمد بن عبد الله المكناسي ت 592 هـ
- منصور بن حمزة المجاص المكناسي بعد 595 هـ
- أبو عبد الله محمد المكناسي ت 656 هـ
- محمد بن علي المكناسي ت 657 هـ
- عبد الملك بن علي المكناسي ت 771 هـ
- محمد بن عبد الرحمن المكناسي ق 9 هـ
- يحيى بن يوسف المكناسي ق 9 هـ
- عبد الرحمن بن أحمد المكناسي تـ 1085 هـ
- حسن بن أحمد المكناسي ت 1101 هـ
- محمد بن أحمد المزطاري المكناسي ت 1107 هـ.

ماهي الحصيلة التي يمكن الخروج بها من خلال قراءتنا لنصوص هاته التراجم ؟

إن القارىء لنصوص التراجم المغربية والمكناسية منها، ليخرج بانطباع أولي هو الوجود الفعلي والواضح لشخصيات مغربية في عدة أقطار من العالم الاسلامي عامة والمشرق خاصة.

والحديث عن هذا الوجود يدعو بالضرورة التي التساؤل عن أسبابه ودوافعه إذ لايذكر وجود مغاربة في المشرق دون أن يتبادر الى الذهن البحث عن أسباب وجودهم.

وقبل طرح هاته الأسباب والدوافع يجب الاشارة إلى أن الحدود الطبيعية والسياسية لم تمنع حركة التنقل بين مختلف أقطار العالم الاسلامي سواء بالقوافل البرية أو بالمراكب البحرية ورغم طول مدة الرحلة ومخاطرها.

I ـــ أسباب ودوافع الوجود المكناسي، والمغربي عامة في المشرق :

يمكن استنتاج هاته الأسباب بالبحث في نصوص التراجم، وحتى تكتمل الصورة طعمت تراجم المكناسيين، بأمثلة من تراجم غيرهم من المغاربة الذين تواجدوا في المشرق.

وعليه فقد لايختلف اثنان حول هاته الأسباب، مع ملاحظة أنها مرتبطة ببعضها البعض، ومتداخلة فيما بينها. ويمكن أن نجمل هاته الأسباب والدوافع في العوامل التالية :

1) العامل الديني :

كانت بلاد الحجاز والأماكن المقدسة، ولا تزال، المقصد الأول لكل مسلم تشد اليها الرحال من كل حدب وصوب، لاداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد أداء مناسك الحج والزيارة، كان الحاج حسب رغباته وقدراته، يقصد المزارات الدينية الأخرى كالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وقبور الأنبياء والصحابة والاولياء في الشام ومصر وغيرها.

ومن خلال قراءة نصوص تراجم أعلام مكناس يتبين لنا بوضوح أثر العامل الديني كدافع للرحلة، حيث كان المكناسيون، والمغاربة على العموم، يقبلون على الذهاب الى الأماكن المقدسة والمجاورة بها حتى إن البعض أدركته المنية في تلك الديار ودفن فيها (أنظر الجدول رقم : 1).

جدول 1 : جدول الاشارات المستخرجة من نصوص التراجم عن الأسباب الدينية :

الترجمة	الاشارة للسبب	ضبط في المصدر
محمد بن علي بن عطية المكناسي	سافر وساح وجاور بمكة دفعات	التقي الفاسي : العقد الثمين 2 : 159
علي بن عبد الله المكناسي	حج.وجاور و أم بالحرم توفي بمكة 573 هـ	نفس المصدر 6 : 181
يحيى بن يوسف المكناسي	حج وزار المدينة وأقام بالبلاد الشامية سنين	السخاوي الضوء اللامع 10 :265

عبد الرحمن بن أحمد المكناسي	حج سنة 1043 هـ وجاور بمكة ثم رحل إلى اليمن لزيارة من بها من الأولياء	المحبي خلاصة الأثر 2 :346
نور الدين حسن بن أحمد المكناسي	قدم مصر سنة 1074... وحج	الجبرتي : عجائب الآثار 1 : 173
محمد المزطاري المكناسي	رحل من دمشق إلى مكة المشرفة وتوفي بها ت (1107)	المرادي : سلك الدرر 4 : 34
علي الرهان السجلماسي ابن الحفيد	قدم من بلاده إلى الحج	ابن حجر : الدرر الكامنة 2 : 451
علي بن عتيق الفاسي	رحل من بلاده للحج	ابن حجر : الدرر الكامنة 3 :152
علي بن العربي السقاط الفاسي	ورد مصر حاجا	الجبرتي : عجائب الآثار 2 : 348.

2) العامل الثقافي :

يعتبر هذا العامل من الأهمية بمكان، فقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والرحلة في سبيله حسب الحديث «اطلبوا العلم ولو في الصين».

ومن الملاحظ أن العامل الثقافي مرتبط بالعامل الديني فمع أن موسم الحج أولا وقبل كل شيء موسم ديني، إلا أنه يعتبر كذلك ملتقى ثقافيا إسلاميا يجمع نخبة طيبة من العلماء، وإن جاز التعبير. فهو جامعة ثقافية إسلامية موسمية. يتسنى فيها للحجاج، الحضور العضوي في هذا الملتقى. ولا يقتصر هذا الحضور على النخبة المثقفة فقط بل يشمل حتى غير المثقفين الذين أتوا برسم الحج، إذ أن حلقات الوعظ والارشاد والحديث وجلسات العلم والأدب كانت تعقد في رحاب المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، يحضرها كل من يرغب في التفقه في دينه، وكل من يريد الاستزادة ولقاء فطاحل العلماء.

كما أن المرء يتمكن في هذا الموسم من الحصول على أخبار الكثير من البلاد الاسلامية، فهذا المحبى مثلا يقول : «فلحا من الله علي وله المنة والمنحة التي لايشوبها كدر المحنة بالمجاورة في بيته المعظم والالتفاظ من بحار أهليه الدر المنظم تلقيت من الأفواه تراجم لأناس بسيرة» (6).

هذا ولا يجب إغفال النقط التالية :

1) إن طرق التدريس المعروفة، حتمت على طلاب العلم الرحلة لحضور حلقات الدروس والسماع من رواة العلم وكتابة من يملي عليهم وطلب الاجازة منهم.

2) إن مدارس الشرق سلكت عامل جذب لطلاب العلم وأساتذته، إما للدراسة أو التدريس.

3) إن مقدار العالم لايعرف إلا بعدد الشيوخ الذين التقى بهم وأخذ عنهم أو أخذوا عنه أو تبادل الاجازة معهم «إذ تحتل فكرة ضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس إليه أهمية كبرى في التعليم الاسلامي» (7).

4) إن الراغب في طلب العلم يجد المكان الذي يأوي إليه في المسجد والمدرسة والزاوية والرباط، بل

وحتى في دور شيوخ العلم.

وقد ذكر أبو عبد الله ابن مليخ في رحلته الحجازية أن بالجامع الأزهر خمس رواقات للغرباء من حملة القرآن ومن يتعاطى العلم من أهل المشارق والمغارب تجرى لهم الأقوال من كل الأوقات. (8).

ونجد هاته الأروقة كذلك في القدس ودمشق، الى جانب الأوقاف التي حبست على طلاب العلم من المغاربة.

وأوضح مثال للدافع الثقافي أن الأديب الشاعر حسين بن قاسم الدرعي يصرح لمعاصرة القاضي عبد الكريم الطبراني حينما سأله عن سبب تغربه وقدومه إلى دمشق، قائلا «كان في نفسي مشاهدة أفاضل الديار الدمشقية والتعبد بالجامع الأموي حتى بلغني الله الأمل» (9).

ولم يتقاعس الشيخ محمد بن أحمد المزطاري المكناسي عن الرحلة إلى دمشق لتعليم بعض شيوخها، ونشر الطريقة الشاذلية (10).

ومن خلال الألقاب العلمية التي حملها أعلام مكناس يظهر أثر العامل الثقافي كدافع لرحلتهم إلى المشرق لطلب العلم ولتعليمه.

3) العامل الاقتصادي :

ارتبطت التجارة الموسمية بفترة الحج خاصة، حيث كان التجار وبعض الحجاج يحملون معهم البضائع والسلع المغربية التي يكون عليها إقبال في البلاد التي يمرون بها، ويجلبون في أيابهم السلع المتنوعة التي تزخر بها أسواق الشرق.

وكانت التجارة في موسم الحج شيئا طبيعيا وضروريا للحاج أو لطالب العلم أو للمسافر عامة، إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة والاقامة.مع العلم أن مده الرحلة قد تتجاوز الفترة المحددة لها.وعليه فالبضائع كانت تسمح للمسافر الحصول على نقود البلاد التي يمر بها إذا لم تكن له ذخيرة من النقود الذهبية أو الفضية.

فهذا أبو سالم العياشي يكتب رسالة إلى صديقه ابن العباس أحمد بن سعيد الذي عزم على الرحلة إلى الحج. ومن خلالها نرى أن التجارة تداخلت مع الرغبة في الحج، كما أنها تزودنا ببعض المعلومات من البضائع المتاجرة فيها.

ومما جاء في هاته الرسالة :

«فإذا أخذت في تجهيز أمرك فاشتر شيئا من الجلد الأحمر فإنه نافق أمامك وستصل الى قرى لايعبأون بالذهب ولا يعرفون له قدرا ولا يستخرج الانسان من عندهم ما يحتاج اليه من زاد وعلف دواب وتبن وحطب إلا بما يسميه الحجاج العطرية، وانفع ذلك القرنفل مع شيء من الكحل والسواك والزعفران والجاوي والمشط وشيء من الابروالكاغد والجناوى الصغار والألواح فلا تخل نفسك من كل ذلك ما يطلب من بلد لايطلب في غيره... (11).

ويضيف العياشي قائلا : «فإن وجدت التبر الجيد فهو أولى لك من المطبوع... واشتر من هناك من

فجيج ما تحتاج إليه إلى بوسمغون من علف.... فإذا وصلتهم الى بسكرة... بع هناك ما بقي عندك من الجلد الأحمر واشتر ما تحتاج اليه من جلود البقر... وحيثما وجدتم السمن رخيصا في تلك النواحي فاشتروه ... وكل ما وجدتم من الابل الرخيصة من بسكرة إلى طرابلس فاشتروها واشتروا من جربة ما تحتاجون اليه من زبيب وزيت واكثروا من شراء الثياب من هناك... واجعل زادك اربع أنواع دقيقا ومحمصة وبشماطا وبسيسة وهي الزميت... وإن وجدت شيئا من الروز ومن الشعرية فاشتروه... وخذ معك من اطرابس شيئا من الخل والبصل والحوامض... (12).

مما يؤكد أن التجارة كانت ضرورية للحاج.

وكان التجار يستغلون فرصة خروج ركب الحاج المغربي ليجهزوا حمالهم ودوابهم وليرفقوا هذا الركب في الطريق.

وليس معنى هذا أن التجارة مع المشرق كانت محدودة بموسم الحج، بل إن قوافل التجار كانت لاتتوقف طيلة السنة إذا سمحت بذلك الظروف واستتب الأمن.

وإذا كانت نصوص تراجم المكناسيين بخيلة علينا بالمعلومات التي تتعلق بالتجارة والتجار، فإن في نصوص تراجم بقية المغاربة مايشير الى دور العامل الاقتصادي كحافز للرحلة الى المشرق والأقطار الاسلامية الأخرى. وهذا يتمثل في ظهور أسر مغربية اشتغلت بالتجارة وكونت لها مركزا مرموقا في البلاد التي استقرت فيها (13).

وحسب مخطوطة مشرقية استخرجت أكثر من ستة عشر أسرة مغربية اهتمت بالتجارة تنتمي الى مدن فاس وسلا ومراكش ومنطقة سوس (14).

(انظر الجدول (2) بيوتات مغربية اشتغلت بالتجارة في المشرق).

جدول (2) :

بيوتات مغربية اشتغلت بالتجارة في المشرق — مخطوط تحفة المحبين للانصاري. ك 1221

الترجمة	نص الاشارة	ضبط في المصدر
بيت حلابة الفاسي	قدموا المدينة المنورة تجارا من الهند في حدود سنة 1115 هـ وكانوا يتعاطون البيع والشراء والتجارة.	ص : 116
بيت رمضان الفاسي	أصلهم الخواجة رمضان... قدم المدينة المنورة سنة 1070 هـ وكان رجلا كاملا يتعاطى التجارة.	ص : 152
بيت الحاج عبد السلام السلاوي	قدم المدينة المنورة سنة 1170 هـ وهو صاحب أموال عظيمة ويتعاطى البيع والشراء ويسافر الى جدة المعمورة للتجار.	ص : 182
بيت الحاج عمر القيطي الفاسي	قدم المدينة المنورة في سنة 1120 هـ... وكان يتعاطى التجارة وبيع القماش.	ص : 239
بيت الحاج علي النعبي الفاسي	قدم المدينة المنورة سنة 1120 وكان... صاحب ثروة عظيمة وسافر الى الهند لأجل التجارة	ص : 251
بيت الحاج محمد الابار الفاسي	قدم المدينة المنورة في حدود سنة 1138 وكان صاحب ثروة يتعاطى التجارة	ص : 47

بيت الحاج عبد السلام الحريشي الفاسي	قدم المدينة المنورة في سنة 1141... وكان يتعاطى البيع والشراء والتجارة	ص : 115
علي الدفاق السلاوي	(قدم سنة 1158) يتعاطى أنواع التجارة	ص : 140
بيت الحاج محمد ميارة الفاسي	قدم المدينة المنورة وكان رجلا مباركا، عاقلا وكان يتعاطى بيع القماش في دكانه في الحدرة	ص : 224
بيت الحاج عربي المشاط الفاسي	قدم المدينة المنورة سنة 1140... وكان صاحب ثروة عظيمة	ص : 260
ولده محمد المشاط الفاسي	سافر الى الديار المصرية مرارا لأجل التجارة	ص : 261
بيت الحاج أحمد جيوش الفاسي	قدم المدينة المنورة في سنة 1146 وكان... يتعاطى التجارة	ص : 102
الحاج محمد الغزواني المراكشي	قدم المدينة المنورة سنة 1140 هـ... وكان يتعاطى بيع القماش في الدكان وصارت له ثروة عظيمة	ص : 228
ولده عبد الرحمن	صار محتسبا وصار يتعاطى البيع والشراء	ص : 228
الحاج محمد السقاط الفاسي	قدم المدينة المنورة في سنة 1160 هـ... وكان صاحب ثروة	ص : 173
الحاج احمد الطالب السوسي	قدم المدينة المنورة في سنة 1120 وكان رجلا كاملا عاقلا صاحب ثروة بسبب تعاطي البيع والشراء... والتجارة ملازما للمسجد الشريف	ص : 206
ولده عباس الطالب السوسي	اشتغل بالبيع والشراء	ص : 207
بيت ابن عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الفاسي	درس بالمسجد الشريف المنيف، ويشتغل مع ذلك بالبيع والشراء في الحبوب... وصارت له ثروة	ص : 220

4) العامل السياسي

لايمكن أن يغرب عن بالنا ما للظروف السياسية الداخلية والخارجية، من أثر في تواجد شخصيات مغربية في المشرق والأندلس، بل وحتى في البلاد المسيحية عبر العصور.

ونتمكن، حسب النصوص التي بين أيدينا، من حصر وتوضيح أثر هذا العامل في هذا التواجد كالآتي :

عوامل داخلية :

1 ـ الفرار السياسي

2 ـ هجرة الأقليات الدينية

عوامل خارجية :

3 ـ القرصنة الأوربية

4 ـ السفارة ومرافقة ركب الحاج المغربي.

1 ـ الفرار السياسي

وهو سفر قسري وتعبر النصوص عن ذلك بإشارات دالة مثل : فرار، تغريب، إخراج، انتزاع، لجوء.

وقد ارتبط هذا الفرار أو التغريب بالأحوال السياسية الداخلية المتقلبة من دسائس وحروب ومؤامرات داخل الأسرة الواحدة أو بين أسرة حاكمة وأخرى تتطلع الى الحكم، يؤدي هذا طبعا الى غالب ومغلوب والى اضطهاد وتقتيل الخصوم فيفر من ينجو منهم بنفسه أو يغربون ويحملون على مغادرة البلاد.

فهذا مثلا أبو عبد الله محمد السلاوي «ورد تلمسان فارا من بني مرين... وتوفي سنة 737 قتله المرينيون عند فتحهم لتلمسان وكذلك عبد الحليم بن عمر المريني الذي «ملك سجلماسة سنة 763 ثم نازعه عبد المومن ففر إلى بلاد التكرور فقدم مع الركب إلى مصر فأكرمه يلبغا وأعانه على الحج» (16).

وأما عمر بن عثمان المريني «ترك من الأولاد عبد الحليم وعليا وعبد المومن فاخرجهم أبو عثمان بن أبي الحسن إلى الأندلس» (17).

في حين نجد أن عبد الملك السعدي وأخيه أحمد المنصور «فرا الى تلمسان خوفا على أنفسهما ولما تولى محمد المتوكل على الملك سار عبد الملك إلى اصطنبول» هذا على سبيل المثال لا الحصر.

2 ــ هجرة الأقليات الدينية المغربية

كانت الأقليات الدينية عبر العصور تتعرض الى عنف وغضب العامة أو السلطات الحاكمة لسبب من الأسباب، وطبيعي أن يؤدي ذلك الى خروج بعض أفراد هاته الأقليات وهجرتها إلى أقطار أخرى بحثا عن مكان أمين.

ولنا حالة ذكرتها كتب التراجم المشرقية وهي حالة الطبيب المغربي ابن سمعون أبي الحجاج يوسف بن يحيى البتي نزيل حلب والمتوفي بها سنة 623 هـ. فقد ذكر القفطي إنه «لما ألزم اليهود والنصارى في تلك البلاد بالاسلام أو الجلاء كتم دينه وتحيل عند إمكانه من الحركة والانتقال الى الاقليم المصري وتم له ذلك فارتحل بماله ووصل إلى مصر واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر.... وخرج من مصر الى الشام ونزل حلب» (18).

3 ــ القرصنة الأوربية :

بتطرقنا إلى القرصنة الأوربية سنرى أن الوجود المغربي لم يقتصر على البلاد الاسلامية، بل تعدى ذلك الى تواجدهم في البلاد المسيحية.

ويعتبر تواجدهم هذا مرتبط بالظرفية السياسية العالمية من غزو صليبي أوربي وحركة قرصنة بحرية على شواطىء البلاد الاسلامية وخاصة المتوسطية منها والتي نشطت في العصور الحديثة.

وكان من نتائج ذلك وقوع الخطف والأسر في صفوف المسلمين وكثيرا من حوادث القرصنة كانت موجهة ضد مراكب الحجاج، حيث كانوا يحملون قسرا الى بلاد لم يكونوا بقاصديها. وكان مصيرهم الاسترقاق والبيع والعمل في تجذيف المراكب أو التنصير.

وليست لدينا المعلومات الكافية عن أسماء أو عدد المغاربة من ضحايا القرصنة الأوربية وكل ما تحتفظ لنا به النصوص هو تواريخ وقوع حوادث الاختطاف وبعض أسماء المغاربة الذين تمكنوا من الفرار أو ممن كانت لهم مكانة علمية أو اجتماعية وتمت فديتهم.

وعن القرصنة الأوربية نقدم الأمثلة التالية :

1) محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي كان حيا سنة 764 هـ «أسر في بحر الزقاق ونالته مشقة الى أن خلص» (19).

2) أحمد ابن القاضي المكناسي «الذين ركب السفين من ثغر تطاوين فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق فاسرتهم» (20). ويقول ابن القاضي عن هاته الحادثة «حيث أسرت في حالة رحلتي لمصر.... في يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة أربع وتسعين» (21) وبقى في الأسر الى أن افتداه مخدومه أحمد المنصور السعدي سنة 945 هـ.

3) الرحالة الحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي سقط في أسر القراصنة سنة 926 هـ وأجبر على الرحلة إلى ايطاليا والاقامة بروما والتنصر بها الى أواخر حياته حيث تمكن من الرحيل الى تونس التي توفي بها بعد 957 هـ (1550 م) وبعد أن رجع الى الاسلام.

4) محمد الطيب التافلاتي رحل الى مصر طلبا للعلم «ثم سافر لزيارة والدته في البحر فأسره الفرنج وذهبوا به الى مالطة مركز الكفر ثم نجاه الله تعالى بعد سنتين وأيام» (22).

4) السفارات :

أدى وقوع أسرى مغاربة في يد القرصنة المسيحية الى ضرورة النظر في وضعية هؤلاء الأسرى، وبالتالي تدخل الحكام المغاربة لافتكاكهم.

وهكذا نشطت حركة السفارات بين المغرب والبلاد المسيحية وتجلى لنا هذا النشاط فيما سجله السفراء من ارتسامات عن رحلاتهم ومنها :

رحلة الوزير في افتكاك الأسير محمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني ت 1119 هـ/1707 م وهي رحلته الى اسبانيا سفيرا للمولى اسماعيل الى كارلوص الثاني عام 1102 ه/1690 م.

نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد بن المهدي الغزال ت 1191 هـ/1778 م بين السلطان محمد الثالث وكارلوص الثالث الاسباني عام 1179 هـ/1766 م.

رحلة الأكسير في فكاك الأسير لمحمد بن عثمان المكناسي. في عهد السلطان محمد الثالث. فهل اقتصرت السفارات على البلاد المسيحية فقط ؟

* لابد من التذكير بأن الحكام المغاربة أولو اهتمامهم للوجود المغربي أينما كان وكيف ماكان. ماذا كانت سفاراتهم الى البلاد المسيحية هي من أجل فك الأسرى فإنهم من جهة أخرى وجهوا رسلهم ووفودهم الرسمية الى البلاد المشرقية من باب الاهتمام بالوجود المغربي بهاته الأقطار الاسلامية.

ومن الملاحظ أن هاته السفارات تنشط في موسم الحج إذ «كثيرا ما كانت مهمة هذه السفارات حمل الهدايا الملكية الى سلاطين مصر مع رسائل... في شأن هدايا البقاع المقدسة وفي التوصية بالحجاج» (23) وكانت هاته السفارات كذلك «وليدة التقاليد التي انبعثت في العهد المريني لربط العلاقات — على الصعيد الحكومي — بين المغرب والمشرق» (24). فهذا مثلا أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان المريني «صادق الملك الناصر وهاداه... وكان وصول كتابه الى القاهرة بالتعزية عن الناصر مع كاتبه ابن أبي مدين

في شعبان سنة 745 هـ» (25).

كما كان بعض المغاربة يرحلون الى المشرق بحكم المهام التي يكلفون بها ضمن وفد الحجاج المغاربة فهذا عبد الله بن محمد الهرغي «قاضي الركب المغربي حج سنة 747 هـ، ودخل دمشق» (26). وكان الركب المغربي يضم الرؤساء والقواد والجند لحراسته والأطباء ويصحبه حتى العامة من أدلاء وخدم وغيرهم ممن لا تذكرهم النصوص بتوضيح.

وهذا السفير أحمد بن محمد المري السبتي ت 749 «كانت له عند سلطان المغرب حظوة ومكانة واستعمله في السفارة بينه وبين الملوك» (27).

وقد سارت الدول التي أعقبت المرينيين على نفس تقليدهم. فكانت البعثات تتجه نحو المشرق بين الفينة والأخرى.

وهكذا رحل أبو الحسن التمكروتي ت 1003 هـ/1594 م سفيرا للمنصور السعدي الى الاتراك وسجل ارتساماته في كتابه «النفحة المسكية في السفارة التركية».

وأما محمد بن عثمان المكناسي ت 1213 هـ/1790 م فرحل بأمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى القسطنطينة والحجاز. وقدم للسلطان عبد الحميد خان هدية ملكية كما حمل هدايا الى الحرمين الشريفين ودخل الشام ومصر وقبرص وقد دامت رحلته 3 سنوات (1200 هـ — 1202 هـ) ودون مشاهداته في رحلته «إحراز المعلي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب».

5) العامل السياحي :

وجد من بين المغاربة من كان يحب التجوال والسفير والسياحة في بلاد الله. وباستقراء نصوص التراجم التي بين أيدينا نميز في هاته السياحة بين وجهين :

1 — السياحة العلمية :

وهي سياحة من أجل السياحة، رغبة في مشاهدة أقطار المعمور وارتياد البلدان وحب المغامرة والتجوال.

وهي سياحة علمية كذلك، لأنها ذات نتائج عملية تمثلت في ما كتبه هؤلاء الرحالة من مؤلفات وصفوا فيها البلدان التي زاروها ومروا بها. ونتائج هاته الرحلات ساهمت في بلورة المعرفة الجغرافية عند المسلمين على العموم والمغاربة على الخصوص، حيث كان منهم أشهر الرحالة المسلمين الذين جابوا الأفاق كابن بطوطة والشريف الادريسي والحسن الوزان.

والملاحظ أن منطلق بعض الرحلات السياحية منطلق ديني في الأول وذلك للاعتبارات التالية :

1) إن أول وجهة يقصدها هذا النوع من السياح المغاربة هي الديار المقدسة وبعد أداء مناسك الحج يشرع السائح في تطبيق برنامج رحلته السياحية معرجا على الشام والعراق مارا باليمن في اتجاه الهند والصين زائرا الديار المقدسة مرة أخرى قبل أن يدخلِ ديار مصر في طريق عودته الى المغرب، أو ينطلق من الشام

ليدخل بلاد الروم والبلاد المسيحية كذلك.

2) إن الشروع في بدء الرحلة السياحية يكون مزامنا لخروج ركب الحاج المغربي وأغلب الرحالة كانوا يرافقون هذا الركب.

وليس معنى هذا أن أغلب الرحلات السياحية زامنت فترة الحج، إذ يحدث أن يكون منطلق هاته الرحلات مرتبط بالذهاب في سفارات عن ملوك المغرب الى معاصرين في المشرق أو السودان أو البلاد المسيحية، وعندها كان هؤلاء السفراء يجمعون بين السفارة والسياحة ويستغلون وجودهم بهاته الأقطار ليتجولوا ويشاهدوا ما يستحق مشاهدته وليسجلوا في مذكراتهم ما شاهدوه.

وعليه فقد تجتمع عدة أسباب لرحلة سياحية ما، كرحلة ابن بطوطة مثلا التي كانت رحلة عامة «حجازية، سياحية، اكتشافية، سفارية، علمية (28).

وانتقل للحديث عن **الوجه الثاني** للسياحة وهو ما يمكن أن نطلق عليه :

2 ــ السياحة الصوفية

وهي السياحة التي كان فيها لاعلام مكناسة حضور قوي. ولكن قد يتساءل سائل لماذا هاته الصفة، ولماذا ميزت السياحة الصوفية عن سابقتها ولماذا لم أدرجها في العامل الديني ؟

يمكن الخروج بالاجابة عن هاته التساؤلات إذا ما نظرنا الى الاعتبارات التالية :

أ ــ إن نصوص التراجم تشير الى كون هذا النوع من السياحة اختص به أقطاب التصوف والمجاذيب.

ب ــ إن هاته السياحة اصطبغت بصبغة الكرامات الصوفية التي كانت لهذا القطب أو ذاك.

ج ــ إن وسائل الرحلة والتنقل ومدة الرحلة ليست في مستطاع الشخص العادي، من حيث أنها وسائل غير عادية، ومن حيث السرعة في التنقل.

د ــ إن من بين أهداف السياحة الصوفية : تأسيس الزوايا، نشر الطريقة الصوفية، الاكثار من الاتباع والمريدين، ومجاهدة النفس والعدو.

هـ ــ إن من بين طرقها التربية الصوفية من تعليم الطريقة والسلوك الصوفي وتلقين الذكر والأوراد والارشاد.

وحتى نتعرف على هذا النوع فقد جادت علينا كتب التراجم بنصوص وافية، متضمنة إشارات معبرة، لاقطاب اشتهروا بالسياحة الصوفية ونخص بالذكر منهم قطبين مكناسيين هما :

1) عبد الرحمن الادريسي المكناسي
2) محمد المزطاري المكناسي
القطب الأول : هو السيد عبد الرحمان الادريسي المكناسي *

ازداد بمكناسة الزيتون عام **1023** هـ ورحل الى المشرق ودخل الحجاز ومصر والشام واليمن وانتقل الى

بلاد الروم والهند واستقر بمكة وتوفي بها عام 1035 هـ.

وهو خاتم الاولياء في عصره وله الكرامات الخارقة (29). وتنقلاته وأسفاره وتدخل في إطار السياحة المصطبغة بالكرامة الصوفية ومنها أن الشيخ عبد الرحمن المكناسي قال لأحد أصحابه وكان هذا الأخير متوجها الى الهند «إذا رأيتني في الهند فلا تكلمني فلما وصل الهند توجه الى دهلي جهاد آباد سرير السلطان فجلس يوما بباب داره فإذا بالسيد مقبل وعليه سلهامة سوداء فعرفه وقال لبعض أصحابه هذا السيد عبد الرحمن وركض ليقبل يديه فشزره بعينه فتذكر كلامه فرجع وأغشى عليه وحصل له حال عظيم فلما أفاق لم يره»(30).

وقد كان الشيخ عبد الرحمن المكناسي سواحا جاب العديد من الأقطار الاسلامية وصار له أتباع ومريدون «فكانت النذور تأتي اليه من المغرب والهند والشام ومصر (31).

القطب الثاني : هو الشيخ محمد المزطاري المكناسي :

الشيخ المرشد الصوفي القطب أخذ الطريقة الشاذلية عن شيخه القطب سيدي قاسم ابن أحمد القرشي السفياني المدعو بابن بلوشة ورحل الى المشرق وتوفي بمكة المكرمة سنة 1107 هـ.

كان الشيخ المزطاري سواحا جوابا في بلاد الله، وله تسع حجج واشتهر في الحرمين الشريفين وبلاد الشام وحلب وحماة والقدس الشريف وخليل الرحمان وكل بلاد دخلها تهرع اليه الخلق ويأخذون عنه ويعطيهم الإذن في طريقته وسلوكه وله في جميع هذه البلاد المذكورة زوايا عامرة (32).

ويصرح المزطاري المكناسي بسبب قدومه الى دمشق وهدفه، قائلا لأحد تلامذته «جئت من المغرب لأغمر ديارك» (33).

وأضيف إلى هذين القطبين أمثلة أخرى عن السياحة الصوفية لاعلام مغاربة منهم :

- القطب الشيخ أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار ت 656 : «صاحب السياحات الكثيرة والمنازلات الجليلة» (34).

- الشيخ الصالح الصوفي أحمد بن علي الجزولي السوسي ت 1197 : «غلب عليه الجذب فساح وذهب الى الروم مجاهدا وأصيب بجراحات في بدنه» (35).

- الشيخ احمد زروق البرنسي الفاسي : الذي غلب عليه التصوف «فتجرد وساح... وصار له أتباع ومحبون» (36).

6) العامل الطبيعي :

مما لاشك فيه أن لهذا العامل دوره من قريب أو بعيد في رحلة المغاربة الى الأقطار المشرقية، بل والأقطار الأوربية كذلك.

إذ لايخفى أن فترات القحوط والمجاعات والأوبئة كانت تصيب المغرب من حين لآخر. وكان هذا يؤدي الى نتائج على صعيد الهجرة :

- وهكذا نجد من جهة أن من كانت لهم الامكانيات لمواجهة القحوط والمجاعات يستطيع البقاء أو الهجرة حسب اختياره الى بلاد لم تصبها القحوط.

ـ ومن جهة أخرى نجد أن البعض لم يستطع تحمل السنوات العجاف خاصة في العصر الحديث، فكان يلجأ الى مناطق الاحتلال البرتغالي بأصيلة وأزمور وآسفي طالبا الجواز الى البرتغال، ولو على حساب حريته ودينه.

وتطور الأمر الى أن يعرض البعض أنفسهم كرقيق، فكان منهم من يبيع أحد أفراد أسرته الى التجار البرتغال الذين نشطوا في هاته التجارة واستغلوا الظروف العصيبة التي كانت تلم المغرب وحسب مصادر برتغالية فقد كان يباع بأزمور وحدها حوالي ألف شخص في اليوم وكان الاقبال شديدا على صغار السن وخاصة الفتيات. وكانت المراكب البرتغالية تخرج محملة بمن باعوا أنفسهم أوباعتهم أسرهم (37). الى البرتغال أو الى مستعمرات العالم الجديد.

وطبيعي أن يكون لهاته الهجرة نتائج على صعيد النمو الديموغرافي وكذلك على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

بعد أن تطرقنا الى النقطة الأولى التي أوحت لنا بها نصوص التراجم وهي البحث في أسباب الوجود المغربي في المشرق والتي اتضح من خلال عرضها أنها أسباب متداخلة ومرتبطة ببعضها البعض. فهل هاته النقطة هي كل ما يمكن استخراجه من النصوص ؟

وإذا ما قلنا أن المغاربة توجهوا الى المشرق رغبة في الحج أو العلم أو الاثراء أو البحث عن مأوى أمين. فهل يعني ذلك أن دورهم كان دورا سلبيا وأنهم استفادوا بدون أن يفيدوا ؟ وأنهم اقتصروا على قضاء مصالحهم الدينية والدنيوية فقط ؟

للاجابة على هاته التساؤلات لابد من استكمال الصورة التي وضعناها لهذا التواجد المغربي، وذلك بالتطرق الى حصيلته ونتائجه بالنسبة للمشرق والمغرب.

II ــ حصيلة الوجود المغربي عامة والمكناسي خاصة في المشرق :

باستقرائنا لنصوص التراجم نخرج بإشارات عن هاته الحصيلة. وفي هذا الاطار لابد من إبداء الملاحظات والانطباعات التالية :

أ ــ إن دور المغاربة على العموم في المشرق، كان دورا ايجابيا وفعالا.

ب ــ إن تأثير وجودهم مس جميع المناحي الثقافية والاجتماعية والروحية والاقتصادية. فقد كان المغاربة من مختلف الفئات أدباء وفقهاء وعلماء ومتصوفة وأطباء وتجار... الخ وكل واحد أثر من قريب أو بعيد في المجال الذي يعنيه.

ج ــ إن حصيلة الوجود المكناسي تبرز جليا في ميادين دون أخرى، إذ كان حضورهم واضحا في المجال الفكري والمجال الروحي.

د ــ شيء واحد لم تسعفنا النصوص الى إلصاقه بالمكناسيين، أو أنه لم يكن من بين اهتماماتهم ألا وهو الاشتغال بالتجارة فالظاهر أن هذا ميدان اختص به جيرانهم من أهل فاس كما سبقت الاشارة الى ذلك.

ومن البديهي أن تطغى الناحية الثقافية في كل نص ترجمة باعتبار أن جل المغاربة كانوا من أهل العلم

وطلبته. الذي يظهر أن التأثير المغربي سيكون واضحا في هذا الميدان. ولن يتأتى لنا معرفة ذلك إلا بالحديث عن دور المثقف المغربي في هذا المجال وهل كان دوره دورا سلبيا أم إيجابيا ؟

دور المثقف المغربي عامة والمكناسي خاصة في المجتمع المشرقي :

كان للمثقف المغربي على العموم تأثير واضح في الناحية الفكرية. فإذا كان بعض المغاربة قد رحلوا في سبيل العلم فليس معنى هذا أنهم يأخذون ولا يعطون، بل إن تواضع العلماء المغاربة جعلهم يشدون الرحال الى المشرق للاستزادة من العلم كما سبقت الاشارة الى ذلك، وللقاء العلماء والتحدث معهم وتبادل الاجازة معهم. وليفيدوا ويستفيدوا وقد نالوا المكانة المرموقة بين أقرانهم وشهد لهم بذلك شيوخ العلم من المشارقة.

فهذا أبو طاهر التيلقي حافظ زمانه وشيخ المدرسة العادلية بالاسكندرية يقول عن معاصره يحيى بن القاسم الفاسي «يحيى هذا كان من أزكى خلق الله كثير الحفظ للشعر.... علقت عنه فوائد» (38) ويقول كذلك عن عبد الله الجزولي «سمع علي... وعلقت أنا عنه فوائد أيضا» (39).

وحسب نصوص التراجم يمكن أن نفرق داخل فئة المثقفين بين :

طلاب العلم وبين شيوخه وأساتذه.

وإذا كنا نستثني المجموعة الأولى فلأنها استفادت أكثر مما أفادت فإن المجموعة الثانية والتي تحدثنا عنها هي التي سنركز على نصوصها مستخرجين ما يمكن استخراجه من إشارات ومعطيات تدل على تأثيرها واسهامها في الحياة الثقافية والفكرية.

حصيلة الوجود المغربي في المغرب :

1 ـــ دور المثقف المغربي في الميدان الثقافي :

الترجمـــة	الاشـــارة	ضبـط في المصـدر
أحمد بن الحطيئة الفاسي (ت 560 هـ)	إمام صالح عارف... قرأ عليه شجاع بن محمد وموسى بن عبد الباقي... كان رأسا في القراءات السبع ونسخ بخطه كثيرا من كتب الأدب وغيرها.	بن الجزري ط القراء 1 : 71
ابراهيم بن زادة السجلماسي	كان من العلماء المتقدمين في علم النحو واللغة، أديبا فاضلا وله شعر.	القفطي : أنباء الراوة 1 : 167
محمد بن ابراهيم السبتي (ت 695 هـ)	نزيل قوص... من العلماء العاملين، الفقهاء، الفضلاء الادباء. كتب بخطه سيبويه. وشرح ابن أبي الربيع للايضاح واختصره في مجلد، وكتب شرح المحصول للقرافي وكتبا كثيرة، وكان يعرف الهندسة والهيئة وعلوما غيرهما. ووقف كتبه بخزانه الجامع. واشتغل عليه بقوص طلبتها في النحو وغيره . ادخل شرح ابن الربيع الى مصر.	الصفدي : الوافي بالوفي بالوفيات 2 : 6
محمد بن ابراهيم القصري السبتي (ت : 723)	نزيل القدس إمام مقرىء اقرأ بالقدس... حج وجاور فأقرأ بالمدينة ومكة قرأ عليه أبوعبد الله محمد... المقدسي وشيخنا محمد بن صالح شيخ المدينة.	ابن الجزري ط القراء 2 : 47
محمد بن حسن الفاسي (حلب)	كان إماما متقنا ذكيا واسع العلم كثير المحفوظ بصيرا بالقراءات وعللها مشهورها وشاذها خبيرا باللغة مليح الكتابة. انتهت اليه رياسة الاقراء بمدينة حلب وأخذ عنه خلق كثير.	ابن الجزري ط القراء 2 : 123
الحسن بن عبد الكريم الغماري (ت : 712 هـ)	كان حسنا كاسمه خيرا متواضعا ... أخذ عنه الكبار مثل أبي حيان واليعمري والذهبي والسبكي وغيرهم.	ابن حجر : الدرر الكامنة 2 :102
علي ابن الصياد الفاسي	دخل صفد فأقام بها وأقرأ الاداب كان ماهرا في الأصول والفقه والتفسير.	ابن حجر : الدرر الكامنة 2 : 152
عبد الرحمن ابن الحفيد السجلماني	كان فاضلا كثيرا لاستحضار للعربية واللغة... عاد الى حلب قاضيا للمالكية.	ابن حجر : الدرر الكامنة 2 :451
محمد بن سليمان المراكشي	(نزيل الاسكندرية) أم بمسجد قداح وحدث وكتب في الاجازات.	ابن حجر : الدرر الكامنة 4 : 67
محمد بن أحمد الفاسي	نزيل مكة وشيخ الاقراء على الاطلاق.	السخاوي : الضوء اللامع 9 : 207
محمد بن سليمان الجزولي	دخل مكة وتصدى للتدريس بها مع الافتاء وأخذ عنه الأماثل.	السخاوي : الضوء اللامع 7 : 258
محمد بن موسى الغماري 827 مكة	ولي مشيخه رباط الموفق بمكة والنظر في مصالحه سنين كثيرة.	التقي الفاسي : ت : 832 العقد الثمين 2 : 376
محمد بن محمد العبدري الفاسي	خطيب سبتة وإمامها... من علومه القراءات والحديث والفقه والنحو حدث بمكة والمدينة، سمع منه أعيان من بها .	العقد الثمين 2 : 337

الترجمة	الإشارة	المصدر
محمد العياشي	قدم المدينة المنورة سنة 1134 وكان رجلا صالحا مباركا يعلم الصبيان القرآن.	الانصاري تحفة المحبين.
محمد بن الطيب الفاسي	قدم المدينة المنورة سنة 1142... وكان عالما فاضلا خصوصا في علم العربية لانظير له فيها. وله فيها تآليف كثيرة وتصانيف كبيرة وقد حضرنا دروسه واستفدنا منه كثيرا... ورحل الى مصر وحلب والشام والروم وبلغ من الجميع ما يروم...	
محمد بن عبد الله الفاسي	قدم المدينة المنورة سنة 1175 كان رجلا عاملا فاضلا ملازما للمسجد الشريف ومعمره بالتدريس في جميع العلوم.	
ولده محمد	اشتغل بطلب العلم الشريف ودرس بالمسجد الشريف.	
ابراهيم بن محمد السوسي (ت : 1077 مكة)	من أكابر الأفاضل جامع للفنون والعلوم الرياضية.	المحبي خلاصة الأثر 1 : 44
أبو بكر بن مسعود المراكشي (ت : 1032 دمشق)	مفتي المالكية بدمشق. درس بالمدرسة الشرابيشية لأنها مشروطة للمالكية وولي تدريس الغزالية.	المحبي خلاصة الأثر 1 : 97
أبو القاسم السوسي (ت : 1039 دمشق)	مفتي المالكية (بدمشق) كان إماما بزاوية المغاربة كان له مكتب يعلم فيه الأطفال ـــ حدث بالجامع الأموي أخذ عليه جماعة.	
أحمد السجلماسي (ت : 1085 مصر)	من أدباء المغرب ـــ أقرأ بالحرم الشريف وأملى أدبا و شعرا.	المحبي خلاصة الأثر 1 : 236
حسين بن قاسم الدرعي (ت : 1011 جدة)	الاديب الشاعر ـــ قطن بمدينة العلا في طرق المدينة من الشام وأحبه أهلها وجعلوه لهم إماما وخطيبا ومعلما لأطفالهم ومفتيا لهم على مذهب مالك.	المحبي خلاصة الأثر 2 : 102
محمد بن سليمان الروداني (ت : 1037 دمشق)	الامام المحدث. جاور بمكة والمدينة سنين عديدة وهو مكب على التصنيف والاقراء فوض اليه النظر في أمور الحرمين مدة... اشتغل مدة إقامته (بدمشق) بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ. اخترع كرة عظيمة فاقت الكرة القديمة والاسطرلاب، كان في الحكمة والمنطق... الأستاذ... وكان يتقن فنون الرياضة ويعرف أنواع الحساب والمقابلة أخذ عنه بمكة والمدينة والروم خلق. له فهرست... سماها صلة الخلف بموصول السلف.	المحبي خلاصة الأثر 4 : 204
قاسم بن سعيد الدكالي (ت : 1120 دمشق)	العالم الفاضل الناسك الصوفي قدم دمشق وتوطن بالمدرسة السمساطية اشتغل بقراءة الفتوحات المكية للشيخ الأستاذ محيي الدين العربي	المرادي سلك الدرر 4 : 09
محمد بن عبد الله الفاسي (ت : 1141 المدينة)	الشيخ الفاضل العالم العابد الزاهد، نزيل المدينة المنورة قرأ في الروضة المطهرة مسند الامام أحمد وكان هو المعبد له. درس بالحرم الشريف النبوي وانتفعت به الطلبة كان ذا قدم راسخ في العبادة والدين.	المرادي سلك الدرر 4 : 30
محمد بن عبد الكريم الفاسي (ت : 1985 دمشق)	قدم دمشق.. ثم ارتحل الى حلب واستوطنها وراج أمره وعلا صيته. كان يدعى معرفه الكيمياء وله معرفة بالطب وغيره.	المرادي سلك الدرر 4 : 61
محمد بن محمد الشرقي الفاسي (ت : 1170 المدينة)	الامام المتحدث المسند اللغوي درس بالحرم الشريف النبوي وانتفعت به الطلبة وأخذ عنه بالشام ومصر خلق كثير، له تأليف حسنة ورحلة.	المرادي سلك الدرر 4 : 91
محمد بن محمد الطيب التافلاتي (ت : 1191 القدس)	مفتي القدس الشريف ـــ علامة العصر الفائق على أقرانه من كبير وصغير.	المرادي سلك الدرر 4 : 102
محمد اللقاق الفاسي (ت : 1158 المدينة)	الامام العالم العامل الصوفي، درب بالحرم الشريف النبوي وانتفع به خلق كثيرون.	المرادي سلك الدرر 4 : 122

وحسب هاته الاشارات المستخرجة من نصوص التراجم يمكن ملاحظة الآتي ذكره :

1 ــ أن جل المثقفين المغاربة استقروا لمدة طويلة، وبعضهم استقر بصفة نهائية بالأقطار المشرقية.

2 ــ أنهم ساهموا بشكل فعال في تنشيط الحركة أينما حلوا وارتحلوا.

3 ــ أنهم حصلوا على مراتب علمية وتقلدوا مناصب دينية ودنيوية.

4 ــ أن المشارقة اعترفوا لهم بالفضل وقدروهم حق قدرهم وحلوهم بأوصاف ذات دلالات مثل : الامام الصالح العارف، الامام المقرىء، الفقيه الفاضل، الأديب الفاضل، الأديب الشاعر، الامام المحدث، المفتي، المدرس.. الخ وغيرها من الألقاب العلمية التي الصقت بالمثقفين المغاربة عن جدارة واستحقاق وباعتراف أقرانهم.

نشاط المغاربة في الميدان الفكري :

يمكن القول أنه نشاط متعدد ومتنوع :

1 ــ التربية والتعليم :

تقلد المغاربة عدة مناصب في هذا الميدان بدءا من التعليم الأولي أي تعليم الصبيان القرآن الى التعليم العالي أي التدريس في المدارس التي اشتهرت بها العواصم الثقافية الاسلامية في دمشق والقدس والقاهرة، وكذلك في المساجد والزوايا. فهذا محمد العياشي «كان رجلا صالحا يعلم الصبيان القرآن» (40) وأما حسين الدرعي فقد دخل مدينة العلا وأحبه أهلها «وجعلوه معلما لأطفالهم» (41)، وأما محمد بن سليمان الجزولي فدخل مكة «وتصدى للتدريس بها» (42). ونجد أن أبا بكر بن مسعود المراكشي (43) «درس بالمدرسة الشرابيشية... وولى تدريس الغزالية». محمد بن عبد الله الفاسي «درس بالحرم الشريف النبوي وانتفعت به الطلبة، وكذلك محمد بن محمد الشرقي الفاسي «درس بالحرم الشريف النبوي» والأمثلة كثيرة عن دور المغاربة في ميدان التربية والتعليم.

2 ــ القراء والحديث والفقه واللغة والنحو والآداب :

اشتغل المغاربة بهاته العلوم انطلاقا من اهتمامهم بالعلوم النقلية وتضلعهم فيها. وهذا مكنهم من الحصول على مناصب جليلة في هذا الميدن. وممن كانت لهم مساهمة في ذلك نجد : (*)

أحمد بن الحطيئة الفاسي : كان رأسا في القراءات السبع

محمد بن ابراهيم السبتي : إمام مقرىء بالقدس... وبالمدينة ومكة...

محمد بن حسن الفاسي : كان إماما... بصيرا بالقراءات وعللها ومشهورها وشاذها... وانتهت إليه رياسة الاقراء بمدينة حلب خبيرا باللغة.

محمد بن أحمد الفاسي : شيخ القراء على الاطلاق

محمد بن محمد العبدري : حدث بمكة والمدينة

محمد بن محمد الشرقي : الامام المحدث

أبو قاسم السوسي : حدث بالجامع الأموي

عبد الرحمن ابن الحفيد : كان فاضلا كثير الاستحضار للعربية واللغة.

(*) انظر الجدول السابق للتعرف على المصدر.

3 ـ الطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والحساب... الخ.

ولم تقتصر مشاركتهم على الميادين المتعلقة بالعلوم النقلية، بل شملت مشاركتهم كذلك ميدان العلوم العقلية والتجريبية والرياضية مثل :

- محمد بن عبد الكريم الفاسي: «كان يدعي معرفة الكيمياء وله معرفة بالطب».
- محمد بن سليمان الروداني: «كان يتقن فنون الرياضة... ويعرف أنواع الحساب والمقابلة».
- محمد بن ابراهيم السبتي: «كان يعرف الهندسة والهيئة وعلوما غيرهما.
- محمد الشريف الادريسي: كان فاضلا عالما بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنابتها.

4 ـ نسخ الكتب وتأليفها * :

برع المغاربة في ميدان استنساخ الكتب وتأليفها وتصنيفها ووجدنا منهم :

- ابن الحطيئة اللحمي الفاسي : نسخ بخطه كثيرا من كتب الأدب وغيرها.
- ابن ابراهيم السبتي : كتب بخطه سيبويه وشرح ابن أبي الربيع واختصره في مجلد وكتب شرح المحصول للقرافي وكتبا كثيرة ووقف كتبه بخزانة الجامع.
- محمد بن حسن الفاسي : كان مليح الكتابة.ـ محمد بن الطيب الفاسي : كان عالما بالعربية «وله فيها تآليف كثيرة وتصانيف كبيرة».
- محمد بن سليمان الروداني : «جاور بمكة... وهو مكب على التصنيف اشتغل مدة إقامته (بدمشق) بتأليف كتاب الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ».
- محمد بن الشرقي الفاسي : «له تأليف حسنة... ورحلة».

وقد حصل المغاربة على عدة مناصب عليا، كانوا أهلا لها بفضل تكوينهم وثقافتهم المتنوعة والسمعة الطيبة التي كانت لهم في البلاد التي استقروا بها. ومن هاته المناصب :

ـ إمامة المالكية والخطابية :

تقلد المغاربة هاته المناصب بحكم أنهم مالكيون. وبحكم وجود جالية مغاربية كبيرة في المشرق.

ـ القضاء والفتيا :

شغل المغاربة منصب القضاء والفتيا للمذهب المالكي نظرا لما كانوا يتحلون به من صفات النزاهة والعلم.

وبالبحث في نصوص التراجم نجد أن البعض منهم كان يجمع بين عدة مناصب كما هو حال حسين بن قاسم الدرعي الذي «قطن مدينة العلا... وأحبه أهلها وجعلوه لهم إماما وخطيبا ومعلما لأطفالهم ومفتيا لهم على مذهب مالك» (46).

وكذلك أبو القاسم السوسي «مفتي المالكية بمدشق... كان إماما بزاوية المغاربة... وله مكتب يعلم فيه الأطفال.. وحدث بالجامع الأموي» (47).

ظروف عيش المغاربة في المشرق :

سبقت الاشارة الى أن المغاربة اتخذوا من المشرق موطنا ومستقرا لهم وهذا ما يجعل الباحث يتساءل عن السر في ذلك ؟

(*) انظر الجدول السابق للتعرف على المصدر.

الواقع وإن كنا لانستبعد في هذا المجال ما للأوضاع الداخلية للمغرب عامة (اضطرابات سياسية، قحوط، مجاعات، أوبئة ... الخ). من أثر كعامل دافع للاستقرار، فإن هناك عوامل أخرى يجب مراعاتها منها :

- سهولة اندماج المغربي في المجتمع المشرقي الغريب اليه بحكم الدين واللغة بل وحتى العادات.
- تشابه الظروف الطبيعية في المغرب والمشرق.
- إمكانية حصول هؤلاء المثقفين على مناصب علمية كل حسب مجال تخصصه.
- وجود عناية ورعاية بالمثقف عامة أين حل وارتحل. وعليه فإن الظروف كانت مناسبة لاستقرار وعيش هؤلاء المغاربة، وقد سبق القول الى أن طلاب العلم كانو يجدون المأوى المناسب في الأماكن الموقوفة عليهم وفي المساجد والمدارس والزوايا ودور شيوخ العلم الذين كانوا يستضيفونهم.

غير أن المغاربة سعوا الى الحصول على موارد عيش شبه قارة. فاشتغل البعض بالتعليم والتدريس مقابل أجور من التلاميذ أو الحكام وامتهن آخرون حرفة استنساخ الكتب أو الانكباب على تأليفها. كما اعتمد بعضهم على الهبات والنذور والصلات في حين اشتغل البعض بالتجارة أو تولى مناصب في القضاء والافتاء أو الامامة والخطابة.

مكانة أعلام مكناسة في المشرق : (انظر الجدول).

لم يخرج المثقف المكناسي عن الاطر الذي حددناه آنفا للمثقف المغربي عامة.

وتجدر الاشارة الى أن بعض نصوص تراجم المكناسيين تبخل علينا أحيانا بالمعطيات، ولا نجد بها إلا إشارات قليلة، ومع ذلك فهي تسمح بعرض الخطوط الكبرى لمكانة هؤلاء الاعلام في المشرق.

وباستقراء نصوص التراجم نخرج بحصيلة من الألقاب العلمية والأوصاف التي حلى بها كتاب التراجم، أعلام مكناس وانطلاقا منها يتضح لنا دورهم ومكانتهم. وكذا تأثيرهم في الميادين المختلفة التي كان لهم فيها قصب السبق، وخاصة الميدانين الفكري والروحي والميدان الاجتماعي.

وحتى تتضح لنا هاته الصورة لابأس من عرض هاته الألقاب والأوصاف وهي تبين لنا درجة ومكانة أعلام مكناس العلمية والاجتماعية.

- الفقيه الامام العالم العامل الزاهد الورع.
- الفقيه الزاهد ــ الشيخ الصالح
- الشيخ الامام العالم الكبير.
- الفقيه الزاهد ــ الفقيه الأجل
- الأديب الأريب ــ الشاعر الصالح
- السيد العارف بالله قطب زمانه.

وهناك صفات أخلاقية مثل :

- خير، دمث الأخلاق، كثير الوقار.
- فيه ايثار وصدق.

نشاط أعلام مكناس في المشرق (انظر الجدول)

من خلال الألقاب العلمية والصفات التي حملها واتسم بها أعلام مكناس نخرج بالانطباعات التالية :

1 ـ إن أعلام مكناس اتصفوا بالصلاح والزهد والورع والصدق.
2 ـ إنهم وصلوا الى درجات علمية وروحية عالية : إمام، فقيه، شيخ قطب صوفي.
3 ـ وتبعا لذلك يمكن تحديد نوع نشاطهم وميدان تأثيرهم انطلاقا من نوعية ثقافتهم وتكوينهم الذي غلبت عليه الثقافة الدينية المرتبطة بالعلوم النقلية من فقه وقراءات وحديث ولغة وأدب. وعليه فقد تقلدوا المناصب التي لها صلة بهاته الميادين مثل :

- إمامة المالكية بالحرم الشريف والمسجد الحرام.
- مشيخة الاقراء.

كما كانت لهم مشاركات متعددة في الميدان الفكري عامة :
لذا نجد أن حسن بن أحمد المكناسي «كانت له مشاركة في سائر العلوم» (48) ولا شك في أن يحيى بن يوسف المكناسي الذي حج وزار المدينة و«أقام بالبلاد الشامية سنين» (49) كانت له هو الاخر مشاركة وإلا لما أطال مدة رحلته. في حين أجاز محمد بن عبد الرحمن المكناسي بعض علماء المشرق «وأجاز لابن شيخنا وغيره» (50) كما صرح بذلك السخاوي.
وأما ابراهيم بن يحيى بن أبي الحفاظ المكناسي فساهم في ميدان التأليف بكتابه «فضائل بيت المقدس وفضائل الشام» (51).

بعض أعلام مكناس في المشرق، معطيات عن مكانة ونشاط أعلام مكناس في المشرق

الترجمة	تاريخ ومكاة الوفاة		ضبط في المصدر
محمد بن عبد الله بن الفتوح المكناسي	592 هـ مكة	إمام المالكية بالحرم الشريف... الفقيه الامام العالم العامل الزاهد الورع وقف هذا العام «المقرب لابن زمنين المالكي بست مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة.	التقى الفاسي «العقد الثمين» ج 2 74 ـ 75
محمد بن علي بن عطية حيا المكناسي	حيا 657 هـ	سافر وساح وجاور بمكة دفعات، ودخل الشام والحجاز واليمن. وكان فيه صدق وايثار.	ج 2 : 159
علي بن عبد الله المكناسي	571 هـ مكة	حج سنة 12... دخل الأندلس مرابطا ثم حج ثانيا وجاور وأم بالحرم... كان زاهدا ورعا محسنا الى الغرباء.	6 : 181 182
عبد الملك بن علي المكناسي	771 هـ مكة	الشيخ الصالح.	5 : 511
منصور بن حمزة المكناسي	حيا 595 هـ	الفقيه الأجل إمام المالكية بالمسجد الحرام.	6 : 284
أبو عبد الله محمد المكناسي	656 هـ	الشيخ الامام العالم الكبير من الأولياء العظام وظهر له كرامات في بلاد المغرب ومصر والشام وقصد بالنذور من كل قطر.	العلمي محمد المقدسي المدسي المستقصي في فضائل المسجد الأقصى ص 513

الترجمة	تاريخ ومكان الوفاة	معطيات عن مكانة ونشاط أعلام مكناس	المصدر
محمد بن عبد الرحمن المكناسي	ق 9 هـ	ـ أجاز لابن شيخنا وغيره. ـ ولد ببلاد مكناسة الزيتون سنة 788.	السخاوي الضوء اللامع 46 : 8 265 : 10
يحيى بن يوسف المكناسي	ق 9	قدم القاهرة في أعوام بضع عشر وثمانمائة بعد جولاته في فاس وأعمالها ودخل الأندلس وافريقية وحج وزار المدينة وأقام بالبلاد الشامية سنين.	
عبد الرحمن بن أحمد المكناسي	1085 مكة	ـ السيد العارف بالله قطب زمانه. ـ ولد بمكناسة الزيتون... في سنة 1023. ـ رحل في ابتدائه من المغرب فدخل مصر والشام وبلاد الروم واجتمع بالسلطان مراد... وحج سنة 1043 هـ وجاور بمكة. رحل الى اليمن لزيارة من بها من الأولياء رجع الى مكة وتدير بها ـــ كانت النذور تأتي اليه من المغرب والهند والشام ومصر ـــ كان يحب العلماء ويكرمهم ويحسن للفقراء ويتفقدهم بالنفقة والكسوة. ـ كان يحث من يجمع به على ملازمة ما يناسبه من صنوف الخير من تلاوة القرآن وصلاة على النبي صلعم، وكثرة استيغفار وأوراد حسان. ويحض من رأي فيه علامة خير على اعتقاد الصوفية والتصديق بكلامهم وعلومهم وأحوالهم ـــ ولقنني رضي الله عنه الذكر لا إلاه إلا الله محمد رسول الله وألبسني الخرقة الشريفة. كانت له الكرامات العظيمة.	المحبي : خلاصة الأثر ج 2 346 ـــ 349
حسين بن أحمد المكناسي	1101 هـ مصر	ولد سنة 1052 قرأ على محمد بن أحمد الفاسي نزيل مكناس. قدم مصر سنة 1074... حج واجتمع على السيد عبد الرحمن المحجوب المكناسي ـــ كانت له مشاركة في سائر العلوم.	الجبرتي : عجائب الاثارة 173 : 1
محمد المزطاري المكناسي	1107 هـ مكة	الشيخ الامام العارف بالله... الصوفي وقطب الواصلين وأستاذ الأساتذة تولى القطبانية خمسة وعشرين عاما الى أن توفي.	المرادي : سلك الدرر 4 : 33 ـــ 34

الترجمة	ت. م. الوفاة	مكانة ونشاط أعلام مكناس	المصدر
محمد المزطاري المكناسي(تابع)	1107هـ مكة	قدم دمشق... سنة 1096 هـ وأخذ عنه بها الطريق الشيخ محمد العجلوني... كان يقول له : جئت من المغرب لأعمر ديارك. من ذلك الوقت اشتهرت الطريقة الشاذلية بدمشق وكثر أتباعها والآخذون لها. كان...منار هدى وإرشاد وله كرامات كثيرة وخوارق شهيرة.	المرادي : سلك الدرر ج 4 : 33 — 34

أقطاب التصوف من أهل مكناس في المشرق في العصر الحديث :

سبقت الاشارة عند الحديث عن دوافع الوجود المغربي في المشرق الى عامل السياحة الصوفية وأنه ارتبط بأقطاب التصوف المغاربة ومنهم أبو الحسن الشاذلي وأحمد البدوي وعبد الرحيم الترغي القنائي وعلي ابن ميمون الغماري.
أما فيما يتعلق بأعلام مكناس فنجد :

1) عبد الرحمن الادريسي المكناسي.
2) محمد المزطاري المكناسي.

وحتى تتكون لنا فكرة عن هذين القطبين لابأس من وضعها داخل إطار اللوحة التالية :

	عبد الرحمان الادريسي المكناسي	محمد المزطاري المكناسي
ألقابه ودرجته في التصوف	السيد العارف بالله تعالى قطب زمانه، كان من أكابر الأولياء في عصره.	الشيخ الامام العارف بالله المسلك المرشد الصوفي قطب الواصلين وأستاذ الأساتذة وشيخ الطائفة.
الفترة ومدة القطبانية	القرن 11 هـ تولى القطبانية لمدة 42 سنة.	القرن 12 هـ تولى القطبانية لمدة 25 سنة.
أحواله	له الكشف الصريح والأحوال الباهرة والكرامات العظيمة.	له كرامات كثيرة وخوارق شهيرة.

مناطق إشعاعه	مصر ــ الشام ــ بلاد الروم ــ الحجاز ــ اليمن ــ الهند تونس ــ مصر ــ الشام ــ الحجاز.	
نشاطه	السياحة الصوفية لنشر الطريقة وتأسيس الزوايا ــ التربية الصوفية، الحث على اعتقاد الصوفية، ملازمة صنوف الخير من تلاوة قرآن وتصلية استغفار وأوراد حسان وتلقين الذكر. كان يحب العلماء ويحسن للفقراء ويتفقدهم بالنفقة والكسوة.	السياحة الصوفية، نشر الطريقة الشاذلية، الاكثار من الأتباع والآخذين للطريقة، تلقين الذكر.
مكانته أو تأثيره	تدير بمكة وصار مرجعا لأهلها والواردين إليها كان مقبول الكلمة عند جميع الناس، كان كثير الشفاعات.	كان جبلا من جبال المعارف منار هدى وإرشاد. قبره ظاهر يزار.

خلاصـــة :

إذا كانت نصوص التراجم تشير الى الاستقرار النهائي للمغاربة بصفة عامة والمكناسيين بصفة خاصة، في الأقطار المشرقية فإن ذلك يجعلنا نفكر ثانية في ظاهرة الهجرة المغربية الى المشرق.

وإذا كنا قد أعطينا بعض الاجابات المستخلصة من النصوص حول هاته الهجرة ومسبباتها وبعض نتائجها الايجابية بالنسبة للمشرق فما هي نتائجها بالنسبة للمغرب ؟

للاجابة على هذاا لسؤال نشير الى بعض سلبيات هاته الهجرة. يتحدث العالم اليوم عن هجرة الأدمغة والضرر الذي يلحق بأوطانها، والاستفادة التي تجنيها البلدان التي تستقر فيها هاته الأدمغة ولا بأس هنا من ملاحظة أن هاته الظاهرة عرفها المغرب عبر العصور.

وإذا كا من بين المغاربة الذين هاجروا الى المشرق. فئات متعددة المستويات والتكوين والثقافة فيهم الطبيب والصيدلي والعالم الكيميائي والرياضي والفلكي... الخ.

علوم الطب والصيدلة : علي بن يقظان السبتي ــ أبو الحجاج بن سمعون السبتي ــ الشريف الادريسي ــ محمد بن الكريم الفاسي.

علوم الرياضة : ابراهيم بن محمد السوسي ــ محمد بن سليمان الروداني.

الكمياء : محمد بن سليمان الروداني ــ محمد بن عبد الكريم الفاسي.

الهندسة : محمد بن ابراهيم السبتي.

ولا شك أنهم كانوا سيساهمون في نهضة علمية وثقافية لو لم يهاجروا الى المشرق الذي استفاد من ذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله

الهوامش

(1) روزنتال علم التاريخ عند المسلمين — ترجمة صالح أحمد العلي بغداد 1963 ص : 142

(2) بروفنسال، مؤرخو الشرفاء — ت. عبد القادر الخلادي الرباط 1397 — 1977 ص : 55

(3) Reinhard M : L'Enseigenement de l'histoire. Paris 1967 P : 144.

(4) أمجد الطرابلسي، نظرية تاريخية في حركة التأليف عند العرب ج : 1 ص : 118.

(5) انظر نصوص هاته التراجم في الملحق.

(6) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج : 1 ص : 03

(7) محمد عبد الرحيم غنيمة — تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى بتطوان 1953 ص : 212

(8) انس الشاري والسارب... ت. محمد القاسي فاس 1388 — 1968 ص : 48

(9) المحبي : خلاصة الأثر ج : 2 : 102

(10) المرادي : سلك الدرر 4 : 33

(11) أبو سالم العياشي : التعريف والايجاز، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط — كا 43 — ص : 304

(12) أبو سالم العياشي نفس المصدر 304 — 305

(13) مثل عائلة الشرايبي، والكوهن.
انظر الجبرتي : عجائب الآثار ج 1 : 138

(14) الانصاري تحفة المحبين والأحباب فيما للمدنيين من الأنساب مخطوطة الخزانة العامة كا : 1221.

(15) عبد الحميد حاجيات الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بن زيان مجلة الأصالة ع.26، 1395 — 1975 الجزائر ص : 140

(16) ابن حجر الدرر الكامنة .

(17) ابن حجر نفس المصدر ج : 3 : 251

(18) أخبار العلماء بأخبار الحكماء تصحيح محمد أمين الخانجي مطبعة السعادة مصر 1326 ص : 257

(19) ابن حجر الدرر الكامنة 4 : 118

(20) القشتالي مناهل الصفا ص 153

(21) ابن القاضي المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تحقيق محمد رزوق د.دع 1398، 1978 مرقون ص.261

(22) المرادي سلك الدرر 4 : 103

(23) محمد المنوني ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين الرباط 1399 — 1979 ص : 130

(24) محمد المنوني ورقات : مرجع سابق ص : 130

(25) ابن حجر الدرر الكامنة 157

(26) نفس المصدر السابق ج 2 : 403

(27) نفس المصدر 1 : 311

(28) محمد الفاسي : الرحلات السفارية المغربية مجلة البينة العدد 6 أكتوبر 1962 الرباص ص : 14

(29) و(30) المحبي : خلاصة الأثر 2 : 249

(31) نفس المصدر 2 : 346

(32) حسن خواجة ذيل بشائر أهل الايمان الطاهر المعموري تونس 1975 ص : 280

(33) المرادى مصدر سابق 4 : 33

(34) السيوطي : حسن المحاضرة ص : 247

(35) الجبوتي عجائب الآثار 2. : 267

(36) السخاوي الضوء اللامع 1 : 267

(37) انظر المجاعات والأوبئة B.Resenberger et H.Tribi. Famines et épidémies au Maroc in Revue Hesperis tamuda vol, XIV Fase unique Rabat.

(38) معجم السفر — مخطوط الخزانة العامة الرباط ك : 230 ص : 445.

(39) نفس المصدر ص : 164

(40) الأنصاري تحفة المحبين مخطوط
(41) المحبي خلاصة الأثر 2 : 102
(42) السخاوي الضوء اللامع 7 : 258
(43) المحبي خلاصة الأثر 1 : 97
(44) انظر الجدول السابق للتعرف على المصدر
(45) انظر الجدول السابق للتعرف على مصدر الترجمة
(46) المحبي خلاصة الأثر 2 : 102
(47) نفس المصدر 1 : 145
(48)و(49) انظر الجدول لمعرفة المصدر
(50) انظر الجدول لمعرفة المصدر
(51) المكناسي هذا من رجال القرن السابع الهجري وكتابه هذا يوجد مخطوطا بجامعة توبنجن بألمانيا.

المصـــادر:

اعتمدت على بعض المصادر المخطوطة والمطبوعة منها :

1) المصادر المخطوطة :

1 ــ السلفي : أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الاصفهاني المتوفى بالاسكندرية سنة 576 هـ.

ـ **معجم السفر** : ترجم السلفي في معجمه هذا لأعلام من مختلف الأقطار الاسلامية، وكان من بينهم مغاربة التقوا به في مدرسته العادلية بالاسكندرية وقد قمت باستخراج التراجم والأخبار المتعلقة بالمغرب ودراستها (1). هذا المعجم مازال مخطوطا وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط.

2 ــ الشلي : محمد بن أبي بكر بن احمد الحضرمي باعلوى. المتوفى بمكة سنة 1093 هـ.

عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر. ترجم الشلي لشخصيات مغربية من بينها استاذه محمد بن سليمان الروداني يوجد ملتقط من هذا المخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

3 ــ الأنصاري عبد الرحمان بن عبد الكريم المدني :

المتوفى بالمدينة سنة 1197 هـ.

ـ تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب (2).

من بين محتوياته تعريف بالبيوتات المغربية التي استقرت بالمدينة المنورة من أهل العلم والتجارة. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

2) بعض المصادر المطبوعة : (مرتبة حسب وفاة أصحابها)

1 ــ القفطي : جمال الدين علي بن يوسف الثيباني المصري المتوفى بسنة 646 هـ إنباه الرواه علي أنباء النحاة.

---

(1) تراجم مغربية دفينة في العصرين الوسيط والحديث إشراف أ. محمد زنيبر ومحمد المنوني كلية الاداب الرباط.
(2) نشر بتونس.

2 ــ **القفطي** : إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

3 ــ **ابن أبي أصيبعة** : أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي المتوفى سنة 668 هـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

4 ــ **الصفدي** : صلاح الدين خليل بن ايبك توفي سنة 764 هـ. الوافي بالوفيات.

5 ــ **الفاسي** : تقي الدين محمد بن أحمد المكي توفي سنة 832 هـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

6 ــ **ابن الجزري** : محمد بن محمد بن محمد الدشقي توفي سنة 833 هـ غاية النهاية في طبقات القراء.

7 ــ **ابن حجر** : أحمد بن علي العسقلاني القاهري توفي سنة 852 هـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

8 ــ **السخاوي محمد** : بن عبد الرحمان توفي سنة 902 هـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

9 ــ **ابن الحنبلي** : رضي الدين محمد بن ابراهيم الحلبي توفي 971 هـ در الحبب في أعيان حلب.

10 ــ **العلمي** : محمد بن محمد المقدسي حيا سنة 969 هـ المستقصي في فضائل المسجد الأقصى.

11 ــ **البوريني** : بدر الدين الحسن بن محمد الصفوري توفي 1024 هـ تراجم الأعيان من أبناء الزمان.

12 ــ **النجم الغزي** : محمد بن محمد 1061 هـ الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة.

13 ــ **المحبي** : محمد أمين بن فضل الله الدمشقي توفي سنة 1111 هـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الثاني عشر.

14 ــ **المرادي** : محمد خليل توفي سنة 1206 هـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر.

15 ــ **الجبرتي** : عبد الرحمان توفي سنة 1241 هـ عجائب الأثار في التراجم والأخبار.

ملاحظات :

1 ــ هذه بعض المصادر المشرقية المعتمدة التي استخرجت منها نصوص التراجم المغربية والمكناسية منها، وقد وضعت جردا لباقي المصادر مع تقديم موسع لها في دراسة جامعية..

2 ــ كما أشرت الى بعض المراجع العربية والأجنبية في حينها. انظر الهوامش.

محمد بن عبد الله بن الفتوح بن محمد المكناسي المحاصر (المجاصي) جمال الدين أبو عبد الله.

إمام المالكية بالحرم الشريف.

هكذا نسبه الميورقي في تعاليقه. وذكر أنه تولى مقام المالكية بمكة، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. وذكر أنه وقف في هذا العام «المقرب» لابن أبي زمنين المالكي بست مجلدات، على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة وجعل مقره بخزانة المالكية بمكة، ولم يذكر الميورقي وفاته.

ووجدتها على حجر قبره بالمعلاة عند حائط قبر الشولي بخط عبد الرحمن ابن أبي حرمي، وترجمه بالفقيه الامام العالم العامل الزاهد الورع. وذكر كنيته ولقبه كما ذكرنا وكذلك نسبه، إلا أنه لم يذكر محمد بن فتوح.

وأرخ وفاته بيوم الخميس العاشر من جمادى الأولى سنة اثنين وتسعين وخمسمائة. (ت : 592).

التقي الفاسي العقد الثمين
ج 2 : 74 — 75
القاهرة 1381 — 962

يحيى بن يوسف المكناسي :

يحيى بن يوسف بن علي بن محمد المغربي المالكي. ولد ببلاد مكناسة الزيتون في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة. وقدم القاهرة في أعوام بضع عشرة وثمانمائة بعد جولاته في فاس وأعمالها، ودخل الأندلس وافريقية، وحج وزار المدينة وأقام بالبلاد الشامية سنين، وتردد الى كثير ونعم الرجل.

قاله المقريزي في عقوده، وساق عنه عن أبي محمد الفاسي في كرمات الآل حكاية ذكرتها في الارتقاء ولم يؤرخ وفاته.

الضوء ج 10 : 265

علي بن عبد الله بن حمود الفاسي، أبو الحسن المكناسي :

علي بن عبد الله بن حمود الفاسي، أبو الحسن المكناسي، إمام المالكية بالحرم الشريف حج سنة اثني عشرة وأخذ عن أبي بكر الطرطوشي سنن أبي داود وصحيح مسلم أخذه عن ابن طرخان — وجامع أبي عيسى بن المبارك، ودخل الأندلس مرابطا ثم حج ثانيا وجاور وأم بالحرم. وأصله من مكناسة الزيتون ذكره ابن الابار في تكملة الصلة لابن بشكوال وقال : كان زاهدا وربما محسنا الى الغرباء، توفي بمكة سنة ثلاثة وسبعين وخمسمائة، عن سبع وثمانين سنة انتهى.

وألقيت حجرا بالمعلاة مكتوب فيه : إن هذا قبر أبي الحسن علي بن حمود المكناسي وأنه توفي ليلة الاثنين في العشر الأوسط من جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وترجم فيه : بالفقيه الزاهد إمام المالكية بالحرم الشريف.

وإنما ذكرنا هذا لأن ما في حجر قبره من تاريخ وفاته يخالف ما ذكره ابن الابار فيها. والصواب مافي الحجر والله أعلم.

ولا يقال إنهما اثنان لأن في الحجر نسب الى جده وهو حمود وابن الأبار أكمل نسبه، ووجدت بخط شيخنا ابن سكر : إن ابن الى الصيف اليمني نزيل مكة قرأسنن أبي داود علي ابن الحسن علي بن خلف بن معروف التلمساني، عن أبي الحسن هذا، عن الطرطوشي بسنده المشهور.

التقي الفاسي، العقد الثمين
ج 6: 181 ـــ 182

عبد الملك بن علي الصنهاجي المكناسي :

عبد الملك بن علي الصنهاجي المكناسي توفي في شهر شوال سنة إحدى وسبعين وسبعمائة بمكة. ودفن بالمعلاة، ومن حجر قبره لخصت هذا وترجم فيه : بالشيخ الصالح.

التقي الفاسي ـــ العقد الثمين
5 : 01

أبو عبد الله محمد المكناسي :

الشيخ الامام العالم الكبير ذو الكرامات الظاهرة والأحوال الخارقة أبو عبد الله محمد المكناسي البصري هذا الشيخ من الأولياء العظام وظهرت له كرامات في بلاد المغرب ومصر والشام وقصد بالنذور من كل قطر، وكان يقرأ القرآن حتى قيل له : الناس أكثروا فيك من كثرة قراءة القرآن فما تقرأ في اليوم والليلة قال أنا لاأضبط ولكن ثم من ضبط أني قرأت في اليوم والليلة مائة وثلاثين ختمه ذكره ابن خلكان في تاريخه، ورد الى زيارة بيت المقدس من المغرب وأراد العودة، فأدركته المنية فمات به في عاشر شوال الى ست وخمسين وستمائة ودفن بجبانة ماملا وقبره يزار.

نصر الدين محمد بن محمد المقدسي
مخطوطة المستقصي في فضائل المسجد الأقصى
نشر ضمن كتاب فضائل بين المقدس
في المخطوطات ص.513 ـــ 514

عبد الرحمن الادريسي المكناسي :

السيد عبد الرحمان بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن أحمد الادريسي المكناسي الحسني نزيل مكة السيد العارف بالله تعالى قطب زمانه كان من كبار الأولياء له الكشف الصريح والأحوال الباهرة وهو الذي يقول فيه الأديب محمد بن الدراء الدمشقي في أيام مجاورته بمكة المشرفة.

في ظل حمى السيد عبد الرحمن * خيم لتفوز بالرضي والغفران
وأحفظ نجواك عنده والاعلان * كي تنشق عرف عرفات الاحسان

ولد بمكناسة الزيتون من أرض المغرب الأقصى في سنة ثلاث وعشرين وألف ورحل في ابتدائه من المغرب فدخل مصر والشام وبلاد الروم واجتمع بالسلطان مراد ووقع له كرامات خارقة وحج سنة ثلاث

وأربعين وألف وجاور بمكة ثم رحل الى اليمن لزيارة من بها من الأولياء فاجتمع بكثير من أكابر المشايخ منهم السيد عبد الرحمن بن عقيل صاحب المخا ثم رجع الى مكة وتدير بها وصار مرجعا لأهلها والواردين اليها وكان في الكرم غاية لاتدرك وكان يعمل الولائم العظيمة للخاص والعام وكانت النذور تأتي اليه من المغرب والهند والشام ومصر ويصرفها للفقراء وكان مقبول الكلمة عند جميع الناس وإذا جاءه المدين المفلس ليشفع له عند دائنه فمجرد أنه يكلمه في ذلك يمثل أمره بطيب النفس وربما أبرأه من دينه وإذا جار أحد من السادة على عبد أو أمة ودخل عليه اشتراه منه بأغلى ثمن واعتقه حتى اعتقد أرقاء كثرا ووقف عليهم دورا وكان حسن العشرة إذا اجتمع به أحد لم يرد مفارقته كثير المشفاعات وكان يحب العلماء ويكرمهم ويحسن للفقراء ويتفقدهم بالنفقة والكسوة العظيمة وكان يدعو الله تعالى بحاله ومقاله وكان لايلبس الأثوبا واحدا صيفا وشتاءا. وقلنسوة على رأسه ويلبس سروالا وكان يبحث من يجمع به على ملازمه ما يناسبه من صنوف الخير من تلاوة القرآن وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة استغفاره وأورام حسان ويخص من رأى فيه علامة الخير على اعتقاد الصوفية والتصديق بكلامهم وعلامهم وأحوالهم وخصوصا الشيخ الأكبر فإنه كان يعظمه كثيرا ويأمر بتعظيمه حكى لي الأخ الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن فتح الله قال دخلت عليه في بيته بمكة مع الشيخ عارف حسين بن محمد بافضل وكنت لم أدخل عليه قبل ذلك وكان لايحضر ببالي ذكر الصوفية ولا أحوالهم فحين اجتماعي به قال لي ما تقول في الصوفية فسكت لعدم معرفتي بشيء من ذلك فذكر الامام الغزالي وما وقع للقاضي عياض بسبب إنكاره عنيه وحرقه كتاب الأحياء قصة طويلة عجيبة.

ثم ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وأحواله ومؤلفاته وأطال في وصفه وأنه الختم الألهي وأمرني أمرا جاز ما باعتقاد الصوفية ومطالعة كتبهم والتسليم لهم والتصديق بعلومهم وأحوالهم قال فكأنما طبع الله كلامه في قلبي فمن ذلك الوقت والله الحمد ملئت اعتقادا ومحبة فيهم وإن لم أكن على سننهم وأرجو من الله سبحانه أن يحشرني معهم في حزبهم ولقنني رضي الله عنه الذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله وألبسني الخرقة الشريفة وكان يدعو لي كثيرا وكانت له الكرامات العظيمة منها ما حكاه السيد الجليل عمر بن سالم سيخان باعلوى أنه سافر معه الى اليمن وكان معهما الشيخ الفاضل عبد الله بن محمد الطاهر العباسي المكي فهاج عليهم البحر وكادوا يشرفون على الهلاك فقالوا له يا سيدي انظر الى ما نحن فيه من الحال ادع الله أن يفرج عنا فقال للبحر أسكن بإذن الله فسكن من حينه ووقف الريح فقال للريس سر على بركة الله تعالى فقال يا سيدي كيف أسافر بلا ريح فقال له سر يأتي الله بالريح فسار فأتتهم ريح طيبة وصلوا فيها إلى مقصودهم وزال عنهم ما كانوا يجدونه من الخوف ببركته ومنها أيضا ما أخبر به السيد المذكور أنه لما ذهب نفع الله تعالى به الى زيارة سيدي الشيخ أحمد بن علوان بمدينة يغرس اتى الشيخ خادمه في المنام قبل وصول السيد بليلة وقال له في غد يصبح عليك رجل صفته كذا وكذا فافعل له ضيافة عظيمة وبالغ في تعظيمه وإكرام نزله ومثوان فإنه من أكابر أهل الله فامتثل الخادم أمر الشيخ وفعل ما أمره به وانتظر في الوقت الذي ذكره له فلم يجده فذهب خارج البلد لعله يجده فلم ير له أثرا ولا خبرا فرجع وقد يئس من وصوله ودخل مقام الشيخ فوجده فيه بصفته وكانت الأبواب مصكوكة

خلاصة الأثر 2 : 346 ــ 348

المحبي خلاصة الأثر ص 2 : 346 ــ 347

المحبي : خلاصة الأثر 2 : 348.

ففتحت له ومفاتيحها بيد الخادم فعرفه وقبل يديه وذكر له ما أمره به الشيخ وذهب به الى مكان الضيافة وبالغ في إكرامه ومنها ما حكاه السيد المذكور أنه كان ببندر المخا وكان رجلان من أصحابه متوجهين الى الهند فاتيا اليه يودعانه ويطلبان منه الدعاء فقال لأحدهما تحل لك مشقة كبيرة في البحر ولكن عاقبتها سليمة، فكان كما قال وقال للآخر إذا رأيتني في الهند فلا تكلمني فلما وصل الى الهند توجه الى دلهي جهان آباد سرير السلطان فجلس يوما على باب داره فإذا بالسيد مقبل وعليه سلهامة سوداء فعرفه وقال لبعض أصحابه هذا السيد عبد الرحمن وركض ليقبل يديه فشزره بعينه فتذكر كلامه فرجع وأغشي عليه وحصل له حال عظيم فلما أفاق لم يره نفع الله به وبالجملة هو خاتم الأولياء في عصره وقد تقدم ذكر ولادته وأما وفاته فقد كانت نهار الأربعاء سابع عشر ذي القعدة سنة خمس وثمانين وألف ودفن بزاوية السيد سالم شيخان اشتراها من أولاده وأوصى أن يدفن فيها رحمة الله تعالى.

المحبي خلاصة الأثر ج 2 : 346 — 348

محمد المزطاري المكناسي :

محمد بن أحمد المزطاري المغربي المكناسي الشاذلي المالكي الشيخ الامام العارف بالله المسلك المرشد الصوفي الواصلين وأستاذ الأساتذة وشيخ الطائفة أخذ الطريق الشاذلية عن شيخه صاحب الكرامات والأحوال من شهدت بقطبانيته فحول الرجال القطب الغوث الفرد الرباني سيدي قاسم بن أحمد القرشي السفياني المدعو بابن بلوشة نور الله مرقده (حكى) تلميذ المترجم الشهاب أحمد بن ابراهيم الحبالي الاسكندري أنه ما غفل في وقت من الأوقات الخمسة عن تسعين ألف لا اله إلا الله قط في مدة إقامته معه وكانت المدة المذكورة ثمانية عشر عاما وأنه تولى القطبانية خمسة وعشرين عاما الى أن توفي وقدم دمشق في غرة جمادى الأولى سنة ستة وتسعين وألف وأخذ عنه بها الطريق الشيخ محمد بن خليل العجلوني وكتب له بذلك إجازة مطولة وكان يقول له جئت من المغرب لاعمر ديارك، وأخذ أيضا عن المترجم الشيخ عبد الرزاق ابن عبد الرحمن السفرجلاني ومن ذلك الوقت اشتهرت الطريقة الشاذلية بدمشق وكثر اتباعها والآخذون لها وكان صاحب الترجمة جبلا من جبال المعارف منار هدى وإرشاد وله كرامات كثيرة وخوارق شهيرة لا تسعها الأفهام ولا يطيقها نطاق الأقلام.

ثم إنه رحل من دمشق الى مكة المشرفة وتوفي بها في محرم الحرام ليلة الجمعة سنة سبع ومائة وألف عن ثلاث وستين سنة ودفن بباب المعلي بقرب ضريح السيدة خديجة الكبرى وقبره ظاهر يزار رحمه الله تعالى.

المرادي سلك الدرر ج : 4 : 33 — 34

حسن بن أحمد المكناسي :

ومات الامام العلامة نور الدين حسن بن أحمد بن العباس بن أبي سعيد المكناسي.

ولد بها سنة ألف واثنين وخمسين (1052) وقرأ على محمد بن أحمد الفاسي نزيل مكناس وحضر دروس سيدي عبد القادر الفاسي وكثيرين، وقدم مصر سنة أربع وسبعين وألف حضر درس الشبراملسي ومنصور الطوخي وأحمد البشبيشي ويحيى الشهاوي، وحج واجتمع على السيد الرحمن المحجوب

المكناسي وكانت له مشاركة في سائر العلوم.
مات بمصر سنة إحدى ومائة وألف.

الجبرتي عجائب الآثار ج1 ص ـ 173

منصور بن حمزة بن عبد الله المجاصي المكناسي :

منصور بن حمزة بن عبد الله المجاصي أبو علي المكناسي إمام المالكية بالحرم الشريف. سمع من أبي عبد الله بن أبي الصيف : صحيح مسلم وجدت سماعه عليه لمجلدات من صحيح البخاري، وجامع الترمذي، ولقد سمع ذلك كله والسماع في سنة خمس وتسعين وخمسمائة بالحرم الشريف وهو بخط أحمد بن أبي بكر الطبري، ترجمه الفقيه الأجل إمام المالكية بالمسجد الحرام. وما عرفت عن حاله سوى هذا.

العقد الثمين 6 : 284

محمد بن عبد الرحمن الحسني المكناسي :

محمد بن عبد الرحمن بن يوسف الكمال أبو البركات بن أبي تريد الحسني المكناسي السكندري أجاز لابن شيخنا وغيره في سنة سبعة عشرة وأرخه المقريزي في عقوده في سنة اثنين وعشرين وقال أنه ذكر أن أباه صافحه قال : صافحني أبو الحسن علي الحطاب وعمره مائة وثمانين، صافحني أبو عبد الله الصقلي، صافحني أبو عبد الله معمر وكان عمره أربعمائة سنة، صافحني النبي صلى الله عليه وسلم.
انتهى وهو شيء لايعتمده الحفاظ للاثبات.

السخاوي الضوء اللامع
46 : 08
ت ق : 9

محمد بن علي بن عطية المكناسي أبو عبد الله :

ذكره القطب الحلبي في تاريخ مصر، فيما أخبرني به عنه شيخنا ابن صديق بقراءتي عليه وقال : قال شيخنا القطب القسطلاني : هذا ابن عطية سافر وساح وجاور بمكة دفعات، ودخل الشام والحجاز واليمن، وكان فيه صدق وإيثار. انتهى.

أخبرني ابراهيم بن محمد الدمشقي، فيما قرأت عليه بالحرم الشريف أن الحافظ قطب الديت أبو بكر محمد بن أحمد بن علي القسطلاني من لفظه في صفر سنة خمس وثمانين وستمائة بالسنة الكاملية من القاهرة. قال : أخبرني الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن عطية المكناسي بالحرم الشريف في سنة سبع وخمسين وستمائة قال : كنت حاضرا عند الشيخ العارف فخر الدين الفارسي بقرافة مصر فأنشد فقر بين يديه :

ومـــا صدعنـــــي أنـــــه لي مبـــــغض
ولا أن قتلنـــــي من الهـــــوى صف مراده

ولكـــــن رأي أن الدنـــــو يزيدنـــــي
غرامـــا فاحيـــــن مهجتـــــي ببعـــــاده

فصاح عليه صيحة منكرة وقال : لا وأنشد الشيخ :

يمثلـــــه فكـــــري وإن غاب شخصه
فمـــا هو إلا غائب مثـــــل حاضر

وتشغلنـــــي ذكـــــراه عن ذكـــــر غيـــــره
فمـــا سواه أن يمـــــر بخاطـــــري

التقي الفاسي (العقد الثمين)
ج 2 : 159 ــ 160

التواصـــل الثقافـــي
بين الحاضـرة الاسماعيليـة والزاويـة الشرقاويـة

الأستـاذ أحمد بوكاري
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة القاضي عيـاض
مراكــــش

تمهيـد :

اظهرت بعض الدراسات التاريخية في الآونة الأخيرة مدى شمولية الاسهامات الفكرية لمختلف مناطق المغرب[1] وان فكرة هيمنة المد. سلطانية على حركية التاريخ ـ كمجتمع وفكر ـ ليست مقصودة لهدف علمي خالص، بل تتجاوز ذلك الى ترسيخ قناعة مقنعة، تريد أن تسلب التاريخ الوطني وحدته وتكامله.

من خلال العمل الذي أنجزته في موضوع «الزاوية الشرقاوية» (2) والذي أبرزت فيه بعض أدوارها وإسهاماتها على المستوى المحلي أو الوطني، تبين فعلا أن لاحدود للتواصل والترابط بين جهات البلاد وعلى مختلف المستويات، وهي الخلاصة التي يمكن استنتاجها من العديد من المؤلفات ذات الطابع الفكري أو الروحي الصوفي مثل كتب الطبقات والتراجم أو الفهارس...

سأحاول من خلال هذه المساهمة، إبراز بعض جوانب هذا التواصل من خلال نموذج مكناس كعاصمة للمغرب في العهد الاسماعيلي (1084 ـ 1139 = 1672 ـ 1727) وزاوية أبي الجعد (الزاوية الشرقاوية) المحج الروحي لقبائل تادلا وما جاورها من بلاد الشاوية ومنطقة الدير الأطلسي، مع التركيز على شخصية محمد الصالح الشرقاوي، شيخ الزاوية المعاصر للسلطان العلوي مولاي اسماعيل، بل إن هذا الشيخ توفي في نفس السنة التي توفي فيها مولاي اسماعيل (1139 هـ = 27 ـ 1728 م).

ترجع أهمية تادلا ـ موطن الزاوية ـ الى الدور العام الذي لعبته عبر مختلف أطوار التاريخ المغربي، باعتبارها ممرا تجاريا وبشريا بين شمال البلاد وجنوبها، وهو ما ترك آثاره على الخريطة البشرية للمنطقة الى الآن... كما كانت لها أهميتها خلال الفترات السياسية العصيبة... والمتمثلة في ضعف السلطة المركزية أو الصراع على الحكم بين الشمال (فاس) والجنوب (مراكش) كما هو الشأن خلال النصف الأول من القرن 10 هـ/16 م بين السعديين والوطاسيين... لقد اهتمت الكتابات الأجنبية وبهذه المنطقة الجبلية بصفة خاصة،

مستهدفة من وراء ذلك إبراز حالة عدم الاستقرار كحالة مزمنة في البناء السياسي المغربي والحالة هذه أن واقع هذه القبائل وغيرها يجب أن يربط بظروفها من الناحية الجغرافية والاقتصادية والتي لها ارتباط وثيق بعدم استقرار مصادر عيشها تبعا لعدم استقرار خريطة المغرب البشرية خلال عصور طويلة، بالاضافة الى عامل المناخ الحاسم.

في هذه المداخلة، سأهتم بجوانب أخرى أكثر رسوخا وصمودا... وتتعلق بالجانب الفكري الروحي والذي مثلت فيه الزاوية الشرقاوية بالمنطقة نموذج أو عنصر الاستمرار.... ذلك أن منطقة تادلا لم تكن فقط معبرا جغرافيا وبشريا فحسب، ولكن تمثل نقطة ربط وصلة بين مختلف التيارات الفكرية السائدة في شمال البلاد وجنوبها، ولعبت فيها زوايا المنطقة دورا حاسما، سيما زاوية الصومعة ببني ملال الحالية (3)، والزاوية الدلائية في اتجاه الشمال عبر طريق فاس (4)، ويأتي تأسيس الزاوية الشرقاوية في موقع متوسط بينهما، كتأكيد على أهمية هذه المنطقة والتي قال عنها صاحب اليتيمة :

«إن أكثر بلاد الله أولياء تادلة في الغالب، وأن الأولياء يفرون اليها من أوطانهم كما تفر الابل الى بلد الرعي....» (5).

أهمية الزاوية الشرقاوية في العهد الاسماعيلي :

من المعلوم أن تأسيس الزاوية الشرقاوية يعود الى نفس الفترة التاريخية التي تم فيها تجديد هيكل البلاد السياسي على يد الاشراف السعديين خلال النصف الأول من القرن 10 هـ ــ 16 م. وإن مؤسس هاته الزاوية هو الشيخ الصوفي : أبو عبيد الله محمد بن أبي القاسم المشهور بـ «الشرقي» والذي تنسب اليه السلالة والزاوية الشرقاوية التي يوجد مقرها بأبي الجعد قريبا من قصبة تادلا (6) عاصر الشيخ الشرقي فترة التأسيس والتدعيم للحكم السعدي وتوفي قبيل وفاة أحمد المنصور الذهبي ببضع سنوات (توفي الشرقي سنة 1010 هـ).

ويتزامن تأسيس حكم الأسرة العلوية الشريفة، باستعادة الزاوية الشرقاوية السابق إشعاعها الديني والعلمي بعد فترة من الاضطراب تقترن زمنيا باضطراب أحوال المغرب خلال النصف الأول من القرن 11 هـ ــ 17 م وإذا كان للسلطان مولاي اسماعيل الفضل في استقرار الأوضاع بالمغرب، فقد كان لشخصيته أبي عبد الله محمد الصالح الشرقاوي شيخ الزاوية أنذاك الفضل في إعادة تعمير الزاوية واستئناف أنشطتها المختلفة وترجع أهمية هذه الشخصية الصوفية الى ما يأتي :

ــ جاء في كتاب النزهة للافراني ما يفيد الاقرار الصريح والاعتراف الواضح بدور شيخ الزاوية محمد الصالح في تأليف الافراني لهذا الكتاب الهام في إطار مساعدات الزاوية لأهل العلم ورعايتها لهم... كما نستنتج شهرة هذا الشيخ لا كفقيه وصوفي فقط بل وأيضا كأديب له باع وملكة في لغة القوم (8).

تجمع المصادر على أن الزاوية في عهد هذا الشيخ اكتسبت شهرة وإشعاعا على المستوى الصوفي والعلمي بصفة خاصة، وأنها ساهمت بقسط وافر في إشاعة التعاليم والثقافة الاسلامية في وسط كان في أمس الحاجة الى ذلك بسبب بعده عن مراكز الثقافة التقليدية.

تؤكد نفس المصادر على المكانة الهامة التي أصبحت تحتلها الزاوية على المستوى الوطني، وهو ما

انعكس على العلاقات الطيبة والوطيدة بين شيخ الزاوية والسلطان مولاي اسماعيل والتي ترددت أصداؤها ــ كما سنرى ــ من خلال علاقات الزاوية بأعلام ورجالات الحاضرة الاسماعيلية سواء تعلق الأمر بعلاقات الزاوية وشيخها بكبار العلماء والفقهاء أو رجالات التصوف.

* ملامح من التواصل الديني والثقافي بين الزاوية والحاضرة الاسماعيلية :

أ ــ في ميدان التصــوف :

تعددت مصادر تصوف الشيخ محمد الشرقي مؤسس الزاوية... بيد أن من أبرز شيوخه أبي عبد الله محمد بن عمر المختاري (9) عالم فاس زمن السلطان مولاي عبد الله الغالب السعدي وقد أخذ ابن عمر التصوف على شخصية مكناسية لها أهميتها البارزة في تاريخ التصوف المغربي وأعني به الشيخ محمد بن عيسى الفهدي المتوفي 940 هـ (10). وهذا أخذ بدوره عن الشيخ أحمد الحارثي المكناسي المتوفي 910 هـ (11).

بيد أن روابط الزاوية الصوفية بالمراكز الشمالية خاصة مكناس لم تقتصر على الأخذ بل وأيضا العطاء والتفاعل... ذلك أن الشيخ الصوفي الكبير سيدي أحمد ابن خضراء المكناسي (المتوفي 1075)، والذي يعتبر من أعلام الملامتية بالمغرب (12)، تتلمذ وسلك طريق القوم على يد أحد أبناء الزاوية البارزين هو الشيخ سيدي عبد السلام بن الشيخ محمد الشرقي، فيكون قد أخذ عن الشيخ الشرقي بواسطة.

وإذا أردنا أن نوسع الاطار الجغرافي في نحو أحواز مكناس، نجد أن الشيخ سيدي قاسم السفياني والمعروف ب «ابن للوشة» والذي هو أحد أعلام التصوف في الغرب، قد تتلمذ على أحد أبناء الزاوية وهو الشيخ محمد الغزواني ابن الشيخ محمد الشرقي (13).

ونختم هذه اللائحة بذكر علم آخر وهو سيدي علي بن محمد المدعو «حمدوش» دفين زرهون، والذي سلك بدوره طريق التصوف على يد الشيخ سيدي محمد الخفيان بن المفضل أحد حفدة الشيخ الشرقي

ب ــ في الميدان الثقافــي :

وأقصد ماله علاقة بالعلوم الشرعية تمييزا لها عن علم الحقيقة (التصوف)، بيد أن الزاوية المغربية ــ ومنها الزاوية الشرقاوية ــ جمعت بين مهام عديدة متكاملة ومنسجمة، فبالاضافة الى التربية الروحية، اهتمت الزاوية بنشر وبث تعاليم الدين الاسلامي الحنيف فقامت بدور الجامع والمدرسة العلمية سيما في المناطق النائية... وقد أكد شيخ الزاوية الشرقاوية محمد الصالح على أهمية علم الشريعة باعتباره القاعدة الصلبة التي يجب أن يقام عليها كل بناء صوفي فمن أقواله ينصح تلامذته ومريديه : «وعليكم بالعلم، فالعلم زينة الفقر وعماده وفراشه وغطاؤه ووساده. وفقر (أي تصوف) بلا علم فضيحة ومكر وخديعة... فهو ظلمة بلا سراج...».

وتحفل مصادر الزاوية بأسماء العديد من الشخصيات العلمية الصوفية والتي جمعتها بالزاوية وأشياخها روابط شتى... وسأقتصر على البعض من أعلام الحضرة الاسماعيلية.

1 ــ الفقيه أحمد بن فتوح التازي.

من كبار تلامذة العلامة سيدي سعيد بن أبي القاسم العميري بمكناس زمن السلطان مولاي اسماعيل

ومن مكناسة انتقل في مهمة علمية الى قصبة تادلا، وهناك بدأت علاقاته العلمية والصوفية بالزاوية وشيخها محمد الصالح (15).

2 ــ أحمد بن عبد القادر التستاوتي (16) :

من كبار علماء وأدباء ومتصوفة العهد الاسماعيلي، استقر بمكناس إلا أنه كان كثير التردد على الزاوية وشيخها ومن المساهمين في تعمير حلقات العلم والدرس بها، وهو العمل الذي واصله من بعده أخوه محمد العياشي التستاوتي في عهد الشيخ محمد المعطي الشرقاوي (17) صاحب التآليف الصوفية الخالدة والمعروفة بمصنفات «ذخيرة المحتاج» (18).

3 ــ عبد القادر بن شقرون المكناسي

فقيه وأديب ولغوي، إلا أنه اشتهر بثقافته الطيبة، عاش زمن السلطان مولاي اسماعيل وهو من الشخصيات المقربة اليه، قضى وقتا ليس باليسير في رحاب الزاوية الشرقاوية، مساهما في تعزيز وتنويع المواد العلمية المدرسة بالزاوية وهو ما نستفيده من النص التالي :

«فأخذت في تدريس علم النحو لبلوغ القصد ومن التصريف كال التصرف في الأمور ومن الطب النافع الانتفاع وانشراح الصدور... فمكثت عنده (أي عند الشيخ محمد الصالح) تلك المدة المباركة التي لايأتي بها زمان، ولا يعادلها وقت ولا أوان».

وبطلب من شيخ الزاوية كتب ابن شقرون أرجوزته الطبية الهامة ومن الصدف أن يظل تاريخ وفاة ابن شقرون مجهولا إلا أن تم الكشف عنه بواسطة أحد مصادر مؤلفات الزاوية وأعني به كتاب يتيمة العقود الوسطى (19).

لقد عرف عن الشيخ محمد الصالح شغفه بالعلم وتعلقه بالعلماء، وأنه بدل في سبيل جلب الأطر العلمية للزاوية جهدا كبيرا، بل إنه وضع أسس تقاليد علمية بالزاوية، من ذلك : حفل الختم، وعقد ندوات علمية على مستوى منطقة تادلا برمتها، يستدعى لها كبار علماء العصر... فلا عجب إن كان من بين هؤلاء عالم الحاضرة الاسماعيلية الشيخ العالم الحسن بن رحال المعداني التادلي، الذي كان يدعى ب «صاعقة العلوم والتدريس». جاء في كتاب اليتيمة.

«فاجتمع عليه خلق كثير من طلبة العلم من أهل الصومعة وقشتالة ونواحي تادلة من الجبل والوطا :» (20).

مما سبق، يمكن استنتاج ما يلي :

إن التعريف ببعض جوانب التواصل الثقافي بين زاوية من زوايا المغرب، وبين حاضرة البلاد مكناس الاسماعيلية يقصد منه :

• التأكيد على أهمية الزوايا ودورها في التاريخ الوطني ليس فقط منن خلال اشعاعها الفكري والروحي وتفاعلها مع محيطها الخاص والضيق، لكن أيضا ربط هذا المجال الجهوي بمختلف التيارات الفكرية داخل البلاد في إطار تدعيم المشروع السياسي.

• إبراز شمولية الاسهامات الفكرية والثقافية لمختلف مناطق البلاد؛ والتي كان من نتائجها بلورة نوع من الثقافة الموحدة على مستوى اللغة والممارسات الشرعية والصوفية، هذه الوحدة التي لاتتأثر في عمقها بحالات الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي باعتبارها عارضة من العوارض.

• إن علاقات عواصم المملكة بمختلف نواحي البلاد، لم تكن علاقات سلبية، كما حاولت أن تكرس ذلك الكتابات الأجنبية، بل علاقات تفاعل شملت مختلف المجالات بشريا، اقتصاديا، سياسيا وثقافيا... وهي الجوانب التي يجب أن تهتم بها الكتابات التراثية في محاولة جادة ومستمرة للبحث عن عناصر وعوامل التلاحم داخل المجتمع المغربي عبر مختلف أطوار التاريخ — وليس العكس — هذا التاريخ الذي أثبت استمراريته وعراقته وحضوره وحيويته عبر الأحقاب والعصور.

الهوامش

(1) د. محمد حجي : الحركة الفكرية في عهد السعديين (جزءان) في حين أن كتاب الأستاذ محمد الأخضر حول «الحياة الأدبية في المغرب على عهد العلويين (1977) لم يغط إلا جوانب محدودة من هذا النشاط وهو ما سوف يتم تجاوزه بفضل الأبحاث الجامعية التي تم إنجازها أو التي في طور الانجاز.

(2) أحمد بوكاري : الزاوية الشرقاوية — زاوية أبي الجعد — إشعاعها الديني والعلمي (البيضاء 1985).

(3) الزاوية الشرقاوية : ج 1، ص : 159 — 162.

(4) ذ.محمد حجي : الزاوية الدلائية دورها الديني والعلمي والسياسي (الرباط 1964).
الزاوية الشرقاوية ص : 162 — 166.

(5) محمد بن عبد الكريم العبدوني:ـ يتيمة العقود الوسطى... مخطوط خاص، ص.139.

(6) الزاوية الشرقاوية : ص : 67 — 80.

(7) الزاوية الشرقاوية : 103 — 108.

(8) محمد الصغير الأفراني : نزهة الحادي... (هوراس) 310 — 311.

(9) ابن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر 83.

(10) ابن عسكر الشاوني : 75 — 76

(11) ابن عسكر الشاوني : 74 — 75

(12) الأفراني: صفوة من انتشر، 157 وأيضا الزاوية الشرقاوية 152.

(13) الزاوية الشرقاوية: 153 وحول شخصية محمد الغزواني الشرقاوية.نفسه 97،98،99.

(14) الزاوية الشرقاوية : 153 — 154

(15) الزاوية الشرقاوية : 199 — 200

(16) الزاوية الشرقاوية : 200 — 201

(17) الزاوية الشرقاوية : 108 — 110

(18) الزاوية الشرقاوية : 260 — 273 حيث أفردت قسما خاصا للتعريف بهذه المؤلفات الهامة.

(19) الزاوية الشرقاوية : 205 — 208.

(20) الزاوية الشرقاوية : 209 — 210 وكذلك 220.

مساهمة علماء مكناس
وفقهائها في حل مشاكل المجتمع المغربي
عبر كتب النوازل الفقهية خلال بداية العصر الحديث

الأستــاذ محمــد مزيــن
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فـــــاس

حضرة السادة

لابد وأن معالجة موضوع من هذا النوع من طرف باحث في التاريخ تثير عددا من التساؤلات.... تساؤلات عن علاقة التاريخ بالفقه... لأن الموضوع يظهر وكأنه مرتبط بأقوال الفقهاء وإنتاجهم : فمن سائل عن الارتباط بين التاريخ والفقه، ومن سائل آخر عن الجدوى في اعتماد هذه الكتب لكتابة التاريخ خصوصا عندما نعتمد المفهوم التقليدي للتاريخ أي التاريخ الكرونولوجي...

وإجابة على هذين السؤالين وعلى غيرهما من الأسئلة الذاهبة في نفس السياق والقاصدة نفس المعنى... أرى أنه يكون من المفيد — في إطار هذه المقدمة السريعة — إعطاء بعض الأوليات عن تلك المسألة :

1 — أولا يجب أن أثير انتباه السادة الحاضرين وبالخصوص السادة الذين ليس لهم اتصال بالتاريخ — بحكم مهنتهم أو اهتماماتهم — على أن استعمال كتب الفقه وبالخصوص كتب النوازل الفقهية في كتابة التاريخ اهتمام قديم، ذلك أن مؤرخي الفترة التي نتحدث عنها اليوم (بداية العصور الحديثة) اعتمدوا مثل هذه الكتب في تحديد مجموعة من الظواهر بل في معرفة بعض الأحداث :

– ففتاوى الفقهاء المتعلقة بظروف خروج المسلمين من الأندلس بعد سقوطها نهائيا عام 1492 م اعتمدت كأساس لتحديد بعض الظواهر المتعلقة بهذا الحدث (نوازل متعلقة بالموضوع في المعيار ذكرها صاحب النزهة وكذلك المقرى)...

– والفتاوى المتعلقة بظروف معركة وادي المخازن وكذلك تلك المتعلقة باسترجاع الثغور المحتلة...

– ثم الفتاوى المتعلقة بهجومات القبائل المجاورة لفاس على المدينة (الحيانية وغيرهم)...

ـ ثم الفتاوى المتعلقة بقضية العياشي والمجاهدين بثغر سلا...

ـ ثم فتاوى اجتماعية تاريخية كقضية الاسلاميين أو البلديين وقضايا واليهود... وموقف الدولة من كنائسهم...

ـ وفتاوى اقتصادية تتعلق بملكية الأرض والضرائب عليها....

كل هذه الفتاوى ذكرت من طرف المؤرخين القدامى... واعتمدت كأساس لمعرفة أحداث فترة زمنية...

وقد استمر المؤرخون (الرواة منهم والمحدثين) يستعملون مثل هذه الكتب في إنتاجاتهم : فهذا الزياني يعتمد فتاوى فقهاء عصره، وذلك الناصرى وبعده ابن زيدان... كلهم اعتبروا كتب النوازل كمصادر للتاريخ...

ثم بعدهم المستشرقون من «هدي روجي ادريس» إلى «براشفيك» الى «جاك بيرك»... ثم المغاربة...

2 ـــ وترتبط الملاحظة الثانية ـــ في إطار هذه المقدمة ـــ بطريقة استعمال مثل هذه المصادر من طرف المؤرخين، ذلك أن طريقة استعمال تلك النوازل اختلفت اختلافا بينا من باحث لآخر.

ـ فمنهم من اطلع على مثل هذه الكتب وحاول أن يصطاد منها ما تحتويه من أحداث مضبوطة زمنا ومكانا، وتلك هي الطريقة التقليدية.

ـ ومنهم من حاول استخلاص ظواهر محددة كالتنظيم الاداري من نوازل الأقضية أو غيرها كبرانشفيك وهدى روجي ادريس أو توزيع الأراضي أو تطور المذهب... وغير ذلك من الظواهر التنظيمية...

ـ ومنهم أخيرا من اعتمدها كأساس لتحديد التطور الفكري والعقلاني للمجتمع المغربي مثل جاك بيرك الذي ينطلق من النوازل كظاهرة فكرية تتحدث عن ذلك التاريخ البنيوي الذي وصفه «لوسيان فيفر» واتباعه من أمثال «بروديل» صاحب تاريخ «المدى الطويل»، ذلك التاريخ الذي يختلف عن تاريخ الأحداث اليومية أو السنوية المضبوطة أو تاريخ المراحل القصيرة.... فمثل هذا النوع من المؤرخين يسعون قبل كل شيء إلى تتبع التاريخ البنيوي... وذلك ما حاول جاك بيرك وغيره من المؤرخين من ذلك الصنف تتبعه في كتب النوازل : تطور نوعية المعاش واستغلال الأراضي وتطور عقلية المغاربة وبالتالي موقفهم من قضايا مختلفة كالأوليات والجهاد... وغيرها من المواضيع.

وذلك ما أريد أن أحاوله اليوم أمامكم متخذا تاريخ مدينة مكناس في مرحلة أواخر القرون الوسطى وبداية الحديثة كمثال من جهة، وكتب النوازل المعاصرة لنفس الفترة كأساس من جهة ثانية.

وقد حاولت جمع التساؤلات التي أريد الاجابة عليها اليوم فيما يلي :

أولا : ماهي الخطوط العريضة لتاريخ مدينة مكناس خلال هذه المرحلة ؟

ثانيا : ماهي مكانة مدينة مكناس في كتب نوازل العصر ؟

ثالثا : ماهي أهم القضايا الاجتماعية الواردة في كتب النوازل المعاصرة والتي تهم مدينة مكناس ؟

أولا : الخطوط العريضة لتاريخ مدينة مكناس خلال القرنين العاشر والحادي عشرة :

ذكرت مدينة مكناس في كتب تاريخ هذه المرحلة عدة مرات حيث نالت المدينة حظها من كل ظواهر العصر :

1 ـــ من ظاهرة المد المسيحي وحركة الجهاد :

أ ـــ على إثر تنظيم أحمد الوطاسي لحملة عسكرية ضد البرتغاليين الذين كانوا على وشك احتلال ثغر أزمور.

ب ـــ على إثر معركة المهدية (1515)، والمهدية لاتبعد كثيرا عن مدينة مكناس...

2 ـــ ذكرت المدينة في إطار التصوف التي عرفها العصر :

جاء ذكر مدينة مكناس في كتب التراجم حيث ذكر صاحب الدوحة ابن عسكر، وكذلك صاحب الجدوة، عددا من الأولياء المكناسيين من أمثال : سيدي بنعيسى الفهري أو المجاورين لمدينة مكناس : ابن الخياط... أبو الرواين... ونعرف أهمية هذه الظاهرة– ظاهرة الأولياء ـــ بالنسبة للمغرب كله في هذه الفترة ، وبالنسبة لتاريخ مدينة مكناس خاصة.

3 ـــ ذكرت كذلك في إطار ظاهرة الهجرة التي عرفها المغرب آنذاك هجرة الأندلسيين، هجرة القبائل المحاورة...

4 ـــ ذكرت بمناسبة صعود دولة جديدة الى الحكم : دولة الاشراف السعديين، حيث جاء في كتاب المؤرخ المجهول وكتاب اليفراني ذكر لموقف علماء مكناس من الحركة السعدية : أبو الرواين وحرزوز وغيرهما.

5 ـــ ذكرت في مرتبة متقدمة في ظهائر البيعة لولاية العهد لابناء المنصور، حيث عين زيدان عاملا لابيه على المدينة...

6 ـــ ذكرت خلال القرن الحادي عشر عندما قرر المولى اسماعيل تشييد عاصمة ملكه بها، ونالت بذلك حظوة كبيرة.

إذن عايش سكان المدينة أشهر أحداث العصر... فتأثروا بها وكانت لهم مواقف منها، وكذلك كانت لفقهائها مواقف من تلك الأحداث. فهل ظهر ذلك في كتب النوازل ؟

ثانيا : ماهي مكانة مدينة مكناس في كتب نوازل العصر ؟

كانت بداية العصور الحديثة غنية بالأحداث وبالقضايا الشائكة الصعبة وكانت الفترة فترة اضطرابات وتراجع ومحن بالنسبة للمغرب كله... عصر الغزو الايبيرى للسواحل، عصر فقدان الأندلس، عصر الخوارق... عصر تراجع في الانتاج الفكري (خصوصا النصف الثاني للقرن 15 وبداية السادس عشر) عصر الشك... عصر نهاية ألف سنة على الهجرة النبوية... عصر ذلك المجتمع الذي وصفه الهبطي في

ألفيته. تلك هي الظرفية التي أفرزتها الأحداث والتي ستخلف بدورها إنتاجا فكريا رديئا ما عدا في الفقه، وحتى على مستوى الفقه — كما سنرى — فالمواضيع المتناولة مواضيع بسيطة في جملتها مثل مسائل الأولية التي يعرفها كل من تشهد بلا إلاه إلا الله... وكانت مشاكل سكان المغرب في أغلبها متشابهة...

وكثر اتصال العامة بالفقهاء وكثر المفتون والمصلحون بالمدن المغربية وبواديها... وكثر عددهم بمدينة مكناس (أشهرهم ثمانية سنذكرهم بعد قليل) وهذا يجرنا الى أن نطرح سؤالا عن الآثار التي خلفها هؤلاء الفقهاء والمفتون من مكناس أو من غيرها. ولنطرح السؤال أولا عن مدينة مكناس :

1 — هل توجد كتب نوازل لعلماء مدينة مكناس ؟

خلال العصر الذي نحن بصدده لايمكن أن يكون الجواب إلا بالنفي لماذا ؟ لأنه لاتكون هناك كتب نوازل خاصة بمدينة معينة إلا إذا توفر لهذه المدينة شرطان أساسيان :

أولهما أن يكون للمدينة أقطاب للفتوى يقصدها الفقهاء والطلبة والعامة لاستفتائهم... وكل الفقهاء الذين كانوا يمارسون مهنة الخطبة والفتوى بالمدينة مكناسة آنذاك — رغم ما عرفوا به من اختصاص ومن مستوى لائق — لم يصلوا بعد الى مستوى يسمح لهم بأن يكونوا أقطابا، وحتى إذا احسوا في أنفسهم بهذه المقدرة فهم يهاجرون الى فاس. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

☐ عبد الرحمان بن علي الوقاد المتوفى بعد عام 934 هـ/1528 م، وهو من أسرة أندلسية كانت قد استقرت بمدينة فاس ثم هاجر بعض أفرادها الى مدينة مكناس منهم والد عبد الرحمان — وقد اشتهر بالضلاعة في النوازل وأحكام القضاء.

شارك في المناظرة الكبرى حول مشكل البلديين وناصر أحقيتهم في العمل بالأسواق.

☐ وأحمد بن العربي الغماري المتوفى بعد عام 959هـ/1552 م، من قبيلة كومية الزناتية، التي استقر بعض أفرادها بمكناس، وقد اشتهر بتمكنه في الفقه والتوثيق حيث تولى القضاء والفتيا بمدينة مكناس.

☐ الحسن بن أحمد حرزوز المتوفى عام 981 هـ/1553 م الذي درس بالمغرب والمشرق اشتهر بالتدريس والخطابة والفتيا. وقد اتخذ موقفه المشهور ضد السعديين وضد محمد الشيخ.

☐ محمد بن عبد الرحمان بصري المتوفى عام 991 هـ/1581 م الذي خلف حرزوز في الخطابة والتدريس، كان حسب المصادر متضلعا في الفقه....

☐ محمد بن محمد الغماري المتوفى عام 1002 هـ/1593 م الذي قالت عنه كتب التراجم أنه فقيه كان يستظهر مختصر خليل ويستحضر اجتهادات الأئمة في الأحكام والنوازل.

☐ أحمد بن محمد العربي الغماري المتوفى عام 1063 هـ/1653 م الذي عرف بتمكنه في الفقه وأصوله، وحسن استنباطه للأحكام وعدله بين المتقاضين طوال أيام ولايته.

☐ وأخيرا محمد بن أحمد بن عزوز المتوفى عام 1066 هـ/1656 م الفقيه النوازلي الذي رحل الى المشرق وأدركته الوفاة بتونس.

كل هؤلاء إذن مارسوا الخطبة والفتوى، لكنهم لم يخلفوا كتبا مشهورة في الموضوع... ولم يكونوا —

رغم شهرتهم — من أقطاب الفتوى في العالم الاسلامي.

الشرط الثاني أن تكون للمدينة خصوصية في الفقه كما كان الحال في المغرب بالنسبة لمدينة فاس، وعلى مستوى أقل بمدينة شفشاون (بل غمارة في فترة معينة من تاريخها)، وتلك ظاهرة قديمة في الفقه الاسلامي حيث أنه في الأساس كان الامام مالك بن أنس قد اتخذ الطريقة التي كان أهل المدينة يتصرفون بها لفهم الأحاديث وحل قضاياهم، واعتبرها الطريقة الأصل في مذهبه، فسميت هذه الطريقة بعمل المدينة المنورة، وكان الحنفية والحنابلة من جهتهم قد اتبعوا عمل العراق والشافعية عمل مكة.

ولما تمركز المذهب المالكي بعد ذلك في الأندلس بدأ قضاة وفقهاء الغرب الاسلامي يعتمدون «عمل الأندلس»، ثم في عهد الحفصيين بإفريقيا (تونس الحالية) وبالخصوص القيرون أصبح «عمل القيروان» مرجعا أساسيا بدوره حيث اعتبر مرحلة انتقالية بين عمل الأندلس الذي أخذ عن الموطأ وفترة المعيار بالمغرب.

لكن المرحلة التي تحدث فيها العلماء عن العمل بالمغرب كانت خلال القرن الحادي عشر للهجرة، وكانت مدينة فاس قد وصلت الى قمتها في العلم والمعرفة، وكان علماؤها يلتزمون قبل ذلك بعمل الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة لانحيازهم الى الأمويين بالأندلس ضد شيعة عبيد الله الفاطمي، ثم بعد ذلك وبعد الحركة الموحدية تقوى الحفصيون بالمغرب الأدنى فتبعهم المغرب في اجتهاداتهم...

ولما استقل المغرب بعد ذلك بدأ يكون لنفسه فقها خاصا به، سرعان ما دونه الفقهاء من أمثال الونشريسي (المعيار) وغيره. لكن قوة الفقه المغربي لم تظهر إلا مع حلول القرن الحادي عشر للهجرة حيث نشطت حركة الفتوى بفاس خصوصا، وكثرت مناقشة الفقهاء والعلماء حول قضايا العرف والعمل. وغصت كتب الفقه المغربية بقضايا ترتبط بهذا الموضوع حتى ظهر كتاب «العمل الفاسي» لأبي زيد عبد الرحمن الفاسي في شكل أرجوزة منظومة رتب فيها صاحبها «فهم أهل فاس للفقه المالكي».

وقد اشتهرت هذه المنظومة، فقام بشرحها صاحبها أولا، ثم تبعه في ذلك علماء آخرون من أمثال السلجماسي وغيره.

وكانت هناك كتب أخرى في نفس الفترة اعتبرت بمثابة «الأعمال» رغم أنها لم تكن تحمل هذا الاسم مثلا :

«الجواهر المختارة فيما لقيته من النوازل بجبال، غمارة» لعبد العزيز الزياتي، وقد جمع فيه أبو فارس كل ما أفتى به محمد العربي الفاسي هنا وهناك بغمارة والهبط وفاس ومكناس.

ومسائل ابن عرضون مثلا...

وكل هذه الكتب تختص في مشاكل المنطقة والعصر.

وكذلك نوازل ابن هلال وهي ما يمكن أن يعتبر بمثابة عمل أهل تافلالت، وليس هناك في علمي كتب مثل هذه تتعلق بعمل مكناس لأن المدينة كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بعمل مدينة فاس، ماعدا إذا اعتبرنا أن كتاب سيدي العربي بردلة عملا مكناسيا...

2 — فإذا كانت كتب النوازل الخاصة بمدينة مكناس نادرة بالنسبة للقرنين 16 و17 الميلاديين فهل

يمكن العثور في كتب النوازل المعاصرة على أسئلة طرحت من طرف سكان مدينة مكناس ؟

أظن أن الجواب على مثل هذا السؤال صعب، خصوصا أن كتب النوازل عامة ــ كما يعرف الجميع ــ لاتكترث بذكر اسم صاحب السؤال ولا بمكان إلقائه، لأن الأسئلة المطروحة على العلماء.والمفتين هي أسئلة تعبر عن مشاكل مجتمع واسع بادية ومدينة... على أن التحديد يكون بنوعية القضايا المطروحة، مثلا إذا أخذنا كتاب المعيار وتصفحنا جزءا من أجزائه أو بابا من أبوابه، نلاحظ أنها تثير مسائل خاصة بوسط الغرب الاسلامي بما فيه من مشاكل :

- مسائل تتعلق بفهم الاسلام على حقه : القسم الخاص بالعبادات.

- مسائل تتعلق بمعرفة حكم الاسلام في عدد من القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية : القسم الخاص بالمعاملات.

ومن الملاحظ عند تصنيف المسائل التي ذكرها صاحب المعيار مثلا أن جلها يتعلق :

أولا : بقضايا الماء وتوزيعه (بالخصوص تنمية وادي مصمودة بفاس)
ثانيا : بقضايا اجتماعية : أسرية أو غيرها.
ثالثا : بقضايا الأولياء والمجاذيب وغيرهم
رابعا : بقضايا العصر المتمثلة في الجهاد والعلاقات مع المسيحيين واليهود وغيرها.

وكل هذه قضايا تهم مدينة مكناس كغيرها من مدن «مثلث المواجهة».

إذا رجعنا الى كتب الجواهر المختارة الذي جاء في ظروف تشبه الى حد كبير ظروف القرن الخامس عشر التي يصورها لنا المعيار، لاحظنا أنه يتحدث عن نفس القضايا مع التأكيد على الجهاد (74 صفحة من أصل 400 و140 نازلة من أصل 500).

وإذا كان كتاب المعيار قد جمع هموم ومشاغل واهتمامات المغاربة عموما أو الغرب الاسلامي (وهو أوسع، فإن كتاب الجواهر جمع تلك المشاكل التي تهم النصف الشمالي من المغرب حيث توجد مدينة مكناس.

بل إن مدينة مكناس كانت توجد في مثلث جغزافي انذاك غني بالتحركات الفكرية وبالأحداث والمشاكل، وهذا المثلث الذي يمكن أن نطلق عليه «مثلث المواجهة» كان يضم غمارة والهبط في قمته وفاس ومكناس في قاعدته، بل إن هذه القاعدة يمكن توسيعها الى مدينة سلا بدون عناء.

وتتلخص مميزات هذه المنطقة في :

- قربها من الثغور التي يحتلها الأجانب.
- اكتظاظها بالعلماء ورجالات الفكر عبر مراحل التاريخ.
- تعدد المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بمخالطة الأجانب.

اجتماعية : كقضايا الأسرى والعبيد
وقضايا توزيع الغنائم

وقضايا تنظيم الجهاد
وقضايا التحول الى الاسلام والردة.

اقتصادية : كقضايا المجاعات الناتجة عن قلة الأمن وإحراق الغلات...

وقضايا العملات والنقود.
وقضايا البناء والضرر وغيرها.

مما يصور لنا مجتمع مدن شمال المغرب، ومن بينها مدينة مكناس، كمجتمع مضطرب مختلط...

ثالثا : وهذا يصل بنا الى السؤال الثالث الذي طرحناه في بداية هذا الحديث وهو المتعلق بالقضايا الاجتماعية التي وردت في كتب نوازل العصور والتي تهم مدينة مكناس.

تؤكد كتب نوازل العصر على مجموعة من المشاكل عرفتها المدينة المغربية عموما ومدينة مكناس خصوصا، وتتلخص تلك المشاكل في :

ـ قضايا تثيرها ظاهرة ترحال القبائل التي احتوت خلال هذا العصر، والهجرة والتنقل القبلي عموما. فمدينة مكناس كانت في طريق ترحال القبائل الآتية من الجنوب (المرتفعات) ومن الساحل هروبا من الأجانب، ثم إن مدينة مكناس كانت ولا تزال على مشارف سهل أزغار (أو الغرب كما يسمى اليوم). ونعرف أن هذه المنطقة كانت تسكنها قبائل عربية كثيرة الحركة وهي قبائل الخلط، وقد كثرت تحركات هذه القبائل خلال النصف الأول من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر.

وكتب النوازل غنية بالقضايا التي كانت تطرحها مثل هذه التنقلات.

ـ وتعتبر القضايا التي ترتبط بالجهاد كذلك من أبرز المسائل التي عايشها سكان مدينة مكناس : وجوب الامام، تمويل الجهاد، الضرائب... وغير ذلك من القضايا المبدئية أو الطارئة التي تفيد في الوقوف على أوضاع المدينة وأوضاع المغرب عامة...

ـ قضايا الأولياء والمجاذيب الذين كثر عددهم وتزايد نفوذهم على المجتمع وعلى رجال السياسة : فابو الرواين مثلا من أولياء المدينة الذين كان لهم موقف من السعديين ومن دخولهم مكناس وفاس... والولي الصالح سيدي بنعيسى الفهدي من أولياء هذا العصر وكذلك سيدي عبد الرحمن المجدوب، وغيرهم كثير...

وإذ أكتفي بهذا القدر من الأمثلة أؤكد أن كتب النوازل من المصادر التي يمكن للباحث في تاريخ هذه المدينة أن يجد فيها ما يجعله يشيد بناءا تاريخيا مستوفيا لجميع شروط المعرفة...

ولم يكن الغرض وراء ذكر هذه القضايا وحدها دون غيرها سوى الرغبة في إثارة الانتباه الى مثل هذا النوع من المصادر لمن يريد الوصول الى معطيات أعمق من المعطيات التي تداولتها ولازال تتداولها كتب التاريخ التقليدية.

رفع الالتباس عن وضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس (أواخر القرن 17 م وبداية القرن 18 م)

الأستاذ ادريس أبو ادريس
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكنـــاس

إن الاشكالية التي نود معالجتها في هذه المداخلة تتعلق بوضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس، وكان بالامكان أن لانلتفت الى هذه القضية ولا أن نحاول رفع ما حام حولها من غموض والتباس، لولا عدم براءتها وأبعادها الاديولوجية المرتبطة بظروف وملابسات الفترة التاريخية المراد دراستها، مما أدى الى تشويه الكثير من الحقائق التاريخية المرتبطة بوضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس، وبالتالي محاولة إظهار المغرب والمغاربة كبلاد تقطنها شعوب متوحشة لاعلاقة لها بالحضارة والتحضر، مما كان له انعكاس واضح على عقلية ونظرة الشعوب الأوروبية لبلاد المغرب. كما أنها حاولت وفي إطار حملة التعصب الديني التي بلغت أوجها في هذه الفترة، أن تظهر الدين الاسلامي كدين مرادف لاراقة الدماء والاستعباد وكراهية كل ما هو أجنبي ودخيل، محاولة بذلك تضليل الرأي العام المسيحي وإثارة الشفقة على الأسرى المسيحيين وذلك بابتزاز أكثر ما يمكن من الأموال متدرعين بالعمل على افتدائهم.

ويتضح لنا من خلال الكثير من النصوص الموضوعية مدى بطلان هذه الادعاءات والافتراضات المسرودة في روايات هي أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة التاريخية. وقبل التطرق الى الأسرى ووضعيتهم بمدينة مكناس، لابد من إعطاء لمحة وجيزة عن الأسباب المؤدية الى انتشار ظاهرة الأسر وظرفه التاريخي، حتى أصبح الأسر والأسرى مؤسسة اجتماعية اقتصادية ساهمت في تدعيم اقتصاديات الدول وفتح باب التفاوض وإبرام معاهدات الصلح والاتجار فيما بينها.

فما هي الدوافع التي دفعت المغاربة الى ممارسة هذا النشاط ؟

يمكن حصرها في عاملين رئيسيين :

1) التفاوت الحضاري الناتج عن الاختلال في التوازن الاقتصادي بين أوربا والعالم الاسلامي بصفة

عامة وانعدام أسطول تجاري، والحصار الأوربي على المغرب وكثير من الدول الأخرى في الاتجار مع الدول الأوربية.

2) لقد تمخض عن هذا العامل حركة مرتبطة بالدفاع عن التراب المغربي وحماية الثغور وتحرير ما احتل منها. فكان بذلك الجهاد البحري مرتبط بالدفاع عن النفس من الخطر الخارجي والتهديد المستمر للبلاد والعباد.

ويمكن أن نضيف العامل النفسي الذي جعل الموريسكيين يلعبون دورا طلائعيا في حركة الجهاد البحري كتعويض انتقامي عما أصابهم في محنة الطرد. والجهاد البحري في هذه الفترة لم يعد حرا وإنما احتضنته الدولة وأصبحت تجني فوائده ولو أن هذه الفوائد تناقصت بدرجة كبيرة ابتداء من القرن 18 كما تناقصت أعداد الممارسين لهذا النشاط، ولهذا لم يعد يهدد إلا السفن الصغيرة كما يقرر سانت ألولن (St Olon) الذي يشير الى قلتها — 13 وحدة — وعدم تنظيمها نظرا القلة الأسلحة والتجهيزات (2) أضف الى ذلك احتكار الدولة لكل الفوائد. — يذكر بيلو Pellow أن القواد كانوا يعطون نصف قيمة الغنائم الى السلطان وكذلك كل الأسرى وكان يرد لهم جزءا من الغنائم على سبيل الاداء المقابل للأسرى الذين لايدخلون ضمن الحصة الملكية (3).

وبالرغم من تناقص عمليات الجهاد البحري في نهاية القرن 17 إلا أنها لعبت دورا مهما في تعزيز خزينة الدولة خاصة أن المولى اسماعيل استطاع تحرير الكثير من الثغور المغربية المحتلة. مثلا غنيمة العرائش، يقول الأفراني حولها : «كان عدد نصارى العرائش قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومئتين وحيث ظفر المسلمون بهم أسروا منهم ألفين وقتلوا منهم اثني عشر مئة ووجدوا فيها من البارود والعدة مالا يحصى كثرة... (4).

ولقد حدث جدال فقهي حول غنيمة العرائش من الأسرى حتى ألف في ذلك قاضي حاضرة مكناسة الشيخ أبو مدين السوسي مؤلفا لخص فيه تحقيق المسألة وأماط عنها القناع وسماه «السهم الرائش في حكم غنيمة العرائش». وهؤلاء الأسرى كان افتداؤهم صعبا فالمولى اسماعيل كما يقول ابن زيدان «لم تسمح نفسه بفداء أسير بمال قط أي وإنما كان يفدي ببعضهم من أسر من المسلمين» (5).
وهذا ما جعله يتصلب في قضية الأسرى، ففي سنة 1101 هـ (1689) جاء النصارى الى مولاي اسماعيل وطلبوا منه فداء مائة من العدة التي أسرت من العرائش فشرط عليهم السلطان خمسمائة أسير وخمسة آلاف كتاب ومالا كثيرا وبعث كتابه معهم ليختاروا الكتب والأسارى — حسب ما أكده القادري في حولياته (6).

وهذا التشدد كان له ما يبرره لما كان عليه الأسرى المسلمون لدى الدول الأوربية، أضف الى ذلك الاستفادة من خبراتهم فقد كان منهم «الرخامون والنقاشون والحجارون والحدادون والنجارون والزواقون والمهندسون والمنجمون والأطباء (7). فأصبح بذلك الأسرى كمؤسسة اقتصادية استفادت الدولة منها كثيرا خاصة من خبراتها في ميادين متعددة كالجيش وصناعة الأسلحة.

وهكذا نلاحظ في الأخير أن الجهاد البحري وما ارتبط به من تحرير لبعض الثغور المغربية أدى الى خلق روح جهادية لدى المغاربة تبلورت في الدفاع عن حوزة الوطن وخلق حمية دينية واجهت بصلابة كل الأطماع الأجنبية، كما أنه أدى الى الحصول على مكتسبات مادية لعبت دورا مهما في تعزيز خزينة الدولة وأوجد أرضية اقتصادية مهمة من اليد العاملة والخبرات خاصة في الحاضرة مكناسة.

فما هي الوضعية التي كان عليها هؤلاء الأسرى المسيحيون بالحاضرة الاسماعيلية ؟

في الحديث عن الأسرى، أول شيء يثير انتباهنا هو ما أثار من ضجة كبيرة في وقته أو فيما بعد، وتأزمت من جرائه العلاقات بين المغرب وبعض الدول الأوربية، وألفت حوله الحكايات والأساطير مبالغة في تصوير المغرب وسلطانه وكأن الأول مقبرة والثاني «سفاح» الأسرى المسيحيين.

ولهذا فالكتابات الأجنبية التي كتبها رجال دين زاروا المغرب، أو بعثات ديبلوماسية، أو أسرى ورحالة مزيفين كتبوا نقلا عن كتب أخرى فزادوها تشويها وملأوها خرافات وأساطير، وكلهم كانوا يحاولون التأثير على الرأي العام الأوربي وإثارة الغرابة في كتاباتهم لتضخيم وضع الأسرى واستجلاب العطف والشفقة عليهم، وهناك من كتب انطلاقا من التعصب الديني كالأب بوسنو Busnot وسانت أولون St.Olon.

وقبل أن نتطرق الى الصور المزيفة عن وضع الأسرى المسيحيين بمكناس، نود الاشارة الى قضية أثارت حولها الخلاف، وهي المتعلقة بعدد الأسرى في المصادر العربية التي أوصلت الرقم الى 25 ألف أسير، ونفس الشيء بالنسبة لبعض المصادر الأجنبية. لكن هذا الرقم بعيد عن الواقع لا تؤيده أغلبية المصادر الأجنبية منها المكتوبة من طرف الأسرى أنفسهم، أو من تقارير البعثات الديبلوماسية، التي من خلال استقرائها نصل الى عدد ينحصر من 700 الى 2000 أسير أواخر القرن 17 (حوالي 1690).

ويذكر وندوس في كتابه «رحلة الى مكناسة محل إقامة امبراطور فاس والمغرب بمناسبة سفارة ستيوارت لفداء الأسرى البريطانيين سنة 1721» (9) أن في هذه السنة كان عدد الأسرى الأوربيين بمدينة مكناس حوالي 1114 أسير، وهم على الشكل التالي :

- 400 اسباني
- 300 انجليزي (وقد أسلم منهم 19).
- 165 برتغاليا
- 152 فرنسيا
- 69 هولنديا
- 25 جنويا
- 3 من اليونان

المجموع : 1114.

وسنلاحظ أن هؤلاء الأسرى سيتناقص عددهم باستمرار ابتداء من بداية القرن 18 الى أن يصل عددهم سنة 1740 ما بين 150 الى 200 أسير.

هذا إضافةالى عدد «المرتدين» الذين يتراوح عددهم حسب برايت ويت وبيلو ما بين 600 الى 1500 مرتد (10) والذين استطاعوا باعتناقهم الاسلام الارتقاء في السلم الاجتماعي ولعبوا أدوارا مختلفة سواء في الميدان العسكري كجنود وضباط مثل بيلو أو مشرفين على صناعة وإصلاح الأسلحة، أو كأطباء، وفي الميدان التجاري، ولقد استطاع أحدهم أن يصبح عاملا على سلا وآخر على فاس (11).

وهؤلاء «المرتدين» منهم من يعتنق الاسلام عن صدق وحسن نية، ومنهم من يعتنقه، وكما يذكر مويت

Mouette (12) «عندما يفقدون الأمل في شرائهم من طرف بني جلدتهم وإطلاق سراحهم وليغيروا القساوة التي يعاملون بها ولتتاح لهم فرصة الهروب الى دولة مسيحية» ؟

فماهي إذن حقيقة هذه القساوة التي ركز عليها الأوربيون في معاملة الأسرى ؟

يقول سانت أولون St-Olon — (في كتابه : الحالة الراهنة لامبراطورية المغرب (13) إن الأسرى المسيحيين الذين يخدمون في كل وقت ودون انقطاع، ويجعلونهم عمالا وبنائين بقوة السياط والبؤس، مما يجعلهم يتساقطون بكل سهولة خاصة وأن معيشتهم اليومية لا تكون إلا من قطعة صغيرة من خبز الشعير شديد السواد والماء، ولا يسكنون إلا في المطامير أو في أماكن تحت الأرض، حيث لا سرير لهم إلا الأرض ولا يستنشقون غير هواء جد سيء ومتعفن».

وفي تقرير البعثة الدينية De la Merci (1706 — 1716) يلخصون الوضع بالقول : أن الأسرى عندما يستيقظون في الصباح لايمكنهم القول بأنه سينامون المساء». (14) هذا إضافة الى الصور المثيرة للغرابة التي نجدها عند الأب بوسنو(15)الذي يصور لنا تقديم الأسرى المسيحيين للحيوانات المفترسة والتنزه عليهم أو قتلهم مباشرة، وهذا ما دفع الكثير من الروايات الى المبالغة في عدد القتلى من الأسرى، فمنهم ما رفع العدد الى 20 ألف أو 36 ألف، ومنهم من أوصل العدد الى 40 ألف !؟ وهذه الأرقام كلها افتراءات وبعيدة عن الحقيقة التاريخية، ففي سجل الوفيات المعد من طرف رهبان مدينة مكناس تجد عدد الوفيات ما بين 1684 — 1727 حوالي 127 أسيرا (16).

ويلاحظ كوهلر Kohler (17) أن عدد الوفيات وصلت الى 109 في ظرف أربعين سنة، مؤكدا على القتل المتعمد وليس الطبيعي.

وحتى هذه الأعداد الأخيرة يمكننا أن نتساءل حول الطريقة التي ماتوا بها، خاصة وأن الفترة كانت فترة أوبئة متتالية، مما جعل مدينة مكناس المزدهرة والمكتظة، حيث وصل عدد سكانها ــ سنة 1727 — حسب بريت ويت Braithwait الى 300 ألف سنة (18)، نرى أبا مدين الدرعي في رحلته (1739 هـ) يعطينا صورة قاتمة عن الانهيار السريع الذي لحق بهذه الحاضرة، حيث يقول : «خرجنا نمشي في أزقة المدينة فالقيناها قريبة من الخلا لانجلاء أهلها عنها من الفتن... وأكثر حوانيت أسواقها خالية فدخلنا جامعها العتيق الذي ببابها فالقينا أثر الخراب عليه يلوح والحمام بنواحيه تنوح ولم نر به سوى رجل واحد توضأ في صحنه فتعجبنا من ذلك» (19).

والان نتساءل عن الوجه الثاني للعملة، وكيف يمكن تفنيد الاراء السابقة، المنطلقة من أبعاد ايديولوجية واضحة ؟

نجد أمامنا شهادات مختلفة لكن هذه المرة ليست من رجال الدين أو مسيحيين متعصبين قدامى أو محدثين غذتهم النزعة الاستعمارية (كشارل أندري جوليان وتيراس، وإنما نتلقاها مما كتبه بعض الأسرى في مذكراتهم بعد عودتهم الى بلدانهم أو مما كتبه بعض القناصل والمرافقين للبعثات الديبلوماسية.

وهذا الأسير جوزي دوليون (Jose de leon) الأسير بمكناس (1708 — 1728) يصف لنا حالة الأسرى بمدينة مكناس، نستعرض البعض منها، يقول :

«إن الأسرى الذين كانوا يخدمون في البناء والحدادة، كانوا يسكنون في مقر عملهم أما الآخرون

فيسكنون في مكان وسط المدينة كان يسمى «القنوط» ...كان بعضهم يحصل على ما يحتاج إليه بالعمل في أوقات الفراغ، والذين كانت سيرتهم حسنة، يعطى لهم تسريح بفتح حانة أو ممارسة حرفة أخرى في القنوط...الأسري المهرة والمستقيمين والذين يتكلمون العربية كانوا يوظفون في معامل السلطان ومهمات أخرى تتطلب الثقة(الأمانة)..وكانت لهم حرية التجول داخل المدينة... ويحدث أن يقف السلطان بجانبهم في خصوماتهم مع المسلمين...الموتى يدفنون نصف مرحلة خارج مكناس...القداس يقام كل يوم في الدير الفرنسيسكاني، المرضى الاسبان يتلقون العلاج في مستشفى الدير حيث صيدلية وجراح، والأجناس الأخرى كانت لهم مستشفيات خاصة...

في مكناس كان يوجد دير فرنسيسكاني يضم من 10 الى 12 قسا، وراهبان وعيادتان... وهناك أسرى اسبان يساعدون الاباء» (20).

وفي تقرير البعثة الدينية De la Merci نلاحظ التنظيم داخل جماعة الأسرى والتسيير الذاتي الذي كانوا يتمتعون والمساعدة المقدمة لهم :

«إن الأسرى كانت تعطى لهم كل سنة جلابية «Gerabi» وكان لهم الحق في الدفاع عن أنفسهم ضد كل من شتمهم على شرط أن يكونوا بالجلابة...

وكان مكان إقامتهم مسدود من كل الجوانب ولا يمكن الدخول إلا من باب كبير محروسا بشدة من طرف مغاربة... كل مجموعة جنسية كان عليها رئيسها الذي كان معفيا من الخدمة مثله مثل الذين يبقون في القنوط لتهييء الطعام للأسرى عندما يعودون في المساء، وهذا الرئيس (المقدم) يغير كل سنة وكان ينتخب بأغلبية الأصوات، وكانت مهمته الأساسية أن يوزع على مواطنيه الصدقات المرسولة اليهم، وكان يحتفظ بجزء منها لمساعدة المرضى وله حق فرض العقوبات لمن يستحقها، ولكل أسير سكن صغير من الخشب حيث ينام على سرير من التبن» (21) وكانوا يسكنون في مكان يسمى القنوط كان قديما ملاحا ولكل مجموعة جنسية حيها، في الوسط مصلى صغيرة حيث أحد الآباء الفرنسيسكان يردد القداس كل يوم (22).

وهذا بريت ويت Braithwait المصاحب لسفارة ديبلوماسية سنة 1727 ــ بعدما يؤكد ما سبق أن أكده الأسرى يضيف حول عملهم، بأنه «ليس قاسيا الى حد العمل العادي الذي نجد عليه عمالنا المياومين... وسكنهم ليس له الطابع المفزع لسجوننا... لكل جنسية سكنها الخاص وحانتها وسوق لبيع مختلف المواد الغذائية والفواكه... وفي كلمة واحدة لقد رأينا أعدادا تعيش في «البلاد البربرية» Barbarie في سعة كبيرة والتي لايمكن بتاتا أن ينتظرونها من وطنهم الأصلي... وأخيرا يمكن أن نؤكد بأن وضعية الأسرى أقل درجة من العبودية... وهناك عدد من هؤلاء المسيحيين أغنياء وكثير منهم ونحن شاهدون على ذلك حملوا مبالغ مهمة، وكثيرون لهم مبالغ وبعضهم له خدام... ويتساءل متعجبا ؟ «هذه هي التي يسمونها الأسر غير المحتمل، هذه هي المعاملات البربرية التي جعلت منها المذكرات ضجة ليجعلوا من كلمة تركي أو مغربي (Maure)، كلمة مكروهة في البلاد المسيحية، وليس هذا هو الموضوع المشوه بغرابة في مذكرات الرحالة» (23) ويضيف «وهذا ليس لمدح المغاربة، وليس لتضخيم الأفكار بأكثر مما تستحق حقيقة، ليس لي أي هدف سوى إعطاء الحقيقة عارية» (24).

لقد اقتصرت على هذه النصوص لما فيها من موضوعية في السرد ودقة في الوصف، وهناك نصوص أخرى متعددة لايسمح الوقت باستعراضها.

ماذا يمكن أن نستنتج من كل هذا ؟

1) إن وضع الأسرى بالعاصمة مكناسة لايختلف كثيرا عن حالة السكان الأصليين أنفسهم، فقد كانوا يتمتعون بحقوقهم كاملة في التسيير الذاتي لجماعتهم وممارستهم لشعائرهم الدينية بكل حرية واندماجهم في المجتمع المغربي، وهذا ما جعل العديد منهم «يرتد» عن دينه ويعتنق الاسلام ويصل الى أعلى المراتب في السلم الاجتماعي، ولربما هذا الارتداد المتزايد هو الذي جعل البعثات الدينية تتوالى على مكناسة، لزرع الاطمئنان في نفوس الأسرى بفتح باب الأمل لافتدائهم. وحتى الذين تمكنوا من العودة الى بلدانهم نلاحظ في كلامهم نبرات الندم، باصطدام بحقيقة بعيدة كل البعد عن التي كانت مرسومة في أذهانهم فقد عاشوا مشردين غرباء في وطنهم (مثال بيلو الانجليزي).

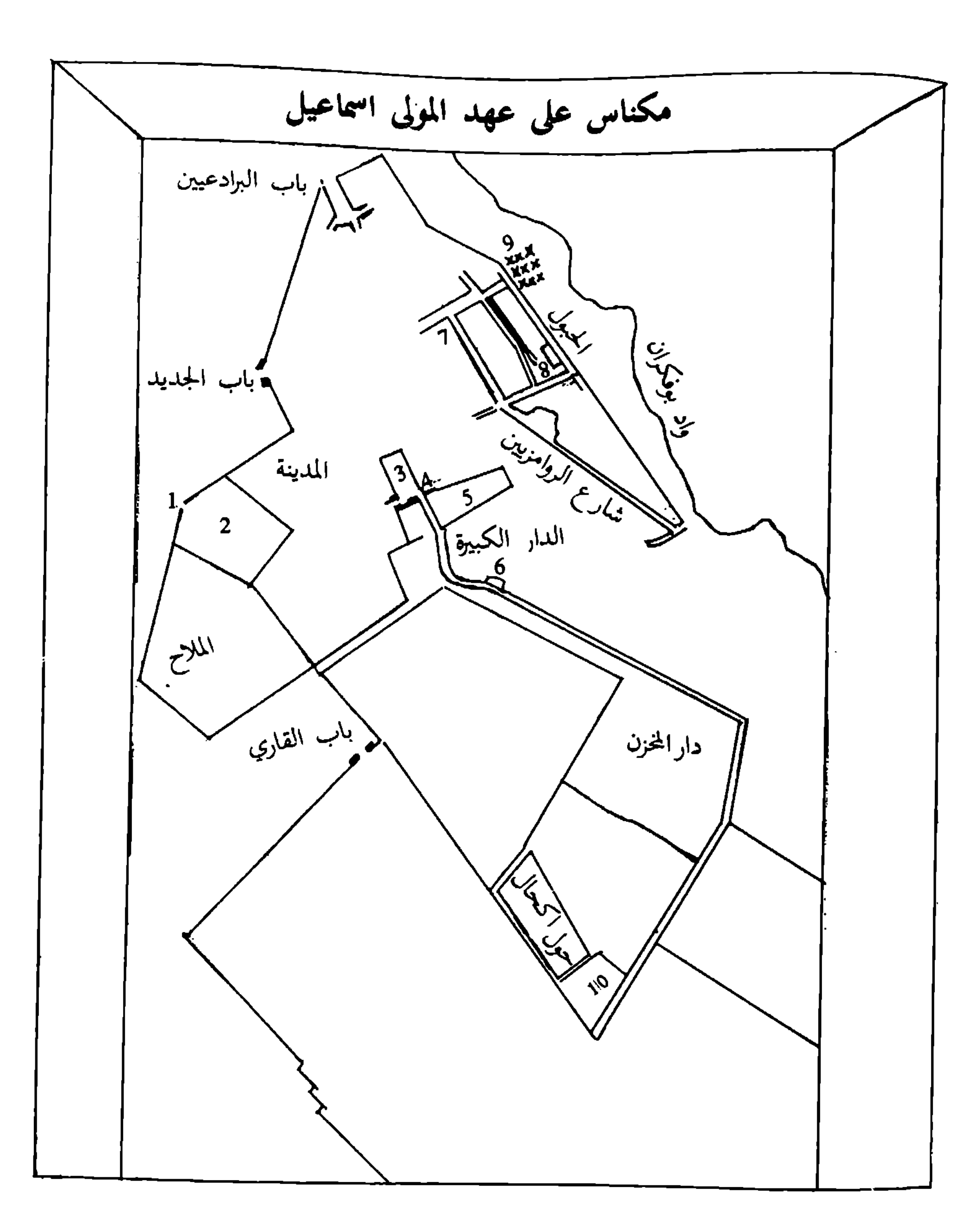
2) إن وضع الأسرى المسيحيين هذا كان أحسن حظا من إخوانهم المسلمين بالدو الأوربية (كفرنسا وأنجلترا واسبانيا والبرتغال)، والذين يعيشون في ظروف جد سيئة ومحرومين من أبسط حقوقهم بل ومن معاملتهم كبشر، ويؤدون أعمالهم الشاقة وهم مقيدين بالسلاسل أو مربوطين بها في إحدى دور أحد الأسياد (De la Merci) (25).

وربما أن وضعيتهم المزرية هذه وأعدادهم الكثيرة هي التي جعلت المولى اسماعيل يتشدد في افتداء الأسرى المسيحيين، وأن يظهر بموقف متصلب أمام رغبته لويس 14 الذي كان يرمي في مفاوضاته مع السلطان الى تبادل الأسرى رأسا برأس، في الوقت الذي يطالب فيه السلطان 3 مغاربة مقابل فرنسي، ويرفض حتى المقابل المادي لافتداء الأسرى (26).

3) وأخيرا نلاحظ السكوت المقصود عن وضع الأسرى المسيحيين بمكناس من طرف المؤرخين المعاصرين خاصة الأوربيين — وتبنيهم للأطروحات المشوهة لهذا الوضع وذات البعد الاديولوجي المعادي للاسلام — فأدخلوها هم الاخرون في إطار بعد ايديولوجي مغلف برسالة الحضارة والتمدن أمام الوحشية والتخلف ؟

أما حول الأسرى المسلمين فلا حديث عنهم إلا من مؤرخة معاصرة تتساءل بعطف وإشفاق قائلة : «لنفكر في المسلمين الذين كانوا محتجزين كأسرى دون أمل كبير في شرائهم قبل أن يصبحوا شيوخا أو مرضى. محرومين من ممارسة شعائرهم الدينية، والسفراء المغاربة الذين يأتون الى فرنسا لايستطيعون الاتصال بمواطنيهم المسجونين. إن هنا تاريخا قاسيا والذي يمكن أن يكتب يوما ما انطلاقا من سجلات البحرية (27).

نعم إن من اجبنا كمؤرخين البحث في هذه السجلات والوثائق، وإعادة كتابة تلك الصفحات المؤلمة بموضوعية مظهرين لمن شوهوا تاريخنا ما كان لهذا البلد من تقاليد في التسامح، وعادات في الاندماج والتمازج والتفتح والانفتاح.



1 ــ باب بريمة

2 ــ الملاح القديم

3 ــ الهديم

4 ــ باب المنصور

5 ــ ساحة اللاعودة

6 ــ قبر سيدي عبد الرحمن المجدوب الذي بني بجواره ضريح المولى اسماعيل

7 ــ حارة المسيحيين

8 ــ الدير والمستشفى الفرنسيسكني

9 ــ المقبرة المسيحية

10ــ الاصطبلات الملكية

الهوامش

(1) عنوان المداخلة التي تمت المشاركة بها في ندوة «الحاضرة الاسماعيلية» أكتوبر 1986 — كلية الآداب والعلوم الانسانية مكناس.

(2) St. Olon. Etat présent de l'Empire du Maroc. A Paris p. 14

(3) T. Pellow. in M. Morsy — La relation de T. Pellow. Paris 1983. P. 133

(4) الافراني — روضة التعريف — المطبعة الملكية — 1962 — ص 59

(5) ابن زيدان — الاتحاف — ج 1 — ص 135.

(6) القادري — الحوليات.

(7) ابن زيدان — مصدر سابق — ص 135

(8) انظر — الناصري — الاستقصاء — ج 7 ص 103 — والاتحاف — مصدر سابق — ص 135.

(9) انظر — محمد داود — تاريخ تطوان — ج 11 — ص 81.

(10) Braithwait — Histoire des Révolutions de l'Empire de Maroc. Amsterdam p. 197.

(11) T. Pellow — op. cit. p. 23 et p. 100.

(12) G. Mouette — Description du Maroc. S.I. — D.F. T : II France 3ème livre p. 174.

(13) St. Olon — op. cit. pp : 75 — 76.

(14) Relation des voyages des redempteurs de la Merci en 1704 — 1708 et 171
S.I.H.M. — D.F. France. 2ème Série T. VI — P : 657.
D. Busnot — Histoire de Régne de My. Ismaïl — seconde Ed. Rouen. p 59-60-61.

(16) M. Morsy — op. cit. p. 21.

(17) P. Henry Kohler — quelques points d'histoire sur les captifs chrétiens de Meknès 1928. T : VIII — 2ème Ed. P : 184.

(18) Braithwait — op. cit. p : 358.

(19) رحلة أبي مدين الدرعي مخطوط خ. ع رقم ق 297 — ص : 253 — 254.

(20) J. de Leon — in — chantal. de la veronne — Vie de My. Ismaïl, d'après J. de Léon (1708 — 1728) Paris21974 P : 69-70-71-72.

(21) Relation de la Merci — op. cit pp 665 — 666.

(22) Ibid — pp — 663 — 664.

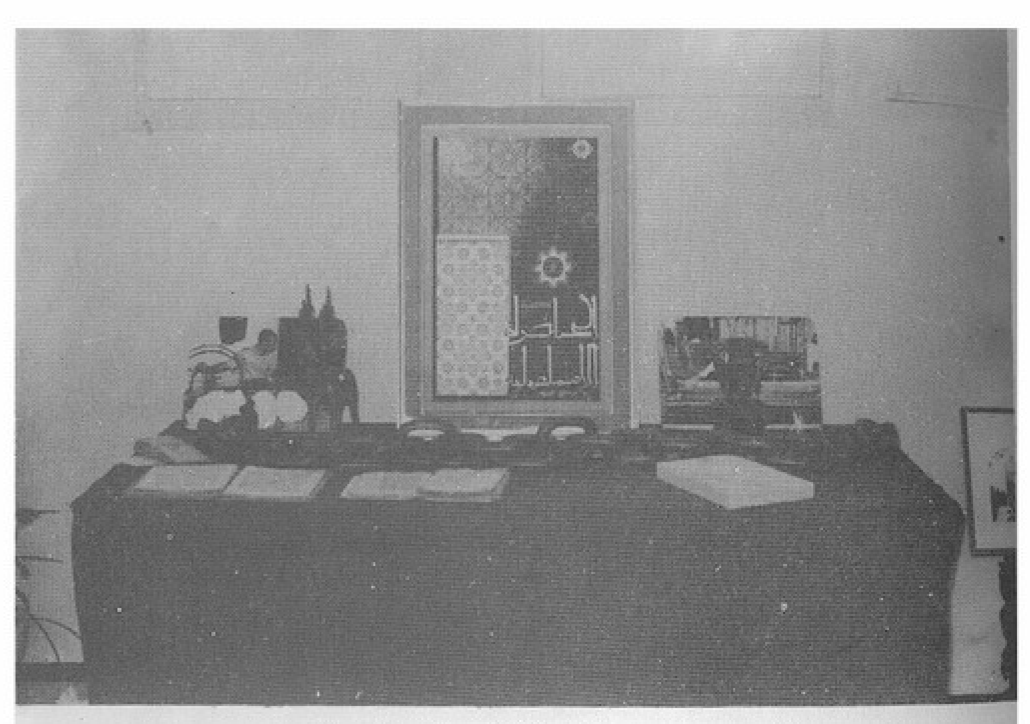
(23) Braithwait. op. cit. p : 439 — 440 — 441.

(24) Ibid. pp : 441 — 442

(25) Relation de la merci — op. cit. p : 66

(26) Ibid. p : 661.

(27) M. Morsey. op. cit. p : 21.



جانب من معرض المخطوطات واللوحات الفنية...



عرض للكتب وبعض المصادر



وضع الحجر الأساس لتوسيع الكلية

التدابير العسكرية بمدينة مكناس
في القرن التاسع عشر : طبيعتها وأهدافها

محمد اللحية
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة القاضي عياض
أكادير

مقدمة :

يناقش الموضوع، جانبا من سياسة المخزن، في توفير الحماية للمراكز الحضرية، وتعزيز النفود بالنقط الرئيسية بالمغرب في القرن التاسع عشر، علما بأن الاهتمام بالتحصينات، والعتاد، والحاميات العسكرية، التي تمثل جميعها عناصر هذه السياسة، تعتبر بالسنبة لمدينة مكناس، ومن دون شك بالنسبة لمثيلاتها من المدن الاسلامية والمغربية، تقليدا رافق نموها في جل أطواره التاريخية، إن لم يكن ذلك كليا فجزئيا، وإن لم يكن بالتجديدفبالتفقد والاصلاح. على أنه إذا كانت دواعي تلك التدابير قبل القرن التاسع عشر محلية، بواعثها في الغالب، أهمية الوظيفة العسكرية التي كانت تسند الى المدينة تحت هذا الحكم أو ذاك، وبالقلق الناجم عن التحولات السياسية وتحركات القبائل العابرة لسهل سايس (القبائل العربية) أو المتطلعة الى النزول اليه (قبائل الأطلس المتوسط)، فإن إجراءات المخزن، في هذا المجال، مثل أي مجال آخر، قد وقعت خلال القرن المذكور، تحت تأثيرات الظرفية الأوربية، وبالتالي فإن معالجة الموضوع ستتم على ضوء ما طرأ على سياسة المخزن من تغيير في الوسائل والأهداف.

1 ـــ المنجزات العسكرية : طبيعتها

لم تكن الأعمال العسكرية المنجزة بالمدينة في القرن التاسع عشر، من الأهمية البالغة التي تثير الاهتمام، إذ لامجال لمقارنتها مع أعمال السلطان مولاي اسماعيل الضخمة، ولا حتى مع أعمال بعض الحكام المرابطين والموحدين والمرينيين من قبله (1). ومع ذلك تظهر منجزات هذا القرن تفاوتا واضحا من حيث اهتماماتها، فبقليل من التمعن، يستطيع المتتبع لها أن يلاحظ بأن ما أنجز قبل 1873، كان لتعزيز الوسائل الدفاعية للمدينة، وأن ما جاء بعد هذه السنة، أيام مولاي الحسن، كان لضبط القبائل وشدها أكثر الى هذا المركز العسكري.

لنر ما تم قبل سنة 1873، أي تحت حكم السلطانين المولى عبد الرحمان وابنه المولى محمد، أما السلطان مولاي سليمان فلا ترد ضمن المؤلفات الرسمية أية إشارة عن أعماله في هذه القبيل،وعلى النقيض

من ذلك، فهي تبرز كيف أن نهاية دولته كانت مناسبة أخرى لتخريب ما سلم من البناءات والغراسات، في الأيام القائمة السابقة (2).

كانت مدينة مكناس إذن، لما قدمها المولى عبد الرحمان أول مرة سنة 1823، في حالة يرثى لها : قل ما تبقى من الجيش في حالة بؤس وفاقة، مفارس مجتثة أو محرقة، أسوار وأبراج متداعية للسقوط، ومدينة شبه فارغة إلا من قليل من السكان، لهذا بذل السلطان كثيرا من الجهد للنهوض بها، سيما وأنه كان كثير التردد عليها، فينبغي على الأقل أن تكون في مستوى الاستقبال وضامنة للاطمئنان. وطبيعي، أن يكون اهتمامه الأول بعد تخليه عن جيش لوداية بسبب ثورته سنة 1832، هو تحسين وضعية الجيش البوخاري، الذي سيجد منذئذ مكانته الاجتماعية المفقودة (3). ومما اتخذه السلطان بشأنه، بعد لم شتاته، تنظيمه وإجراء الراتب عليه (4)، ثم تطعيمه بعناصر جديدة من الخلط الذين أسكنهم غرب وشمال غرب مدينة مكناس، إما داخل الأسوار بقصبتي تيزيمي وجناح الأمان، أو غير بعيد عن المدينة بقصبة أحرضان ووادي الشجرة (5). كما أن ابنه المولى محمد، وهو لايزال وليا للعهد، وخليفة له على منطقة مكناس، قام بنقل أهل تولال من «دار الدبيبغ» بنواحي فاس، وأنزلهم بضواحي مكناس حيث تم الحاقهم بجيش البواخر (6).

تفقد السلطان بعد ذلك، مرعى أكدال، الذي كان جده المولى محمد بن عبد الله، سبق أن اتخذ منه مكانا لانتاج الخيول والأفراس المخصصة لركوب قواد الجيش والركب السلطاني (7). فأظهر من أجل إعادة نشاطه، صرامة وتشددا كبيرين (8). وعلى أراضي حمرية والقصبة الاسماعيلية، التي كان جزء منها، يصلح لزراعة بعض المواد الصناعية أيام الرخاء الاقتصادي بالمدينة، أقام السلطان لخيوله بعض المزروعات العلفية كالفصة، والقصيل (9) (10).

كانت ضرورة إعادة النظر في تحصينات المدينة أكثر إلحاحا لعوامل أمنية ستوضح فما يأتي. وقد انطلق السلطان بترميم أو إصلاح المتلاشي من القصبات والأسوار ذات الأهمية الحيوية، فوقع ترميم «برج الماء» المشرف على المرس وعلى نهر بوفكران سنة 1830/29/1245. وتم إصلاح سور قصبة سيدي سعيد، وتجديد سور مقبرة اليهود الملتصقة بملاحهم حوالي 1275 هـ (11). وليأمن طرف المدينة الغربي والشمال الغربي من مضايقات القبائل، بنى السلطان بابين خارجيتين : باب الملاح أو باب وجه عروس، والباب المسمى في الوثائق المخزنية بباب الشيخ الهادي بن عيسى (12) والشائع عند الناس باسم «باب السيبة»، وقد تم الربط بين البابين بسور وقائي خارجي كذلك، ومن دون شك فهذا الانجاز يعتبر آخر بناء مؤثر على الشكل العام للمدينة قبل الحماية، وأهم عمل في مجال التحصينات في القرن التاسع عشر، إذ بفضله صارت جل الأسواق المرتبطة بالتجارة القروية، محتضنة داخل الأسوار، ومن جملتها سوق الماشية الذي كان من قبل، في أوقات الشدة يعقد خارج باب جديد (13).

أما إنجازات السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان، فنادرة جدا، وربما لارتباطه القوي بمراكش وانصراف الاهتمام اليها، لم يترك بالنسبة لمكناس سوى ترميمات بسيطة داخل القصبة المخزنية، وترميم جزء من سور جناح الامان غرب المدينة أيضا (14).

فإذا ما انتقلنا الى أعمال مولاي الحسن، ألفينا أشغالا من طبيعة أخرى. حقا لقد تابع السلطان بالرعاية بعض ما بدأ سابقا، كالاعتناء بالجيش وتنظيمه، بل وبالاضافة اليه حوالي 630 من العسكر

النظامي (15)، وبالرفع كذلك من معنويته أكثر، لما صار ينتخب منه الموظفين، وينتقى منه الطلبة المبعوثين للخارج (16). إلا أن الشاغل الأساسي للسلطان ظل مشدودا الى ميداني صناعية البارود، وإقامة القصبات الخارجية.

بخصوص الميدان الأول، أفردت الدراسة المنجزة عن «الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر» حيزا كبيرا لصناعة البارود باعتبارها الوحيدة التي كان المخزن يحتكرها انتاجا واستغلالا، وباعتبار الاصلاح الذي شملها. فقبل سنة 1300 هـ/81 ـــ 1882، كان النوع المصنوع بمكناس هو المسمى «بالبارود السباعي» الذي كان ينتج في ظروف سيئة، ثم انطلاقا من هذه السنة ظهرت لدى السلطان رغبة أكيدة في تعويضه بنوع آخر أكثر جودة وفتكا هو المسمى بـ «البارود المزدج ». لكن السلطان في بداية الأمر حار في الكيفية التي سيقوم عليها هذا «الاصلاح»، فهذا أحد الفاسيين، تسمية الوثائق بـ «صاحب الفبركة» يعرض عليه الانجاز بالكيفية العصرية، وهذا المحتسب أجانا المتشبث بالتقاليد يدعو الى الالتزام بالأعراف المتبعة لدى «أشياخ» هذه الصناعة.

أخيرا مال السلطان الى التقليد، فأسند الى أجانا وضع ضابطه الذي عمل فيه على المراجعة بالاصلاح ـــ وفق الأعراف والتقاليد ـــ جميع مستلزمات هذه الصناعة، من تهيىء موادها الأولية، إلى أساليب الانتاج ووسائله وظروفه، إلى طرق الصيانة وعمليات البيع (17). كما أظهر المخزن بواسطة الظهير الذي أصدره في هذا الشأن، تشددا كبيرا في محاربة تعاطي الصناعة بعيدا عن مراقبته المباشرة (18). وقد شمل الاجراء صناع المناطق المجاورة أنفسهم، إذ نجد أجانا بعد تسلمه مسؤولية هذه الصناعة في رمضان 1305/ماي 1888، يكتب الى قواد القبائل الواقعة تحت نفوذ مدينة مكناس والمشهورة بتعاطيها لصناعة البارود، وهي قبائل زرهون، وسوق الثلاثاء بمكس، وسوق الاثنين قرب دار القائد مبارك، وسوق خميس سيدي قاسم، والأحد بجروان، مؤكدا للجميع على صرامة الظهير السلطاني، ومفسرا لهم أن لاسبيل الى الاشتغال بهذه الصناعة، إلا بمدينة مكناس تحت المراقبة الرسمية للمحتسب (19).

هل لنا أن نجد تفسيرا لهذين الاجرائين : إصلاح الصناعة البارودية على أسس تقليدية، وإخضاعها للمراقبة الشديدة ؟

نعم، فقد يثير هذا «الاصلاح» في الوهلة الأولى، التساؤل والاستغراب، سيما إذا طرح على بساط المقارنة مع ما تم بمراكش وفاس من منجزات عصرية، على أن الأمر يصبح طبيعيا لما ينظر الى مكناس، أنها الى هذا العهد كانت دائما دون نسبة تجارهما (20)، ومن ثم فإن حظوظ التغيير على أسس عصرية كانت ضئيلة جدا. ولتوضيح كيف كانت العقلية السائدة متشبثة بالتقاليد نافرة من التجديد، والتي كان المحتسب أجانا أحسن نموذج لها، نورد فقرة له، يعارض فيها الفاسي «صاحب الفبركة»، حيث يقول للسلطان بشأنه «فلا يوافق ، ولا يساعد ويذهب لحال سبيله، والبارود يخدم على العرف المغربي بشروط أشياخه الذي هو أحسن من الرومي والعرب بالباب، وإن شاء مولانا الكثرة من (البارود المزدج) ينفذ لنا عشرين من الوصفان من أجود مايكون في الصحة، زيادة على المعلمين هنا (مكناس) يشرعون في خدمته، وحين يتعلمون يأتي بدلهم، ويكون ذلك مقررا (هكذا) في كافة الأذهان، كما كان عليه العمل حياة أسلاف مولانا الكرام...» (21).

وبالسهولة نفسها ندرك كنه الاجراء الثاني، فالتشدد الذي أحاط بصناعة البارود يقف وراءه عاملان

واضحان : اقتصادي، حيث كان ضابط أجانا يقتضي بأن يصنع المخزن مثلا قنطارين من البارود : واحد من النوع المزدوج كان يوجه للخزين، والآخر من النوع العادي كان يباع في السوق على يد المحتسب وتؤدى منه جميع المصاريف عن النوع المعد للخزن (22)، وعامل سياسي/عسكري، إذ من تقاليد المخزن أن يحتكر هذه الصناعة ليتقوى بها جانبه، إلا أنه كثيرا ما كان يفقد زمام السيطرة على فرضها، كما حدث قبل عهد مولاي الحسن بشهادة انتشارها عند القبائل. ويدل على أهمية هذا الدور السياسي في فترة مولاي الحسن، أن الشروع في تطبيق سياسته المتشددة وقع قبيل الحركة على بني مگيلد وأثناءها خلال شهر رمضان 1305/يونيو 1888، مما يوضح أن جزءا منها كان يدخل في هذه الاستراتجية الحربية (23).

أما بالنسبة لسياسة القصبات، فهي بخلاف صناعة البارود المتسمة بضيق مجال تطبيقها على مستوى مدينة مكناس، ظاهرة عمت جميع مناطق المغرب ذات المواقع الحيوية واستراتيجية، كالريف ونواحي وجدة وممر تازة والسهول الأطلسية وسوس وغيرها (24).

والذي يلاحظ بالنسبة للقصبات المنشأة بأحواز مكناس، أنها تتضمن من حيث طبيعتها القصبات المخزنية كقصبتي تولال، والحاجب اللتان اعتمد في بنائهما الى حد ما على طاقة القبائل الجروانية والمطيرية (25). كما تتضمن أيضا قصبات الموظفين والارستوقراطية المكناسية، منها قصبة أجانا بسيدي علي أولحاج بجروان، وقصبة رح ولد خابة الجرواني، غير بعيد عنها. ومن المرجح جدا أن تكون ثمة قصبات أخرى (26)، لما عرف به السلطان من تشجيع لذلك. يقول مثلا في ظهيرة المؤرخ في رجب 1301/ماي 1883 وهو يأذن للقائد رح بانشاء قصبته ما يلي : «... أذنا لخديمنا القائد رح ولد خابة بأن يبني في بلاده دورا وقصبات تكون في هاتيك الشوارع حصنا ومنعة من الآفات، فإن البناء هنالك من المصالح العامة العائدة بالخير على الخاصة والعامة» (27).

وبالنظر الى مواقع تلك القصبات بنوعيها، فإنها إما عند نقط التماس بين الجبل والسهل كحالة قصبة الحاجب، أو أنها تتوسط مجال الاستغلال الزراعي الحضري ومحاور المرور الرئيسية نحو زمور والغرب وزرهون، أي أنها تحتل نفس المواقع التي أنشأت بها القصبات الاسماعيلية أو غير بعيدة عنها، مما يعني من حيث الأهداف والاستراتيجية أن القصبات الجديدة أقيمت لتدعيم القصبات القديمة، كقصبات أحرضان وأگوراي، وأزرو، ومن حيث الفكرة والتطبيق أن المولى الحسن لم يكن يقلد سوى ما سبقه اليه الأجداد، وأكثر من هذا فالمحتسب أجانا الذي نرجح أن يكون له دور في هذا الاختيار أيضا، أشار على السلطان، لما كان بصدد بناء قصبة تولال، بأن يستغل في بنائها أكواش الجير المتخلفة عن الفترة الاسماعيلية نفسها، بعد كنس جوف تلك الأكواش المغمورة بالأتربة (28). وبينما بدا في سياسة المخزن ميل الى تنظيم الجيش وفق الطرق العصرية، يلاحظ أن ديوان گيش البواخر بقي مفتوحا أمام المنخرطين الجدد، حيث ألحق السلطان به قرابة أربعين خيمة من قبائل أيت گدران المطيرية، لتقوم الى جانب فرقة من العسكر النظامي بحراسة قصبة الحاجب (29).

ماهو مدلول هذا التحول القائم على تجارب السالفين ؟

2 ــ المنجزات العسكرية : مدلول تطورها

يعني هذا التطور بكل اختصار، وقوع تطور مماثل في الوظيفة، لكي ندرك مضمونه لابد من توضيح

مسبق للمستويات الوظائفية الممكنة التي كانت تضطلع بها المدينة في تاريخها الطويل، مع مناقشة أوجه العلاقة بين الوظيفة والوسائل المهيأة لتحقيقها.

عن النقطة الأولى لابد من الاشارة الى أن المدينة، وإن كانت على امتداد مراحلها لم تفقد صبغتها العسكرية، فإن وظيفتها كانت تتسع وتضيق وفق مؤثرات سياسية، واجتماعية واقتصادية، بشكل يصعب معه وضع منحى ضابط لأهم التغيرات، إلا أنه يصح إجمالا القول بثلاث مستويات رئيسية ندرجها من المستوى الأوسع الى الأكثر ضيقا :

- **مستوى وطني** : أي الذي كانت أثناءه مدينة مكناس تؤدي دور القاعدة العسكرية الرئيسية بالمغرب، وهذه الحالة لانجد لها مثيلا إلا لما كانت المدينة عاصمة للدولة المركزية، تحتوي المقر الرئيسي لقواد الجيش، ومراكز التدريب، ومنطلق الحملات العسكرية المعدة سواء لاخضاع القبائل ومطاردة المناوئين، أو لتحرير الشواطىء من الاحتلال المسيحي.

- **مستوى اقليمي**، هو الذي كانت تبرز من خلاله أهمية المدينة كقاعدة أساسية في شمال المغرب. أما متى تكون لها هذه الأهمية، فأثناء قيام الدول وحين تمكنها للحاجة الملحة الى دورها : ففي بداية نشوء الدولة، تتخذ المدينة نقطة الانطلاق نحو إخضاع مناطق أخرى وضمنها مدينة فاس نفسها. لهذا قلما نجد دولة ناشئة لاتضع ضمن استراتيجيتها، الاستيلاء على مكناس كأول خطوة في عملياتها الحربية. أما في مرحلة تمكن الدولة، فكان يحتاج الى قاعدة مكناس في تعزيز مهمة الجهاز الجبائي، سيما وأن ايرادات المدينة وإقليمها كانت من بين أهم المداخيل الرئيسية لبيت مال الدولة (30)، كما كان يحتاج أيضا الى هذه القاعدة في ضبط الأمن الذي كانت تعكر صفاءه تحركات القبائل العربية والأطلسية (الأطلس المتوسط) : الأولى خلال عمليات عبورها لسهل سايس قبل القرن السابع عشر عموما (31). والثانية أثناء عمليات نزولها اليه ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (32).

- **مستوى ضيق** : كان دور المدينة ينحذر اليه، لما تفقد المدينة سيطرتها النسبية أو المطلقة على مراقبة القبائل الواقعة تحت نفوذها، وتصبح وظيفتها الأساسية هي الاكتفاء بالدفاع عن النفس. تلك هي مثلا حالتها عند نهاية كل دولة، قبل المرحلة الاسماعيلية، وحالتها أيضا على امتداد معظم ما بعد هذه المرحلة، حيث كانت في كثير من الأزمات الحادة، تقف عاجزة حتى عن رد الخطر عن نفسها، فتكون عرضة لاقتحام القبائل (33).

أما عن مدى العلاقة بين قمة المنشآت العسكرية، ومستوى الوظيفة فيصبح القول، كذلك، إنه باستثناء بعض الحالات المعدودة، توجد علاقة تناسبية وطيدة بين الجانبين :

تبرز حالات الاستثناء في حالتي الدولة المرابطية في نهاية حكمها، والدولة السعدية في أوج عظمتها، الأولى وهي تحتضر، تركت تحصينات عسكرية في غاية الأهمية، والثانية على عهد أكبر سلطانها، أحمد المنصور الذهبي، لم تنشىء بمكناس ولا أدنى ما يخلد ذكرها (34). ثم أننا نختار لمن نعطي الأولوية في تفسير ظاهرة ضعف التجهيزات تحت حكم السلطان العلوي المولى محمد بن عبد الله. الأأنجده خلف بالمدينة هياكل صلبة أغنته عن التفكير في البناءات الجديدة، أم لميولاته الجنوبية اتجاه مراكش والصويرة مثلا ؟

ما عدا هذه الأمثلة، فالقاعدة أن الأعمال العظيمة تتصل بالوظيفة الهامة، والعكس صحيح، فهذه

مكناس الاسماعيلية، عظيمة بأدوارها ضخمة بمنشآتها، وهذه مكناس المرابطية والموحدية والمرينية بقدر ما كان لها من دور عسكري بالغ، بقدر ما اعتنى بتجهيزها بالقصبات والأسوار والحاميات، التي إن لم تكن في مكانة نظيراتها الاسماعيلية، فهي لاتنزل عما كان ينجز بغيرها من المراكز (35). أخيرا، وكما كان دور المدينة يتقلص الى المستوى الضيق، كان الاهتمام يتراجع فيها الى مجرد المنشآت الضرورية.

بإمكاننا، الآن، أن ندرك أية وضعية كانت عليها مدينة مكناس في القرن التاسع عشر :

ففي مرحة ما قبل 1873، لسنا سوى أمام امتداد الخط الطبيعي، الذي تحدد لها ابتداء من سنة 1727، بخصوصياته المتمثلة في ضيق المستوى الوظائفي، وانصباب الاهتمام في مجال التجهيزات العسكرية على ما يقوى دفاعها بالدرجة الأولى.

فينبغي أن لاتوهمنا، إجراءات المخزن من أجل تقوية جيش البواخر — على أهميتها في إعادة الاعتبار اليه، كما رأينا — بأن المدينة قد وجدت كامل امكانياتها الكفيلة باستعادة نفوذها الاقليمي. فبعض القبائل مثل بني مگيلد وبعض زمور، ظلت منفلتة عن مراقبتها العسكرية والادارية منذ أزمة الحكم في أواخر الدولة السليمانية (36)، بينما بعض القبائل المحيطة بها عن قرب، كقبائل جروان وبني مطير، كانت لاتزال تملك جرأتها في شن هجوماتها على أطرافها من حين لآخر. ويكفي دليلا على عجز المدينة تجاه قبائلها، أن الأشغال التحصينية المتحدث عنها سابقا، تتفق زمنيا واشتداد فترات الضغط القبلي، بشهادة مؤرخ مكناس نفسه، فهو يذكر أن تجديد سور الملاح حدث لما تكررت شكايات اليهود ضد أفراد بعض القبائل الذين كانوا يحدثون ثقبا في سور المقبرة المتلاشي ويتسربون منه إلى حارتهم [37]، وأن بناء بابي وجه عروس، وباب الشيخ الكامل وسورهما، وقع على حد تعبيره، لما صارت «لصوص» القبائل «توالي النهب لكل ما وجدت إليه سبيلا، خارج بابي جديد وبريمة، وتفاحش الضرر بالأهالي سكان البلد وضاقوا ذرعا»[38].

بقي أن نسجل أنه مهما كانت تعليلات هذا المؤرخ صائبة، في ربط منجزات المخزن الأمنية، بمصلحة السكان عموما، فلا سبيل الى إغفال المنفعة المادية الخاصة للمخزن .نفسه، لما كان استئناف النشاط الاقتصادي، يقدمه من مداخيل لبيت المال، بواسطة الضرائب والمكوس. وقد لانخطيء إذا ذهبنا الى أن الاضافات الجديدة في غرب المدينة، كانت من أجل ضبط مداخيل المكوس التي تتحدث المصادر عن إحداثها ابتداء من هذه الفترة (39).

أما ما وقع من تطور في مجال السياسة العسكرية بالمدينة بعد 1873، فيعكس تطلعها للخروج من نطاق وظيفتها الضيقة الى الوظيفة الاقليمية، لعل أحسن معبر عن ذلك هو تكثيف الجهود لاخضاع قبائل بني مگيلد سنة 1305 هـ/1888 (40). ومن دون أن نهتم بما إذا كانت المدينة قد وجدت كامل أهميتها الاقليمية الكاملة، لغياب معطيات القياس والمقارنة مع الفترات السابقة، نركز على خلفيات هذا التحول مع حدود تطبيق إجراءاته زمنيا، فنقول :

إن الهم السياسي والاقتصادي، الذي كان دائما أساس هذا التوجه بالعناية نحو البادية، أصبح في هذه المرحلة من القرن التاسع عشر، أكثر إلحاحا من أي وقت مضى، فمن قبل مهما كانت متطلبات المخزن المادية من البوادي جسيمة، فهي لا تخرج عن نطاق مستلزماته : الخصوصية كمصاريفه اليومية، والعمومية كالنفقات على تجهيز العسكر، والمرافق الاجتماعية، ومهما كانت درجات انشغاله بضبط أمن البوادي، فهي

من أجل تسهيل الحركة التجارية، وإتاحة الظروف الملائمة لممارسة الأنشطة الزراعية، أما في المرحلة التي تعنينا، فمشاكل المخزن المادية والسياسية قد تصاعدت حدتها — كما هو معروف — تحت تأثير الضغوط الأجنبية : اقتصاديا كان المخزن مدعوا الى التنقير عن الأموال ليبرىء التزاماته المالية مع الخارج، وسياسيا كان مضطرا الى العمل على إحباط مناورات الأجانب في المناطق الهامشية كالريف والصحراء وسوس (41)، ورعاية سلامتهم وسلامة المتعاملين معهم في المناطق الداخلية حتى يتجنب بقدر الامكان مطالباتهم بالتعويضات، لهذه الأسباب وتلك، بذل المخزن جهوده في كافة المناطق المغربية، الى شد البوادي — مصدر المداخيل المالية، ومصدر المشاكل السياسية في ذات الوقت — الى المراكز الحضرية والعسكرية الموجودة على مستوى كل إقليم، معتمدا كما رأيناه بالنسبة لمكناس على مجموعة من التدابير : الجيش، البارود، القصبات.

ولما كانت هذ التدابير تتطلب إمكانيات مادية ليس في متناول المخزن تحملها، فقد رأيناه يسخر لها كل مايوفر عليه مصاريفه، بالاعتماد بالنسبة لصناعة البارود على طاقة الصناع، وبالنسبة لقصباته على طاقة القبائل والاستعانة بالاضافة الى هذا بموظفيه في بناء القصبات الخصوصية. لكن بينما كان هؤلاء يقاسمونه المنفعة لكون قصباتهم تحرس مزارعهم، وتخدم مصالحهم التجارية، فإن سكان القبائل لم يكونوا ينظرون الى تلك الأعمال رغم تأكيد السلطان على منفعتها العامة في كل مرة، سوى وسيلة لتضييق الخناق، ومن هنا فما كان لتدابيره أن تنجح إلا ظرفيا، فكما انفض صناعو البارود من حول صناعتهم (42)، لم تلتزم لا قبائل جروان ولا قبائل بني مطير بما كان المخزن قد فرضه عليها في البداية، من كلف الدوم والحجر والجير، حتى أن قصبة الحاجب التي شرع مثلا في بنائها سنة 1881/1298 (43)، قد تعثرت أشغالها بسبب ذلك التقاعس، الى أواخر حياة السلطان المولى الحسن (44).

وبعد وفاته وقع التخلي عن كل شيء، وعاد سير المدينة — قبل أزمتها المشهورة سنة 1911 (45) — الى خطه الطبيعي، أي الى مجرد تفقد وسائل الاحتماء الذاتية. لكن لفقدان السلطة المركزية زمام الأمور، لم تهتم المدينة سوى بإغلاق بعض منافذها الخارجية التي يخشى تسرب القبائل عبرها، ومنها باب مقبرة «سيدي الدراوي» نفسه (46). وفي هذا تعبير عن منتهى القلق الشديد الذي يمكن أن تشعر به المدينة تجاه قبائلها في مثل هذه الأوقات الحرجة.

الخلاصة، أنه الى جانب المعطيات التي يقدمها الموضوع حول طبيعة العلاقة بين البادية والمدينة، والتي تحتاج الى مناقشة خاصة، تبقى الفكرة الأساسية هي : أنه ليس حجم المنشآت العسكرية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر، وهو الجدير بالاهتمام، لكن عمق التحول في سياسة المخزن العسكرية. فعلى امتداد فترة طويلة تربو على القرن والنصف، لايبرز دور المدينة في مستواه الاقليمي العسكري والاداري، إلا في فترة محدودة هي فترة مولاي الحسن، تحت تأثير ضغوط أجنبية، ووفق سياسة إصلاحية عامة للدولة، تبين لدى فحص وسائلها بالنسبة لمدينة مكناس أنها قامت على التقليد، وأن المخزن كان يعتمد في رسم خطوطها الرئيسية على موظفين محنكين، لكن حريصين أيضا على خدمة مصالحهم المادية. لذا فهذه السياسة المرتبطة بشخص السلطان وجهازه، والتي تعطي الأسبقية لخدمة مصالح فئة معينة، لم يكن لها لأن تستمر إلا ظرفيا.

الهوامـــــش

الرّمـــوز :

و.م.أ. : وثائق المحتسب أجانا
و.خ.ح. : وثائق الخزانة الحسنية
ك.خ.ح. : كناش الخزانة الحسنية

(1) لحية (محمد ال) : «الحياة الاقتصادية لمدينة مكناس في القرن التاسع عشر (1850 — 1912)».
دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1984.
ص ص : 15 — 22.
(2) انظر : (ابن زيدان عبد الرحمان) : قطعة من مخطوط الاتحاف خ.ح. رقم 3986.
(3) (Abdallah) LAROUI : « Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)
François maspéro/Texte à l'appui. Paris 1977. p a 85.
(4) ناصري (أحمد بن خالد ال) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى
9 أجزاء. الدار البيضاء 1955. ج. 9. ص : 9.
(5) انظر : ابن زيدان (عبد الرحمان) : «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» 5 أجزاء. الرباط 1928 — 1932. ج. 1. ص 171.
— ك. خ. ح. : 658.
(6) ابن زيدان : الاتحاف ج 2. ص : 217.
(7) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 120.
(8) ابن زيدان، الاتحاف، ج 5. ص : 234.
(9) القصْلِ : الزرع الذي كان يعتمد على السقي، ويحصد أكثر لاستعماله للعلف.
(10) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 120.
(11) ابن زيدان، الاتحاف ج 5 ص 233.
(12) ك. خ. ح. 118، 326.
(13) ابن زايدان، القطعة المخطوطة، غير مرقمة.
(14) ك.خ.ح. رقم 28.
(15) ك.خ.ح. 658 إحصاء العسكر السعيد بمكناس.
(16) المنوني (محمد) : «مقيدة عن نشاط دراسة الرياضية والفلك بمكناس» مجلة المناهل — وزارة الشؤون الثقافة بالرباط.
عدد 30 شوال 1404 يوليوز 1984. ص 9 — 32.
(17) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 152 — 159.
(18) انظر نص الظهير عند : ابن زيدان : العز والصولة في معالم نظم الدولة. جزآن، المطبعة الملكية الرباط 1961. ج. 2. ص 70.
(19) و. م. أ. حيث يكتب المحتسب أجانا إلى خليفة القائد بن بوعزة لودي قائلا : «الحمد لله، خليفة القائد العربي بن بوعزة لودي، وبعد فإن مولانا أيده الله ولانا على البارود وملحه والكبريت والخفيف بيعا وخدمة أسند لنا النظر في المعلمين الذين يخدمون البارود، بعد أن نحوز ماوجدناه منه مجانا، وذلك بمكناس والزاوية ومداشرها وسوق الاثنين قرب دار القائد مبارك وسوق خميس سيدي قاسم والاحد كروان، وسوق الثلاثاء بمكناس عندكم، وقد كتبنا لقائد مولانا أعزه الله العربي بن بوعزة بذلك، ولما كتبنا له أجابنا أنه أعلمك بمضمون الكتاب الشريف، وأمرك بالوقوف على ساق الجد منه وعليه فها صاحبنا الحامل يرد عليك حتى يجوز مايوجد هناك على يدك من بارود، وكبريت وغيرهما وتعين أنت واحدا من أهل الحرفة البارودية يكون ثقة لبيع ذلك بالسوق المذكور، وكل ماوصل للسوق يحوزه ويجعله عنده، والحامل المذكور يكون يأتيك بالكل لتعهد ذلك بحول الله والحاصل قمم على ساق الجد فإن ذلك من أهم المهمات عند المخزن وفره الله والسلام في 17 رمضان عام 1305».

(20) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 131 وما بعدها.
(21) و.م.أ.
(22) اللحية، الحياة الاقتصادية. ص 158.
(23) أنظر عن هذه القصبات : المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، مخطوط خ. ح. ص : 318، حيث يشير إلى تجديد قصبة العيون بنواحي وجدة، وإنشاء قلعة تاجانة بالحياينة، وتجديد قلعة القصابي.
(24) حول قصبات الريف انظر :
(P) CRESSIER : « Structures fortifies et défensives du Rif les Qasba-s Ismailiennes » Bulletin d'Archéologie Marocaine T XIV 1981-1982 — Rabat — pp : 257-276.
(25) انظر بالنسبة للكلف المفروضة على كروان : اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 172، مع الهامش 93.
وبالنسبة لقبائل بني مطير : كنينح (العربي) «آثار التدخل الأجنبي في المغرب» دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط 1984. ج 1. ص 81.
(26) هذا مايمكن افتراضه مثلا بالنسبة لآل سيدي بن موسى الدغوغي، حيث نجد المحتسب أجانا في إحدى وثائقه يتوسط فيها لدى المخزن بأن يسمح لهم بـ «النزول بخروبة بين دحنسية، وبني مطير، يبنون قصبة هناك وديارا لهم داخلها».
(27) ك،خ،ح، 516 ص 4.
(28) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 172 والهامش 92
(29) كنينع، أثار التدخل الاجنبي في المغرب، ج 1، ص 81.
(30) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 48. والهامش 159.
(31) العلوي (التقي) «أصول المغاربة — القسم العربي : الهيلاليون بالمغربين الأدنى والأقصى».
(32) مجلة البحث العلمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي الرباط عدد 35، 1405 — 1985. ص ص 85 — 437.
(33) (A Amine, B (Boutaleb) et autres : « Histoire du Maroc » Librairie Nationale. Casablanca p 260.
(34) ابن زيدان، القطعة المخطوطة.
(35) اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 22.
36) نفسه، ص 16 وما بعدها.
(37) ابن زيدان، الاتحاف ج 2 ص 149.
(38) ابن زيدان الاتحاف ج 5 ص 233
(39) نفسه، ج 1. ص : 211.
(40) نفسه، ج 5. ص : 84.
(41) نفسه، ج 2، ص : 149، اللحية، الحياة الاقتصادية، ص 157
(42) انظر : MIEGE (J.L) : Le Maroc et l'Europe (1830-1894) Paris, Press. Universitaires de France 1962. T III p. 306.
– علي المحمدي : سياسة الاصلاح في القبائل الهامشية نموذج سوس الاقصى (1861 — 1884).
ندوة الاصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. منشورات كلية الاداب بالرباط، ص 249 وما بعدها.
(43) اللحية، الحياة الاقتصادية. ص : 158.
(44) كنينع، أثار التدخل الاجنبي، ص 81 ج 1.
(45) نفس المرجع والصفحة.
(46) ابن زيدان، الاتحاف ج 1. ص : 103

مقاومة مدينة مكناس وأحوازها للتدخل الفرنسي

الأستاذ محمد البكراوي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فـاس

مدخل عام

من المعلوم أن تاريخ المغرب لم يكتب بعد، وجوانب كثيرة منه لازال يخيم عليها ضباب كثيف، ومن أهمها المقاومة الشعبية في المغرب عموما وفي المنطقة الوسطى ـــ الجنوبية خصوصا، التي لم تحظ بأية دراسة تاريخية جادة الى حد الآن رغم ما اتسمت به مقاومة هذه المنطقة من استمرارية امتدت لفترة زمنية طويلة حتى سنة 1934. ويكفي أبناء هذه المنطقة فخرا أنهم كانوا من السباقين لمواجهة التوسع الاستعماري، وبذلك تحتفظ المنطقة بأسماء ذاعت شهرتها في مجال النضال الشعبي أمثال : موحى أو حمو الزياني، وبنعيسى بن عبد الكريم البخاري، وبلقاسم النكادي، وعسو باسلام... وغيرهم كثيرون.

وفي هذا النطاق سأحاول تسليط بعض الأضواء على جانب مغمور من المقاومة الشعبية بمكناس وأحوازها خلال سنة 1911، إذ اختار السكان مولاي الزين، أخ السلطان مولاي عبد الحفيظ، سلطانا للجهاد، وهي نفس التجربة التي عرفها المغرب سنة 1907 لما بايع المغاربة مولاي عبد الحفيظ سلطانا.

ماهي ظروف ودوافع هذه الحركة ؟ ومن هم أبطالها ؟ وماهي مطالبهم ؟ وما هو مدلولها الحقيقي ؟

I الوضع العام بالمغرب وبناحية مكناس سنة 1911 :

كان المغرب سنة 1911 يمر بمرحلة من أخطر وأدق المراحل التي عرفها تاريخه المعاصر، إذ هي السنة التي سبقت بقليل سقوطه في أحضان الاستعمار. وتميزت بتفاقم الوضعية الداخلية وذلك نتيجة ثلاثة عوامل رئيسية :

1 ـــ سياسة المخزن المالية :

كانت خزينة الدولة فارغة ومعظم موارد المخزن مرهونة بموجب قرضي 1902 و1904 (1). وكان

الدائنون الأجانب يلحون على تسديد أموالهم، في وقت امتنعت فيه عدة قبائل عن دفع الضرائب، بالاضافة الى الاصلاح العسكري الذي كان يتطلب توفر الأموال الباهظة. لذلك لم يعد أمام المولى عبد الحفيظ سوى اللجوء الى الاقتراض بدوره. ففي سنة 1910 تلقى من فرنسا قرضا يبلغ 104 مليون فرنك (2) بهدف تغطية الديون السابقة وأداء تعويضات حوادث الدار البيضاء وذلك مقابل التخلي عن ما تبقى من مداخيل الجمارك.

ولتسديد هذا القرض الجديد أثقل المخزن كاهل الشعب بالضرائب،وقد فرضت هذه الضرائب حتى على القبائل التي كانت معفية منها من قبل كقبيلة الشراردة مثلا (3).

2 ــ سياسة الكْلاوي التعسفية :

يقول محمد بن الحسن الحجوي عن المدني الكْلاوي :

«... أصبح الحل والعقد في الدولة، وولى نفسه مباشرة حكم القبائل وعين أبناء عمه نوابا عنه، فأذاقوا القبائل أنواعا من الظلم مما جعلها تتحد: وهي بني مطير، شراردة، حجاوة، بني حسن، زراهنة...ورفعوا شكواهم الى الخليفة. وعندما لم يجدوا آذانا صاغية لشكواهم قرروا الثورة...» (4).

يعد الكْلاوي من أكبر القواد في الجنوب، وهو رئيس الوزراء. فكان يعمل لتوسيع نفوذه وتنمية ثروته أكثر مما كان يعمل لصالح الدولة العام. وقد نهج في ذلك سياسة تعسفية إزاء القواد والقبائل ساهمت في إذكاء روح النقمة لديها ضده وضد المخزن وبصفة خاصة قبائل «الجيش» التي كانت غير راضية على الاصلاح العسكري وعلى إجبارها على دفع الضرائب، بالاضافة الى القبائل المجاورة لمكناس، وخاصة منها بني مطير التي تجمعت حول أحد قوادها البارزين : عقا البويدماني. (5).

3 ــ سيطرة البعثة العسكرية الفرنسية على الجيش المغربي :

كانت هذه البعثة مكلفة بتدريب الجنود المغاربة، وكان يترأسها الضابط مانجان (Mangin) الذي وضع خطة لاصلاح كامل للجيش المغربي سنة 1910، (6) التي كانت تهدف في الواقع الى السيطرة التدريجية على الجيش المغربي. وكان بعض أفراد البعثة يشتركون في كثير من الأحيان في الحملات التأديبية التي وجهها المخزن ضد القبائل المتمردة، مستعملين المدفعية المخزنية ضدها. (7) وبطبيعة الحال كان هؤلاء الضباط الأجانب يمثلون في نظر القبائل نواة الاحتلال الأجنبي.

4 ــ الغزو العسكري الفرنسي والاسباني لعدة مناطق من البلاد :

استطاعت الجيوش الفرنسية والاسبانية تطويق المغرب من كل جهة :

- شرقا : واصل ليوطي زحفه نحو مشارف نهر ملوية
- وغربا : تابعت الجيوش الفرنسية توغلها داخل البلاد.

وسيتوج زحفها هذا بدخولها إلى العاصمة فاس في 21 ماي 1911، مستغلة ذريعة حصار فاس من طرف بعض القبائل المجاورة. وذلك من أجل حماية الجالية الأوروبية، وبدعوى استغاثة المولى عبد الحفيظ بها من أجل فك الحصار المضروب على فاس.

والواقع أن المولى عبد الحفيظ لم يستغث أبدا بالجيوش الفرنسية المرابطة في الشاوية، وتؤكد ذلك الوثائق الفرنسية نفسها، وأثبت ذلك أيضا جان كلود ألان J.C.Allain في أطروحته. (8).

ـ وشمالا : توغلت الجيوش الاسبانية داخل التراب الوطني فاحتلت الناضور والحسيمة ثم العرائش والقصر الكبير.

وأمام عجز المخزن عن صد العدوان الأجنبي عمت موجة واسعة من التذمر والاستياء في المدن والبوادي المغربية على حد سواء.

1 ـ تمثلت المعارضة الحضرية في العلماء ورجال الدين والتجار الذين تضرروا من المنافسة التجارية الأوربية.

2 ـ وفي البادية، وبناحية مكناس خاصة تكتلت القبائل لمواجهة الغزو الاستعماري. وتزعم مقاومتها عقا البويدماني.

من هي هذه الشخصية ؟ وما هو الدور الذي قام به في هذه الأحداث ؟

II المقاومة بمكناس وأحوازها :

1 ـ قبيلة بني مطير والمخزن :

تحتل قبيلة بني مطير موقعا استراتيجيا ممتازا وسط البلاد في منطقة فلاحية خصبة جذبت الأطماع الاستعمارية مبكرا.

إن هذه القبيلة ظلت موالية للمخزن فترة زمنية طويلة، إذ ساعدت مولاي عبد الحفيظ على الانتقال من مراكش الى فاس عبر الأطلس المتوسط نهاية 1907. (9).

ولقد لعب عقا البويدماني دورا بارزا في إحباط ثورة الشريف محمد الكتاني وفي اعتقاله وتسليمه لمولاي عبد الحفيظ سنة 1909،وظل مخلصا للمخزن بالرغم من تمرد بعض أفخاذ بني مطير وساعده في قمع تمردهم. (10).

ولم يتغير هذا الموقف المساند إلا بعد سنة 1910 نتيجة معاملة الكَلاوي التعسفية للقبلية، ومن أهم مظاهر هذه المعاملة تأديبها بواسطة جيوش يترأسها ضباط فرنسيون، وكذلك فرض ضرائب ثقيلة عليها وفرض غرامة قدرها 100.000 ريال حسني،ومطالبتها بتزويد الجيش المخزني بـ 300 رجل (11).

وأكثر من هذا استدعى الكلاوي عقا البويدماني أواخر سنة 1910 الى فاس وألقاه في السجن دون مبرر ولم يطلق سراحه الى في يناير سنة 1911 بعد أن حصل على غرامة كبيرة. فصمم عقا على الانتقام.

وهكذا وفي 22 فبراير 1911 عقدت عدة قبائل : زمور، كَروان، مجاط... بزعامة بني مطير اجتماعا بأكَوراي جنوب مكناس، قررت خلاله تدبير خطة اختطاف الكلاوي بعد انتهاء الاحتفال بعيد المولد النبوي لكن هذه الخطة فشلت بسبب تمرد قبيلة الشراردة أوخر فبراير (12).

2 ـــ موقف القبيلة ومكناس من التدخل الاستعماري :

تجلت مقاومة مكناس وأحوازها للأهداف التوسعية الفرنسية منذ سنة 1902 في تحطيم الأشغال الجارية من طرف الأجانب لمد سكة حديدية بين فاس ومكناس (13) والتي اعتبرها المغاربة بمثابة تدخل في شؤون البلاد.

وفي نفس الفترة ساند بنو مطير حركة الجيلالي الزرهوني (المدعو بو حمارة) في المغرب الشرقي ضد التدخل الفرنسي(14).

ولقد تمثل انتقام عقا من الكلاوي ومن المخزن في إثارة ثورات القبائل ضد فاس ومكناس.

3 ـــ تنصيب مولاي الزين :

وكنتيجة لذلك نصب بنو مطير سلطانا جديدا بمكناس.

من هو هذا السلطان ؟ وما هو مشروعه ؟

يذكر ابن زيدان أن :

«سلطان مكناسة الزيتون أكره على تولي هذا المنصب لمدة تزيد عن شهر، وخطب باسمه أيام الجمعة على منابر مساجد مكناس، كما شكل وزارة لتسيير شؤون دولته» (15).

لقد بايع بنو مطير وسكان المدينة مولاي الزين سلطانا للجهاد على المغرب في 19 أبريل 1911، بشروط مماثلة لتلك التي بويع بها مولاي حفيظ(19) من قبل عندما ثار ضد أخيه عبد العزيز. وقد استمر في الحكم مدة شهرين تقريبا. والواقع أن المولى الزين لم يكره على تولي هذا المنصب إنما اختارته القبائل وأغلبية أفراد مدينة مكناس عن اقتناع، إذ ورد في إحدى رسائله الموجهة الى القبائل ما يبرر هذا حيث رأى أن مبايعة بعض المدن والقبائل له كانت من أجل «إعطاء حيوية للخلافة وروح جديدة للامامة». (17) وذلك بعدما تبين لمن بايعوه عجز مولاي حفيظ في القيام بهذا الدور. ومولاي الزين هو شقيق مولاي محمد الابن الأكبر للحسن الأول الذي عزله الحاجب «با أحماد» عن الملك (18) والمعروف أن شخصية مولاي محمد هذا قد انتحلها الجيلالي الزرهوني المدعو «بوحمارة» (19)،وقد شغل مولاي الزين منصب الخليفة السلطاني بتزنيت. (20).

4 ـــ تشكيل الحكومة الجديدة ومطالبها :

إن هذه الحكومة كانت تتكون على الشكل التالي :

1 ـــ الصدر الأعظم : الحاج عبد السلام لحلو
2 ـــ وزير البحر : الحاج محمد مكوار
3 ـــ الشكايات : الحاج السعيدي بن الطيب غرّيط
4 ـــ المالية : الحاج التهامي بناني
5 ـــ الحربية : العربي بوعشرين
6 ـــ أمانة الصاير : الحسن بناني
7 ـــ الحاجب : حمان بن عبد العزيز

عامل مكناس : قاسم بن كروم البخاري الجبوري(21). والملاحظ أن أغلبية الوزراء ينتمون الى البورجوازية الحضرية. أما المطالب فتتلخص في :

1 ــ عزل المدني الگلاوي
2 ــ منع أي دور للبعثة العسكرية الفرنسية وبالتالي دور الأجانب في شؤون المغرب وحكومته.
3 ــ حذف النظام العسكري الجديد الذي فرضته فرنسا سنة 1910.
4 ــ حرية اختيار القواد.
5 ــ فرض ضرائب عادلة.
6 ــ تسديد الأموال المنهوبة من طرف الگلاوي لاصحابها. ويرى الأستاذ العروي أنها نفس مطالب اتباع بوحمارة. (22).

III تصفية المقاومة من طرف الفرنسيين واحتلال مكناس والحاجب :

وفي هذه الأثناء عين المولى عبد الحفيظ بنعيسى بن عبد الكريم البخاري باشا على مكناس للقضاء على هذه الحركة، فتوجه الباشا صحبة الجنرال موانييه (Moinier) من فاس بنحو «ألف فارس»،(23) وعلى طول الطريق دارت بين القوات الفرنسية وقبائل بني مطير، كروان، عرب سايس، المعززة ببعض المكناسيين معارك ضارية بوادي وسلان طيلة يوم الخميس 8 يونيو 1911.

ولم تتمكن الجيوش الفرنسية من اجتياز وادي وسلان إلا باستعمال المدفعية الثقيلة لتشتيت المجاهدين، (24) ولم تدخل المدينة إلا بعد قصف باب القصدير، مما خلف ضحايا كثيرة من الجانبين.

ويقول الحجوي في هذا الصدد :
«... لما وصل خبر احتلال مكناس وكذلك إلقاء القبض على مولاي الزين أمر مولاي عبد الحفيظ بإطلاق البارود، وتزيين مدينة فاس إعلانا عن الفرح وقد أتى اليه علماء فاس وأشرافهالتهنئته بهذا الفتح» .(25)
وهكذا سقطت ثاني عاصمة بيد المستعمر بعد فاس.
وبعد احتلال مدينة مكناس من طرف الفرنسيين، سجن عقا البويدماني بالمدينة، ورغم ذلك فقد ظل على اتصال بالمجاهدين طيلة إقامته بالسجن. (26) ولتركيز نفوذه أكثر بالمنطقة احتل الجيش الفرنسي قصبة الحاجب في نفس السنة (28 يونيو 1911).
وبعد أقل من سنة تم التوقيع على عقد الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912.
وأهم ما يمكن استخلاصه من هذا العرض هو :
1) تفنيد الأطروحة الاستعمارية التي اعتبرت مدينة مكناس والمدن المغربية بصفة عامة. مدنا هادئة لم تحرك أي ساكن طيلة سنوات ضد المستعمر وأن الانتفاضات اقتصرت على القبائل فقط.
2) إن هذا الحدث التاريخي يعتبر بدون شك نموذجا للالتحام بين المدينة وباديتها في مجال النضال الشعبي الوطني ضد الهجمات الاستعمارية.
3) رغم المحلية التي تميزت بها هذه الحركة فإن لها دورها التاريخي البارز في إذكاء الشعور الوطني بالمنطقة خصوصا، هذا الشعور الذي سيدفع الى ظهور حركات أكثر شعبية وأقوى تنظيما بعد سنة 1912 ضد المستعمر. .

الهوامـــش

1) انظر : Pierre Guillen : Les Emprunts marocaines de 1902 à 1904, Paris, 1972, pp. 52, 152.

2) انظر : J. Claude Allain : **Agadir, 1911, Une crise impérialiste en Europe pour la conquête du Maroc,** Paris, 1976, p. 41 et suivantes.

3) نفس المرجع السابق، ص 258 وكذلك : F. Weisgerber : Au Seuil du Maroc moderne, Rabat, 1947, p : 210.

4) مخطوط محمد الحجوي : الأحداث السياسية على عهد مولاي عبد العزيز والمولاي عبد الحفيظ، ص 46 الخزانة العامة قسم الوثائق بالرباط.

5) انظر : F. Weisgerber، المرجع السابق ص 210.

6) انظر : وثائق وزارة الحربية الفرنسية بفانسين، باريز : 3 h 21 « Note sur l'histoire sommaire de la mission militaire au Maroc et de l'année chérifienne», Paris, le 7 Juin 1912.

7) A. Laroui : **Les origines sociales et culturelles** du nationalisme marocain (1830-1912), Maspéro, Paris, 1977, p. 408.

8) المرجع السابق : ص 272 — 273.

9) محمد بن الحسن الحجوي : المصدر المذكور ص 45.

10) F. Weisgerber المرجع السابق ص 210 — 211.

11) ذ. عبد الله العروي : المرجع السابق ص 308، الهامش رقم 126.

12) F. Weisgerber المرجع السابق لا ص 211.

13) Afrique Française عدد سنة 1902، ص 363.

14) انظر : Mohamed BEKRAOUI : **La révolte de Bou Hmara,** contribution à l'histoire du Maroc précolonial, Thèse de 3ème cycle, Université de Poitiers 1980, p. 88 et S.

15) ابن زيدان : ملحق للاتحاف يوجد مخطوطا بالخزانة الحسنية رقمه : 11769، ص 37.

16) Bulletin du Comité de l'Afrique Française, mai 1911, p 186.

17) انظر ذ. عبد الله العروي : المرجع المذكور، ص 409.

18) ابن زيدان إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج 2، الطبعة الأولى 1930، الرباط، ص 546.

19) انظر محمد البكراوي، المرجع المذكور، ص 56 ومابعدها.

20) انظر ابن زيدان إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص 546.

21) ابن زيدان المخطوط الملحق للاتحاف، ص 37 وما بعدها.

22) ذ عبد الله العروي المرجع المذكور، ص 409.

23) الحجوي : المصدر المذكور ص 56.

24) انظر Medecin Capitaine Jean Vial ; **le Maroc héroïque**, Hachette, Paris, 1938, p. 64 et s.

25) الحجوي : المصدر المذكور ص 56.

26) انظر : Archives du ministère des Affaires Etrangères Paris, série Maroc — Tunisie, n° 492, Rapport mensuel du Protectorat, mois de juillet 1917, p 6.

الانتفاضة الشعبية بمكناس
نموذج إحداث بوفكران 1937

الأستاذ بوشتى بوعسرية
المركز التربوي الجهوي
مكنـــاس

اتخذت سلطات الحماية الفرنسية من مدينة مكناس، عاصمة عسكرية واستيطانية، نظرا لأهميتها الاستراتيجية وخصوبة تربتها ووفرة مياهها.

وقد عرفت هذه المدينة سنة 1937 انتفاضة شعبية كان السبب الرئيس وراء اندلاعها، هو مد المسؤولين الفرنسيين بمكناس اليد في جزء من مياه وادي بوفكران، ومنحه للمعمرين بأرض تانوت، وللمرافق المدنية والعسكرية بالمدينة الجديدة ـــ حمرية ـــ وذلك بعد قيام هؤلاء المسؤولين بعدة دراسات خاصة بمياه وادي بوفكران، وإصدار عدة ظهائر وقرارات لتنظيم واستغلال هذه المياه.

وتزامن هذا الحدث مع الوضعية الصعبة التي كان يعيش عليها المجتمع المكناسي والمتمثلة في الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي مست بالخصوص الفئات الشعبية داخل هذا المجتمع، ومع بداية تبلور الوعي الوطني عند ثلة من المكناسيين الذين كانوا على اتصال بإخوانهم الوطنيين في أهم المدن المغربية وخاصة في فاس.

كانت الأسباب السالفة الذكر كافية لالهاب حماس الجماهير المكناسية لمقاومة سياسة الادارة الفرنسية والاصطدام معها في بداية شهر شتنبر 1937، وأصبح يعرف هذا الاصطدام بأحداث بوفكران أو «كثيرة الماء لحلو».

الظروف العامة التي كانت عليها مدينة مكناس قبيل 1937 :

تتمثل هذه الظروف في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتردية، ذلك أن المجتمع المكناسي كان يعاني من أزمات متعددة الجوانب، شملت الجانب الاقتصادي، والحياة اليومية للسكان، والممارسات القمعية التي تمارس في حقهم، هذا فضلا عن الأمراض الاجتماعية الأخرى التي كانت منتشرة بين المكناسيين كالبغاء والخمر والطرقية...

الوضعية الاقتصادية : كانت الأوضاع الاقتصادية بإقليم مكناس قبيل أحداث بوفكران سنة 1937 متأزمة (1)، وسبب هذه الأزمة هو الجفاف الذي حل بالاقليم في السنوات السابقة لهذه السنة، واستحواذ المعمرين على أخصب الأراضي المجاورة للمدينة والتي كانت في الأصل تستغل إما بشكل جماعي أو

فردي أو يملكها المخزن والسلطات، ولم يعد المكناسيون يجدون ما يقتاتون به نظرا لقلة المواد الغذائية الأساسية أو انعدامها، لكون «رحبة الزرع» أصبحت فارغة من الحبوب لعدة أسابيع، لأن اليهود المسيطرين على تجارة الحبوب بمكناس آنذاك، اغتنموها فرصة لادخار هذه المادة الحيوية، فارتفع ثمنها بشكل باهض، مما حال دون كيلها من قبل الفئات الفقيرة داخل مكناس، وأصبح السكان مهددين بالمجاعة، ونجد أن سنة 1937 عرفت بأنها سنة مجاعة بمكناس وإقليمها (2)، وتولد عن هذه المجاعة هجرة حشود من البدويين الى المدينة وانحشارهم في مدن الصفيح (3).

ومن بين القطاعات الاقتصادية المتضررة بمدينة مكناس قبيل 1937، الانتاج الحرفي الذي لحق بأصحابه الافلاس، نظرا للكساد الذي أصابه، أو تم القضاء على بعضه نهائيا، لكون الأهالي أقبلوا على استعمال البضائع الأجنبية : «... بل أصبحنا لا نكاد نرى في جميع بلاد المغرب وجميع أسواقه إلا البضائع الأجنبية لا فرق في ذلك بين بادية وحاضرة...» (4).

ولم تكن المنتجات المستوردة من الخارج السبب الوحيد في تدهور الانتاج الحرفي بمكناس، بل عانى هذا الانتاج من منافسة المصنوعات الأجنبية التي كانت تنتج في المغرب بمعمل لاسافط Lasaft — مثلا — بالرباط.

وأمام هذا الوضع، رفع الوطنيون بمكناس شعار مقاطعة البضائع الأوربية، والاقبال على استهلاك الانتاج المحلي : «... ارحموا المحترفين بالاقبال على مصنوعاتهم... ارحموا أرباب الحرف فلقد أصبحوا في شوارع المدن بسلاسل الفاقة يسبحون...» (5). لكن هذه الدعوة لم تؤد إلى نتائج ايجابية، نظرا لاستمرار المكناسيين في الاقبال على البضائع المستوردة، فازدادت الأزمة الاقتصادية استفحالا : «... وأصبح هذا الكساد أزمة خانقة ضاربة أطنابها في جميع الميادين» (6).

ومن بين الصناعات التي تدهورت في مكناس دباغة الجلود، فصار عدد كبير من الدباغين عاطلين.

كانت السياسة الاقتصادية التي نهجتها حكومة الحماية الفرنسية في مدينة مكناس وإقليمها، سبب تحول غالبية الفلاحين والحرفيين والصناع والتجار الصغار الى الصف الوطني، فكونوا القواعد المناضلة عمليا داخل الحركة الوطنية — بمكناس — لمقاومة السياسة العامة للمسؤولين الفرنسيين سنة 1937.

الوضعية الاجتماعية : تمثلت هذه الوضعية في غلاء المعيشة نتيجة لارتفاع الأسعار، والنقص في الأجور، والزيادة في الضرائب، يضاف الى ذلك كثرة البطالة نظرا لقلة مرافق العمل.

وقد انعكس هذا الوضع المتأزم مباشرة على «الطبقات» الدنيا التي كانت تكون قاعدة الهرم الاجتماعي بمكناس.

كانت الزيادة في أثمان المواد الغذائية الأساسية من أكبر المشاكل التي شهدتها مدينة مكناس سنة 1937، فمثلا الثمن العادي للمد من القمح كان قبل هذه السنة يعادل 21 فرنكا، فأصبح يتجاوز 45 فرنكا، أي بزيادة نسبة 114%، وثمن اللتر من الزيت يساوي 2،50 فرنكا فصار خلال هذه الأزمة 7،50 فرنكا، بزيادة نسبة 200%، بينما ارتفع ثمن القالب من السكر من 5 فرنكا الى 6،50 فرنك وذلك بنسبة قدرها 30% (7).

ولم يكن يوازي هذه الزيادة في الأسعار، زيادة في الأجور، بل تم النقص منها، زد على ذلك ضعف أرباح الصناع والحرفيين والتجار الصغار وغيرهم من الفئات الاجتماعية.

ومما زاد في تعميق المشاكل الاجتماعية كثرة الضرائب، وتشمل رسوم الكراء والمباني والأرباح، والتي

كانت تفرضها الادارة الفرنسية بمكناس : «... وفي هذه الأيام الأخيرة اشتد الحال كثيرا بمكناس من أجل الضرائب، حيث جمع رئيس البلدية مقدمي الحارات، وعاتبهم عتابا شديدا، وسبهم سبا فاحشا لعدم قيامهم برفع كل من لم يؤد الى المحل المخصوص للأداء ليؤدي، أو يصار به الى السجن...» (8).

وكان جمع هذه الضرائب يتم بطريقة عشوائية لعدم وجود قانون تنظيمي لها، يراعي إمكانيات ومداخل السكان، لتحدد على أساسها قيمة الضريبة، وهذا ما اعترفت به السلطات الفرنسية نفسها : «... لذا يجب تنظيم هذه الضرائب... وهذا ما يؤخذ علينا في مكناس، فيجب وضع مشروع قانون، مع ترك متسع للسلطات المخزنية للتصرف في البنود المنظمة لجمع الضرائب...» (9).

وتجلى التعسف في جمع الضرائب في نموذج أحد الفحامين الذين طلبوا من رئيس المكتب الاقليمي وحاكم الناحية الجنرال كايو Caillault أثناء جولته بالمدينة الأهلية يوم 5 شتنبر 1937، إعفاءه من الضريبة المفروضة عليه وقدرها 33 فرنك (10)، لأنه كان مضطرا لبيع سلهامه لأداء هذا القدر.

ولم تكن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وحدها التي عانت منها الطبقات الدنيا في المجتمع المكناسي، ولكن هناك مشاكل أخرى، نقتصر على ذكرها دون تفصيل تجنبا للاطالة، وهذه المشاكل يمكن حصرها في : ضعف التطبيب، والمعاملة السيئة التي كان يعامل بها المرضى، ضف الى ما سبق انتشار حرفة البغاء العلني والسري بين المسلمات، سواء القاطنات بمكناس أو الوافدات عليها، وما وجود «العرس» وكثرة الفنادق داخل الأحياء الشعبية إلا تجسيدا لهذه الظاهرة التي ما كان المكناسيون ليقبلوا بها، وحملوا مسؤولية انتشارها للادارة الفرنسية، ولم تكن هذه المشاكل وحدها تثير مشاعر السكان، ولكن هناك أمراض أخرى لاتقل خطورة عنها ابتلي بها أهل مكناس، مثل انتشار الخمر والخمارات، والطريقة العيساوية التي كانت تمثل قمة الهمجية في استغلال الدين الاسلامي لخدمة مصالح الاستعمار، هذا فضلا عما كان يلاقيه المكناسيون من مضايقات يومية من قبل البوليس الفرنسي.

وإذا كانت المشاكل السالفة الذكر، المادية والمعنوية منها، عوامل أساسية في تحريك شعور المكناسيين لمقاومة سياسة إدارة الاستعمار الفرنسي بمكناس، فإن أخطر هذه المشاكل، كان سبب الاسراع بعجلة تاريخ الاصطدام الدموي مع هذه الادارة هو تحويل جزء من ماء بوفكران لصالح الأجانب.

المسألة المائية ودورها في أحداث بوفكران :

دراسة مبسطة ومركزة لوادي بوفكران : ينبع وادي بوفكران جنوب مكناس عند قدم حافة الأطلس المتوسط الهضبي، وقبل وصوله الى المدينة تغذيه مجموعة من العيون المائية. وكانت مياه هذا الوادي تستعمل للشرب وللسقي معا، وتوزع جنوب سيدي بوزكري الى ثلاثة أقسام :

- يحول قسم من الماء الى حمرية بواسطة ساقية اصطناعية.
- ويحول القسم الثاني منه بعض العيون الى وادي بوعماير.
- ويغذي القسم الأكبر من هذه المياه، المدينة الأهلية، وقصر السلطان، وأراضي أهل الزيتون والمعمرين القريبة منه بالمنطقة المعروفة بـ : تانوت.

كانت مياه بوفكران قبل 1912 مؤسسة حبسية تديرها إدارة الأوقاف، وتعمل على توزيعها بين المنتفعين بها : «.... من وجهة النظر القانونية، تعتبر مياه بوفكران قبل تنظيم توزيعها مؤسسة حبسية... قبل تأسيس الحماية بالمغرب...» (11).

وتغيرت الوضعية بين 1912 لأن إدارة الحماية ضمت المياه للأملاك العامة ومنها ماء بوفكران، مما

أدى الى صراع بين الادارة الحبسية والسكان من جهة والادارات الاستعمارية من جهة ثانية استمر الى ما بعد 1937.

تنظيم الادارة الفرنسية لاستغلال مياه بوفكران :

أصدرت حكومة الحماية عدة قرارات وظهائر لتبرير حيلها القانونية للاستحواذ على مياه بوفكران، ولأجل تنفيذ هذا المشروع تم عقد عدة اجتماعات لدراسة هذه المسألة، كان أولها بتاريخ 25 ماي 1914 (12)، ضم هذا الاجتماع عدة شخصيات مخزنية وفرنسية عسكرية ومدنية، وكان موضوعه خاص بتوزيع مياه وداي بوفكران، ووضع نظام شامل لاستفادة الأفراد والجماعات من هذه المياه.

وأصدر ليوطي المقيم العام بالمغرب — 1912 — 1925 — قرار 28 أبريل 1914 الخاص بتخلي الأحباس عن إدارة المياه للبلديات، فأصبحت هذه الأخيرة مكلفة بمدّ قنوات الماء داخل المدن، لكن هذا القرار لم يحظ بموافقة نظارة أوقاف مكناس التي تشبثت بحقها الكامل في تسيير مياه وادي بوفكران، لذلك راحت الادارة الفرنسية تبحث عن حيل أخرى تسيطر بها على هذه المياه التي أدخلتها ضمن الأملاك العامة للدولة، فأصدرت عدة ظهائر في هذا الصدد، كان أهمها الظهير الشريف المؤرخ يوم فاتح يوليوز 1914 (13)، وقد عدل هذا الظهير بظهائر أخرى كان أهمها ظهير فاتح غشت 1925 الذي جعل ضارطا للمياه التي أصبحت من الأملاك العامة، وأسندت إلى إدارة الأشغال العمومية بمكناس مهمة صيانة وتهيئة مياه بوفكران، في حين تشترك إدارة الأحباس مع البلدية في الاشراف على هذه المياه داخل المدينة، لكن الأحباس لم يرضها هذا التسيير الثلاثي لمياه وادي بوفكران بعدما كانت وحدها المشرفة عليها دون مزاحم، فدخلت في صراعات مع الادارات الاستعمارية، مما أدى الى عقد عدة اجتماعات بينهما، كان أولها بتاريخ 20 غشت 1922 الذي خصص جدول أعماله لدراسة مصارف إصلاح قنوات المياه داخل مكناس، واتفق الحاضرون في هذا الاجتماع على ضرورة تزويد المدينة بالمياه العذبة الضرورية لسكانها، لأن مياه بوفكران أصبحت ملوثة.

والملاحظ أن تلوث هذه المياه، كان سببه هو انتشار أراضي المعمرين على طول ضفتي الوادي، لأن هؤلاء الأجانب كانوا يملكون — إضافة الى الأراضي — المواشي ومنها الخنازير التي ترد من هذه المياه فتلوثها بعد دخولها اليها : «... فإنهم يطلقون الخنازير فيه ويتركونها تخوضه وتلوثه...» (14).

واجتمع الطرفان الحبسي والحكومي مرة أخرى يوم 22 مارس 1924، لدراسة مسألة تحويل مياه وادي بوفكران الى الأملاك العامة، لكن هذا الاجتماع لم يفسر عن نتائج ايجابية بين المعنيين بأمر مياه بوفكران.

وهكذا لم ينته الصراع بين الأحباس والادارتين الاستعماريتين — الأشغال العمومية والبلدية — الى اتفاق عملي بينهما، خاصة وأن الأحباس كانت تعتبر أن هذه المياه محبسة، ولها أحقية التحكم فيها، في حين جعلتها الادارة الفرنسية من الأملاك العامة، وقد استطاع الجانب الفرنسي فرض الأمر الواقع، وأدخل مياه بوفكران ضمن أملاك الدولة الحامية بالمغرب، وبقيت الأحباس مرة بعد الأخرى تثير مسألة تحبيس مياه بوفكران، دون الاستناد الى أية وثيقة مكتوبة حسب إدعاء الفرنسيين، لذلك بعد 1925 تكونت عدة لجن للبحث عن أصول ملكية مياه وداي بوفكران، وكانت أهم النتائج التي توصلت إليها هذه اللجن، وضع عدة مشاريع لتوزيع هذه المياه.

وطرحت مشكلة توزيع مياه بوفكران بمكناس بحدة سنة 1929، نظرا لتزايد عدد سكان المدينة، وانتشار الاستيطان بشكل واسع بضواحيها، وقلة التساقطات بالنظر الى المعتاد الذي كان يتعدى 500 ملم سنويا، ونظرا لهذه الأسباب وضعت إدارة الأشغال العمومية سنة 1932 مشروعا لتوزيع مياه بوفكران على

الشكل التالي (15).

ـ جزء من ماء بوفكران لسقي المناطق الخاصة بإنتاج الخضر.

ـ تحول المياه الباقية عند المكان المسمى قاضي حاجة بقرية مجاط عبر سرير اصطناعي الى معمل الكهرباء، ثم يجمع في حوض سيدي بوزكري ومنه يقسم الى ساقيتين :

الأولى موجهة الى المدينة الجديدة والثانية الى المدينة القديمة والى الزيتون. إلا أن هذا المشروع الذي وضعته الأشغال العمومية، لم ينل موافقة جميع الأطراف المتنازعة على مياه بوفكران، فوضعت نفس الادارة مشاريع أخرى في نهاية سنة 1932 وفي سنة 1933، ووافقت إحدى اللجن المجتمعة بتاريخ 5 مارس 1934، على المشروع الأخير ـــ 1933 ـــ الذي لم ينه المسألة الخاصة بتوزيع مياه بوفكران لكونه أعطى للمصالح الفرنسية ما يزيد عن 100 ل/ث وهذا ما يعادل بالتقريب 5/1 صبيب الوادي (16).

وتوالت الاجتماعات سنوات 1934 و1935 و1936 و1937، ولكنها جميعا لم تحل المسألة الخاصة بمياه وادي بوفكران، لأن أهداف الأطراف المجتمعة كانت متعارضة على الدوام، فإدارة الأحباس تريد أن تحتفظ بكل مياه بوفكران، في حين كانت إدارة الحماية الفرنسية تريد إشراك المعمرين خاصة المستقرين في تانوت (17) وباقي الأجانب القاطنين بحمرية في هذه المياه.

وآخر اجتماعين عقدا لدراسة مسألة توزيع مياه بوفكران كان ـــ قبيل اندلاع أحداث صيف 1937 ـــ الأول يوم 28 أبريل 1936 والثاني يوم 27 ماي 1936.

وقد توصل المجتمعون ـــ بعد مناقشات مطولة ـــ في اللقاء الأول الى النتائج التالية :

ـ تم الاعتراف للاحباس بـ : $\frac{210 \text{ ل/ث}}{450 \text{ ل/ث}}$ من صبيب مياه بوفكران داخل المدينة بما فيها $\frac{60 \text{ ل/ث}}{450 \text{ ل/ث}}$ الخاصة بقصر السلطان،

ـ وتم الاعتراف لادارة الاشغال العمومية بـ : $\frac{120 \text{ ل/ث}}{450 \text{ ل/ث}}$ من صبيب نفس الوادي.

وكانت أهم ساقية يستفيد منها سكان الزيتون هي ساقية الجبابرة الأم، التي تتفرغ منها عشر سواقي، ووصل صبيب كل منها 20 شكلا، أي ما مجموعه 200 شكلا، والشكل مقياس محلي يعادل 4 ليترات في الدقيقة (4 ل/د) أي 0،06 ل/ث (4 ل/د = $\frac{1 \text{ شكل} \times 4 \text{ ل/ث}}{60 \text{ ثانية}}$ = 0،06 ل/ث) أي أن صبيب مياه ساقية الجبابرة من مياه بوفكران، كان هو : $\frac{200 \text{ شكل} \times 4 \text{ ل/د}}{60}$ = 13،3 ل/ث (أي 15 ل/ث بالتقريب)، وهذا القدر يعادل صبيب قادوس فخدي.

ولكن هذا التوزيع الجديد لم يكن حاسما.

أما في الاجتماع الثاني، فقد خرج منه المجتمعون دون نتائج تذكره، كان هدف هذه الاجتماعات وما صاحبها من دراسات هو تبرير الترخيص للمعمرين بتانوت لأخذ 20 ل/ث لسقي الأراضي التي استولوا عليها ومساحتها 145 هكتارا، ويلاحظ أن هذه الاجتماعات تمت في غياب ممثلي عامة المكناسيين، وحضور أعيان المدينة كان شكليا، لأنهم لم يطلعوا على جل القرارات المتخذة في شأن مياه بوفكران. كان أخطر القرارات الصادرة في شأن توزيع مياه بوفكران، هو قرار الصدر الأعظم محمد المقري بتاريخ 16 نونبر 1936 (18)، لأن السلطات الفرنسية حاولت هذه السنة أن تتفادى أي اصطدام مع المكناسيين خلال الظروف الصعبة

التي كانت عليها البلاد بصفة عامة، فأمرت المخزن بإصدار هذا القرار للتأثير على المكناسيين لقبوله، فصار أساسيا فيما يتعلق بتوزيع مياه بوفكران، لارتكازه على كل القرارات والظهائر والاجتاعات السابقة له : «وبناء على كل ما ذكر فإن حقوق الماء في وادي بوفكران المأخوذة من ساقية متفرعة أو من نفس الوادي تعين كما يلي... هذا ما جاء في نهاية الفصل الأول من هذا القرار، الذي استعرض أهم القرارات والظهائر التي ارتكز عليها، وجاء في الفصل الثاني منه ما يلي : «إن المدير العام لادارة الأشغال العمومية هو المكلف بتنفيذ هذا القرار».

نقف من خلال توزيع مياه بوفكران الذي جاء في قرار الصدر الأعظم، سواء داخل المدينة أو خارجها، على نصيب أهل مكناس، والمعمرين، وسكان حمرية، وقصر السلطان، والأحباس، من الماء، وجاء هذا التوزيع مطابقا لرغبات وأهداف الأشغال العمومية، مما جعل السكان يعارضونه، فتراجعت الادارة الفرنسية على تطبيقه، وعوضته بتوزيع جديد يومي فاتح وثاني شتنبر 1937، حيث قلصت من نسبة المياه التي أعطيت للمعمرين ولسكان حمرية، في حين ارتفع صبيب ساقية الجبابرة والمدينة القديمة عما كان عليه.

وبالرغم من محاولة السلطات الفرنسية تسوية مسألة توزيع مياه وادي بوفكران، فإن ذلك لم يمنع هن اصطدامها الدموي مع المكناسيين في بداية شهر شتنبر 1937.

أحداث فاتح وثاني شتنبر 1937 :

كان السبب الرئيسي الذي فجر أحداث بوفكران ــ كما أسلفنا ــ هو تحويل السلطات الفرنسية بمكناس لجزء من ماء بوفكران لصالح المعمرين، مما ترتب عنه يبس الحدائق والأجنة والعرسات، واتلاف غلاتها من الفواكه والخضر والزياتين، هذا في الوقت الذي كان المعمرون فيه يتمتعون بالمياه الكافية، عند ذلك لم يسع أهل مكناس السكوت، ولم يستطيعوا مشاهدة حقولهم ومزروعاتهم تموت من قلة الماء (19). فقد المكناسيون كل أمل في أن تتفهم السلطة مطالبهم، واشتد يأسهم في مطلع صيف 1937، فدفعهم هذا اليأس الى تغيير سياستهم السليمة لمواجهة السلطة، فقاموا يدافعون عن الاحتفاظ بكل مياه بوفكران لمدينتهم، إلا أن الادارة الاستعمارية لم تعر المسألة العناية التي تستحقها، واعتبرتها مجرد أكاذيب روج لها أعضاء الحركة الوطنية، فتظاهر السكان دفاعا عن مائهم، واشتبكوا مع القوات القمعية في معركة دموية.

مظاهرة فاتح شتنبر السلمية :

لم تسفر الاتصالات التي أجراها ممثلو المكناسيين مع السلطات الفرنسية عن نتائج ايجابية، لأن هذه السلطات كانت تريد كسب الوقت لفرض الأمر الواقع عليهم، بتطبيق قراراتها الخاصة بإعطاء جزء من مياه وادي بوفكران للأجانب، دون أن تعير اهتماما للأضرار التي تلحق بالسكان وبذلك أصبحت سياسة اللجان أو الوفود غير مجدية، خاصة بعدما طرد رئيس البلدية اللجنة التي فوضوا لها الدفاع عن حقوقهم في أحد الاجتماعات.

وفي غياب ممثلي الأمة المكناسية، كانت الفرصة مواتية للأجهزة المسؤولة لعقد اجتماع فاتح شتنبر 1937، لتقرر ما تراه صالحا ــ في نظرنا ــ بالنسبة لتوزيع مياه بوفكران، فتوجه على الساعة 9،30 صباحا ما بين 400 الى 500 مكناسي الى مقر البلدية بحمرية، لما علموا بالخبر، للاحتجاج

على أي توزيع للماء لايشارك فيه ممثلوهم : «... عقدت بلدية مكناس مجلسا لتوزيع ماء بوفكران من غير أن تعلم نواب الأمة المكناسية الذين وضعت ثقتها فيهم للتكلم عليهم في الماء.. ولما تحقق المكناسيون مقصود الادارة البلدية في توزيع ماء بوفكران على غير الوجه الشرعي اجتمعوا بحذافيرهم وتوجهوا للادارة البلدية محتجين على توزيع الماء من غير حضور نوابهم وكانت مظاهرتهم هذه مظاهرة سلمية منظمة أحسن تنظيم حتى شهد لهم بذلك المحافظون على الأمن.. ولما وصلوا البلدية.. خرج إليهم رئيسها — كذا — مع باشا البلد ولم يسمعوا منهم كلاما ولم تحصل مفاهمة بينهم فرجع المكناسيون.. وتفرقت الجلسة التي عقدت بالبلدية من غير طائل..» (20).

وأثناء المظاهرة التي انطلقت من جامع الزيتونة الى البلدية، كان المتظاهرون يرددون شعارات تعكس مطالبهم، وأهمها : «لاقطرة ماء للمعمرين، كل مياه بوفكران ملك لنا».

وبعد وصول السكان المشاركين في المظاهرة الى مقر البلدية، وأغلبهم من الفلاحين والتجار الصغار، والصناع والحرفيين والعاطلين، نادى الباشا على أحد زعماء المتظاهرين واسمه محمد الطاهري، وطلب منه أن يبلغ للجمهور الحاضر، أن اللجنة المجتمعة وافقت على الاحتفاظ بماء بوفكران كله لسكان المدينة الأهلية، مقابل الحفاظ على الهدوء، والعودة الى أعمالهم ومنازلهم، والواقع أن ذلك كان مجرد تمويه لاغير.

حملت السلطات الفرنسية بمكناس، أعضاء الحركة الوطنية بالمدينة مسؤولية تنظيم وقيادة المظاهرة بعد فشل المفاوضات مع الادارات المعنية بمسألة توزيع مياه بوفكران في آخر اجتماع بتاريخ 31 غشت 1937 حسب ادعاء المسؤولين الفرنسيين، وقد تعرفت أجهزة المخابرات الفرنسية على بعض زعماء الحركة الوطنية الذين قادوا هذه الحركة، أمثال : أحمد بن شقرون، ومولاي ادريس المنوني، ومحمد بن عزو، ومحمد ولد مدان السلاوي، وامحمد الطاهري، ومحمد الأجاني وغيرهم، وكان من بين المتظاهرين أحد الفرنسين اليساريين الذائع الصيت في الأوساط النقابية بمكناس واسمه ادموند بلان. Plain (Admond) .

رجع المتظاهرون الى حال سبيلهم، واتفقوا على عقد اجتماع بالمسجد الأعظم عند العصر من نفس اليوم، لانتظار أعضاء اللجنة التي انتدبوها للاجتماع مع الباشا زوال ذلك اليوم، لكن هذا اللقاء لم يؤد الى نتائج ايجابية، فعاد ممثلو الأمة المكناسية حاملين معهم خيبة الاتصال، فزاد غضب المكناسيين.

وحوالي الساعة الثامنة مساء، وبالاتفاق مع الاقامة العامة بالرباط، اتخذت السلطات الاقليمية بقيادة الجنرال كايو Caillault، القائد العسكري للاقليم والمراقب المدني روني برونيل Brunel (René)، والباشا أحمد السعيدي، قرارا يقضي باعتقال زعماء المتظاهرين، وبعد مناقشات استمرت إلى منتصف الليل بمقر الناحية، اقترح رؤساء المصالح بمكناس إلقاء القبض على ما يزيد عن ستين مكناسيا، لكن في نهاية الأمر تقرر اعتقال خمسة منهم وهم : أحمد بن شقرون، محمد بن عزو، وهما من زعماء الحزب الوطني بمكناس، ومحمد بن أحمد برادة وهو زعيم قومي بنفس المدينة، ومحمد ولد مدان السلاوي وموي ادريس المنوني اللذين لم يكن لهما التزام سياسي واضح.

أعطى الجنرال كايو أوامره للباشا أحمد السعيدي لاصدار حكمه عليهم بثلاثة أشهر سجنا صباح يوم الخميس 2 شتنبر 1937، في الوقت نفسه تقرر توزيع القوات القمعية بالمدينة صباح ذلك اليوم، تحسبا لأي رد فعل يقوم به السكان، وقد وعت هذه القوات في أهم المناطق الاستراتيجية بالمدينة كـ :

باب بوعماير، وقنطرة البرتغال لمنع المكناسيين من التوجه الى حمرية، وبالسجن المدني ومحكمة الباشا ثم بالزيتون وسيدي بوزكري لتطويق المدينة وفصلها عن ضواحيها.

وأخذت هذه القوات الفرنسية المدججة بأحدث الأسلحة مواقعها على الساعة 8،30 صباح يوم الخميس، طبقا لما جاء في الخطة التي رسمها الجنرال كايو، وقام بتنفيذها الجنرال بوتي Petit.

مظاهرة ثاني شتنبر الدموية :

عند الفجر أخبر المقدمون «الزعماء» الخمسة المزمع اعتقالهم بأمر الحضور الى محكمة الباشا على الساعة الثامنة والنصف، وبعد حضور هؤلا «الزعماء» «في الوقت المحدد، نطلق الباشا في حقهم بالحكم التالي : «راهم حكموا عليهم بثلاثة أشهر سجنا» وهو بذلك يشير الى الفرنسيين.

وبعد النطق بالحكم، نقل المحكوم عليهم إلى السجن المدني بسيدي سعيد لقضاء هذه المدة، وحوكم المتهمون طبقا لظهير 29 يونيه 1935، الخاص بالمحافظة على النظام العام، وكل ما من شأنه تهديد أمن الدولة : «كل من يحرض بأي محل كان وبأية واسطة كانت على المقاومة الفعالة أو الهادئة... وكل من يحث على الاقلاق وتشويش البال أو على المظاهرات... يعاقب بالسجن من ثلاثة أشهر الى سنتين وبذعيرة قدرها 500 فرنك الى ألف فرنك أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط...» (21).

والواقع أن المكناسيين «جميعا» كانوا مسؤولين عما حدث، وليس الزعماء الخمسة فقط : «... ولما سمع المكناسيون بهذا الحكم الجائر اجتمعوا رجالا ونساء وتوجهوا للمسجد الأعظم... وعينوا جماعة منهم للذهاب عند الباشا يسألونه ـــ كذا ـــ عن الجريمة التي استوجب بها الأشخاص الخمسة... السجن... إن كان من قام يطلب حقه يعد مجرما ويوضع في السجن فإن جميع سكان مكناس مجرمون... والسجن والموت أحب اليهم من أخذ مائهم...» (22).

كان رد فعل السكان سريعا بعد نقل «الزعماء» الى السجن، فاجتمعوا بالمسجد الأعظم لتحديد موقفهم، بحكم أن المسجد كان بمثابة مقر لتدارس المشاغل اليومية لأهل مكناس، وطلب أعضاء الحركة الوطنية من المجتمعين بالمسجد التوجه الى باب محكمة الباشا وإلى ساحة الهديم، في الوقت نفسه حاولت لجنة من الوطنيين الاتصال بالباشا لاستفساره عن سبب سجن إخوانهم فلم توفق : «... فوجدوا القوة العسكرية خيلا ورماتا ـــ كذا ـــ واقفة بسائر الطرق الموصلة لمحكمة الباشا فردوهم بكل قوة وعنف ومنعوهم من الوصول الى الباشا وضربوهم بسرائر المكاجيل ضربا بليغا سالت منه الدماء... ولم يتحاشوا عن ضرب النساء ـــ كذا ـــ والصبيان...» (23). ولما رأت الجماهير المحتشدة أمام محكمة الباشا ما لقيه ممثلوهم، اندفعت في اتجاه القوات الفرنسية غير عابئة بما يصيبها من مكروه، وكأن عدد هذه الجماهير ما بين 3000 و4000 شخص حسب الرواية الرسمية، وأزيد من 15.000 متظاهر حسب التقديرات المغربية، خاصة إذا علمنا أن يوم المعركة صادف عقد السوق الأسبوعي بالمدينة، وتوافد العديد من «السواقة» من الضواحي الذين انضافوا الى السكان الحضريين، أدركنا كثرة عدد المشاركين في هذه المظاهرة الدموية.

حاولت القوات الفرنسية تفريق المتظاهرين الذين كانوا مسلحين بالهواوات والعصي والالات الحديدية والفؤوس والحجارة، لكنها لو تستطع أمام هجومات وحماس المكناسيين الذين كانوا يرددون : «نريد اطلاق سراح إخواننا، الماء ماؤنا تفديه أرواحنا» فتراجعت هذه القوات الى باب منصور العلج والباب المؤدي الى السكاكين، بعدما أطلقت الجماهير عليها الرصاص حسب الزعم الفرنسي، مما اضطرها الى الرد بالمثل فنشبت معركة حقيقية بين الطرفين، استطاع خلالها الجانب الفرنسي تحقيق «الانتصار»، بعدما استنفد

الجانب المكناسي كل إمكانيات الاستمرار في المقاومة أمام القوات القمعية التي استعملت كل أسلحتها ضدهم، بدأ بالغاز المسيل للدموع وإنهاء بالطائرات.

ولم تحل الساعة 12،30 زوالا حتى كانت القوات الفرنسية تسيطر على الموقف، وانشغل المكناسيون زوال ومساء يوم المعركة بدفن موتاهم واسعاف جرحاهم، وقد أفتى أحد «علماء» المدينة بإقبار الضحايا بملابسهم لأنهم شهداء لايغسلون ولا يكفنون، وتمت قراءة القرآن وصلاة الجنازة عليهم، بعد نقلهم الى المسجد الأعظم مع عدد من الجرحى، وأثناء قراءة القرآن قدم رئيس البحث السياسي بمكناس المسمى صالح التونسي، واستدعى ثلاثة وطنيين لمقابلة الباشا ورئيس المصالح البلدية، اللذان طلبا منهم عدم إخراج جنازة سعيد الاسلامي — وهو أحد اليهود الذين أسلموا آنذاك — من المسجد علانية نظرا لقلة الأمن، ولأن النفوس مازالت هائجة، كما أبلغا الوطنيين الثلاثة بحل مشكلة مياه بوفكران نهائيا لصالح السكان، وواعدوهم بإطلاق سراح «الزعماء» الخمسة، مقابل إلغاء قرار الاضراب الذي دعوا اليه لمدة ثلاثة أيام. ويظهر من هذه الوعود الارتجالية أن الغاية منها كانت تاكتيكية، لتهدئة الأوضاع لاغير.

كان يوم الخميس ثاني شتنبر 1937 يوما داميا لم تشهد المدينة مثيلا له في تاريخها الاستعماري قبل هذه السنة بشهادة المسؤولين الفرنسيين : «... وتسجل أنه لأول مرة حصلت في مكناس مظاهرة من هذا النوع...» (24).

وتكمن أهمية هذه المعركة — بغض النظر عن نتائجها — في تنظيمها السري المحكم، الذي غابت تفاصيله عن جهاز المخابرات الفرنسية على كثرتها : «... ويظهر أن تهيء هذه المظاهرات غاب عن السلطة لأنه كان في سرية تامة....» (25).

وكان وراء هذا التنظيم لهذه الأحداث مجموعة من الوطنيين الذين نظموا أنفسهم قبل هذا الوقت : «... وبأثر هذه المظاهرة المنظمة بايعاز من بعض العناصر التي تهدف إلى إثارة التهييج بين المسلمين على فرنسا...» (26).

كانت نتيجة هذه «المذبحة» مؤلمة بالنسبة لبعض الفرنسين الذين عاينوا الحدث : «إنها لنتيجة مؤسفة حقا، وكيف لا وقد تركت القتلى مجندلة في الشوارع منذ الساعة التاسعة صباحا ولم يسمح بأخذها حتى الساعة الثانية بعد الزوال... ولغاية الساعة الثالثة كان بعض الجرحى لايزالون يلفظون النفس الأخير دون أن يقدم لهم أدنى إسعاف... (27) وقد صور أحد الشعراء المكناسيين وهو محمد بن عبود الذي كان شاهد عيان للأحداث نهاية المعركة بقوله :

تلك بطحاء الهديم سجل فيهـــا ... منظـــر أرجوانــــي وحمـــام
تـــرك المسلمـــون حـــول رباهــــا ... جثثـــا فـــي الفـــؤاد منهـــا كـــلام
فـــإذا مـــا دنـــوا بعطـــف لحمـــل ... صـــوب النبـــل نحوهـــم السهـــام

انتهت هذه المعركة، فبقي نزيفها الدموي يغذي المشاكل التي عرفها المجتمع المكناسي بعد 1937.

عواقب أحداث بوفكران :

أسفرت أحداث بوفكران عن مخلفات بشرية وعسكرية تمثلت في العديد من الجرحى في صفوف الطرفين المكناسي والاستعماري، وعدد من القتلى من بين المتظاهرين، كما فقدت القوات الفرنسية بعض أسلحتها.

الخسائر البشرية في صفوف أهل مكناس :

شملت هذه الخسائر أعدادا كبيرة من الجرحى ودونهم من القتلى، إذ لم تتفق المصادر على عدد موحد فيما بينها. كان أول المصابين أعضاء اللجنة الوطنية التي تكلفت بالاتصال بالباشا وبالمراقب المدني لاستفسارهما عن سبب اعتقال إخوانهم، فمنعتهم قوات القمع الفرنسية من الوصول الى المحكمة : «... ولم تتردد هذه القوات في ضرب أعضاء هذه اللجنة بسرائر المكاحيل ضربا بليغا...» (28).

اختلفت المصادر في تقدير عدد الجرحى، فمنها ما أورد 19 جريحا وأخرى جعلتهم 40، وثالثة تحدثت عن مئات المصابين في صفوف المكناسيين، على هذا الأساس لم تضبط لوائحهم لأن العديد منهم لم يلتحق بالمستشفى قصد العلاج، لأن إحدى اللجن التي شكلها المكناسيون بعد انتهاء المعركة، كانت مهمتها الاعتناء بالمصابين الذين لم ينقلوا الى مستشفى سيدي سعيد، يضاف الى هؤلاء الجرحى، أن بعض المصابين غادروا مكناس للالتحاق بقراهم أو بمدنهم الأصلية دون أن يتم التعرف على هويتهم، وعلى هذا الأساس، تجاوز عدد الجرحى مائة من الأهالي، وهذا ما أجمعت على تأكيده الروايات الشفوية وبعض الوثائق غير الرسمية : «.. أما عدد الجرحى فيستحيل حصره أو ضبطه، ويتجاوز المائة من بينهم نساء كثيرات..» (29). ولقد دأبت الأوساط الرسمية على إخفاء حقيقة عدد الجرحى تخفيفا لهول الحادث، وهذا ما قامت به بالنسبة لعدد القتلى. إن اللائحة الرسمية الأولى للشهداء، كانت تضم ثلاثة عشر قتيلا دفنوا مساء يوم المعركة، والواقع أن عددهم تجاوز هذا الرقم، لأننا نعرف من خلال التقارير السرية، أنه لم يتعرف على أسماء بعض الجثث التي بقيت في المخدع الخاص بالأموات بالمستشفى، وحسب ما استطعنا استخراجه من أسماء من مختلف الوثائق، فإن عدد القتلى في صفوف الأهالي «بلغ 19 ضحية، وهذا ما اتفقت عليه جل المصادر المكتوب منها والمروي، ومع ذلك فإن هذا العدد بدوره لايعكس الواقع، إذا علمنا ضراوة المعركة من جهة، ومن جهة ثانية كثرة الأسلحة المتطورة التي استعملتها القوات الفرنسية في وجه الحشود الكثيرة من المتظاهرين، كما أن السلطات الفرنسية أنذرت بالعقاب كل من أقام الجنازة علانية لدفن ضحايا الأحداث بعد المعركة، ونفس الكبث فرض على سكان البادية الذين أخذوا قتلاهم تحت جنح الظلام سريا حتى لايعرف أحد بما حصل. وهكذا يبقى عدد القتلى دون الأرقام الواردة في التقارير الرسمية، كما جاء في بعض الشهادات المعاصرة : «... إن عدد القتلى الذي عد رسميا بعشرين، يتراوح حقيقة بين الأربعين والخمسين، ذلك أن عددا منهم أخذه أقاربهم ودفن خفية، خصوصا الأفاقيين، وليس هذا من الغرابة في شيء لأن الجنود أطلقوا أثناء الحادث ألفي رصاصة...» (30)، وإذا صحت هذه الشهادة ــ ونعتقد جازمين أنها صحيحة ــ فإن عدد القتلى كان مرتفعا كما هو مثبوت في شهادة أخرى : «... وكل ما نعرفه أنه بعد الزوال جاءت شاحنتان عسكريتان، جمعت من ساحة الهديم الجثث التي وجدتها... ومنذ ذلك الوقت، والعديد من العائلات لم تر زوجا أو ابنا أو أخا...» (31).

والملاحظ أن الضحايا سواء من الجرحى أو الموتى كانوا ينتمون «طبقيا» للفئات الفقيرة كالحرفيين، والتجار الصغار، والفلاحين والعاطلين.

ومن النتائج المباشرة لأحداث بوفكران تعرض عدد كبير من الأهالي لعقوبات بالسجن أو الغرامة المالية، لمشاركتهم في هذه الأحداث، وتراوحت هذه العقوبات ما بين شهر وخمس سنوات سجنا، أصدرها الباشا أو القاضي العسكري على هؤلاء الأهالي الذين وجهت اليهم تهمة «تشويش» أفكار السكان وتهديد أمن الدولة كما جاء في محاضر الجلسات والأحكام.

وإذا تعذر علينا ضبط عدد الضحايا في صفوف الأهالي، فإن الوثائق الرسمية تسعفنا في التعرف بدقة على الخسائر البشرية في جانب القوات الاستعمارية.

الخسائر البشرية والمادية في صفوف القوات الفرنسية :

تصنف هذه الخسائر الى صنفين :

* الجرحى من مختلف السريات والفرق العسكرية الفرنسية.
* الأسلحة التي فقدتها هذه القوات القمعية.

بالنسبة للجرحى، جاء في الوثائق الرسمية أن أحداث بوفكران أسفرت عن جرح 54 رجل من قوات حفظ النظام موزعين كما يلي :

46 من الجيش، و4 من البوليس، و4 من الدرك.

وكانت أغلب الاصابات في صفوف القوات الفرنسية بين الجنود المغاربة العاملين ضمنها. كما خلفت هذه الأحداث جريحا مدنيا واسمه إما فرانسوا AMAT(François) وقد نقل أغلب الجرحى من قوات القمع الى مستشفى لويس Louis العسكري بمكناس، وبعضهم الى مستشفى ماري فويي Marie-Feuillet بالرباط.

وأما فيما يتعلق بفقدان هذه القوات لبعض أسلحتها فالأمر يخص 250 قطعة حربية لثلاث فصائل فقط، ويضاف الى هذه الذخيرة البنادق والمسدسات والحرب والسيوف وأعمدتها.

والواقع أن الذي أربك الأجهزة المسؤولة بمكناس بعد الاحداث، ليس هو كمية وعدد الأسلحة المفقودة، ولكن الخوف من احتفاظ الوطنيين بها وعرضها على السكان بالمسجد الأعظم، الأمر الذي كان من شأنه أن يزيد من حماسهم ويقوي لديهم روح الاستمرار في مقاومة السلطة بالمدينة.

وعموما كانت الخسائر البشرية والعسكرية لـ : كيرة الماء لحلو، دون الحقيقة التي كتبتها السلطة التي أرادت أن تخفف من قوة الحادث، وحصر تفاصيله بين أسوار مدينة مكناس دون انتشار صداه الى القبائل المجاورة لمكناس أو الى أهم المدن المغربية التي لم تدخر جهدا في التضامن مع المكناسيين، كما وصل هذا الصدى الى العواصم العالمية الكبرى آنذاك مثل باريس، لندن، روما، برلين، واشنطن، موسكو والى مقر عصبة الأمم بجنيف.

صدى أحداث بوفكران بالقبائل المجاورة لمكناس وبالمدن المغربية الكبرى :

انتشرت أخبار أحداث بوفكران بين القبائل المجاورة لمكناس، ولا سيما بهضبة سايس، وبجبال الأطلس المتوسط، وفي جل أنحاء المدن المغربية التي أعلنت قياداتها الوطنية عن تنظيم يوم وطني للتضامن مع المكناسيين، فكانت حركة تضامنية لم يشهد مثلها مغرب القرن العشرين قبل 1937.

صدى أحداث بوفكران بالقبائل المجاورة لمدينة مكناس :

وصلت أخبار هذه الأحداث الى هذه القبائل بواسطة «السواقة» الذين جادوا بصفة عادية لسوق الخميس الأسبوعي بمكناس، المنفذ التجاري المهم للقبائل المجاورة للمدينة، فبعد رجوع هؤلاء السواقة الى قراهم مساءُ يوم الأحداث أخبروا عائلاتهم بالمأساة التي عرفتها مكناس، فأصبح البدويون يتداولون أحداث بوفكران بنوع من المبالغة، ويضخمون نتائجها ويشيعون أن أهل مكناس دخلوا في حرب مع الفرنسيين، وأن عدد الجرحى والقتلى يعد بالآلاف.

وكان المصدر الثاني الذي وصلت عن طريقه أخبار الأحداث الى قبائل الأطلس المتوسط، هو أعيان وتجار المنطقة الذين كانت تربطهم بسائقي الشاحنات التي كانت تنقل البضائع والخضر من مكناس الى قرى ومدن الأطلس المتوسط، روابط تجارية وعلاقات وطيدة.

وهناك مصدر ثالث وهو وصول الجرائد الوطنية كـ : عمل الشعب، والأطلس والمغرب... بطرق مختلفة الى سكان الأطلس، رغم الحصار الشديد التي كانت تضربه السلطات الفرنسية على تحرك الوطنيين، ومن بين الدعاة النشيطين المعروفين بنقل الأخبار الى سكان القبائل في مريرت : مولاي الطيب العلوي وعمه مولاي الشريف، و كان بعض التجار في أزرو يقومون بنفس المهمة، ونذكر منهم : سيدي علال، والحاج الجيلالي، والحاج الحسين، ومولاي الكبير، والحاج لحسن وحميدة الفيكيكي، يضاف الى هؤلاء المسمى بن داود وهو من قدماء المحاربين في صفوف القوات الفرنسية.

وكان الوطنيون بمكناس بعد أحداث بوفكران، قد وجهوا دعوة من منابر المساجد إلى إخوانهم بالبوادي للقدوم الى المدينة للتضامن مع أهلها ضد الفرنسيين : «... تأكد انتشار دعاية وطنية بالمدينة وبالقبائل لاثارة السكان ضد الممارسات الفرنسية التي ذهب ضحيتها عدد من المسلمين...» (32).

ومن بين أهم القبائل المجاورة لمكناس التي وصلتها أخبار أحداث بوفكران، قبيلتا بني مطير وزيان، فطالب الوطنيون من سكان هاتين القبيلتين التوجه يوم الجمعة 17 شتنبر 1937 الى مساجد مكناس للتعبير عن مساندتهم للأسر المنكوبة.

كان لانتشار أخبار أحداث بوفكران بالقبائل القريبة من مكناس صدى قويا، ومع ذلك فإن رد الفعل من قبلها سيطر عليه ما كان مفروضا عليها من ظروف العيش، ومن وسائل القمع الاستعماري، وبالرغم مما قيل عن حصول بعد أفراد القبائل على الأسلحة، فإن ذلك لم يؤد الى انتفاضة قبلية على السلطات الفرنسية، لأن قوات هذه الأخيرة كانت يقظة، وتسيطر على سكان البادية المغربية بعدما جردتهم من سلاحهم، وأمكنها بواسطة الطيران أن تمسح البادية مسحا تاما، وأصبح كل شيء في متناول مدافع الاستعمار، لذلك أحكمت هذه القوات قبضتها على قبائل الأطلس وبني مطير وجروان وغيرها.

صدى أحداث بوفكران بالمدن المغربية :

بادرت القيادات الوطنية في جل أنحاء المدن المغربية إلى تأييد سكان مكناس في حركتهم النضالية، وإدانة القوات الاستعمارية على ما ارتكبته من جرائم في حقهم، وهكذا اتصل الزعيمان ـــ كل على حدة ـــ علال الفاسي ـــ الذي كان بالدار البيضاء أثناء الأحداث ـــ ومحمد بن الحسن الوزاني ـــ الذي كان موجودا بفاس ـــ بالسلطات الفرنسية ـــ وقدما لها احتجاجهما، كما عبرا عن هذا الاحتجاج أيضا في جرائدا هما الناطقة بلسان حزب كل منهما، فخصصت صفحات بكاملها من «العمل الشعبي» الناطقة باسم الحزب الوطني، وصدرت صفحتها الأولى بعناوين بارزة مكتوبة باللون الأحمر، تحمل فيها القوات الفرنسية مسؤولية ما وقع في مكناس وتطالب بفتح تحقيق لمعاقبة الجناة الفرنسيين الذين كانوا السبب في اندلاع هذه الأحداث. (33).

وصدر نفس الاحتجاج في جريدة الدفاع الناطقة بلسان القوميين. (34) كما بعث علال الفاسي ومحمد اليزيدي برقية تضامن الى المكناسيين جاء فيها : «نتضامن معكم في مقاومة الاستعمار... نعبر لكم عن شجبنا لما حدث للسكان العزل في مكناس... نرجو أن تبلغ تعازينا لعائلات الضحايا وتضامننا مع جميع السكان بمكناس» (35).

وإضافة الى هذه البرقية أصدر الحزب الوطني بيانا مطولا يتضامن فيه مع سكان مكناس، ومما جاء فيه :

«أيها المكناسيون، إننا إلى جانبكم.
الاستعمار النهم يثير مأساة دموية.
عشرات الموتى ومئات — كذا — الجرحى
... إننا متضامنون معكم والمصيبة التي نزلت بكم حلت بساحة ساءر — كذا — مواطنيكم، فلنثبت جميعا في الكفاح لأن المستقبل لنا...» (36).

على إثر هذه الحركة الاحتجاجية التي قام بها الوطنيون في أغلب المدن المغربية تحرك سكان هذه الأخيرة في موجة عارمة التضامن مع أهل مكناس، لدرجة أن جماهير بعض المدن كانت على استعداد للتظاهر مساء الأحداث، فخرجت إلى الساحات العمومية في كل من مراكش، والدار البيضاء، وأزمور، ووزان، وبصفة خاصة في مدينة فاس، إلا أن قوات القمع الفرنسية أحكمت قبضتها على هذه المدن.

وقد تقرر على الصعيد الوطني أن يكون يوم الاثنين 6 شتنبر 1937 «يوم التضامن مع مكناس»، وذلك بإقامة صلاة الغائب على أرواح شهداء أحداث بوفكران، وتنظيم مظاهرات سلمية تضامنا مع الشعب المكناسي، ففي فاس مثلا تم إقفال المتاجر ذلك اليوم، وتوجه السكان الى مسجد القرويين، فقرأوا القرآن، وأقاموا صلاة الغائب على ضحايا مكناس، ولم يتأخر الفاسيون في جمع المساعدات المالية وإرسالها الى المكناسيين لاسعاف المتضررين منهم، كما أن الزعيمين علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني وصلا معا الى مكناس للوقوف في عين المكان عن حقائق مجريات الأحداث.

ووقع بالرباط وسلا ما وقع بفاس زوال يوم الاثنين 6 شتنبر 1937، وخلدت الدار البيضاء هذا اليوم كما رسم له أعضاء الحركة الوطنية، ويؤكد هذا وصف أحد الوطنيين لتضامن البيضاويين كما يلي : «.... وما وصلت الساعة الثانية عشر موعد الاغلاق (الاضراب) حتى كنت لاترى إلا تضامنا تاما بين سكان البيضاء... الكل يغلق بابه... وفي الساعة الثالثة اكتظت مساجد البيضاء بالناس وبعد صلاة العصر أقيمت صلاة الغائب على أرواح شهداء مكناس...» (37).

وحاول الوطنيون تأطير السكان في كل من وجدة ومراكش لتنظيم مظاهرات في نفس التاريخ بعد إقامة الصلوات، لكنهم لم يتوفقوا نظرا ليقظة قوات القمع.

عبرت الحركة الوطنية — بهذا العمل التضامني — في جل المدن الغربية عن بداية نضجها، ومدى ما وصلت اليه من التنظيم السياسي، ذلك أن جل المدن لم تتخلف عن هذا التضامن : «واهتز المغرب من أقصاه الى أقصاه... كان يوم التضامن 6 شتنبر هو اليوم الذي يعلن فيه المغرب بجميع طبقاته تضامنه مع مكناس... فقد مر يوم التضامن في كل البلاد من وجدة الى مراكش على أحسن ما يرام... رغم هياج الجماهير البالغ الحد...» (38).

ووصل صدى تضام سكان المدن المغربية مع أهل مكناس الى بعض عواصم العالم الكبرى وقتئذ، كباريس، وقد جاء في لوجور Le jour وهي إحدى الجرائد الصادرة في العاصمة الفرنسية بتاريخ 9 شتنبر ما يلي : «يمكن اعتبار هذه المظاهرات كأحداث جد خطيرة لأنه لأول مرة في المغرب يتم إقفال الدكاكين المغربية».

إن التأييد الذي عرفته القضية المكناسية لم يقتصر على سكان كبريات المدن المغربية، ولكن المغاربة

بالخارج في باريس ونيويورك أبرقوا إلى وزير العلاقات الخارجية الفرنسي عن طريق المقيم العام بالمغرب يحتجون على ما قامت به القوات الفرنسية من جرائم في حق المكناسيين، كما أن بعض الأحزاب العربية، كحزب الشعب الجزائري احتج بدوره، وخلفت أحداث بوفكران ردود فعل مناوئة لحكومة الجبهة الشعبية الفرنسية عند بعض الهيآت السياسية والحركات النقابية والمثقفين الفرنسيين داخل المغرب وفرنسا.

ومنذ هذه الأحداث ضاعفت حكومة الحماية من تشديد الحراسة على سكان المدن المغربية، خاصة بعد نجاح يوم التضامن مع مدينة مكناس، وبالرغم من هذه الحراسة والقمع المسلط على الوطنيين، فإن ذلك لم يمنع من حدوث اضطرابات خطيرة في جل أنحاء المدن المغربية، انتهت بفعفعة ركائز وأركان قادة الحماية، مما دفعهم الى اعتقال ونفي زعماء الحركة الوطنية المغربية.

خلاصة واستنتاجات :

إن الأحداث التي شهدتها مدينة مكناس في بداية شهر شتنبر 1937، جاءت نتيجة للوضع العام الذي كان يعيش عليه المجتمع المكناسي، وكذا نتيجة للتحول الاقتصادي والاجتماعي الذي كان عليه المغرب قبل سنة 1937، خاصة وأن جل السكان المجاورين لمكناس فقدوا أرضهم، فهاجروا الى المدينة طلبا للرزق وفرارا من الاضطهاد بعد أن أخذت منهم أراضيهم، وكان في ذلك الاحتشاد سببا للبحث عن وسائل جديدة لمقاومة الاستعمار، وهو ما قامت به الحركة الوطنية الناشئة بمكناس التي قادت أحداث بوفكران، وهكذا أصبح ناقوس الخطر الذي هدد الوجود الفرنسي بالمغرب ينطلق من المدن التي ظلت هادئة قبل 1937، بل يمكن القول أنها انقادت للاستعمار (39)، في الوقت الذي كان فيه سكان البادية يقاومونه.

إن أحداث بوفكران تجاوزت مستوى الحدث التاريخي الى العامل التاريخي الذي يؤثر في مجرى الأحداث، ويكون منعرجا خطيرا، بما تسبب فيه من تحويل في مجرى تاريخ المغرب في عهد الحماية، حيث انتقلت المقاومة المغربية — نهائيا — للاستعمار الفرنسي في تجربة بوفكران من البوادي الى المدن التي تسلح أهلها بسلاح الفكر والمقاومة السياسية والدينية التي لاقبل للمستعمر بها (40)، ولكأن مدينة مكناس أعطت الانطلاقة للمدن المغربية الأخرى، لتعبر صراحة عن موقفها الرافض للاستعمار، بالرغم من هزيمة المكناسيين في هذه المعركة التي تجاوز صداها المستوى الوطني الى العواصم العالمية المعنية بأمر المستعمرات الفرنسية آنذاك.

الهوامـــش

(1) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأزمة انظر : Le Maghreb-Revue, 1ère année n° 3, septembre 1932 « La crise économique du Maroc » par Kaddour

(2) انظر : الأطلس جريدة ـــ السنة الأولى، العدد 11. التاريخ 30 ـــ 4 ـــ 1937.

(3) نشأت مدن الصفيح بمكناس في مطلع الثلاثينات من هذا القرن بـ : برج مولاي عمر، والفخارين، وللمزيد من التوضيح في هذه النقطة أنظر : Franchi (Jean) : Urbanisation d'un bidonville, Bordj Moulay Omar. Rapport d'urbanisation dans B.E.S.M. n° 83, 3e trimestre 1959 p. 255-91.

(4) محمد برادة ـــ أحد الزعماء الخمسة الذين اعتقلوا يوم الخميس 2 شتنبر 1937، بعث بمقال مطول إلى محمد اليزيدي ـــ مدير جريدة الاطلس آنذاك ـــ بتاريخ 29 ذي القعدة 1355 (1936) تحت عنوان : «إلى من بيدهم الحل والعقد» نتوفر على نص هذا المقال بخط يد صاحبه.

(5) المقال السابق

(6) مقال لـ : عبد الهادي الشرايبي تحت عنوان : «الصناعة المغربية تتطلب تدابير حازمة وسريعة». نتوفر على نسخة مصورة من هذا المقال.

(7) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس 1956 ـــ 1912

Archives du protectorat. Meknès 250 D.I. — autique (1935-1945) Région de Meknès 1935 — 1946 Oued Boufekrane.

Chemise : Archives. D.A.P. classement 44 Meknès Oued Boufekrane 1° K Emeutres Meknès, septembre 1937 M²/a Maroc.

مراسلة سرية للمراقب المدني ورئيس المصالح البلدية بمكناس روني برونيل إلى الجنرال كايو بتاريخ 1937.9.9 تحت رقم R.B/4R154/C

(8) مراسلة لـ : الطاهر البعاج إلى مدير جريدة الاطلس، بعنوان : «مكناس تحت الارهاب من أجل الضرائب» جمادى الأولى 1356».

(9) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ـــ سابقا ـــ المراسلة السرية السابقة.

(10) المصدر السابق : تقرير اجمالي للجنرال كايو من فاتح إلى خامس شتنبر 1937، بتاريخ 7 شتنبر 1937 تحت رقم 247%2.

(11) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ـــ سابقا ـــ مراسلة الجنرال نوكيس إلى وزير الشؤون الخارجي الفرنسية بتاريخ 1937.10.1، تحت رقم 1936 تحت عنوان : أحداث بوفكران.

(12) المصدر السابق : تقرير اجمالي في موضوع : مياه بوفكران وروافده للقبطان ماتيو Mathieu بتاريخ 1914.6.6.

(13) الجريدة الرسمية رقم 89، السنة الثالثة 10 يوليوز 1914 ص 530.529 أهم بنود هذا الظهير : «يعتبر من الاملاك العامة بالمغرب... كل أنواع مجاري المياه، والمنابع التي تغذيها، الآبار، البحيرات...»

(14) أرشيف إدارة الاحباس بمكناس. مراسلة ناظر الاحباس الكبرى إلى رئيس البلدية، كناش المكاتب الصادرة ص 55 نصر 377 مكرر.

11 صفر 1341 موافق 1922.10.2.

(15) وثائق الاشغال العمومية دائرة مكناس، التوزيع الهيدروليكي رقم 463، البحث عن أصول ملكية مياه وادي بوفكران، تقرير التوزيع بتاريخ 1932.2.6.

(16) المصدر السابق : للمزيد من التفاصيل انظر : محضر الاجتماع المفصل المؤرخ بـ 23 يونيه 1934 تحت رقم 1.

(17) المعمرون المعنيون بالأمر هم : فرانس فيكتور France (Victor) بيير بيري Perret (Pierre) دوسطادو De Stadieu ولويس لارتيك Lartigue (Louis) إضافة إلى معمرين آخرين قرب مكناس سواء بسيدي بوزكري مثل : بول بوتان Buttin (Paul) وفيالون Viallon أوكسبوزيطو Exposito بقصبة بوفكران وغيرهم.

(18) الجريدة الرسمية رقم 1268 بتاريخ 12 يبراير 1937 ص 205 إلى 207، نتوفر على النص الاصلي مكتوب باللغة العربية ــ لهذا القرار، مصور وقد حصلنا عليه من وزارة الخارجية الفرنسية باريس.

(19) الاطلس ــ جريدة ــ السنة الأولى، العدد 8 بتاريخ 1937.6.24.

(20) ابن زيدان (عبد الرحمان) : الوثيقتان اللتان كتبهما عن أحداث بوفكران نتوفر عليهما مصورتين.

(21) للمزيد من التفاصيل عن هذا الظهير أنظر : الفكهاني (حسن) الموسوعة المغربية في التشريع والقضاء، المجلد الرابع ــ أمن 7 ــ قوانين مغربية ــ أ ــ إصدار الدار العربية للموسوعات بالقاهرة.القاهرة 1981.

(22) ابن زيدان (عبد الرحمان) : الوثيقتان السابقتان.

(23) المصدر السابق.

(24) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ــ سابقا ــ مذكرة شتنبر 1937 حول أحداث مكناس ــ مسألة مياه بوفكران.

(25) المصدر السابق، مراسلة الجنرال كايو بتاريخ 2..1937 تحت رقم 226%2.

(26) السعادة ــ جريدة ــ العدد 4471 بتاريخ 1937.9.4.

(27) الدفاع ــ جريدة ــ السنة الأولى العدد 4 بتاريخ 1937.9.21 نقلا عن Depêche de Fès الدبيش الفاسية مقال لمدير هذه الأخيرة Débare ديبار، بعنوان : «أحرار الفرنسيين يتحدثون عن مأساة مكناس»

(28) ابن زيدان (عبد الرحمان) : الوثيقتان السابقتان.

(29) تقرير لـ روبير لوزون Louzon (Robert) بعنوان : «مذبحة مكناس» نشر هذا التقرير في مجلة : «الثورة البروليتارية» بباريس بتاريخ 1937.10.10. وتوجد نسخة منه مقرونة بأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ــ سابقا ــ تحت رقم 253.

(30) الدفاع ــ جريدة ــ سابقا، نقلا عن Dépêche de Fès بتاريخ 1937.9.11.

(31) تقرير لروبير لوزون ــ سابقا ــ

(32) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ــ سابقا ــ تقرير سري للمساعد كلودون Claudon قائد الدرك بمكناس بتاريخ 1937.9.9 تحت رقم 197/4C

(33) العمل الشعبي ــ جريدة ــ L'action Populaire 1ère année n° 21 samedi 4 septembre 1937 « Des événements sanglants à Meknès, la troupe tire sur la foule, quels sont les responsables ? ».

(34) الدفاع ــ جريدة ــ السنة الأولى، العدد الثاني بتاريخ 1937.9.7 «فاجعة مكناس العظمى، الشعب المكناسي يناضل عن حقه في الحياة ».

(35) نتوفر على نص البرقية باللغة الفرنسية ــ مصورة ــ وقد وجهت إلى الجيلالي المزوار، وهو أحد الاعضاء النشيطين في الحزب الوطني انذاك بمكناس.

(36) نتوفر على النسخة الاصلية لهذا البيان.

(37) وثيقة غير منشورة ــ بحد علمنا ــ تحمل عنوان : «يوم مكناس بالبيضاء» نتوفر على النسخة الاصلية لهذه الوثيقة.

(38) الوداد ــ جريدة ــ السنة الأولى، العدد السابع. 16 شتنبر 1937.

(39) عياش (جرمان) : تبرير حول رسالة الاستاذ بوشتى بوعسرية، أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شتنبر 1937». مجلة دار النيابة السنة الثالثة العدد الحادي عشر صيف 1986 ص 22.


محور الثقافة والفنون والآداب

الثقافة بمدينة مكناس في حاضرها وماضيها

الأستاذ محمد العرائشي
محافظ خزانة الجامع الكبير
مكنـــاس

يشتمل الموضوع على المحاور الاتية :

1) التعليم بمدينة مكناس خلال القرن العشرين.
2) المراكز التعليمية، الكُتّاب، المدرسة، المسجد
3) حلقات الدروس وشيوخها
4) الخزانات العامة والخاصة.
5) المجلات والجرائد
6) وأخيرا مقتطفات من ديوان الشعر المكناسي.

المحور الأول : التعلم بمدينة مكناس خلال القرن العشرين

نظرا لكون المصادر التاريخية التي يمكن أن تعتبر مرجعا في هذا المحور قليلة جدا، فإنني سأعتمد أولا على ذاكرتي.

وثانيا على ما تلقيته من شيوخي الأقدمين بمكناس، وما شاهدته من نهضة علمية بالمدينة، انطلاقا من سنة 1354 هـ/1935 أي منذ ابتداء دراستي الأولية بحلقات الدروس التطوعية التي كان يقوم بها طائفة من علمائها بالمساجد الكبرى والصغرى.

ومهما يكن من أمر فإن التعلم بمكناس في هذه الفترة وبالأخص التعليم العربي، كان يؤدي مهمته على أكمل وجه بالمراكز التي سأتحدث عنها في المحور الآتي :

المحور الثاني : المراكز التعليمية

أ ــ **الكتاب** : كان التعلم الأولي للطفل بمكناس كما بغيرها في جميع مدن المغرب وقراه يبتدىء من الكتاب (الجامع أو المسيد) إذ فيه يتلقى الطفل مبادىء القراءة وقواعد الرسم، ثم لايغادر الكتاب حتى يكون قد حفظ القرآن الكريم بأكمله حفظا متقنا، بعد أن يستظهره أمام فقيه المكتب مرارا وتكرارا، وفي حالة عدم تمكنه من ذلك يخرج من الكتاب وقد حفظ جملة مهمة من سوره وبالأخص المفصل منه.

وقد بلغ عدد الكتاب في الفترة التي اتحدث عنها، والى كان يتولى التعليم بها فقهاء مشهورين بحفظ

القرآن وتجويده، بالاضافة إلى استقامتهم وحسن سلوكهم نحو أربعين كتابا.

1) مكتب شيخ القراء وفي وقته، العالم الصالح، الأستاذ المقرىء السيد العربي بن جَ فضول ابن شمسي المتوفى في ثاني ذي القعدة عام 1905/1322 (1) الواقع بحومة التوتة المحمول على سقايتها، وهو المعروف في التاريخ، بمكتب مسجد ابن جابر، محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى ابن جابر الغساني المكناسي شيخ شيوخ ابن غازى المتوفى سنة (827 هـ) 1424 م. فهو من أقدم الكتاتيب بالمدينة، لأن تاريخه يرجع الى العهد المريني أما حومة التوتة فهي من الأحياء السكنية في العهد المرابطي.

2) مكتب معلمي الأول شقيق والدي سيدي عبد السلام بن أحمد العرائشي المكناسي المتوفى سنة 1931/1349 (2) تعلمت في مبادىء القراءة والكتابة في سن مبكر، ولم أغادره حتى حفظت كتاب الله العزيز حفظا متقنا على يد خلفه السيد محمد بن العلمي الاجراوي المتوفى سنة 1976/1396 م ويعرف هذا المكتب بمكتب قبة السوق، ويقع قرب أحد أبواب قيسارية الحرير قبالة باب الخضر، أحد أبواب الجامع الكبير الأحد عشر. وقد سبق الى التعلم به الفقيه محمد بن العياشي المتوفى عام 1909/1326.

3) مكتب السيد محمد بن محمد القباب المتوفى سنة (1946/1365) يقع بحومة صدارته قرب الزاوية الكنتية. وبعد وفاته انتقل اليه تلميذه السيد محمد بن العلمي الأجراوي السابق الذكر. وقد سبق الى التعليم به الفقيهان ج محمد كعيوش ومولاي الكبير الساطة.

4) مكتب السيد محمد بن فضول السقاط المتوفى سنة (1942/1361) الواقع بزقاق القبابين والمعروف بمكتب مسجد سيدي عبد الواحد الأشقر (3) وقد تولى التعليم به صديقنا الأستاذ جَ عبد الهادي السقاط بعد وفاة والده وجعله نواة لمدرسة حرة ابتدائية اسسها جوار المكتب، وأطلق عليها اسم (مدرسة محمد السقاط).

5) مكتب السيد محمد بن الطاهر الزهراوي المتوفى سنة 1944/1364 الواقع بدرب سيدي زروق من حومة الأخوخ (4) وقد تولى التعليم به بعد وفاته، ولده السيد الزهراوي العلمي مدير مدرسة القاعدة الجوية الابتدائية حالا بمكناس الذي طوره فيما بعد الى مدرسة حرة ابتدائية أطلق عليها اسم (مدرسة الزهراوي).

6) مكتب ضريح مولاي أحمد الشبلي (5) كان يعلم به أولا صديقنا السيد الجيلاني بن محمد المزوار مدير (المدرسة الاسماعيلية) فيما بعد.

7) مكتب سيدي عبد الله القصري (6) كان يعلم به ناظر الضريح السيد أحمد حجاج المتوفى سنة (1965/1384) يقع فوق ساباط قرب ضريح السيد.

8) مكتب الزاوية الصادقية بحومة التوتة. علم به أولا الأستاذ عبد الهادي شيخ المفتى السيد محمد الهلالي ثم السيد عبد الله الصحراوي ثم السيد قدور الصحراوي يدعى «كنبورة» الذي كان يعلم به آخر حياته.

9) مكتب حومة مولاي أحمد الشبلي المحمول على الساباط هناك.

10) مكتب مسجد سيدي موسى قرب حومة التوتة ويرجع تاريخها الى العهد المريني وصاحبه الذي

ينسب اليه، هو موسى بن معطي العبدوسي أحد العلماء المشهورين في عصره توفي بمكناس سنة (776 هـ/1375) (7) كان يعلم به السيد العربي يدعى ولد الكلالية.

11) مكتب جامعي الصابة الواقع بحومة براكة، المحمول على ساباط هناك. كان يعلم أولا الفقيه الفلوسي يدعى لغشيم، ثم السيد أحمد بن السعيد، تم السيد البادي بن العباس السقاط مقدم ضريح سيدي محمد بنعيسى.

12) مكتب زاوية سيدي الحارثي بحومة براكة تولى التعلم به بطريقة عصرية الصديق محمد بن العلمي ابن رحال مدير مدرسة (الرشاد) الابتدائية الحرة فيما بعد، ثم انتقل منه الى مكتب مسجد سيدي الزوار بحومة مدرب السلوى محمول على ساباط الدرب.

13) مكتب درب العباسية، المحمول على ساباط جوار درب الطبالة مدخله بدرب العباسية تولى التعلم به السيد ادريس اليوسفي والد المرحوم السيد أحمد مدير مدرسة الفتح الحرة بالزيتون.

14) مكتب الزاوية التهامية الواقع داخل الزاوية. كان يعلم به السيد المحجوب بن ادريس بن المرابط مقدم الطائفة الجزولية بمكناس المتوفى سنة (1948/1367).

15) مكتب سيدي بوكتيب يعلم به الان السيد نعتيقي محمد

16) مكتب سيدي يحى المحمول على ساباط سي عق قرب باب الجديد. وهو من المساجد القديمة، بناه أبو زكرياء يحيى المعروف بالمريني سنة 1119/821 (8) يتولى التعليم الآن السيد أحمد العياشي الصنهاجي.

17) مكتب مسجد سيدي مغيث قرب باب البرادعيين وصاحبه كما في الاتحاف مغيث أبو الفضائل زغبوش المكناسي القرشي (9) كان يعلم به الأستاذ محمد بن البشير الساوري أحد أساتذة السبع بمكناس البالغ عددهم وقته نحو 15.

18) مكتب سيدي أحمد بن خضرا المحمول على ساباط درب السيد، تعاطى التعليم به السيد التهامي صفنضلة ثم أخوه من بعده السيد ادريس (10).

19) مكتب درب الجنان قرب حومة الوسعة، كان يعلم به السيد محمد بن المهدي الفلالي المتوفى سنة 1962/1381.

20) مكتب تيزيني الكبرى. كان يعلم به الحاج المختار المصورى، ثم السيد محمد بن المهدي المذكور قبله.

21) مكتب سيدي الحريشي يعلم به الآن السيد أحمد الصنهاجي. ويقع هذا المكتب أسفل عقبة الزرقاء وسيدي الحريشي المضاف إليه المسجد، هو أبو القاسم بن حبيب الحريشي أحد العلماء الذين أدركهم ابن غازي بالسن (11).

22) مكتب سيدي حماموش يقع قرب مستشفى القسطالي. كان يعلم به السيد قاسم النشواني. وحماموش هو أبو الحسن علي توفي في العشرة الثالثة من القرن العاشر. (12)

23)مكتب زقاق القرموني المحمول على سلباط هناك. كان يعلم به مولاي ادريس البوعناني.

24) مكتب سيدي النجار بزقاق القرموني. يعلم به في الوقت الحاضر ج محمد المودني.

25) مكتب للا عائشة العدوية المحمول على الدرب الذي يقع به مشهدها. كان يعلم به السيد ادريس اجانا يدعى «زنبير» المتوفى 1935/1353. ثم السيد محمد بن الجيلاني البخاري (ودينة) المتوفى سنة 1977/1397.

26) مكتب مسجد درب سيدي هدى بحومة رحبة الزرع. كان يعلم به السيد الهادي بنشمسي المتوفى سنة 1953/1372.

27) مكتب تيبرپارين. كان يعلم به السيد أحمد العظيمي عم السيد بوشتى الغرباوي.

28) مكتب للا الزهرا. كان يعلم به السيد أحمد العظيمي السابق الذكر.

29) مكتب سيدي سلامة. يقع بجواره ضريح سيدي سلامة. آخر من علم به، مولاي عبد الله الومغاري المتوفى سنة 1979/1399.

30) مكتب حومة سيدي قدور العلمي المحمول على سقاية هناك.. آخر من علم به السيد عمر لكرامي أمام الزاوية التجانية.

31) مكتب درب الادريسيين بحومة قبة السوق، آخر من علم به العدل السيد عبد القادر الصبري.

32) مكتب تربيعيين بحومة جامع النجارين. كان يعلم به ابا سيدي الضرير وكان قبل ذلك يعلم بمقصورة باب بردعاين ثم بزاوية احمادشة ثم بجامع سيدي يحيى وكان يملي على تلاميذه متن ابن عاشر ويكتبونه في آخر اللوحة.

33)مكتب باب بريمة. كان يعلم به السيد عبد السلام بن الهاشمي الاجراوي أحد التلاميذ شيخ القراء بمكناس السيد العربي بنشمسي السابق الذكر. وكان قبل ذلك يعلم بجامع الحجاج، ثم بللا العلمية ثم بمسجد باب عيسى.

34) مكتب روى مزيل الواقع حذو مسجد الشافية. كان يعلم به أولا للسيد الهادي الودغيري ثم ولده السيد محمد ويعلم به الآن ولده الثاني السيد عبد السلام.

35) مكتب مسجد باب عيسى (جامع المعلقة) المحمول على الساباط حذو الفران. كان يعلم به بطريقة عصرية، صديقنا مولاي رشيد بن عبد الله المنوني المتوفى سنة 1980/1400 وهناك مكتب آخر، محمول على الساباط المقابلة لدرب حمام الجديد كان متهدما ثم أعيد إليه التعليم بعد إصلاحه. ويعلم به الآن السيد العياشي الرهوني.

36) مكتب مسجد سيدي عمر وبوعوادة كان يعلم البشير المنوني، ثم السيد ادريس غازي، ويعلم به الآن السيد المفضل الحسين الجيلي ابتداء من 1976.

37) مكتب الشاوية قرب الستينية بساحة للا عودة، كان يعلم به الشريف سيدي محمد ولد النقيب مولاي عهد الرحمن بن زيدان، ثم السيد مامان العلوي يدعى «الشخيص» ثم السيد العربي بصري.

38) مكتب سيدي بصري الواقع بالمقبرة داخل — ب — درب سيدي بصرى آخر من علم به السيد محمد بن ادريس بصري.

39) قصر المدرسة بدار المخزن. ورد في ج. 1 من كتاب (العز والصولة) للمولى عبد الرحمن ابن

زيدان ص.79 أن آخر من كان يعلم البنات به : الأساتذة المختار الجرواي ومحمد بن المهدي المنوني، والعربي ابن صالح النجار الحلموني.

40) قصر المنحشة بدار المخزن أيضا. ذكر في المصدر أعلاه أنه كان يعلم به شيخ جماعة المقرئين الأستاذ اليزيد، وأبو محمد عبد السلام النسب، والأستاذ ادريس بن محمد آل زكرياء الصبان.

هذه مجموعة الكتاتيب القرآنية التي أمكنني أخطها، وهناك كتاتيب قرآنية أخرى تقع بالأحياء المجاورة للمدينة، كحي سيدي عمور وباب ابن القاري ابن محمد، وقصبة هدراش، وأكدال والزيتون ولكن جل تلاميذها كانو يتوجهون إلى المدينة للأخذ عن شيوخها، وبالأخص الذين يريدون أخذ القرآن بالقراءة السبعية. وقد اشتهر من أساتذة القراء السبعية.

السيد محمد بن أحمد الحميدي المتوفى عام 1945/1364 صاحب الصوت الرخيم، شيخا الجماعة بمكناس، السيد العربي بنشمسي، والسيد محمد بن فضول السقاط، ومولاي محمد العلوي دعي الخبيزي والفقيه المفتى السيد محمد الهلالي. والأستاذ ابراهيم النسب وفي هذا الأثناء، كان بعض معلمي تلك الكتاتيب الفقهاء، يكتبون للطلبة الذين يستأنسون منهم الاقبال على طلب العلم بعض أبيات من متني ابن عاشر، وألفية ابن مالك بآخر اللوحة، يستظهرونها كل يوم بعد اتظهار القرآن، فلا يغادر الطالب المكتب حتى يكون قد حفظ جملة وافرة من المثنين.

ولقد ظل التعليم بالكتاتيب القرآنية مقتصرا على تحفيظ القرآن الكريم، إلى أن وفق الله بعض العلماء المصلحين من هذه البلاد، فأعز إلى بعض طلبة تلك الكتاتيب الذين تخرجوا منها، وتوجهوا لطلب العلم أن يقوموا بإعطاء بدروس دينية أثناء العطلة الأسبوعية، عشية الأبعاء ويوم الخميس لكبار تلاميذ الكتاتيب.

وأول عالم قام بهذا العمل الجليل، هو شيخ الجماعة بمدينة مكناس العلامة السيد محمد بن الحسين العرائشي المكناسي المتوفى سنة 193/1351 فقد وضع تويلفا في مبادىء التوحيد والفقه (درة الولدان في معرفة ما يجب على الأعيان) وطبعه بعض المحسنين على نفقته، ووزعه مجانا على فقهاء الكتاتيب، وطلب منهم أن يوجهوا تلاميذهم زوال يومي الأربعاء والخميس إلى جامع الكبير ليتلقوا عنه دروس مؤلفه.

وقد أعطى عمله نتائج طيبة، حيث تضاعف إقبال المتخرجين من تلك الكتاتيب على طلب العلم بحلقات دروس مساجد مكناس وجامعة القرويين.

وفي حدود الثلاثينات، أوائل نشأة الحركة الوطنية، انتشرت فكرة إنشاء كتاتيب قرآنية منظمة، تضيف إلى تعليم القرآن الكريم تعليم مبادىء الدين والعربية والحساب وكان من أوائل القائمين بهذا المشروع الأساتذة محمد بن العلمي ابن رحال والجيلالي بن محمد المزوار، ورشيد بن عبد الله المنوني السابقوا الذكر.

وقد صادف عملهم سندا شعبيا.وكما يذكر التاريخ فقد كان من جملة برنامج جلالة المغفور له محمد الخامس عند زياراته لمدينة مكناس، زيارة مكتبي ابن رحال والمنوني وقد سر بالبرنامج الأدبي الذي أعده فقيه كل مكتب على حدة وشارك فيه الأطفال بكلمات ترحيبية وأناشيد حماسية، الشيء الذي قوى معنوية القائمين بالتعليم بها (13) أما في وقتنا الحاضر، فقد تضخم عدد الكتاتيب، بعد ما أصبحت وزارة التربية الوطنية تشرف على سيرها وتراقبها من الناحيتين : التعليمية والتربوية، ووضعت لها منهاجا تعليميا، ورتبت لمراقبتها مرشدين تربويين وأصبح لايتولى التعليم بها إلا من امتحن في حفظ القرآن وتجويده من طرف القاضي

الشرعي، وعضو من أعضاء المجلس العلمي بمكناس. وحدد سن دخول الأطفال اليها في خمس سنوات والخر؟ج منها الى مدارس التعليم الرسمي في سبع سنين، وفرضت على المتعلمين بها رسوم تتراوح ما بين 5 و10 دراهم. كأجرة لمعلم المكتب ومساعده.

وبلغ عددها في الوقت الحاضر 644 مكتبا وعدد أطفالها بالاقليم 22164.

ب ــ المدرسة :

بعد احتلال فرنسا لمدينة مكناس (14) انشئت أول مدرسة حرة لتعليم العربية والفرنسية، بدار مولاي سنرور برحبة الزرع خاصة بأبناء الأعيان بمقابل رمزي يؤديه التلاميذ وكان يعلم بها الفرنسية، معلمون فرنسيون، والعربية السيد الهادي بنشمسي السابق الذكر، والعدل مولاي اسماعيل بن سليمان العلوي المتوفى عام 1962/1381 تم العالم السيد بنعيسى بن بوسلهام الخلطي البوجنوني المتوفى سنة 1963/1382. وحصل أول فوج من هذه المدرسة على الشهادة الابتدائية سنة 1915 كان من بينهم محمد الحاج عبد الرحمن السرغيني والسيد محمد النسب والسيد محمد بن ج محمد السنتيسي خليفة الباشا سابقا (15) ثم بعد ذلك انشئت مدارس ابتدائية وثانوية مزدوجة اللغة كان للغة الفرنسية فيها حصة الأسد.

بعد ذلك جاء دور تأسيس المدارس الحرة التي كانت اللبنة الأولى في محاربة الاستعمار الذي حاول القضاء على اللغة العربية بجميع ما يملك من وسائل، فأنشئت المدارس الحرة بجميع أنحاء المغرب، بمساعدة المغفور له جلالة محمد الخامس والمخلصين من أبناء هذا الوطن، ووضع لها برنامج باللغة العربية.

وكانت الوزارة التي تشرف عليها تابعة للقصر الملكي مباشرة، فكانت الرسائل تبعث الى مديري تلك المدارس باسم «نيابة الصدارة العظمى في التعلم الاسلامي» وهي التي تنظم سير امتحانات المرور الى ثانوي التعليم الأصيل، الحر والمعربين.

ونجد الان من بين المتخرجين من تلك المدارس، علماء، وأطباء، ودكاترة، وأساتذة جامعيين وقضاة وعدولا الخ.

وتتباع تأسيس المدارس الحرة بمدينة مكناس، فبلغ عدد الأصل والفرع 12 مدرسة.

1) **مدرسة النهضة الاسلامية** الواقعة بباب الحجر قرب مشهد سيدي علي منون.

أسسها محمد الخامس من ماله الخاص به، وأوقف على سير التعليم بها بعض أملاكه وذلك سنة 1945/1364 وكان أول مدير لها هو الأستاذ مولاي مصطفى العلوي رئيس المجلس العلمي لاقيم مكناس حاليا، وقد كان التعليم بها أولا ابتدائيا تم أضيفت اليه بعض الأقسام الثانوية تم انشىء لثانويها فرع بحي المرس. وفي عهد الاستقلال بنيت لها بناية خاصة بها بطريق الحاجب، واقتصر التعليم بها على الثانوي بعد أن أدمجت جميع أطرها بأسلاك وزارة التربية الوطنية.

2) **المعهد المحمدي** أسس في 18 صفر 2367 فاتح يناير 1948 وتولى إدارته كاتبه محمد بن عبد القادر العرائش. كان موقعه الأول يدرب سيدي زروق من حومة الأخوخ بدار الفقيه القاضي محمد بن ادريس العلوي وشقيقه مولاي عبد السلام باشا مدينة زرهون سابقا تم نقل الى مدرسة السيد عبد السلام بوزوبع. برحبة الزرع التي ضمت أخيرا الى مدرسة درب السلوى من فاتح نونبر 1952 الى متم دجنبر 1953 من

أجل إجراء إصلاحات محلية بالمركز الأول.

وفي ربيع الثاني 1381 موافق أكتوبر 1962 نقل الى روض مولاي اسماعيل بن العباس العلوي بساحة للاعودة.

وفي 15 رمضان 1394 موافق فاتح أكتوبر 1975 توقفت الدراسة به، ونقل كاتبه للعمل مع وزارة الشؤون الثقافية. فعين أولا رئيسا لقسم المخطوطات بخزانة الجامع الكبير بمكناس. ثم محافظا للخزانة..

3) **فرع المعهد المحمدي** خاص بالبنات أطلق عليه اسم مدرسة (الأميرة عائشة) اسس بجوار المعهد المحمدي 1951/1370.

4) **مدرسة محمد السقاط** بحومة مولاي أحمد الشبلي.

أسست سنة 1946/1366 وتولى إدارتها السيد ج عبد الهادي بن محمد السقاط. وتوقفت الدراسة بها بعد أن نقل مديرها الى إدارة مدرسة رسمية ابتدائية بآكوراى ثم الى مدرسة ابن حزم بحي البرج الى أن أحيل على التقاعد سنة 1398 هـ/1979.

5) **المدرسة الاسماعيلية** أسست أولا بحومة تيبربارين، وتولى ادارتها السيد الجيلالي بن محمد المزوار ثم نقلت الى حومة سيدي قدور العلمي، ثم الى مدرسة درب مولاي الطيب بحومة زقاق القرموني. وبعد بلوغ مديرها سن التقاعد تولى ادارتها السيد أحمد اليوسفي مدير مدرسة الفتح بالزيتون. وبعد انتقاله لادارة مدرسة برج النعامة الرسمية بأكدال توقفت الدراسة بها.

6) **فرع المدرسة الاسماعيلية** بدار المجدولي بباب عيسى. كان يتولى النيابة فيها عن المدير القاضي حاليا الحاج العيسوي المسطاسي.

7) **مدرسة الرشاد** بدرب السلوى حومة جامع الزيتونة. [illegible] يرده الفقهاء كل يوم [illegible]

أسسها مديرها السيد أحمد بن العلمي ابن رحال وتعد أقدم مدرسة حرة بمكناس ولما بلغ مديرها لسن التقاعد بقي التعليم بها مقتصرا على الأقسام التحضيرية الى غاية تاريخه.

8) **المدرسة الحسنية** أسسها مديرها السيد محمد بن عبد الرحمن العلوي بمنزله أولا بحومة صدارته ثم نقلت الى طريق سيدي حماموش قرب الحبول، وبعد ما بلغ سن التقاعد سنة 1406 هـ/1985 م بقي التعليم بها مقتصرا على الأقسام التحضرية.

9) **مدرسة الزهراوي**. أسسها مديرها السيد العلمي بن محمد الزهراوي بمقر مكتبه السابق الذكر. وبعد التحاقه بمدارس التعليم الرسمية توقف التعليم بها.

10) **المدرسة الادريسية** أسسها مديرها السيد عبد القادر الصبري بحي بريمة. وبعد أن عين عدلا توقف التعليم بها.

11) **مدرسة الفتح** بحي الجبابرة بالزيتون تولى إداراتها أولا السيد أحمد بن ادريس اليوسفي المتوفى ليلة الاثنين 8 رمضان 15/1395 شتنبر 1975 ثم مديرها الحالي السيد البرزال عبد الله بعد أن انتقل مديرها الأول الى المدرسة الاسماعيلية كما سبقت الاشارة إليه.

12) مدرسة ابن خلدون أسست سنة 1947/1366 وتولى إدارتها السيد يوسف الغالبي وفي سنة 1950 توقفت الدارسة بها. وكان موقعها بحي سيدي بوخبزة.

وقد نالت هذه المدارس حظها الأكبر، أيام الاستعمار من المحاربة والتضييق، فكانت تراقب مراقبة صارمة من طرف السلطات الاستعمارية، وكان يستدعى مديروها بين الفينة والأخرى للتحقيق معهم كلما بلغهم من طرف جواسيسهم، إن المدارس الحرة مراكز للاجتماعات السياسية، فتهددهم بالسجن والنفي إن استمروا في اقلاق راحة الادارة، ولكن ذلك التهديد كان ينفخ روحا جديدة في المسيرين لتلك المدارس ويقوى عزائمهم، ويكفى أن أقول إنه كان باب :

كناطح صخرة يوما ليوهيها فلم يضرها وأوهي قرنه الوعل

وزيادة في سياسة القمع، فقد وجهت الادارة الى مديري تلك المدارس رسائل عقب نفي جلالة المغفور له محمد الخامس مع أسرته، مؤرخة ب 26 شتنبر 1953 وموقعة من طرف مدير التعليم العمومي (طابو) تتضمن أن الحكومة كلفت ادارة التعليم العمومي بالقيام بمراقبة المدارس الخصوصية الاسلامية، والكتاتيب المجددة، بتوزيع الاعانات على المؤسسات التي تحتاج الى إعانة، وأنه يجب أن يلغى من التعليم جميع المسائل السياسية، كما هو الشأن في المدارس العمومية.

وكانت تتلقى التشجيعات المادية والأدبية من طرف المغفور له جلالة محمد الخامس فكان يدشن بعض المدارس عند افتتاحها إما بنفسه أو بواسطة ولي عده مولاي الحسن (جلالة الحسن الثاني) وشقيقته الأميرة للاعائشة.

ففي مدينة مكناس، دشن ولي العهد مولاي الحسن (جلالة الحسن الثاني) مدرسة النهضة الاسلامية التي اشتراها محمد الخامس من ماله الخاص به كما سبقت الاشارة إليه.وألقى بها خطابا رحيا في يوم السبت 4 ذي الحجة 10/1364 نونبر 1945.

وفي سنة 1946 دشن كذلك ولي العهد مدرسة محمد السقاط وألقى بها خطابا هاما سلم لمديرها بعده منحة مالية ملكية.

وفي مدينة الدار البيضاء، دشن ولي العهد كذلك، القسم الداخلي للمدرسة الحسنية في 6 ذي القعدة 2/1365 أكتوبر 1946 وذلك بمناسبة زيارة محمد الخامس للبيضاء.

وبمدينة فاس دشنت الأميرة للاعائشة، مدرسة البنات الحاملة لاسمها، والتي كان يتولى ادارتها الأستاذ العالم محمد بن عبد الله الشاوني مدير مدرسة ابن غازى وذلك بتاريخ الأحد 10 ذي القعدة 1965/ 6 أكتوبر 1946. وألقت بالمناسبة خطابا سامية سلمت عقبه منحة مالية ملكية الى مدير المدرسة.

وباقي المعلومات عن هذا الموضوع يرجع فيها الأصل هذا الملخص.

نعم لقد أدت مدارس التعليم الحر مهمتها على أكمل وجه، في الوقت الذي كانت فيه المقاومة الغربية محتاجة الى سند قوي، لكن لما استقل المغرب، وأدخل إصلاح جذري على التعليم، وفتحت عدة مدارس في المدن والقرى، ضعف الاقبال على التعليم الحر المعرب واضطراب جل مدارس التعليم الحر بمكناس الى إغلاق

أبوابها، والتحق موظفوها إما بمدارس الرسمي، أو بأطر الدولة، التي طلبت الاستفادة من خبرتهم وكفاءتهم.

وفي السنين الأخيرة، ظهر هذا النوع من التعليم في شكل جديد فأعطت وزارة التربية الوطنية عدة رخص لفتح مدارس حرة، ابتدائية وثانوية، وذلك للتخفيف من الضغط الواقع على مدارس التعليم الرسمي بسبب النمو الديموغرافي. وقد وقع تنافس كبير في هذا الميدان، ففتحت عدة مدارس، لأنها أصبحت تدر على أصحابها أرباحا مهمة، وبلغ عددها في الوقت الحاضر حسب الاحصاء المسجل بدليل المؤسسات التعليمية للسنة الدراسية 1986/85 الذي وضعته نيابة التعليم بمكناس.

الابتدائي : 27 مؤسسة عدد التلاميذ 1520

الثانوي : 9 ثانويات عدد التلاميذ 2905

وما دمت بصدد الكلام على الاحصائيات فإني أرى من المناسب تعميما للفائدة، أن يشمل هذا الاحصاء عدد ابتدائيات وثانويات التعليم الرسمي وعدد التلاميذ والطلبة بها بمكناس حسب الدليل المشار إليه :

الابتدائيات : 62 **عدد التلاميذ** : 76850
الثانويات : 8 **عدد التلاميذ** : 15195
الاعداديات : 20 **عدد التلاميذ** : 32884

أما رياض الأطفال ودور الحضانة، فيبلغ عددها 10 وعدد الأطفال بها : 2700 تقريبا والذي يتولى إعطاء الرخص لفتحها هي مندوبية الشبيبة والرياضة وأخيرا نالت مدينة مكناس حظها من التعليم الجامعي.

ففي 3 محرم 1403 موافق 21 أكتوبر 1982 دشن وزير التعليم الدكتور عز الدين العراقي كليتان بمكناس كلية للآداب والعلوم الانسانية وكلية العلوم بباب القزدير (حي الزيتون) وهي الآن تؤديان مهمتهما على أكمل وجه.

ج ــ **المسجد** : كانت المساجد بالمغرب ولا تزال مراكز إشعاع لثقافة عامة شاملة وكان لمساجد مكناس دورها في هذا الميدان، فكانت أبوابها تظل مفتوحة في وجه الرواد من طلبة العلم. وكانت الأوقات التي تلقى فيها دروس المساجد، بعد صلاة الصبح وقراءة الحزب، ومن 8 الى 10 صباحا، وبين الظهرين والعشاءين، كل يوم عدى أيام العطلة الأسبوعية، الأربعاء والخميس، والجمعة، والأعياد الدينية، وأيام : 9 و10 و11 من شهر محرم، والنصف الأخير من شهر شعبان، كما تعطل الدروس ثلاثة أيام عند وفاة العالم. أما المساجد التي كانت تلقى فيها تلك الدروس فهي :

1) المسجد الأعظم (الجامع الكبير) 2) جامع الأنوار (سوق السباط) 3) المسجد العتيق (جامع النجارين) 4) جمع الزيتونة 5) الجامع التوتة 6) جامع الحجاج 7) مسجد سيدي قدرو العلمي 8) ضريح مولاي أحمد الشبلى 9) مسجد سيدي عبد الله القصري 10) جامع سيدي أحمد بن خضرا 11) مسجد باب ابن القارى 12) جامع للاخضرا بقصبة هدراش 13) مساجد المدارس الثلاثة البوعنانية، العدول،الفلالية

المحور الثالث : حلقات الدروس وشيوخها

مند أقدم العصور ومدينة مكناس تتوفر على علماء أكفاء طبقت شهرتهم الآفاق ساهموا في نشر

العلم على أوسع نطاق. ألفوا، درسوا، أفتوا، نسخوا نوادر الكتب بخط يدهم، تخرج على يدهم علماء، تربعوا على كراسي التدريس من بعدهم فأجادوا وأفادوا.

وكانت الدروس تلقى في المساجد على شكل حلقات تعقد لذلك، ويوكل اختيار دروس تلك الحلقات الى الطلبة، فهم عندما يشعرون باحتياجهم لقراءة فن من الفنون، يبحثون عن العالم الذي يحسنه، فيختارون من بينهم من يتوجه الى العالم ليطلب منه قراءته معهم، وبعد أن يتفق معهم على الكتاب، والزمان والمكان، يشرع في التدريس الى أن يأتي على نهاية الكتاب.

وزيادة في تمكن الرابطة بين العالم وطلبته، فقد كان بعض العلماء عندما يختم الفن الذي يدرسه يقيم للطلبة بمنزله مأدبة غداء أو عشاء يستدعي لها بعض أصدقائه، تتلى عند نهايتها آيات من كتاب الله العزيز، وأمداح نبوية.

وقد برز من علماء تلك الحلقات في عصور مختلفة، علماء مشاركون في شتى الفنون ملئت بتراجمهم ... التاريخ، وأكبر موسوعة تناولتهم هي كتاب «إتحاف إعلام الناس، بجمال حاضرة مكناس» للمؤرخ الشهير مولاي عبد الرحمن بن زيدان.

ومن بين الذين برزوا في علمي الأصول والفروع، الامام المحدث المطلع محمد بن القاضي محمد بن ورياش قال في درة الحجال: وكان يروي الحديث بها (مكناس) سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في غالب ظني.

وفي علم الرياضيات، أبو سالم ابراهيم بن الأكحل السويدي المتوفى في ربيع الثاني سنة 1598/1006 حلاه ابن القاضي في درة الحجال، بالفقيه الفرضي الحيسوبي، وحيد عصره في علم الفلك والهيئة والتعديل.

وفي علم التاريخ : أبو المطرف أحمد بن عبد الله البلنسي الشقوري. قال عنه في الاحاطة : كان نسيج وحده، إدراكا وتفننا، بصيرا بالعلوم، محدثا مكثرا، راوية ثبتا، متبحرا في التاريخ والأخبار، توفي بتونس سنة 656 هـ/1258 م.

وفي علوم القرآت والتجويد : محمد بن عبد الرحمن بصري المتوفى سنة 1124 هـ/1712 م ورد اسمه به في الظهير الاسماعيلي المؤرخ بربيع النبوي عام 1112 حيث جاء فيه ومنهم (ذرية بصرى) حامل راية الاقراء، وخاتمة الحفاظ والقراء، والفقيه الصدر، العالم العلامة الخ.

وقد بلغ عدد الذين كانوا يتقاضون مرتبات من الأحباس في القرنين 12 و13 نحو السبعين ذكرهم بأسمائهم ابن زيدان في كتابه (العز والصولة، في معالم نظم الدولة ج. 2 ص. 182 183 نجد من بينهم :

أحمد العميري وأحمد ابن عزو، ومحمد البيجرى، ومحمد البوعصامي ومحمد ابن عزوز، ومحمد عثمان، والمفضل الفلوسي إلخ.

وفي القرن 14 بلغ عدد المرتبين من الأحباس عشرين، مصنفين الى ثلاث طبقات :

أولى وثانية، وثالثة. حسبما بالمصدر قبله، ص . 180 و181.

فمن بين أهل الطبقة الأولى : القاضي أحمد الناصرى، القاضي أحمد المدغري، القاضي امحمد السوسي القاضي بسلا محمد بن ادريس العلوي، محمد بن ادريس الشبيهي، عبد الرحمن ابن زيدان.

ومن الطبقة الثانية : محمد بن الطاهر بصري، العربي المنوني، وعبد المالك الشبيهي.

ومن الطبقة الثالثة : محمد الحميدي، محمد ابن شمسي.

أما الفترة التي أشرت اليها في المحور الأول، ففيما يلي لائحة تتضمن أسماء بعض العلماء الذين كنت أحضر دروسهم، مع ذكر أسماء المساجد والفنون التي كانت تدرس بهما.

أ ـــ الجامع الكبير ـــ كان يعمر جميع أوقاته بالتدريس فيه شيخ الجماعة بمكناس محمد بن الحسين العرائشي المكناسي المولود حوالي 1280 هـ/1864 م والمتوفى سنة 1351 هـ/1933 م أخذت عنه في سن مبكر، قواعد الاسلام بتويلفه (درة الولدان) الذي سبقت الاشارة اليه. وله تآليف أخرى نشر بعضها والبعض الآخر منها لازال لم ير النور. وكما كان يدرس بالمسجد الأعظم، كان يدرس بمستودع الموقت، وبمسجد سيدي قدور العلمي، ونسخ عدة كتب بخط يده.

ب ـــ القاضي محمد بن أحمد السوسي المكناسي المولود عام 1869/1285 والمتوفى سنة 1950/1369 أخذت عنه أوائل ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل وأجازني بسنده الى ابن مالك شعرا.

ج ـــ القاضي محمد بن أحمد العلوي المولود بمدينة زرهون سنة 1871/1288 والمتوفى بمدينة مكناس سنة 1947/1367. حضرت بعض دروسه في شرح سورة البقرة بتفسير البيضاوي قبل وفاته بيسير وفي فترات أخرى من تاريخ توليته القضاء بمكناس، كان يدرس شمائل الترمذي والسيرة النبوية.

د ـــ مولاي عبد الله بن الجيلاني العلمي دعى (جمعان) المتوفى سنة 1942/1361. كان يدرس به الفقه والنحو. وفيه أخذت عن أوائل مختصر خليل بشرح الدردير والنصف الأول من ألفية ابن مالك بشرح المكودى.

هـ ـــ الحاج المختار بن محمد السنتيني رئيس المجلس العلمي سابقا المتوفى سنة 1969/1389. كان يدرس به الفقه بتحفة ابن عاصم، ومختصر خليل بشرح الدردير والأصول بابن السبيكي والمنطق بشرحي بناني والقويسني. وفيه أخذت عنه المنطق بالشرح الأخير، ومنظومة الاستعارة للشيخ الطيب ابن كيران.

و ـــ السيد أحمد بن عبد السلام بن شقرون كاتب المجلس العلمي سابقا المتوفى سنة 1970/1390. كان يدرس له لأمية الزقاق في علم القضاء والعروض، وألفية ابن مالك بشرح الموضح. أخذت عنه فيه أوائل الفن الاخير بالشرح المذكور.

ز ـــ الحاج الطاهر بن محمد بن الحسين العراشي السابق الذكر المتوفى سنة 1984/1404. درس به النحو بمقدمة ابن آجروم، والتوحيد والفقه بمتن ابن عاشر، وفيه أخذتهما عنه.

2) الجامع النجارين.

كان يدرس به نائب القاضي ومراقب الدروس بالمعهد المكناسي مولاي العربي بن محمد المنوني المولود أوائل عام 1895/1313 والمتوفى عام 1968/1388.

أخذت عنه ألفية ابن مالك بشرح المكودى من أولها الى باب العدد حيث توجهت الى جامعة القرويين لاتمام دراستي، والمقدمة السنوسية الصغرى في التوحيد بشرح البيجورى، وأخذ عنه فيه أكبر إخواني سيدي محمد أوائل تحفة ابن عاصم.

3) جامع سوق السباط

كان يدرس به عدة فنون الأستاذ محمد بن أحمد برادة المتوفى سنة 1959/1378. وأخذت عنه فيه النحو بمقدمة ابن آجروم في ختمتين متواليتين، وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل والأربعين حديثا النووية بشرح ابن دقيق العيد، والمقامات الخمس الأول من مقامات الحريري وائل الكامل للمبرد.

4) مسجد سيدي قدور العلمي

كان يدرس به بين العشاءين شيخ الجماعة محمد بن الحسين العرائشي السابق الذكر، والمفتي السيد محمد ابن المبارك الهلالي المتوفى سنة 1953/1372 والحاج بنعيسى بن بوسلهام الخلطي المتوفى سنة 1963/1382 أخذت فيه عن الثاني بعض الدروس الفقهية برسالة ابن أبي زيد القيرواني وشرح أبي الحسين عليها وعلى الثالث أوائل كتاب الزكاة من مختصر خليل يشرح الدردير.

5) مساجد المدارس الثلاث : البوعنانية، والعدول، والفلالية.

ففي المدرسة الأولى : كان ملازما للتدريس بها وبالمسجد الأعظم سيدي محمد بن ادريس الشبيهي المتوفى سنة 1943/1362 أخذت عنه بالمدرسة لأمية ابن مالك في التصريف بشرح بحرق، وطرفا من همزية البوصيري بشرح بنيس.

وفي المدرسة الثانية : أخذت عن الجيسوبي مولاي عبد العزيز بن محمد الومغارى المتوفى سنة 1960/1380 علم الحساب بمؤلف القلصادى (علي بن محمد السطى الأندلسي) وعن أخي للابسيدي محمد علم النحو ببعض المؤلفات الحديثة، الدروس النحوية وقواعد اللغة العربية وسفينة النجاة.

وفي المدرسة الثالثة : أخذت مبادىء علم الحساب بطريقة حديثة، على الفقيه العدل محمد بن ادريس المنوني وجل الطلبة الذين كانوا ينتسبون الى هذه الحلقات، والذين يرغبون في إتمام دراستهم، كانوا يتوجهون الى جامعة القرويين، للأخذ عن علمائها، وكان العالم منهم لايرجع الى مدينة مكناس، إلا إذا استأنس من نفسه أنه حصلت ملكة تؤهله لأن يصبح في صف العلماء، فيطلب من شيوخه أن يجيزوه، فيكتبون له إجازة يشهدون فيها بصحة معلوماته التي تلقاها عنهم، وإنه أصبح يتقلد صفة عالم (16).

وقد استمرت الدراسة بمساجد مكناس على الطريقة الموصوفة، منذ عصور طويلة، الى عصر النهضة الأخير، حيث أوعز بعض قادة الحركة الوطنية الى طلبة مكناس، أن يتقدموا الى جلالة المغفور له محمد الخامس بطلب إحداث أقسام ابتدائية منظمة، يرتب فيها علماء للتدريس على غرار النظام بالقرويين.

وعند زيارة جلالته الى مدينة مكناس سنة 1943/1362 تقدم وفد من الطلب الى جلالته فحظي بالقبول وكان الوفد يتألف من :

شقيقي السيد أحمد المتوفى سنة 1950/1370 والسادة :

محد العيسوي المسطاسي، محمد ابن عبود، عبد الهادي المنقاط.

وبعد الموافقة على الطلب اشترط في هيأة التدريس أن تكون محصلة على العالمية من جامعة القرويين، فأسست ثلاث أقسام ابتدائية، أولى وثانية وثالثة، وأطلق على مكان الدراسة، الجامع الكبير اسم : (المعهد الديني) وتألفت الهيأة الادارية لتسيير المعهد من السادة :

الحاج المختار السنتيسي (رئيس) مولاي العربي المنوني (مراقب) الحاج أحمد بنشقرون (كاتب) وهيأة التدريس من الأساتذة :

محمد بن عبد الهادي المنوني، أحمد بن الصديق الديغوسي، الطيب بن عبد القادر الحريف، العربي بن محمد الهلالي، محمد بن العربي الطاهري، عبد القادر بن سعيد العلوي.

وتأسس بعد ذلك تدريجيا القسم الثانوي بأقسامه الستة.

تم أحدثت للمعهد فروع، بمسجد للاعودة، وجامع الزيتونة، دار حميش بباب عيسى، ومحكمة الباشا بباب عيسى. وكان مقر إدارته بالمركز الحالي لخزانة الجامع الكبير، ثم نقل الى دار للأحباس بساباط الأسبوع ثم الى فوقي محكمة الباشا بباب عيسى.

وأخيرا نقلت الادارة والدراسة الى ثكنة عسكرية بطريق الحاجب، بعد أن دخلت اللغة الأجنبية في برنامج التعليم الأصلي، وقسم الثانوي الى علمي وأدبي، وألغي الابتدائي من برنامج التعليم بالمعهد وغير اسم المعهد الديني بثانوية الامام مالك تم أحدثت ثانوية أخرى في بناية جديدة بحي سيدي بابا تابعة للأولى خصصت الدراسة بها لأقسام السلك الأول بينما خصصت الأولى للسلك الثاني.

المحور الرابع :

الخزانات العامة والخاصة : أربع خزانات عامة : 1) خزانة الجامع الكبير 2) خزانة باب منصورالعلج توجد بالمدينة 3) خزانة باب تزيمي 4) خزانة البلدية.

1) خزانة الجامعة الكبير : هي أقدم خزانة بمكناس، حيث أن تاريخ تأسيسها يرجع الى عهد الدولة المرينية الممتد من سنة 668 هـ/1270 الى 1465/869 م.

وقد كان موقعها الأول في الجهة الغربية للجامع الكبير، تم نقلت منه الى مجلس الأسبوع الواقع أعلا (ساباط الأسبوع) أما مركزه الحالي، فيقع بشارع العدول حذو أحد أبواب الجامع الكبير الغربية المعروف قديما بباب الكتب نقلت اليه الخزانة أوائل الخميسنات.

وقد ورد ذكر هذه الخزانة عند ابن غازى في (الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون) وذلك عند تعرضه لترجمة أحد علماء مكناس، ابن الفتوح محمد بن عمر التلمساني أصلا المكناسي مقرا ووفاة حيث قال : (أصابه الطاعون، وهو يقرأ البخارى بالجامع الأعظم من مكناسة، عند خزانة الكتب، عام 1162/818 م)

وقد كانت الخزانة قبل أن تنقل الى مركزها الحالي خاصة بالمخطوطات لايستفيد منها إلا الخواص أمابعد نقلها فقد زودت بعدد وافر من المطبوعات، ولا زالت وزارة الشؤون الثقافية تزودها بكل ما جد في عالم المطبوعات، بفضل العناية السامية لجلالة الحسن الثاني، الساهر الأمين على تراثنا الأصيل.

ومن بين نوارد المخطوطات الموجودة بها :

1) تفسير غريب القرآن على حروف المعجم، لأبي بكر، محمد بن عزيز السجستاني.
2) اللباب في مشكلات الكتاب «لأبي عبد الله محمد الأندلسي الشهير بالحاج الشطيبي»
3) نظم الدرر في تناسب الآي والسور «للبقاعي ابراهيم بن عمر الشافعي».
4) النكث في شرح البخاري لتقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة 656 هـ/1258 م.
5) مطالع الأنوار على صحيح الآثار، وفتح ما استغلق من كتابَ الموطا والبخارى ومسلم «لابن قرقول ابراهيم الحميري».
6) شرح قواعد القاضي عياض للقباب أحمد بن قاسم.
7) المسائل المستخرجة «للقاضي محمد بن رشد»
8) بشائر الفتوحات والسعود، في أحكام التعزيزات والحدود «لأبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن أبي البركات».

وهناك : عدة مخطوطات محبسة على الخزانة، من طرف بعض الملوك السعديين والعلويين من بينها أجزاء ستة من فتح البارى. حبسها السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي.

الأجزاء 9 من صحيح البخاري، حبسها زيدان ابن أحمد المنصور، وكتب على أول ورقة منه : التحبيس مصادق عليه بإمضاء زيدان السعدي ونص الامضاء : وكتبه بخط يده عبد الله ووليه : زيدان بن أحمد المنصور بن محمد الشيخ، خار الله سبحانه له.

ومنها ابن الناظم، على تحفة ابن عاصم. حبسه السلطان مولاي علي بن السلطان مولاي اسماعيل.

أما السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فقد حبس على الخزانة عدة كتب، منها :

1) شفاء الغليل، في حل مقفل خليل، لابن غازي أوضح فيه هفوات صدرت من بهرام، ومواضع مشكلة من مختصر خليل.
2) الجزء العاشر من جمهرة اللغة لابن دريد (نسخة مقروة على المؤلف)
3) الجزء الأول من نقاش الأصول في شرح المحصول، لأحمد بن ادريس القرافي.

وحبس السلطان مولاي عبد الرحمان : نسخة من صحيح البخاري، تشتمل على 26 جزءا عام 1832/1247 بواسطة ناظر المسجد، السيد الطاهر بن عثمان.

1) **ويحتوي قسم المخطوطات** على ما يزيد على 500 مؤلف.

وتفتح في وجه العموم طيلة السنة الدراسية. وتستفيد منها جميع طبقات المثقفين.

ونظرا لضيق حجمها، فإنه قد يحدث في بعض الأحيان، تقنين في قبول المستفيدين : التلاميذ، بحيث لايسمح بالدخول لقاعة المطالعة إلا لتلاميذ أقسام السنة السادسة والسابعة من الثانوي. ويبلغ المعدل الشهري للمستفيدين 850 مستفيدا.

أما إعارة الكتب، فهي ممنوعة منعا كليا، سواء المخطوط منها أو المطبوع. ولا يسمح بتصوير أي

مخطوط إلا بإذن كتابي من وزير الشؤون الثقافية، بشرط أن يكون التصوير داخل الخزانة أما إذا كان خارج الخزانة، فإنه يكون تحت مراقبة مسؤول من الخزانة (17).

2) **خزانة باب منصور** : أسستها وزارة الشؤون الثقافية في السنة المنصرمة 1985.

3) **خزانة باب تزيمي** : أسستها وزارة الشؤون الثقافية في السنة الحالية 1986 ويعتبر رديفتين لخزانة الجامع الكبير.

ولعله كانت بالمدينة خزانات أخرى عبر خزانة الجامع الكبير. فقد ذكر ابن الخطيب في رحلته «نفاضة الجراب في من بقي من الأصحاب» لما عرف بمكناس أن بداخلها مدارس ثلاث لبث العلم، وخزائن الكتب، والجراية الدارة على المعلمين والمتعلمين، ونقل ذلك عنه ابن غازى في «الروض الهتون» ص. 70 ط. الملكية 1964/1384.

الخزانة البلدية :

أسست هذه الخزانة بمركزها الحالي قرب البلدية، سنة 1936 وأضيفت الى ممتلكات البلدية، سنة 1962.

وخصصت لها ميزانية سنوية من ميزانية البلدية العامة، ونظرا لأهمية الاعتماد المخصص لها سنويا. فإنها تزود بجميع ماجد في عالم الكتب والمجلات، بواسطة دور النشر العلمية، وتتوفر على معمل للتفسير، مجهز بأحدث أدوات التفسير ومواده، يعمل به صناع مهرة.

أما كتبها فمصنفة الى صنفين : عربي وفرنسي

يشتمل القسم العربي على ما يقارب 45 ألف مجلد

ويشتمل القسم الفرنسي على ما يقارب 20 ألف مجلد.

وقد ذكر لي السيد محافظ الخزانة الذي زودني بالمعلومات السابقة مشكورا، إن إعارة الكتب مباحة للجميع ومقننة، والقسم المدرسي بالخزانة، لايستفيد منه إلا المعوزون من التلاميذ، وأقل المستوى المطلوب هو السلك الثاني من الثانوي، وتظل مفتوحة في وجه العموم طيلة السنة الدراسية.

وأما الخزانات الخاصة :

فقد جرت العادة أن يكون لكل عالم داخل بيته خزانة خاصة، لايستفيد منها إلا الخواص ولا تكاد خزانة من تلك الخزانات تخلو من نوادر المخطوطات، لكن جلها يتعّرض للضياع بعد موت أصحابها وقد اشتهرت بمدينة مكناس خزانة خاصة، كانت شبه عمومية، يستفيد منها القاصي والداني، تقع داخل الروض الزيداني بالقصر الستيني، وتشتمل على نوادر المخطوطات، ونفائس المطبوعات، لمؤسسها وجامع نوادرها مؤرخ الدولة العلوية، ونقيب الشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، مولاي عبد الرحمن بن زيدان المتوفى يوم السبت 21 ذي الحجة 16/1365 نونبر 1946 صاحب التآليف العديدة، والذي ينبغي للأسرة العلمية أن تحتفل بذكرى وفاته في شهر نونبر المقبل بإذن الله إذ بحلول يوم 16 منه يكون قد مر على وفاته أربعون سنة، وقد سبق أن دعا الى ذلك الأخ محمد المنوني في مهرجان تكريمه في دجنبر 1985. وقد صارت بعد وفاته في ملك صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني اشتراها من ماله الخاص، وأضافها الى مدخرات الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط، بعدما أصبحت خزانته العامرة، مفتوحة في وجه العموم بأمره السامي،

يستفيد منها الطالب والعالم والأستاذ بغية منه حفظه الله في تعميم نشر الثقافة. وقد أخبرني بعض الأصدقاء، أنه وقف على خزانة أخرى بهذه المدينة، تشتمل على عدة كتب ووثائق نادرة، كانت في ملك مولاي اسماعيل بن العباس العلوي بمقر سكناه بساحة للاعودة، وانتقلت بعد وفاته الى ملك ورثته.

وبالرغم عن ذلك فإنه لاتزال بيد الخواص مكتبات تتوفر على وثائق هامة ومخطوطات نادرة، وبالأخص أسر العلماء. والأمل معقود على أن لايبخل أصحابها على الأساتذة الباحثين من الاستفادة من تلك الوثائق، وبالأخص في عصر انتشرت فيه الثقافة على أوسع نطاق. وعليهم أن يختاروا الطريقة التي يفضلون التعامل بها مع المستفيد. أما بواسطة جائزة الحسن الثاني السنوية للمخطوطات، وإما بحصولهم على مكافأة مالية من المستفيد تتفاوت وأهمية المخطوط. وأما على وجه التكرم والاحسان بغية نشر الثقافة وتلك نخوة عربية، وكرم حاتمي وأريحية.

المحور الخامس

المجلات والجرائد : لعل أول محاولة لاصدار مجلة خلطية إخبارية بمدينة مكناس بل بالمغرب كانت من عالم عصره، وفريد دهره، محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي المولود بمكناس عام (858 هـ/1454 م) والمتوفى بفاس عام (919 هـ/1513 م).

فقد ورد في ج 4 من الاتحاف ص 4 نقلا عن كتاب (بذل المناصحة، في فعل المصافحة) (18) أن ابن عازي كان متخذا من يبحث له عن الأخبار الرائجة ويأتيه بها مكتوبة في كراريس كل يوم أربعاء، فيتصفحها يوم الخميس، يوم تعطيل الدروس.

وفي ج. 1 من التراتيب الادارية ص. 364 أن مؤلف كتاب المناصحة، قال : (أخبرني سيدي علي بن بنقاسم البطيوي قال : بلغنا أن الشيخ ابن غازي قد عين بعض أصحابه أن يكتب له كل ما جرى في البلد، وما قال وقيل من خميس الى خميس، فيطالع ذلك، ويكون ذلك يوم الخميس، الذي يتفرغ فيه من التدريس، فحمل هذا من الشيخ ابن غازى على معرفة الزمان وأهله المأذون فيه أو المكلف به).

ثم ذكر أنه نقل عن المقرى أنه كان يفعل ذلك أيضا عندما كان مقيما بمصر. وقال أخيرا صاحب التراتيب (قلت : لاشك أنه ابن غازي والمقري، لو ظهرت الجرائد في أيامهما لكانا أول المشتركين فيها).

2) مجلة اللواء الثقافي :

مجلة ثقافية دورية، كان يصدرها شباب (جمعية اللواء الثقافي) بمكناس ويطبعها على الآلة الراقنة.

صدر منها ثلاثة أعداد :

الأول في فاتح يناير 1957 والثاني في مارس 1957 والثالث ماي 1959.

ساهمت بالكتابة فيها بقصيدتين :

1) ذكرى عشرين غشت 1953 — 2) عيد الاستقلال. وبمقال موضوعه (مشكلة الأدب المغربي).

3) مجلة الواحة

أصدرت منها (جمعية البعث الثقافي) باشتراك مع بعض المثقفين بمكناس عددين :

الأول بتاريخ يوليوز — غشت 1966 (مزدوج) والثاني في يناير 1967.

4) مجلة البعث الثقافي : أصدرت منها جماعة البعث الثقافي عددين، العدد 2 صدر سنة 1980 ثم توقفت عن الصدور.

أما الجرائد : فقد صدر منها جريدتان، كان يصدرهما بإمكانياته الخاصة السيد محمد بادو مدير (دار الثقافة) حاليا.

الأولى: الرابطة (جريدة أسبوعية جامعة، تصدر مؤقتا مرتين في الشهر) مديرها المسؤول ورئيس تحريرها : محمد بادو، ومدير التحرير : عبد الوهاب التازي. صدر منها عدد واحد فقط، بتاريخ الخميس 19 شوال موافق 1382 موافق 14 مارس 1963. والثانية، (مرآة مكناس) دورية جامعة مستقلة. مديرها المسؤول، محمد بادو، صدر منها 33 عددا ثم توقفت عن الصدور أول عدد صدر بتاريخ 11 يناير 1965. وآخر عدد في أكتوبر 1977.

وأخيرا قراءة في ديوان الشعر المكناسي

سأجعل ختام موضوعي هذا قراءة مقتطفات من ديوان الشعر المكناسي وقد فضلت أن تكون هذه القراءة من ديوان شاعرين مكناسيين، عاشا في عصر واحد، وقالا شعرا كثيرا في مختلف أغراض الشعر.

الأول والدي رحمه الله سيدي عبد القادر بن أحمد العرائشي المتوفى صباح يوم الجمعة 15 ذي الحجة 1350 موافق 22 أبريل 1932.

والثاني المؤرخ الشهير مولاي عبد الرحمن بن زيدان السابق الذكر.

وجل شعرهما لايزال مخطوطا وموزعا بين الأصدقاء وفي المجاميع الخطية. وقد ذكرت نبذة من شعر والدي في مؤلفي.

«ترجمة الشاعر أبي محمد عبد القادر العرائشي المكناسي». الذي طبع سنة 1392 هـ%1972 م.

وأما شعر الثاني، فأكثره يوجد ضمن بعض مؤلفاته التي لازالت لم تطبع. وقد نشر بعضه بالديوان المطبوع الخاص بالأشعار التي قيلت في السلطان المولى يوسف والذي سماه جامعه : ابن زيدان (اليمن الوافر الوفي بامتداح الجناب المولي اليوسفي).

كما أن جل أشعاره التي قالها في تهنئة المغفور له محمد الخامس في شتى المناسبات، كانت تذاع من محطة الاذاعة المغربية بالرباط. وتنشر في جريدة السعادة.

وفيما يلي مقتطفات من شعرهما :

1 — فمن ديوان شعر الوالد :

أ — قصيدة في مدح الجناب النبوي الشريف يتعرض في ختامها لحالة المسلمين إبان الاحتلال

الأجنبي للمغرب ويتضرع الى الله تعالى أن ينقذهم من شر العدو المحتل. لأن استعباده خطر داهم، وكرب عظيم، أكبر من الأرض والسماء.

لقدر علاك فتحت السماء (19) وشرفها، العلو والارتقاء
سموت بذا المقام وحزت فخرا وأعطاك المهيمن ما تشاء
فجاهك عنده جاه عظيم علي القدر ليس له انتهاء
فأنت المصطفى نعم الرسول ونعم المجتبى الكافي الرجاء
نقول لذا الشدائد والهموم إذا اشتدت وحل بنا الشقاء
رسول الله إنا قد دهشنا وضاق بنا الفضاء ولا إخاء
رسول الله يا خير الأنام وملجأنا إذا وقع النداء
رسول الله ما ذنبي عظيم ببابك قد طرحته فالفداء
رجوتك من ذنوب صيرتني ظلوما والظلوم له اجتراء
وحاشا أن أرى ذلا وإني مديح والمديح له جزاء
وحاشا أن تخيب من سماك وفيك الحلم طبعا والحياء
أيا سيدي شكوت اليك ضعفي ففيك القصد حقا واكتفاء
وعجل مطلبي وتول أمري فبحر عطاك ليس له انقضاء
وفضلك ياشفيع الخلق طرا عظيم ليس يحصره الثناء
فكن لي شافعا وأبي وأمي إذا ما ضاق بالناس الفضاء
وأمن صبيتي من ذا الزمان ففيه البؤس حل والاعتداء
وأنقذ غربنا مما عراه فقد عز اللبيب ولا دواء
سألتك بالذي أسراك ليلا وكان بقاب قوسين اللقاء
تقبل دعوتي وأزل كروبا تضيق لها الأراضي والسماء
فجاهك عند ربك لايضاهي به ندعو إذا عمَّ البلاء
عليك الأمنا صلى وآل وصحب ما تلا صبحا مساء
وما قد قال عبد ذو خطايا لقدر علاك فتحت السماء

ب ــ الانتصار التركي :

في الوقت الذي هنأ فيه الشاعران الكبيران : أحمد شوقي ومعروف الرصافي الأتراك بانتصارهم على اليونان، وطرد المحتلين من غربي الأناضول وأزمير سنة 1923. الأول بقصيدته التي يقول في مطلعها. (20) :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

والثاني بقصيدته التي صدرها بقوله :

سمى المسطفى لازلت تعلو الى أوج يطاول كل أوج

هنأ شاعرنا المغربي الأتراك بفوزهم في الحرب، وانتصارهم على اليونانيين بقيادة البطل الشهير مصطفى كمال اتاتورك بالقصيدة الآتية، معبرا فيها عن شعور المغاربة نحو هذا الانتصار :

الدهـر جرد سيفـه من غمـده || فسطـا على الانكـاد والأحـزان
أو ما ترى الأيام كيف تبسمت || فرحـا بنصر جاء في الابـان
أو ما ترى الأزهار كيف تلونت || من أخضر فاحـي وأحمر قاني
أو ما ترى الأغصان كيف تمايلت || وتعانـقت كالعاشـق الـولهان
والـطير راق فوقهـا ومغـرد || أربى بنغمتـه على العيـدان
أو ما ترى الأنهار كيف تدفقت || والزهـر حق بها بكـل مكـان
فكـان ماء النهر يجري فضة || وحصاه من در ومـن مرجـان
وتـرا به مسك غدا متفتتـا || وخريـره أغنـى عن الألحان
يا نائما قم من منامك وانظرن || ما حل من فرح بذي الأزمـان
لاتعجبـن مما تراه من ذا الاوا || ن من الحبـور وكثرة السلـوان
النصر حل بساحـة الأتـراك إذ || سلت صوارمهـا من الأجفـان
وسطت بسيف العدل في يوم الوغى || فغـدت تقـد جماجـم اليونـان
فالعـز للأتـراك قام مصاحبـا || والـذل صار مصاحب الطغيـان
والعـز كان يحفـن متدرعـا || وبامـرة الصنديـد ذي العرفـان
البـاسل القـرم الهزبـر المصطفـى || الكامـل المستكمـل السلطـان
يا مصطفى فيك انتصار قد غدا || للتـرك عنـد توقـد الـنيران
لا بالرمـاح وبالسيـوف وإنما || (بالـرأي قبـل شجاعـة الشجعـان)
يا لابس حلـل الكمـال ومـائسا || في ذيلهـا في سائـر الأحيـان
لازلت ذا نصر مكين دائم || يافاقـد الأمثـال والأقـران
فلقـد عزمت وعـزم رأيك صارم || يا دوحـة المجد العـظيم الشان
هذا لعمري طالع السعد الـذي || به قد سما الاسلام في الأديـان
فالمغـرب الأقصى أشاد بنصركم || وبمجـدكم في السر والاعـلان
واهتـز من طرب لما قد نلتم || من نصرة بالقهـر في الميـدان
فلـو أنه وجـد السبيـل اليكـم || لاتى يؤدي شكـركم بلسان
فلتهنـأوا يا معشر الأتـراك || بالـنصر العـظيم الثـابت الأركان
لازلتم متفـوقين على العـدا || أعلى من البرجـيس والكيـوان
متعززيـن بنصر رب ناصر || من قام ينصر دينـه بأمـان

ومن شعر الثاني :

أ ـ تحية السلطان المولى يوسف بمناسبة زيارته للمدرسة المولوية الحربية بمكناس :

حيـاك بالاجـلال والترحـيب (21) || أعـلام علـم مدارس التحـريب
سادوا وبالوجـه الجميـل تشرفـوا || ما بين أنجب منهم ونجيب
تاهوا على من لايرى ما قد رأوا || وسموا بأوفـر مغنـم ونصيب
نالـوا برؤيـتك البهيـة كل عـ || ـز شامـل لرضائك المطلـوب
وتأرجت من طيبك الارجـاء واز || دهـرت بطالـع وجـهك المحبـوب

واضاء نور جماله الأبهى الذي ما ناله إلا أبو يعقوب
ذاك المؤيد يوسف المنصور من قد حاز حسن الخلق والتأديب
يا حبذا هذى الزيارة إنها لغنيمة ومرام كل حبيب
نادى بأفصح لفظة هذا الحمى يا فوزنا قرنا بذا المرغوب
لازلت يامولاي بدار ساطعا أفقت السما لاتوصفن بمغيب

ب ــ تهنئة السلطان مولاي يوسف عند حلوله بمدينة مكناس في زيارة رسمية :

الفتح والبشر والاقبال والظفر (22) بباب علي، يامولاي تفتخر
هذي ثغور سعود منك باسمة فمن جميل سناها الشمس والقمر
يزهو بك الملك إعجابا وحق له فخر تخر له من أفقها الزهر
وللمعالي مغالات بنسبتها لطلعة منك غراء لها غرر
أنت الهمام الذي في المجد أس له اس فمنه فروع أنجم درر
بك الكمال يسود حيث أن له روابطا منك شتى ليس تنحصر
أعظم برتبته وأكرم بسيرته أجمل بدولته قد راقها الوطر
فأي أرض حللت حلها شرف ورقة وضيا عال ومنتشر
ترنو اليك القصور وهي قائلة كل الثناء عليك شأنه القصر
فاليوم مكناسة الزيتون أكسبها ذاك الطول فخارا نشره عطر
في كل ناحية لسان تهنية بكل تكرمة تسموا لها الفكر
إنا فتحنا لك الفتح المبين على قصورها القصرات الطرف تنتظر
مولاي مولاي كل القوم في شغف الى لقائك وفي لقائك الظفر
وجدك الملك الميمون طالعه من هابه الأسد لما هالها الذعر
لسانه حاله نادا وهو في طرب بشراك بشراك نور النصر ينتصر
مهنيا بك عرش الملك مرتجيا أحياء ماهو منه قبل مندثر
وراغبا أن يرى الاسلام في ظفر شبابه بازدهاء الحق ينفجر
وأن يكون لاهليه ذرى شرف حتى يعود بفضل الله يفتخر
ومنك يأمل أن يحظى بنوه بما قد عودوا فلهم لجاهك النظر
فكن أكلهم طرا كخير أب وأولهم عطفك الذي له ابتدروا
فأنت موئلنا الذي نفر له ومنك سابقة الخيرات تبتكر
أبقيت للدين شهما سيدا بطلا تنجاب عنابه في غربنا الغير
والله سبحانه يديم عزكم في زهو الى أن ترى الاكوان تزدهر
بجاه جدك خير الخلق أحمد من بيمينه الحسن والاحسان ينهمر
عليه من ربك أزكى صلاة لها عرف عبيق بطول الدهر منتشر
والآل آل الوفى ما قال مرتجل الفتح والاقبال والبشر والظفر
وما ترنم ذو وجد يساجله بابه علي يامولاي يفتخر

الهوامش

(1) ترجمته في ج. 2 من معجم الشيوخ ص. 116.
(2) ترجمته بفهرس شيوخي (مخطوطة).
(3) مساجد مكناس والاقليم ص. 36 مرقون.
(4) انظر المصدر قبله ص. 36
(5) المصدر أيضا. ص. 37
(6) ج. 4. باتحاف. ص. 513
(7) المصدر ما قبل الأخير ص. 49 نقلا عن الاتحاف
(8) انظر ص. 21 من كتاب «مساجد مكناس والاقليم» وما عقب به مؤلفه على ما ذكر ابن زيدان في ج 1 من الاتحاف ص. 94 — 95 عن المسجد.
(9) انظر ج. 4 اتحاف ص. 317.
(10) ترجمة ابن خضر ا.ب.ج 1 اتحاف ص. 329.
(11) ترجمة في ج. 5 من الاتحاف ص. 536.
(12) مساجد مكناس والاقليم ص. 41.
(13) تكلمت في الأصل على العوائد المتخصصة في دخول الطفل للمكتب، والختمة، والتخريجة، وشعبانة، والميلودية، والعطل.
(14) كان دخول الجيش الفرنسي لمكناس في 8 جمادى الثانية 1911/1328 كما ذكره في ج. 1 من الاتحاف ص. 230
(15) مجلة السفير المكناسي العدد 4 أبريل ماي 86 ص. 41
(16) كان ذلك قبل أن تنظم الدراسة بجامعة القرويين بمقتضى ظهير شريف مؤرخ ب 10 ذي الحجة 1351 هـ الموافق 31 مارس 1933 يحصل بمقتضاها الذي انهى دراسته بالجامعة بعد اختبار امتحانين كتابي وشفوي على شهادة العالمية. انظر نص الظهير بالدرر الفاخرة ص. 146 الى ص. 166 لابن زيدان.
ورغم ذلك، فإن تلك الاجازة لم تنفقد قيمتها، لأن الذي يرغب في الحصول عليها من بعض شيوخه تسلم اليه ليضيفها الى لائحة الشهادات التي حصل عليها.
(17) لأخذ المعلومات عن هذه الخزانة يرجع الى ما كتبته في التعريف بها بالعدد : 234 لمجلة دعوة الحق ص. 107 والعدد : 7/6 مزدوج من مجلة السفير المكناسي — يونيوه — يوليوز — 1986.
(18) مؤلف الكتاب هو أبو العباس أحمد بن علي البوسعيدي.
(19) ترجمة الشاعر ص. 26.
(20) ص 34 من المصدر قبله.
(21) ج 1 من اليمن الوافر الوفي في امتداح الجناب المولوي اليوسفي.
(22) المصدر قبله ص. 272.

الحركة الثقافية في مكناس خلال القرن الثاني عشر الهجري، من خلال نماذج واعلام

الأستاذ علال معكول
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

مداخلة :

إن الحركة الثقافية في المغرب عموما، وفي مكناس خصوصا في القرن الثاني عشر الهجري تستدعي أكثر من بحث، وأكثر من جهد لابرازها، لضياع كثير من المصادر، من وجه ولكون الناجي منها ما زال مخطوطا في الخزانات الخاصة والعامة من وجه آخر.

وتتميز المرحلة كما هو معلوم بانهيار دولة السعديين ونشوء دولة الاشراف العلويين وما نشأ عن ذلك من اضطراب وفتن، قبل أن تستقر الدولة الجديدة. وما صاحب ذلك من ضياع أرواح وآثار...

ومن خلال تراجم العلماء الذين عاشوا في هذه الفترة ندرك تحركاتهم نحو هذه المدينة أو هذه الزاوية وتلك، راغبين في لقاء شيوخ العلم والتصوف، لأخذ مروياتهم، وإجازاتهم وسند طريقتهم...

وفي مقدمة هذه المراكز العلمية فاس، ومراكش وسجلماسة وتطوان، كما لعبت الزوايا في المدن الصغرى وفي البادية، دورا مهما في هذا النشاط العلمي، كالزاوية الناصرية بتمكروت، والزاوية العياشية في منطقة جبل درن على نهر زيز، والزاوية الوزانية وزاوية أبي المحاسن الفاسي بالقصر الكبير، وزاوية سيدي أحمد حجي بسلا، والزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، وغيرها من المراكز العلمية التي لايتسع المقام لتفصيل الحديث فيها وفي أعلامها، وما خلفوه من آثار...

أما الحاضرة الاسماعيلية مكناسة فمن الطبيعي أن تتجه أنظار العلماء والأدباء اليها، في هذا العصر نظرا للمآثر العمرانية، والمساجد، والمدارس التي شيدت فيها، ولكونها أصبحت مركزا للسلطة السياسية ومقرا لوزراء الدولة وكتابها وأعيانها...

وقد وصف أبو القاسم بن أحمد الزياني (ت 1249 هـ/1833 م) العمران الذي شيده في هذه المدينة المولى اسماعيل قائلا في كتابه (الروضة السليمانية : «وما يلحق ضخامة مبانيه ما بناه كسرى في المدائن، ولا ملوك الفراعنة بمصر، ولا ملوك الروم برومية والقسطنطينية... ولا ملوك الاسلام كبني العباس

والعبيديين، والمرابطين، والموحدين وبني مرين، والسعديين وما بديع المنصور بقصر من قصوره، ولا بستان المسرة بأحد بساتينه، فقد كان عنده بجنان حمرية مائة ألف شجرة من الزيتون حبسه على الحرمين الشريفين... الخ» (1).

ويجب الا ننسى المآثر العمرانية التي أقيمت في هذه المدينة في العهد الاسماعيلي لاشك أنها تضررت بفعل الزلزالة العظيمة التي «هدمت مكناسة وزرهون، ومات فيها خلف كثير» كما يقول الزياني عام 1167 هـ/1753 م. وما وقع فيها من حروب بعد وفاة السلطان المولى اسماعيل (2).

وقال محمد بن الطيب العلمي في وصف هذه المدينة (3) :

فإن يبن اسماعيل في البيت كعبة يحج اليها الناس في موسم النحر
فقد شاذ في الدين المتين سميه لنا كعبة قامت على عمد الذكر

بل إننا نجد الوزير محمد بن ادريس العمراوي (4) (ت : 1264 هـ/1847 م) يفاخر بقصور مكناسة وعمرانها ايوان كسرى، واهرام الفراعنة كقوله (5) :

قل للذين استعظموا من جهلهم ايوان كسرى أو بنا الاهرام
لم يبن ملك قد تقدم ما بنى مولاي اسماعيل في الاسلام

وإذا كانت هذه المشاهد العمرانية البديعة التي تغنى بها الشعراء والأدباء سواء في عصر المولى اسماعيل أو بعده، فقد استخدم فيها السلطان المذكور أزيد من خمسة وعشرين ألف أسير من النصارى، منهم من كان نقاشا، وحجارا وحدادا ونجارا ومزخرفا ومهندسا ومنجما وطبيبا، كما أشار الى ذلك أبو القاسم الزياني... فهل كانت حركة البناء الثقافي والفكري مواكبة لهذه الحركة العمرانية ؟ وهل كانت المدينة الاسماعيلية تتوفر على الأطر العلمية الكافية لاقامة هذا النشاط الفكري والثقافي لتشريف قاعدة الدولة الجديدة، وجلب الانتباه والوفود اليها... ؟

فهناك عوامل متعددة ساهمت في تنشيط الحركة الثقافية في هذه المدينة منها :

1 — قربها من الحاضرة الادريسية فاس، وسهولة تنقل العلماء منها وإليها.

2 — إن المولى اسماعيل كان يجلب اليها العلماء والفقهاء من الحواضر المغربية الأخرى، مثل الفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد العكاري الرباطي (6) (ت : 1092 هـ/1681 م) الذي كان يدرس بالمسجد الأعظم بسلا، ثم استدعاه مولاي عبد الواحد نجل السلطان المولى اسماعيل الى الرباط، وهناك تم التعرف على مكانته العلمية، فزاره السلطان في مجلس درسه عند زيارته للرباط حيث وجده يدرس صحيح الامام البخاري، فانتظره الى أن انتهى من درسه فسلم على الشيخ وطلب منه أن يصحبه الى سجلماسة ومنها الى مكناسة، ومما جاء في قوله : «يا شيخ تقدَّم معنا الى سجلماسة لتصل الرحم، ويتبرك بك أنجالي، وتؤم بنا صلاة الخميس، وتختم معنا صحيح البخاري، فإن معنا الفقهاء من فاس، فإنهم أرادوا الاجتماع بك، والأخذ عنك، فقال الشيخ للسلطان : يذهب معنا خمسة من فقهاء سلا، ومثلهم من الرباط، فإنهم يليقون بنا وبك، ويكون الجمع مباركا سعيدا، فأجابه السلطان لذلك، ونفذ له ولهم صلة لعيالهم، وصلة لمؤون سفرهم» (7) وممن وفد على الحاضرة الاسماعيلية مكناسة من علماء المشرق الشريف العالم مولاي محمد بن حسين

المقدسي وذلك سنة (1130 هـ/1717 م) فقال في ذلك أبو القاسم سعيد العميري الذي ستأتي الاشارة اليه والى اثاره : (وكان له في العلم مشاركة حسنة فما تكلمت مع في شيء إلا وجدت له به خبرة، وعنده من العلم بأحوال الناس ما لا مزيد عليه، وكنت أيام مقامه هنا أجالسه كثيرا، وربما أقطع معه الطائفة من النهار، ولا آمل مجالسته حتى حصل بيني وبينه ود وأخاء على أن قلت فيه :

تاقت لمرآك منذ اليوم أشواق يا طلعة زانها بالغرب إشراق

فسر بها، وجزاني خيرا، وحضر معنا يوما مجالس التفسير على والدي رحمه الله... فقال لي ما رأيت في مجلس قراءة التفسير على هذه الصفة مثل والدك إلا شيخنا بمكة أو بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. فإني رأيته يقريه على هذا النمط بعلوم يأتي بكل منها على حدة...) (8).

ومنهم الحسن بن رحال المعداني (9) التدلاوي (ت : 1140 هـ/1727 م) الذي كانت له عارضة كبيرة في الفقه والنوازل والأحكام. والافتاء بالاضافة الى صبره الهائل في مجلس الاقراء، حيث كان يدرس بالمدرسة المتوكلية بطالعة فاس، من طلوع الشمس الى الزوال دون ملل، ثم عين قاضيا بمكناسة ومدرسا بها، وفي مرضه الذي مات منه كان الطلبة يدخلون بيته لمواصلة قراءة كتاب الشفا للقاضي عياض.

وممن انتقل الى مكناسة واستقر بها وأفاد طلبتها أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب التستاوي (10) (ت : 1127 هـ/1715 م) الذي تتلمذ عليه الطبيب عبد القادر بن العربي ابن شقرون المكناسي وكانت بين التستاوى وبين الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي مودة وصحبة باعتباره شيخا من أكابر شيوخ التصوف في عصره، صدرت عنه مؤلفات في هذا المجال منها : (ممتع الاسماع وشرحه) ونظم رجال التشوف وشرحه...

ومن شعره قصيدة دالية تبلغ حوالي ستمائة بيت في مدح الرسول عليه السلام عارض بها دالية اليوسي في مدح شيخه محمد بن ناصر الدرعي، مطلعها (11) :

عرج بأطلال الأحبة واقصد آثارهم يوما لعلك تهتدي

وفيها يقول :

لولا النوى ما أقبلت من مغرب فوق المطايا عاشقون لأحمد

صلى عليه الله ماهبت صبا وبكى لرؤية وجهه ذو أكمه

كما استخدم المولى اسماعيل شخصيات علمية من حاضرة فاس، لتقليدها خطة الوزارة والكتابة اليها من الوظائف، ومن هؤلاء الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني (12) (ت : 1119 هـ/1707 م) الذي ترأس الوفد المغربي لزيارة الجزائر للتفاوض مع الأتراك سنة 1103 هـ/1691 م كما بعثه الى الأندلس لتخليص المكتبة الاسلامية والمغربية من أيدي الاسبان، فألف في ذلك رحلته المشهورة ب (رحلة الوزير في افتكاك الأسير) (13). قال عنه صاحب الاتحاف : (انتهت اليه صنعة الترسيل، ولم يعزز في عصره بمثيل).

ومنهم الوزير أبو العباس محمد بن الحسن اليحمدي (14) صاحب الأديب علي مصباح الزرويلي، قلده المولى اسماعيل خطة الوزارة بعد اختياره من طلبة فاس لعلمه وذكائه وجعله أمين سره وقيم خزانته. التي جمعت (من أنواع الدفاتر وأسماء التآليف ما لم تحوه خزانة بغداد) كما قال عبد الرحمان بن زيدان صاحب الأتحاف.

ومن قصائد علي مصباح صاحب الوزير اليحمدي قصيدة قالها حينما زار مكناسة سنة 1124

هـ/1711 م مدح بها السلطان المولى اسماعيل، والوزير اليحمدي، وأهل الحاضرة الاسماعيلية فقال متخلصا الى المدح بعد مقدمة تحدث فيها عن تعب المطايا (15).

لئن شفها الأعياء أو مسها الظما ... فمكناسة راحاتها وارتواؤها

وشبه المدينة وما يحيط بها من جنات وحقول بالزهراء إحدى مدن الأندلس تارة وبالزوراء وببغداد تارة أخرى، كما شبه مياهها بمياه دجلة وجعلها هي الدنيا كلها، فقال :

بلاد هي الدنيا بأجمعها التي ... أضاء على كل البلاد ضياؤها
فجناتها الزوراء، (16) والزهر أهلها ... وأربعها الزهرا، ودجلة ماؤها
إذا ما رأت أعلامها نفس مدنف ... معنى، تداعى للرحيل عناؤها

وفي مدح المولى اسماعيل قال :

إذا عصمة الدنيا تراع فإنما ... بارماح اسماعيل كان احتماؤها
فتى لاح في أفق الخلافة للورى ... كشمس الضحى، لاحان يوما خفاؤها

وقال عنها أيضا : (17).

ياحاديا هاج الهوى أنفاسه ... عرج على مصر العلا مكناسة
أرض بها حط الجمال مطيه ... وأجال في عرساتها أفراسه
مافي القواهر مثلها فجلالها ... بالمجد قد رفع الاله أساسه
دار الأمارة والخلافة عززت ... خلفاؤها بسماحة وحماسه

وكان السلطان المولى اسماعيل يستحضر من حين لآخر الوراقين والنساخ من الحاضرة الادريسية، وخاصة حينما يكون الأمر فيه استعجال، قال محمد بن الطيب القادري في حوادث 1098 هـ/1686 م (وفي يوم الأربعاء ثالث ذي الحجة العام، بعث السلطان المولى اسماعيل لفاس بازعاج النساخين منها لحضرته بمكناسة الزيتون، فاشخصوا وهم نحو من أربعين رجلا بقصد نسخ أربعة وعشرين سفرا من العنترية والفداوية وما يتصل بها من أخبار الشجعان على ما قيل فيها... ومن لم يكتب المبسوط يميل على كاتبه، ويصلح الأقلام والمداد، وغير ذلك، فانتسخ ذلك في أيام قلائل حتى أن بعضهم رجع لداره ليلة الغيد)(18).

3 — والعامل الثالث الذي شجع الحركة العلمية والثقافية في الحاضرة الاسماعيلية الأمير محمد العالم الذي كانت له شخصية فذة، ومهارة في النحو والبيان والمنطق والكلام والأصول، بالاضافة الى كونه شاعرا من فحول شعراء عصره، وكان كثير الدرس والمناظرة يجالس العلماء ويسامر الأدباء ويساجل الشعراء.

وهكذا شاركت هذه العوامل في بعث النهضة الثقافية في هذه المدينة، فازدهرت فيها العلوم النقلية والعقلية التي اضطلع بتدريسها بعض الاعلام، كمفتي حضرة مكناسة وقاضيها وخطيبها أبي مدين محمد بن الحسين السوسي (19) (1120 هـ/1708 م) أحد تلامذة أبي علي السوسي، الذي اهتم بالمنطق، ووضع شرحا عليه (20). ومن أعلامها الذين برزوا فيها كذلك في هذا العصر أحمد بن محمد الشهير بابن يعقوب الولالي (21) (ت : 1128 هـ/1715 م) كان من كبار المدرسين فيها، صدرت عنه مؤلفات في المنطق والبيان واللغة، كشرحه على السلم، وشرح منظومة الأخضرى في البيان، وله قصيدة لامية في المنطق وشرحها، وشرح تلخيص المفتاح، وله مؤلف في التراجم سماه (مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار) (22) من معاصريه.

وتولى التدريس فيها قاضيها الفقيه سعيد بن أبي القاسم العميري (23) (ت : 1131 هـ/1718 م) الذي وصفه القادري بـ (العلامة المعقولي البياني)، ولهذه المكانة العلمية كان يحظى بمشاورة السلطان المولى اسماعيل في أموره المهمة، وحين مرض سنة (1129 هـ/1716 م) قال فيه ولده سعيد أبياتا أنشدها عليه منها : (24).

حياتك منتهى الآمال عندي فليت الموت يقبلني فداء
أيجمل أن أراك رهين حال وآمل، لاعدمتكم، بقاء
ولم أصبر وأنت اليوم حي فكيف إذا اتخذت ثوى ثراء
صغرت عن التحمل، إن مثلي، وحقك، لايطيق له عناء
وكيف ولي اخيات، وقلبي تقسم فيك بينهم سواء

وقال :

وإني وإن بكيتك ملء عيني فهل كان البكاء لنا غناء

وهؤلاء العلماء هم جل شيخ محمد بن الطيب العلمي في هذه المدينة كما جاء في قوله : (قرأت بمكناسة على الشيخ الامام العالم الصدر الأوحد المشارك المتبحر، شيخ الجماعة بالحضرة السلطانية قاضي القضاة أبي عبد الله محمد أبي مدين، وعلى الفقيه الامام العالم العلامة النحرير المتبحر المشارك المدرس المعقولي أبي عثمان الشيخ سعيد بن أبي القاسم العميري، ثم التادلي، وعلى الفقيه المعقولي الأصولي البحر الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن يعقوب.... (25).

وبالرغم من هذا الازدهار الثقافي الذي شهدته الحاضرة الاسماعيلية في هذا العصر، فإن التواصل العلمي ظل مستمرا بينها وبين الحاضرة الادريسية على أعلى المستويات، فقد كان السلطان المولى اسماعيل يكاتب علماء فاس، ويراسلهم في أمور الدين والدنيا، ومنها مراسلاته شيخ الجماعة محمد بن عبد القادر الفاسي، طالبا منه أن يوضح بالأدلة والحجة قول والده الشيخ عبد القادر الفاسي : «من قلد عالما لقي الله سالما» (26) فأجابه بما يشفي الغليل، مؤكدا دور العلماء في الدين والدنيا، ومسؤولياتهم في تقدم المجتمع إن أخذت آراؤهم بعين الاعتبار، والعكس بالعكس، فقال : قال تعالى : «وما آتالكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا» (27) فتلقى ذلك العلم وأخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته الأكرمون، رضوان الله عليهم، ثم أخذه عنهم التابعون وأخذه عن التابعين تابع التابعين، ثم العلماء طائفة بعد أخرى، الى هلم جرا، فكان العلماء واسطة بين الله وبين خلقه، بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سبيل لقطع الواسطة وإهمالها، فمن انقطع عنها، انقطع عن الله ورسوله...» (28).

كما نجد خاتمة القراء والحفاظ في الحاضرة الاسماعيلية، في زمانه محمد بن عبد الرحمان بن احمد بصري المكناسي (ت : 1124 هـ/1712 م) الذي أخذ القراءات السبع عن شيخ التجويد أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن عبد القادر الرايس، كما أخذ عن أبي عبد الله محمد بن أحمد القسمطيني، وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي، وغيرهم، ولذلك خاطبهم بقصيدة يتحسر فيها على فراق شيوخ فاس عموما، قال فيها :

طعنت وفي نفسي من البين لوعة ونار اشتياقي في الضلوع كما هيا

وجئت بجسم فارغ من فؤاد ... وربي عليم أين حل فؤاديا
لعمري لقد خلفته رهن ما اشتهى ... بأيدي أناس يحسنون التقاضيا
وددت، ولم أيئس من إدراكي المنى ... لو أن اله العرش حل عقاليا
فجاورتهم عمرى، ومتعت أعيني ... بطلعتهم في غدوتي ومسائيا
فيا أهل فاس خلصوا من نواكم ... وأم حماكم مستهاما، وباكيا
أليس بعار أن ينيخ ببابكم ... بأشجانه عبد، فيرجع خاسيا

أما علم الطب فقد نبغ فيه طبيب الحضرة الاسماعيلية مكناسة، الشيخ الأديب عبد القادر بن العربي ابن شقرون المكناسي (29) (ت : 1140 هـ/1727 م) الذي كان يدرس بمسجده بضريح أبي العباس سيدي أحمد بن الخضراء، كما أشار الى ذلك ابن الطيب العلمي (30)، عند زيارته لمكناسة وأخذه عن أشياخها، وكان الطبيب ابن شقرون يركب الأدوية ويعالج المرضى... وقد اتصل بشيخ الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، أبي عبد الله الصالح الشرقي، الذي طلب منه أن ينظم أرجوزة في الطب يتناول فيها الأدوية والأغذية النافعة، وأنواع الثمار واللحوم والثياب والمساكن وأهوية الأماكن، وفائدة الأسفار، وما الى ذلك، فقال الصالح الشرقي (31) :

يامن غدت كناسة (32) مكناسة ... به ازدهت قضبها المياسه
قيد لنا في الطب ما الأغذية ... أرجوزة جيدة سنيه
من نظمك العذب البليغ الأشهى ... فهو من العقد النضيد أبهى
بين به الثقيل والخفيفا ... منها وما يناسب الضعيفا
أو الجسيم في الفصول الأربعة ... فعلمها علم عظيم المنفعة

الى أن قال :

وما يوافق النضاخ منها ... وضدها كيما نحيد عنها

فأجابه بقصيدته المسماة بالشقرونية، التي ماتزال مخطوطة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1613 ك.

ويقول في مطلع القصيدة :

الحمد لله الحكيم المرشد ... الملهم الرشد لكل مهتد (33)
المنزل الغيث من السماء ... الرازق الأقوات للنماء

وفيها يقول (34) :

القول في المأكول من حبوب ... وما أتى في طبعها المطلوب
القمح في المزاج حار لين ... ومن جميع الحب هو أحسن
يلائم الطبع ويصلح الحجى ... وكل نفع من قواه يرتجى

وفي الشعير قال :

وفي الشعير البرد واليبوسه ... فيه رياح جمة محسوسه

وفي الأرز قال :

وفي الأرز الحر واللطافـــه خذه مدى الأزمـــان لامخافـــه
غذاؤه يخصب الأبدانـــا ويصلـــح الأحشاء والألوانـــا

وفي الفول قال :

والفـــول فيـــه البرد واليبـــوسه أمـــراضه مشهـــورة محسوسه
يولـــد الريـــاح والبـــلاده ويـــورث الأجسام سوء عاده

وفي الطيور : (35)

القـــول في المأكـــول من طيـــور من سيء اللحم، ومـن مشكـــور
إن الدجـــاج خير طير يوكل للحـــر والـــلين تراه يعـــدل

وكان ابن شقرون المكناسي الطبيب الأديب الشاعر محط عناية من معاصريه وحين عودته من الرحلة الدينية والعلمية الى المشرق هنأه أبو عبد الله الصالح الشرقي، بقصيدة مدحه فيها كما مدح مكناسة الزيتون فقال : (36).

خليلي ونعـــم الخل حافـــظ عصره عنيت ابـن شقـرون البديـع جماله
فتى جاب أفق الشرق ولاقى رجاله وجـال فجلت واستنـــارت خصالـــه

الى أن قال :

لمكنـــاسة الزيتـــون عز ورفعـــة على غيرهـا إذ لاح منه هلالـــه
تبـــارك من أولاه وجهـــا مهلـــلا وكفـا يكـــف البـــأس هام نوالـــه
هنيئـا له كل التهاني، وكيـــف لا يهنـــى، وفي الخيت أنفـــق مالـــه

وينبغي ألا ننسى علما بارزا من أعلام مكناسة، ساهم في النشاط العلمي والثقافي في هذا العصر بوضع مؤلف سماه (التنبيه والاعلام بفضل العلم والأعلام) (37)، ذلك العلم هو أبو القاسم ابن سعيد العميري التادلي المكناسي (38) (ت : 1178 هـ/1764 م).

تحدث في مقدمة الكتابة عن فائدة العقل ودوره، وعن اليوم الذي ولد فيه وهو يوم الخميس (1103 هـ/1691 م) فأشار الى فضائل أيام الأسبوع، ومن ولد فيها من الأنبياء، وما حدث فيها، وما قيل فيها من أشعار وأنظام، منتقدا تشاؤم الناس من بعض الأيام كيوم الأحد، فأشار الى قول الشاعر لبيد بن ربيعة :

لعمـك ما تدرى الطـــوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانـع

كما انتقد الاستخبار بالزجر، وفعل الشعوذة بقول أبي علي السوسي (أو أعلم أن هذه الأمور العادية يفعل فيها العامة والقاصرون والخاصة، أما العامة فإنهم إذا رأوا شيئا عند شيء نسبوه الى ذلك الشيء، وغفلوا عن الله تعالى، فوقعوا في الشرك) (39).

كما ترجم لنفسه ولابيه في هذه المقدمة، ولبعض الاعلام الذين عاصروه من شيوخ وأصحاب منهم أحمد بن عبد القادر التاسثاوى، ومحمد المكي بن موسى الناصري والشيخ محمد العطار المراكشي، وعبد القادر بن شقرون المكناسي ومحمد بن أحمد المسناوي وغيرهم.

هذه نظرة موجزة عن الحركة الثقافية في مكناسة في القرن الثاني عشر الهجري ساهمت فيها عوامل متعددة تقدمت الاشارة اليها، ولم تستطع هذه العوامل أن تحول أنظار العلماء والطلبة عن فاس عاصمة العلم والعلماء ليس في المغرب وحده، بل في أقطار شمال افريقيا وفي بعض أقطار المشرق كذلك، لما كان يمر به العالم الاسلامي آنذاك من اضطراب وتقهقر في مجالات مختلفة....

الهوامش

(1) الروضة السليمانية مخطوط خ ع رقم 257 ك ورقة 152.
(2) انظر الاستقصا 121/7، 133.
(3) الأنيس المطرب ص. 4.
(4) انظر فواصل الجمان لغريط 40 — 60، والاتحاف 189/4، والاعلام للزركلي 28.27/6.
(5) الدر المنتخب المستحسن 6/ورقة 103، والمنزع اللطيف ورقة 443. 444.
(6) انذر الاتحاف 96/4. 98
(7) الاتحاف 96/4 — 98
(8) التنبيه والاعلام بفضل العلم والاعلام مخطوط خ ح رقم 560 ورقة 57 — 59.
(9) انظر النشر 134/2 ط. حجرية، والتقاط الدرر 338 — 339 والاتحاف 7/3 — 9.
(10) انظر : النشر 193/2 ط حجرية، والتقاط الدرر 310 — 311 — والاتحاف 329/1 — 334.
(11) الانحاف 331/1.
(12) انظر التقاط الدرر ص. 297 — 298، والاتحاف 6/4
(13) طبعت بتطوان سنة 1940.
(14) (ت : 132 هـ/1719 م انظر الأتحاف 106/4 والاعلام لابن ابراهيم 177/2 ج 28/5 والاعلام للزركلي 91/6.
(15) سنا المهتدي ز. لوحة 191.
(16) الزوراء : الجهة الشرقية من بغداد.
(17) الديوان مخطوط خ ح ورقة 48.
(18) نشر المثاني 340/2 ط. حجرية.
(19) انظر التقاط الدور ص. 303، والاتحاف 85/4 — 88.
(20) التقطا الدرر ص. 303
(21) انظر التقاط الدور 311، والنشر 194/2 حجرية، والدر المنتخب 7 ورقة 387.
(22) مخطوط خ ع رقم 2305 ك ضمن مجموع ابتداء من ورقة 79 — 213
(23) انظر ترجمة ولده له في (التنبيه والاعلام بفضل العلم والاعلام مخطوط خ ع رقم 560 ورقة 44 — 49.
(24) نفسه ورقة 49
(25) الأنيس المطرب 293 ط. حجرية.
(26) المنزع اللطيف مخ خ ع رقم 595 ورقة 94.
(27) الحشر 7
(28) المنزع اللطيف ورقة 95 والجواب ينتهي بورقة 99

(29) انظر : الأنيس المطرب 193، والاتحاف 325/5 ويجب أن نفرق بينه وبين سميه عبد القادر بن أحمد ابن شقرون الفاسي أحد أعلام عصر السلطان المولى سليمان الذي توفي سنة (1219 هـ/1804 م) انظر السلوة 95/1 — 97.

(30) الأنيس المطرب 193 وما بعدها

(31) الروض اليانع الفائح في مناقب سيدنا ومولانا أبي عبد الله محمد الصالح 124/2 — 127 مخ خ م رقم 61.

(32) لعله يقصد كناسة الكوفة، وهو موضع بها.

(33) ورقة 4.

(34) ورقة 5 — 6.

(35) ورقة 13.

(36) الروض اليانع 121/2 — 122.

(37) مخ ح خ رقم 560.

(38) ترجم له ولابيه في كتابه المذكور من ورقة 44 — 100، والاعلام للزركلي 99/3 اسمه غير محدد حتي عصريه محمد المكي بن موسى الناصري حينما مدح فهرسته (التنبيه والاعلام) قال عنه... أبو القاسم بن الامام أبو عثمان سعيد العميري) ورقة 99

(39) التنبيه والاعلام ورقة 24

فنان تشكيلي من مكناس
قراءة في اعمال محمد القاسمي

الاستاذ مليم العروسي
ثانوية محمد الخامس
الدار البيضاء

ماذا يعني هذا العنوان؟ من الممكن أن يكون عنوانا لمعرض نقصد به أن جماعة من الفنانين، تنتمي الى أرضية ثقافية ـــ حضارية أو مذهبية وموحدة ويشترك أفرادها في خصائص جعلتهم يتفقون على مبادىء ويعرضون لبلورتها. لكن أن نأتي الى هذا الحفل الذي تحاول فيه مكناس أن تحتفل بنفسها وتكرم من طرف مثقفيها ونقذف بهذا العنوان ما يحتاج الى تبرير.

محمد القاسمي من مواليد مكناس، تكونت بشرته من أديمها « وهديمها» انساب ماؤها في شريانه، رأت عيناه بياضها وسوادها، السؤال: هل توجد مكناس في أعمال محمد القاسمي؟ هذا السؤال يفرض علينا (قبل أن نطرح السؤال المنهجي الصعب: هل بالامكان أن تتجلى مدينة ما في عمل فني ما) أن نحدد مكناس كموضوع، كنص أو كمادة حتى نستطيع التحقق من هويتها داخل العمل الفني. ليس القاسمي فنانا تشخيصيا أو انطباعيا حتى يسهل علينا تحديد المقاهي والمساجد والقلاع والحصون. يمكن أن يصنف في عشيرة ما يسمى بالفنانين التجريديين (وهذا تحديد اعتباطي تنقصه الصرامة المنهجية واتمنى أن أوضحه خلال المناقشة)

إذا كان القاسمي ينهل من مكناس ـــ من المدينة (اذن من الطفولة والام والثقافة) ـــ فانه لا محالة ينهل من العميق والحميم حتى يستطيع ان يجعل منه شيئا كونيا، كما يبدو من أعماله (لان أعماله تتوق الى أن تسجل في الفن الكوني انطلاقا من الخاص).

لا أعرف مكناس ولا أعرف نبضها اليومي، لكن وراء العابر والعرضي هناك لامحالة خيط لطيف تندرج فيه كل المتنافرات ـــ ككل الحوافز العريقة ـــ، وعندما يكون الفن عظيما فانه يتجه نحو القبض على هذا الخيط اللطيف.

سوف يكون البحث إذن عبارة عن لوحات أقوم بوصفها وأترك للمستمع حق المشاركة في التأويل بمعنى أول أي رده الى المنبع الاول.

في اللوحة الاولى وصف لعمل أنجزه القاسمي خلال السنتين الماضيتين ولا يريد ان يبيعه للخواص بل يأمل أن تشتريه مؤسسة عمومية حتى يبقى تحت الانظار أي تحت عناية المتلقي بوجه عام. عنوان العمل: ثلاثية الليل والنور.

يتعلق الامر بثلاث لوحات عظيمة من حيث الحجم ولا يمكن فصلها عن بعضها اطلاقا، هذه أولا رغبة الفنان وثانيا يقتضي منطق التلقي والتعامل مع العمل الفني أن تكون هذه اللوحات مجتمعة لان كل لوحة لا تمثل الا جزءا من العمل.

في مركز اللوحة المركزية تبزغ دائرة مضيئة تخترق (أو هكذا يبدو) الاسود وتضعف قتامته، كما توهمنا (الدائرة) ان الابيض يختنق بسبب طغيان الاسود. من نفس الدائرة تظهر مربعات مسكونة برموز وأشكال منطفئة. تأتي بعدها ضربة فرشاة لتلامس المربع وتترك عليه بصمات حمراء تجاورها جنازتين.

يلامس الازرق والابيض والاحمر الدوائر السوداء التي تصبح هكذا وكأنها رؤوس مقطوعة ووجوه مشوهة قد اندمجت ملامحها نهائيا.

وهاهو البني يعود مع الازرق (لونين يمثلان مرحلتين مختلفتين عند الفنان). ماذا يعلمنا هذا العمل؟ أين يكمن الضوء (النور)؟ من الذي يضيء الآخر الابيض أم الأسود؟ هل هذه إعادة نظر في المبدأ اللاهوتي القائل بأن السواد ظلام والبياض نور؟ ألا نرى السواد والبياض بسواد العين؟ ألا يشتعل نور العين عندما تكحل؟ ألا تصبح مجلب غواية؟ السواد نور: ألا نقول في لغتنا الشعبية عمن فقد بصره أنه دخل بيت الظلام ونؤكد أنه بصير؟ كيف يصبح بصيرا فقط عندما يدخل بيت الظلام؟ ما علاقة البصر بالبصيرة والسواد؟

كل شيء يوحي بأن هناك معركة تجد فعلها في اللوحة. من أي أنواع المعارك يا ترى؟ عالم مسكون بالعلامات يظهر وكأنه يحاول ان يشق طريقا له خلال ليل قد أرخى سدوله وكأنه يأبى الرحيل.

من أين تسرب السواد للفنان واستقر كمسلك وحيد للتعبير عن معركة ما؟ ونكرر ما هي هذه المعركة؟

نرجع الى اللوحة الثانية: مكناس ربما أفادتنا بنور ما.

تسند مكناس ظهرها لوليلي الرومان وزرهون، وينساب سائل كروان في عروقها. تنخرط في الاطلس وما وراءه من حضارة افريقية وتنصت في هيبة وجلال خاصين للأندلس والمشرق عبر فاس، مكناس ملتقى اذن وهذا اللقاء الحضاري المركز لم يجعل من المجموعات الثقافية مجموعات تتساكن فقط بل تدخل في تطاحن (لابمعنى الأخلاق) تطاحن لايهدف الى محو الآخر أو السيطرة عليه بل يحاول تأكيد الأخلاق. فمكناس مدينة العلم والتقوى محروسة من طرف مولاي الكامل الذي تحج اليه سنويا مجموعات منتظمة في مسيرات قدسية تذكرنا، دون ان نجهد لا العقل ولا الذاكرة، بالمسيرات الباخوسية الاغريقية. من غريب الامور أن يحدث هذا بالقرب من وليلي.

هذا التطاحن أعطى لمكناس، في نظري، صبغة المدينة المقدسة بمعنى الغامضة والمهابة في نفس الوقت. أصبحت مكناس التي يرقبها ابن حمدوش كذلك ومن جهة خاصة، مدينة نكبتها ونكبت معها كل شعائرنا السابقة على الاسلام، نكبت معها كل الآلهة التي اختزلناها في كلمة جن أو شياطين واحتفظنا بها في حقل الرمز تحتل في ذاكرتنا الجماعية مكانا خاصا لكننا نرتعش عندما يتعلق الأمر باقتحامها.

كذا فعلت مكناس تكلست حيطانها، فأصبحت المدينة الملتفة على نفسها.

هذا التطاحن وهده القدسية والهيبة أو ما أسميه المعركة والتي تكونت عاطفة الفنان داخلها كفضاء رومزي (سواء في الحكاية أو الشكل والعلامة) هل تخلص منها واستبعدها أم حاول تلخيصها وتركيزها في العمل الفني؟ ان الوصف الذي سبق يظهر لنا أن المعركة موجودة على شكل تطاحن بين النور والظلمة.

ألا يحمل القاسمي إذن، على عاتقه مكناس السواد؟ لن أجزم سأترك لكم مهمة الجواب لكنني سوف أعطيكم اشارات، علاقة عيساوة بالسواد، مدينة البواخرة، السنين السوداء بعد موت المولى اسماعيل، مكناس منطقة ضليلة أي تعيش في الظل وتحت الظل، أي علاقة مكناس بالقتامة وكل ما هو في الظل يكون مصدر خوف ورعشة كما هي الاشياء المقدسة وفي الظل تنتشر الحميمة والعمق. هناك من سيغادرني هنا لينطلق في التأويل أقول لمن بقي معي هذه اللوحة الثالثة:

كان البني دائم الحضور في أعمال محمد القاسمي، ولقد كان يدهشني عندما يمازح بين البني القاتم والاسود. كنت أحس حتى من خلال مناقشتنا أنه يحبذ لو أنني أتكلم فقط عن هذه المساكنة. يتساكن البني القاتم والاسود ويبقى النور مختالا على طول اللوحة، انه حقا انتصار تقني كبير بحيث لا يملك فنانون كثيرون قدرة وضع لونين قاتمين دون ان ينطفيء ضوء اللوحة وإذا انطفأ النور فشل العمل الفني. لهذا أظن أنه بامكاني أن أجازف بأطروحة أولى، أبدأ بتوضيحها ثم أبررها من بعد، تمثل مدينة مكناس، في اعمال محمد القاسمي، الصورة المتواترة تماما كما هي صورة الام، حيث تقبع وراء كل صورة، دون أن تكون محددة المعالم.

البني حاضر أبدا، انه عنصر توازن اللوحة، وكأن اللون يصبح هو السنن الذي بواسطته نتمكن من قراءة اللوحة. اذا غاب البني نؤول غيابه وفي حضرته نتساءل عن مكانته في اللوحة وعلاقته بالالوان الأخرى.

ينذر اذن أن لا نجد في أعمال (القاسمي) ذلك البني أو الكستنائي القاتم إلا أن اللون الذي لا يفارق أعماله هو البني المتدرج من الاحمر او الاحمر ما بين البني والقرمدي او الاحمر الطوبي (هو نوع من البني) أو ما يشبه تراب الحمري (ما علاقة كل هذا بحمرية مكناس وما أكثر الاحمر بمكناس). لو أثبت لي ان حمرية كانت مقلع تراب وطوب لبناء مكناس لانتهيت من هذه التساؤلات. على كل حال سواء تعلق الأمر بحمرية مكناس أو غيرها، فلقد وجدنا أنفسنا ونحن نربط القاسمي بالأرض. لست بالطبع أول قائل بهذا، لقد قاله هايدغر سنة 1936 عندما ألقي محاضرة «أصل العمل الفني». إن العمل الفني يفسح المجال للأرض لكي تحضر ويؤسس عليها العالم على شكل صراع. معركة ينخرط فيها الأموات والأحياء، والآلهة، الأرض والعالم. هذه هي حقيقة الفن.

قد يتساءل متسائل: ان الفنان قد عنى بالمحتوى اللوني للوحته شيئا آخر بالفعل، اذا كان الفنان يتحكم في كل شيء حتى فيما يعانيه فبامكانه ان يقول أنه يعني كذا، لكن الامر يتعلق بلغة بصرية لا يضبط نحوها بسهولة لا من طرف المتلقي ولا الفنان. ان الفنان يتعامل مع القواعد التي تسعفه مستعينا في ذلك بخبرته التقنية. لكن ما ان يضبط التقنية حتى تتسلل اللغة الاصلية من حيث لا يدري. واللغة اللونية التي تسعفه هي التي تكونت فيها عاطفته (اتكلم بالطبع عن الفن الصادق).

إن اللون في حد ذاته يستعمل كمعادلة. ليس اللون كما يفهم على أساس أنه يمثل الشعور كذا أو كذا وأعني المتقابلات التقليدية (أسود / كآبة ـــ أبيض / سلم...) لن نفرط بالطبع في هذه التفسيرات

ولكن يجب ان لا ننسى أيضا ان لكل منا تجربة خاصة مع اللون من الممكن ان يستعمل الفنان الاسود للتعبير عن الفرحة أو النور لانه يتفاعل داخله كذلك ولان الفن ميدان الاضداد تماما كالحب. ألا يعض الهائم حبيبته رغم ولعه بها ورغم معرفته مسبقا أن هذا تصرف متوحش؟

يجب ان لايفهم من هذا انني أدافع عن نسبية الالوان، لا أنفيها لكنني لا أدافع عنهما. يمكنني أن أدافع عن نسبية الالوان بالنسبة للفنان في اختياره لها، لكن يصعب علي ان ادافع عن نفس الفكرة عندما تتحول مادة الصباغة من مجرد سائل كيماوي أو غيره الى عمل فني. عندما تصبح الكلمة شعرا فإنها تأخذ مكانها في بناء تصبح معه حاملة لهيبة خاصة بها. ألا يحدث أن نقول : كنت لاأحب الأحمر لكنني لما رأيته ملبوسا من طرف فلانة أصبحت أعشقه. هذا هو التجلي وهذا ليس محل الحديث عنه.

نعود لنضع أقدامنا على الأرض، يرتبط القاسمي بالأرض إذن بمكناس حسب قولنا. كيف يتم ذلك ؟ هل بتكرارها وتصويرها ؟ أي هل يعيد إنتاج ما رآه وما عاشه ؟

هنا نطرح سؤالا صعبا، وكأننا نريد أن نتساءل من خلال تجربة محمد القاسمي عن ماهية الفن أي هل الفن تصوير أم تحوير أم غير ذلك ؟

لا داعي للاطالة في هذا الباب فلقد بدا واضحا أن مكناس ليست مستعادة بشكل خام. القاسمي يستعمل (وإن كنت لاأحد هذه الكلمة لما فيها من تهجم على حياء وحميمية فضاء مدينة عريقة بمعنى العروق الضاربة في الأرض والتاريخ) قلت يستعمل ولا تسعفه إلا القواعد والرموز التي نشأ بداخلها لكي يبني أو يفسح المجال (عبر جسده بالطبع) لفن يمكن الان أن يصنف عالميا.

صورة مكناس في الأدب المغربي

الأستاذ. عباس الجراري
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الرباط

حضرات الاخوة

بابتهاج كبير وسعادة غامرة، أشارك في هذه الندوة التي تنظمها كلية الآداب بمكناس عن الحاضرة الاسماعيلية الكبرى. والموضوع الذي سأحاول إشارته يتعلق بـ «صورة مكناس في الادب المغربي» وما سبقني اليه الزملاء الذين تحدثوا عن الثقافة في هذه المدينة سوف يعفيني من تناول بعض الجوانب التي ربما كنت سأتطرق اليها ومن ثم سوف اعفي بدوري رئيس الجلسة الاستاذ الاخ علال الحجام من تنبيهي للوقت، لاني لاشك سأكون منضبطا مع ما هو محدد لي منه.

ما هي صورة مكناس في الأدب المغربي ؟

الحقيقة ان المكان ــ أي مكان ــ حين يوصف او يصور في التعبير الادبي يتحول من مجرد موقع ساكن ومن مجرد كتلة هامدة الى مجال حيوي متحرك وفي هذا المجال المتسم بالحيوية والحركة، تعمل العملية الابداعية على خلق جو مفعم بالروح، مشع بالذاتية والشخصية.

هنا تتدخل الكيفية التي يذكر بها المكان وسياق الاوصاف ــ أي أوصافه ــ وارتباط ذلك كله بالمبدع واحساسه وانطباعه، مع ما تستدعي هذه العملية من ايحاءات، مما يحول اللقطة المكانية في النهاية الى لمحة عشق، إنساني لها ومضات فنية في الزمان المحيط بهذا المكان، مهما تناءى أو تباعد. وهي لمحة يكشف عنها المبدع من خلال القصيدة ــ أو غير القصيدة من أنماط التعبير الادبي ــ لتعطي للقطة أي للمكان، بعدا أو ابعادا تخرج به عن هذه الكونية المحدودة الجامدة وتجعله يشع بومضات تنبعث من ذات المبدع مشحونة بالقدرة على الانتقال الى ذات المتلقي في أي زمان ومكان.

والادب العربي كما نعرف جميعا غني بهذه الصور التي قدمها لنا المبدعون والتي نقلت عدة امكنة من المرحلة الكونية الجامدة الى مرحلة تتميز بالحيوية والايحاءات مع كل ما في ذلك من نبض وعشق وحب لهذه الامكنة ومع ما يتسنى بالتحول آخر الامر من خلود يكتب لها، ليس فقط من حيث أسماؤها ولكن كذلك باعتبارها شحنة ومضات.

ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة الفنية الرائعة، يكفي ان نذكر دارة جلجل ودومة الجندل اللتين كانت لامرىء القيس فيهما مواقف تغني بها وتغنت معه الاجيال ولا تزال ومثلهما كثير من المدن والبقاع صورها الادباء على امتداد التاريخ فأتاحوا لها الانتقال من مرحلة السكون والجمود الى مرحلة الحيوية والتشخيص.

واذا كان الادب العربي — على امتداده منذ الجاهلية — قد اعطى لهذه الابعاد كثيرا من الامثلة، فان الادب الاندلسي اضاف لها المزيد، اذ اتيح له مبدعون كابن خفاجة الذي تفنن في وصف البلاد الاندلسية وسجل لطبيعتها لقطات خالدة.

ان الاديب حين يصور المكان، سواء،صوره من الخارج أم من الداخل، وسواء أكان ذلك على امتداد فترة طويلة أم من خلال فترة سريعة فانه يربطه بلحظة شعورية غالبا ما تكون عابرة، الا انها على محدوديتها تكون قادرة على ان تجعل المنظر يمتزج بكيانه ويعطيه من خلجاته ما يبعث فيه نبض الحياة، وما يمكنه من الطاقة التي تتيح له نقل هذا النبض، ومعه نقل حب المنظر والتعلق به والاحساس به والتجارب معه؛ لافرق في ذلك بين ان تكون اللحظة مفعمه بالسعادة والسرور، وبين ان تكون مغمورة بالاسى والحزن، وفي ادبنا العربي — والاندلسي خاصة — كثير من نصوص هذا التعبير وذاك، بدءا من وصف البساتين والقصور والمدن والاشادة بجمالها واتساعها وازدهار حركتها ومجالسها الى رثاء ما يندثر منها أو يقع في يد الاعداء.

وفي أدب المغرب أنماط كثيرة من هذه الصور التي قدمها لنا الأدباء، والتي لا يمكن ان تطرح الا في هذا السياق الذي يربط بين عملية الابداع وعملية نقل المكان من المرحلة الجامدة الساكنة، كقطعة ارض أو كحجر هامد، الى احساس ونبض وومضة أي الى لمحة عشق — كما قلت — يمكن ان يتناقلها المبدعون والمتلقون في مختلف العصور وهذا هو الذي يعطي للمكان خلوده، ويمنحه تلكم الاستمرارية التي تجعله دائما في الأذهان وفي النفوس والقلوب.

ثم ان هذه الظاهرة التي نصادفها كثيرا في الادب المغربي والادب العربي عامة، تدل على شيء آخر ربما يكون خارج العملية الابداعية، هو مدى تعلق الاديب بالمكان الذي يعيش فيه أو يلقى حبه وهواه وإن بشكل عابر وسريع، أو يختزن ذهنه ذكريات عنه، مما يفضي الى وعي وطني عند المبدع والى درجة عالية منه وقد أقول انه وعي حضاري وثقافي يتبلور في حس وطني.

واذا كان الموضوع — موضوع المكان او الامكنة — يشغل حيزا كبيرا في الادب العربي ، فانه قد تحول — كما لا يخفى عليكم — في المرحلة الحديثة لا سيما على يد الادباء الرومانسيين والمهجريين خاصة الى صور مخالفة فأصبحنا نلاحظ نزعة أخرى تحث الاديب على ان يفر من المدينة الى الغابة او الى البادية وما اليها مما يشكل اطارا يحيد بي على النطاق الذي حددته للموضوع، وان كان غيري قد يتعرض له اذا ما تحدث عن بعض شعرائنا المعاصرين وموقفهم من المدينة.

إذن، في ذلكم الاطار توضع الصورة التي نجدها في الادب عن مدينة مكناس وهي صورة متعددة الملامح والسمات. لماذا هي متعددة ؟ لان هناك عوامل كثيرة تحركها هذه اهمها:

أولا: موقع مكناس في وسط سهل خصب غني جميل، بكل ما حباها الله في هذا الموقع من مميزات نعرفها ونتعنى بها، تتعلق بمائها العذب وهوائها العليل وطبيعتها الفتانة.

ثانيا: كون هذه المدينة اصبحت عاصمة الدولة في عهد المولى اسماعيل، مما جعلها ملتقى الوافدين وقبلة الانظار.

ثالثا: وجود عدة مآثر تاريخية بها وقصور ومنتزهات وغيرها من المنشآت المهمة، وكذا وجود أضرحة لعدد من الأولياء والصلحاء المشهورين المقصودين للزيارة، سواء من المكناسيين والمغاربة عامة.

رابعــا: لهذه الاعتبارات وغيرها عرفت مكناس في فترات طويلة من التاريخ حركة ثقافية مزدهرة، ونبوغ كثير من العلماء فيها والادباء، مما اغنت به المدينة مختلف مجالات الثقافة المغربية.

خامسـا: ثم ان مدينة مكناس ــ ودائما لهذه الاعتبارات السابقة ــ أتيح لها ولابنائها ان تكون لهم روابط ثقافية وفكرية، وأن يشد اليهم الاخرين، ولاسيما من المدن الكبرى، انطلاقا من جارتها فاس الى غيرها من الحواضر كمراكش والرباط.

ومن ثم، فان الادب الذي يصور حاضرة مكناس جاء يعكس كل هذه العوامل وينطلق من مختلف الدوافع التي حفزت التعبير، وجاء بالتالي يبرز السمات التي يمكن استخلاصها لتكميل صورة هذه المدينة. الا ان الاسف شديد ان الوقت لن يتسع للتعرف الى مختلف ملامح هده الصورة في الادب المغربي؛ والسبب أننا نجد صورة مكناس في فنون كثيرة وفي اشكال تعبيرية متعددة، في كتب التاريخ والرحلات، وفي فهارس العلماء وفي كتب الطبقات والتراجم، ثم تجدها في الشعر وبعض الفنون النثرية كالرسائل والمقامات. ونجدها بعد هذا في التراث الشعبي وفي الملحون منه بصفة خاصة. وهنا أود ان اعتذر، اذ لم اتمكن من حضور المائدة المستديرة التي عقدت أول أمس حول فن الملحون بمكناس، وكانت رغبتي في المساهمة بعرض فيها كبيرة.

إذن، لحاضرة مكناس صورة متعددة الملامح والقسمات، وسوف لا اتحدث عن هذه الجوانب كلها لاني لو حاولت لاحتجت الى ساعات طويلة، ولكن لا بأس ان أذكر بانه سبق لي في السنة الماضية، وفي نطاق ندوة عقدت هنا نظمتها جمعية قدماء تلاميذ مكناس، وان تحدثت بشيء من التفصيل عن صورة مكناس عند أدباء العدوتين الرباط وسلا، من خلال انماط تعبيرية كثيرة كالشعر والرحلة وكتب التاريخ.

ولعلي هنا ان اذكر بان الادب الذي صوَّر معالم هذه المدينة ليس أدبا مجهولا كما قد يظن، فما جمعه مؤرخ العاصمة الاسماعيلية العلامة المرحوم عبد الرحمن بن زيدان في الجزء الاول من كتابه «الاتحاف» يعتبر مادة غنية وغزيرة، اذ ساق العديد من القصائد والمقطوعات والابيات التي قالها الشعراء، اولائك الذين عشقوا هذه المدينة ورسموا لها لوحة بل لوحات محددة الملامح والسمات، أمثال ابن عبدون وابي القاسم العميري ومحمد الغالي العمراني، واحمد بن علي مصباح، وادريس الوكيلي، والتهامي بن الطيب امغار، ومحمد بوجندار، وابراهيم السلوي، ومحمد بن الحاج السلمي، وعبد القادر العلمي العرائشي، ومحمد البيضاوي الشنجيطي، واحمد سكيرج، والشرقي الاسحاقي وعبد الله القباج، ومحمد بن العباس العلوي النجار، والحاج محمد بوعشرين، ومحمد بن المفضل غريط، والمدني ابن الحسني، واحمد الصبيحي، واحمد المامون البلغيثي، وعمر بري المدني، وعبد الملك البلغيثي، وعبد الرحمن بن زيدان نفسه؛ دون نسيان ما ساقه صاحب «الاتحاف» من اشعار منقوشة على بعض المباني التاريخية في المدينة.

من هنا اجدني في موقف صعب، لانني لا 'ريد ان اكرر ما هو متداول معروف، أو ما ورد عند الاخوان في العروض السابقة. لذا فسوف اكتفي بتقديم بعض النماذج، أقتصر منها فقط على ما يتعلق بفن المقامات وبالشعر في شكليه المعرب والملحون.

وكما سبق ان قلت فان هذه المقامات والاشعار وما اليها من الادب الذي صور مدينة مكناس، انما رسم لها لوحات من خلال المآثر والمزارات والمواقع المختلفة التي مرت الاشارة اليها وهي في النهاية لوحات متكاملة تقدم لنا صورة عن مكناس مشعة وجميلة تدل على المكانة المزدهرة التي عرفتها المدينة في مضمار الحضارة والثقافة.

من الشعراء الذين اريد التمثيل ببعض نماذجهم محمد بن ادريس العمراوي الذي عاش في عهد المولى عبد الرحمن، اذ توفي في سنة اربع وستين ومائتين وألف للهجرة الموافق عام سبعة وأربعين وثمانمائة وألف للميلاد. فقد كان من الادباء الذين واكبوا سير الدولة لانه كان مقربا الى سلاطينها وأمرائها. وفي النص الذي أود تقديمه، يتحدث على لسان السلطان المولى عبد الرحمن، متشوقا الى مدينة مكناس، ولعله أعرب له عن هذا الشوق، فقال قصيدته، وهي طويلة يصعب حتى ذكر أبيات منها معدودة، مما سيجعلني اكتفي ببعضها؛ ذلكم اننا في أمس الحاجة في مثل هذه الندوة، ليس فقط ان نتحدث في عروض نظرية تاريخية تحليلية، ولكن ان نطرح بعض النماذج التي من شأنها ان تبلور الكلام الذي يقال، وان توضح لنا ملامح الصورة التي نريد عرضها.

يقول ابن ادريس في أول هذه القصيدة:

تذكرت المعاهد والديار	وحسن الغانيات من العذاري
وأقمارا بمكنسة تجلت	وأياما بها سلفت قصارا
بلاد إن تذكرها مشوق	يحن لحسن رؤيتها اضطرارا
وان تليت محاسنها بجمع	حسبت الناس من طرب سكارى
وان هب الصبا منها ذكرنا	بنفحته البنفسج والعرارا
وان شمنا البوارق أو شممنا	شذ منها خلعنا به العذارا
مساحتها وطيب الماء فيها	وحسن هوائها بالقلب طارا
سقى مكناسة الزيتون غيث	وصب مدامعا فيها غزارا
وحيي معاهدا فيها وأحيى	حدائقها وألبسها اخضرارا
منازهها لجسم الانس روح	بها الافراح قد رفعت منارا

بعد ذلك، أخذ الشاعر في استعراض ما في هذه المدينة من منازه وقصور ومن الملاحظ ان ابن ادريس العمراوي ــ ربما بحكم الارتباط الذي كان له مع السلطان المولى عبد الرحمان ــ سوف يلح على المنشآت التي أقامتها الدولة ولا سيما في مجال تشييد القصور.

ومن ثم، نجده يقول قصيدة يمدح بها نفس السلطان وقد بنى قصرا قيل في مقدمة النص إنه اقامه امام قصر المحنشة في الدار العالية بمكناس. وهي قصيدة طويلة إن كنت لأستطيع قراءتها كلها فلا اقل من ان اتلو بعض ابياتها التي يصف فيها هذا القصر ويقارنه بقصر البديع الذي شيده المنصور السعدي في مراكش وقصري الخورنق والسدير الذين بناهماالنعمان بظاهر الحيرة، وكذا قصر زهراء المنصور بن ابي عامر بالقرب من قرطبة وقصر غمدان بصنعاء اليمن، اذ يجعله يتفوق عليها جميعا ويحكي الفردوس.

والشاعر حين يجعل القصر يتفوق على غيره من القصور يربط ذلك بمدح السلطان. ويهمنا هنا ما قاله عن هذه الدار بعد ان مدح المولى عبد الرحمن:

بدار الملك مكناس تسامت	شموس السعد واعتلت البدور
وعاودها من الاسعاد عيد	بقطب حوله العليا تدور
فشاد بها كلاه الله قصرا	تقاصر دون بهجته القصور
به اختصر الجمال فكان فردا	لجامع حسنة الابصار صور

فما قصر البديع بديع وصف | لديه ولا الخورنق والسدير
ولا الزهراء زاهرة لديه | ولا غمدان يشبهه لويحور
حكى الفردوس لو للخلد يعزى | تنعم فيه ولدان وصور
سما وسط القصور الشم قدرا | يلوح عليه للاحسان نور
بدا في عقدها المنظوم وسطا | سما بجمال موضعه النحور
مغانيه كناس ظباء أنس | وخيس حله ليث هصور
كأن قبابه الابراج حلت | بها الشهبان والقمر المنير
برونق حسنة الابصار تعني | وتشرح عند رئيتها الصدور
به الاسعاد خيم والمعالي | به وردت وليس له صدور
وما أولاه ان يسعى بقصر السرور | فقد ثوى فيه السرور
بباسم الله يكلا والمثاني | تحيط به للحفظ سور
ليهن خليفة الرحمن مغنى | به نور السعادة يستطير

في هذا السياق أود ان أشير الى بعض الشعر الذي قيل في مكناس، والذي لم يلتفت اليه؛ وهو صادر عن علماء كانت لهم صلات أدبية باعلام المدينة إما بحكم توليهم منصب القضاء فيها أو بحكم حضورهم مجلسا علميا أو القائهم درسا بها أو بحكم تعلقهم ببعض صلحائها. يكفي أن أذكر من هؤلاء الفقيه الاديب مولاي احمد بن المامون البلغيثي المتوفى عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق سنة تسع وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد. وألفت الانتباه الى ان صاحب «الاتحاف» أورد له بعض الشعر، الا أني سوف اكتفي ببيتين أسوقهما له يتحدث فيهما عن جانب جذب كثيرا من الادباء وأفرز غير قليل من الابداع الشعري، وهو المتعلق بأولياء المدينة، ويعتبر في الحقيقة حيزا مهما فيها شغل التاريخ والفكر والادب. يقول الشاعر في هذين البيتين:

الايا رجال الله ياأهل مكناس | لجأت اليكم فاجبروا صدع افلاسي
ومنوا بآمالي فاني ضيفكم | وضيف كرام الحي يحظى بايناس

مثل هذا الشعر نجده كذلك عند الاديب الرباطي محمد بوجندار المتوفي سنة خمس واربعين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق عام ستة وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد وسأسوق مثالا منه وان سبق ان قلت باني لن اتحدث عن ادباء العدوتين لاني كنت ألقيت عنهم محاضرة أثرت فيها ما قاله هذا الشاعر عن مكناس والجدير بالذكر ان له رحلة شعرية الى هذه المدينة ما زالت مخطوطة وكان قد زارها في اواخر ايامه وهو مريض مرضه الذي أقعده، مما يفسر كثرة توسله بأوليائها على حد ما قال عند زيارة ضريح سيدي عبد القادر العلمي.

هذا المقام مقام العارف العلم | بحر الولاية عبد القادر العلمي
غوث الورى غيثهم هادي الهداة ومن | اضحى كنار القرى ليلا على علم
نط حمل الرجا ولذ ساحته | فانه حامل الرايات والعلم
وعفر الوجوه والثم تربه وبه | وما له من كرامات ومن كرم
اضرع الى الله واسأله مثوبة | ولا تكن ما دار عن ورده الشبم
كم خامل بالتنكير منخفضا | فصار مرتفعا كالمفرد العلم

وكم عليل غدا يرجو الشفاء به ... فعاد مشتفيا من كل ما ألم
وكم عبوس من الخطوب منقبض ... يكاد يقضي الاسى عليه بالعدم
أضحى له الدهر رحب الصدر منشرحا ... يفتر في وجهه بثغر مبتسم
لما احتمى بالحمى الاحمى وطوقه ... من جوهر المدح منثور ومنتظم
وحاك من صنعة القريض أردية ... من دونها في البها الازهار في الأكم
وزفها طرفة في الحسن رافلة ... قد ابدعتها يد الامثال والحكم
ثم انثنى محرزا فضل السباق وقد ... اجرى النها برهان الطرس والقلم
يقول قول محققة في مقالته ... والحق يظهر من معنى ومن كلم
ما مرت في الجدبين الناس معرفة ... حتى تنكر فيكم بالضنا علم
وما تحرك قلبي حول ساكنه ... ولا صبوت بجيران بذي سلم
حتى حللت بمكناس وقد طفقت ... تميلني عطفة من جيرة العلم
من جيرت بهم طاب الثناء كما ... قد طاب مفتتحي وطاب مختتمي

يكفيني هذا بالنسبة للشعر، وانتقل الى النثر وفن المقامة خاصة، اذ توجد بعض المقامات التي ارتبطت بمكناس كتلك التي تسمى «المقامة الفكرية في محاسن الزاوية البكرية»، وهي من انشاء محمد بن احمد المسناوي الدلائي المتوفى عام ستة وثلاثين ومائة والف للهجرة الموافق سنة أربع وعشرين وسبعمائة وألف للميلاد. وفيها يصف الرحلة من فاس الى مكناس ثم الى تادلا فمرابع الدلاء. ذلكم انه قصد الزاوية البكرية التي اشتاق إليها، الا انه يقف في مكناس ويلتقي ببعض أهلها، فيستفسره بعد ان يصفه ويتحدث إليه عن الطريق المؤدي إلى الزاوية ولكن في وسط ذلك من خلال هذه الوقفة يعطينا في سطور نظرة عن مكناس، فيقول من مقامته الواردة في كتاب «البدور الضاوية» المخطوط بخزانة الرباط العامة وهو لسليمان الحوات :

«فما زلت اقطع المعامي والمجاهل، والزيازي والمناهل، الى أن أشرفت على مكناسة الزيتون، ووافيت ماءها الجاري الهتوت فتحيرت بين ان أسير، أو أبيت فيها ليلى وأستشير. فما كان الا كارتداد طرف، أو كاختطاف حرف، حتى طلع علينا ظبي فارق كناسة، بل هلال قد أطلعته بروج مكناسة. فلما رأيته تفاءلت بمحياه الحيي، ومنظره الناظر البهي، وقلت: والله هذه العيافة والزجر، لاكمن يتفاءل بالغراب والنسر.فانتحاني وكأنه قضيب من البان، أو اليانع من أغصان الخيزران، فلما غشيني بظله، وقد فتنني بدلاله ودله قمت للتسليم عليه، وقبلت ما بين عينيه، فتهادينا نفحات السلام، وان كان لم يتقدمْ لنا قبل ذلك التمام. فقلت له وقد استجلسته وانسني وأنسته: يايتيمة العقد المنظوم، وياريحانه المشموم، اني سمعت في الاخبار المشهورة والانباء المأثورة ان الوجوه الحسان مقصودة في امور الانسان. فقال لي: افصح عن حاجتك فقد فتنتني بمناجاتك. فقلت له اني خرجت استقرىء البلدان واتتبع منابت الازهار في هذه الاوطان، فان لي إلى ذلك ولوعا وانصبابا، واشتياقا وانسيابا.فقال لي: لولا ان المستشار أمين وأن الخيانة ضلال مبين ما حثوت اذنك من كلامي باشارة، ولا نثرت در الفاطني لك فتلتقطه السيارة، لكن سمعت الناس يتحدثون ان الزاوية البكرية والدار السنية العالية هي أجل الارضين أزهارا، وأكثرها نسرينا وعرارا. فما تمالكت ان نهضت طائشا ومن فراق جليسي داهشا، فاستلجمت فرسي وأسرجته، وعلوت صهوته ووجهته...»

كذلك اود الاشارة الى مقامة متأخرة في وصف مكناس لمحمد غريط المتوفى سنة أربع وستين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافقة عام خمسة وأربعين وتسعمائة والف للميلاد، وتسمى«المقامة المكناسية»وتصور

خروج الراوي «المتجول ابن السائح» من فاس متوجها الى مكناس بهدف الترويح عن النفس. فبعد ان تحدث عن السفر وأسبابه، ذكر وصوله الى هذه المدينة وزيارته مآثرها كضريح المولى اسماعيل ومسجد القصبة، وباب منصور العلج، والمنتزه العمومي، وساحة ابي الحسن على منون، ثم ختم بالعودة الى فاس وقد اشتاق اليها وهي مقامة توجد نسخ لها مخطوطة وان سبق نشرها في مجلة «النبوغ»

بعد هذا، أشير الى النمط الثالث الذي أريد لفت الانتباه اليه وهو التراث الشعبي ولا سيما الملحون منه ذلك ان مدينة مكناس جذبت اليها كثيرا من اشياخ هذا الفن، خاصة وأنها كانت مند عهد بعيد ملتقى لشعرائه. ونحن نعرف من خلال التاريخ أنه في عهد المولى الرشيد والمولى اسماعيل كانت مكناس قبلة شعراء الملحون من المغرب والجزائر، وكان هؤلاء الشعراء يتنافسون على حد ما بينت في كتابي عن «الزجل في المغرب ـــ القصيدة».

ومن المعروف كذلك أن بعض شعراء الملحون نبغوا في مدينة مكناس كالعميري وسيدي قدور العلمي، وهذا بالذات إذ وجوده في هذه المدينة ـــ وهو شيخ شعراء الملحون وحكيمهم على الاطلاق ـــ جعل الكثير من أشياخ الفن تهفو نفوسهم الى مكناس لوصفها والتبرك بأوليائها وخاصة ضريح سيدي بنعيسى وضريح سيدي قدور نفسه إذ يعد في صلحائها المشهورين. وعندنا قصائد كثيرة قالها كبار شعراء الفن كالتهامي المدغري، وادريس بن علي السناني المعروف بـ «لحنش» وغيرهما وهي في غالبها تدخل في نطاق الغرض الذي يسمى المراسلة أو الرحلة، ومنها قصائد يطلق عليها «الورشان» الذي يذهب بالرسالة أو ينتقل بالشاعر من مكناس الى آخر، فيتجول ويصف ويعبر عن مشاعره. ويكفيني هنا أن أمثل بالورشان الذي بعثه ادريس بن علي السناني من فاس الى مكناس، وهذه حربته :

من أرض فاس سر أورشاني بالسلام

زر لهمام سيدي بنعيسى الوالي

ومثله ورشانه من مكناس الى فاس، وفي حربته يقول :

عول انرسلك من مكناس في احماربي ياورشاني

سلم على الفقرا في فاس

وفي القسم الأول من هذا الورشان يقول :

هذا وقت الخيرات اللي ادركت فيه اسروري وماني

قرت العين وزال الباس

زرت سيدي بنعيسى عزنا الشيخ القطب الرباني

بانت اسرارو دون اقياس

لاش ما نتمختر ونافي اضيافت هذا لنوراني

ولسياد أولادو لنفاس

كل واحد منهم بالعز ولقبوب ولفراح لقاني

لنهم ناس ونعم الناس

سر عازم ودي هاذ لخطاب قبل أوصولي لخواني

ياقطيب الدار ولغراس

وبعد، فهذه أيها الاخوة ملامح سريعة حاولت بنماذجها المحدودة أن أؤكد ذلكم السياق الذي بدأت بطرحه في المقدمة والذي أردت من خلاله عرض صورة مكناس في إطار يجعل المبدع ينقل المكان من مرحلة ساكنة جامدة كبناء أو حجر أو قطعة أرض الى لمحة عشق وتعلق، هي و مضة من الحب والمشاعر والأحاسيس الجميلة.

وأؤكد أن هذا موضوع متشعب ومتعدد الجوانب، ينبغي لتتبعه أن تخصص له ندوة كاملة لكي نعرف هذه الصورة وملامحها في مختلف أنواع الابداع وأنماطه، ويكفيني في هذا العرض المحدود أن أكون ألقيت الضوء على جانب معين في الصورة. ومعذرة إن كنت أخذت بعض الوقت الزائد، وشكرا لكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

مكناس في المتخيل الشعري
شعر عبد السلام الزيتوني وعلال الحجام كنموذج

الاستاذ بنعيسى بوحمالة
المدرسة العليا للاساتذة
مكنـــاس

لربما جاز القول إن تاريخ النص الشعري لا يعدو كونه تاريخيا للمكان، أي لفضاء تشتغل في نطاقه علامات معمارية وتاريخية واجتماعية وأخلاقية... ففي النص الشعري، الذي هو علامة استعارية كبرى وشائكة، يتوثق المكان المشعرن ويأخذ بأطراف تاريخه التخييلي، ويتمظهر بالتالي متوالية علاماتيه مندغمة بصلب هذا النص.

من هذا الضوء يصح أن نصوغ التساؤل الآتي: كيف تتمكن الكتابة الشعرية إذن من تطويق التاريخ المكاني، بل من اعتقاله وتسخيره لأوفاقها؟ هل عبر استصدائه واستنساخ شعريته أم توسطا بتحويره والتلاعب بهويته؟ وبصيغة أخرى هل تتعلق المسألة، في أثناء شعرنة poétisation المكان، بإعادة إنتاج ميكانيكية لهذا المكان أم بتقطيع كليته ثم انتقاء بعض مفاصله لادراجها في آلية الكتابة الشعرية، مع ما يستتبعه هذا المسلك من تغييرات لابد وأن تطال هذه الكلية وتلك المفاصل!؟

تساؤلات جمة قد تنطرح في هذا المضمار، ولا شك أن الازورار عنها قد لا يفيد في شيء سوى ما كان من تعميق الصدع، الوارد بداهة، بين شعريتين متنابذتين :احداهما تقوم على التمطط والنثار داخل المجال الطبيعي، بينما ترتكز الثانية على التكوم والتضام داخل المؤسسة النصية. إن علائقية المكاني والشعري ليست محل تساؤل إذن، لأن الذي يعنينا أساسا هو القبض على تشكل المكان، سواء كان كتلة واحدة أو بقعا مجتزأة، داخل النص الشعري، بمعنى أن المطروح هو حصر الطريقة أو الطرائق التي تمد المكان بداليته الثانية المتولدة من تصييغه وفق ما تستلزمه مشترطات البناء الشعري. وبما أن توريد المكان الى حرم الكتابة الشعرية يشير، عمقيا، الى تقاطع حدين متباينين ففي مكنتنا أن نأبه، بالاحرى، للوجهة التي يسلكها الجدل الحاصل بينهما باعتبار أن (الداخلي والبراني جدلا محيرا تغشانا هندسته الجلية هاته بمجرد ما نباشر اللعب داخل المجالات الاستعارية) (1).

من خلال هذه التوطئة نعتزم تأسيس مقترب لنصين شعريين (2) : أولهما للشاعر عبد السلام الزيتوني، أما الثاني للشاعر علال الحجام، وذلك بقصد نمذجة المنحى الاستعاري الذي اتخذته مكناس كمكان في كلا النصين، وبالتالي لدى حساسية شعرية تنتمي للستينات، وأخرى تنتمي للسبعينات، على أننا، على ما يظهر، لا نحوج تبريرا ما لاختيار هذين الشاعرين، إذ يكفي الرجوع الى أعمالهما المنشورة

ليتبين لنا النفوذ الذي تمارسه مكناس، كموضوعة مركزية على جل ما كتباه الى حد الآن.

العنوان كعلامة مفارقية في النصين:

فضلا عن كون العنوان يمثل تقليدا معروفا في مختلف أنماط الكتابة الادبية، فانه يشكل، علاوة على هذا، قناة سيميوطيقية تفضي الى الحقل الدلالي الذي ينتجه النص، وبتعبير مواز إنه بمثابة مدخل شعري الى مختلف البرامج التعبيرية التي ينهض بها هذا النص، ومن هنا تأتي المواثيقية الفائقة التي من المفروض، أن ينشئها بين تلك البرامج وبين القراءة كفعل تأويلي. وإذا ما أخذنا هذا المعطى بعين الاعتبار فسوف يتبدى لنا أن الصيغتين العنوانيتين للنصين معا لاتصبان في هذا الاتجاه، بالنظر الى أنهما لاتسعفان على الظفر بما أسميناه برامج تعبيرية تتصل بمكناس — المكان دونما تعرج، فنص الزيتوني تتوجه صيغة عنوانية هي «الأسوار»، في حين تتصدر نص الحجام صيغة عنوانية أخرى هي «مرايا السين». إن في جنوح الشاعرين الى تقنية المباعدة في عنونة نصيهما لابد وأن يلقي على عاتق القراءة عبئا، ليس بالهين، في الترصد الواثق لمثول المدينة نصيا، وكذلك في استخلاص علاماتها، فهذه التقنية لا يمكن أن تأخذ بيد القراءة الى موضوعة مكناس في تحلل من أي جهد يذكر، ليس بسبب من تعقيدها لانتظارية الافق الدلالي والتشويش عليه كما عند الزيتوني، وإنما بفعل طمسها لهذا الافق، ثم بلورتها لافق دلالي مغاير مثلما هو الامر عند الحجام. ومادامت (العناوين تملك، هي أيضا، القدرة على أن تعمل كعلامات ثنائية، إذ تفتتح القصيدة التي تتوجها، وتحيل، في ذات الوقت على نص آخر)(3)، فإن هذه الوظيفة المتراكمة هي ما تقوم به كلتا الصيغتين العنوانيتين، ومن ثم ارتأينا ضرورة الالفات لى تضمنهما الاشاري المفارقي.

حقا إن الزيتوني في اختياره لعنوان ك «الاسوار» قد ساق صنفا من قرينة دالة لا تخلو من أهمية، نقصد أنه اقتطع من كيان المدينة أحد لوازمه الضاربة. مما يشرع الباب أمام احتمالات دلالية من عيار «التلادة» و «الانغلاق» و «الاحتماء»... لكن إذا صرفنا النظر عن توافق هذه الاحتمالات مع هيئة المدينة فاننا نستطيع أن نستحضر، في المقابل، فضاءات أخرى، مدينية ومسورة، تتوزعها مناطق مختلفة بالمغرب كالرباط ومراكش وفاس... وإذن تظل الاحالة فضفاضة، لانها قد تستثير تداعيات تأويلية، مصدرها قرينة الاسوار كما قلنا، تنصب على مكان محدد كمكناس، الا أنها سترغم، بالتأكيد، على استدعاء مجمل الفضاءات المدينية المعروفة بعتاقتها التاريخية. هذا من زاوية ومن زاوية أخرى نشير الى أن نفس الوحدة المعجمية أي «الاسوار» ستتوارد داخل النص لاكثر من مرة، وضمن سياقات متراوحة، إما بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع، الا أنها تبقى، رغما من حضورها العودوي الملفت، غائمة على مستوى الارجاع المكاني، بحيث قد يكون هذا المرجع مكناس وقد يكون غيرها. وإذا ما استثنينا مصاحبتها السياقية لمرجعها المحدد في إطار جملتين شعريتين لا غير، فليس هناك من دعامات دلالية تشبع تمكنسها، وهاتان الجملتان هما:

1) ومكناس ترفل بالعطر تزهو بأسوارها

2) أمكناس نامي يلفعك السور تحرسك الساقية.

وإذا كان هذا حال المكون العنواني في نص الزيتوني، فان الحجام يركب هو الآخر مسلكا مخاتليا في تشييد عنوان نصه، إذ ينحو بالتأويل رأسا الى فضاء مغاير هو باريس بالتحديد. لكن يجب أن نسطر هنا ملحوظة أساسية وهي أن نص الحجام لا تؤمه موضوعة مكناس لوحدها، بل نجد الى جوارها موضوعتين أخريين على أقل تقدير. على أنه، وكَدَأْبِهِ في بعض نصوصه، نلقاه مصرا على التطويع بالمواثيق التي تبرمها

عناوين هذه النصوص مع احتمالات دلالية معينة، ذلك أنه غالبا ما يفسح حيزا لفضاء مكناس، إن لم يكن بشكل استطرادي فبشكل فلاشي مكثف، وهذا ما يجعل من التمظهر اللجوج للمدينة في شعره بنية دالة حقيقة بالمساءلة والتفكيك.

وهكذا فإن الصيغة العنوانية للنص الثاني تستبعد عنت التشتت الاحالي بين أمكنة متعددة بما أنها تقتضي منا الاستدعاء المبدئي للفضاء الباريسي ريثما تستقيم في طريق قراءتنا للنص مكناس، سواء كوحدة معجمية، أو كفضاء جغرافي وتاريخي وثقافي معلوم. من المحقق أن قرينة «السين» تحوز قابليتها الاحالية على باريس إن اردنا التدقيق، وعلى فرنسا ككل إن أردنا التوسع. غير أن هذه القرينة المفارقية، إحاليا، هي ما يسهم في عنونة نص متراكب موضوعاتيا سوف لن يبلور قرينة نهرية ملازمة لمكناس كوادي بوفكران مثلا، وإنما سنجده مبلورا لموضوعة مكناس ككل، مكناس المشمولة بطوابعها المميزة لها، والمغلقة برمزيتها التي لا جدال فيها، ومن ثم فهي تنفي أي تماه قد تؤسسه أمكنة أخرى لانها، في نهاية التحليل، من صنف تلك «الاسماء العَلَمِيّة التي لا تتطابق سوى مع كينونة متفردة» (4).

وإذا ما حاولنا إقامة نوع من المقارنة السيميائية بين «الاسوار» كدال مفرد صيغيا، وكمدلول لشيء مصطنع، طيني، حجري، متطاول عكوديا وممتد أفقيا، كما أنه هجين لونيا، وبين «مرايا السين» كدال مركب صيغيا، وكمدلول منشطر يعني جزؤه الاول شيئا مصطنعا، زجاجيا، ضئيل الحجم، كما أنه أبيض لونيا، بينما يشير جزؤه الثاني الى شيء طبيعي، مائي، ممتد افقيا، كما أنه حربائي لونيا، من هذه المقارنة تظهر الفروق والتشاركات بين الصيغتين، هذا إذا ما قرأناهما قراءة أولى، أما إذا ما أردفنا هذه القراءة بأخرى عميقة فسيتراءى لنا أن الصيغة الأولى تنتج احتمالات دلالية كـ «التلادة» و «الانغلاق» و «الاحتماء»... في حين تنتج الصيغة الثانية احتمالات من بينها «العكس» و «التفتح» و «الجريان»... ألا يمكن أن نستغل هاتين القراءتين مثلا في تحديد الدالية التي تعلن عنها المدينة انطلاقا من العنوانين في انتظار أن تتماسك هذه الدالية أكثر داخل النسيج النصي للقصيدتين؟ ألا يمكن الحديث عن حس انغلاقي، تقوقعي، تلادوي يمسك برؤية الزيتوني لمكناس؟ أي عن رغبة مكينة في اعتقال مكان لم يعد قادرا على تغذية وجدان الشاعر بمختلف الانفعالات الغبطوية والحبورية كما كان الشأن في الماضي؟ وبالموازاة ألا يحق الحديث عن حس انفتاحي، دينامي، راهني يكيف رؤية الحجام لمكناس؟ أي عن منزع واقعي بمقتضاه يتم تهجير المكان، ملفوفا بنوستالجيا قوية لمهاجر مغربي، إلى المرآة الباريسية حتى يتمرأى ليس كهيئة معمارية مسطحة، وإنما كذاكرة، وكهوية عربيتين.

المدينة كعلامة تخييلية في النصين:

لقد بينا، قبل قليل، أن مكناس، كدال مكاني، لا تلوح على امتداد قصيدة الزيتوني إلا مرتين، وفيما عدا لجوئه الى اختتام قصيدته، وبشكل تكراري، بدال مكاني ملازم لمكناس ألا وهو«ساراكً»فإننا نلمس خفوتا جليا للمنسوب المثولي، سواء لاسم المدينة، بما هو مشبع بكفايته المرجعية، أو للواحق ومصاحبات معلمية لصيقة بفضاء المدينة. لماذا تنصيصنا على هذا الخفوت؟ لان معاينة مختلف العناصر الرمزية التي انتدبها الشاعر للتدليل على المدينة لا تستجيب للمقصدية التعبيرية الواردة في هذا الموقف الشعري فقط، بل إنها قد تربك حتى ذلك الحد الأدنى من الانفعال الواجب توافره حيال أية مدينة لا تحفظ في استيفائها لمستلزمات شخصيتها الحضرية.

وإذا تجاوزنا الصورة الباهتة التي رتبها الزيتوني لمكناس في قصيدته فان ما يستقطب الانتباه هو الحضور الطاغي لأنا الشاعر الغنائية، ولعل في انتحاله لهذا الاختيار الضمائري يدل، في الجوهر، على تعالق ما بين هذه الانا وبين المدينة، أي أن تشبثه بالتذويت الكاسح لرقعة النص يدل على ما يمكن تسميته بأزمة ثقة بين الذات المبدعة وبين المكان. فمكناس التي تعترضنا في النص، من خلال تلوينات دلالية، تصبح مرمى للذم وللعتاب، بل وللتقريف، إذن فالامر يتعلق بجفوة، بعدم تراض بين شاعر يريد أن تتأبد مكناس فضاء للألفة والود واللذة، تحوطه الأسوار وتمنع تلاشي نكهته هاته، وبين مكان غدا منفلتا، بعل سيرورة تحوله التاريخي، من المغزى الفردوسي الذي أراده له الشاعر، بحيث غدا مبعثا لمشاعر اسيانة لا تكدر على الزيتوني صفاءه النفسي فقط، بل وتدفع به الى أن يعلن عن إمحال هذا المكان وتقوضه، بمعنى عن موته المجازي:

تُطِلِّينَ مَكْفُوفَةً فِي ٱنْذِهَالٍ وَمَلْفُوفَةٍ فِي كَفَنٍ
يَلْفَعُكِ هَوْدَجٌ مِنْ تَمَائِمِ لَاوَرَقٌ أَوْ فَنٌّ
وَلَا مَنْزِلٌ فِي عَدَن
أَرَاهِنُ لَا أَحْتَفِي بِالتَّمَائِمِ غلت
وَلَا بِٱلْعَمَائِمِ وَلَّتْ
وَلَا بِٱلْغَمَائِمِ تَسْقِيكِ أَعْشَارَهَا
عِجَافٌ سِنُون الخَنَازِيرُ عَانَقَهَا ٱلْقَيْظُ رَاعِفَةً جَامِدَةً.

إن الوسائط الاستعارية المبذولة في هذه الابيات تبرز مدى اليباس الروحي الذي ألم بمدينة تعود الشاعر على أن يمارس تطهيره الانفعلي في فضائها الرعوي الطازج. فالمدينة ليست هنا أكثر من جسد معماري ضامر يناقض القوام المستحب الذي فصله هو للمدينة وأودعه في دواخله، وفي تساوق مع هذه النظرة يقول:

فها انت قد ذَبُلَ الطَّرفُ منك وضَاعَتْ مَفَاتِنُك الغُرّ
عَاقَتْكِ كُل الدُّروب
تَلْفَعُكِ الأَضْرِحة
ويَظْفَرُ شعْرك تسْبَعَ خِفَافٍ عِجَافٍ
وَكُنْتِ عَلَى ٱلْأَرْضِ ثَامِنَهُمْ

هكذا يتكسر المكان وتتفتت كيانيته عندما يعصف الزيتوني بالمؤالفة التي كانت بين المدينة وبين عناصرها الرمزية، بينها، وهي تفقد ملامحها الفاتنة، وبين دروبها وأضرحتها، مما يوقعنا في انفصامية هي على الضد من حيويتها المتصرمة. ولكي يعمق المآل الاحتضاري لمكان كان يتدفق حياة وتوهجا في وقت ما يتعمد هذه ا المرة تكثيف خيبته وتكريس موت المدينة وذلك باللجوء الى استعارة دلالية الكهف كيما تأخذ حلكة المشهد الجنائزي لمكناس حجما مأساويا:

أَمِكْنَاسُ نَامِي يَلْفَعُكِ السُّورُ تَحْرُسُكِ السَّاقِيهْ
وَلَا تُوقِظِي الكَهْفَ مِنْ نَوْمِهِ مَرَّةً ثَانِيَهْ
فَحَظِّي آتيه كَمَا تِهْتُ فِي مَهْمَه
وساراك، ساراك لا يَنْتَهِي

فلمكناس أن تسير الى حتفها المجازي، وللشاعر أن يسير في شقاء وعيه الشعري بانمساخ المكان وتمنعه عن مذاقه الفائت. على أن الشاعر لا يتيه في المهمة الرمزي لسبارك فحسب، بل ويتيه في عتاقة اللغة والتراكيب والصور الشعرية، مستمدا من ذاكرته الجاهلية مرة ومن ذاكرته القرآنية مرة أخرى، منجزا بهذا تناصا تكتنفه باروديا لا مفر من توظيفها في التوكيد على الهزء، وعلى التسلي الفاجعي بموت المكان، وبالتالي على تفريع مدينة لم يتبق للشاعر إلا أن ييأس من استعادتها لشكلها الغبطوي والحبوري.

غير أن النص سوف لن يكتفي بتشكيل حقل دلالي واحد، إذ ان دلالة الامحال أو الموت ستفسح المجال لتوليد دلالة مضادة هي دلالة إحياء المكان وتخصيبه، دلالة ابتعاثة ثانية توسلا بموارد تخييلية تؤول الى استعارتين أساسيتين هما: استعارة اللذة واستعارة الماء. وتأسيسا على هذا سنرى الشاعر في البداية مسخرا لذاكرته الجاهلية في استجماع أطراف الصورة الرمزية لحيوية المكان وتوهجه، وبذلك يتم تعويض الموت المجازي لمكناس بتخيل مجال بديل يملأ الشعور النفسي الذي أخذ يحسه الشاعر. هذا المجال لن يكون سوى «دارة جلجل» بمعنى أن المخيلة الشعرية هنا تمارس هجرة رمزية الى الجذر الصحراوي لهوية المكان، الى تلك النضارة التي استسعف بها النص الشعري الجاهلي في تركيب لحظة الشاعر الممتلئة ضدا على بياض وتصحر بله موت المكان ويبسه:

وَأَرْكَبُ نَاقَةَ شِعْرِي يُدَاهِمُنِى الرَّسْمُ بَاكٍ بِأَطْلاَلِهَا
ومكناسُ تَرْفُلُ بالعِطْر تَزْهُو بأَسْوَارِهَا
فَتُخْرِسُنِي قَهْقَهَاتُ السَّكَارى
وَتُوخِزُنِي نَظَراتُ العذارى

فالصورة الموضبة للمكان تقترض روحها من صميم الاخلاقية الجاهلية التي كانت تعمل على تحاشي البياض والرتوب الصاعقين للحياة الصحراوية بالامتلاء اللحظي الداعر وبمساوقة الرغائب الحسية، ولا ريب أن الشاعر، وهو يعبيء عناصر هذه الصورة، كان مأسورا الى ذات الخلفية المجالية التي تَخَلَّقَ في مناخها الهاجس الاستهتاري في معلقة امريء القيس.

وعلى صعيد ثان سيتعين على الزيتوني، في إطار منزعه الاحيائي للمكان ان يجهد مخيلته في توفير صور شعرية أخرى بغاية حقن مكناس بكل ما يمدها بأسباب حيويتها وتماسكها. ولئن اقتناعه بموت المدينة ما انفك قائما فها هو يدرج صورا أكثر تمثيلا وأغنى دلالة ليقذف بها الى اصطراع مفتوح مع القرائن الراشحة بالموت، والتي سبق له أن وظفها:

1) تحاصرك رَجْفَةٌ من جَلِيد
تَبَيَّنْتُ فَاتِنَتِي فِي الحُضُورِ
2) عَرَفْتُكِ أَنْقَى مِنَ الثَّلج فِي نُدَفِه
وأقوَى مِنَ البَحْرِ في مَدِّه.

ومن بين ما نلحظه أن هذين النموذجين الشعريين يرتكزان على آلية تخييلية مغايرة لما رأينا في النموذج السابق. فحضور نويات دلالية كالجليد والثلج والبحر تصب في بؤرة مرجعية هي الماء لا يمكن الا أن يدفعنا الى استثمار داليتها على الحياة، إذ من الماء ينبثق التكوين، فأن يستعار الجليد لكي تنبلج من رحمه مكناس

فاتنة الشاعر، وأن يستنجد بالمفاضلة بين مكناس وبين الثلج والبحر لشحذ فكرة النقاء والقوة فهذا ما يشير الى الجنوح بالمكان الى أقصى ما يتصور من تمظهرات استعارية، من خلالها تنتعش مفاصل هذا المكان ويتصالب كيانه.

الى هذا الحد يكون الشاعر قد جعل من المدينة فضاء مغلقا ومتكوما داخل أسوار ممتدة ومتطاولة، والى هذا الحد أيضا يكون قد استنفذ تعبيره عن خصاص نفسي أحدثه انفلات المكان من شكله العتاقي ومن امتلائه الروحي، مثلما يكون قد شكل للمكان مواصفات حيويته. إذا كان قد فعل كل هذا فإنه سيجد نفسه مضطرا هذه المرة ليفتح لمكناس فجوة ضيقة في أحد اسوارها كيما تنسل من موتها المجازي وتنهض متوثبة غاضبة:

وما كنت أعلم أنك مثل القنابل لاكالسنابل

صارخة راعدة.

أو لتنخرط في انتمائها الوطني تؤازرها الانا الغنائية للشاعر، هذه الانا التي غدت مؤدلجة في نهاية المطاف، أي كونها غدت واعية بأن النضوب الذي أَلَمَّ بالمدينة ما هو الا جزء من نضوب تاريخي شامل ينتظم وطنا بكامله ومن هنا قوله:

أمامي يعكر عيني الوسن

ويجعل مني مشروع صاعقة في أكف الوطن.

أما بصدد نص الحجام فلا مشاحة من التذكير بأن مكناس كمكان،وكموضوعة شعرية لا تتلامح في النص إلا بقدر محدود، وحتى في إطار مواظفتها النسقية فاننا لا نعثر عليها سوى مرتين، الأولى عندما وردت في نهاية أحد الابيات، والثانية عندما تصدرت بيتا آخر. وكما كان الشأن في نص الزيتوني فان الحجام يقتصر هو بدوره على تعيين المدينة كمسمى لمرتين ولا يكلف نفسه عناء إشباع مؤشرية مكناس بعلامات معمارية وتاريخية وثقافية بمقدورها تنوير التموضعات المقامية التي اختارها الشاعر للمدينة من الوجهة الاستعارية.

والغالب أن ما يشفع لهذا الحضور المحتشم لمكناس في النص هو أن الحجام لجأ في تفضية Spacialisation مساحة نصه الى تفصيل مجال ثنائي يراكب حدين متقاطبين هما: باريس والوطن، وبين هذين الحدين تحضر مكناس فضاء مفصليا وظيفيا، أو بالأحرى علامة مؤدلجة. وعليه فإن التناوب الفاتر لاسم المدينة على بيتين شعريين لا غير لا ينتقص في شيء من اشتغالها الدلالي الذي امتد الى كافة أجزاء النص، اعتبارا الى أن ورودها الالماحي كاسم، وحيازة حقلها الدلالي لمقطع واحد من بين ثلاثة مقاطع لم يحولا دون رفدها لرؤية الشاعر الادانية لافرازات تاريخ وطني شامل. وإذن يلزم أن ننظر الى مكناس، بناء على التفضية التي رتبها الحجام، كمكون مكاني وعلاماتي مشروط بمكونين آخرين، أي كفضاء مفتوح على فضاءين اثنين، ومن ثم اختلاف هذه الهندسة عن تلك التي صدر عنها الزيتوني لما جعل من مكناس قصبة قروسطية معزولة عن مجال مرجعي أوسع، اللهم ما كان من تلك الانفتاحة المحدودة التي أدمجت عبرها المدينة في السياق الوطني الكلي.

وبخلاف السطوة التي كانت للأنا الغنائية في نص الزيتوني، فإن نص الحجام يتوكأ، وتحديدا في المقطع الذي استقلت به مكناس مبدئيا، على تقنية المحاورة أو الصوت المثنى ، الشيء الذي أتاح تصريفها، سواء كوحدة إسمية أو كتوليدات دلالية، من خلل التجاذب الكلامي بين الشاعر وصوت قد يظهر غائما،

ديميا في الأول لكنه سرعان ما يتخذ قسمات إنسان أرغمته المدينة، بل الوطن ككل على الرحيل الاضطراري إلى المهجر الفرنسي ليمارس استمراء ذاكرته، هويته في صفاء مرآة السين، ولكي يتملى انصعاقه التاريخي في عنف الآلة الاستغلالية والعنصرية في الغرب، وبهذا ترغم المدينة هي الأخرى على أن تهاجر، مؤالفة بين مذاقها العتاقي — الفردوسي وبين تضمنها الاديولوجي، إلى فضاء رمزي مضاد، مورطة معها مرجعها المكاني الذي هو المغرب لينحشر الكل في معمعان تمرية عنيفة وقاسية :

كما الارياح تحمل جرحها في قلبها وتطوف، تأتي من فجاج
الجدب للاوصاب، ثم تعود للاوصاب تحصدها، فتعرف أن وجهك
ليس منه على مرايا الماء من أثر، وتبحث في الدجى المسدود عن
باب وعن طرق، ولست سوى هشيم خم تحت رطوبة الشجر!

وبدءا من هذا المدخل الشعري يمكننا الوقوف على التموضع الانفصامي الذي حازته المدينة في النص برمته. إنها في هذا المقام جدب ويباب قبل أن يكسوها الحلم، كما سيأتي، بهالة جنائنية عمادها تناص مع نسق قرآني معين، غير ان هدا التموضع الانفصامي إن هو إلا جزء من انشطار أكبر يأخذ برقاب المجال الثنائي المومأ اليه سابقا، أي الوطن والمهجر الفرنسي. كذا يتمطى الشاعر تغريبة هذا الصوت — الانسان ليعكف على تعرية الواقعين الآيلين الى هذا المجال الثنائي، تعرية واقع يدفع بالكثيرين الى الرحيل الممض الى مختلف المهاجر الأروبية، وواقع تظهر انفصاميته العميقة في مراكبته لخطابه الحقوقي المثالي ولنوازعه في استغلال وتحقير الانسان المغاير، المحتاج، الذي يصبح ضحية حضوره المرغوب فيه اقتصاديا والمتحرز منه أخلاقيا:

متى يرتاح هذا المارد المضني Et interdit لكي تجتاح
موسمه السنابل عابقات ثمرا، يدخل مهرجان النور أسوار الدجى
aux arabes ومن نحن (سوى غرباء أفاقين)، من نحن!؟

وإذا كان التكثيف السردي هو ما طغى على النموذج الشعري الأول، فإننا نعاين في النموذج الراهن تَشَرُّبَهُ باللغة الفرنسية، وهو يشير إلى رغبة واعية في تهجين القول الشعري، وفي ضرب واحديته اللغوية، لأن هذا المسلك البنائي، جوهريا، هو نوع من الاستصداء الأسلوبي للوضع الهجين الذي انتهت إليه الذات المغتربة وذلك على جميع الأصعدة.

إن العنف الاقتصادي والاخلاقي الذي ووجهت به هذه الذات، هناك على ضفاف السين، هو الذي يفسر استدعاء مكناس كخلفية مكانية أولى لذلك المصير الاغترابي ريثما يؤسس القول الشعري خلفية مكانية ثانية هي الوطن:

سألتك عن مروج التين والزيتون
قلت: أنا مروج التين والزيتون ياقلبي بلا ثمر
سألتك عن زقاق الشوق في مكناس
قلت: مدينة وثنية تحتلها الابناك والجدران.

وعلى خلو هذا النموذج من التداخل اللغوي الذي استبد بالنموذج السالف، والذي اعتبرناه تهجينا

دالا، فهو يضمر، عبر جمله الشعرية الاربع، هجانة دلالية تماثل بنائيا التشكل الذي يمفصل مكناس حالات أو تمظهرات يولدها التذكر الطفولي، والحلم الواعي بوطأة التحولات التاريخية والاجتماعية التي طالت المدينة. فالشاعر وهو يرتهن، وظيفيا، بطاقة الحنين الآخذة بشغاف وجدان مواطنه المهاجر، قد احترس في التعامل معها ككمون انفعالي معزول عن شرطه التاريخي والاجتماعي. وفي تنحيته لبراءة وتلقائية الحنين الى مكناس قضي بأن تنضاف الخبرة الطفولية بالمكان إلى الخبرة الاديولجية به لتتبلور المدينة مجالا هجينا تتداخل صورته الطفولية (الفردوس) بصورته المؤدلجة (الابناك والجردان) بصورته المحلوم بها، موئلا للألفة، وللتوحد بالهوية الحقيقية، أو مكانا منسجما مع الماضي الطفولي اولا، ومنصفا لأبنائه من عوامل امحاقهم التاريخي والاجتماعي ثانيا.

بهذه الكيفية إذن نلقى مكناس في هذا النص، بحيث لا نلقاها فضاء أعزل بفضل أسواره، يتمرأى في ذاكرته التلادوية، بل نلقاها فضاء مرجعيا للتمزق الهوياتي الذي حياه ذلك الصوت — الانسان بعيدا عن مدينته، وفي نفس الوقت نجدها فضاء مختزلا لإواليات تاريخ وطني يستوعب مكناس ومدنا مغربية أخرى، وفي انفصامية هذا التاريخ تستقر انفصامية مكناس، كجسد معماري، وكذوات وحيوات وعلائق وتفاصيل. فالشرخ ليس شرخ مدينة لوحدها، وإنما هو شرخ شمولي يتجاوز مكناس، باعتبارها مكانا محدودا، ليتصل باختيارات وتوجهات تؤول الى فضاء تاريخي وطني يَعْتَلِقُ، استتباعيا، بالغرب وبهذا يستنكف الصوت — الانسان عن تلمس مأزقه الهجروي في فضاء مدينته ليولي وعيه شطر هذا الفضاء التاريخي الوطني بالذات، حتى يلملم شتات صورته الموصولة بانتزاعه القسري من مكانه الطفولي وبتسليعه استجلابا للعملة الصعبة:

تناءى المواطن النوري واقتربت صحاريه
وهو معانق ريحا تسير على لهيب الوهن والتيه.
يسميه الضباب المر جرحا نازفا
بين انبثاق جداول الاضواء والرغبه
وفي باب الجمارك
في سجلات التصاميم الثلاثية الرباعية الخماسيه
تسميه المنايا عملة صعبه...!

ضمن نص الزيتوني كنا بإزاء مكناس مغلقة ومنساقة الى موت مجازي، كنا بإزاء مكان ينسحب من القبضة الوجدانية للشاعر ويتنكر، بفعل تحولاته، لطعمه الحبوري اللذوي، أما في نص الحجام فان الامر يتعلق بمكناس مشرعة ومقذوف بها الى جغرافيا مترامية، الى فكي كماشة تاريخية. في النص الأول يستعار المكان جسدا محتضرا، في حين يتماثل نفس المكان، في النص الثاني، افرازا لسيرورة متعجلة وضاغطة، أو لنقل ركنا علاماتيا لمثلث علاماتي تحتضر بين أضلاعه الاجساد والنفسيات والقيم.

الهوامـــش

1. Gaston Bachelard: La poétique de l'espace. Ed. PUF, 1981. p.191

(2) نشرت قصيدة «الاسوار» بمجلة (البعث الثقافي) العدد الثاني، أكتوبر 1980، أما القصيدة «مرايا السين» فيتضمنها الملحق الثقافي لجريدة (الاتحاد الاشتراكي) ع 142، الأحد 10 غشت 1986.

3. Michael Riffaterre: Sémiotique de la poésie. Ed. du Seuil 1983, p.130.

4. Oswald Ducrot / Tzevetan Todorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Ed. du Seuil 1972. p.321

Pierre Loti devant Meknès : Récit de voyage ou récit de rêves ?

Guy DUGAS
Faculté des Lettres — Meknès

Le voyage que l'écrivain français Pierre Loti (1850-1923) fit à Fès et Meknès, au printemps 1889, dans la suite du Consul Pâtrenôtre, passe souvent — du fait du prestige de cet écrivain, alors au sommet de son art, et du succès que connut la relation qu'il en rapporta (1) — pour la «première révélation véritable et authentique du Maroc en littérature etla représentation la plus parfaite de l'Empire chérifien d'avant la colonisation» (2).

En réalité, après des siècles de fermeture et d'isolement, le Maroc avait déjà attiré avant Loti plusieurs artistes et hommes de lettres occidentaux. Il semble même qu'inquière des progrès des Allemands et des Anglais dans la découverte de ces terres, et désireuse de ne pas s'y laisser supplanter, la France ait entrepris dans le dernier quart du XIXe siècle une vaste opération de sensibilisation dans le dernier quart du XIXIe siècle une vaste opération de sensibilisation et de promotion, en associant quasi-systématiquement aux ambassades et Missions diplomatiques au Maroc quelque observateur ou touriste civil — artiste, journaliste ou littérateur de préférence — qui en ramènera invariablement de nouvelles descriptions ou impressions propres à familiariser le commun des Français avec cet Empire, jusqu'alors jugé étrange et lointain.

On peut ainsi citer parmi les prédécesseurs de Loti le docteur Bleicher et le peintre Benjamin Constant, qui participèrent tous deux à la Mission du Ministre plénipotentiaire Tissot à Meknès (3), puis en 1885 le géographe Henri Duveyrier et le journaliste Gabriel Charmes, qui prirent part à l'Ambassade du ministre Féraud à Fès (4).

L'image du Maroc donnée par de tels voyageurs est, à coup sûr, plus pittoresque, moins savante que celle qu'en avaient jusqu'alors donnée les spécialistes - donc plus «populaire». En ce sens, elle joua un rôle, sinon dans la pénétration coloniale elle-même, du moins dans son acceptation par le peuple français.

I. Pierre Loti au Maroc

C'est par Tanger (comme la plupart des expéditions européennes dans l'Empire chérifien) que débute, le 26 mars 1889, le voyage de Pierre Loti au Maroc:

«Elle est tout près de notre Europe, cette première ville marocaine, posée comme en vedette sur la pointe nord de l'Afrique.» (5)

Tout près, en effet, et pas uniquement par la distance géographique, mais également par les modes de vie, les communautés qui y résident, les langues qu'on y parle, etc. C'est ici que résident les légats des principales puissances européennes, au milieu d'une population fort cosmoplite. Semblant très judi-

cieusement annoncer le futur statut international de cette vile, Loti ajoute:

«Elle est très banalisée aujourd'hui, et le Sultan a pris le parti d'en faire le demi-abandon aux visiteurs étrangers, d'en détourner ses regards comme d'une ville infidèle» (p.1)

... Tanger ville infidèle, ville perdue, cité de la compromission... Tahar Ben Jelloun la traitera-t-il autrement dans **Harrouda** *?*

Mais passons sur ce séjour à Tanger; passons sur le voyage de Tanger à Fès (2 au 14 avril): l'Ambassade est de quinze personnes, précise Loti, dont sept officiers. Et également «quelqu'un qui a vécu longtemps auprès de Sa Majesté», que Loti nommera ensuite constamment «Docteur L**», et qui jouera un rôle important dans la suite du séjour à Fès (6).

Passons aussi rapidement sur le séjour dans cette ville (15-28 avril), non sans noter toutefois avec Abdeljelil Lahjomri combien il apparaît «dénué de toutes les préoccupations politiques qui ont guidé les prédècesseurs de Loti dans leurs découvertes» (7).

Et venons-en immédiatement à l'épisode meknassi (29-30 avril), puisque, pour rester fidèle au thème général de ce colloque, nous avons pris le parti de nous intéresser qu'à celui-là. Et soulignons avant tout la place non négligeable qu'il tient dans l'ensemble du récit: sur un séjour de plus d'un mois (26 mars — 4 mai) s'étalant sur 350 pages environ, cet épisode de moins de 48 heures en prend 45.

II/ Rêver Meknès

Au bout de dix jours à peine de séjour à Fès, Pierre Loti avoue sa lassitude. Il est de ceux que le banal et le déjà-vu ennuient prodigieusement. Et les vieux quartiers fassis, visités et revisités, ont déjà perdu tout attrait à ses yeux:

«Je n'ai presque plus envie de rien écrire, trouvant de plus en plus ordinaires les choses qui m'entourent». (p.238)

L'écrivain se tourne alors vers la cité voisine de Meknès (lui écrit «Mékinez» à l'ancienne) — «L'autre ville sainte encore plus délabrée et plus morte».

Que l'on note l'image a priori, en forme de comparaison implicite, que Loti se fait de cette ville. Car, bien évidemment, il n'en connaît rien encore. Renseignement fourni par l'un des officiers de la Mission? Lecture de précédentes relations de voyages (8)? Ou, plus certainement, constant préjugé de la part de Loti?

«L'art arabe est tellement mêlé pour moi à des idées de poussière et de mort!» (p.245)

Et c'est vrai que bien avant son séjour au Maroc — hérité de ses précédentes œuvres, notamment **Aziyadé**, et sans doute aussi d'influences qu'il y aurait lieu d'interroger — Loti semble s'être construit une fois pour toutes ce qu'il nomme au cours de ce voyage «un décor idéalement arabe» (p.349) (19), qu'il plaquera presque systématiquement, selon une «mise en scène» assez identique, sur ses descriptions de cet univers. Il existe donc pour lui-antérieur au Meknès réel — un Meknès rêvé, fait de cendres et de sables, de mort et délabrement.

Le but de cette intervention consitera donc à montrer en quoi la description

«sur le terrain» oscillera constamment entredeux isotopies sémantiques, la chose vue venant s'opposer à un constant retour de ces images préétablies. Comment, en somme, l'épisode meknassi de Au Maroc balance en permanence entre le récit de voyage et le récit de rêve.

III. Approche de Meknès

Le dimanche 28 avril 1889, abandonnant l'ambassade du ministre Pâtrenôtre aux «lenteurs politiques» et aux fastueuses réceptions de la Cour de Fès, Pierre Loti se met donc en route vers Meknès, «en petite caravane intime». Une journée de marche au milieu d'étendues désertes, dans des paysages d'une extrême sauvagerie, sans la moindre commodité pour circuler, car:

«Pas de route au Maroc, jamais, nulle part.» (p.16)

Et c'est déjà Meknès, d'abord entr'aperçue dans le lointain:

«Petite bande noîrâtre, les murailles sans doute, au-dessus de laquelle se hérissent, à peine visibles, minces comme des fils, les tours des mosquées». (p.287)

Première vision à volonté objective, très peu «marquée», dont on appréciera le style absolument dénotatif, l'imagerie pratiquement «géométrique» («petites bandes», «minces comme des fils»...)

Ce n'est pourtant qu'après une extraordinaire déambulation au cœur d'un réseau de «murs croulants», un voyage initiatique au jardin de la Mort, que la ville impériale va se laisser approcher:

«C'est la banlieue. Par une brêche, nous franchissons ces enceintes; alors nous sommes dans une région d'oliviers, plantés régulièrement en quinconce, sur un de ces sols d'herbe très fine et de mousse comme on n'en rencontre que dans les lieux depuis longtemps tranquilles, non foulés par les hommes; ces oliviers, du reste, sont à bout de sève, mourants, couverts d'une espèce de moisissure, de maladie de vieillesse, qui rend leur feuillage tout noir, comme s'il était enfumé. Et les enceintes se succèdent, toujours en ruines, enfermant ces mêmes fantômes d'arbres alignés en tous sens à perte de vue.

On dirait des séries de parcs abandonnés depuis des siècles, des promenades pour des morts» (p.288)

Descripton ou récit de rêve, dans lequel dominerait l'isotopie «mort et délabrement», venant confirmer l'image préétablie de cette ville? La séquence tient en réalité de l'une et de l'autre, dans une synthèse qui, ici, ne manque pas d'harmonie. Ainsi l'intégration du sème «mort», tout à fait absent du début de la description, se fait-elle par le biais d'un parallèle extra-descriptif (que marquent bien le pronom personnel indéfini et le présent intemporel), dont la seule finalité est d'introduire le syntagme «les lieux depuis longtemps tranquilles», périphrase qui, nous le verrons, nous conduire progressivement à «promenades pour des morts» (on note, ici encore, l'effet de réel produit par le déterminant «des» à la place de «les»), puis à «cimetières». La mise en facteur commun du syntagme suivant tend à renforcer encore cette parfaite intégration du vécu et du fantasmé; «non foulés par les hommes» se rapporte-t-il en effet à ces «lieux», ou bien aux «sols d'herbe très fine», renvoie-t-il au rêve ou à la vision?

Dès lors, par le biais de reprises anaphoriques progressivement «marquées», rêve et description vont s'amalgamer progressivement:

«lieux depuis longtemps tanquilles» ———————————— «promenades pour des morts»————————————— «cimetières».

«Oliviers plantés régulièrement»———— «Oliviers à bout de sève»——————— «Fantômes d'arbres».

Surprise cependant: ce groupe d'«écoliers en burnous d'éclatantes couleurs» — on notera l'opposition des couleurs ici énumérées avec les tonalités grises du rêve — qui profite de ce jour de grande fête pour faire dans ces jardins de banlieue une partie de campagne...

Cette scène enfantine qui rompt l'amalgame et redonne de la vie, l'écrivain la qualifiera successivmenet de «charmante» (niveau d'immédiate vision), «imprévue» (niveau de confrontation au rêve) et «mélancolique» (niveau de synthèse des deux). Du moins, malgré le glissement isotopique, la cohérence du discours est-elle ici préservé par l'alinéa et le consécutif «aussi». Cette synthèse, Loti parviendra-t-il à la maintenir? Entre le rêve qu'il s'en était offert et la vision qu'il va avoir de cette ville, parviendra-t-il à choisir?

IV/ La ville

Au terme de cette déambulation apparaît Meknès. Et voici, de plus près, une seconde description de la cité:

«Très haut, sur le ciel jauni, se profilent les lignes de remparts superposés, les innombrables terrasses, les minarets, les tours des mosquées, les formidables casbahs crénelées, et, au-dessus de plusieurs enceintes de forteresse, le toit en faïence verte du palais du Sultan. C'est encore plus imposant que Fez, et plus solennel. Mais ce n'est qu'un grand fantôme de ville, un amas de ruines et de décombres, où habitent à peine cinq ou six mille âmes». (p.290)

Description à nouveau très réaliste dans sa première partie, avec peu de qualifiants, encore moins d'appréciatifs — et qui reprend, pour les préciser, les divers éléments aperçus auparavant dans le lointain (les murailles, les tours des mosquées...) Série énumérative formant parfaitement tableau, aboutissant à cet «effet de liste» que Philippe Hamon considère comme «le trait fondamental du descriptif» (10).

Mais, en rupture complète avec l'isotopie réaliste ainsi mise en place, la dernière phrase nous renvoie au rêve préétabli.

Les deux isotopies sont ici construites de façon différente que dans la séquence précédente. Non plus en conjonction, mais au contraire sur une disjonction (on note l'opposition «C'est... mais ce n'est que...; le flou l'emportant à la fin sur le précis, le connotatif sur le dénotatif...) que rien n'annonce ni ne justifie. Aucun glissement harmonieux d'une isotopie à l'autre, mais un effet de rupture, de hiatus: paraphrasant Genette pour qui une anachronie narrative représente «toute forme de discordance entre les ordres temporels», j'aurais tendance à proposer ici le néologisme «anatopie» pour caractériser la discordance produite entre les deux ordres isotopiques.

V/ L'attente, le retard

De la vision fantasmatique à laquelle nous ramène ce passage, participe ensuite toute une mise en scène de l'attente et du retard, visant à maintenir dans le récit une part de rêve, confortant l'image préétablie de la «cité morte», et que celui-ci risquerait de perdre au contact de la réalité décrite. Cette mise en scène s'appuie sur deux procédés essentiels:

1) Le seuil.

Du Maroc d'une façon générale, Loti paraît toujours demeurer en dehors, «au seuil». Significativement, son récit de voyage s'ouvre et se clôt sur deux affirmations de ce type:

«Je ne suis ici qu'au seuil, à l'entrée profanée» (p.9)
«... le Maroc qui vient de se refermer». (p.356)

Il en va de même pour Meknès. Je ne reviendrai pas ici sur la déambulation dans le labyrinthe des jardins, et sa fonction «retardatrice». Mais je soulignerai en revanche combien Loti insiste bien davantage sur la clôture de la cité, et son enfermement («enceintes» (2 Occ), «murailles» (4 Occ), murs (4 Occ), «remparts» (8 Occ), «forteresse»...), que sur son ouverture et son hospitalité: l'entrée se fait plus par des «brêches» ou des «ogives» que par des «portes». D'ailleurs, la plupart du temps:

«...Aucune route ne mène à cette porte, cela va sans dire; personne n'y entre, personne n'en sort». (p.292)

«Bouchées en maçonnerie» ou au contraire «béantes sur la campagne noire» (p.292), ces entrées font peur plus qu'elles n'attirent (pp. 294 et 295).

2) Le récit d'attente.

Loti évoque ensuite l'installation du bivouac — «en dehors des murs, naturellement» — dans un terrain «nu et désert» qui, le soleil levé, s'avèrera être... un cimetière! (retour à l'isotopie «mort et délabrement»). Là, les voyageurs doivent attendre, pour faire leur entrée dans la ville, une autorisation — précieux «sésame», dit Loti (p.302) — apportée de Fès par courrier spécial. Et cet émissaire est en retard...

Le récit ne se fait alors plus qu'attente, vide de toute description, a fortiori de toute action, et surchargé au contraire de ces points de suspension si habituels au récit lotiste: il existe indéniablement chez cet écrivain une tentation du vide, que l'on retrouverait par exemple dans ses «récits de mer», et dont la fonction est de concurrences la volonté de description réaliste, afin de maintenir le récit quelque part du côté du rêve. Indicible par définition, cette sensation du vide conduit dans **Au Maroc** à toute une «rhétorique de l'incertain» dont nous aurons à reparler.

Et moi, lecteur, renvoyé dans cette attente (ce «suspense»?) au sein d'une «nuit doublement obscure», d'un Meknès bien vivant à un étrange cauchemar sur la rive d'un quelconque Achéron auquel ne manque aucun des éléments du surréel: ni la déambulation au cœur du marais, ni les bruits inexpliquables, «petits appel (s) de la mort» (p.295), ni les chacals, chouettes — tous ces «habitants à voix lugubre des cavernes (p.295). Et au-delà de l'immense ravin, cette farouche cité partant en poussière et où vivent (?) «cinq ou six mille âmes» (p.290).

VI/ La scène /le décor

Un relevé complet des sèmes «mort» et «délabrement» entre les pp.288 e 332 de **Au Maroc** (soit tout l'épisode meknassi) montrerait un très grand nombr d'occurrences jusqu'à la p.315, puis une brusque diminution.

A quel moment s'opère cette évolution sémantique? Au moment précis où après avoir visité en compagnie du Pacha le Meknès de Moulay Ismaïl et sor Aguedal, Loti et son compagnon de voyage décident de rendre au quartier juif une «visite promise» (12).

«Cela nous changera de toutes ces grandeurs mortes» (p.315)

Idée encore une fois toute faite, Loti ne connaissant rien du Mellah de Meknès au moment où il l'exprime. Une récente visite à celui de Fès (**Au Maroc**, pp. 266-268) aurait même dû le prémunir contre ce genre d'affirmation. Toujours est-il que tout au long de la dizaine de pages évoquant la visite du mellah, les deux sèmes précités disparaissent à peu près totalement.

Il me serait aisé de me lancer ici dans une explication de type idéologique, comme celle que Lahjomri avance dans sa thèse, et que je ne récuse d'ailleurs nullement (13). En la circonstance, il semble en effet évident que la communauté juive de Meknès est appréhendée par Loti avec plus de sympathie que les communautés musulmanes. Le jeune pacha, tout comme la ville arabe, n'a reçu ses visiteurs qu'au «seuil de sa porte» (p.301); les «amis juifs» viennent à leur rencontre et leur font les honneurs de leurs vastes demeures (pp.316-317). Et au moment du départ:

«Nous ne savons quels remerciements faire à ces aimables gens, que nous ne reverrons jamais nulle part et auxquels nous aimerions pourtant offrir à notre tour l'hospitalité, si par impossible ils venaient dans notre pays» (p.325).

Mais c'est au plan stylistique et sémiotique — donc intrinsèque au texte — que j'ai choisi d'analyser ce passage de **Au Maroc**. C'est donc sur ce plan-là que je demeurerai, pour avancer quelques hypothèses.

On a constaté combien la première impression morbide inspirée par Meknès disparaissait devant un tableau de jeunes filles en groupe. Quelques pages plus loin, une évocation du chant nocturne des sentinelles vient pareillement mettre fin au «rêve noir» né de l'emplacement du bivouac (pp.296-297). Idem, encore aux pp. 304-305, avec le retour dans un cadre différent de la troupe d'écoliers «qui continuent la fête d'hier». Et encore plus longuement, comme nous venons de le voir, entre les pages 315 et 324, qui concernent la visite du mellah, traitée plus comme une longue scène (repas de famille, déplacements sur les terrasses,...) que comme une description.

Ainsi, tout au long du séjour à Meknès, des scènes viennent-elles, par le rappel d'un vécu immédiat, reléguer au second plan le rêve préétabli. Non d'ailleurs sans contradictions (p.304, Loti affirme que le tableau des enfants «restera dans (ses yeux comme le plus oriental», alors que, de façon plus générique — nous l'avons vu — l'Orient ne cesse d'être pour lui symbole de mort!).

Sur un décorum préétabli qui convoque le rêve avant le réel, la scène vient quant à elle actualiser et animer, rétablir le singulier et le mouvement, et installer la figure à la place de l'anonymat des silhouettes. Il aurait été indéniablement difficile, et sansdoute maladroit, de tenter de maintenir tout au long du récit une même isotopie. Scènes et décor se font respectivement valoir; car n'est en fin de

compte qu'à travers l'évocation d'instants de vie que la permanence de la mort se peut ressentir dans toute sa force.

VII/ Quelques procédés stylistiques

Ce passage d'une vision vécue à une vision rêvée, ou encore comme nous venons de le voir de la scène au décor ne peut s'effectuer qu'à l'aide d'un certain nombre de procédés rhétoriques et stylistiques (d'ailleurs familiers à Pierre Loti) qui maintiennent la cohérence et la «lisibilité» de l'ensemble:

1) Une rhétorique de l'incertain (14):

Soit les syntagmes suivants:

«... qui semblent enfermer d'immenses parcs» (p.288)

«On dirait des séries de parcs abandonnés, des promenades pour des morts» (id°).

L'emploi — courant dans les descriptions lotistes — de tels verbes modalisateurs a pour effet de remettre en cause «l'effet de réel» sitôt énoncé. Effet renforcé, dans le second syntagme ici analysé, par le jeu de la juxtapositon:

... des parcs abandonnés (...), des promenades pour des morts»
A B

où, si le groupe nominal A ne fait que reprendre, en la précisant, l'image précédente « d'immenses parcs», le groupe B nous ramène au connoté et nous plonge dans le rêve, par un effet de «petite musique».

2) La «petite musique» de la mort.

Le rêve, on le sait, se satisfait de ce flou, de cette incertitude. Il s'y installe délibérement, alors que le descriptif, lui, appellerait une tout autre rhétorique. Deux discours largement divergents vont donc se superposer. Et pendant qu'une image vécue va s'élaborer ici et là comme nous l'avons vu — cas des bribes de description réaliste ou des scènes — le rêve perdurera comme une «petite musique», parfois claironnante, sourde le plus souvent, mais toujours perceptible. Ainsi la périphrase: «... des lieux depuis longtemps tranquilles» (p.288) est-elle successivement reprise au fil du récit sous la forme»... des promenades pour des morts» et «allées funèbres», avant de se synthétiser sous le terme exact de «cimetière». Cet ensemble métaphorique, patiemment filé, et alimenté de sèmes voisins ou complémentaires («fantômes», «cadavres», «poussière»...) chante tout au long des pages consacrées à Meknès cette «petite musique» de mort. Comme autant de variations sur un motif unique, les scènes ne viennent ensuite que se surimposer à ce décor, par un jeu de conjonctions, disjonctions, amalgames non dénué de certaines maladresses, comme ici p.290 où, à mon avis, le rêve interfère trop brutalement avec la réalité vécue, créant l'anatopie analysée supra.

VIII/Conclusion

On ignore souvent que les récits de voyage de Pierre Loti (mais aussi la plupart de ses romans («exotiques») ont été tirés d'un journal intime encore largement inédit — et ce avec de plus ou moins grandes modifications selon le cas. Une intéressante recherche pourrait donc naître de l'analyse patiente des variantes entre le Journal et ce qu'Eric Marty appelle (à propos d'André Gide) «l'écriture du jour» et celle, recomposée, des récits. S'agissant de **Au Maroc**, le récit ne connut ainsi pas moins de trois états successifs, puisque, issu d'un

journal intime fragmentaire et rapidement abandonné, (dont il conserve la structure chronologique et diarique) il parut d'abord en plusieurs feuilletons dans l'Illustration (du 24 août au 29 octobre 1889), avant d'être édité par Calmann-Lévy, avec préface, en 1890.

Une telle étude montrerait sans doute combien toute la vision que Loti a eu du monde arabo-musulman fut influencée par sa première expérience, dont fut tiré **Aziyadé**. Expérience de l'amour impossible et du deuil, qui ira rejaillissant, dans un jeu constant d'amalgames et d'approximations, sur l'ensemble du monde musulman et ses valeurs civilisationnelles, jugés comme de fatalité et de mort.

NOTES

(1) Pierre Loti : Au Maroc (Paris, Calmann-Lévy, 1890).

(2) Joseph Caillié: Pierre Loti au Maroc, in l'écho du Maroc, 15 avril 1952.

(3) Bleicher: Un voyage au Maroc (Paris, 1875) et Tissot: Itinéraire de Tanger à Rabat (Paris, Delagrave, 18767.

(4) Duveyrier Henri: Le chemin des Ambassades (Paris, soc. de Géographie, 1886) et Charmes Gabriel: Une Ambassade au Maroc (Paris, Calmenn-Lévy, 1887).

(5) Au Maroc, p.1 Nous indiquerons désormais la page en fin de citation. Tous les termes soulignés le sont par nous.

(6) Il s'agit du Docteur Fernand Linarès (1850-1937), arrivé au Maroc en 1878, un des premiers officiers de la Mission Militaire française auprès du Sultan Moulay Hassa, dont il devint en 1884 le Médecin personnel et qu'il accompagna ensuite dans toutes ses expéditions, dont celle du Tafilalt (1894). Quitta le Maroc en 1902. Cf. Deloncle Pierre: «Un pionnier bienfaisant de la France au Maroc», in la Vigie marocaine, 27 avril 1938.

(7) Abdeljelil Lahjomri: «Le suaire de l'Islam. Pierre Loti: Au Maroc», in l'image du Maroc dans la littérature Française (de Loti à Montherlant) (Alger, S.N.E.D., coll «Etudes et Documents», 1973, pp.106-123).

(8) Apprenons à nous garder de cette affirmation courante, entretenue à l'occasion par l'écrivain lui-même, selon laquelle Pierre Loti ne lisait rien. Au Maroc contient d'ailleurs plusieurs références de lectures, dont certaines fort savantes. Par ailleurs, il semblerait que l'écrivain soit entré en correspondance (mais avant ou après son voyage ?) avec plusieurs de ses prédécesseurs au Maroc.

(9) «Arabe» ou «musulman»? Depuis Aziyadé, roman de la rupture et du deuil, inspiré d'une idylle en pays musulman, mais non arabe — la Turquie — cet amalgame apparaît constant chez Loti.

(10) Philippe Hemon: Introduction à l'analyse du descriptif. (Paris, Hachette, 1981), p.66

(11) Pierre Loti soulignera dans un article à la vie féminine (7 déc. 1917) le caractère de «très sinistre présage» que revêtent pour lui ces animaux et leurs manifestations.

(12) Les voyageurs avaient été mis en relation avec les responsables de la Communauté juive de Meknès par «un de leurs coreligionnaires de Tanger, M. Benchimol» (p.294).
Haïm Benchimol, banquier et philanthrope juif, directeur du Réveil du Maroc, très proche du Ministre Féraud, facilita également le périple marocain de Charles de Foucauld. Mort vers 1906.

(13) A. Lahjomri, op.cit.

(14) J'emprunte cette expression à l'article d'Henri Scepi: «Rhétorique de l'incertain dans Pécheur d'Islande», in Revue Pierre Loti, VIIe année, n° 27, Juil-sept. 1986, pp.65-68.

المأثور الشعبي في كتب بن زيدان
العز والصولـة كنمـــوذج

الأستاذ محمد بنعبد الجليــل
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكنـــــاس

تحتوي المصادر التاريخية والادبية والجغرافية وكتب الفقه على الكثير من المأثور الشعبي من عادات وتقاليد واعراف. (1).

على ان الكثير من هذه الكتب لم تفهرس بعد فهرسة عملية واذا حصل ذلك وقليل ما هو فان الفهرسة كثيرا ما تغض الطرف عن هذه الماثورات باعتبار ورودها في صلب قضية من القضايا.

واذا كان الوقوف على مثل هذه الاعمال صعب فان ثمة صعوبة اخرى لا تقل اهمية عما سبق.

ذلك ان الكثير من هذه الماثورات المتناثرة هنا وهناك الموزعة في بطون هته المظان يعوزه الوصف الدقيق ليبرز في ذهننا واضحا جليا.

واذا اضفنا الى ما تقدم اعتماد بعض المؤلفين على الشائع المتداول المحفوظ في الذاكرة والصدور — من هذا الماثور الشعبي — فيستكنفون من تسجيله وتقييده فيضيع وتضيع معه مراسم مجتمع باكمله أو تكاذ.

لهذا سارعت كثير من الدول الى جمع ما يمكن ان يجمع وتدوينه بمختلف الاساليب (2) لكن الخزانة المغربية وهي تظم مجموعات ضخمة من النوازل والاحكام والفتاوى اهملت أو كادت هذا الضرب من الثقافة وهو ضرب يسد ثغرة ان تضافرت الجهود لذا اثرت ان تكون مداخلتي في ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى.

« المأثور الشعبي في كتب بن زيدان »
العز والصولة كنموذج

خصوصا وقد وقع في يدي ايام الدرس والطلب على مجموعة من الكتب والبحوث القيمة تناولت المجتمع العربي العباسي وما فيه من نظم وقوانين ومراسم واعراف ابرزت المجتمع على صورة مغايرة تماما لما تقدمه لنا صورة الادب الرسمي.

ويومه عرفت قيمة هذا التراث واصبحت آمل ان ينفتح امامنا مغلق الخزانات المغربية ودونه شوك القتاد.

وطبيعي ان تكون كتب بن زيدان ولا زالت من هذا الدون وهو الذي توغلت نشاطاته في عدة فروع لتشمل الفقه واللغة والتاريخ.

ولست بصدد تقديم عمل بيليوغرافي لاعمال ابن زيدان ولقد سبقت الى ذلك من طرف اساتذة اجلاء منهم من كتب بمناسبة الذكرى العشرينية لوفاته ومنهم من استلهم من اتجافة الحركات الجيشية ومنهم من اثار الى ما تزخر به خزانته من وثائق بلغ عددها 000 20 وثيقة ترجع الى فترات ومواضع مختلفة ومتنوعة (3).

لكني اود ان اذكر ان ابن زيدان الفقيه اللغوي الشاعر كان كذلك جماعة وهذا ما لم لقف عنه في حدود ما قرأت عن ابن زيدان فعددته من زمرة اصحاب الكشاكيل وعليه فكتبه عامة وخاصة كتاب العز والصولة يمكن اعتباره اهم مصدر اهتم فيه المؤلف بالحياة المجتمعية فحق تصنيفه من حيث القيمة التراثية التي يظمها في الدرجة الاولى بل انه اهم كتب ابن زيدان بما في ذلك الاتحاف من هنا كان مصدرا لاغنى عنه لدراسة الماثورات الشعبية التي توارت اليوم او كادت ومن هنا ايضا كانت مزية هذا المصدر الذي كاتبه ينحدر من بيئة لم تعرف الفصل بين ما هو ارستقراطي صرف وبين ما هو شعبي مجتمعي خالص فامتجزت التكهنات فصار الكتاب شاملا لكل غريب عجيب طريف وعبد الرحمن بن زيدان نفسه يشير الى هذا.

«فقد اخترته لغرابته وجدته وطرافته وجدارته بالبحث وهو موضوع مع شدة الحاجة اليه قد اغفله المؤرخون والكتاب...» (4)

ورغم هته الميزة وميزات اخر لم تمنع بعض الدارسين من ابداء بعض الملاحظات التي اتجهت صوب الشكل اكثر مما اتجهت صوب المضمون.

«وقد سلك المؤلف في ترتيب الكتابة طرقا ملتوية فلم يراع وحدة الموضوع ولا ما بين المواضيع من تناسب وتجانس كما انه لم يفرق بين نظم الدولة العامة وعادات القصر الخاصة بينما نجده يتحدث عن نظام البيعة واشغال السلطان ايام الاسبوع تجده يتحدث عن كيفية صناعة الخل وتقطير الزهور والورود بدار المخزن»

والمتامل الدارس بتوادة لمثل هته الملاحظات وجملة غيرها يدرك ان الاستاذ بلمنصور حين اثارها قد سهى ولا شك عن مدرسة لها نفس المنحى الذي كان المرحوم عبد الرحمن ابن زيدان ينتمي اليه.

مدرسة اصحاب الكشاكيل وابن زيدان منهم وغايتهم خدمة هدف ثقافي عام تحتل فيه الرغبة في الترفيه او الغرابة مكانة مرموقة.

من هناك كان اهتمام المرحوم عبد الرحمن فيما اظن بالموضوع دون الوحدة الموضوعية.

اضف الى ذلك الظروف التاريخية والثقافية التي كان المغرب آنذاك اي سنة 1933 يحياها فالاستعمار واقلامه كل يريد تشكيك المغاربة في تراثهم.

وتراثهم كان وقد لا يزال بين قبري ثرى واهمال.

وقد راع ابن زيدان موقف بعض الاغمار والاغرار الذين توهموا انه لم تكن للمغرب اصالة وحضارة فكان همه البحث والتنقيب حتى جمع الشيء الكثير.. من وثائق الدولة وظهائرها ودفاترها. «إلى أن اتسعت لي آفاق البحث واستبحر موضوعه وتشعبت مسائله واتسعت فروعه وتعددت أمامي الأبواب بتوارد المسائل...» المقدمة ص 4.

فلم يكن هم ابن زيدان الاختيار والتنسيق والتنظيم وظم كل جنس إلى جنسه لأن الجنسية علة الضم وإنما كان إظهار ما خفى ولو تكرر هذا الظهور.

هذا بالاضافة الى انه كانت له قدرة على توجيه هذه الركامات المعرفية لخدمة اغراضه لذا فان القارىء الباحث لن يصعب عليه التماس خيط من التنسيق فمن خلال الفترة والفصل الواحد في الكتاب ليؤكد ان الدولة قد عرفت ماثورا وحضارة من اقدم عهدها.

وليست هده هي الميزة الوحيدة للكاتب بل توجد ميزة اخرى شديدة الاتصال بالحقول اللغوية وهي يومئذ تعرف روجانا سيما في باب «اللهجات» لكن المؤسف ان بعض الذين درسوا اللهجة المكناسية قد أغفلوا هذا الحقل من مصادرهم تماما.

وختاما وان كان كتاب العز والصولة لم يسبق ابن زيدان الى موضوعة اذ هو كما نص على ذلك الاستاذ بلمنصور.

لا يطرق موضوعا من المواضيع التي طرقها في كتبه الاخرى او التي الف الكتابة فيها علماء المغرب في القرون الاخيرة فهو لا يؤرخ لملك ولا دولة ولا يترجم لفرد ولا طبقة ولا اسرة ولا يعرف بناحية ولا قرية بل هو وصف الانظمة والاعراف التي كان معمولا بها. مقدمة الناشر ص 5.

واننا لا نعدم امثلة لذلك في مكتبتنا المغربية ككتاب التراتيب الادارية للشيخ عبد الحي فهو وان لم يكن قد تعرض لانظمة الدولة المغربية قد تعرض لتراتب الدولة الاسلامية حكومة الرسول.

ومع ذلك نجد نمحات تذكرنا بالماثور المتداول حاليا في فاس مثلا غير ان الفرق بين الكتابين يتجلى:

أ ــ في اللغة اذ كل المورث التي في كتاب التراتيب الادارية بلغة عربية صرفة ولا غرابة بينما نجد صورا لهذا الماثور نقلت بلهجة مغربية واحيانا محلية.

ب ــ كان صاحب التراتيب يبحث عن اصول التراث في السنة.

ولم يكن كذلك صاحب العز والصولة الا لماما وبالمثال يتضح الحال.

قال الشيخ عبد الحي في تراتبه ج II ص

ترجم في الاصابة لفارعة بنت أبي أمامة الأنصارية، أنه لما كانت الليلة التي زفت فيها قال لهم النبي (ص):

آتيناكـــــم آتيناكــــــم فحيـــونا نحيـــــكم

وأخرج ابن الأثير عن عائشة قالت أهدينا يتيمة من الأنصار فلما رجعنا قال النبي (ص) :

ما قلتـــم قلنـــــا سلمنـــــا وانصرفنــــــا

قال النبي أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل الا قلت يا عائشة :

آتيناكـم آتيناكـم فحيـونا نحييكـم
لـولا الذهـب الاحمـر ما حلـت بواديكـم

قال المرحوم بن زيدان في عزه ج.1 ص. 167 عقب حديثه عن عيد الأضحى .

خرج السلطان لذبح نسكه بيده فيجد الجزارين واقفين في بزتهم الرسمية الافتة للانظار وبيد قائدهم السكين والمنديل فيناول الامر السكين ويقدم اليه الاضحية فيذبحها بيده اقتداء بخير الانام جده (ص) وتحمل حالا على دواب تكون مهيأة لحملها من اسرع الدواب سعيا وراء وصولها قبل سكون جثتها وسكون حركتها والقصد بذلك والله اعلم ان يحصل للحريم نصيب من المشاهدة التي امر بها (ص) بعض امهات المومنين في قوله قومي اشهدى اضحيتك.

وثمة ملاحظة وهي ان الاستاذ بلمنصور قد الزم الامانة التامة عند نشره للكتاب وان كانت بعض الخواطر قد نازعته فهم بحذف بعض الفصول لتفاهتها كما بدت له اولا (4).

ونحمد الله على انه لم يفعل فسلمت الفصول وسلم ماثور قد يستغربه كثير من شبابنا المعاصر التي لم يتمتع كما تمتع آبائنا واجدادنا.

بيوم عنه بعد التقطير. او التصبين او التقطاع او غير ذلك مما ساضبط الحديث عنه بعد عرض نصوصه كما هي في كتاب العز والصولة.

نظـام تقطيـر الزهر والورد

يقول المرحوم عبد الرحمن بن زيدان:

اذا كان زمن الربيع يوتى بما يكون بالجنات والرياض كل صباح ويدفع لعبيد الدار (الطواشين) فيسلمونه للعريفة.

فتجتمع عليه الاعيان من الاماء في محل خاص معد لذلك فيقطرنه ويجعلنه في قواريره ثم يجعل على أفواه تلك القوارير اغطيتها وتشد شدا محكما وتجعل في صناديق من عود او خشب.

وفي حالة مباشرة التقطير يمنع دخول اي احد لحمل المباشرة الا لهن يباشر عادة وابتداء العمل معهن.

وتجعل القطرات خلف ستر مسدل من كتان ابيض ثم توجه العريفة لجلالة... باكورة مما قطرته.
العز ص 65

التعليـق:

ء ان المرحوم بن زيدان ان لم يكن ليعاين كثيرا من المراسم المتعلقة بالماثور الشعبي لذا فان بعض الذ.مات كانت مختصرة وكتابته عنها كان مما علقه عن طريق الرواية ووعاه... وهكذا يتجلى:

— انه اغفل مراسيم القطف

— هل التقطير يكون مباشرة بعد تسليم العريفة للزهور للإماء؟ والعادة غير ذلك.

— لكن المهم في هته اللقطة (المحل الخاص) وحبذا لو سماه واغلب الظن انه كان يشغل جزء من الدويرية.

ــ لم يحدثنا عن مراسم ما قبل التقطير من تنظيف القوارير وتطبيبها (تبخيرها).
ــ لم يحدثنا عن نوعية القروارير فغالبا ما تكون من طين مجلوث او من زجاج داكن مطرب ــ قرعة ــ
ــ نلتمس عذرا لابن زيدان عن كل هذا ذلك أن المحل الذي يباشر فيه التقطير ممنوع من ولوجه ومن لم يكن مشتغلا فيه مخافة العين فلا تنجم عملية التقطير (ما تصخرش).
ــ جعل القطارات وراء ستر أبيض مبالغة في النظافة والتستير وهي عادة انعدمت اليوم.
ــ متى تجعل القوارير في صندوق عود او خشب لكثافته لمنع تسرب الاشعة فلا تبخر الرائحة.
ــ متى يرسل باكورة التقطير بمجرد الانتهاء ينتظر الوقت والعادة جرت بعدم اخراجه من البيت طيلة 40 يوما تلى التقطير.

ومع كل هته الملاحظات فان السبق يكون لابن زيدان في تسجيل عملية تقطير الورد.

نظـام صنع الخــل

يقول المرحوم بن زيدان:

كل عام كان يدخل للعريفة المكلفة بخزين ما يدخر من الاقوات عدد عديد من احمال العنب لصنع الخل فيصنع ويوضع بالخزين المعد. وكذلك زمن الزيتون والخليع ويوجه للجلالة من كل باكورة العام.

العز والصولة ص 66

ان الدارس لفقرات المأثور الشعبي في كتاب العز والصولة يذكر منذ الوهلة الاولى ان هته الفقرة من اصغر الفقرات حيزا قد اختصرت اختصارا مخلا ولعل هذا الاختصار كان الدواعي الاولي التي دفعت الاستاذ بلمنصور الى محاولة حذف هذا الفصل.

ــ ان ابن زيدان لم يحدثنا عن كيفية هاته الصناعة.

وعن أنواع الاعناب التي تستخدم فيها (بريكش) عن الأواني التي كان يحفظ فيها وغالبا ما تكون من الطين (زير مزدج).

وقد كان بن زيدان اشد اختصارا عند الحديث عن «عولة» تخزين الزيتون والخليع.

فلم يشر الى نوعية المتداولين الكحل الحامض ويخزنان طيلة العام كما انه لم يشر الى الليمون بوصرة والرنج.

اما النوع الثالث وهو موسمي يعرف (بمسلالة) ــ او المدقوق اما البزو فقل من يدخره انما يخلط مع الزيتون المعد لاستخراج الزيت.

وكذلك كان الامر عندما اشار الى الخليع.
فمن اي اللحوم كان يتخذ امن لحوم البقر او من لحوم الجمال.
ولا اي وقت من فصل الصيف كان يعتبر الوقت المحب لادخاره مع العلم ان اجود اوقاته ما كان مشماشيا.

نظـــام التقطـــاع

يقول المرحوم ابن زيدان:

العادة المقررة انه اذا استهل شهر شعبان تعلم العريفة جميع الشريفات ونساء القصر بانها عزمت على صنع التقطاع وانها تستدعيهن لذلك فيتوجهن للحمام ويغتسلن ويلبسن انقى ثيابهن وياتين للمحل المعد لذلك مشمرات حاسرات عن ادرعهن فيصطفن وتنشر الازر البيض من الكتان ويوزع عليهن العجين فيأخذين في التقطيع ويتمادين على ذلك كل يوم من الصباح الى العشى بضعة ايام يوم يقطعن التقطاع ويوم يقطعن الشعرية ثم يبخر ما صنع ويشمس... العز ص 66

التعليـــق:

يعرف التقطاع عند بعض الاسر بالفتيل وكثيرا ما كانت الاسر تفتل: الكسكس ــ المحمصة ــ الشعرية ــ الفداوش والادوات المعدة لذلك اضافة المواد الخام من دقيق القمح والسميد والسمن.

ــ مديونه اناء من دوم دائري الشكل صلب نوعما عمقه 5 ر 7 سنم له أذن يعلق منها.

بمقارنة نص التقطاع مع سابقه صناعة الخل يتضح ان ابن زيدان كان اكثر دقة في الوصف والحديث والسب واضح كما قد نلمس.

ذلك ان نظام العجين قد حضره بنفسه وشاهده فكملت الصورة اما صناعة الخل وخصوصا تقطير الورد فانه لم يحضره بل وصف له

نظام العقيقة وما يجري في بعض شهور الحمل

يقول المرحوم ابن زيدان:

اذا استهل الشهر 9 يفرش بيت الحامل الذي يعد لولادتها احسن فرش وتتخذ فيه السنور المزركة وتستعمل سائر الوسائل التي تقي من البرد وتجعل ما اعدته من العقاقير والادوية وجميع ما تحتاج اليه زمن النفاس حتى القصعة التي يغسل فيها المولود والسلة التي توضع فيها الخرق المحتاج اليها والفانوس والشمع والموس كل ذلك عند مؤخر الفراش الذي تلد عليه وتلازم القابلة المبيت عندها من يوم استهلال الشهر الى ان تضع حملها فاذا احست بالقلق بحضر المسنات من النساء يؤنسنها ويسلينها، فاذا اشتد بها الامر صرن يذكرن الله ويصلين على النبي (ص) ويدعين بادعية محفوظة لديهن.

فاذا وضعت الحمل ناولنها بعض المسخنات (5) والمقويات من ماكول ومشروب ويقلين الدقيق ويخلطنه بالسكر المنخول والسمن المداب ويوزعنه على سائر اقارب النفساء ومن اليها فاذا كان المولود ذكرا يذبح للنفساء مدة 40 يوما من يوم ولادتها او مدة اسبوع دجاجة او دجاجتان لتستعمل النفساء مرقها.

وان كان المولود انثى يذبح لها ديك او ديكان... العز والصولة ص 67

التعليـــق:

ــ وفر النص في بابه معلومات لم توفرها النصوص السابقة في بابها.

ـ كنا نامل من ابن زيدان ان يسجل تلك الادعية التي كانت المسنات من النساء ينشدنها لنقارن بها وبين ما هو موجود لحد الساعة عند بعض الاسر فمثلا عندما يشتد المخاص ويعسر الخلاص يردن بصوت عال.

هادي ساعة من ساعات الله
يحضر فيها النبي رسول الله

وعندما يطول الامر كن يلجئن الى مسجد الحي يستنجدن باطفاله ويزودونهم بازار ابيض وضعت داخله بيضة نيئه ويبدأ الطواف

انفسة طال بها النفاس
يارب واعطهـا الخـلاص
حرمة طه ويسن قرانـا عظيمـا

وكلما مر مركب الصبيان تساقط قطع النقود داخل الازار ويظل صبيان الكتاب في التطواف حتى يصلون إلى ضريح ولي المدينة فيلجأ إلى صحنه مرددين ويطوفون بالصحن 7 مرات وقد يصب 7 قباب على الازار.

وقد لا يعودون حتى تنكسر البيضة لانها اذا انكسرت يعني ان النفساء قد ولدت.

كنا نود ايضا ان يحدثنا عن بعض المسخنات التي كانت النفساء تحسينها مباشرة بعد الولادة.

وطبيعي ان تختلف هذه المسخنات من اسرة لاسرة ومن ناحية لاخرى ومن بيئة لبيئة.

فمن حيث اختلاف الأسر:

هناك من يقدم للنفساء كاس حليب قد مزج بمح (فص البيض) وقد يضاف الى هذا المزج شيء من حب الرشاد (الحرف) وبعد هذا بدقائق تقدم (المرق) التي كان اساسها الديك المذبوح ان كان المولود انثى او دجاجة ان كان المولود ذكرا.

وقد يختلف الامر لدى اسرة واخرى حيث يقدم للنفساء (رغيف من البيض) فتشترط فيه ان تكون نسبة الابازير مرتفعة.

وقد يعوض رغيف البيض ببيضتين تطبخان في زيت الزيتون.

وقد تقدم اسر اخرى (سويحيق) يعرف باسم الزميتة يهيأ من دقيق، الشعير المقلي.

ويطبخ الكل في زيت الزيتون بعد ان تضاف اليها كمية من الصحتر والعسل وان لم يوجد العسل أضيفت الرطب.

وقد يدخل في تهييء الزميتة الزبدة او السمن المذابة مع شيء من الكامون.

ويعتبر تقديم شيء من الزميتة للزائرات والوافدات من طلع اليمن وجلبا للفأل وأنقاء للعين بالنسبة للام ومولودها على السواء.

من حيث البيئة:

فبينما نجد ان اسر مكناس تعنى بالزميتة وقد نجد اسر فاس او الرباط مثلا تعني بالسفوف ـــ او سلو.

ويهيأ من دقيق القمح المطبوخ بالسمن او الزبدة مع خلط من اللوز المسحوق وحبوب البسباس والنافع والجنجلان.

ومن العادة التي كانت جارية عند النفساء ان تحعل المضغة الاولى بعد عركها بالاسنان على بشرة الوجه اعتقادا منها ان ذلك يعيد لها جمالها الذى انطفأ بآلام الحمل واتعابه.

ما كان يقال اثناء الوضع اضافة الى ما تقدم:

احتفظ لنا Brumot في كتابه القم نصوص عربية من الرباط ص. 121 بنصوص من تلك الادعيات:

باسيدي بوصخيــــــن
يا طير محنى اليديــــن
فكها سيدي في الحيــن
يا سيـدي بلعبــــاس
يا لعسـل في الكــاس
فك لي بنت النــــاس
واعـــطيها الخــــــلاص

احتفظ أيضا A.Chottin بنصوص قيمة نشرها ضمن بحثه الجيد فمجلة هسبريس ج 4 سنة 1924 ص 225 بعنوان اهازيج شعبية جمعت بفاس

ضرب بجناحك يا ملاك الله
غيث النفيسة يا رسول الله
اسيــدي بلعبـــــــاس
يــا مخلل النفـــــاس
يا ولـي اللـــه

يامولاي عبـد القـاذر
ضــــــرب جنــــــاحك
ياملايكة الرحمان فكوا النفيسة
يارسول الله
يارب يا رسول اللـــــه
فك النفيسة يا رسول اللـــه

ضرب بجناحك يا ملاك اللــه
فــك النفيسة
يا رسول اللـــه

نظـــام العقيقـــة

بعد ان حدثنا عن نظام العقيقة داخل القصر الملكي وكيفية الاستدعاء الى الوليمة والحفل الذي يكون ليلة العقيقة ختم فصله بفقرة لا تهم سكان القصر وحدهم بل هي عامة.

يقول المرحوم بن زيـدان:

فان كان يوم الاربعين تقام بداخل القصر حفلات لاغتسال النفساء وحلق راس المولود. وربما استدعى لذلك من استدعى لحضور العقيقة.
العز والصولة ص 68

التعليـــق:

نظـــام الختانـــــة

اذا بلغ الاطفال 6 ــ او 7 من عمرهم وقع الاحتفال بختانهم.
... فاذا كانت ليلة الختان اقيمت حفلة عظيمة لصبغ ايدي وارجل الصبيان الذين يراد اختتانهم بالحناء وفي الوقت المعين للشروع في الاختتان يحضر ذوو المهارة من الحجامين بباب القصر السعيد وقد احتف بهم الطبالون...

... ويؤتى بالاطفال محمولين على ظهور الاماء ويختار لذلك السود منهن ويقدم في الختان العبيد ثم الشرفاء... .

ويحملون بعد الختان على ظهور الاماء وتكون ظهورهن عارية من الثياب حتى لا يمس الجرح ثيابهن في حال الحمل ... اما الذين لا ينامون في القصر فان امناء الصاير السلطاني يدفعون لاهليهم ما يحتاجون اليه من لحم ودقيق وصلة لاقامة الافراح لاولادهم.

... فان تم الامر في يوم واحد فذاك والا فان العمل يستانف من الغد وهكذا الى ان يتم العدد الذي عين للختان.

وفي كل صباح ياتي الحجامون لاستعمال الدواء لكل مختن.

وياتي الطبالون واصحاب المزامير لمؤانستهم وتلهيتهم كذلك وعلى هذا يجري العمل كل يوم الى ان يبرأ الجرح وعند حصول البرأ يغتسلون ويكون في سائر تلك الايام مهرجان وافراح متوالية وبالاخص يوم الاغتسال ويستدعى النساء... فاذا تمت ايام الاحتفال توزع الصلات ... والشان ان يكون ذلك كل عام ولا يكون في الغالب الا بعاصمة من العواصم اما بمراكش او بمكناس... العز والصولة ص 73

التعليـــق:

رصد ابن زيدان اهم مظاهر الاحتفال وان كان ركز على احتفالات القصر الملكى التى قد لا تختلف عن الاحتفالات التي تقام خارجة الا من حيث الابهة وما يناسب عظمة الملك الا ان هناك من الاسر من لا تنتظر بلوغ الطفل 6 ــ7 من العمر بل يقع الختان دون ذلك.

تختلف عادة الاسر في مكان الختان فهناك من تفضل ان يظل الضبى في البيت ويقع الختان على العتبة.

وهناك من تتيمن بتوجيهه الى الضريح الحامي للمدينة او ضريح صاحب الحرفة.

تختلف عادة الاسر ايضا في الاخبار بالختان فهناك من تكتم السر عن الوالدين مطلقا ولا يعلما بذلك الا ادا كان امام الامر الواقع (السرقة)

وهناك من تكتم السر على واحد من الابوين فقط الاب في اغلب الاحيان ورغم كون الفصل امور معلومات عن سابقه وان هذه المعلومات اتكات على المشاهدة فان ابن زيدان قد اغفل ــ وله بعد هذا تليا في الكتاب ــ الحديث عن كيفية حلاقة المختون ــ العرف أو التفرة).

عن تخظيب الايدي والارجل بالحناء (بالزواق او المغاطس) وغالبا ما تكون المغاطس، اغفل كذلك الحديث عن الكموسة التي تشد كالخلخال في الرجل اليمنى وقد يكون بها شيئا من العشب والحرمل محفوظة في خرقة خضراء يانعة.

لم يسجل تلك الاهازيج التي كان تقال للمختــون

نظـــام تعليـــم الابناء

لم يتطرق العلامة ابن زيدان في كتاب العز والصولة الى نماذج من الحفلات ولقد احال على كتابيه النهضة العلمية.

لكنه اشار قريب الانتهاء من هذا الفصل اشارة فيها ملامح للماثور الشعبي اذ قال:

وقد فتحت القرآن الكريم ايام السلطان المقدس مولاي الحسن بذهيت لجلالته بلوحى اطلب من علاوة الختمة وكان الوحي مكتوبا بخط مؤدبي من جهته...» العز والصولة ص 75ــ76

التعليـــق:

لا تخلو هذه الاسطر من اشراقة ومتعة وفوائداولها مدى اهتمام المغاربة بتحفيظ القرآن عملا بقوله (ص) «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وما حصل الختمة المشار اليه.

والختمة عبارة عن ختمـــات.

أ ــ ختمة السور القصار من الرحمن الى سورة الاخلاص ويطلق عليها اسم جابيوه.

لان اطفال الكتاب عندما يصل زميل لهم الى هذه الدرجة يحملونه ويقصدون به منزله وهم يترنمون

جابيوه جابيــوه
يا سعد يماه وبـــوه
يا سعد الفقيه للقراه
يا سعد اللوحة المزوقـة
فاين نحطوه....
في حجر يماه وبوه

يابركة النبي — علم هذا الصبي
يا بركة الرسول — علم هذا الرجال

وقد ختم الطفل لهذا الجزأ يصبح محضريا.
ثم يكون جابيوه الثاني عندما يصل الطفلا الى سورة .. قال الم أقل لكم.
وعندما يستكمل الختمة وذلك يحفظ القرآن كله والسور الطوال وبالاخص البقرة يقام له حفل ضخم شيق يعرف بحبينا (حفل التخرج)
ولهذا الحفل مراسيم متعددة.
ينطلق زملاء الطفل من الكتاب حاملين لوح صديقهم يتقدمهم الفقيه وهم يترنمون
اللهم صل على المصطفــى
حبيبنا محمد عليه الســـلام
ولعل هذا هو سبب تسمية هذا الحفل باسم حبيبنا.
وعند وصولهم الى منزل صديقهم

حنا لله قاصديــن
نمشو على القـــدم
وانتم يا اهل الوفـــا
بالجود والكـــــرم
يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنـــا
واجعل منا جمعنا في الجنة النعم
يا رب لا تعذب حمالة القرآن
واجعلهم كالنجم يضوو على العباد
وقد يحلو لهم اطـــراء الفقيه
سيد الفقيه
في الجنـــة
ووليداتو قدامو
الرواية التي اختبط بها

حبيبنا حبنـــا مولاي محمد
النصر من الله والفرح من الله
يا من فليه حاجة خير تقضيها له يا اللـــه

نظـــام الاعراس

يقول المرحوم ابن زيدان:

عندما يصل البنين والبنات موصل الرجال والنساء يقدم بذلك ديوان للملك الذي يكون قد عين من قبل عدد الزيجات.

اذا حان الوقت الذي عين الملك للاحتفالات ياتي من يهمهم الامر الى القصر.

— يدخل النساء القصر، والرجال يذهب بهم الى الاماكن المعدة.

— ايام الوليمة لا تقل عن 7 ايام.

ليلة الزفاف يؤتى بالخيل المطهمة مسرجة لكي يحتفل بعرسهم.

تحضر الموسيقى أصحاب المزامير والطبول وفرسان الجيش والقبائل وغيرهم.

كل عروس تحمله وزيره المعين لمقابلته على ظهره الى ان يصل به الفرس المعد لركوبه فيركبه غير متمنطق وملتفقا بإزار لابسا عليه برنسا ابيض او اخضر غالبا مسدولا على وجهه غطاء راسه من برنسه.

يأخذ بزمام فرس كل عروس من يعين لذلك من اصحاب الازوى واحد على اليمين وواحد على الشمال يروحان بمنديل اخضر غالبا.

يمرون على ساقية او مجرى ماء او زيارة ضريح من مشاهر اضرحة الصالحين.

ثم يقفون بالمشور والطبول تضرب والمزامير تنفخ فاذا كان الغروب رجعت تلك الهيئة المنظمة ابدع نظام الى المحل الذي خرج منه الاعراس. فاذا وصلوا اليه جاء لكل عروس وزيره واركبه على ظهره واوصله الى محل جلوسه.

فاذا مليت العشاء اتى بالعروس في موكب فاخر يعد لهم برحاب القصر ويجلسون على المنصة ويحضر العمال والولاة والموظفون واعيان الجيوش وذوو الحيثيات والعسكر والموسيقى وتخرج اواني الحناء من القصور فيجعل لكل عروس منها شيء في يده.

وتوضع مائدة من صفر غالبا توضع فيها الهدايا التي يتبرع بها العمال والموظفون.

فاذا تم الحفل يؤتى بالعدول والقاضي والازواج والزوجات واوليائهن او وكلائهن من الحاجب او نائبه فيقع العقد. يحضر امين الصائر المعين لصداق كل ما تبرعت به الجلالة ثم يذهب بكل للمحل المعد لزفافه.

يجلس العروس بالمحل فاذا بقي للصبح ساعة جاء المكلفون بالرجال والمكلفات بالنساء ليصحب كل من كلف به للمحل المعد له.

وفي عصر كل يوم توضع كراسي للمتزوجات يجلس عليها في افخر زينة والمغنيات والمطربات بدفدفن ويغنين امامهن الى ان تصلى المغرب ويخرجن لازواجهن. وعلى هذا يستمر الحفل 7 ايام ربما امتد 40 يوما.

وفي اليوم 7 يتمنطق الرجال والنساء ويعقدون ازرار ملابسهم اذ العادة انهم لا يعقدونها من يوم الزفاف الى اليوم 7 ويسمى ذلك اليوم بيوم الحزام. العز والصولة ص 92
بتصرف

التعليـــق:

الحديث عن بضع الصلات التي تخص بعض الرعايا

يقـول ابن زيـــدان:

وفي باقي الأيام كانت توزع على من بالباب العالي اقداح لحريرة صباحا والكسكس بعد الزوال من الكشينة المسماة باسيران ويزاد لكل شويدري من الشويدريات وهم اطفال الجيش الذين لم ينخرطوا في سلك الجندية لصغرهم خبزتان مياونة ويزاد في اربعين يوما من الليالي البيضارة الفول المطبوخ بغير قشرة (المهري) ويصب عليها شيء من الزيت والكمون ويفرق ذلك على من ذكر وغيرهم من ياتي فرق الجند.

ولم يزل العمل بذلك محكما من لدى عصر الدولة الرشيدية الى آخر الدولة العزيزية.

العز والصولة ص 49

الاحـتفـــالات

أ ـــ نزهة شعبانـة (7)

لا تكون الا في العشر الاواخر من شعبان...

وجرت العادة المخزنية باصدار الأمر المولوي للصدر الاعظم باستدعاء الوزراء ... وغيرهم من العمال والباشوات.

الحاجب : يقوم باستدعاء الاسرة الملكية.

الباشا : الاعيان والكبراء

القاضي : العلماء والعدول والفقهاء

المتحسب : التجار والصناع واصحاب الحرف المختلفة.

التعليـــق:

من خلال هته اللقطة يتضح الضبط المحكم التي كانت عليه الدولة المغربية فكل جنس موكل الى جنسه والجنسية علة الضم كما يقال.

ويتوخى من هذا الضبط التحري اولا واشراك كافة الشعب على مختلف طبقاته وحيتياته في النزهة التي غالبا ما تقام في عرصات القصر او اجنته كما يتضح من نموذج من نماذج الاستدعاء.

وبعد فان سيدنا ايده الله قد انعم على عادته الكريمة بجعل النزهة الشعبانية لمن عهد حضورها من اقارب سيدنا... جاعلا دام علاه ابتداءها من غد التاريخ الذي هو يوم الثلاثاء بجنان العافية.

وعليه فلتحضر بكرة عنده بالمحل المذكور بحيث يجدك الشروق تمة.

26 شعبان الابرك 1311

احمد بن موسى

مراسم الحفـــل:

تمد اسمطة الطعام الاتاي ــ انواع الحلويات التطيب ... التفكه بكل شيء الطرب والموسيقى.

يمتد الاحتفال 7 ايام يختتم عند رؤية الهلال

التعليـــق:

لم يحدد انواع الطعام.

كما انه لم يحدد انواع الحلويات والفواكه.

ويحكى ان احد الظرفاء المكناسي من الموسيقيين حاول ان يطرب الناس عيشه فاختيار بعض الطبوع من موسيقى الالة التي لا تنشد الا في الصباح فحجتها وانسجام موسيقاها وايقاعها وكلماتها مع الظرف الزمني ما وفق وضرب به المثلا.

القضية عكسية العشاق في العشية.

وان كان ابن زيدان قد اغفل الحديث عن التفكه «شعبانة» فان صاحب المختصر في احوال الافاريد قد اتى بذلك اذ قال:

سن لمديني وان بسلف ورهن اواخر شعبان بصحو نزاهه وهي الشعبانية وتحصل بخروجه جل النهار وبجمع وطبخ وان بوليمة اوعقيقة او ختمة او خروج دم والا فنزاهة فقط كفيل العشرين يعطى كل او بعض ولا يكلف الام

وصدروا لجمعها الاكثر وانفة عارفا وعمل برأي الجل واسترى المحتاج اليه من الحلط كاحرة الاليين وخرجوا مستعدين وقدموا لاضياف في الاكل وما فضل تخاصوه كأن بغتهم رمضان وندب اتصالها به ولباىء وتكثير لعب ومزاح يخلع العذار وحضره عشية كالكرة وتصدر عارف للطبخ وان يجعل.

واتخاذ قاض وخطيب ومدرس هدره وجاؤه غيره ان ابي كتشبه بدوى الحرف المنكرة ومع غير كثلت وعدم البيان وخلط المدار واجرة لفداو ومضحك بحرف الخنطفرة.... وطرد الزمار بلا شتم... وكل يخرج لما اعتاده.

الاحتفـال بقراءة صحيح البخـاري

قال العلامة بن زيدان:

اذا استهل شهر رجب افتتحت قراءة وسرد صحيح البخاري بعد تعيين عليه العلماء وجهابذتهم.

وجرت العادة أن تكون رياسة المجلس لقاضي مكناس.

ينقسم العلماء الذين تم استدعاءهم الى قسمين:

أ ــ قسم للسرد

ب ــ قسم للتقريـر

وجرت العادة ان السلطان اذا شاء المذاكرة طوى الكتاب فيشرع شيخ المجلس في التقرير فان سلم له عاد السلطان وفتح ما لديه وتمادى السراد على السرد والاناقشه غيره وابدى ما لديه وهكذا الى ان يتضح الامر ويرتفع كل اشكال وربما ارجى تقرير المسألة ان تفرعت ذيولها الى الغد.

التعليـــق:

حبذا لو أستلت تلك المناظرات العلمية من بعض الكتب التي لا يلجأ اليها الا ذوي الاختصاص وطبعت على حدة لنرى النموذج من النماذج الفكرية.

الاحتفـال بعيد المـــولد

يقول ابن زيدان:

ـ جرت العادة ان تقام حفلات ليلة عيد المولد وستة ايام بعد.

ـ يستدعى عليه القوم من كل الاصقاع.

ـ اذا صليت العشاء يخرج خليفة قائد المشور واعوانه لاستقبال المدعوين.

يجلس السلطان صدر المجلس يسار المحراب القضاة عن يمينه.

ابناءه وعشرته الاقربين عن يساره.

امامه المسمعون... وباقي المدعوين

توضع امام الملك ثريا موقدة بالشمع المصفى من العسل

بين يديه منجانه ياخذ سفرا مما يقرأ

يشرع في تلاوة الامداح

تقرأ البردة والهمزية يبدأ بالبردة يتخللهما الالحان والتوشحات.

البخور الحاجب هو المكلف

اذا انتهى المتشدون الى قولهم.

الامان الامان الا فؤادي من ذنوب اليثهن بهاء

يكرر 3 او 4 مرات

يخرج السلطان يستريح كل فريق من المدعوين

المكان الخاص لجنسه

قبل الفجر بساعة يعود كل الى مجلسه يستهل المسمعون ثم يختم بقصائد.

يصلي الفجر يفتتح السلطان قراءة الحزب يعود الى القصر يتهيء لاستقبال الوفود ... يبدأ باعلام شراكه.

بعد صلاة العيد يستقبل الوزراء وضباط الجيش عند القصر يؤم العلماء والشرفاء والاعيان القصر لتقديم التهنئة... يوزع الهبات.

أكلـة العيـــد:

يطبخ السميد يوضع عليه السمن والعســل.

التعليـــق:

أهمية هذا النص تكمن في وصف تنظيم الاحتفال وبروتوكولاته انطلاقا من المدعوين وجلوسهم في الاماكن المخصصة لهم الى جلوس السلطان صدر المجلس عن يسار المحراب يجب الانتباه الى قوله يسار ذلك

ان العادة ونظام الاحتفال بيوم 27 من رمضان يقتضي ان يغير نظام الجلوس ذلك ان السلطان يجلس عن يمين المحراب لم؟ ذلك ما اغفله ابن زيدان واغفلته المضان التى عدت اليها.
لم يتعرض للاحتفالات التي تقيمها الطوائف اشار اشارة طفيفة الى اكلة العيد المشهورة بالعصيدة وقد حشا الاستاذ عبد الوهاب بلمنصور عن هذه الاكلة وخصها غيره بمدينة فاس متسائلا.

اهل فاس هم سادة الناس طرا وعيون الورى وبيت القصيدة
ليث شعري يا سيدي لم خصوا مولد المصطفى باكل العصيدة

وفي حين ان مولد المصطفي لم يخصص باكل العصيدة وحدها يلزم لغداء يوم العيد ـــ الدجاج بالمدربل وهو طعام لا يؤكل الا ذلك اليوم.

نظـم خـاصـــة:

نظم خروج الملك للصـــلاة

يقتضي خروج الملك للصلاة او لزيارة بعض اضرحة الصالحين او للسفر نظما معينة تكون في مجموعها ماثورا رائعا:

خروج الملك للصـــلاة

يكون على صهوة فرسه يتقدمه اصحاب الاروى وهم على نوعين شطايه وعوامون وكلهم ياتمرون بامر قائد الاروى

ومعروف ان الروى قسمان

الروى صغار واشهرها روى مزيل ويبدو ان العامة قد استغلت هذا التركيب لتقله فقال رومزين بعد ان غيرت الام نونا وكثيرا ما يقع هذا في ادارجة وهذا الحفل جديرا باصحاب اللسانيات ولا تربي في هذه الروى الا الخيول التي تهدي.

الروى كبار وفيها خيول الجيش...

ويقوم قائد الروى صحبة الوفود

ويامر بتهيء 6 خيول تعرف بخيول القادة يسوقها العوامون يشترط فيها ان تكون معروفة الاصل.

ثم ياتي في الصف العبيد المعروفون بالمراريق فالموشوريه ولابد ان يمسك كل واحد منهم بيده اليمنى عصا.

ثم ياتي خلف الجلالة اصحاب المكاحل يكون الحاجب خلفهم راكبا فرسا او بغلة ان كان المسجد بعيدا.

فاصحاب الفراش والسجادة راجلين

فالعربة فالوزراء

أما اذا كان خروج الجلالة لزيارة الصالحين فيقتصر من (خيل القادة) على 3 فقط الا اذا كانت المزارات بعيدة كمولي ادريس زرهون. او ابو زكرياء الصبان فيزداد فرس 4.

العز والصولة بتصرف ص 49 وما بعدها

نظـــام العطـــل

العطل اسبوعية او موسمية

والموسمية مثل:

عطلة عيد الفطر من 20 رمضان لتنتهي 7 شوال
عطلة عيد الاضحى فاتح ذي الحجة لتنتهي 17 منه
عطلة عيد المولد من فاتح ربيع الاول لتنتهي 10 منه
عطلة شعبانة في الثالثة الايام الاخيرة منه
عطلة عيد عاشوراء من 10 الى 13

أما الاسبـــوعية:

فلقد قسمت ايام الاسبوع الى:

يوم السبت: يخصص للصيد والرياضة تحدد المنطقة بحشد المصيد يحضر في الجهة المعينة الصيادون الماذون لهم مع كلابهم او البزاة.

يضرب خباء خاص للملك يعرف بالسوان لا يضرب في وقت غير هذا من لوازمه كرسي زربية اريكة كبيرة من الجلد.

يقف بجانبه اصحاب الوضوء والفراش مصفين عن يمين وشمال.

يوم الاحد والثلاثاء: لسماع المظالم تقدم جريدة باسماء اصحاب الشكايات فيطفون بنظام على مقتضي ترتبهم بالجريدة.

يوم الاثنين: التمرينات العسكرية

يوم الاربعاء: لاستعراض الجيش (قواد الرمي قائد الرمي 000 1 نسمة).

يوم الخميس: يخصص لترويح النفس في البساتين السلطانية يركب المربح الخيل والبغال وهي عادة مورثة من عهد الدولة الاسماعيلية الى الحفيظية.

اثناء النزهة نزهة الخميس يباشر ما لابد منه لانكاد نجد بستانا من بساتين النزهة الا وفيه مسجد للصلاة وميقاتون حتى لا يفوت الامير اداء الفرائض.

العز والصولة ص 56

الهوامـــش

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر وصف افريقيا لابن الوزان مختصر الافاريد مجهول.

(2) انظر على سبيل المثال ما قامت به مجلة التراث الشعبي العراقية الماثور الشعبي عند ابن حيان الماثور الشعبي في كتب الحفاظ

(3) ينظر عبد الرحمن بن زيدان مؤرخ مكناس للعلامة محمد المنوني دعوة الحق 66 عدد بمناسبة 20 سنة على وفاته.

ينظر بحث في مسالة الوثائق المغربية حباس هسبريس بحث لاستاذ السناسي مجلة كلية الاداب الرباط.

(4) لم يكن ابن المنصور هو الوحيد الدي خالجته فكرة الحدف والنشديث والتصرف فلقد فعل هذا بطبقات من الف ليلة وليلة حتى ابتسر وشوهت وحاول عداد محقق الديار التصرف لكنه انصرف عن الفكرة.

(5) انظر بحثي المنشورين بمجلة هسبريس

الجزء الاول 1923 الفصلة الثانية

الجزء الثاني 1924 الفصلة الثانية ص 225

(6) قارن بين ما نشره وبين ما نشره بن زيدان

(7) قارن بين حديث بن زيدان المختصر عن نزهة شعبانة وحديث صاحب المختصر في احوال الافاريد وقد خص ذاك الرماد وكيفه صبحها في القرن 1هـ.

(8) اختلاف بين ناشر الكتاب الاستاذ بلمنصور و في تحديد المقدار التي يحتفل به ويقام له جاييوه.

بينما حدد الاستاذ بلمنصور في السور القصار نرى ان يحدده طبعا لما لاحظه 24—1923 في سورتين من القرآن: — الاخلاص.

وصف مكنـــاس
في شعـر الملحـــون

الأستاذ أمين العلوي الديبي
ثانوية النهضـة
مكنـــاس

شاد الكثير من الشعراء بحاضرة مكناس، فامتدحوها ووصفوها وصفا ينم عن تعلقهم واعجابهم بما تمتاز به عن غيرها من الحواضر، وقد خصص المؤرخ ابن زيدان في الجزء الاول من الاتحاف (1) حيزا للاشعار المعربة والنصوص النثرية التي قيلت فيها قديما وحديثا.

وسأتناول في هذا العرض وصف مكناس في شعر الملحون لما لهذه الحاضرة من أهمية استأثرت كذلك باهتمام العديد من شعراء هذا اللون من الادب الشعبي انطلاقا من نماذج لمجموعة ممن وصفوا طبيعتها ومعالمها التاريخية والعمرانية مراعيا في ذلك ترتيب القصائد التي وصلت اليها اليد حسب تاريخ نظمها منذ القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي الى الآن.

النموذج الاول:

لابي عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني (2)، من شعراء الفصيح والملحون، الوافدين على مكناس، والذين مدحوا السلطان المولى اسماعيل، وقد توفي هذا الاديب بقصر الرتب باقليم الرشيدية.

وهو من قصيدة (3) مدح فيها مكناس ووصف مباني وحدائق القصبة الاسماعيلية عام 1089 هـ — 1678 م. فافتتن بحدائق «وجه عروس» الواقعة خارج باب الخميس وبنضارة اخضرارها وبهجة أنوارها، واعجب برياض «المشتهى» المجاور للاصطبل (قصر الاروى) وهو بستان فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب عجيب ويعرف اليوم باسم: «الزيتون» صار هذا الاسم علما له بالغلبة (4)، وأحب مياه مكناس العذبة وانتعش بهوائها الطيب، فأنشد يقول:

خَلِّينِي افْغَرْبْنَـــا مَنْ كُلِّ اعْــرُوسْ   وَجْه اعْرُوس ازْكَى لَعْرَايَسْ وَاشْهَاهَـا
وَاثْرَكْنِي بْمَا اشْتْهَاتْ كُلّْ انْفُـــوسْ   الـعَيْنْ مَن الْمْشْتَهَى الحُسْنْ ادّْعَاهَـــا
تْحْسَبْ الرَّاحَة اعْلَى مَكْنَاس احْبُوسْ   ما يَنْـزَلْ ضِيـقْ لْحْوَاضَرْ مَغْنَاهَـــا
احْكَمْتْهَا افْكَوْثَرْمَاهَاوهْوَاهَـــا

وسنجد كل الشعراء الذين وصفوا مكناس في شعر الملحون يمدحون ماءها وهواءها، على غرار شعراء المغرب كقول ابن عبدون:

يَكْفِيكَ مِنْ مَكْنَاسَةَ أَرْجَاؤُهَا والأَطْيَبَانِ هَوَاؤُهَا وَالْمَاءُ

وذلك لاحتوائها على ماء وادي ابي فكران (الَمَا لَحْلُو) الذي يعرف بوادي فلفل أو ابي العمائر، وبأسامي متعددة بحسب الأمكنة المار فيها، منها بوفكران ومنها عين معروف ومنها دردورة (5).

ويذكر الضعيف في تاريخه (6) أنه في سنة 1150 هـ استولى الخراب على مدينة مكناسة وخرب منها وجه العروس بأسره، وكان به من المساجد خمسة وسبعين مسجدا — والبقاء لله وحده —

النموذج الثاني:

للامير الشاعر زيدان بن السلطان المولى اسماعيل، ترجم له حفيده المؤرخ ابن زيدان (7) وذكر بأنه استخلفه والده على مكناس وفاس وتارودانت المتوفى بها عام 1119هـ ودفن بمكناس، ووقع في تاريخ وفاته اختلاف، وأتى المترجم ببعض من شعره المعرب دون الاشارة الى شعره الملحون ...

وهو من القصيدة (8) التي يتشوق فيها لمكناس عام 1104 هـ — 1692 — 1693 م، ويحن الى قصره الذي يحمل اسمه الى اليوم بدار الخلافة المعروفة بالدار الكبرى، وهي تتكون من عدة قصور في حي سيدي النجار، وما زالت تحمل اسماءها القديمة أمثال: زنقة قصر مولاي زيدان، وزنقة قصر الشعشاع، وزنقة قصر الكشاشين وزنقة قصر للاباني وغيرها (9).

ثم يشتاق الى باب الرخام، أحد الابواب الداخلية للقصبة الاسماعيلية ولعله الباب المجاور لعرصة البحراوية والقريب من مسجد الرخام الواقع يمين الداخل للضريح الاسماعيلي، ويشتاق كذلك الى باب العلوج، الباب الرئيسي للقصبة والمعروف حاليا بباب الحجر أو باب سيدي علي منون (10) ثم يصف «المنزه» الجميل الباهي، الواقع بقصر المدرسة وهو أحد اجنحته (11) والمشور الكبير (ساحة للاعودة) وكيف تأتيه كل يوم جميع الاجناس البشرية.

أَمَنْ ادْرَا نْشُوفْ الدَّارْ وُبَابْ الرّْخَامْ وُبَابْ لَعْلُوجْ وُمَشْوَرْ ايْفُوتْ
وَالْمَنْزَهْ لَفْرِيجْ الْبَاهِي نَعْمْ الْمْقَامْ وَالْمَشْوَر الكْبِير السَّامِي الْمَنْعُوتْ
تَاتِيه كُلّْ يُومْ السَّادَاتْ اوْلَادْ سَامْ وَاوْلَادْ حَامْ وَابْنْ يَافِتْ اجْفُوتْ

ويحن الى «القبة الخضراء» التي كانت بقصبة هدراش، والتي يطلق عليها اسم «جامع للاخضـراء» (12) ويشتاق الى المشتهى ومنزل راس التاج (بحرمة سيدي عمر والحصيني) الذي صار مشهده في وقتنا الحاضر يعرف بكتاب سيدي راس التاج، ويصف ضفتي أبي العمائر المزركشتين ببساط من الزهور والورود.

هَلْ يَا حَسْرَا نَنْظَرْ الْقُبَّة الخَضْرا وَنْشُوفْ الْمُشْتَهَى وُمَنْزَلْ رَاسْ التَّاجْ
يَظْهَرْ لَكْ بُوعْمَايَرْ امْلِيحْ النَّظْرَا فَرْشْ بنْوَاوَرْ ابْسَاطْ مَنْ الدّْيبَاجْ...

النموذج الثالث:

للفقيه العدل محمد بن قاسم العميري (13) المعروف بالفقيه العميري، كان ينظم في الجفريات التي تعتمد على الرمز والتلميح والإشارة، توفي في منتصف القرن الثالث عشر، ودفن بروضة ضريح سيدي

مغيث زغبوش القرشي قرب باب البرادعيين، على يمين الداخل للروضة (14).

وهو من قصيدة «زهـــرة»

اللازمة ــ الحربة:

أنْتِ تَكْمُولَتْ اَلْمَحَاسَنْ زَهْرَا   وَانْتِ اَرْيَاضْ اَمْفَتَّحْ بَنْوَارُو
وَانْتِ رَوْضْ لَعْشِيقْ وَلْفِي لَغْزَالْ ازْهِيرُو

وقد ادمج فيها بعض الابيات الجفرية كعادته، زيادة على رموز معقدة. وفي القسمين الاخيرين يصف ويمدح محاسن زرهون ومكناس عام 1234 هـ. وهكذا يصف كتلة زرهون الجميلة التي تنتمي الى سلسلة مقدمة جبال الريف، والتي تقع بين سهول سايس بمكناس وهضاب زكوطة، وكذا المدينة التي أسست حول ضريح المولى ادريس فاتح المغرب (15)، ثم ينتقل الى عيون منطقة «بوجنديز» الواقعة بين «برج القناجر» ووادي بوروح، فيذكر روافد وادي رضم (16) وهي: وادي بوروح ووادي الشجرة ووادي ويسلن الذي يفصل هضبة حمرية عن سهل سايس، ويختم هذا القسم بذكر «عقبة اشكر» التي تؤدي الى سيدي علي بن حمدوش و«عقبة العرابي» المؤدية الى مولاي ادريس زرهون :

زَرْهُونْ الشَّامَخْ لَكْوَاضَرْ   وُسُكَّانُو اخْيَارْ
مُولاَيْ ادْرِيسْ بَالظَّوَاهَرْ   يَسْعَدْ مَنْ لِيهْ زَارْ
وَلْدُو اعْلَى فَاسْ لَجْوَاهَرْ   ابْنَى فَاسْ لَقْرَارْ
وَبْنِي عَمَّارْ   كَانُوا مَنْ اجْوَارْ انْصَارُو

الى أن يقـــول:

وَعْيُونْ النَّابْعَة وِيدَان افْبُوجَنْدِيرُو
بُورُوح وُوِسْلَنْ وُوَادْ الشَّجْرَا   وَشْكَرْ وَالْعَرَابِي دَارُو
كَبْوُ فَرْضَمْ امْعَ الصَّفَاوَا تَسْمَعْ اتْهَمِيرُو

القسم الاخيـــر:

يمدح ويصف مكناس وعذوبة مائها وأنها مدينة الاسوار، ويصف كذلك حمرية وأبي العمائر بأنهما أرض الغراسات والاشجار ولذيذ الثمار (17)، يسحران بجمالهما الزوار، ثم ينتقل الى القباب الخضر قباب القصور والمساجد،والأضرحة،فيصف الجوامير النحاسية التي تكون بأعلى صواري المآذن وقباب الأضرحة.

(18) واللمعان الذي ترسله كالذهب والذي لم يسبق للشاعر ان رأى مثله، ويصل به الوصف الى غراسات تاورا (19) ومياهها المتدفقة التي تونع الاغصان ونجمها الطالع في فلك السعادة، وأخيرا يؤرخ قصيدته ويفخر بنفسه..

مَكْنَاسْ الطَّيْبْ لَعْنَاصَرْ   امْدِينَة اذْ لَجْدَارْ
دَارْ السُّلْطَانْ ابْلَمْسَاطَرْ   قَطْرَكْ بينة لَقْطَارْ
وُحَمْرِيَّة وُبُوعْمَايَرْ   أَرْضْ غْرِيسْ لَشْجَارْ

طَيّبْ لَثْمَـــــــــارْ فِيهَا الطَّـــــــالَبْ يَنْسَى اسْوَارْ
وَاقْـــبَبْ فِيهَا تَبْـــانْ خَضْرَا نَاضْرَا وُلَمْسَـــاجَدْكَمَـــــــا يُدْكَارْ
يَبْرِيزْ شْعِيلْ فَجْوَا مَرْمَا رِيتْ انْظِيرُو

لَوْ كَانْ تْشُوفْ الْـغُصْنْ افْتَـاوْرَا ابْلَمْيَـــاهْ الدَّافْقَـــا يُخْضَارْ
وَالنَّجْمْ الشّْعِيدْ طَالَعْ لْهَا تَنْوِيرُو

كَمْــلَتْ اوْصَافْ دْلَقْصِيــدْ الْحَرَّا مَاهَـــا وَهْوَاهَـــا يُشْكَـــارْ
ارْحَم اللَّه مَنْ اصْنَعْ ابْيَاتْهَا بَخْبِيرُو

احْسَبْ تَارِيخْهَـــا فَعِيــدْ الْفَطْـــرَا عَامْ جَالْ أَرُوشِي بَمْنَـــارْ (20)
أَبَا عُمَيْر مَا اخْفَى فَنُّو سَوَّلْ غِيرُو

صُولْ أَحفَّـــاظِ صُولْ ابْحَرْفْ الـسَّرَا دِيـــنْ أَعْلَى الْجَحْـــوُدْ اللِّي غَارُو
مَا فَقْهُو غَازْ مَنْ اثْمَرْ الْوَكَانْ ايْطِيرُو

النموذج الرابــع:

للولي الصالح والقطب الواضح سيدي عبد القادر العلمي الشهير بسيدي قدور، المتبرك به حيا وميتا، من أكبر الزجالين وأشهرهم، ومن أولياء مدينة مكناس.

نظم في مختلف الموضوعات، وبرز في التوسل والحكمة والموعظة حتى غدا يعتبر فيلسوف الزجل بلا منازع (21)، توفي عام 1266 هـ ودفن بزاويته ذات البناء الحفيل بحومة سيدي أبي الطيب بمكناس.

وهو من قصيدة «ورزيغة» وورزيغة منطقة تقع شرق وادي ابي العمائر (22)، والسيد أي (سيدي قدور العلمي) يتحسر في هذه القصيدة على ما أصاب المنطقة غداة الفتن أيام السلطان المولى سليمان، قال الناصري: «ولما دخلت سنة 1235 هـ كثر عيث البربر وافسادهم السابلة، واستحوذوا على مزارع مكناسة ومسارحها...» (23)، فيصف كيف كانت المنتزهات والبساتين الغناء، وعيون المياه الجارية: عين الكبير ووادي ويسلن وراس الوادي، والطيور المداحة على اختلاف أنواعها، والفواكه الطيبة «كالسطوني» وهو نوع من الاجاص شديد الحلاوة وعليه حمرة، قال الحميري: «مدينة ورزيغة كثيرة المياه والثمار وهي آهلة كثيرة الخيرات، تباع فيها ألف حبة إجاص بربع درهم » (24).

اللازمة ـــ الحربة:

وَعْلَى وَرْزِيغَة بَاقْيَة احْلاَوْتْها بِينْ اضْرَاسِي
مَنْ لاَيْبْكِي اعْلِيكْ يَاوَرْزِيغَةْ مَكْنَاسْ

مطلع القسم الأول:

كِيفْ ايْلَضْ اعْلِيَ افْتَاوْرَا نَتْجَلَّى بَعْنَاسِي — بَعْد ارْحِيقْ وَاد وِيسْلَنْ ابْشُرْبْ مَنْ لَدْنَاسْ
فِينْ امْنَازْهْهَا فَبْسَاتَنْ وَحْدَايَقْ لَعْرَاسِي — وِينْ عَيْنْ لَكْبِيرْ يَا حَسْرَا لَلْغَرَّاسْ
وَمَا غَدْتْنَا مَن ارْحِيقْ غِيرْ أَنَا وَاعْنَاسِي — افْرَاسْ الْوَادْ كَيْهَيَّجْ بِيمَامْ النَّـــاسْ
وَيْنَشَّطْ مَنْ طَبْعُو ارْفِيقْ فَلْجَلْسَاتْ وَلَوْنَاسِي — وَالْحَزْبَلْ كَيْهَيَّجْ الْيَتْـــرُوكْ افْلَغْـــرَاسْ

وبكيفية السطوني ابخد احمر عن نبراس   وزهو الدنيا افواحد الساعة كيمساس

ويصف في القسم الرابع من القصيدة إحراق اشجار زيتون غابة حمرية، كما يصف الورود التي ذبلت بعد ان كانت متفتحة ومتنوعة الاشكال والألوان، كورد «السكلماسي»، ويتألم على الغراسات وأهلها.... وعلى الزيتون الذي كان موردا للأحباس (25) ولم يبالغ في ذكر عدد أشجاره المائة ألف (26)، وأنه لا توجد غابة بالمغرب تشبه غابة حمرية:

والخمية وبدور شارقة فظليم الجنداسي   كل ما كان افلبقا عاد اليوم اعكاس
وخترقت حمرية الصايلة بالغرس الهنداسي   سال عليها هل لهوى فعشيات لنفاس
بزرابها تحشبها من التيبيع سكلماسي   واليوم اللي ايشوفها ماعندو لحساس
يتكي ويقول الغرس جاح وهلو سكنو لرماسي   كانت زهوة للزمان وعوين للأحباس
لاغابة تشبهها افغربنا بالغرس الميا سي   كانت فيها اميات ألف زيتونة راس

وفي القسم الخامس، يصف كيف ينافس السلطان المولى اسماعيل حمرية بتاورا ويامر بتقويم جنات هذه الاخيرة وقطع اشجارها، ويطابق ذلك قول صاحب الدر المنتخب (27) : «وفي عام 1109 هـ أمر السلطان بتقويم جنات تاورا، فقومت وأخذها بالقيم من الملاك، وقطع أشجارها وجمع الحطبة في قصبة الاعواد (اقصيبت لعواد) خارج المدينة وأدار عليها السور هناك وجاز السور تانوت بأسرها الى عين معزا وحمرية ووجه عروس».

وبضاد حمرية ابتاورا الهمام السياسي
اوبادن عن اشجارها تهرس تهراس
مولاي اسماعيل الشريف فاق الملك العباسي
ر ابني موسى رصعوا فالقرطاس

النموذج الخامـــس:

للشيخ حمود بن ادريس السوسي الحجامي، كان تلميذا للشيخ العربي الزهراني «البرادعي» (28)، نظم في الوطنية والغزل، وغاب حوالي 1969.

وهما قصيدة الخاتم وقصيدة المكانة، من نوع التراجم (29) على غرار قصيدة «الدمليج ـــ السوار» للعيساوي الفلوس (30)؛ حيث الشاعر حمود بن ادريس يجوب شوارع وأزقة وحومات مدينة مكناس بحثا عن الخاتم في الاولى والمكانة في الثانية الذين ضاعا منه بعدما قدمتاهما له حبيبتاه كتذكار..

وما يهمنا من هذين القصيدتين هو احتفاظهما بأسماء الدروب وزقاقات المدينة القديمة وقصبة بني امحمد وحي الزيتون وغيرها... ويطول بنا المجال في سردهما، واكتفي بذكر:

أ) ـــ لازمة ـــ حربة الخاتم:

خاتم من نهوى اخليلتي في صبعي درتو اوطاح لي وتودر ونشال
عيدولي ياكل من احضر ما نقول إلى اتسال عنو مرية

ب) ـــ لازمة ـــ حربة المكانة:

آش ارى من لاراني كنجول ونا حيران   فالشوارع وهان لي عصرية كنسئل عن مكانة امشات

وهناك من شعراء الملحون من نظموا في الذكر العيساوي و بي قصائد تنشد عند طائفة عيساوة، كقصيدة «الجمهور» (31) للشيخ بنعيسى العثماني المختاري «الحد » (32) الذي ذكر فيها ما يزيد عن تسعين وليا من أولياء مكناس لم يفته أثناء نظمها أن يتطرق الى شخصيات غير الأولياء، كان لها نفوذ اجتماعي أو سياسي أمثال : الفقيه العميري والسلطان المولى اسماعيل وغيرهما.... وتشتمل على ثمانية أقسام.

شخصيات غير الأولياء، كان لها نفوذ اجتماعي أو سياسي أمثال: الفقيه العميري والسلطان المولى اسماعيل وغيرهما... وتشتمل على ثمانية أقسام.

والغاية من هذا النوع القصائد هو التعرف من خلاله على ما تضمه هذه المدينة من رفات العارفين والاولياء والصالحين..

و«الجمهور» لبنعيسى الحداد على منوال «الجمهور» لسيدي قدور العلمي، ويمكن مقارنتهما بمنظومة ابن ادريس العمراوي في صلحاء مكناس (33) ومنظومة عبد الوهاب أدراق (34). وقد احصيت عددا لابأس به من هذه القصائد لمختلف شعراء الملحون، واقتصر على ايراد:

أ)ـ لازمة ـ حربة «الجمهور» لسيدي قدور العلمي:

يَا مَنْ يَشْفِي اضْرَارْ عَبْدو بَعْدْ السُّقَمْ
وَيْفَرَّحْ مَنْ اقْوَاتْ فَالصَّدَرْ احْزَانُو

ب)ـ لازمة ـ حربة «الجمهور» لبنعيسى الحداد:

أَضِيفْ اللّهْ لِلّهْ يا الشّيخْ الكَامَلْ بَحْرَ الكَمَالْ مَوْلاَيَ الْهَادِي
أَسِيدِي بَنْعِيسَى اعْنَايْتِي يَا هِيبَةْ مَكْنَاسْ

النموذج السادس والأخير:

للشريف الشيخ مولاي عبد العزيز العلوي العبدلاوي، ناسخ وراوية الشيخ بنعيسى الزرهوني «الدراز» (35)، من مواليد مكناس سنة 1931، أغلب قصائده في المديح النبوي والوطنية والغزل ووصف الطبيعة....

وهو قصيدة «المكناسية» المشتملة على ستة أقسام، والتي بإمكاننا مقارنتها بقصيدة مطولة من الشعر المعرب وفي نفس الغرض للاديب سيدي التهامي بن الطيب أمغار الواردة في الجزء الاول من الاتحاف (36)، كأن الشيخ العبدلاوي حذا حذو الشاعر أمغار في وصف طبيعة مكناس ومدح محاسنها والاشـادة برجالاتها :(37)

القسـم الاول

فَوَّحْ ابْطِيبَكْ وَشْذَاكْ وَجْمَالَكْ
وَمْحَاسَنْ لَبْهَا وَانْسَايَمْ هَوا الطَّيْبَة تَحْيِي رُوحْ الذَّاتْ
وَاطْعَم وَاسْقِي مَنْ زَايَرْ أَوْطَانَكْ
وَاهْدِي انْعَايَمْ اللّذَّة والطّيْبَة النَّاسْمَة فِيكْ اجْمِيعْ ادْكَاتْ

هْوا وَالْما وَابْطايَحْ اخْضَـارَكْ
وَأشْجارْ كَعْرَايَسْ تَرْقُصْ بَنْسَايَمْ هْوا وَتْنَوَّدْ الْخَيْرَاتْ
مَنْ دُرّْ انْفِيسْ امْعَادَنْ اتْرَابَكْ
بالْكَنْزْ وَدْخايَرْ وَالفِلاحَة امْعَ لَكْسِيبَة نايَلْ مُولاَتْ
وَحْدَايَقْ مَنْ نْوَّارْ مَبْهَـالَكْ
وَجْبَالْ عَالْيَة زَهْوَة لَلنّْظْرَة اجْمَالْهَا بَسْهُولْ وُرْبُوَاتْ

حربـــة (38)

جُولْ أمَكْنَاسْ امْـلاكْ وَجْدَارَكْ
وَبْطايَحْ الرّْبِيعْ الْخَضْرَاوَاغْرَاسْهَا اوْحُسْنْ اشْجَارْ الْغَلاّتْ

القســـم الثانـــي

اسْأَلْتْ نَاسُو لَفْضَالْ الْوَدْبَـــاتْ الْعُقْـــالْ عَنْ مُولَتْ مُجْدُو وُلاَمَتْ ارْجَالْـو
مَنْ بِيهُمْ هَالْ وْمَـالْ وَالبَسْ حُلَّتْ لْجَمَـالْ لَبْطَـالْ اقْـوَامَسْ سَرْ تَبْجَالْـــو
حَرْتُو وُغَــرْسُو بَفْضَالْ زَانْــو رَسْمُو بَكْمَـــالْ رَسْمْ الْحِيرَة مَنْ رَاهْ بَتْجَالْـــو

قَالُوا يَا سَايَلْ شُوفْ بْعَيَانَكْ
لَبْلاَدْ كَعْرُوسَة بُرْزَتْ بَدْبَاجْهَا وُتَاجْ امْكَلَّلْ بَثْقَاتْ
مَنْ رَبْعْ ارْكَانْ ابْزِينْ تَتْبَالَكْ
بَسْوَارْ عَالْيَة مَحْجُوبَة وَعْلَى اطْرَافْهَا لَبْرُوجْ وُقَصْبَاتْ
وَبْسَاتَنْ فِيهَا مَا اعْلَى بَالَكْ
فِي تَاوْرَا امْعَ وَرْزِيغَة شَلاَّ ايْصِيفْ وَاصَفْ دْهْرِي بَنْعَاتْ
وَبْنِي مُوسَى (39) بَالزّْيْنْ فَقْبَالَكْ
وَكْذَلَكْ عَيْنْ حَرْبَلْ (40) وَالرّْكَّايَا (41) اوْزِيدْ بُوبَسْحَاقْ (42) فْلَنْعَاتْ
تَانُوتْ (43) اوْبَابْ اكْبِيشْ (44) فَشْمَالَكْ
اوْزِيدْ عَيْنْ مَعْزَة (45) رَاحَمْرِيَّة امْبَهْجَة بَتْحَافْ الْحَوْجَاتْ؟

القسم الثالـث

رَسْغِينْ (46) افْلَمْعَالْ اوْبَزِيدِيَّة (47) فَسْفَالْ جَارَتْ لَحْبُولْ (48) اتْصُولْ بَجْمَالُو
سُورْ اعْلَى سُورْ افْضَالْ بُوعْمَايَـــرْ بَالتَّـــفْصَالْ وَرْوَى مَوْلاَيْ الزّْيْنْ (49) سَلْسَالُو
دَارْ الشّْمَعْ (50) اللّْصَالْ سَاحَتْ لَهْرِيمْ (51) اكْمَالْ فِيهَا بَابْ الْمَنْصُورْ (52) بَكْمَالُو

الْحُسْنْ النّْظْرَة وَجْمَالْ يَتْبَالَكْ
رَسْتَامْ رَاسْمُو فَلَسَفِي دْهْرِي الْبِيتْ ذُوقِي مَاهَرْ بَتْبَاتْ

وَاكْتَبْ تَارِيخْ اعْلِيهْ يْعَطَالَكْ
يَا فَاهَمْ اللّغَا دَمْشَقْ فَابْجَدْ مَا اخْفَى لَدْهَاتْ الْقَرَّاتْ
الَفْ وَميَا وَانْزِيدْ يَا سَالَـكْ
نَهْجْ لَحْسَابْ رَبْعِينْ امْعَ الرَّبْعَة بَاشْ تَمْ اعْدَادُو فَنْعَاتْ .
وَتْقَدّمْ زِيدْ اتْمَرَّحْ انْجَالَـكْ
وَادْخَلْ بَابْ مَنْصُورْ اوْسِيرْ انْرا اضْرِيحْ سُلْطَانْ امْعَظّمْ هَاتْ
مْجَدْ وُرُقِي وَمْنَاسَكْ امْسَالَـكْ
لَعْلُومْ وَنْبَاهَة وَالشَّجَاعَة الْقَاهْرَة مَنْ كَانُو طْغَاتْ

القسم الرابع

اسْمُو عَالِي لَمْعَالْ اسْمَاعِيل الخصَّالْ عَظِيمْ لَكْرِيمْ اللّهْ مْجَلاَلُـو
ابْنْ عْلِي سَرْ اسْجَالْ بِالسَّطْوَة اعْلَى لَكْمَالْ تَارِيخُو مْجَدْ اعْظِيمْ نْهَدَالُـو
طَوّعْ وَغْزَا جْهَالْ وَاقْطَعْ فْرَقَابْ انْدَالْ وَارْفَعْ قَدْرَا الْمَغْرِبْ وَرْجَالُو

اخْضَعْ وَاتْوَاضَعْ زِيدْ تَتْبَارَكْ
سُلْطَانْ غَزْوْنَا مَوْلاَيْ اسْمَاعِيلْ بْنْ عْلِي وَادْعِي بَالرَّحْمَاتْ
لِيهْ أوْ لَجْمِيعْ النَّاسْ تَرْحَامَكْ
وَارْجَعْ بَسْلاَمَة وَاخْرُجْ اتْشُوفْ مَا ايْسَلِّي جَمْعْ الْفَكْرَاتْ
وُتَيَقّظْ زِيدْ اوْحَضّرْ اذْهَانَكْ
اوْ شُوفْ هِيبَتْ لَقْصَرْ اوْتَشْيَادُو اوْصُولْتُو فَزْمَانُو تَنْعَاتْ
وُبَعْدَ ذَا تَسْفَادْ بُوصَالَكْ
وَاعْرَفْ بِينْ رَاكْ افْأَرْضْ الْوَلْيَا الصَّالَحِينْ وَدْيَاتْ اوْسَادَاتْ
مَنْهُمْ الْفَيْلَسُوفْ مَنْ تَابَكْ
صُوفِي أَدِيبْ شَاعِرْ وَلِي مَعْرُوفْ مَا اخْفَى عَلَمِي يَنْعَاتْ

القسم الخامس

فَحْلْ الشَّعْرْ جَوَّالْ فَالْمَغْنَى بَيْتَهَالْ وَالْمَوَاعِيظْ افْرَقْ تَغْزَالُو
ذُوقِي مَا هُو لَسْوَالْ عَبْدْ الْقَادَرْ مَفْضَالْ الْعَلَمِي تَنْبِيهْ فَقْوَالُو
شِعْرُو سَلْوَا لَلْبَالْ بَاللِّي فِيهْ مَنْ امْثَالْ تَضَّارَبْ بِهْ النَّاسْ بَتْوَالُو
اعْلِيهْ ارْحَمْتْ اللّهْ تَتْبَارَكْ

وعْلَى لَشْيَاخْ وَعْلَى شِيخُو لَفْقِيهْ لَعْمِيرِي فَذْ الدَّهَاتْ
وَتْفَضَّلْ زِيدْ اتْفُوزْ فَزْمَانَكْ
بعرُوسَتْ لَمْحَاسَنْ بَهْجَتْ مَكْنَاسْ رَاحْتْ الرُّوحْ أُمّ التَّحْفَاتْ
لَبْسَتْ حُلّةْ لَجْمَالْ وَكْذَالَكْ
السّرْ وَالظّرَافَة حَازَتْ عَدْرَا امْخَنْتَرَة سَلاَّبَة تَنْعَاتْ

مَلِكِيَّة تَفْجِي لَكْ اهْوَالَكْ
بَالْمَجْدْ مَايْلَة مَنْ اقْدِيمْ الْعَصْرْ يَا افْهِيمْ افْحَسْنْ التَّبْتَاتْ
بَهْجَةْ مَكْنَاسْ اوْقُولْ بَلْسَانَكْ
اللِّي مَا اشْفَهَا نَحْكِيهْ اغْرِيبْ فِي احْيَاتُو مَالُو جُولاَتْ

القسم السادس

مَكْنَاسْ ابْهِي لَجْمَالْ مَكْنَاسْ اوْطَنْ لَبْسَالْ مَكْنَاسْ اَصِيلْ ابْصُولَتْ افْحَالُو
مَكْنَاسْ اوْصَا وَجْبَالْ مَكْنَاسْ انْسَا وَرْجَالْ مَكْنَاسْ ايْصُولْ ابْهِيبَتْ ابْطَالُو
مَكْنَاسْ الْكَالْ احْفَالْ مَكْنَاسْ الْكَالْ أَمَالْ مَكْنَاسْ ايْسَايِ كُلْ مَنْ جَالُو
مَكْنَاسْ ايْرُوقْ ابْحَالَتْ احْوَالَكْ
أَرْضُو امْبَهْجَة رْقِيَّة وَمْدِينْتُو افْمَجْدْ وْعَزْ اوْصُولاَتْ
مَكْنَاسْ ابْرْجَالُو مَجْدْهَا تَايَكْ
بَالْجُودْ اوْ لَحْسَانْ اتْذَكْرُو فِي كُلْ جِيلْ اوْلاَزَالُو نَجْبَاتْ
وَدْبَاتْ ادْهَاتْ الْفَخْرْ تَسْمَالَكْ
الذُّوقْ وَلْفِيَاقَة وَاللَّبَاقَة امْعَ انْسَاقَة دُوكَرْ وَأْنَاتْ
سَلَّمْ تَسْلَمْ اتْفُوزْ بَامَالَكْ
الرَّبْحْ اوْلَغْنَا فَالتَّسْلِيمْ اوْغَايَتْ النَّجَا فَهْنَا رُوحْ الذَّاتْ
قُلْتْ أَمَكْنَاسْ انْسَاكْ وَرْجَالَكْ
هُمَا اهَلْ لَكْرَامَة وَالشْهَامَة امْعَ الزَّعَامَة فِي كُلْ أَوْقَاتْ
نَخْتَمْ بِهُمْ نَظْمِي افْتَعْجَادَكْ
وَسْلاَمْ رَبْنَا لَلْوَدْبَاتْ الْعَارْفِينْ نَهْجْ امْسَالَكْ لَبْيَاتْ
وَاسْمِي يَا حَفَّاظْ الْمَرْ سَالَكْ
عَبْدْ الْعَزِيزْ قُولْ الْعَبْدَلاَّوِي اشْهِيرْ فِي مَكْنَاسْ ابْتَبْتَاتْ
يَرْجَا لَكْرِيمْ الدَّايَمْ الْمَالَكْ
رَبْ لَوْجُودْ يَغْفَرْ ذَنْبُو فِي مَا امْضَى وَمَا بَاقِي مَنْ لَحْيَاتْ

حربـــة:

صُولْ أَمَكْنَاسْ ابْمَاكْ وَجْدَارَكْ
وَبْطَايَحْ الرْبِيعْ الْخَضْرَا وَغْرَاسْهَا اوْحَسْنْ اشْجَارْ الْغَلاَّتْ

وبعد، يستخلص من هذه النماذج الست أن قصيدة الملحون تتيح امكانية البحث والدراسة أدبيا، كما تتيح إمكانية التحقيق فيها تاريخيا وجغرافيا... وهذا ما لمسناه في وصف الحاضرة الاسماعيلية؛ حيث كان لموقعها الجغرافي المتميز وطبيعتها الخلابة وأراضيها الخصبة الى جانب طيب مائها وهوائها وجمال معالمها وشهرة أعلامها وقع محمود وأثر حسن في نفوس شعراء الادب الشعبي، الذين استهوتهم فانبروا يمجدونها ويطرون عليها بقصائد فائقة رائقة، كانت حاضرة مكناس أحق بها وأهلها.

الهوامـــــش

(1) المؤرخ مولاي عبد الرحمان ين زيدان
«إتحاف أعلام الناس بجمال أخباز حاضرة مكناس»
الجزء الاول ــ الطبعة الاولى 1929 الرباط ص ــ 231ــ261.

(2) تحدث عنه ــ كثيرا ــ محمد العربي المشرقي في «الحسام المشرفي في الرد على اكنسوس المراكشي» خ ع ضمن مجموع يحمل رقم ك 2276، حيث يذكر أن له ديوانا ضخما في الملحون من الشعر، وله ترجمة عند بروكلمان في «الملحق» ج 2 ص 676. وتوجد طائفة من أشعاره الملحونة ضمن مجموع خ. ع ك 1644، ونشرت نبذة من شعره بتحقيق وتقديم الاستاذ محمد بكوشة بمبادرة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر 1968. وله ترجمة عند الدكتور عباس بن عبد الله الجراري في كتابه: «الزجل في المغرب، القصيدة» الطبعة الاولى ــ مطبعة الامنية ــ الرباط 1970 ص 604ــ608.

(3) وردت في نسختين:
ــ احداهما آخر مجموع خ. ع، ج 26
ــ والثانية في كناشة عبد الله الشرقي بالمكتبة الملكية الحسنية بالرباط رقم 5958.
وقد نقلت هذين القسمين من بحث الاستاذ محمد المنوني ــ دليل القصبة الاسماعيلية بمكناس، المنشور بمجلة دعوة الحق، العدد 4 ــ السنة 10 ــ ذو القعدة 1386 مارس 1967 ص 107ــ120.

(4) ابن زيدان ــ المصدر السابق ص 142

(5) ابن زيدان ــ المصدر السابق ص 53.
وللمزيد، يستحسن الرجوع الى رسالة الاستاذ بوشتى بوعسرية «أحداث بوفكران بمكناس، فاتح وثاني شتنبر 1937».
دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر،
نسخة مرقونة في جزءين ــ كلية الاداب والعلوم الانسانية. الرباط 1986.

(6) محمد لضعيف الرباطي «تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعدية)» تحقيق وتعليق وتقديم الاستاذ احمد العماري، نشر دار المأثورات ــ الطبعة الاولى ــ الرباط 1986 ص 125.

(7) ابن زيدان «الاتحاف» ج 3 ص 78ــ79.

(8) وردت في كناشة عبد الله الشرقي الآنفة الذكر.

(9) محمد المنوني ــ المصدر السابق

(10) محمد المنوني ــ التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور، مجلة الثقافة المغربية ــ العدد 7 السنة 1972 ص 21ــ56.

— Marianne BARRUCAND«l'Architecture de la Qasba de Moulay Ismaïl à Meknès».

(ETAM) — Etudes et Travaux d'Archéologie Marocaine —Volume VI 1976. pp.38 - 39.

(11) نفس المصدر ــ الفرنسي الاخير، ص 86ــ88

(12) وقع اختلاف في حقيقة موقع «القبة الخضراء» بين المؤرخين الجليلين المولى عبد الرحمان بن زيدان وسيدي محمد المنوني، فقد نسبها الاول في (الاتحاف ج 1 ص 162) لجامع الانوار المحادي لباب منصور العلج، أما الثاني في (دليل القصبة الاسماعيلية بمكناس) فقال: «والغالب أنه كان بهده الجهة ــ أي جهة قصر المحنشة ــ القصر الذي يشتمل على «القبة الخضراء» وقد كانت شهيرة الذكر في العصر الاسماعيلي، ولا يبعد ان يكون موضعها بنفس قصبة هدراش التي يطلق على مسجدها اسم «جامع للاخضرا». ويزكي المنوني قوله بما ورد عند: ويندوس (دجوهن) في كتابه «رحلة الى مكناس، مقر الملك الحالي لفاس ومراكش» بمناسبة سفارة أمير البحر مستركومو دورستيوارت، والتي بعثها ملك انكلترا: «جورج الاول»، لافتداء الاسرى الانجليز سنة 1721م ــ 1133هـ:» ومن هذا الهري ذهبنا لمحل آخر به

بناء عظيم واسع يحيط به مباح، وفي هذا المحل امرأتان من نساء السلطان وهما مالكتا القبة الخضراء».
وقد تغنى بها — القبة الخضراء — شعراء الفصيح وكذا شعراء الملحون، كقول الشيخ الحاج بوكرين القصباوي:

لَلاَّ خَضْرَا ذُكَّارْ وَعْلِيكْ لَحْتْ الْعَارْ
فَالْحِينْ اتْرَفْدِلِي عَارِي
طَالَبْ لَكْ زَوْرَة الْمَخْتَـرَة يَاحُـرَّة لَبْكَـارْ
يَا لَلاَّ خَضْرَا

وقول الشيخ مولاي عبد العزيز العلوي العبدلاوي :

جِيتْ الْحُرْمَكْ مْحْتَـارْ قَبْلِي بَرْضَاكْ أَلَـلاَّ امْـزَارِي
أَنَا جِيتْ لِيكْ أَلَـلاَّ خَضْرَا ابْغِـيتْ عَطْفَـا وَيْغَـارَا

(13) ذ. عباس الجراري «القصيدة» ص. 627 — 628
ذ. محمد الفاسي/شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، مجلة المناهل — العدد : 27 — السنة 10 — شوال 1403/يوليوز 1983 ص. 9 — 63.

(14) اكتشف قبره الفقيه السي محمد بن البشير القندوسي الذي كان مدررا بنفس الضريح، كما أخبرني بذلك الأستاذ الحاج أحمد بالفقيه الزرهوني.

(15) ياقوت الحموي «معجم البلدان» ج. 4 ص. 388.
الصديق بن العربي «كتاب المغرب» ط.2 — الرباط 1956 ص. 92 — 93.
مصطفى أعشي/حدود موريتانيا الطنجية في عهد الاحتلال الروماني، مجلة تاريخ المغرب — ع. 3 س 3 — يونيو 1983 ص 69 — 80.

(16) وادي رضم : يقع بين كتلة زرهون ومرتفعات كروان الحالية، مصطفى اعشي — نفس المصدر — وقد كتب : وادي ردم.

(17) حيرة كانت تعرف «بأبي حفص» وقد اشتراها السلطان المولى اسماعيل بالمعاوضة الشرعية، وناب عنه بظهير في عقد المعاوضة القائد الحاج علي بن يعقوب اليوسفي المكناسي.
انظر نص الظهير في الجزء الأول من الاتحاف ص. 172.
ونص المعاوضة بين الشريف السيد محمد دعي بسيدي حم بن ادريس بن وحود الحسني المنوني والنائب المذكور. نفس المصدر، ص. 173.
وكان شراؤها عام 1681 م — انظر :
ابن زيدان : «الاتحاف» ج 1 ص. 144 — 145.
«المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف»
الباب التاسع عشر فيما غرسه من الجنات والبساتين.
نقلا عن الأسير مويط (ج) الفرنسي في كتابه : «تاريخ غزوات المولى الرشيد المعروف بملك تافيلالت والمولى اسماعيل أخيه وخلفه الحاكم الآن على المغرب».
«Histoire des conquêtes de Moulay Archy, connu sous le nom de roi de Tafilalet et de Moulay Ismaïl ou Smaëin, son frére et successeur à présent régnant. Tous deux roix de Fés du Maroc et de Tafilalet, de Sous».

(18) هي كرات نحاسية يكون في جوفها أحمال من الملح حتى لاتقتلعها الرياح.
انظر : محمد الأمري المصمودي/جوانب غامضة من التراث المغربي، مجلة الثقافة المغربية — العدد الأول السنة الأولى. شوال — ذو القعدة 1389 — يناير — فبراير 1970 ص. 137 — 145.

(19) تقع تاورا وتوابعها شرقا عن يمين الخارج من باب البرادعيين، الذاهب الى زرهون، والحوائر الأخرى عن يساره، ولم يبق اليوم معروفا باسمه القديم من حوائر تاورا إلا حارة بني موسى...

ابن غازي «الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون» المطبعة الملكية الرباط 1964 — ص. 11 وهامش 25.

(20) عام «جال أروش» بمنار

ج = 3، ل = 30، أ = 1، ر = 200، ش =1000 شوال 1234 هـ.

(21) د. عباس الجراري «القصيدة» ص 629.

ذ. محمد الفاسي — شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، مجلة المناهل — ع 27 — س 10 ص 9 — 36 وقد حضي سيدي قدور العلمي باهتمام العديد من المؤرخين والكتاب وكتاب التراجم.

(22) ابن غازي «الروض الهتون» ص 9

(23) أحمد بن خالد الناصري «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» تحقيق وتعليق : جعفر الناصري وامحمد الناصري الجزء 8 — ص. 137 — 144، دار الكتاب الدار البيضاء 1956.

(24) محمد بن عبد المنعم الحميري «كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار» (معجم جغرافي)، تحقق : د. إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة — الطبعة الثانية 1980 — ص. 608.

(25) حول تحبيس غابة زيتون حمرية بأمر السلطان المولى اسماعيل على الحرمين الشريفين — انظر : الاتحاف — ج. 1 ص. 174آ

وقد أعاد غراستها حفيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله وحبسها كما يلي :

أ) النصف حبسا للحرمين الشريفين (ثلثين للمدينة المنورة، وثلث لمكة المشرفة).

ب) النص الاخر : للمسجدُ الأعظم بمكناس،

— وضريح المولى علي الشريف، والطلبة الذين يقرؤون الحزب ودلائل الخيرات والمؤدنين وقيم الروضة، وطعام ليلة المولد النبوي..

— والطلبة الموظفين لقراءة الحزب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على قبر والدة المحبس الثاني وأعمامه بروضة أبي زكرياء الصبان (سيدي بوزكري) مكناس،

— وضريح أبي يعزى،

— وضريح مولانا ادريس الأزهر باني فاس انظر :

الاتحاف، ج. 1 ص. 174 وفي الجزء الثالث منه ص. 248 لضريح الامام ادريس الأكبر رضي الله عنه.

(26) ذكر هذا العدد «مائة ألف شجرة من الزيتون» عند :

أ — أبي القاسم الزياني «البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف» مخطوط الخزانة العامة — الرباط د. 1577.

ب — محمد بن أحمد أكنسوس «الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي».

طبع على الحجر في جزءين — فاس 1336 هـ 1918 م.

ج — أحمد بن خالد الناصري «الاستقصا» ج. 7 ص. 102

دار الكتاب — الدار البيضاء 1956.

د — ابن زيدان «الاتحاف» ج. 1 ص. 173 — 174.

(27) أبو العباس أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج السلمي المرداسي «الدر المنتخب المستحسن، في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن» مخطوطة السفير خير الدين الزركلي.

نقلا عن دليل القصبة للمنوني.

(28) توفي الشيخ العربي الاجراوي الزهراني «البرادعي» يوم الاثنين 16 رجب 1381. موافق 25 دجنبر 1961 (عن الأستاذ امحمد العرائشي محافظ خزانة الجامع الكبير بمكناس).

انظر : محمد الفاسي/شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، نفس المصدر السابق.

(29) «قصائد ترجمها الخيال أي أنشأها وحبكها دون أن يكون لها حدوث في الواقع مثل : الحجام والفصادة والحراز والقاضي والضيف والخلخال والدمليج والختام».
- عباس الجراري «معجم مصطلحات الملحون الفنية».
مطبعة فضالة - المغرب 1978 - ص 12
محمد الفاسي/عروض الملحون ومصطلحاته
مجلة الثقافة المغربية، ع. 1، يناير - فبراير 1970 ص. 7 - 29.

(30) محمد المدغري المكنى العيساوي الفلوس، ترجم له :
عباس الجراري «القصيدة» ص. 671 - 673

(31) «الجمهور أو جمهور الأولياء، مصطلح يطلق على بعض القصائد التي تمدح مجموعة من الأولياء والصالحين».
- عباس الجراري - المصدر السابق، ص. 17.
- محمد الفاسي - المصدر السابق، ص. 7 - 29.

(32) توفي الشيخ بنعيسى العثماني المختاري الحسناوي «الحداد» سنة 1936 مسنا،

(33) هو محمد بن ادريس بن محمد العمراوي الفاسي، توفي سنة 1264 هـ/1847 م، له أرجوزة في صلحاء مكناس، الخزانة العامة - الرباط - رقم ك 3/1249

(34) هو «الطبيب عبد الوهاب بن أحمد أدراق الفاسي الذي مات بفاس سنة 1159 هـ/1746 م، م، له منظومة في صالحي مكناسة الزيتون، ومن الممكن أنها الان في حكم المفقودات».
ليفي بروفناصل «مؤرخو الشرفاء».
ترجمة عبد القادر الخلادي - دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1997، ص. 221.

(35) الشيخ بنعيسى الزرهوي «الدراز» توفي حوالي سنة 1972. ترجم له : عباس الجراري «القصيدة» ص. 673.

(36) ابن زيدان «الاتحاف» ج 1 ص. 239 - 242.

(37) كنت قد طرحت سؤالا على الشيخ العبدلاوي : هل تعرف قصيدة التهامي بن الطيب أمغار، الواردة في كتاب الاتحاف ؟ فأجابني : لاأعرف قصيدة ولا صاحبها ولا إتحاف. هذه القصيدة أشار علي بنظمها المرحوم المقدم الحاج أحمد أغربي، ففعلت.

(38) تعاد اللازمة/الحربة عند آخر كل قسم من أقسام القصيدة.

(39) حارة بني موسى من حوائر تاورا. أنظر : هامش 19،
وكذا الاتحاف، ج 1 ص. 57 - 59 - 175.

(40) عين حربل : هي عيون حربل النابعة أسفل قصبة تولال خارج باب سيدي سعيد المشترائي، انظر : الاتحاف، ج 1 ص. 58.

(41) الردايا : توجد بتاورا، تخترقها مياه أبي الخيار وبها قنطرة شهيرة بناها السلطان المولى اسماعيل، قال فيها الفقيه العميري قصيدة جفرية تسمى اليائية الأولى : الشطران الأخيران :

دَوَّرْهَا بَالاَسْوَارْ وَغْرَسْ حَمْرِيَّة أَسِيدْنَا وَبْنَــــى قَنْطْـــرَةْ الرّدَّايـــا

(42) بويسحاق : هو وادي أبي إسحاق، يقع بين سيدي سعيد وقصبة تولال.

(43) تانوت : اسم بربري يعني البئر، خرب عام 1550 هـ.
انظر هامش 6

(44) باب اكبيش : إحدى أبواب القصبة الاسماعيلية بمكناس.

(45) عين معزة : تقع في طريق الحاجب، يوجد قربها «نزل زكي»

(46) راس أغيل : أوراس أغين، اسم بربري وهي المنطقة التي تسمى اليوم بالمنظر الجميل والتي يوجد بها «فندق المحيط الأطلسي».

(47) اليزيدية : هي الضفة اليمنى لوادي أبي العمائر وتعرف بالسلاوية بها أطلال رحى أولاد الديب، والمسبح البلدي ومسبح النادي المكناسي، انظر :

Pierre Champion« les villes d'Art célébres» : Tanger. Fés et Méknés» Paris 1924 .p.142.

(48) يقع بستان الحبول شمال باب أبي العمائر الحد الفاصل بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة (حمرية) وقد كان في العهد الاسماعيلي مريضا لبقر أهل المدينة، ثم صار في عهد الاحتلال بستانا عموميا، ولا زال إلى غاية تاريخه يحمل نفس الاسم، يبلغ طوله نحو كيلومتر.

الاتحاف ج 1 ص. 51 ؛ 133.

(49) كان به اصطبل صغير للسلطان المولى اسماعيل، يودع فيه ما يهدى له من الخيول وما اليها «العز والصولة» لابن زيدان، ج 1 ص 164 — 147، أما مزيل — باللام — المضاف له الأروى، فقد كان لقبا لعائلة فاسية من قدماء سكانها، ثم اختفى ذكرها بعد عام 1139 هـ، «زهرة الآس، في بيوتات أهل فاس» خ، ع، ك، 1281 — ج 1 ص. 121.

ويوجد في قبيلة زيان فرقة تدعى ايت مزيل، وفي «اتحاف أعلام الناس» ج 1 ص 146 : أن مزيل هذا وصيف اسماعيلي كان قيما على أروى خصوصية هناك. عن دليل القصبة الاسماعيلية بمكناس لمحمد المنوني. ص. 107 — 120، هامش 2.

حاليا من أهم الشوارع التجارية العصرية بالمدينة القديمة، أسس في عهد السلطان المولى يوسف رحمه الله.

الاتحاف ج 1 ص 221 — 222.

(50) يقع بين باب منصور العلم وروى مزيل.

نفس المصدر والصفحة

(51) ساحة تاريخية واسعة تفصل المدينة القديمة عن القصبة الاسماعيلية وبها يوجد باب منصور.

(52) يقع شرف المدينة القديمة ويعتبر من أعظم أبواب القصبة الاسماعيلية أسسه السلطان المولى اسماعيل في أواخر القرن السابع عشر، ثم جدده وزخرفه ابنه السلطان المولى عبد الله سنة 1144 هـ — 1732 م، وقد صمم هندسة الباب مهندس أوروبي أضيف لقبه «العلج» إلى اسم الباب. أنظر : الاتحاف ج 1 ص. 190 — 191.

أعــلام الموسيقــى بمكنـــاس
البوعصامــي نمــوذجا

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل
رئيس المصلحة الثقافية الجهوية
بمكنـــاس

برز في مجال الموسيقى بالمغرب اعلام كان لكثير منهم عبر التاريخ المغربي الطويل أثر بين وواضح في بناء الكيان الفني للموسيقى المغربية. وقد عرفت مكناس اكثر من مهتم بهذا الفن ممن كان لهم دور كبير في الحفاظ على أصوله وتعبيد سبيل نشره وتطويره.

ونزيد في البداية الالحاح على ان الممارسة الموسيقية لم تكن ميدان تخصص لدى اغلب هؤلاء الاعلام ـــ ان لم نقل لديهم جميعا ـــ ولكنها كانت تأخذ من اهتمامهم مواقع تحتل الصدارة احيانا كثيرة.

لقد اسهمت عوامل عدة في بلورة الكيان الموسيقي بمكناس منذ العهد المرابطي كان في مقدمتها تساكن العناصر البربرية والزنجية والاسبانية بالاحياء المحدثة، ما ادى الى تلاقح انماط غنائية متعددة المشارب، مكنت فيما بعد لنشوء نماذج جديدة من التأليف وأساليب مبتكرة في الاداء.

وقد ظلت مدينة مكناس عبر العصور ملتقى لرجال الفكر والادب ممن كان لهم ولع بالموسيقى واهتمام بها، نذكر من هؤلاء الصوفي الزجال أبا الحسن الششتري المتوفى عام 668 الذي كان يتجول في اسواق المدينة وهو ينشد زجله الملحن:

شُوَيْخ مِنْ أَرْضْ مْكْنَـــاسْ وَسْطْ الاسْـــوَاقْ يْغَنِّـــي
اَش عْلِيَّـــا امَنْ النَّـــاسْ وَاشْ اعْلَـــى النَّـــاس مْنِّـــي

كما نذكر أبا الحسن الغماري الذي كان يعلم في آن واحد القراءات وصناعة الغناء في العهد المريني.

ومن جهة اخرى عرفت الأوساط الفنية والادبية بالمدينة مجالس خاصة جمعت ابرع العازفين والمغنين. من ذلك المجلس الذي وصفه سليمان الحوات على العهد السليماني، وكان يضم نخبة من الموسيقيين فيهم المغني ابو زيد عبد الرحمن المزداري وعازف العود ابن زكي.

وسوف يمتد بنا هذا العرض طويلا لوحاولنا تقصى أعلام الموسيقى بمكناس، واستعراض منجزاتهم الفنية. لذا نقترح الوقوف عند واحد من أبرز هؤلاء واكثرهم عطاء في العصر العلوي وهو محمد البوعصامي.

مصـــادر البحـــث

يعتبر كتاب «الانيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب» لمحمد بن الطيب العلمي المتوفى عام 1133 ــ 1721 أقدم ما نتوفر عليه من مصادر تحدثت عن محمد البوعصامي، وهو يستوعب ترجمة مسهبة تصدر تفاصيلها عن شخص كان يعرف مترجمنا معرفة الرفيق المباشر، يجالسه مجالسة التلميذ لشيخه، وتجمع بينهما المساجلات الادبية الخاصة.

ويتجدد ذكر محمد البوعصامي في مصادر اخرى نذكرها دونما مراعاة لترتيبها الكرونولوجي.

ــ كتاب بخط محمد بن قاسم ابن زاكور. يذكر صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى (1) انه يوجد بخزانة المرحوم محمد داود.

ــ الروضة الغناء في أصول الغناء لمؤلف مجهول (2).

ــ تاريخ محمد بن عبد السلام الضعيف المتوفى عام 1233

ــ ديوان الامداح النبوية وذكر النغمات والطبوع وبيان تعلقها بالطبائع الأربعة لابي العباس احمد بن محمد بن العربي أحضري الذي كان حيا اواخر المائة الثانية عشرة (3).

ــ فتح الانوار في بيان ما يعين على مدح النبي المختار لمحمد بن العربي الدلائي المتوفى عام 1285 ــ 1867 (4).

ــ الاعلام فيمن حل مراكش وأغمات من الاعلام لابراهيم السملالي المراكشي (5)

ــ كتاب الاتحاف لعبد الرحمن بن زيدان (6)

من هو البوعصـامي:

بالاعتماد على هذه المصادر ــ وفي مقدمتها كتاب العلمي الذي يستأثر بسرد الجزء الاكبر من اخبار البوعصامي وكتاب ابن زيدان الذي انفرد بالترجمة لاشخاص آخرين يحملون نفس النسبة تدرك ان مدينة مكناس كانت تحتضن مجموعة من البوعصاميين لعلهم ان يكونوا ممن نزحوا اليها بعد احداث عام 1045 التي اودت بحصن تابوعصامت في سجلماسة على يد المولى محمد بن الشريف بعدما «اهلك من بقي منهم واستأصل شأنهم» (7).

ويتكرر اسم محمد البوعصامي مع خمسة اشخاص ممن ترجم لهم ابن زيدان في الجزء الرابع من اتحافه، وهم على التوالي:

الاول: محمد البوعصامي. وهو مترجمنا. لم تحدد المصادر تاريخ وفاته، غير أن العلمي يذكر انه كان يسكن بمكناس حيث لقيه مرارا بداره (8).

الثانـي: محمد البوعصامي المتوفى عام 1195 (9)

الثالث: محمد بن عبد الرحمان الفيلالي البوعصامي المتوفى بمكناس عام 1126. وهو المدعو البهلول.

الرابع: محمد البوعصامي.

الخامس: محمد بن محمد البوعصامي.

وقد أورد ابن زيدان هذين الاخيرين (10) ضمن لائحة تتكون من خمسة عشر اسما لاشخاص

«كانوا من العلماء والمدرسين بالجامع الاعظم الذين يقبضون المرتب العلمي كما جاء ذلك بحسابات النظار المعاصرين لهم بتاريخ 1149 وفاتح 1150 لغاية محرم الحرام فاتح 1151»، ثم عقب على هذا بقوله : «وربما كان ذكر بعضهم قد تقدم في التراجم السابقة».

وإذا صح ما تضمنه هذا التعقيب فمن المحتمل ان يكون مترجمنا هو احد هذين الشخصين الاخيرين. وبذلك فلن تتجاوز تسميته في احسن الحالات معرفة اسمه (محمد) واسم ابيه (محمد) ونسبه (البوعصامي) على انه لاسبيل الى وقوع أي التباس بين صاحبنا وبين سمية ومعاصره محمد بن عبد الرحمن البوعصامي دفين مكناس عام 1126، فان ترجمة هذا الاخير عارية عن اية اشارة الى ما يدل على الاهتمام بالموسيقى، كما انه لا سبيل الى الخلط بين صاحبنا وبين محمد البوعصامي دفين فاس 1195 فلقد كان هذا الأخير خامل الذكر ملازما العزلة عن الناس، وهما صفتان ابعد ما تكونان عن صاحبنا، فضلا عن الفارق الزمني بينهما اذ نستبعد ان يكون صاحبنا قد امتد به العمر الى نهاية القرن الثاني عشر.

وحيث ان المصادر المذكورة لاتسعفنا في تحديد تاريخ ولادة ووفاة محمد البوعصامي، فلن يسعنا سوى ركوب مسالك التقدير وضروب التخمين لمعرفة الفترة التي عاش فيها، وهي فترة نرجح انها تتراوح بين اواخر القرن الحادي عشر واواسط القرن الثاني عشر، فان الاشارات والمعلومات المتفرقة في المصادر التاريخية والفنية التي اهتمت باخبار البوعصامي تدل على انه عاصر السلطان المولى اسماعيل (1082—1139)، وخدم ابنه المولى عبد الله (1139—1171) حيث «كان من جملة شعرائه» بعد بيعته الاولى عام 1141 (11) وانه كان حيا ما بين 1149 و 1151 اذا صح انه هو نفسه كان من بين المستفيدين من المرتبات العلمية طبق ما ورد في القائمة الحبسية السالف ذكرها، كما تدل تلك المصادر على انه عاصر جملة من الاعلام المغاربة، كان فيهم الاديب محمد بن الطيب العلمي، والشاعر محمد بن زاكور المتوفى عام 1120 — 1708، والمؤرخ محمد الصغير الافراني المتوفى عام 1151 — 1738.

وفي اطار البحث عن مصير أسرة البوعصاميين الذين توافروا بمكناس خلال القرن الثاني عشر، ينتهي بنا استفتاء كتب التراجم وكذا البحث الميداني الى النتيجتين التاليتين :

1 — إن أفراد هذه الاسرة تحولوا تباعا الى مدينة فاس حيث استقروا نهائيا، وذلك ابتداء من اواسط القرن الثاني عشر. فقد سبقت الاشارة — نقلا عن الاتحاف — الى ان احد هؤلاء، وهو محمد البوعصامي المعروف بالفقير توفي بفاس عام 1195هـ، كما يشير الكتاب نفسه الى تحول ابي العباس احمد بن عبد المالك الى هذه المدينة أواخر عمره ومكوثه بها حتى وفاته عام 1209 هـ (12).

2— انه يوجد حاليا بمكناس اسرتان تنتميان الى تابوعصامت، احداهما أسرة السيد عبد الكريم البوعصامي الذي يحترف التجارة في معمل له بالقرب من قيسارية الذهب. وهو رجل مسن يناهز الثمانين عاما.

والثانية أسرة الحاج محمد بن احمد بن سعيد البوعصامي الذي كان حتى عهد قريب يشتغل مقاولا في البناء. ومسكنه بالقرب من زاوية سيدي على منون.

وفيما يحدد هذا الاخير قدومه من تابوعصامت الى مدينة مكناس في عام 1933، فان الاول يزعم ان جده كان اول من قدم الى هذه المدينة، وبذلك لا تتجاوز اقامة اسرته بمكناس في أقصى الحالات مائة وعشرين عاما (1286—1869).

ثقافة البوعصامي : يعتبر كتاب الانيس المطرب اهم مصدر يعتمد في الوقوف على ثقافة محمد البوعصامي. فهو «بليغ عصره، امام الادباء في مغربه ومصره، رحل الى المشرق وأخذ عن الايمة أعلام هذه الأمة، وقصد المشيخة، وبهر في علم النحو، وعارض المناطقة بألسن إيجازه الناطقة، وخاض في البديع بحرا، وصنع من البيان للعقول سحرا، ويسر من التفسير كل عويص وعسير، وعرف أخبار الدول، وفعل الزمان بالأمم الأول» وقد أهله تكوينه هذا ليعتلي كراسي التدريس بعد عودته إلى وطنه. وفي ذلك يقول العلمي أيضا « ثم رجع إلى المغرب بكل معنى يطرب وانتهى إلى فاس واستقر فمكث بها دهرا، ثم انتقل إلى مكناسة وحلها حلول الظبي كاسه، فتصدر للتدريس، وظهر ظهور ابن ادريس».

ومن هذه الترجمة التى ساقها ابن زيدان في اتحافه غير كاملة يتجلى ان البوعصامي في رحلته الى المشرق اخذ عن ائمة علوم اللغة والتفسير والمنطق والتاريخ، وانه بلغ في علم العربية درجة فاق بها معاصريه «ونودي بإسمه فارتفع بالافراد والعلمية» على حد تعبير العلمي.

والى جانب أخذ البوعصامي بهذه الالوان المعرفية، فقد كشف صاحب «الروضة الغناء» عن مشاركته في ميدان نظم الشعر، وساق له موشحتين، مطلع الاولى:

ملك الحسن والجمـــــــــال   ماسْ من غصن رطيب سَمَـــر
قده اللَّـــدنُ في اعتــــدال   بالغزالـــة والقضيـــب يُـــزري
قلت والقـــلب في ارتعِـــاجْ   للغـــزال وقـــد خطـــرٌ أهـــلا
قد سلـــلت من الدَّعَـــاجْ   مرهـف مهجتـــي تُبَـــر مهـــلا
صَيّر القـــومَ حين عـــاج   فيهـم فاتـــكُ الحَـــوَرْ قُتَـــلا

ومطلع الثاني:

جـــــد بالصـــــــدام   فالشمس حانـــت للمغيــــب
الشمس مالـت للســـرار
أرخت سلـولا من نضـــار
تفت مسكـا وعـــذار

كما أورد ابن زيدان قصيدة له في التشوق الى الديار المقدسة يقول في مطلعها:

سيحـي بدمـع كالعقيــق محاجـري   شوقـا لطيبـــة والعقيـــق وحاجـــر
تلك المعاهـد حيث اظهـر دينـــه   رب البريـــة بالرســـول الظاهـــر
سر الوجـود محمـد خير الـــورى   والمنتقى من كـــل أصـــل طاهـر

والقصيدة طويلة يتجاوز عدد ابياتها الثلاثيـن.

أما عن ثقافته الموسيقية ـــ وهي بيت القصيد من هذا العرض ـــ ففي وسعنا ان نقف على بعض من جوانبها بلم شتات ما تفرق في المصادر من أخبار.

وتنطلق هذه الاخبار في البداية مع العلمي ليحمل الينا اصداء رحلة مترجمنا الى القاهرة فيقول «وأتى في الموسيقى بكل خارق، وانسى ذكر الموصلي ومخارق» ويقول ايضا: «وله في هذه الصنعة قدم راسخة، ومكانة مكينة شامخة» ويقول في نهاية ترجمته له: «أخبرني انه أخذه (يعنى علم الموسيقى» قراءة وإجازة عن عدة أشياخ من علماء مصر القاهرة وشهدوا له فيه بالتقديم».

ثم ينتقل بنا العلمي الى دنيا المجالس الخاصة، فيروي في اسهاب مساجلة ادبية جرت بينه وبين صاحب له اسماه ابا العباس سيدي احمد الشريف، كان البوعصامي فيها بطل الميدان، عازفا ومغنيا، قد «مد يده الى العود، والعود بين انخفاض وصعود.... فاستخبر العشاق بتوشيته، ورفل في حلل الغناء وأرديته، وعام في خلجان الاتقان وأوديته».

وتتضمن هذه المساجلة جملة من الاشعار تكشف عن المستوى الرفيع الذي أدركه البوعصامي في العزف على آلة العود، فهو اذا جسه بأنامله أتى بشيء قل ان يجاريه أحد فيه:

يجس باطـراف الانامـل عـوده　　فيأتـي بشيء ليس فيه يُجَـارى

وادا سمع الناس نغمات عوده فعل فيهم دلك فعل السحر:

وغنى بعود وهـو سكـران · أعيـن　　فصيـر منه السامعيـن سكـارى

واذا وقع على اوثاره أزرى بعلي بن نافع وأنسى دارات معبد:

أمسى يجس العـود جسـا محكمـا　　فزرى بزرياب وأنـسى الـدارا (13)

وتتجلى اهمية كتاب العلمي مرة أخرى في عنايته بنقل جملة من الدروس التي كان البوعصامي يلقيها على تلامذته، وهي دروس تتعلق بمعرفة النغمات الثمان وطريقة استخراجها من أوتار العود، ومنهج تعليم موسيقى «الالة» وتسوية العود، والطبوع وعلاقتها بالطبائع الاربع، والالات الموسيقية، واثر الغناء في الحيوان، وغير ذلك.

ونقف عند منهج تعليم الموسيقى الاندلسية فنجده يقول: والعادة جارية بتقديم بحر الرمل في التعليم لقرب مأخذه وخفة مؤونته. وهو البحر المركب من ستة أجزاء سباعية وهي:

فاعلاتـن فاعلاتـن فاعلاتـن　　فاعلاتـن فاعلاتـن فاعلاتـن

ذخل الحذف في عروضه وضربه، فتحول جزؤهما السباعي الذي هو «فاعلاتن» الى الخماسي الدي هو «فاعلن».

وقد استقصيت مطالع الميازين الخمسة والخمسين لضبط ما جاء منها على بحر الرمل فلم أجد غير واحد هو قدام رمل الماية ومطلعه:

احمد الهادي الرسـول المجتبـي　　دوحـة المجـد وينبـوع الشـرف

على حين ترد صنعات من هذا البحر في مواقع متباينة من ميازين اخرى، وهي في مجملها لا تتجاوز العشرين، الامر الذي لا يفسره الا دخول تغييرات وتعديلات على ترتيب الصنعات في الميازين بالنسبة لما كانت عليه أوائل القرن الحادي عشر، وهو أمر يفسره تعقيب الفنان محمد بن محمد الرايس مصحح كتاب العلمي في حدود عام 1305 اثبته على هامش عبارة البوعصامي السابقة ونصه: بل العادة الجارية في ابتداء التعليم ببحر المجثت في نغمة قدام الرصد.

وعموما فقد كان البوعصامي مقتنعا بأهمية الموسيقى كعلم جليل القدر، وفي هذا نقل عنه العلمي قوله: ان علم الموسيقى كان في الصدر الاول عند من يعلم مقداره من أجل العلم، ولم يتناوله سوى اعيان العلماء وإشرافهم. وفي هذا القول ما يذكرنا بموقف ابن خلدون من الموسيقى عندما اعتبرها ثالثة العلوم الناظرة في المقادير بعد علمي الهندسة والارتماطيقي، وجعل الغناء من الصناعات الشريفة بالموضع والداعية الى مخالطة الملوك الاعاظم (14).

وينبغي ملاحظــة أن البوعصامي برز في ظروف بلغ فيها الاهتمام الموجه الى تنظير علم الموسيقى المغربية وخاصة الموسيقى الاندلسية التي شكلت النموذج المثالي للابداع المغربي يومذاك ـــ مكانة مرموقة: فقد سبقت اعماله محاولات رائدة أنجزتها فئة من حملة الثقافة المغربية بالمفهوم الشمولي للثقافة، كان فيهم عبد الواحد بن احمد الونشريسي المتوفى عام 955 ه‍ 1549 م، وعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي المتوفى عام 1096، وهو صاحب كتاب الاقنوم في مبادىء العلوم الذي ضمنه منظومات رجزية تحدث فيها عن مائة وخمسين علما، كان من بينها علم الموسيقى وعلم طب الالحان. وله ايضا «المجموع في علم الموسيقى والطبوع».

كما مهدت أعمال البوعصامي لمنجزات محمد بن الحسين الحايك واحمد أحضري التي نستطيع اعتبارها بحق خلاصة الجهود المبذولة في هذا المضمار.

ومن هنا يمكن ان نقول بكثير من الاطمئنان: ان اعمال البوعصامي جاءت لتشكل مرحلة هامة في التنظير العلمي للموسيقى الاندلسية المغربية على أساس قاعدة نظرية أكثر حداثة، وذلك في ظروف طبعتها سيادة المنظومات والمجاميع المختصرة.

وقد كانت الموسيقي الاندلسية ـــ بالرغم من السمات التقليدية التي تطبع مظهرها ـــ أقدر سائر اصناف التراث الموسيقي المغربي على التعامل مع القاعدة النظرية، وذلك لطبيعة تكوينها القائمة على بنيات محددة، يفسرها قالب النوبة بما تحتضنه من ميازين تتوالى عبرها الصنعات الغنائية والمعزوفات الالية في سياق منتظم، وتضبطها موازين معينة تحدد نظام تعاقب الحركات الايقاعية، وتتحكم في سلم انغامها شجرة متكاملة من الطبوع والمقامات، وتلك كلها مقومات فنية ما يزال النظر فيها يشكل مجالا خصبا لاجراء الدراسات المقارنة.

ففي اطار هذا التنظير العلمي أقبل البوعصامي على تلقين دروسه في النظرية الموسيقية، وهي دروس يمكننا الوقوف على بعض نصوصها ضمن الترجمة التي خصه بها محمد بن الطيب العلمي في أنيسه.وتتناول هذه الدروس المواضيع التالية:

1 ـــ النغمات الثماني — 4 ـــ شجر الطبوع
2 ـــ ترتيب النغمات الثماني — 5 ـــ تسوية آلة العــود
3 ـــ الابعاد الموسيقية

1 ـــ في الدرس الاول يعرف البوعصامي بالنغمات الثماني التي عليها مدار الغناء والالحان، كما يعرف بطريقة استخراجها من اوتار العود الاربعة: البم، والمثلث (15) والمثنى، والزير، وقد مهد لهذا الدرس بقوله: ان اول ما يجب الاعتناء به معرفة النغمات الثماني التي عليها مدار الغناء والالحان. وكيفية اخذها على سبيل الترتيب من الاوتار الاربعة أن تعرف انها متفاوتة في البعد.

2 ـــ وفي الدرس الثاني يرتب المؤلف النغمات الثماني حسب تدرجها على أوتار العود الاربعة، وهو يسمي هذه النغمات بالحروف الابجدية الثمانية: أ ب ج د ه‍ و ز ح، الالف لاولاها، والباء لثانيتها، وهكذا. ثم يحدد مواقع عزفها على العود.

3 ـــ وفي الدرس الثالث يعرف المؤلف بالابعاد الموسيقية، وهي المسافات الصوتية الفاصلة بين نغمة واخرى.

ومن خلال هذه الدروس تبدو بجلاء رغبة البوعصامي في تطعيم النظرية التقليدية بجملة من المعطيات الجديدة، استقى مادتها من المعارف التي تلقاها بالمشرق، وتتمثل هذه المعطيات فيما يلـــي:

1) **المعجم الموسيقي**: فقد دشن اتجاها جديدا نحو توظيف المصطلحات الشرقية واستعمالها مكان مرادفاتها المغربية. ومن مستعملاته في هذا المجال:

— البعد الطني في الدلالة على البعد الفاصل بين درجة وأخرى مجاورة لها مثل أ — ب

— بعد بالاربع في الدلالة على البعد بين درجة ورابعتها مثل أ — د.

— البم والمثلث والمثنى والزير لاسماء الاوتار بدل الديل والماية والرمل والحسين.

— الدرس بالاصابع بدل العفق.

2) **المادة الموسيقية**: يوافينا احضري في مجموعته الموما اليها آنفا بما يفيد أن البوعصامي أجرى جملة من التعديلات تتعلق بنسبة الطبوع الفرعية الى أصولها. من ذلك انه الحق المشرقي الصغير بالمزموم بدلا من الذيل.

ومن جهة أخرى ينقل العلمي عن البوعصامي ترتيبه لطبوع الموسيقى الاندلسية على عهده فيجعلها اربعة وعشرين طبعا، خمسة منها أصول، وهي الذيل، والماية، والزيدان، والمزموم، والغربية المحررة، والطبوع الباقية متفرعة عن الاصول الاربعة الاول. وقد عزز شرحه للطبوع وفروعها برسم بياني على صورة شجرة «يظهر بذلك كل اصل وما تفرع منه عيانا». وهو رسم تناقله المنظرون فيما بعد واسموه شجرة الطبوع.

على ان اهم ما ينبغي الوقوف عنده هنا هو اظهار البوعصامي لطبع الصيكة المشرقي وادراجه ضمن الطبوع المستعملة في الموسيقى الاندليسة، مبرزا بذلك تأثره بالمعارف الموسيقية المشرقية. واذ يخبرنا أحضري بذلك فهو يزيد قائلا: إنه اشاعه وركب له تواشيه واستنبط جيشه (16)

والصيكة في مفهومها الشرقي كلمة فارسية مركبة من لفظين هما: سي — ومعناها ثلاثة — وكاه — ومعناها المكان أو المحل. وتعني الدرجة الثالثة من سلم الراست الذي هو السلم الموسيقي الاساسي العربي، وهي نغمة مي بالربع.

وينبغي ان نسجل في هذا الصدد انفتاح الفنون الموسيقية المغربية التراثية على المعارف الوافدة من الشرق العربي، غير ان الذي ظل يطبع هذا الانفتاح هو انصهار تلك المعارف في بوتقة الخصائص التي تسود أنماط وأساليب الممارسة الموسيقية المحلية. وهكذا فاذا كانت المقامات الشرقية قد شقت طريقها الى المغرب والاندلس مع الفتوحات العربية، ثم انفسح المجال باستمرار لاستقبالها فيما بعد، فان طبيعة اللحن المحلي أبت على تلك المقامات الا ان تتخلى عن مقوماتها الشرقية، وبذلك تبنى المغرب والاندلس المصطلحات الشرقية بألفاظها ولكنه لم يسعه ان يتبنى مدلولاتها.

وفي هذا المعنى أيضا يذكر الحايك في كناشه جملة من الطبوع الشرقية تسربت الى المغرب تحت تأثير النفوذ العثماني، غير أن أذواق العامة لفظتها لانها لم تناسب طبيعة النوبات الاندلسية.

ويبدو ان البوعصامي أضاف طبع الصيكة الى لائحة الطبوع المستعملة في إنشاد المولديات والمدائح كالبردة والهمزية، فان رجال السماع اعتادوا ان يكونوا سباقين الى تبني الانماط الغنائية المشرقية، ينشدونها في محافلهم وزواياهم، وهذه ظاهرة يفسرها تسرب الموشحات الحلبية الى اوساطهم وشيوع الالحان والمواويل الشرقية بارباع نغماتها في مجالسهم، ولعل مما يؤكد سبق موسيقى الامداح الى تبني طبع الصيكة الشرقي أن

النص الذي أورده العلمي في أنيسه حول الطبو ع خال من ذكره، وان احضري نفسه ذكره ضمن الطبوع الثلاثة عشر التي خصها بالمدائح، وان ادراجه ضمن الطبو ع المتداولة في انشاد ميازين الالة لم يعتمد الا مع محمد بن الحسين الحايك في مجموعه الذي انتهى منه عام 1214، أي بعد أن تخلى عن خصوصيته المشرقية (مي بالربع وسي بالربع) لتصبح نغمته بمقتضى الالحاق مولدة بالتلحين فيما بين طبعي الماية وغريبة الحسين.

3 ــ اعتماد آلة العود كأرضية لتطبيق النظرية الموسيقية، وهذه عادة متمكنة منذ القديم في البلاد المشرقية، انطلقت منذ عهد يعقوب الكندي المتوفى عام 260ه 874م كما يتجلى من رسائله في الموسيقى، وظلت عبر الحقب تتجدد اصداؤها في مؤلفات المشارقة ككتاب الادوار لصفي الدين عبد المومن الارموي المتوفى عام 693ه ــ 1294م، ومقاصد الالحان لعبد القادر بن غيبي المتوفى عام 838ه ــ 1434م. وقد نتج عن ذلك ان اصبحت هذه الالة محورا للنظرية الموسيقية وعمدة لمعرفة الاوتار وطرق تسويتها ومواقع عفق الاصابع عليها وموافقتها للطبائع الاربع وما يلائمها من الطبوع الاصول والفروع.

وقد صار البوعصامي على هذا النهج، فعمد في تعريفه للنغمات الثماني الى تحديد مواقعها على دساتين العود، وكذلك فعل العلمي عندما نقل طريقه أستاذه في تسوية هذه الالة.

4 ــ **التدويـــن:** نريد به كتاب النغمات الموسيقية بواسطة رموز وعلامات اصطلح الغربيون تسميتهما بالنوتة. وقد لجأ البوعصامي في محاولته تدوين الالحان الى توظيف الحروف الهجائية فقابلها بالعلامات الموسيقية وحدد لكل منها درجة معينة. وهكذا جعل الالف لنغمة الذيل، والباء لنغمة الماية، والجيم لنغمة الماية مع الدس بالسبابة، والدال لنغمة الماية أيضا مع الدس بالبنصر، والهاء لنغمة الرمل، والواو لنغمة الحسين، والزاي لنغمة الحسين مع الدس بالسبابة، والحاء لنغمة الحُسَيْن أيضا مع الدس بالبنصر.

والبوعصامي في هذه المرة ايضا يمتح من المصادر الشرقية، فينقل طريقة الكندي ــ ومن بعده مباشرة الفارابي ــ في تحليلهما لدرجات السلم الموسيقي العربي القديم كما أوضحاها في مؤلفاتهما الموسيقية، ويقتبس طريقة الارموي في استدلاله على مخارج النغم من أجزاء الاوتار. بل لعله أن يكون خلال اقامته بالقاهرة قد أخذ عن بعض رجال هذا الفن مباشرة أو اطلع على ما كتبوه في موضوع التدوين الموسيقى. فلقد تحدث احمد بن عبد الرحمن الموصلي الشهير بالمسلم المتوفى عام 1150 ــ 1735 في كتاب «الدر النقي في فن الموسيقى» عما يوافق المقامات من الاحرف حالة القراءة (17) مما يدل على شيوع التدوين بالحروف يومئذ بالبلاد العربية.

والبوعصامي في توظيف للحروف الابجدية رموزا لدرجات الديوان الموسيقى يعري تلك الحروف عن مدلولاتها الشرقية ويخضعها لمقتضيات سلم الطبع الاندلسي. وبذلك فهو يختلف عن الكندي (18) الذي جاءت رسالته لتعكس النظرية الفيتاغورية في تشخيصها للسلم الملون (الكروماتي) القائم على انصاف الابعاد الطنينية، كما يختلف عن الارموي (19) الذي جاءت نظريته لتعكس طبيعة المقام العربي الاسلامي في القرن السابع والذي أصبح يحمل ملامح المقام لدى الشعوب التركية، حيث تتوالى أنصاف الطنين وأرباعه في سياقات معينة. وبذلك ايضا اصبحت الحروف الثمانية لدى البوعصامي ذات مفاهيم مغربية محلية تلائم نظام السلم الطبيعي الذي يسود الطبو ع الاندلسية بالمغرب، على حين كان المقام العربي في القرنين الثالث والرابع يقوم على اثنتي عشرة درجة، ثم غدا على عهد الارموي وبحكم تأثر الموسيقى العربية بموسيقى الشعوب التركية والهندية يقوم على سبع عشرة درجة.

وفيما يلي جدول يساعد على تبيان الفرق بين مفاهيم الحروف الابجدية عند كل من الكندي والارموي والبوعصامي:

الحروف الأبجديـة	ما يقابلها عند الكندي والفارابي	ما يقابلها عند الأرموي	ما يقابلها عند البوعصامي
أ	لا	لا	ضـو (20)
ب	مي ط	مي ط	ري
ج	سي	سي ك	مي
د	ضـو	سي	فا
و .	ضـو #	ضـو	صـول
هـ	ري	ضوكار #	لا
ز	مي ط	ضو #	سي
ح	مي	زي	ضو
ط	فا	مي ط	
ي	فا #	مي ة	
يا	ك صول	مي	
يب	ل لا ط	فاكار #	
يج	ا لا	فا #	
يد		فا # (+)	
يه		صول	
يو		لابيمول	
يز		لا ك	
يح		لا	

ويسوق العلمي في كتابه نموذجا لصنيع أستاذه في مجال التدوين، فيقدم نسيجين لحنيين لبيتين من منظومة على بحر الرمل المحذوفة عروضه وضربة.

وفي هذا يقـــول:

أ ب ج د ج أ ب ج د ج أ ب ج د ج أ ب ب أ ب ج د ج أ ب ج د ج ب أ أ

هذا هو البيت الاول بتمامه. وفي البيت الثاني مخالفة في جزئه الاول والاخير.

وصورته ايضا هكـــذا:

هـ و هـ ج أ ب ج د ج أ ب ب أ ب ج د ج أ ب ج أ ب ج د ج أ ب ب

فعروضه وضربه متفقان في الاخذ على هذا العمل، فقس (21)

وبعد تحليل هذين النسيجين يمكن أن نستنتج ما يلي:

أولا: ان لحن البيت الاول يقيم جملة موسيقية كاملة تقوم على فقرتين لحنيتين، اولاهما تقف عند النغمة الثانية من سلم المقام، وهي لحن الصدر، والثانية تنزل بالجملة الى قرارها لتخلق لدى المستمع الاحساس بالنهاية، وهي لحن العجز.

ثانيا: ان لحن البيت الثاني متولد عن لحن البيت الاول، وهو بدوره يقيم جملة موسيقية تقوم على فقرتين. تقف كلاهما عند النغمة الثانية من سلم المقام وبذلك يظل السامع متطلعا الى نهاية اللحن، هذه النهاية التي لن توافيه الا باعادة لحن البيت الاول.

ثالثا: ان العودة الى انشاد لحن البيت الاول ضرورة تحتمها النهاية التي تفرض في سياق الغناء العربي والوقوف على قرار اللحن الموسيقي.

واذا صحت هذه الاستنتاجات فسندرك ان المقطوعة الشعرية خماسية الابيات، وانها تقوم على لحنين موسيقيين، يشكل اولهما دخول الصنعة، وهو لحن البيت الاول والبيت الثاني والبيت الثالث والبيت الخامس، ويشكل ثانيهما تغطية الصنعة، وهي لحن البيت الرابع.

غير ان العناصر التي يطلعنا عليها العلمي لاعادة بناء هذه الصنعة لا تسعفنا في تحديد هيكل نسيجها اللحني لخلوها من أي رمز يدل على المدة الزمنية التي يستغرقها كل حرف من الحروف، وذلك بالرغم من اشارة العلمي في نهاية النص السالف الى استخراج اللحن (كامل الوزن والنغمات) (22).

وهكذا ينقص عملية التدوين عنصر الايقاع، ويبقى أمام الباحث احتمال أن يكون محمد بن الطيب العلمي قد اكتفى بايراد بعض دروس اساتذه دون البعض وأن يكون الدرس المتعلق بالايقاع مما زهد فيه أو غفل عن ذكره.

وقد يكون امساك البوعصامي عن ذكر المدة الزمنية للنغمات بسبب اعتماده لاجزاء تفعيلات البحر العروضي في تقطيع اللحن الموسيي.

واذا جازلنا ان نعيد تركيب لحن البيتين على اجزاء التفعيلات الستة لبحر الرمل الذي دخل الحذف عروضه وضربه، فلعلنا ان نقارب ما رسمه البوعصامي بالحروف الابجدية.

وسوف لن نبتدع جديدا طالما ان هناك صنعات كثيرة يجري تقطيع الحانها على اجزاء التفعيلات وخاصة في قفلات الميازين كقفلة قدام الحجاز الكبير من بحر المتقارب والتي مطلعها.

رأيت الهلال ووجهه الحبيـــب فكانـا هلاليـــن عند النظـــر

5 ـــ طريقته في التدريـس:

تعلن دروس البوعصامي ـــ كما وردت في كتاب الانيس المطرب ـــ عن رغبته في تأسيس اسلوب جديد في التعليم الموسيقى بمغرب العهد الاسماعيلي، وهو اسلوب ينهض على طريقة خاصة تجمع الى حداثة المعارف التي يقدمها نهجا مبتكرا يعتمد على طرح القاعدة النظرية كأرضية ضرورية لتأطير العملية التعليمية وقبل الدخول في مرحلة التطبيق العملي.

ومن أجل إقرار هذا النهج، فانت تراه يستهل دروسه أو يختمها بما يفيد ان المعرفة النظرية هي اساس تحصيل علم الموسيقى، من ذلك مثلا قوله في بداية دروسه عن النغمات الثماني «ان اول ما يجب الاعتناء به معرفة النغمات الثماني التي عليها مدار الغناء والالحان» وقوله في ختام درسه عن ترتيب النغمات الثماني «فاذا علمت مراتب هذه النغمات وصار استحضارها عندك ضروريا وجرت يدك فيها على الأوتار من غير توقف، سهل عليك اخذ ما تريد من الوتر باحرف ا ب ج د الثمانية»(23).

وعندما نتأمل اسلوب البوعصامي التعليمي هذا لنقارنه بما كانت عليه طرق التعليم بالمغرب والاندلس

عبر العصور، نكاد نصرح في شبه يقين انه شكل حلقة يتيمة في مسلسل عملية التعليم الموسيقي بهما، فلا هو يجد ما يربطه بطرق زرياب وابن باجه وابن جودي ومن تلاهم من رجال هذا الفن، ولا هو يأخذ بطريقة الترجيع والتوسيد التي يعتمدها ملقنو الموسيقى الاندلسية في وقتنا الحاضر كوسيلة لترسيخ اللحن والايقاع لدى المتعلمين، والتي لم تستطع حتى معاهد التعليم الفني ذاتها التخلص من قيودها.

خاتمـــة: هذه بعض وجوه التأثير التي حاول البوعصامي ان يطعم بها النظرية الموسيقية المغربية، ولعلنا ان نخلص بعض استعراضها الى اعتبار صنيعه في هذا المضمار محورا لتوثيق صلاة التعامل بين شقي التعامل بين شقي العالم العربي في مجال تبادل المعارف والخبرات الموسيقية وهو تبادل برز على الساحة الفنية في مغرب القرن الثامن عشر ليشهد على تفتح بعض ألوان الموسيقى المغربية في صورها المحافظة على معطيات مشرقية تحمل غير قليل من سمات التأثير العثماني، وذلك في ظروف مبكرة وسابقة بكثير لما عرفته مطالع القرن العشرين التي شهدت نشوء ما أسماه المنظرون اليوم بالموسيقى المغربية العصرية.

وما من شك في ان تيارات التأثير التي أعقبت قيام الامبراطورية العثمانية ومكنت بعض أنظمتها وطقوسها من التسرب الى المغرب منذ العهد السعدي، ساعدت هي ذاتها على تسرب بعض التقاليد والمعارف الموسيقية العثمانية الى بلادنا، فتبنى المغرب نظام الجوقة النحاسية لمرافقة المواكب الملكية، واستقبلت بعض اوساطنا الفنية طبوعا مشرقية جديدة لا إمراء في نسبة بعضها الى الموسيقى التركية، وكانت مجالس اصحاب المديح النبوي في مقدمة هذه الأوساط. وتلك ظاهرة ليس لها من مبرر سوى مثانة الروابط التي ظلت ـــ على مر العهود ـــ قائمة بين اطراف العالم الاسلامي مهما شطت بينها المسافات، والتي اضطلعت فيها الزوايا والرباطات هنا وهناك بدور الريادة، فكانت بحق مراكز لترجيع نماذج موحدة من الافكار والاوراد والتواشيح والمواويل يتلقاها رجال الصوفية، ثم ينطلقون في كل صوب لينشروها ويعمموا تداولها.

وفيما كان فن السماع ـــ ونعني به موسيقى المسمعين حسب المصطلح المغربي ـــ متفتحا على مختلف التيارات الوافدة، تحت غطاء النزعة الوحدوية التي يحملها شعارا، كانت الموسيقى الاندلسية ـــ او الآلة ـــ خاصة تملك من الحصانة والمتانة ما ساعدها على رفض الخصائص التي حملتها الطبوع المشرقية الوافدة، ومن ثم لم يسع هذه الاخيرة ا ان تتخلى عن ملامحها تلك لتنصهر في بوتقة الطبوع المغربية كما ارتضتها أذواق الممارسين والهواة، ورفضت ما سواها.



الهوامـــش

(1) ج 1 س 446 — 447.
(2) الخزانة العامة عدد 192.
(3) دليل مؤرخ المغرب الأقصى. رقم 2061.
(4) مخطوطة بخزانة الأستاذ محمد المنوني.
(5) عند ترجمته لأحمد أحضري.
(6) ص 118.
(7) الاستقصا. ج 7. س 13 — 15.
(8) الأنيس المطرب ص 193.
(9) الاتحاف ج 4. ص 128.127.
(10) نفس المرجع ص 303 — 304.
(11) تاريخ الضعيف ص 112.
(12) الجزء الخامس، س 345.
(13) وقف معبد مرة يفاخر قتيبة بن مسلم والي خراسان وفاتح المدائن الخمس فقال له «والله لقد صغت بعدك خمس أصوات انها لأكثر من خمس المدائن التي فتحت» وتسمى دارات مبعد انصا بحصون معيد، والكلمة في البيت مرخصة تبعا للسياق المعنوي.
(14) الفصل الثالث والعشرون في الاشارة إلى أمهات الصنائع.
(15) المثلث على وزن مطلب، والمثنى على وزن المبنى مفاتيح العلوم للخوارزمي ص 137.
(16) ص 205 من الباب الخامس والأخير.
(17) الباب الثالث : تحقيق الشيخ جلال الحنفي. مطبعة البجمهورية بالعراق. 1964
(18) مؤلفات الكندي الموسيقية الرسالة الأولى. ص 47 تحقيق زكرياء يوسف.
(19) كتاب الأدوار، الفصل الثاني، ص 25 تحقيق الحاج هاشم الرجب.
(20) عمدنا إلى تاويل الحروف بالمفهوم الحالي لاسماء الأوتار، فالذيل الذي جعلت له الآلة يقابل نغمة صو.
(21) الانيس المطرب ص 176.
(22) نفس المرجع.
(23) الانيس المطرب ص 174

Introduction à l'étude de la poésie berbère du Moyen-Atlas : Les métaphores cosmiques et animales comme constantes du chant d'amour

Mohamed Taïfi
Faculté des Lettres — Fès

Vu le temps qui nous est imparti, il est pratiquement impossible de faire une approche approfondie du phénomène littéraire dans la région du Moyen-Atlas. Nous nous contenterons donc de saisir un des aspects particuliers de cette littérature, l'aspect même le plus important à notre sens puisqu'il est l'élément générateur de la création poétique. Le thème qui fera l'objet de notre brève analyse est la présence de la femme et des métaphores cosmiques et animales dans la poésie du Moyen-Atlas. On tentera si le temps nous le permet d'aborder la structure globale du poème ainsi que ses techniques de fonctionnement.

Disons pour commencer que ces dernières années, la littérature berbère connaît un regain d'actualité. Grâce à la radio, à la télévision et surtout à l'invasion de la mini-cassette, la chanson berbère est diffusée non seulement à travers les régions du Royaume, mais également au delà des frontières. On ne peut pas se ballader dans les quartiers populaires de Marseille ou de Paris sans entendre la voix suave des Cheikhates de l'Atlas. Ce regain d'actualité est favorisé en outre par l'intérêt que portent à la littérature berbère beaucoup de chercheurs et d'universitaires soucieux de sauvegarder ce patrimoine culturel en déperdition. Le nombre de thèses inscrites sur ce sujet est là pour porter témoignage. Retenons à titre d'exemple quelques chiffres significatifs. Sur 20 thèses répertoriées entre 1970 et 1983, 13 sont consacrées au Maroc (7 au Moyen-Atlas, 3 au domaine Chleuh et 2 au Rif). Précisons que dans cette communication, seule la littérature du Moyen-Atlas fera l'objet de notre analyse.

Situation de cette littérature

La littérature que nous nous proposons d'analyser sous un angle purement littéraire est exprimée essentiellement en Tamazight utilisée pratiquement dans le Maroc central.

Nous n'aborderons pas les chants des Aït Hdidou des Aït Marghad, des Aït Atta, des Aït Izdegu, même si la tamazight pratiquée par ces tribus est compréhensible aux berbères du Moyen-Atlas. Nous nous sommes intéressés uniquement à la littérature des autres tribus à savoir les Aït Mguild dont le territoire s'étend des régions de Midelt jusqu'au plateau d'Itto, des Aït Ndir se situant entre le plateau d'Itto et Meknès et entre Ifrane et Agourai, des Aït Younssi éparpillés à l'intérieur du triangle Ifrane-Sefrou-Fès, des Zayans qui s'étendent d'Oulmès à Khénifra et enfin des Igarounes allant d'Agourai à Khémisset. Nous constatons aisément que Meknès, ville historique, est le carrefour des tribus berbères qui descendent des montagnes; des tribus ayant les mêmes visions du monde, les mêmes occupations agraires ou pastorales, vivant les mêmes traditions ances-

trales, nourrissant les mêmes conceptions artistiques et esthétiques.

C'est donc un certain attachement à la vie simple, à la nature, un certain amour du terroir qui donne à la littérature berbère son cachet particulier. De nos jours encore, quoique subissant une légère transformation sous l'influence des langues policées et modernes, les dialèctes berbères n'ont tout de même pas cédé le pas à d'autres, ils collaborent activement au contraire à l'enrichissement du patrimoine culturel du pays et à sa diversité. Il y a donc lieu de donner à cette littérature toute l'importance qui est la sienne et à la considérer comme l'expression d'une culture authentiquement marocaine, authentique mais vulnérable, car elle est transmise par la voie de l'oralité et les vieux qui possèdent le savoir sont en voie d'extinction. Retenons avant de clore cette introduction la fameuse phrase du sage africain Cheikh Hampaté BA: «Un vieillard qui meurt est une bibliothèque qui brûle».

Questions méthodologiques

Après cet aperçu bref où nous avons montré la nécessité d'analyser cette littérature orale du Moyen-Atlas, cet aperçu qui passe pour être un appel à la sauvegarde de ce patrimoine culturel national, nous soulevons naturellement un certain nombre de problèmes d'ordre méthodologique qui peuvent se poser à tous chercheurs dans ce domaine. En effet, il n'est pas facile de faire le tour de tous les genres littéraires existants; de la chanson accompagnée d'instruments musicaux et vulgarisée par les masses-médias aux autres genres plus hérmétiques tels que « Tamadizth» accompagnée d'un violon, «Ihallil» chantés sans accompagnement musical, les chants de laboureurs, des moissonneurs, des bergers, sans oublier toute une littérature gestuelle pratiquée ici et là à travers les territoires du Moyen-Atals. La gamme est variée et les circonstances qui engendrent cette production littéraire sont également diverses. Il faudrait donc pour ce travail de longue haleine, faire des enquêtes sur le terrain, assister aux différentes cérémonies telles que les fêtes nationales, les fêtes rituelles, les «lama», les Mousems, assister aux mariages, aux circoncisions, bref fréquenter souvent les milieux producteurs de ces textes littéraires oraux.

Une fois le corpus rassemblé, on se heurte à un problème de taille à savoir la traduction. A ce propos, le chercheur se trouve indéniablement devant une alternative:

Ou bien faire une traduction littérale des mots et des phrases qui composent le chant et sacrifier le rythme et la musicalité des vers poétiques.

Ou bien s'intéresser à l'esthétique de la phrase en langue de traduction (Arabe ou Français) et déformer l'esprit même du poème. Il nous semble à nous plus fructueux de transmettre d'une manière plus ou moins parfaitement syntaxiquement, la beauté et la richesse de cette littérature. Dans tous les cas, toute traduction est loin d'être parfaite et traduire, c'est toujours et c'est nécessairement trahir un peu. Quelque soient les efforts entrepris dans ce domaine, bien des comparaisons, bien des symboles, bien des métaphores demeurent à jamais intraduisibles et le sens profond à jamais amputé, diminué.

Analyse du chant d'amour

Dans le cadre d'un colloque pluridisciplinaire comme celui-ci, nous ne pouvons faire une étude spécialisée de cette littérature dont on vient de souligner les

contours. Du projet initial nous retiendrons seulement les chansons accompagnées de Genbri ou de violon de bendir. Autrement dit les chansons les plus diffusées à l'échelle du territoire marocain.

Nous constatons en gros que le chant d'amour est structuré de la manière suivante:

Phase 1: L'éloigement entre les deux amants

Cet éloignement peut être d'ordre spatial, d'ordre social ou d'ordre racial. L'amant qui est loin de sa bien-aimée la chante. Dans cette phase, l'amour est rehaussé au dessus de toutes les autres valeurs et surtout il est au dessus de toutes richesses matérielles. En l'absence de l'être chéri, le monde est vide et les éléments qui le composent ne revêtent aucune signification.

Comme le dit si bien Amlal Kaddour:

« A quoi servent les moutons
A quoi servent les vaches
Mon cœur brûle de feu (d'amour)
Que les souvenirs allument en moi
Même si je nage dans l'or
Quant mon amour est absent....»

Dans ces vers, l'amour est mis au dessus de la matière considérée comme éphémère à côté de l'éternité de l'amour.

L'éloignement d'ordre spatial représente ici le stimulus poétique le plus important.

Je t'aime et tu n'est pas ici
Il m'est impossible de te suivre...»
Répete El Ghazi Benaceur, ou encore:
«O ma mère,
Répétez lui, je vous en prie
Je suis un étranger, je suis un solitaire».

Nous ne pouvons affirmer que cet espace qui sépare les deux amants soit un obstacle absolument infranchissable, il y a au moins le souhait de le dépasser, de l'abolir afin de permettre cette rencontre tant attendue.

« Envoie-moi une lettre
Et je viendrai
Le désir de te voir
Se fait de plus en plus ardent».
Et Rouicha de continuer:
« Même si tu es de l'autre côté de la mer
Il y a des bateaux et je te rejoindrais».

Dans ces premiers vers illustrant le désir de briser l'obstacle, il y a intégration d'un élément nouveau jusque là ignoré : la lettre. La lettre remplace de plus en plus le moyen traditionnel de transmission des sentiments à savoir le messager (Amazan). On se passe de nos jours de cette tierce personne et on a tendance à garder le secret.

«Viens me voir toi-même

Je n'ai que faire des messagers». Dit encore la chanson. Malgré le rejet du

messager, les amants restent encore à la merci du scripteur.

La distance sociale comme la distance spatiale peut-être à l'origine de la création poétique. L'amour semble capable d'abolir les différences de classes et d'annuler les antagonismes sociaux. Par le biais du chant, le poète détruit les frontières et défie les obstacles géographiques et humains, puisque l'amant s'accapare en esprit de l'être aimé que les autres ont éloigné de lui. Pensée, image, mirage, souhait, montrent admirablement cette aspiration vers un être qu'on n'a plus.

Le portrait poétique de la femme naît de la séparation et de la nostalgie.

«J'ai passé la nuit dans la tristesse de ton absence» ou encore

Quand l'image de la femme aimée se présente à l'esprit du poète, il s'éveille et se lève».

La femme absente, rêvée est donc dans le chant berbère, source de création poétique.

Phase 2 : Rencontre et réalisation du rêve

Il arrive que l'amant devienne possesseur de son « Trésor», qu'il vive à ses côtés corps et âme, bref que l'amour idéal se réalise, que la consommation de l'acte charnel ait lieu, alors, tous les sentiments qui étaient à l'origine de la création poétique disparaissent. Le chant fait place à l'acte, le réel inonde l'imaginaire et l'étouffe. Pas de souffrances dûes à l'éloignement et à l'absence, pas de chant.

Contrairement aux états d'âme de la première phase où l'amant pleure de tristesse, de chagrin, de désespoir, ceux de la deuxième phase sont plus lucides, moins passionnels. Le discours poétiques change également. Il devient plus réaliste et la langue utilisée sort presque du registre de la poéticité pour entrer dans celui de la langue usuelle, c'est-à-dire de la langue de tous les jours.

«Je te prendrai
Jusqu'au dessus de ma poitrine
C'est le cœur qui t'aime
Qu'il soit rassasié
De t'avoir trouvé»
ou encore
«Je suis tel un vautour
L'habitué du sang
Surveille les rochers»

Les mots poitrine, rassasier, vautour et sang sont ou banals ou violents et partant, atténuent considérablement la portée poétique du chant.

Pour être plus concis, nous proposons de structurer le thème de l'Amour de la manière suivante:

Première phase

1°) Eloignement entre A et B (les deux amants)
— Distance spatiale
— Distance sociale

— Distance raciale
— Distance d'âge

2°) Obstacles divers empêchant A de contacter B
— D'ordre naturel: forêts, fleuves, chaleurs, froid etc..
— D'ordre social: famille, mari autoritaire, voisins curieux, gens en général.

«Je me suis disputé avec mes parents
Ils m'ont traité de tous les noms...
Comme si mon père ignorait le Mal des filles».
ou encore
«Mon amour, tu es tel un pays objet de querelles
Que de fois je t'ai disputé
Que de sacrifices pour toi».

— D'ordre culturel et religieux

3°) Contenu du discours poétique

A cherche B qui est insaisissable comme un poisson dans l'eau

A appelle B qui est sourd à ses appels et qui vole d'une fleur à l'autre comme un papillon

A pleure B qui est gai et insouciant
A envoie des messagers à B qui les congédie

4°) Les Etats d'âme de A pendant cette phase:
Tristesse, chagrin, ennui, angoisse et désespoir.

A cherche un remède à son Mal que ni les médecins (inutilité de la science devant la maladie d'amour), ni les sorciers, ni les Seids ni les Fquihs, n'arrivent à guérir.

Seul l'amour guérit l'amour. La mort quant à elle représente souvent la délivrance.

«Je vais très mal O mort
Venez emportez moi
Je préfère le cimetière au lieu où tu n'est pas»

(en s'adressant à son bien-aimé)

Deuxième phase

1°) Caractéristiques de cette rencontre: Elle est brève et passagère quelques jours et quelques nuits, un jour ou une nuit seulement.

2°) Discours poétique: Il est nettement appauvri. La réalité vient appauvrir l'imaginaire et le fictif. En retrouvant B, A ne souffre plus et donc ne chante plus. Seule d'idée d'une éventuelle séparation peut rendre cette phase fertile en création poétique et Rouicha de dire à ce propos:

«Je t'en supplie, Amour de mon cœur
Quand on se séparera
Ne raconte mes misères à personne».

Le portrait de la femme et les métaphores cosmiques et animales

Avant d'entamer les métaphores cosmiques et animales présentes dans le chant amoureux, relevons d'abord certains éléments érotiques exploités par les chanteurs berbères.

1°) Les cheveux semblent être pour le poète un élément privilégié. Tressés ou épars, ils sont toujours présents dans le poème.

«Viens dormir auprès de moi
Et de tes cheveux épars
Protège moi du froid»
ou encore
«O vous au longs cheveux retombants»

Le poète compare la femme à une pouliche dont les cheveux atteignent les fers et formule le souhait de la chevaucher:

«Il sied à une pouliche
Que son dos soit gras lisse
Qu'elle dresse l'encolure».

2°) A côté des cheveux, d'autres éléments du visage sont également présents. Citons les dents, les sourcils, les yeux et surtout l'œil fardé de Koheul. Il y a très souvent opposition entre les yeux noirs et les dents blanches. De même, le poète insiste sur l'écartement qui existe entre les dents.

«C'est l'écartement que tu as entre les dents que j'aime». Du côté de l'ornement nous ne pouvons que constater la négligence des poètes pour le vêtement et les bijoux, de même, ils ne font allusion qu'aux parfums naturels qui se dégagent du coprs de la femme aimée. Ce qui frappe donc c'est le nombre très restreint des éléments corporels évoqués: cheveux, dents, bouche, sourcils, yeux. Visiblement le visage de la femme chantée apparaît comme le point de mire. Les régions érotiques dont on ne parle pas dans les poèmes, à savoir les hanches et les reins, c'est la danse qui permet de les mettre en relief. Ici, le geste prend le relai de la parole.

Les métaphores cosmiques et animales

Tout au long de cette approche de la littérature orale du Moyen-Atlas, nous avons constaté la présence manifeste des animaux et du cosmos. Que cela soit dans les chansons ou dans les contes, les animaux abondent et la nature dans toute sa diversité (rôchers, fôrets, fleuves, sources, montagnes et plaines) tous ces éléments interviennent soit pour être un refuge à l'amour, soit pour se dresser en obstacles infranchissables et freiner les désirs qui l'accompagnent.

Commençons par élucider les métaphores animales.
Toute la poésie orale est faite de comparaisons; on retrouve souvent des gazelles, des colombes, des pigeons mais également des animaux sauvages tels le lion, la panthère, le chacal et bien d'autres fauves éffrayants et dévorateurs.

Très souvent, pour décrire sa bien-aimée, le poète la compare à une colombe trempant son bec dans l'eau claire d'une source. Il fait indéniablement allusion à sa féminité, à son innocence et à sa beauté qu'il oppose à la laideur du corbeau qui est par ailleurs, le symbole du malheur.

«Est-ce que le corbeau
Peut espérer imiter
La démarche d'une colombe?»
disait Hammou ou Lyazid

C'est ainsi que dans la chanson berbère, la colombe symbolise les sentiments nobles et incarne la beauté physique et morale. La fidélité de la colombe est de loin exemplaire.

Cheikh El Ghazi Bennacer insiste sur cette qualité rare :

«Si tu m'apprivoisais comme on apprivoise un pigeon
Si j'avais une aile
Tu t'envoles, je m'envolerais avec toi».

L'image de la femme, nous la retrouvons métaphoriquement aussi à travers la gazelle:

«J'ai trouvé des gazelles au bord de mon chemin
Combien j'aurais voulu avoir un fusil»
clamait Moha ou Mouzoune

A côté de la colombe et de la gazelle qui représentent la beauté fugitive de l'amour, les poètes berbères mettent en relief la noblesse du cheval ainsi que la grâce de sa stature plantureuse.

«O jument noire aux flancs blancs
Combien j'aurais voulu te monter
O jument à la crinière dorée».

Ces vers peuvent s'adresser dans un premier lieu au cheval lui même qui représente beaucoup de choses dans la culture et la littérature berbère, mais ils peuvent suggérer l'image de la femme brune aux flancs blancs dont la poète est épris.

«Quand j'annonce à mon pied le départ vers l'aimée
Il marche au galop comme un cheval noir».

La chanson comme d'ailleurs le conte populaire, mettent en scène des animaux qui ont chacun sa particulrité; le lion pour sa puissance et sa majesté, le tigre pour sa férocité, le chacal pour sa ruse et sa malice, bref toute la faune est présente dans cette littérature orale. Pour mieux cerner la problématique, il nous semble plus fructueux de pousser l'analyse dans le sens de l'éthnobiologique et d'insister sur la manière dont les éleveurs de bétail et les paysans de l'atlas interprètent le monde végétal et animal qui les entoure. Autrement dit de dégager la signification culturelle de ces végétaux et de ces animaux, leur identification et leur rôle dans la vie matérielle et spirituelle des habitants de l'atlas. Si les poètes de l'atlas parlent des forêts, des ruisseaux, des arbres et d'autres éléments de la nature, c'est parce qu'ils les cotoient quotidiennement et les utilisent; l'arbre donne le bois, l'herbe sert à nourrir le bétail et l'eau des rivières à arroser les champs. D'où les nombreuses métaphores liées au terroir:

Ne compare-t-on pas la jeune mariée à *«la source*
Que l'herbe entoure
Qu'elle soit tel un peuplier
Qui donne l'ombre aux passants».

Nous comprenons donc après cette brève approche éthnobotanique et

éthnozoologique, que la flqre et la faune occupent une place de choix dans la production littéraire orale du Moyen-Atlas.

Conclusion

Telle est donc la chanson berbère dans ce qu'elle a de plus classique et de plus beau, car on assiste malheureusement ces dernières années à une métamorphose de la chanson berbère. La production littéraire a pris de nouvelles orientations:

On va de plus en plus de la chanson longue à la chanson courte on va vers le rythme rapide, vers l'intégration d'un nouveau lexique enfin vers l'arabisation de la chanson. Le phénomène Rouisha est une preuve convaincante. Parmi les facteurs qui ont entrainé ces changements, on peut mentionner entre autres, le désir de commercialiser ce produit littéraire et d'acquérir une vaste clientèle s'exprimant majoritairement en arabe. Seuls les initiés s'attachent encore à la chanson traditionnelle.

Après avoir constaté que l'invasion du monde moderne a appauvri terriblement la littérature du Moyen-Atlas, nous nous permettrons de poser une série de questions:

La littérature berbère peut-elle encore subsister et à quel prix ?

Y-a-t-il inadéquation entre la culture véhiculée en langue berbère et la vie moderne et urbaine ?

Doit-on moderniser la langue pour qu'elle puisse rendre compte des réalités actuelles et des changements intervenus?

Toutes ces questions restent ouvertes et je les soumets à votre appréciation.

La poésie orale du Moyen-Atlas fruste ou courtoise ?

PEYRON Michael
Faculté des Lettres-Rabat

On croit souvent que la production orale poétique du Moyen-Atlas se limite à quelques couplets aux assonances un peu faciles qu'échangent entre eux de rudes bergers réunis le soir autour du feu de camp. En attendant la prochaine fête, où, en compagnie des femmes, on rivalisera d'imagination, voire d'improvisation, tant du point de vue chant que du point de vue accompagnement musical: tambourin, violon ou flûte.

Vision un tant soit peu réductrice que ma communication se propose de modifier. S'il est exact que certains refrains et couplets courts semblent ne refléter que cette grivoiserie bruyante, voir bon enfant, que l'on associe communément aux fête campagnardes. La poésie orale s'octroie, par ailleurs, de véritables titres de noblesse.

L'existence même de cette poésie ne traduit pas forcément une licence de mœurs extravagante. Même si de petits centres bien connus comme Aïn Leuh, Bou mia et Tighessaline ont acquis une certaine notoriété, dont souffre la réputation du Moyen-Atlas dans son ensemble, cette production orale assure avant tout un rôle d'exécutoire. Les situations imaginaires évoquées ne doivent pas être prises comme étant le reflet fidèle d'un quotidien réel où liaisons et brouilles entre amants seraient monnaie courante. La morale communentaire trouverait d'ailleurs à y redire. D'autant plus qu'en dehors des périodes de fêtes, ce ne sont que les jeunes, garçons et filles, qui prononcent ces couplets, et encore se garde-t-on bien de le faire en présence des parents. Il est certain, en revanche, qu'entre eux ils se défoulent à l'occasion de nombreux petits récitaux impromptus.

Etant donné le peu de temps dont je dispose, je laisserai de côté les œuvres longues — chants religieux et chansons-gazette, ou timdyzin — pour ne me consacrer qu'aux couplets et strophes plus courts.

On en distingue essentiellement deux types: l'izli et la tamawayt. Le premier représente le couplet, on distigue, de base. Il est de longueur variable, chaque type comportant quelques refrains à la mode dont on ne saurait le dissocier. Ce sont d'ailleurs ces derniers que l'on entend le plus fréquemment, grâce à la radio. En voici deux exemples.

— awiyat-i ger s amazir n-usmun-inu
ad-ra3ax, ad-ra3ax is-as d-iusa !

Emmenez-moi vers le campement de mon ami
Que je voie, que je voie si celà lui convient!

— asi rrhil-ens, a wa, asix winu dar-as
max is-du-bettun ayt-tidukkla, a wenna rix ?

Change donc de bivouac et je viendrai camper devant toi.
Pour quoi les amis vivraient-ils séparés, ô mon amour ?

Quant à la tamawayt, il s'agit d'une forme plus raffinée. Il s'agit d'une strophe modulable de longueur variable, obéissant à un agencement qui diffère selon le contexte, contenant des vers incisifs, à caractère courtois ou didactique, exprimés dans un langage recherché où foisonnent les termes anciens. L'étude de la tamawayt, que j'ai entrepris ces dernières années dans les régions de Tounfit et de Mrirt, entreprise passionnante, débouche sur un paysage poétique idéalisé, sur une matière aux qualités sonores agréables, au symbolisme recherché, et où l'écart entre le signifiant et le signifié, perceptible aux seuls initiés, s'avère parfois sensible.

Un paysage poétique idéalisé

Pour bien comprendre la poésie orale chantée du Moyen-Atlas, il s'agit de cerner le paysage idéalisé qu'elle renferme. Il s'agit, bien entendu, d'une spatialité irréelle, hors du temps, mais présupposant, outre la bienaimée et son amant, un certain nombre de protagonistes, plus ou moins hostiles à cette union qui est d'ailleurs reconnue comme étant éphémère par excellence.

Ce sont d'abord les parents, représentés comme des personnes ne comprenant rien aux problèmes des jeunes, (c'est vraiment un archétype universel!) et apparemment insensibles à la notion du parfait amour. Deux distiques (izlan) illustreront notre propos:

- a mais d ibbas, hiddat i wayd rix !
mgar turum nekk ay tt isegman

O la mère, ô le père, laissez donc ma bien-aimée,
Même si vous l'avez enfanté, c'est moi qui l'ai élevée.

— may rix lissi, a baba, ula sa n-teguri ?
rix tiqsmirin nna itgima wenna rix ?

A quoi bon le lycée, ô mon père, ou les études ?
Je n'aspire qu'aux petites roches où m'attends celui que j'aime!)

Deuxième personnage-clef, l'émissaire ou envoyé (amazan), qui, bien qu'étant sensé assurer l'intermédiaire entre les deux amoureux, est trop souvent à l'origine de malentendus pouvant aboutir à une brouille quand il ne reprend pas tout simplement l'idylle à son compte en courtisant lui-même la belle, par exemple. C'est dire qu'il a très mauvaise presse, ainsi que nous le rappelle ce refrain:

— illan way nhubba i tmazirt nna ur-itekka udar
ula kkan imazan tama-ns !

Mon amoureux existe dans un pays que ne foule aucun pas
et où les envoyés ne passent point à ses côtés!

Car l'amazan peut devenir jaloux, rejoignant alors une catégorie plus large, les im3idan (envieux ou médisants) qui, au courant de la liaison, ne connaîtront de repos que lorsqu'ils y auront mis fin. Ils sont souvent évoqués:

Voici deux strophes (timawayin):

— iwa, ata yasmun nnan-i im3idan temmud
awix-ed elsettan, afex-s id ar-ttersaqd!

O toi, l'ami, les envieux m'ont annoncé ta mort
J'ai apporté le suaire, je t'ai trouvé menant joyeuse vie!

— a yasmun, l3ar-ens diyi, l3ar-inu afella-nes;
ran-ax im3idan bettu-nes !

O ami, prends soin de moi comme je prends soin de toi;
les envieux souhaitent notre séparation!

Dernier protagoniste — le successeur auprès de l'amant ou de la belle. C'est une préoccupation moins pressante, mais qui exerce tout de même une certaine fascination.

Dans l'izli suivant, la belle souhaiterait que son ex-ami, pour lui faire honneur, ne s'affiche pas en compagnie d'une laideronne !

— A yasmun nna yumenex, id imsis ayd wattex ?
a yas tzenzid-i gas ad-ur esserx-as taman!

O ami, en qui j'ai eu confiance, est-ce là ta considération ?
Tu m'as vendue, n'est-ce pas, alors ne me dévalorise pas !

Un autre couplet trahit, par-delà la mort, une inquiétude peut-être plus profonde:

— a wayd immuten yumayn i3yd idder
aha d'ikka ad-yannay ma d'itmun way nhubba ?

si je pouvais mourir deux jours et revenir à la vie
Puis passer voir en compagnie de qui se trouverait mon (amoureux)

Les qualités sonores

Pour être appréciée une poésie se doit de présenter une sonorité agréable à l'oreille. C'est le cas de la production du Moyen-Atals. Si les rimes externes que l'on a coutume de trouver dans la poésie européenne sont relativement rares, par contre, les rimes internes à base d'assonance abondent, dont voici quelques exemples:

Une tamawayt

- a yay d-izran izri-yi d usmun irzan
ammiy bnix agadir n-taddart itattil

O malheur de moi, mon amoureux m'a occasionné des déboires
Semblables à la chute d'un mur édifié de mes mains!

Un izli

— a was yurun a sa urba day semmasen tasa
adday da-iturar i-taddart, ammiy nemharas!

Si je t'avais enfanté, ô petit garçon, puis nommé cœur
En te voyant jouer à la maison cela m'eut rappelé l'étreinte (de mon amoureuse !)

Un exemple, aussi, de rime externe, dans l'izli suivant :

— kkix (d) tama-n3ari slix i sa da-ttrun,
tenna-yi tasa-nu, a yaytma, bar id asmun !

En passant auprès de la forêt j'ai entendu quelqu'un pleurer,
Mon cœur m'a dit, ô mes frères, peut-être est-ce mon amour !

Le symbolisme

Les images sont parfois fort plaisantes, bien souvent recherchées, mais leur compréhension reste à la portée de tous, en général, comme dans les izlan suivants:

— am udfel illan i l3 amud ayd yix.
ar iyi ssamum wenna rix am uzal !

Je suis pareil à la neige qui séjourne dans les ravins,
Telle la canicule, celle que j'aime me fait fondre !

— matta ibrossi tiyyid it, a wayd rix ?
ammiy menakar bu 3 ari d-unezdam !

Quel procès m'as-tu dressé là, mon amour ?
C'est comme la recontre du forestier et du ramasseur de bois !

— yix sezert in uhbib azdid,
adday iders gifi i3zib-i lhal !

Je sers de perchoir à mon oiseau d'amour;
Lorsqu'il se pose sur moi il me fait plaisir !

Le signifiant et le signifié

J'ai choisi dans mon corpus une dizaine de strophes du type tamawayt que je me propose de présenter et interpréter. C'est sans conteste la forme la plus belle de toute la poésie orale du Moyen-Atlas. Déclamée tout en marchant à travers la campagne, ou exécutée sous forme de lwayt («appel») en tout début de soirée, par son côté impersonnel, indirect et dénué de toute grossièreté, elle permet au dialogue de s'établir tout à fait convenablement entre deux jeunes gens qui se courtisent. Il est possible d'affirmer que l'on se trouve en présence d'une véritable poésie courtoise berbère. La tamawayt suivante résume parfaitement cette notion, basée avant tout sur la finesse et la discrétion.

— adday da-derx i-titt wenna g-illa (n) ul
k-ad-issin ma as ennix qebl ad-its nsiwl!

Lorsque je baisse la paupière, celui au cœur sensible
Comprendra ce que je cherche à lui dire avant même que je ne parle !)

Ainsi que nous le constaterons d'après les exemples ci-après, cette poésie fait appel à une certaine connaissance du support contextuel à défaut de quoi on risque de n'y rien comprendre.

— nekkin d-aberrani gg wedex ad iyi ineg sa
xf uhezza n-titt; innin-as lhub axf immuten?

Moi l'étranger, je crains que l'on me tue
Pour une œillade les gens diront: «C'est d'amour qu'il est mort !»

Un étranger traversant un village craint de lever les yeux sur les jolies femmes de peur qu'un mari jaloux ne le tue !

— a yazmil, tiyyid-it, a tuga; mes eddix s-ameddakwl,
innix-as (en nhessa-d i-tfunast !

Quel plaisir m'as-t-u fait, ô herbe, si je me rends chez
mon ami, je dis à mes parents que je fauche de l'herbe pour la vache!

Cette tamawayt rappelle que pour bien les jeunes filles la corvée d'herbe est vue avant tout comme étant une bonne occasion de se rapporcher de la maison de l'être cher.

a yirden n'-uzagar, ur id is txxam
taggurt ur-guri allig ur kun silex !

O blé de la plaine, ce n'est pas que vous soyez mauvais,
Je ne dispose point de fonds pour vous acheter!

Un montagnard indigent épouserait bien une jolie citadine de la plaine, mais sa bourse n'est pas assez garnie pour couvrir les frais du mariage.

rix ak salex, sai (i) iselli nna d ikkan aksar
is da ittagul ad-iggaf i-asawn?

Je désire te questionner; demande à la pierre qui a roulé
sur la pente si elle cherche à revenir pour remonter?

Le message est assez clair. Un amoureux éconduit cherche-t-il après coup à retrouver les faveurs de sa belle ? On admirera le vocabulaire, puisé parmi les termes ayant trait à la topographie montagneuse des locuteurs du Moyen-Atlas.

— ikka-d guri 3ari, ikka-d assar,
ikka-d umariy igenna, iuzen-t-id usmun-inu !

L'amour m'est venu par la montagne, par la plaine,
Par le ciel, c'est mon amoureux qui me l'a envoyé !

Même remarque pour cette tamawayt où l'amour prend une substance véritablement tri-dimensionnelle.

ag-as zemert, ag-as rabuz, sud-as;
xar-as at-tgussed, han aberrad ur-s-iwalf !

Tiens, fait bouillir le thé, prends le soufflet, active-le;
Attention tu vas te brûler, la théière n'est pas habituée à toi

Cela s'adresse à une jeune femme qui, désirant se marier, ne connaît que bien mal l'art de tenir une maison, de préparer le thé, service que son futur mari risque de lui réclamer en premier lieu.

Les rôles sont renversés dans la strophe suivante:

ar-itrun na3na3 id enn ag ider ifassen
i wenna ur-as-ssinin, axxub ay tt enn yag !

La menthe va pleurer le jour où elle va tomber entre les mains
de celui qui ne sait pas s'en servir; le chagrin va la tuer!

La jolie femme un peu fragile, telle la menthe qui nécesite que l'on prenne soin d'elle, va souffrir lorsqu'elle se trouvera mariée à un mufle.

— mims ittegga wul n-wedda iseksiwn
imetti n-tament ? idda umxxib ur-telligen !

Qu'a-t-il donc au cœur celui qui observe
le miel pur ? Le mufle s'en va sans goûter !

Dans le cas présent, la jolie femme s'indigne de ce qu'un prétendant éventuel se soit présenté sans poursuivre plus avant sa court. imetti-n-tament, le miel à l'état pur, symbolise ici la beauté parfaite.

Une autre tamawayt cherche à établir un parallèle avec le monde des animaux:

— May d'as t inix dgi yur guri gas aserm am wussen;
da-tegg wedx ad-emuttex qifs!

Que dois-je te dire à présent que je n'ai qu'un seul intestin
comme le chacal, je crains d'en mourir!

C'est la fringale d'amour. L'homme en question est un perpétuel affamé, comme le chacal dont la morphologie stomacale l'oblige sans cesse à chercher une proie pour la dévorer !

Poussé jusqu'à son paroxysme, l'amour peut faire naître dans les esprits des idées de meurtre, comme en témoignent les deux strophes suivantes:

— wenna iregwin aman igr-i d'usmun-inu
a wa kksa u rebbi, izguran i uskelu ens

Celui qui remue l'eau entre moi et on ami
Enlève lui, ô seigneur, les racines à son arbre !

Ces paroles imagées sont à l'intention de quelque amzan qui a réussi à faire naître un malentendu entre la belle et son galant.

-a wa g i3mmer attay s-tadunt n-ifiger
ad-diye3 awrag is-as i uhbib-inu at-isew !

O si je pouvais préparer du thé avec de la graisse de vipère
Jusqu'à ce qu'elle tourne au jaune et le donner à boire à mon amoureux!

Dans le cas présent, la femme éprouve pour son ami une telle passion, qu'elle envisagerait de l'emploisonner plutôt que de permettre à une rivale de le lui enlever !

Après ces nombreux exemples tirés de timawayin, je reviens à un izli que j'ai entendu tout dernièrement et qui traduit bien l'écart entre le signifiant et le signifié.

— ssuf ay (d) hadig dra alliy iwezd ad-iwrig
gas yuk en yid ayd huwig izela3-t ubulxir

Regarde combien ai-je surveillé le maïs jusqu'à ce qu'il soit prêt à mûrir
Il a suffi d'une nuit d'inattention pour que le sanglier vienne tout ravager!

Le message initial, facilement perceptible, reflète une vérité quotidienne qu'éprouve bien des imazigen: de nuit les sangliers ravagent leurs récoltes mais, devant l'interdiction de chasse imposées par le Forestier, l'homme est réduit à camper sur place en allumant des feux, ou en faisant du bruit lorsque les bêtes noires sont annoncées. Dans notre couplet, en revanche, le champ de maïs est une jolie jeune fille que notre homme convoitait depuis belle lurette. Il lui a suffi d'une nuit d'inattention pour qu'un rival la lui ravisse !

Conclusion

Je pense qu'il faut à présent conclure. Par le biais des quelques exemples concrets que je viens de vous présenter, je pense avoir démontré que la poésie orale du Moyen-Atals est digne d'intérêt. La richesse de son symbolisme et de son vocabulaire, circontancié par excellence, allant de pair avec l'aspect indirect

de son énoncé, contribuent à lui donner une tournure indéniablement courtoise.

Elle mérite d'autant de retenir l'intérêt du chercheur que ses origines remontent à un passé fort lointain. Elle a dû fleurir sous sa forme première à une époque contemporaine de celle des bardes celtiques. Elle, a assurément, devancé de quelques siècles les premiers troubadours acquitains. Qu'elle ait pu survivre, pratiquement inaltérée, juqu'à nos jours est un gage, à la fois de son dynamisme, et du rôle culturel important qu'elle continue de jouer au sein de la communauté des imazigen au Maroc. J'irai jusqu'à dire que cette longévité est de bonne augure pour l'avenir. La poésie orale du pays amazig a encore de beaux jours devant elle.

التداخل اللهجي
في مدينة مكناس

الاستاذ عبد العزيز العماري
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكنـــاس

يتناول العرض الموجز الذي سأقدمه، كمساهمة متواضعة، في «ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى» موضوع «التداخل اللهجي في مدينة مكناس»، ويتضمن عدة تساؤلات سأحاول الاجابة عنها.

إن مايمكن ملاحظته، بسهولة، هو أن سكان مدينة مكناس يتكونون، حاليا، من أصليين (ويشكلون، اليوم الأقلية) ومن وافدين من جهات مغربية مختلفة (ويشكلون، اليوم، الاغلبية).

ولاشك في أن الوافدين حملوا معهم لهجاتهم وفي أن الأصليين متمسكون بلهجتهم غير أننا سوف نرى أن هذا التمسك لن يصمد طويلا لأسباب سنذكرها في موضع لاحق من هذا العرض.

وعلى ضوء هذه المعطيات، هل يمكن الحديث عن لهجة مكناسية مشتركة ؟ لايمكن تأكيد ذلك أو نفيه إلا إذا قمنا بتفييىء المستعملين الذين نفترض أنهم مسؤولون عن وضع مثل هذه اللهجة.

إن المستعمل لابد أن يكون إما :

1) من سكان مدينة مكناس الاصليين (ولد في مكناس من أبوين أصليين، مع مايكتنف صفة «أصلي» من صعوبة على مستوى التعريف).
2) أو من مواليد مكناس ومن أبوين وافدين (أو أحدهما أصلي والآخر وافد). هنا تعترضنا مشكلة تحديد معايير أقدمية الوفود.
3) أو وافدا وله أقدمية كبيرة في مكناس
4) أو وافدا وله أقدمية متوسطة أو قصيرة المدى.
5) أو مسنا، أو شابا، أو طفلا، أو ذكرا، أو أنثى.
6) أو مثقفا، أو غير مثقف.

يمكن إضافة تفييئات أخرى، لكننا نميل إلى الاختصار لضيق المجال.

إذا تأملنا هذا التفييىء (الذي لا أعتبره نهائيا)، فإننا نسمح لأنفسنا بالافتراضات التالية :

1) ان الشخص المسن الوافد إلى مكناس يبقى محتفظا بلهجته الاصلية، ولا يتأثر باللهجات الأخرى.
2) أن الشباب والاطفال، الوافدين والاصليين، الذين لا حظ لهم من الثقافة يحتفظون، أيضا،

بلهجاتهم، لكن مع امكان أن يتأثروا بلهجات غيرهم بكيفية تدريجية وبطيئة.

3) أن الشباب والاطفال المثقفين (أي الذين لهم حظ من الثقافة بمعناها الواسع بفضل التمدرس) مهيؤون، أكثر من غيرهم، للتأثير والتأثر.

وقد أثبتت عدة بحوث ميدانية (هي عبارة عن استجوابات في عدة اعداديات وثانويات، وفي بعض المحلات التجارية) بعض هذه الافتراضات.

قد يتبادر إلى الذهن التساؤل التالي : مامدى تأثير لهجة السكان الاصليين في لهجات الوافدين ؟ لكن، أليس من الضروري أن نعكس التساؤل ليكون كالتالي : مامدى تأثير اللهجات التي حملها الوافدون معهم في اللهجة الاصلية ؟

إن السؤالين، معا، مشروعان، وسنحاول الاجابة عنهما. لكن قبل ذلك، لابد من تصحيح اعتقاد خاطىء ظل شائعا، ويتمثل في اعتبار اللهجة المكناسية لهجة «الزأزأة» (نطق الجيم زايا) و«الجأجأة» (نطق الزاي جيما)، و«السأسأة» (نطلق الشين سينا) و«الشأشأة» (نطق السين شينا). لكن الواقع الحالي (لان مايهمنا هنا، هو المنظور الساكروني لواقع لهجي موجود) يدعونا إلى إعادة النظر في بعض الأفكار المسبقة الناتجة عن ملاحظة غير موضوعية.

إن هذه الظواهر الصوتية كانت، فعلا، طاغية في الاستعمال عند بعض السكان الاصليين وعند بعض الوافدين ممن تأثروا بها. لكن هذه الظواهر في طريقها نحو الانقراض، حتى بات من الصعب العثور، في أحياء مختلفة من مكناس، على ناطقين بها. وقد تأكد ذلك عن طريق بحث ميداني أجريته في عدد من أماكن التجمعات (المقاهي ـــ الشارع، المؤسسات التعليمية).

صحيح أن بعض الاحياء في مكناس مازالت تعرف هذه الظواهر الصوتية (أكدال، قاع وردة ـــ الروامزين...)، ومع ذلك فإن استعمالها ليس عاما في هذه الاحياء.

أما في كثير من الاحياء الجديدة نسبيا، وعددها يفوق بكثير عدد الاحياء القديمة، فإن هذه الظواهر الصوتية قليلة الاستعمال.

هذا ماتأكد من خلال بحث ميداني، وإن كان محدود المجال فقد أكد لي عدد من الاساتذة في ثلاث اعداديات وثلاث ثانويات ان استعمال هذه الظواهر الصوتية ضئيل جدا، ولايتعدى تلميذا واحدا في القسم، بل إن من الاقسام مالا يوجد بها تلميذ يسأسيء أو يجأجيء.

قد يتساءل البعض عن سر التخلي عن هذه الظواهر الصوتية أو عن سر انقراضها التدريجي. إن الاسباب متعددة نذكر منها :

1 ـــ اقتناع المتكلم المكناسي المعاصر بأن هذا الاستعمال غير مرغوب فيه لانه يشوه الدلالات ويثير السخرية (وهذا تفسير سوسيو ـــ لساني).

2 ـــ سهولة تصحيح هذا الخطأ ذي الطبيعة الصوتية ولاسيما عند الشباب والاطفال الممدرسين (هنا تجدر الاشارة إلى الدور الكبير الذي تلعبه المدرسة في هذا المجال).

3 ـــ التأثر باللهجات المتواجدة في مدينة مكناس (ولنا عودة إلى هذه النقطة).

إذا سلمنا بهذه الملاحظات، سهل الاقتناع بأنه لم يبق للهجة المكناسية القديمة ميزة صوتية خاصة تؤثر بها في لهجات الوافدين، حيث أصبحت (أو هي في طريقها نحو ذلك) لهجة عادية قابلة لان تؤثر وتتأثر.

تدفعنا هذه الملاحظات إلى افتراض مايلي :

1) إن الحديث، اليوم، في ظل الوضعية الحالية، عن لهجة مكناسية مشتركة ناشئة عن التأثير المتبادل بين اللهجات المتواجدة أمر ممكن.

2) إن اللهجة المكناسية المفترضة ناتجة، أيضا، عن تأثير الجو الثقافي السائد (الراديو ــ التلفزة ــ الصحافة ــ المدرسة)، هذا النوع من التأثير ينطبق، أيضا، على كل اللهجات المغربية.

3) ان التأثير الثقافي ساعد على تهذيب اللهجات، مما جعل كل لهجة تقبل أن تعطي ماتحتاج إليه اللهجات الأخرى وأن تتخلى عن كل مالا ينسجم مع اللهجة المشتركة أو عن ما لا نفع فيه لها.

4) ليس معنى هذا أن الوافد أوالاصلي يشعر بعملية التأثير والتأثر،فكل عمل من هذا القبيل يتم لا شعوريا.

5) هذا التأثير والتأثر هو مانسميه بالتداخل اللهجي، وهو عبارة عن تفاعل بين اللهجات يكون من ثمراته انتاج لهجة مشتركة.

6) لا يهمنا أن تكون لهجة أكثر تأثيرا من اللهجات الأخرى، أي أن تعطي أكثر مما تأخذ.

يمكن أن نتأكد من صحة هذه الافتراضات من خلال الملاحظات التالية :

إن المكناسيين لا يحسون، اليوم، في أماكن التجمع المختلفة : المقاهي، الشارع، المدرسة... إلخ، بأية صعوبة في التفاهم والتواصل فيما بينهم، بل إنه من الصعب على الباحث أن يكتشف، من خلال التخاطب التلقائي بين المكناسيين (المثقفين من الشباب والاطفال على الخصوص)، الجهة الجغرافية التي وفد منها المتكلم (إذا كان وافدا) أو اللهجة الاصلية التي ينتمي إليها.

هذا ما أكدته بحوث ميدانية بالرغم من محدوديتها.

يمكن التأكد من هذا التداخل اللهجي على جميع المستويات : الصوتي والمعجمي والتركيبي.

1 ــ المستوى الصوتي :

إذا سلمنا بفكرة أن الظواهر الصوتية الشاذة التي ذكرنا (الزأزأة، السأسأة، الجأجأة والشأشأة) في طريق الانقراض، فإننا لن نحتاج إلى إدراجها في إطار التداخل الصوتي، فالمتكلم المكناسي ينطق، حاليا، بالفونيمات التالية : ,/S/, /S/, /z/, /Z/ (ز، ج، س، ش) نطقا عاديا.

هذا الحكم العام فرضه الواقع اللهجي وعززه البحث الميداني، وهو حكم يتناقض مع ماتعود عليه الملاحظ العادي الذي لايستطيع التجرد من فكرة لاصقة بذهنه.

إذا سلمنا بهذا الحكم، تمكنا من ملاحظة التداخل الصوتي على مستوى نطق الفونيمات المستعملة. وسنكتفي، لضيق الوقت ببعض الأمثلة التي اخترناها كنموذج :

أظهر بحث ميداني (معتمد فيه على استجواب أكثر من 1000 شخص من مختلف الفئات) أن اللهجة المكناسية استقرت، أخيرا، على استعمال /qaal/ (ݣال) بدل /qaal/ (قال). معنى هذا أن الفصحى، هنا، لم تؤثر في اللهجة المكناسية. ومع ذلك، يوجد بعض الناطقين بالقاف (قال). ليس معنى هذا أن /q/ (ق ينطق، دائما، /g/ (ݣ)، فالمكناسي ينطق /qalb/ (قلب) لا /galb/ (ݣلب) أن الفونيمين مستعملان معا في اللهجة المكناسية. لكن المعجم (Lexique)، الذي تم انتقاؤه من هذه اللهجة

أو تلك، هو الذي يحدد /q/ أو /g/، فاستعمال كلمة «قَلْبْ» تفرض النطق بـ /q/، وكذلك /qolla/ (قلْهُ)، مع العلم أن الاصل عند بعض الوافدين هو نطقها بـ /g/ (گ) ـــ /galb/ و/golla/. وهذا تصرف ينسجم مع قانون التأثير والتأثر.

2) المستوى المعجمي :

تتوفر اللهجة المكناسية الحالية على معجم مشترك بين الوافدين والاصليين. تنطبق هذه الملاحظة على الكلمات المتداولة في العمليات التواصلية، حيث يندر استعمال الكلمات المترادفة.
يمكن أن نلاحظ، مثلا، وجود معجم موحد لاسماء المواد الاستهلاكية. فكلمة «لقامه» مستعملة أكثر من مرادفتها : «نعناع»، بالرغم من أن هذه الأخيرة تبدو أصلح للاستعمال لمالها من دلالة معجمية واضحة، بينما الاولى فرضت نفسها بالرغم من غموض مصدرها الدلالي والمعجمي، ويكثر استعمال كلمة «القنارية» وتأتي كلمة «الخرشف» في المرتبة الثانية من حيث الاستعمال.

هذه الامثلة لاتكفي لاصدار حكم قاطع، ولكنها ذات قيمة بالنسبة لما نحن بصدده...

3) المستوى التركيبي :

على المستوى التركيبي عرفت اللهجات المختلفة تهذيبا بفضل التفاعل بينها وبفضل تأثير الصحافة والاذاعة والمدرسة، فنتج عن ذلك توحيد للاطارات التركيبية.

ففي حالة النفي، مثلا، يعبر بطريقة واحدة :

ـ ماجاشْ ـــ ماخرجْشْ ـــ ماعَرفْشْ

وفي حالة الحصر يعبر بطريقة واحدة كذلك :

ـ ماجا غير واحد ـــ ماحضر غير محمد

ويعبر، في حالة الاستفهام، بطرق تختلف فيما بينها قليلا، لكن ذلك الاختلاف لا يعدو أن يكون نوعا مما يسمى بـ «المتغيرات» أو «البدائل» (variantes). وهكذا نلاحظ، مثلا، الاستعمالات التالية :

أ ـ آشْ بغيت ؟ ـــ ب ـ آشنوبغيتْ ؟ ـــ ج ـ آشنوبغيتِ ؟

وقد أكد بحث ميداني أن التعبير (ب) أكثر استعمالا من (أ) و(ج)، وأن التعبير (ج) يأتي في المرتبة الثانية من حيث الاستعمال.

هذه الامثلة التي سقنا لا تكفي للخروج بنتائج احصائية دقيقة وشاملة تكون بمثابة قوانين نهائية، لأن العرض نفسه ماهو إلا مقاربة متواضعة لموضوع شائك تحتاج الاجابة عن التساؤلات التي يطرحها إلى بحث جاد ووقت طويل.

وإذا قورنت اللهجة المكناسية، اليوم بكثير من اللهجات في مختلف الحواضر المغربية، خصوصا إذا ألغينا من أذهاننا الظواهر الصوتية الشاذة، فإننا نجدها أكثر بساطة.

والبساطة تعني، هنا، سهولة تبنيها من طرف كل مستعمل مغربي، لأنها لاتشتمل على خصائص صوتية أو معجمية أو تركيبية معقدة أو شاذة. هذه النتيجة أكدها، أيضا، بحث ميداني.

التقريـــر الأدبـــي للنـــدوة

الأستاذ علال الحجام
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
مكناس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله خاتم المرسلين
سيدي العميد
سيدي رئيس المجلس العلمي
زملائي الأساتذة
معشر الطلبة والطالبات
أيها السادة أيتها الأوانس والسيدات

نود الاشارة في البداية الى أن اللجنة التنظيمية بعد مناقشات طويلة ارتأت من الضرورة الاستغناء عن فكرة التقرير العام المفصل والاستعاضة عنه بتقرير الكشف والتسار، وذلك لأسباب منها :

1 ـــ أن النودة اتسمت بتعددية واسعة في اللغات والخطابات من الصعب على أي واحد أن يتملكها ويحيط بها جميعا، فهي فسيفساء فكرية لايمكن إدراكها بهذه السهولة.

2 ـــ أن التقارير التي أعدها الأساتذة المقررون هي أيضا لاتشذ عن هذه التعددية، مما يجعلها لغات مختلفة، يتعين على قارئها الامساك بأسرار مرجعيتها لفهم مصطلحاتها وجوهرها.

3 ـــ أن الاشكالية المنهجية في تمايز الحقول المعرفية المختلفة تفصح عن نفسها في هذه الندوة، لتؤكد بشكل لا يدع مجالا للسجال والجدال أن عمليات الاسقاط بشتى ألوانها لاتصح في غياب شروط وجود هذا المنهج أو ذاك.

تحكي الأسطورة أن بروكوست قاطع الطريق الشهير، كان يخضع أسراه لعملية تشويه بشعة، وذلك بتخصيص سريرين أحدهما طويل يضع عليه الأجسام القصيرة فيقوم بتمطيطها، والثاني قصير يضع عليه الأجسام الطويلة التي ينقص من طولها حتى تساوي طول السرير، وفي كلتا الحالتين يبقى التشويه جوهرا بروكوستيا أساسيا.

من هذا المنطلق، نريد تجنب تقديم تقرير عن الندوة هو بمثابة تحصيل الحاصل، والحال أن التخليص تلخيص غير آمن؛ لأنه يخضع المادة المقدمة طيلة أربعة أيام، أي الجسم الطويل، الى اقتطاع على سرير بروكوست، لكي تدخلوا في الوهم وتطمئنوا وندخل سكونيتنا فنخضع أنفسنا نحن أيضا الى سلطة بروكوست، وخوفا من عملية التشوية هذه، لا نسمح لأنفسنا إلا بالانطلاق من وصف سريع لأشغال

الندوة في أفق رصد معطياتها، لتأسيس تقاليد علمية ثقافية جديدة تضيء طريق النوايا الجميلة.

وفيما يلي بعض المعطيات التي نسوقها لخلاصات تسائل هذه الندوة ونمارس عليها النقد الذاتي ربما.

إن القضايا المطروحة جميعها، لتستدعي منها إعادة نظر عميقة في تحديد مفهوم العمل الثقافي المتميز بكونه مختلف الأنواع والأجناس، مما يفرض تحديد مفهوم للندوة نفسه.

1 ــ إن الندوة كما نعتقد في اللجنة التنظيمية هي قبل كل شيء، فرصة للقاء بين عدد من الكفايات العلمية لمطارحة موضوع واحد ومناقشته من طرف المشاركين والحاضرين، وهذا أمر يؤكد حوارا مفتوحا بين فعاليتين كل منهما تتكون من فاعلين اثنين : فالفعالية الأولى هي حوارية المشارك المتلقي كحوار مباشر أكثر اتساعا، والفعالية الثانية هي حوارية المشارك/المشارك، وهي قناة فتحت بين السادة الأساتذة المساهمين في الندوة في مختلف المحاور. إن هذه الطبيعة إذن لتجعل ندوة مثل هذه ذات مذاق علمي خاص، يحتم علينا محاولة إدراك الغابة : مكناس، دون أن نشرح بالضرورة جميع أفنان أشجارها واحد واحدا : أي التفاصيل ولعل هذا ما نجده في جميع العروض والمداخلات التي هدفت الى الاحاطة بالكل الشمولي، فذهب بها طموحها العلمي إلى تجاوز الوقت المحدد في بعض الأحيان ونحن واعون أن هذا لم يكن إلا نتيجة لطموح علمي نبيل من السادة الأساتذة المشاركين يحمد لهم بينما كان المطلوب هو عرض الخلاصات ومناقشتها.

2 ــ تلاحظ اللجنة التنظيمية أن المشاركة كانت متنوعة، إن على مستوى الاهتمامات والمشارب، أو على مستوى الجامعات والكليات، ولذا فإن أغلب كليات الآداب بالمغرب والمعاهد العليا بمكناس كانت ممثلة في هذه الندوة، إذ ساهم فيها أساتذة باحثون من : الرباط، فاس، المحمدية، البيضاء، أكادير، مراكش، ومكناس، مما جعلها فرصة للحوار، وتبادل الخبرات بين المشاركين ومؤسساتهم العلمية، وهو أمر لا يتاح إلا قليلا في نظرنا.واسمحوا لنا أن نستطرد قليلا في هذا الباب لنشر قضية اختيار المداخلات التي قد تساءل عدد من الأساتذة عن معاييرها لنؤكد أننا توصلنا بعدد كبير من المداخلات العلمية القيمة يغطي بالتقريب ندوة لا يمكن أن تتم الا في حدود ستة أيام مما دفعنا الى تحديد شروط للاسبقيات تركز بالأساس على مدى ارتباط المداخلة بموضوع الندوة أولا وبالمحاور المتصلة به ثانيا. لذلك لم ندرج عددا من المداخلات العلمية الجادة من بينها مداخلات بعض أساتذة هذه الكلية نفسها علما بكون طلبة هذه الكلية والجمهور المثقف بالمدينة على اتصال مستمر بأساتذة الكلية بمكناس من خلال مساهمتهم في تنشيط الحركة الثقافية داخل المدينة، هذا فضلا عن كون الندوة كما أعلنا في الافتتاح تعتبر بداية وليست نهاية.

3 ــ ولقد سجلت ندوة الحاضرة الاسماعيلية كثيرا من الفضائل، منها مشاركة ذوي التجربة والكفاءة من المسؤولين عن المصالح الادارية والتقنية الجهوية إلى جانب زملائهم الجامعيين للحوار والمناقشة وهو أمر غالب ما يغيب في مثل هذه الندوات، مما يعمق نرجسية الواحدية والمونولوجية، ويلغي بغير مبرر مبدأ التعددية والحوارية.

4 ــ إن من بين ما عملت الندوة على تحقيقه هو ربط البحث العلمي بالتنمية الوطنية والجهوية، حتى لايبقى البحث العلمي غارقا في ملوكته الخاص، ولذا، فإننا نعتبر هذه التساؤلات المهمة التي أثيرت في تظاهرتنا الثقافية هذه مادة علمية ينتظر منها أن تساهم فعلا في تحديد الأسبقيات التنموية للمنطقة الوسطى الجنوبية.

5 ــ لشد ما كان يخيف أعضاء اللجنة التنظيمية، أن تتجاور عدة حقول معرفية في ندوة واحدة، وقد كان أملنا هو أن تتكامل هذه الحقول فيما بينها، لاضاءة الموضوع ــ المحور «الحاضرة الاسماعيلية الكبرى» الذي يصعب علينا أن ندعي الآن وبعد أربعة أيام من المناقشة الاحاطة به من جميع جوانبه.

وهكذا تتأكد صحة الرؤية السابقة، فتتكامل المحاور فيما بينها لأننا حاولنا التعرف على الحاضرة الاسماعيلية واكتشاف عوالمها وعلاقاتها في إطار تصور شمولي يبدأ من حفريات المدينة ومنطقتها تاريخيا وثقافيا، ويصل إلى الراهن في إطار الابعاد السوسيو ـــ ثقافية، والمعطيات الاقتصادية والتنموية المرتبطة بها جدليا. وهي رؤية ما كان لها أن تتضح لولا إلغاء التجزيئية كهدف،وتشغيل شبكة من العلاقات تنسج الكُلّي الشامل.

هكذا يمكن اعتبار هذه الندوة تظاهرة ناجحة، ليس بمعنى أنها أجابت عن كل التساؤلات التي يطرحها موضوع الحاضرة الاسماعيلية الكبرى، وإنما بمعنى المساهمة في توليد التساؤلات الجوهرية التي ينطلق منها كل بحث علمي جاد وهادف، يفتح الآفاق واسعة لمضاعفة الجهد، وتقديم المزيد من البذل والعطاء.

ختاما، لابد من الاعتراف بالجميل لكل من له فضل في إنجاح ندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى، وما كان يكتب لها النجاح لولا تظافر جهودهم جميعا سواء أكانوا باحثين أو إداريين أو عمالا، ملقين أو ملتقين، ونخص بشكرنا السادة الأساتذة المشاركين، وعلى الأخص، أولئك الذين قطعوا المسافات الطويلة لكي يتيحوا لنا فرصة اللقاء والحوار والمطارحة، وليعتبروا جميعا أنهم انتسبوا الينا كما انتسبنا اليهم ونحن نوطد روابط علمية بمناسبة هذه الندوة.

واسمحوا لنا أن نشكر أيضا رجلا ملكت هذه الندوة عليه تفكيره ووقته هو السيد عميد الكلية الأستاذ عبد الحميد لطفي الذي لم يأل جهدا في تيسير مهام اللجنة التنظيمية ومساعدتها بخبرته وتجربته على حسن الاعداد والتنظيم.

وشكرا لكل من تتبع أشغال هذه الندوة، لأن الحضور مشاركة بالفعل، والى اللقاء في تظاهرة أخرى بحول الله ومشيئته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ مولاي مصطفى بن أحمد العلوي

رئيـس المجلـس العلمـي

بمكنـــــاس

بســم الله الرحمــن الرّحيـــم وصلّي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين وعلى آله وصحابته والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الاخوة الاعزاء السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته إنه لشرف عظيم أن يحضر الانسان هاته الندوة المباركة التي تسجل بها كلية الآداب والعلوم الانسانية هاته المكرمة التي تهديها لمدينة مكناس العزيزة والتي تمسح بها ما تراكم على تاريخ المدينة من غش وضباب كادت من كثافته تصبح نسبيا منسيا مع أن لها في ماضي تاريخنا البعيد والقريب ما تعتز به وترفع رأسها عاليا بين أخواتها من المدن المغربية العزيزة سواء في ميدان العلم والمعرفة أو في ميدان تخليد الحضارة بكل وجوهها وألوانها أو في ميدان الجهاد والكفاح من أجل الحفاظ على حرية المغرب ودوام استقلاله وفي فك أساره وانعتاقه. ولا أزيد على ما دبجه الأساتذة الدكاترة فيما أتحفوا به الحضور في هذا المدرج العظيم والحمد لله على عظيم توفيقه فمنه التوفيق ومنه السداد.

وكلمة قصيرة أضيفها الى هذا وأعلن لملائكم عن عظيم سروري واغتباطي بهاته الندوة المباركة التي سجلت في سجل التاريخ الذي لاينسى للمحسن إحسانه كما لا ينسى أن يسجل على المقصر تقصير.

وإذا أعلنت عن اغتباطي وسروري بهذا الذي رأيت وسمعت فلأنني حضرت ولله الحمد ميلاد هاته الكلية يوم ميلادها وكنت من الذين غمرهم عظيم السرور بتحقيق رغبة عريقة ترددت في نفوسنا منذ فجر الاستقلال وعندما رأينا جهات ومدنا من وطننا فازت بالسباق وأسست فيها كليات ثم جامعات وبقيت مدينتنا تنتظر حظها. كنا نتساءل ونتمنى وقد حقق الله الرجاء وها نحن نرى لا أقول كليتنا ولكن جامعتنا التي سيكتمل بحول الله جهازها بإنشاء كليات أخرى وأتمنى على الله أن تحقق الرغبة التي سبق أن تدارس المختصون أمرها ووضعوا ملفا يحتوي على حجج ومؤيدات لتكون بحول الله الكلية الثالثة ألا وهي كلية الطب بإذن الله تعالى. تتبعها كليات الى جانب المعاهد التي أسست للتعليم الجامعي والتي يتكون فيها أساتذة ومهندسون وهذا ما يفرح له المومن ويدعو الله لمحققيه بالتوفيق.

ولا بد أيها الاخوة أن أشير في الأخير الى أمر هام جدا ويجب أن يجعل في الحسبان ألا وهو أمر الثقافة الاسلامية التي هي رأس مال كل مغربي وبدونها لايمكنه أن يشعر بقوته المعنوية فنحن أمة مسلمة والمسلم لايمكن فصله عن عقيدته وعبادته وأخلاقه وسلوكه ولا يمكن أن يشعر بكرامته مالم يحافظ على هاته المقومات

ولا يدرك أهميتها في تكوينه ووجدانه إلا إذا كان على علم بها ومن هنا فإنه يجب على كل مثقف كيفما كان وفي أية شعبة اندمج أن يعلم بقواعد دينه وليس في ذلك ما يشغله عن تخصصه وتضلعه في نوع المعرفة التي يريد أن يمتاز فيها، وإنما هو الايمان الذي لايجوز أن يكون صحيحا إلا عن علم ولهذا والله أعلم أنشىء في كل كلية شعبة للدراسات الاسلامية لتكون هاته الدراسات وما يتعلق بها قريبة من طلاب التخصصات الأخرى وحتى لا تغيب عن الجميع وهي في حياتنا معشر المسلمين بمثابة الهواء للجسم ومعلوم أن الجسم لايعيش إلا في هواء نقي .

ومن التيسير على المندمجين في شعب المعرفة على اختلافها أن توجد دروس حرة تمكن الملتجئين إليها من قدر من المعرفة ضروري لحياة فكره الديني وروحه المومنة. وفي هذا الميدان أنشئت الكراسي العلمية في بعض المدن ومنها مدينتنا هاته وابتداء من غد الاثنين ستبتدىء الكراسي العلمية بالمسجد الأعظم بعد صلاة العصر وبين العشائين وسيدرس فيها تفسير الكتاب العزيز القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الى جانب الفقه المالكي وعلم الميراث والتوقيت والآداب العربي وعلوم البلاغة والنحو وأخيرا علوم القراءة فهي سبع كراسي سيتمكن الراغبون في الاستفادة منها من مشاهدة أزيد من عشرين درسا في مختلف هاته الفنون وسيكون مستوى الدروس رفيعا وفي مستوى جامعي وليس أسلوب الوعظ والارشاد.

كما يطيب لي أن أعلن ومعي رفيق وصديقي الأستاذ سيدي محمد العرائشي باب مكتبة الجامع الأعظم التي هو محافظها ومكتبة المجلس العلمي بالمدينة الجديدة مفتوحتان في وجه كل الطلاب والأساتذة للاستفادة بما فيهما من كتب في مختلف الفنون.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يرزقنا وإياكم التوفيق والسداد وأن يحفظنا في عقيدتنا وأخلاقنا وكل مقوماتنا الأخلاقية والأدبية والدينية وأن يلهم عاهلنا الحسن الثاني كل التوفيق حتى يسير بأمته في طريق الخير والسمو والنجاح وأن يقر عينه بطاعة شعبه وولي عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة السيد عميد الكلية
عند اختتام أعمال الندوة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

فضيلة العلامة مولاي مصطفى العلوي، رئيس المجلس العلمي
زملائي الاعزاء
سيداتي، سادتي

يسعدني ونحن على وشك اختتام هذه الندوة المباركة التي دامت أربعة أيام تخللتها عروض ومناقشات قيمة تشرف المشاركين وتشرف كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس كما يسعدني أن أنوه بجدية الأساتذة الباحثين ومختلف العاملين في قطاعات الادارة والانتاج وبالمستوى الرفيع للعروض القيمة التي قدموها وللنقاشات الرفيعة المستوى التي تلتها حرصا منهم جميعا على أن تبرز هذه التظاهرة العلمية كحدث علمي وثقافي متميز.

هذا ونعتز بالتفاعل الحاصل بين الكلية من جهة ورجالاتها من جهة أخرى، هذا التفاعل المثمر والخلاق الذي ساهم في خلقه السادة المتدخلون وعبر عنه حرص مدينة مكناس على تكريم العلم والعلماء اعترافا منها بالدور الفعال الذي يلعبه الباحث في الدفع بعجلة التنمية الى الأمام.

إن هذا التفاعل حصل كذلك داخل الكلية التي كونت لجنة تنظيمية نشيطة عملية دون كلل أو ملل في جو من الوئام والغبطة وسهرت على توفير الشروط الضرورية لانجاح هذه الندوة. ويسعدني بهذه المناسبة أن أقدم أصدق التهاني الى كل من ساهم في تنظيم هذه التظاهرة العلمية وأن أنوه بالدعم المادي والمعنوي الذي قدمته مدينة مكناس وعلى رأسها السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم مكناس كما أنوه بتشجيع علماء هذه المدينة وعلى رأسهم فضيلة العلامة مولاي مصطفى العلوي، رئيس المجلس العلمي.

وتقديرا من هذه الكلية لمجهودات كل الجهات التي عملت على إنجاح هذه الندوة نؤكد لكم عزمنا على طبع أعمال هذه الندوة قبل نهاية السنة الجامعية الحالية لابراز حصيلة كل هذه المجهودات المظفرة.

وقبل الاعلان عن نهاية أعمال هذه الندوة، يشرفني أن أقرأ على مسامعكم نص البرقية المرفوعة الى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني دام له النصر والتأييد.

مولاي صاحب الجلالة :

بمناسبة التظاهرة الثقافية الكبيرة التي عرفتها رحاب كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس حول موضوع «الحاضرة الاسماعيلية الكبرى»، ابتداءا من يوم الخميس 12 صفر الخير 1407 الموافق لـ 16 أكتوبر 1986 إلى غاية يوم الأحد 15 صفر الخير 1407 موافق 19 أكتوبر 86. يتشرف خادم الاعتاب الشريفة — أصالة عن نفسه، ونيابة عن أساتذة الكلية والمشاركين أن يرفع إلى سدتكم العالية بالله آيات الولاء والاخلاص متشبثين بنهجكم القويم، ومسترشدين بنصائحكم العالية، وتوجيهاتكم السامية التي ترفع من شأن الثقافة والمثقفين، وتفسح المجال لرجال التعليم للمساهمة في تنمية شمولية مرتبطة بأصالتنا، وتراثنا الزاخر، والغني بالامجاد والاعلام الذين صنعوا العبقرية المغربية الاصيلة.

لقد تناولت هذه التظاهرة — يامولاي — محاور تاريخية وجغرافية، واقتصادية وثقافية وفنية ساهمت كلها في إغناء البحث العلمي جهويا ووطنيا لابراز حضور الحاضرة الاسماعيلية الكبرى في الشخصية المغربية.

أدام الله العز والنصر لمولانا أمير المؤمنين حامي حمى الملة والدين، وأطال عمر جلالة الملك الحسن الثاني المحفوظ بالسبع المثاني، وأقر عينه بولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه مولاي رشيد وحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم. في أسرته العلوية الشريفة. وأبقاه الله حصنا حصينا، ودرعا واقيا للبلاد والعباد حتى يحقق النصر، والرفعة والتقدم لامته انه سميع مجيب.

والسلام على المقام العالي بالله

خادم الاعتاب الشريفة

إمضاء : عبد الحميد لطفي

عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية

بمكناس

صـدر ضمـن منشـورات الكليـة

1 ــ مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس

2 ــ مكناسة

3 ــ بيبليوغرافية مكناس

4 ــ «دليل» الأيام التشكيلية الأولى

5 ــ Littérature maghrébine d'expression française de l'écrit à l'image

الفهرس

المحـــور التاريخـــي

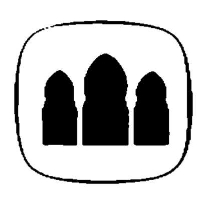
محـــور الثقافـــة والفنـــون والآداب

مطبعة المعارف الجديدة
☎: 707-08.09.15.38 الرباط

Directeur : Abdelhamid Lotfi
Doyen

Adresse : Faculté des Lettres et des
Sciences Humaines
B.P. 4009 Meknès/Maroc
Tél : (05) 249.29/245.83

I.S.S.N 0851 2086



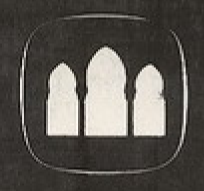
Université Sidi Mohamed Ben Abdellah

Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Meknes

actes du colloque

du grand meknès

1988



Université Sidi Mohamed Ben Abdellah

Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Meknes

actes du colloque

du grand meknès

1988